سراج الطالبين

شرح

الشيخ إحسان محمد دحلان

الجمفسى الكديرى

على

منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين

للإمام حجة الإسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

(تمتاز هذه الطبعة بوضع كتاب منهاج العابدين
مضبوطا بالشكل الكامل بأعلا الصحائف)

الجزء الثاني

ملتزم الطبع والنشر
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً »

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فصل ﴾ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِى قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْعَظِيمَةِ الطَّوِيلَةِ ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْعَقَبَاتِ شِدَّةً وَأَكْثَرُهَا مُؤْنَةً وَأَكْثَرُهَا آفَةً وَفِتْنَةً ، فَإِنَّ مَنْ هَلَكَ مِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ إِنَّمَا انْقَطَعُوا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِمَّا بِسَبَبِ دُنْيَا أَوْ خَلْقٍ أَوْ شَيْطَانٍ أَوْ نَفْسٍ وَلَقَدْ ذَكَرْنَا فِى كُتُبِنَا الْمُصَنَّفَةِ مِنْ كِتَابِ : [الْإِحْيَاءِ وَالْأَسْرَارِ وَالْقُرْبَةِ إِلَى اللّٰهِ] مَا يَبْعَثُ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِذٰلِكَ ، وَمَقْصُودُ هٰذَا الْكِتَابِ :

فصـــــل

فى الحث على بذل المجهود فى معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس

﴿ فصل ﴾ : الفصل هو الحاجز بين الشيئين، والفصل : القطع ، يقال فصلت الشىء فانفصل : أى قطعته فانقطع ، وهـذا قطع لما كان فيه وحجز بينه وبين مابعده ، والتقدير هذا فصل فى التحريض والحث على بذل المجهود فى قطع هذه العقبة، وبيان معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس (فعليك) أى الزم (أيها الرجل) المريد لسلوك طريق الآخرة (ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة العظيمة الطويلة فإنها) أى هذه العقبة (أعظم العقبات شدة) أى مشقة (وأكثرها مؤنة) أى ثقـلا وتعبا (وأكثرها آفة وفتنة) وبلية (فإن من هلك من الخلق كلهم إنما انقطعوا) أى الهالـكون (عن طريق الحق) والصواب ، وهلاكهم (إما بسبب دنيا أو خلق أوشيطان أو نفس، ولقد ذكرنا فى كتبنا المصنفة من كتاب الإحياء و) كتاب (الأسرار) أى أسرار معاملات الدين (و) كتاب (القربة إلى الله مايبعث) أى مايحمل الرجل السالك (على الاهتمام بذلك) أى ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة لطلب المقصود وهو طريق الحق والصواب ، وقد لخصنا طرفا يسيرا فى هذا الشرح (ومقصود هذا الـكتاب) الذى سميناه بـ [منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين]

أَنِّى سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يُطْلِعَنِى عَلَى سِرِّ مُعَالَجَةِ النَّفْسِ ، وَأَنْ يُصْلِحَنِى وَيُصْلِحَ بِى ؛ فَاقْتَصَرْتُ فى هٰذَا الْكِتَابِ الشَّرِيفِ عَلَى نُكَتٍ وَجِيزَةِ اللَّفْظِ غَزِيرَةِ الْمَعْنَى ، تُقْنِعُ مَنْ تَأَمَّلَهَا ، وَتَدَعُهُ عَلَى وَاضِحَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعالى ، وَهٰذَا الْفَصْلُ يَخْتَصُّ بِنُكَتٍ فى مُعَالَجَةِ الدُّنْيَا وَالْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ .

أَمَّا الدُّنْيَا : فَحَقَّ لَكَ أَنْ تَحْذَرَهَا وَتَزْهَدَ فِيهَا ، لِأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِمَّا أَنْتَ مِنْ ذَوِى الْبَصَائِرِ وَالْفِطَنِ فَحَسْبُكَ أَنَّ الدُّنْيَا عَدُوَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَهُوَ حَبِيبُكَ وَوَلِيُّكَ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا نَقِيضَةُ عَقْلِكَ ، وَالْعَقْلُ قِيمَتُكَ ، وَإِمَّا أَنْتَ مِنْ ذَوِى الْهِمَمِ

أنى سألت الله) تعالى (أن يطلعنى على سر معالجة النفس و) سألت الله (أن يصلحنى و) أن (يصلح) سبحانه وتعالى (بى) أى بسببى غيرى (فاقتصرت فى هذا الكتاب الشريف على نكت وجيزة) أى قليلة (اللفظ غزيرة) أى كثيرة (المعنى تقنع) أى تكفى هذه النكت (من تأملها) حق التأمل (وتدعه) أى تترك تلك النكت من تأملها (على واضحة) أى جلية (من الطريق) أى طريق العبادة الخالصة (إن شاء الله تعالى ، وهذا الفصل يختص بنكت) شريفة (فى معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس . أما الدنيا فحق) أى ثبت (لك أن تحذرها وتزهد فيها) أى الدنيا (لأن الأمر) أى أمرك (لايخلو من ثلاثة : إما أنت من ذوى) أى أصحاب (البصائر) جمع بصيرة ، وهى العلم والخبرة (و) ذوى (الفطن) جمع فطنة: وهى الحذق والفهم، وقد تفسر بجودة تهيؤ النفس لتصور مايرد عليها من الغير ، ويقابلها الغباوة (فحسبك) أى فإن كنت منهم كفاك (أن الدنيا عدوة الله سبحانه) وعدوة لأولياء الله ، وعدوة لأعداء الله . أما عداوتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله السالكين إليه ، ولذلك لم ينظر الله إليها نظر عناية منذ خلقها كما ورد ذلك فى الخبر ، وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل فانها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر فى مقاطعتها وقطعوا النظر عن زينتها ، وأما عداوتها لأعداء الله فإنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسرون ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون بل يقال لهم «اخسئوا فيها ولا تكلمون – أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » (وهو) سبحانه وتعالى (حبيبك ووليك) أى متولى أمورك (فإن الدنيا نقيضة عقلك ، والعقل) أى والحال أن العقل (قيمتك) ولولا عقلك ما كانت لك قيمة أصلا (وإما أنت من ذوى الهمم) جمع همة

وَالِاجْتِهَادِ فِى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، فَحَسْبُكَ أَنَّ الدُّنْيَا بَلَغَ مِنْ شُؤْمِهَا مَا يَمْنَعُكَ مِنْ إِرَادَتِهَا وَتَشْغَلُكَ الْفِكْرَةُ فِيهَا عَنِ الْعِبَادَةِ وَالْخَيْرِ فَكَيْفَ نَفْسُهَا .

(والاجتهاد فى عبادة الله تعالى فحسبك) أى فإن كنت من أصحاب الهمم والاجتهاد كفاك (أن الدنيا بلغ من شؤمها) وشررها (مايمنعك من إرادتها وتشغلك الفكرة فيها) أى الدنيا (عن العبادة و) أنواع (الخير فكيف نفسها) أى نفس الدنيا الدنية التى لم تزن عند الله تعالى جناح بعوضة، ومن هوانها عند الله تعالي أن وبخ أولى الرغبات فيها وذم أهل الحرص عليها ، فقال تعالي « من كان يريد العاجلة عجلنا له » الآية . وقال تعالى « من كان يريد حرث الآخرة » الآية ، ففى بغضها الراحة العاجلة والآجلة والعز والإكرام فى الدنيا والأخرى. قال عليه الصلاة والسلام: « الزهادة فى الدنيا تريح القلب والبدن » . وقال عليه الصلاة والسلام « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا أحب الله عبدا زوى عنه الدنيا » وقال السرى: إن الله تعالى سلب الدنيا عن أوليائه ، وحماها عن أصفيائه ، وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة . فالأصول : الحسد والحرص وحب الدنيا ، فمن أحبها ذهب خوف الآخرة من قلبه ولا يفتح عبد على نفسه بابا من الدنيا إلا سد عليه عشرة من أبواب الآخرة . وقال محمد بن واسع : من زهد فى الدنيا فهو ملك فى الدنيا والآخرة . وقال مالك بن دينار : القلب إذا غلبه حب الدنيا لم تنجح فيه الموعظة . وفى بعض الكتب إن الله تعالى قال « أهون ما أنا صانع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة ذكرى من قلبه » وقال عبد الواحد بن زيد : مامن عبد أعطى الدينار فابتغى إليه ثانيا إلا سلبه الله حب الخلوة معه وبدله بعد القرب بعدا وبعد الأنس وحشة . وكان الثورى يقول : لو أن عبدا عبد الله بجميع المأمورات إلا أنه يحب الدنيا إلا نودى عليه يوم القيامة على رءوس أهل الجمع: ألا إن هذا فلان بن فلان قد أحب ما أبغض الله فيكاد لحم وجهه يسقط من الخجل وإنى لأعرف محبة الرجل للدنيا بتملقه لأهلها . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضى بالقنوع زال عنه الخضوع لأهلها . وقال الفضيل رحمه الله : إذا أحب الله عبدا أكثر همه وغمه فإذا أبغض عبدا وسع عليه دنياه ، ولو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على لأحاسب عليها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا قرب منها. قال الجنيد : لاتصفو القلوب لعلم الآخرة إلا إذا تجردت عن الدنيا ، وما رأيت أحدا عظمها قرت عينه فيها أبدا ، وكان بشر يتمثل بهذين البيتين :

مكرم الدنيا مهان ... مستذل فى القيامه
والذى هانت عليه ... فله ثم الكرامه

وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها

وَإِمَّا أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ لاَ بَصِيرَةَ لَكَ تُبْصِرُ الْحَقَائِقَ ، وَلاَ هِمَّةَ لَكَ تَبْعَثُ عَلَى الْمَكَارِمِ ؛ فَحَسْبُكَ أَنَّ الدُّنْيَا لاَ تَبْقَى :

عذاب يستقل ماله ، ولا يستقل عمله ، ومن كلام سيدى الحبيب محمد بن حسن جمل الليل . قال مرة أين الناس أين الناس ؟ فهتف بى هاتف راحوا فى الكاس راحوا فى الكاس ، والكاس حب الدنيا ، ولله در سيدنا الحبيب عبد الله الحداد فى قوله :

وازهد بقلبك فى الدار التى فتنت	طوائفا فرأوهـا غاية العجب
تنافسـوها وأعطوها قوالبهم	مع القـلوب فيا لله من عجب
وهى التى صغرت قدرا وما وزنت	عند الإله جناحا فالحريص غبي
وخذ بلاغك من دنياك واسع به	سعى المجد إلى مولاك واحتسب
واعلم بأن الذى يبتاع عاجـله	بآجـل من نعيم دائم يخب

والكلام فى ذمها من الآيات والأحاديث والنظم والنثر كثير جدا ، ويكفى فيه قوله صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » . وقد اتفق أهل الملل على ذم حبها حتى روى أن بعض أهل الكتاب حبروا راهبا من الكنيسة فقيل لهم فى ذلك فقالوا إنا وجدنا فى طرف ثوبه درهما مربوطا فالشر كله فى حبها وامتزاجه بطينة الآدمي كامتزاج الأرواح بالأجساد . قال عليه الصلاة والسلام « لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى إليهما ثالثا ، ولا يملأ بطن ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » نسأل الله التوبة علينا وعلى جميع المسلمين والإماتة على الإسلام سالمين من فتنتها مبغضين لها بمنه وكرمه .

قال فى النصائح : ثم اعلم أن الدنيا عبارة عن كل ما على وجه الأرض من المشتهيات واللذات وأصناف الأمتعة التى تشتهيها النفوس وتميل إليها وتحرص عليها وقد جمع الله أصولها فى قولها « زين للناس حب الشهوات » الآية ، فمن أحب ذلك واشتد حرصه عليه وليس له غرض فيه إلا مجرد التمتع والتلذذ صار من جملة محبيها فإن أفرط حتى لم يبال من أين يأخذ من حل أو حرام واشتغل بسببه عما فرضه الله عليه وقع فيما حرم الله عليه من معصيته وتحقق فى حقه الوعيد الوارد فى المحبين لها بلا شك وصار أمره فى نهاية الخطر إلا أن يتداركه الله بالتوبة قبل مماته وخروجه من هذه الدار انتهى بمعناه (وإما أنت من أهل الغفلة) أى الجاهلين (لا بصيرة لك تبصر) أى تلك البصيرة (الحقائق ولا همة لك تبعث) أى تحمل تلك الهمة (على المكارم) أى مكارم الأخلاق (فحسبك) إن كنت منهم (أن الدنيا لا تبقى) بل تفنى لأنها دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادى من لا علم له ، وعليها يحسد من لا فقه له ، ولها يسعى من لا يقين له هكذا ورد فى الخبر ، ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام « يا بنى آدم لدوا للموت وابنوا للخراب تفنى نفوسكم وتبلى دياركم » . وقد قيل فى معنى ذلك :

له ملك ينادى كل يوم	لدوا للموت وابنوا للخراب

إِمَّا أَنْ تُفَارِقَهَا ، وَإِمَّا أَنْ تُفَارِقَكَ ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ : إِنْ بَقِيتَ لَكَ الدُّنْيَا لَمْ تَبْقَ لَهَا ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لَكَ إِذَنْ فِى طَلَبِهَا ، وَإِنْفَاقِ الْعُمْرِ الْعَزِيزِ عَلَيْهَا ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا ... أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ

فَمَا تَرْجُو بِعَيْشٍ لَيْسَ يَبْقَى ... وَشِيكًا قَدْ تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِى

وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلَ ظِلٍّ ... أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِارْتِحَالِ

فَلَا يَنْبَغِى لِلْعَاقِلِ إِذًا أَنْ يُخْدَعَ بِهَا ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ فِيمَا قَالَ :

وللحافظ ابن حجر فى المعنى :

بنى الدنيا أقلوا الهم فيها ... فما فيها يئول إلى الفوات

بناء للخراب وجمع مال ... ليفنى والتوالد للممات

وبالجملة أن الدنيا لا بقاء لها أصلا ولا لذة (إما أن تفارقها وإما أن تفارقك) الدنيا وذلك (كما قال الحسن) البصرى رحمه الله (إن بقيت لك الدنيا لم تبق) أنت (لها) أى لأجل الدنيا بل تموت (فأى فائدة لك إذن) أى حين إذ فهمت قول الحسن رحمه الله (فى طلبها و) فى (إنفاق العمر العزيز عليها) أى على طلبها (ولقد أحسن القائل) من بحر الوافر (هب) فعل أمر من وهب (الدنيا تساق) حال (إليك عفوا) أى فضلا من نفقتك ، وفى سراج السالكين العفو من المال ما يفضل من النفقة ولا عسر على صاحبه فى إعطائه (أليس مصير) أى مرجع (ذاك) أى الدنيا (إلى زوال . فما ترجو بعيش ليس يبقى ، وشيكا) أى قريبا وسريعا (قد تغيره) أى ما ترجوه (الليالى) والأيام (وما) أى ليس (دنياك إلا مثل ظل : أظلك ثم آذن) أى أعلم ذلك الظل (بارتحال) الارتحال السير والمضى والانتقال ، وقيل أيضا فى المعنى :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سرورا وأنعما

كبان بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدما

(فلا ينبغي للعاقل إذن) أى إذا عرفت ماتقدم من أن الدنيا كالظل (أن يخدع بها) أى بمتاعها وزهرتها وزينتها ، بل ينبغى للعاقل أن يرضى بالقوت من الدنيا ولا يشتغل بالجمع ويشتغل بعمل الآخرة ، لأن الآخرة هى دار القرار ودار النعيم .

قال بعض الحكماء : أربعة طلبناها فأخطأنا طرقها: طلبنا الغنى فى المال فإذا هو فى القناعة ؛ وطلبنا الراحة فى الكثرة فإذا هى فى القلة ، وطلبنا الكرامة فى الخلق فإذا هى فى التقوى، وطلبنا النعمة فى الطعام واللباس فإذا هى فى الستر والاسلام، ويعني فيما يستر الله من العيوب والذنوب (ولقد صدق القائل) وهو الحسن البصرى رحمه الله (فيما قال) من بحر الكامل فى وصف الدنيا

أَضْغَاثُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ   إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ

(أضغاث نوم) أى ما التبس من الأحلام أوهى رؤيا لايصح تأويلها لاختلاطها، والمراد كناية عن الشىء كأنه لم يكن (أو كظل زائل * إن اللبيب) أى العاقل (بمثلها) أى الدنيا المشبهة بالأحلام (لايخدع) وكان الحسن بن على رضى الله عنهما يتمثل ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها   إن اغترارا بظل زائل حمق

ويقال نزل أعرابى بقوم فقدموا إليه طعاما فأكل ثم قام إلى ظل خيمة فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس ، فقام وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل بنيته   ولابد يوما أن ظلك زائل

وكذلك قيل :

وإن امرأ دنياه أكبر همه   لمستمسك منها بحبل غرور

وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : شهدت مجلسا من مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل أبيض الوجه حسن الشعر واللون عليه ثياب بيض ، فقال : السلام عليك يارسول الله : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ورحمة الله ، فقال يا رسول الله ما الدنيا ؟ قال : حلم المنام وأهلها مجازون ومعاقبون ، قال يا رسول الله وما الآخره؟ قال الأبد فريق فى الجنة وفريق فى السعير . فقال يارسول الله وما الجنة ؟ قال : بدل الدنيا لتاركها نعيمها أبدا قال : فما جهنم ؟ قال بدل الدنيا لطالبها لا يفارقها أهلها أبدا ، قال : فمن خير هذه الأمة ؟ قال الذى يعمل فيها بطاعة الله تعالى قال: فكيف يكون الرجل فيها ؟ قال مشمرا : كطالب القافلة، قال : فكم القرار بها ؟ قال كقدر المتخلف عن القافلة، قال : فكم مابين الدنيا والآخرة قال كغمضة عين قال: فذهب الرجل فلم ير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا جبريل أتاكم ليزهدكم فى الدنيا، ويرغبكم فى الآخرة » وذكر أن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه قيل له بأى شىء اتخذك الله خليلا ؟ قال بثلاثة أشياء : أولها ما خيرت بين أمرين إلا اخترت الذى لله على غيره : والثانى ما اهتممت فيما تكفل الله لى فى أمر رزقى . والثالث ما تغذيت ولا تعشيت إلا مع الضيف . قال بعض الحكماء : حياة القلب فى أربعة أشياء : العلم والرضا والقناعة والزهد ، فالعلم يرضيه ، وبالرضا يبلغ هذه الدرجة، فاذا بلغ درجة الرضا، وصل إلى القناعة وتوصله القناعة إلى الزهد، وهو التهاون بالدنيا، قال: والزهد ثلاثة أشياء : أولها معرفة الدنيا ثم الترك لها. والثانى خدمة المولى ثم الأدب فيها ، والثالث الشوق إلى الآخرة ثم الطلب لها . وعن يحيى بن معاذ الرازى قال الحكمة تهوى من السماء إلى القلوب ، فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال : الركون إلى الدنيا وهم غد وحسد أخ وحب شرف ، وذكر أيضا عن يحيى رحمه الله قال : العاقل المصيب من عمل ثلاثا : ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبرا قبل أن يدخل فيه . وأرضى خالقه قبل أن يلقاه ،

وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَحَسْبُكَ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ تَعالى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم :
(وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ

وروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ، ولا عن النار مهربا يعنى لم يترك الجهد فى طلب الجنة والهرب من النار : أولها عرف الله تعالى فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فأتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها .

(وأما الشيطان) فهو أعدى الأعداء . قال تعالى « إن الشيطان لـكم عدو فاتخذوه عدوا » فليتخذه الإنسان عدوا فى جميع أحواله ، ويحذره جهده ، فقد قيل : إنه يفتح للانسان تسعة وتسعين بابا من الخير ليوقعه فى باب من الشر ، وهو اسم لـكل خبيث متمرد من الجن، من شاط احترق أو شطن بعد لبعده عن الخير ؛ فالمراد به هنا الجنس إبليس وأعوانه ، وإذا زاد فى الخبث والتمرد يسمى عفريتا ، وعن ابن عباس أن إبليس إذا مرت عليه الدهور وهرم عاد ابن ثلاثين سنة ، وذلك قوله تعالى « فإنك من المنظرين » وروى عن كعب الأحبار أنه قال : لما حضر آدم الموت قال يارب يشمت بى عدوى ، فأجابه الحق يا آدم إنك سترد إلى الجنة ويؤخر اللعين إلى النظرة ليذوق ألم الموت بعد الأولين والآخرين ؛ ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت ، فلما وصفه قال حسبى ، وهو أنه تعالى يقول له عقب النفخة قد خلقت فيك قوة أهل السموات السبع والأرضين السبع ، وإنى ألبستك اليوم أثواب السخط والغضب كلها ، فانزل بغضبى وسطوتى على رجيمى فأذقه الموت ، واحمل عليه مرارة الأولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة ،وليكن معك من الزبانية سبعون ألفا قد ملئوا غيظا وغضبا ، مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها . وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب ، فينزل بصورة لورآه أهل السموات والأرضين بها لماتوا بغتة من هولها ، ويقول له قف يا خبيث لأذيقك الموت ، فيهرب إلى المشرق فإذا ملك الموت بين عينيه ، فيهرب إلي المغرب فإذا هو كذلك فيغوص البحار فلا تقبله ، فلا يزال يهرب ثم يقوم وسط الدنيا عند قبر آدم عليه السلام ويتمرغ فى التراب من المشرق إلى المغرب حتى إذا كان فى الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه السلام، وقد نصبت الزبانية له الـكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالـكلاليب وبقى فى النزع إلى حيث شاء الله . وقيل لآدم وحواء عليهما السلام اطلعا على عدوكما فينظرانه ويقولان ربنا أتممت علينا نعمتك، والله أعلم ، وقد ذكرنا بعض مداخله فى العائق الثالث من العوائق الأربعة .

وأما عداوة الشيطان اللعين ودعوته إلى الشر والضلال والغفلة والانهماك فى المعاصى والبطالة (فحسبك) أى كفاك (فيه) أى الشيطان أى فى اجتناب عداوته وغيرها (ما قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقل رب) أى يا رب (أعوذ بك) أى أمتنع وأعتصم بك (من همزات

الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) . فَهٰذَا خَيْرُ الْعَالَمِينَ وَأَعْلَمُهُمْ وَأَعْقَلُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، يَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ ، فَكَيْفَ بِكَ مَعَ جَهْلِكَ وَنَقْصِكَ وَغَفْلَتِكَ ؟

الشياطين) أى وساوسهم ونخاستهم ، والهمز : النخس ، والهمزات جمع الهمزة ومنه مهماز الرائض . والمعنى أن الشياطين يحثون الناس على المعاصى كما تهمز الراضة الدواب حثالها على المشى ؛ كذا ذكره النسفى (وأعوذ بك رب أن يحضرون) ويحوموا حولى فى شىء من الأحوال وخصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن ، وحلول الموت لأنها أحرى الأحوال بأن يخاف عليه فيها كما فى البيضاوى وإنما ذكر الحضور ، لأن الشيطان إذا حضره يوسوس له . روى عن جبير بن مطعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال عمر : ولا أدرى أى صلاة هى قال الله أكبر كبيرا ثلاثا ، والحمد لله كثيرا ثلاثا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا ، أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه . قال نفثه : الشعر ، ونفخه : الكبر ، وهمزه . الموتة » . أخرجه أبو داود ، وقد جاء تفسير هذه الألفاظ فى متن الحديث مع زيادة قول الخازن ليصير إيضاحا . قوله نفثه الشعر : أى لأن الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق . قوله ونفخة الكبر ، وذلك أن المتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه فيحتاج إلى أن ينفخ . وقوله وهمزه الموتة ، الموتة الجنون لأن المجنون ينخسه الشيطان (فهذا) أى المأمور بالتعوذ من وساوس الشيطان بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لندائه بالتعوذ من أن يحضروه أصلا أو عند تلاوة القرآن أو عند النزع (خير العالمين) سيد الأولين والاخرين صلي الله عليه وسلم (وأعلمهم) بالله تعالى (وأعقلهم) بالأمور النافعة فى الدنيا والآخرة (وأفضلهم) أى أفضل المخلوقات على العموم الشامل للعلوية والسفلية من البشر والجنّ والملك فى الدنيا والآخرة فى سائر خصال الخير وأوصاف الكمال (عند الله تعالى يحتاج مع ذلك) أى الوصف المذكور (أن يستعيذ) عليه الصلاة والسلام (بالله من شر الشيطان) اللعين (فكيف) الحال (بك مع جهلك) بما ينفعك (ونقصك) وقصورك (وغفلتك) عن عاقبة أمرك مع كثرة أعدائك . قال العلامة أبو الليث رحمه الله : اعلم أن لك أربعة من الأعداء ، فتحتاج أن تجاهد مع كل واحد منهم : أحدها الدنيا وهي غرارة مكارة . قال الله تعالى ــ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ــ وقال تعالى ــ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ــ والثاني نفسك وهى شر الأعداء . والثالث الشيطان . والرابع شيطان الانس فاحذره فانه أشد عليك من شيطان الجن ، لأن شيطان الجن يكون أذاه بالوسوسة ، وشيطان الإنس هو رفيق السوء، ويكون أذاه بالمواجهة والمعاينة لا يزال يطلب عليك وجها يردّك عما أنت فيه . وروى شدّاد بن أوس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » : يعنى حاسب نفسه فى الدنيا وعمل الطاعة لكى تنفعه بعد

وَأَمَّا الْخَلْقُ : فَحَسْبُكَ فِيهِمْ أَنَّكَ لَوْ خَالَطْتَهُمْ وَوَافَقْتَهُمْ فِي أَهْوَائِهِمْ أَثِمْتَ وَأَفْسَدْتَ أَمْرَ آخِرَتِكَ ، وَإِنْ خَالَفْتَهُمْ تَعِبْتَ بِأَذِيَّاتِهِمْ وَجَفَوَاتِهِمْ وَكَدَّرْتَ عَلَيْكَ أَمْرَ دُنْيَاكَ ، ثُمَّ لَا تَأْمَنُ أَنْ يُلْجِئُوكَ إِلَى مُعَادَاتِهِمْ وَمُنَاوَأَتِهِمْ فَتَقَعُ فِي شَرِّهِمْ ، وَلِأَنَّهُمْ إِنْ مَدَحُوكَ وَعَظَّمُوكَ أَخَافُ عَلَيْكَ الْفِتْنَةَ وَالْعُجْبَ ،

الموت « والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل المغفرة » . وروى عن سيدنا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أنه قال : ليس العجب ممن هلك كيف هلك ولكن العجب ممن نجا كيف نجا : يعني أن الجنة قد حفت بالمكاره ، والنار قد حفت بالشهوات ، وإن في كل نفس شيطانا يمثل إليه . وملكا يلهمه ولا يزال الشيطان يزين ويخدع ، ولا يزال الملك يمنعه ، فأيهما كانت النفس معه كان هو الغالب ، والله أعلم.

(وأما الخلق) أى أكثرهم ، وإنما أولنا كذلك لأن من يدلك على الله مقاله بأن تكون همته متعلقة بالله مرتفعة عن المخلوقين لا يلجأ في حوائجه إلا إلى الله تعالى ، ولا يتوكل في أموره إلا عليه سبحانه وتعالى قد سقط اعتبار الناس من عينه فلا يرى منهم ضرا ولا نفعا ، وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا ولا يقتضى لها حظا ، ويكون في أعماله كلها جاريا على مقتضى الشرع من غير إفراط ولاتفريط، فصحبة من هذه حاله ، وإن قلت عباداته ونوافله مأمونة الغائلة محمودة العاقبة جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية ، لأن الطبع يسرق من الطبع ، والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله، ولا يشترط في المصحوب اتصافه بتلك الصفات على غاية الكمال والتمام ، فإن ذلك متعذر ، وإنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه فقط بحيث يكون أعلى منه حالا وأصوب منه مقالا. ومن لم يكن على هذا الوصف ، وكان شأنه المعاملة بالظاهر لا غير فليس له فائدة في صحبته بل ربما زادته شرا ، لأن خلطته تدعوه إلى الصنع له والتزين ويؤديه ذلك إلى كبائر معاصى القلوب وهى أشد عليه من معاصى الجوارح بكثير . قال يوسف بن الحسين الرازى رحمه الله لأن ألقى الله بجميع المعاصى أحب إلي من ألقاه بذرة من التصنع فيدخل بذلك عليه النقص في حاله من حيث رجاء الزيادة فيها (فحسبك فيهم أنك لو خالطتهم ووافقتهم في أهوائهم) وأغراضهم (أثمت وأفسدت أمر آخرتك) فتكون من الهالكين (وإن خالفتهم) في أهوائهم (تعبت بأذياتهم) أى بمقاساتها (وجفواتهم) وإعراضهم عنك بالكلية (وكدرت عليك أمر دنياك ثم لا تأمن) من (أن يلجئوك) أى يضطروك (إلى معاداتهم ومناوأتهم) مرادف لما قبله ، في لسان العرب المناوأة : المعاداة ، كذا في سراج السالكين (فتقع في شرهم ولأنهم إن مدحوك) وأثنوا عليك بسبب الإحسان الذى صدر منك (وعظموك) بسبب جاهك أو مالك أو مايختص بك من الصفة الجميلة (أخاف عليك الفتنة والعجب) وغيرهما من الصفات المهلكات

وَإِنْ ذَمُّوكَ وَحَقَرُوكَ أَخَافُ عَلَيْكَ الْحُزْنَ تارَةً وَالْغَضَبَ لِغَيْرِ اللهِ أُخْرَى ، وَكِلاَ الْأَمْرَيْنِ آفَةٌ مُهْلِكَةٌ ؛ ثُمَّ اذْكُرْ حَالَكَ مَعَهُمْ بَعْدَ مَا صِرْتَ فِى الْقَبْرِ بِثَلاَثَةِ أَيَّامٍ كَيْفَ يَتْرُكُونَكَ وَيَهْجُرُونَكَ وَيَنْسَوْنَكَ ، وَلاَ يَكَادُونَ يَذْكُرُونَكَ كَأَنَّكَ لَمْ تَرَهُمْ يَوْماً وَلَمْ يَرَوْكَ ، فَلاَ يَبْقَى هُنَالِكَ إِلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ ، أَفَلاَ يَكُونُ مِنَ الْغَبْنِ الْعَظِيمِ .

وكان النورى رحمه الله يقول : من عاشر الناس داراهم ، ومن داراهم راآهم ومن راآهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا .

وفى الحكاية المذكورة عن لقمان وابنه تنبيه على أن شأن الناس صعب جدا ، ذكر أن لقمان دخل ذات يوم السوق وهو راكب حمارا وابنه يسوقه ، فقال الناس حين رأوه شيخ لم يشفق على صبى ، فأركبه خلفه ، فقالوا : اثنان على حمار هلا زاد ثالثا ، فنزل لقمان وبقى الولد ، فقالوا شيخ ماش وصبى راكب ، فنزل الولد يمشى معوالده وساقا الحمار جميعا ، فقالوا حمارفارغ وهذان يسوقانه، وكان غرض لقمان بهذا أن يرى ابنه شأن الناس مع من يراعى نظرهم، فإنه لا يسلم منهم على أى حالة تكون ، فرضى الناس غاية لاتدرك ، وأحمق الناس من طلب مالا يدرك ، فهذا حال من انقاد إلى الأوهام من ضعفاء العقول وسخفاء الأحلام ، وأما من كان له عقل وافر وعلم فاخر فلا يميل إلا إلى ما هو حق ووجود صدق وهو مامن الله إليه من نظر وإقبال وجزيل عطاء وعظيم نوال فهو يعمل فيما يؤديه إلى هذه المطالب من غير اكتراث بذم ذام أو عتب عاتب ، ويقول ما قاله محمد بن أسلم رحمه الله : مالى ولهذا الخلق كنت فى صلب أبى وحدى ثم صرت فى بطن أمى وحدى ثم دخلت الدنيا وحدى ثم تقبض روحى وحدى فأدخل فى قبرى وحدى ويأتينى منكر ونكير فيسألانى وحدى ، فإن صرت إلى خير صرت وحدى ، وان صرت إلى شر صرت وحدى ، ثم أوقف بين يدى الله وحدى ، ثم يوضع عملى وذنوبى فى ميزانى وحدى ، فإن بعثت إلى الجنة بعثت وحدى ، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدى فمالى وللناس ؟ (وإن ذموك وحقروك أخاف عليك) الهم و (الحزن تارة و) أخاف(الغضب لغيرالله تعالى) تارة (أخرى وكلا الأمرين) المذكورين من العجب والغضب لغير الله (آفة مهلكة . ثم اذكر) أنت (حالك معهم) أى الخلق (بعد ما صرت فى القبر بثلاثةأيام كيف يتركونك ويهجرونك) مرادف لما قبله كما هو ظاهر (وينسونك ولا يكادون يذكرونك كأنك) فى الدنيا (لم ترهم يوما ولم يروك) أصلا (فلا يبقى هنالك) أى فى القبر (إلا الله سبحانه) أى غفرانه ورحمته إن كنت من السعداءالمقبولين أو عذابه وعقابه إن كنت من الأشقياء المردودين (أفلا يكون من الغبن) أى النقص (العظيم) فى المختار غبنه في البيع : خدعه وبابه ضرب ، وقد غبن فهو مغبون . وغبن رأيه من باب طرب إذا نقصه

أَنْ تُضَيِّعَ أَيَّامَكَ مَعَ هٰؤُلَاءِ الْخَلْقِ مَعَ قِلَّةِ الْوَفَاءِ وَقِلَّةِ الْبَقاءِ مَعَهُمْ وَتَتْرُكَ خِدْمَةَ اللهِ تَعالى الَّذِى يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ وَحْدَهُ ، فَلَا يَبْقَى إِلَّا هُوَ أَبَدَ الْآبِدِينَ ؛ وَالْحَاجَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهِ ، وَالتُّكْلَانُ كُلُّهُ عَلَيْهِ ، وَالِاعْتِصَامُ كُلُّهُ فِى كُلِّ حَالٍ وَعِنْدَ كُلِّ شِدَّةٍ وَهَوْلٍ بِهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ؛ فَتَأَمَّلْ يَا مِسْكِينُ لَعَلَّكَ تُرْشَدُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى ، وَاللهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا النَّفْسُ : فَحَسْبُكَ مَا تُشَاهِدُهُ مِنْ حَالاتِهَا وَرَدَاءَةِ إِرَادَتِهَا وَسُوءِ اخْتِيَارِهَا ،

فهو غبين : أى ضعيف الرأى انتهى (أن تضيع أيامك) أى أوقاتك (مع هؤلاء الخلق) الذين يشغلونك عن عبادة مولاك (مع قلة الوفاء) للعهد (وقلة البقاء معهم وتترك خدمة الله تعالى) أي طاعته (الذى يرجع إليه) تعالى (الأمر) كله (وحده) أى منفردا بذاته (فلا يبقى لك إلا هو عز وجل (أبد الآبدين والحاجات) أى الدنيوية والأخروية (كلها إليه) سبحانه وتعالى (والتكلان) أى التوكل والاعتماد (كله عليه) تعالى (والاعتصام) أى الاستمساك والالتجاء ، فى محيط المحيط : اعتصم به أمسكه بيده، وبصاحبه لزمه، وبالله امتنع بلطفه من المعصية وفلان من الشر والمكروه التجأ وامتنع (كله) أى كل الاعتصام (فى كل حال وعند كل شدة) وبلية (وهول) وألم النازل (به) تعالى (وحده لا شريك له فتأمل) هذه الجملة المذكورة (يا مسكين) أى يامن قل علمه (لعلك ترشد) إلى طريق الصواب والهداية (إن شاء الله تعالى والله ولى الهداية بفضله) تعالى . قال بعضهم : والفضل إعطاء الشيء لغير عوض لا عاجل ولا آجل ، ولذا لا يكون لغيره تعالى (وأما النفس فحسبك ماتشاهده)وتعاينه (من حالاتها) القبيحة (ورداءة إرادتها وسوء اختيارها) وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وتعديلها وقودها بسلاسل القهر إلي عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وعصت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك واحتجت إلى معالجة شديدة . وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عبادة الله راضية مرضية كما قال الله تعالى :

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »

فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك ، فقد ورد أنه أوحى الله إلى عيسى عليه السلام « يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى» رواه أحمد فى الزهد عن مالك بن دينار ، وقد ذكرنا أقسام النفس

فَهِىَ فى حَالِ الشَّهْوَةِ بَهِيمَةٌ ، وَفى حَالِ الْغَضَبِ سَبْعٌ ، وَفى حَالِ الْمُصِيبَةِ تَرَاهَا طِفْلاً صَغِيرًا ، وَفى حَالِ النِّعْمَةِ تَرَاهَا فِرْعَوْنًا ، وَفى حَالِ الْجُوعِ تَرَاهَا مَجْنُونًا ، وَفى حَالِ الشِّبَعِ تَرَاهَا مُخْتَالاً ، إِنْ أَشْبَعْتَهَا بَطِرَتْ وَمَرِحَتْ ، وَإِنْ جَوَّعْتَهَا صَاحَتْ وَجَزِعَتْ ، فَهِىَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

كَحِمَارِ السُّوءِ إِنْ أَشْبَعْتَهُ   رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ جَاعَ نَهَقْ

وَلَقَدْ صَدَقَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ حَيْثُ قَالَ : إِنَّ مِنْ رَدَاءَةِ هٰذِهِ النَّفْسِ وَجَهْلِهَا بِحَيْثُ إِذَا هَمَّتْ بِمَعْصِيَةٍ أَوِانْبَعَثَتْ لِشَهْوَةٍ فَثَنَيْتَهَا ، أَوْ تَشَفَّعْتَ إِلَيْهَا بِاللّٰهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ بِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِجَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ وَبِكِتَابِهِ وَبِجَمِيعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ عِبَادِهِ ، وَتَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَالْقَبْرَ وَالْقِيَامَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، لاَ تُعْطِى الِانْقِيَادَ

عند قول المصنف فتستقبله ههنا عقبة التوبة فلاعود ولا إعادة (فهى) أى النفس الأمارة بالسوء (في حال الشهوة بهيمة) أى كأنها بهيمة فى عدم معرفة ضررها في العاقبة (وفى حال الغضب سبع) أى حيوان مفترس مطلقا والعامة تخصه بالأسد والجمع أسبع وسباع (وفى حال المصيبة) أى نزولها (تراها طفلا صغيرا) أى في البكاء والجزع وعدم الصبر لما أصابها مع الجهل لقضاء ربها وحكمه (وفى حال النعمة) والسعة فى العيش (تراها فرعونا) أى فى التكبر والعلو فى الأرض (وفى حال الجوع تراها مجنونا) فى التحير والدهش (وفى حال الشبع تراها مختالا) أى متكبرا (إن أشبعتها بطرت) أى طغت وانبعثت فى قضاء شهوتها (ومرحت) أى فرحت ونشطت. فى المختار المرح شدة الفرح والنشاط، وبابه طرب (وإن جوعتها صاحت) أى ارتفع صوتها مع نوع الغضب (وجزعت) أى عدمت الصبر (فهى) أى تلك النفس (كما قال القائل) هى (كحمار السوء إن أشبعته) بالشعير (رمح) أى ضرب رجله (الناس وإن جاع نهق) أى صوت . فى سراج السالكين نهق الحمار ينهق نهيقا ونهاقا: صوت (ولقدصدق بعض الصالحين) رحمه الله تعالى (حيث قال إن من رداءة) بفتح الراء (هذه النفس وجهلها بحيث إذا همت بمعصية أو انبعثت لشهوة فثنيتها) أى عطفتها وصرفتها وراجعتها (أو تشفعت إليها بالله سبحانه ثم) تشفعت (برسوله عليه السلام وبجميع أنبيائه) عليهم الصلاة والسلام (وبكتابه) المنزل على رسله (وبجميع السلف الصالح من عباده) رضوان الله عليهم أجمعين (وتعرض عليها) أى النفس (الموت) أى سكرته وشدته (والقبر) أى عذابه ونعيمه (والقيامة) أى أهوالها ومخاوفها (والجنة) أى أنواع نعيمها ولذاتها (والنار) أى سلاسلها وأغلالها وضروب آلامها (لاتعطى) أى تلك النفس (الانقياد) إلى

وَلاَ تَتْرُكُ الشَّهْوَةَ ، ثُمَّ إِنِ اُسْتَقْبَلْتَهَا بِمَنْعِ رَغِيفٍ تَسْكُنُ وَتَتْرُكُ شَهْوَتَهَا لِتَعْلَمَ خِسَّتَهَا وَجَهْلَهَا ، فَإِيَّاكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ أَنْ تَغفُلَ عَنْهَا ، فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ خَالِقُهَا الْعَالِمُ بِهَا جَلَّ جَلاَلُهُ (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) فَكَفَى بِهٰذَا تَنْبِيهاً لِمَنْ عَقَلَ .

طاعة ربها (ولا تترك الشهوة ثم إن استقبلتها بمنع رغيف) أوشربة ماء (تسكن وتترك شهوتها) وذلك (لتعلم خستها وجهلها ، فإياك) أى احذر (أيها الرجل) الطالب لطريق السلامة فى العقبى (أن تغفل) بضم الفاء (عنها) أى عن تذكير النفس الأمارة بالسوء وعن وعظها بالموعظة البليغة (فإنها كما قال خالقها العالم بها) أى بجميع أحوالها (جل جلاله : إن النفس لأمارة بالسوء) من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها وتستعمل القوى والجوارح فى آثارها كل الأوقات ، كذا فسره البيضاوى (فكفى بهذا) الباء زائدة : أى قول خالقها العالم بجميع أحوالها (تنبيها لمن عقل) وأنصف فى فكره ، وحينئذ ينبغى أن تراقب ربك وتحفظ جوارحك وقلبك ، فإن الإنسان قد يتحرك مثلا فى طلب الخير والعمل من أعمال البر ، فيتفق أن يقع بصره على شىء له فيه هوى وشهوة فتميل نفسه إليه بالشره والمحبة، فيتكدر عليه وقته ويظلم قلبه ويختل عليه فى لحظة ما كابد أمره فى سنة مثلا ، وكذلك سائر حواسه .

وقد شبه العلماء رضي الله عنهم النفس فى مثل هذا بدابة استعارها رجل من مالكها ليتصرف بها فى حاجاته ، وكانت دابة جموحة صعبة المراس فجاز بها المستعير فى بعض تصرفاته على دار مولاها فنزعت إلى دار سيدها فإنه لامحالة يحتاج إلى صرف عنانها ، فإن تقاعست ضربها بالسوط والعصا حتى يصرفها بذلك عما نزعت إليه ، وقد يكون عليه في ذلك تعب ومئونة ، وسبب ذلك إنما هو خطوره بها على دار مولاها الذى ألفته واعتادته ، ولو لم يمر بها عليه لسلم ولم يحتج إلى معاناة ولا مكابدة ، فإن تغافل عنها حتى أدخلت يديها فى عتبة الباب واستمكنت منها ثم أراد منعها من الدخول لم تطعه بوجه بل اقتحمت به باب الدار كرها ، وربما جرحت رأسه وآلمته ، وسبب ذلك إنما هو تمكينها من العمل بمقتضى طبيعتها وموافقة جبلتها فكذلك حال النفس ، قال :

فالنفس إن أعطيتها هواها   فاغرة نحو هواها فاها

والحاصل أن النفس من شأنها أبدا طلب الحظوظ والفرار من الحقوق ، فهى لاتسعى إلا فى ذلك ولو فى عملها فى الطاعات فضلا عن المعاصى ، ومن حاسب نفسه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا، وقد تجد من النشاط واللذة فى نوع من العبادة مالا تجده فى نوع آخر وإن كان هذا النوع الآخر أتم فضيلة منه وما ذاك إلا من أجل أن حظها فيه أكثر من الآخر ، فأهل الخبرة والبصيرة يتهمون أنفسهم إذا ألفت بابا من أبواب العبادات لمعرفتهم بخداعها ومكايدها فيشوشون ذلك عليها وينتقلون منه، وقد حكي عن أبى محمد المرتعش رحمه الله: أنه قال : حججت كذا وكذا حجة على التجريد فبان لى أن جميع ذلك كان مشوبا بحظى ، وذلك أن والدتى سألتنى يوما أن أستقي

وَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ يُقَالُ لَهُ أَحْمَدُ بْنُ أَرْقَمَ الْبَلْخِيُّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: نَازَعَتْنِي نَفْسِي بِالْخُرُوجِ إِلَى الْغَزْوِ ، فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وَهٰذِهِ تَأْمُرُنِي بِالْخَيْرِ ، لَا يَكُونُ هٰذَا أَبَدًا ، وَلٰكِنَّهَا اسْتَوْحَشَتْ فَتُرِيدُ لِقَاءَ النَّاسِ لِتَسْتَرْوِحَ إِلَيْهِمْ وَيَتَسَامَعَ النَّاسُ بِهَا فَيَسْتَقْبِلُونَهَا بِالتَّعْظِيمِ وَالْبِرِّ وَالْإِكْرَامِ فَقُلْتُ لَهَا : لَا أُنْزِلُكِ الْعُمْرَانَ وَلَا أُنْزِلُكِ عَلَى مَعْرِفَةٍ ، فَأَجَابَتْ فَأَسَأْتُ الظَّنَّ بِهَا ، وَقُلْتُ : اللهُ تَعَالَى أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ، فَقُلْتُ لَهَا : أُقَاتِلُ الْعَدُوَّ حَاسِرًا فَتَكُونِينَ أَوَّلَ قَتِيلٍ ، فَأَجَابَتْ فَأَسَأْتُ الظَّنَّ بِهَا، وَعَدَّدَ أَشْيَاءَ مِمَّا أَرَادَهَا فَأَجَابَتْ إِلَى كُلِّ ذٰلِكَ ، قَالَ فَقُلْتُ :

لها جرة ماء فثقل ذلك على نفسى فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجات كانت بشوب وحظ من نفسى إذ لو كانت نفسى فانية لم يصعب عليها ماهو حق فى الشرع ، فهذا مما يبين أن حظ النفس فى الطاعة موجود ولكنه خفى على العامل ، فلذلك تعسر مداواته لأنه يحتاج إلى دقة فهم ونفوذ إدراك فليتطلب بذلك آفات نفسه ولطائف خداعها وخفايا حظوظها فيعمل على تصفية عمله من ذلك ، فلا جرم إذ كان متعذرا يجب عليه اتهام نفسه ومخالفتها فى كل ماتدعو إليه كائنا ما كان (ولقد بلغنا) وذكر العلامة الرندى عن الشيخ أبي بكر الخفاف رحمه الله ، سمعت بعض مشايخى يقول (عن بعض الصالحين يقال له أحمد بن أرقم البلخي رحمه الله أنه قال : نازعتنى) أى حدثتنى كما فى رواية (نفسى بالخروج إلى) استيجاب لأجل (الغزو فقلت) متعجبا (سبحان الله إن الله) تعالى (يقول إن النفس لأمارة بالسوء ، وهذه) أى نفسى (تأمرنى بالخير) وهو الخروج إلى الغزو (لا يكون هذا) الخير الذى أمرتنى النفس به (أبدا ولكنها) أىهذه النفس (استوحشت فتريد لقاء الناس لتستروح) أى لأجل أنتطلب الراحة والسكون (إليهم و) لأجل أن (يتسامع الناس بها) أى بالنفس (فيستقبلونها بالتعظيم والبر) والإحسان (والإكرام فقلت لها) يانفسى (لا أنزلك العمران ولا أنزلك على معرفة) من الناس (فأجابت) أى تلك النفس (فأسأت الظن) أى ظنى (بها) أى بإجابتها وانقيادها لذلك (وقلت: الله تعالى أصدق القائلين) حيث قال سبحانه وتعالى « إن النفس لأمارة بالسوء » (فقلت لها أقاتل العدو حاسرا) أى كاشفا للبدن بلا درع ومغفر أو بلا جنة : أى ترس (فتكونين أول قتيل) أى مقتول فى سبيل الله (فأجابت فأسأت الظن) أى ظنى (بها وعدد) أحمد بن أرقم (أشياء) من أنواع الخير (مما أرادها) أى تلك الأشياء (فأجابت) نفسه (إلى كل ذلك) أى الذى أرادها . (قال) ابن أرقم (فقلت

يَا رَبِّ نَبِّهْنِي لَهَا فَإِنِّي مُتَّهِمٌ لَهَا مُصَدِّقٌ لَكَ ، فَكُوشِفْتُ بِهَا كَأَنَّهَا تَقُولُ : يَا أَحْمَدُ أَنْتَ تَقْتُلُنِي كُلَّ يَوْمٍ بِمَنْعِكَ إِيَّايَ مِنْ شَهَوَاتٍ مَرَّاتٍ وَبِمُخَالَفَتِكَ وَلَا يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ ، فَإِنْ قَاتَلْتَ قُتِلْتَ قَتْلَةً وَاحِدَةً فَنَجَوْتُ مِنْكَ ، وَيَتَسَامَعُ النَّاسُ فَيَقُولُونَ : اُسْتُشْهِدَ أَحْمَدُ ، وَيَكُونُ لِي شَرَفٌ وَذِكْرٌ ، قَالَ فَقَعَدْتُ وَلَمْ أَخْرُجْ إِلَى الْغَزْوِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ ، فَانْظُرْ إِلَى خِدَاعِ النَّفْسِ وَغُرُورِهَا ، تُرَائِي النَّاسَ بَعْدَ الْمَوْتِ بِعَمَلٍ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ ،

يارب نبهني لها) أي النفس : أي لإرادتها (فإني متهم لها مصدق لك) أي لقولك (فكوشفت بها كأنها تقول) لي (يا أحمد أنت تقتلني كل يوم بمنعك إياي من شهواتي مرات وبمخالفتك ولا يشعر) أي لايعلم (به) أي بما ذكر من المنع والمخالفة (أحد) من الناس (فإن قاتلت) الكفار في صف القتال (قتلت) بالبناء للمفعول : أي قتلني خصمك (قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقولون استشهد) بالبناء للمفعول : أي قتل شهيدا (أحمد) بن أرقم (ويكون لي شرف وذكر) في الناس . (قال) ابن أرقم (فقعدت ولم أخرج إلى الغزو في ذلك العام) . قال المصنف رحمه الله تعالى (فانظر إلى خداع) بكسر الخاء (النفس وغرورها ترائي الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد) أي إلى الآن ، فتبين من هذه القصة أن حظ النفس في الطاعة باطن خفي بخلافه في المعصية فإنه ظاهر جلي . قال بعض العارفين : منذ عشرين سنة ماسكن قلبي إلى نفسي ساعة ، وسكون القلب إلى النفس هو اتباعه للأخف عليها دون الأثقل وهو معدود عندهم من نفاق القلب ومن بقي عليه شيء من دواعي الهوى وإن قلّ لايؤمن عليه من مثل هذا ، فخفة العمل على النفس إنما تكون لأجل موافقة هواها لايميل إلا إلى الباطل ، فإذا التبس عليك أمران واجبان أو مندوبان ولم تعلم أيهما أوجب أو أفضل لتقدمه على الآخر فانظر أثقلهما على نفسك فاعمل به ، هذا ميزان صحيح باعتبار غالب الأنفس لأنها مجبولة على الشرّ والشره ، وإنما قلنا باعتبار غالب الأنفس لأن النفس المطمئنة لاتوصف بالجهل ولا بالشره فقد يخف العمل عليها ولا يدلّ ذلك على أنه باطل فليكن نظر العبد حينئذ إلى ماهو أكثر فائدة وأعظم مزية فليقدّمه على غيره ، وقد ذكر الشيخ أبو طالب صاحب القوت رحمه الله حكاية عجيبة في شره النفس وكونها لاتميل إلا إلى الباطل . قال : حدّثني بعض إخواني عن بعض هذه الطائفة : قال قدم علينا بعض الفقراء فاشترينا من جار لنا حملا مشويا ودعوناه إليه في جماعة من أصحابنا ، فلما مد يده أخذ لقمة وجعلها في فيه ثم لفظها ثم اعتزل وقال : كلوا أنتم فإنه قد عرض لي عارض منعني من الأكل ، فقلنا لا نأكل إن لم تأكل ، فقال أنتم أعلم أما أنا فغير آكل ثم انصرف ، قال ففكرهنا أن نأكل

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ وَأَحْسَنَ فِيمَا قَالَ :

تَوَقَّ نَفْسَكَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

فَتَنَبَّهْ رَحِمَكَ اللهُ لِهٰذِهِ الْخَدَّاعَةِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ، وَوَطِّنْ عَلَى مُخَالَفَتِهَا قَلْبَكَ بِكُلِّ حَالٍ تُصِبْ وَتَسْلَمْ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

دونه فقلنا لو دعونا الشواء فسألناه عن أصل هذا الحمل فلعلّ له سببا مكروها فدعوناه فلم نزل به نسأله عنه حتى أقرّ أنه ميتة وأن نفسه شرهت إلى بيعه حرصا على ثمنه فشواه ووافق أنكم اشتريتموه ، قال فرميناه للكلاب ، قال ثم إنى لقيت الرجل بعد وقت فسألته لأى معنى تركت أكله وبأى عارض ؟ فقال أخبرك ما شرهت نفسى إلى طعام منذ عشرين سنة للرياضة التى ريضتها بها فلما قدمتم إلى هذا شرهت نفسى إليه شرها ما عهدته قبل ذلك فعلمت أن فى الطعام علة فكرهت أكله لأجل شدة شره النفس إليه . قال الشيخ أبو طالب رحمه الله : فانظر رحمك الله كيف اتفقا فى شره النفس على قصة واحدة ، ثم اختلفا بالتوفيق والخذلان ، فعصم العالم بالورع والمحاسبة ، وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وترك المراقبة ، أعنى البائع للحمل ، وعصم الآخرون للتوفيق بحسن الأدب وهو قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم ، ثم تدارك البائع بعد وقوعه بصدق المشترى وحسن نيته (ولقد صدق القائل وأحسن فيما قال) نظما من بحر البسيط (توقّ) أى احفظ (نفسك لا تأمن غوائلها) أى النفس جمع غائلة وهى الفساد والشر والمهلكة والفجور (فالنفس أخبث من سبعين شيطانا) وذلك لأن آفات النفس غامضة جدا . قال القشيرى صاحب الرسالة : ومن غوامض آفات النفس ركونها إلى استحلاء المدح ، فان من تحسى منه جرعة حمل السموات والأرضين على شفر من أشفاره ؛ وأمارة ذلك أنه إذا انقطع عنه ذلك الشرب آل حاله إلى الكسل والفشل .

كان بعض المشايخ يصلى فى مسجده فى الصف الأول سنين كثيرة فعاقه يوما عن الابتكار إلى المسجد عائق ، فصلى فى الصف الأخير فلم ير مدة فسئل عن السبب ؟ فقال كنت أقضى صلاة كذا وكذا سنة صليتها ، وعندى أنى مخلص فيها لله فداخلنى يوم تأخرى عن المسجد من شهود الناس إياى فى الصف الأخير نوع خجل ، فعلمت أن نشاطى طول عمرى إنما كان على رؤيتهم فقضيت صلواتى . ومثل ذلك ما حكى عن أبى محمد المرتعش كما تقدم بيانه (فتنبه) أى تيقظ من نوم غفلتك (رحمك الله) جملة دعائية (لهذه) النفس (الخداعة الأمارة بالسوء ووطن) أى قرر أنت (على مخالفتها) أى هذه الخداعة (قلبك بكل حال تصب) إلى طريق الحق (وتسلم) عن المعاصى (إن شاء الله تعالى) وذلك لأن النفس هى الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى وأن بمجاهدتها وقمعها وموتها تنال سعادة لقاء الله تعالي . قال بعضهم : ما الحياة إلا فى الموت :

ثُمَّ عَلَيْكَ بِإِلْجَامِهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى لا حِيلَةَ لَهَا سِوَاهُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا أَصْلاً أَصِيلاً وَهُوَ أَنَّ الْعِبَادَةَ شَطْرَانِ : شَطْرُ الاُكْتِسَابِ ، وَشَطْرُ الِاجْتِنَابِ ؛ فَالاُكْتِسَابُ: فِعْلُ الطَّاعَاتِ ، وَالِاجْتِنَابُ: الِامْتِنَاعُ عَنِ الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ وَهُوَ التَّقْوَى ، وَأَنَّ شَطْرَ الِاجْتِنَابِ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْلَمُ وَأَصْلَحُ وَأَفْضَلُ وَأَشْرَفُ لِلْعَبْدِ مِنْ شَطْرِ الاُكْتِسَابِ ، وَلِذٰلِكَ يَشْتَغِلُ الْمُبْتَدِئُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِبَادَةِ الَّذِينَ هُمْ فِي أَوَّلِ دَرَجَةٍ مِنَ الِاجْتِهَادِ بِشَطْرِ الاُكْتِسَابِ ، كُلُّ هِمَّتِهِمْ أَنْ يَصُومُوا نَهَارَهُمْ وَيَقُومُوا لَيْلَهُمْ وَنَحْوُ ذٰلِكَ ، وَيَشْتَغِلُ الْمُنْتَهُونَ أُولُو الْبَصَائِرِ

أى ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس . وقيل : النعمة العظمى الخروج عن النفس لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالي . وقال أبو مدين قدس سره : من لم يمت لم ير الحق ؛ وقد عبر الإمام أبو القاسم القشيرى رحمه الله عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة فقال : قتل النفس فى الحقيقة التبرّى من حولها وقوتها أو شهود شيء منها ، ورد دعاويها إليها ، وتشويش تدبيرها عليها ، وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه بجملتها ، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها ، وانمحاء آثار بشريتها عنها ، فأما بقاء الرسوم والهياكل فلا خطر لها ولا عبرة انتهى ، فهذه هى السبيل إلي موت النفس المفضى إلى حضرة القدس لكونه جاريا على مقتضى الشريعة والحقيقة اللتين بأنوارهما يهتدى كل سالك ومريد . (ثم عليك) أى الزم (بالجامها) أي تلك الخدّاعة (بلجام التقوى لا حيلة لها سواه) أى سوى هذا الالجام باللجام المذكور . (واعلم أن ههنا) أى فى مبحث النفس (أصلا أصيلا) أى له أصل (وهو) أى ذلك الأصل الأصيل (أن العبادة شطران) أى جزآن : الأول (شطر الاكتساب . و) الثانى (شطر الاجتناب) ، فالاكتساب فعل الطاعات (والاجتناب الامتناع عن المعاصى والسيئات ، وهو) أى فعل الطاعات وامتناع المعاصى (التقوي) ولكن الاجتناب هو الأشد والأثقل من الاكتساب ، ولذلك كان أكثر ثوابا منه ، لأن الطاعة يقدر على فعلها كل أحد ، وترك المناهى لا يقدر عليه إلا الصديقون ، فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » (وأن شطر الاجتناب على كل حال أسلم وأصلح وأفضل وأشرف للعبد من شطر الاكتساب ، ولذلك) أى المذكور من أن شطر الاجتناب أسلم فى كل حال (يشتغل المبتدئون من أهل العبادة الذين هم فى أول درجة من الاجتهاد بشطر الاكتساب كل همتهم) أى المبتدئين (أن يصوموا نهارهم ويقوموا) أى يصلوا (ليلهم ونحو ذلك) أى صيام النهار وقيام الليل من العبادات الظاهرة (ويشتغل المنتهون أولو) أى أصحاب (البصائر) جمع بصيرة وهى ناظر القلب كما أن البصر ناظر العين وناظر القلب إنما ينظر إلى العاقبة

مِنْ أَهْلِ الْعِبَادَةِ بِشَطْرِ الاُجْتِنابِ ، إِنَّمَا هِمَّتُهُمْ أَنْ يَحفَظُوا قُلُوبَهُمْ عَنِ المَيْلِ إِلى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى ، وَبُطُونَهُمْ عَنِ الْفُضُولِ ، وَأَلْسِنَتَهُمْ عَنِ اللَّغْوِ ، وَأَعْيُنَهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَالاَ يَعْنِيهِمْ عَنِ النَّظَرِ .

وَلِهذَا المَعْنَى قالَ الْعَابِدُ الثَّانِى مِنَ الْعُبَّادِ وَكَانُوا سَبْعَةً لِيُونُسَ ، يَا يُونُسُ : إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ فَلاَ يُؤْثِرُونَ عَلَيْهَا شَيْئاً ، وَهِيَ عَمُودُ الْعِبَادَةِ بِالثَّبَاتِ لِلهِ وَالصِّدْقِ وَالتَّضَرُّعِ وَالاُبْتِهَالِ ،

والعاقبة للمتقين (من أهل العبادة بشطر الاجتناب إنما همتهم) أى المنتهين (أن يحفظوا قلوبهم عن الميل إلى غير الله تعالى ، و) يحفظوا (بطونهم عن الفضول) بأكل الشهوات (وألسنتهم عن اللغو) والكلام الذى لا فائدة فيه (وأعينهم عن النظر إلى مالا يعنيهم) أى مالا ينفعهم فى الدنيا والآخرة (ولهذا المعنى) الذى ذكر من اشتغال الفريقين بالشطرين (قال العابد الثانى من العباد) بضم العين جمع عابد (وكانوا سبعة ليونس) النبى عليه الصلاة والسلام (يا يونس إن من الناس من حبب) بالبناء للمفعول (إليهم) جمع الضمير مراعاة لمعنى من (الصلوات فلا يؤثرون) أى لا يختارون (عليها) أى الصلوات (شيئا ، وهى) أى تلك الصلوات (عمود العبادة) وأساسها (بالثبات لله والصدق والتضرع والابتهال) .

اعلم أن الصلاة المعتبرة الكاملة إنما هى صلاة الخاشعين لا صلاة الغافلين التى لاتنتهض لبلوغ المقاصد السنية وهى طهارة القلوب من أدناس الذنوب واستفتاح لباب الغيوب ، ولذلك كانت الصلاة أم العبادات وأساس الخيرات . قال الله تعالى « وأقم الصلاة لذكرى » فأخبر أن المراد من الصلاة الذكر ، وقد روى معنى ذلك عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله » ولذلك كانت قرة عين حبيب الله صلى الله عليه وسلم .

وفى بعض الأخبار « إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى السماء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وإن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ويناديه مناد لو يعلم المناجى من يناجى ما انتقل ، وإن أبواب السماء تفتح للمصلى ، وإن الله يباهي ملائكته بصفوف المصلين » .

وفى التوراة « يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدى مصليا باكيا فأنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى » وكانوا يرون أن تلك الرقة والبكاء وذلك الفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه من دنو الرب من القلب . وقال محمد بن على الترمذى رحمه الله : دعا الله تعالى الموحدين

وَمِنْهُمْ مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الصَّوْمُ فَلَا يُؤْثِرُونَ عَلَيْهِ شَيْئاً ، وَمِنْهُمْ مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ فَلَا يُؤْثِرُونَ عَلَيْهَا شَيْئاً ، يَا يُونُسُ وَأَنَا مُفَسِّرٌ لَكَ هٰذِهِ الْخِصَالَ ، فَاجْعَلْ طُولَ صَلَاتِكَ الصَّبْرَ عَلَى الْبَأْسَاءِ وَالتَّسْلِيمَ لِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَاجْعَلْ صَوْمَكَ الصَّمْتَ عَنْ كُلِّ سُوءٍ ،

إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم وهيأ لهم ألوان الضيافات لينال العبد من كل فعل وقول شيئا من عطاياه ؛ فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة وهى عرس الموحدين هيأها رب العالمين لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس . وقال أبو طالب المكى رحمه الله : حدثت أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرض خوفا منه لأنه تأهب للدخول على الملك فاذا كبر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه ، وواجهه الجبار بوجهه الكريم ، فاذا قال الله أكبر اطلع الملك على قلبه ، فاذا كان ليس فى قلبه أكبر من الله فيقول الملك صدقت الله أكبر فى قلبك كما تقول ، قال فيشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش فيكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض ويكتب له حشو ذلك النور حسنات . قال وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب نقطة العسل فاذا كبر اطلع الملك على قلبه فاذا كان كل شىء فى قلبه أكبر من الله عنده فيقول الملك كذبت ليس الله أكبر فى قلبك كما تقول . قال فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت . قال : فيرد ذلك الحجاب صلاته وتلتقم الشياطين قلبه ، فلا تزال تنفخ فيه وتنفث وتوسوس إليه وتزين له حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه (ومنهم) أى الناس (من حبب إليهم الصوم فلا يؤثرون عليه) أى الصوم (شيئا ، ومنهم من حبب إليهم الصدقة فلا يؤثرون عليها) أى الصدقة (شيئا ، يا يونس وأنا مفسر) أى مبين (لك هذه الخصال) المذكورة من الصلاة والصدقة والصوم (فاجعل طول صلاتك الصبر على البأساء) أى الشدة (و) اجعل ذلك (التسليم) والتفويض (لأمر الله عز وجل واجعل صومك الصمت) أى السكوت (عن كل سوء) ومن هنا قال وهب بن منبه : أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت : أى عن السوء . قال العلامة ابن حجر حتى عن المباح لأنه ربما أدى إلى محرم أو مكروه ؛ وعلى فرض أن لا يؤدى إليهما ففيه ضياع الوقت فيما لا يعنى . وفى الحديث «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه» . وقال الفضيل بن عياض : لا حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان . وقال لقمان لابنه : لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب . قال ابن المبارك : معناه لو كان الكلام بطاعة الله تعالى من فضة كان السكوت عن معصية الله تعالى من ذهب وهو صريح فى أن الكف عن المعصية أفضل من عمل الطاعة وأن الصمت أفضل من الكلام . وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رحمه الله : الصمت سلامة وهو الأصل ، والسكوت فى وقته صفة الرجال كما أن النطق فى وقته من

أشرف الخصال ، وسمعت أبا على الدقاق يقول : من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس . قال : فأما إيثار أهل المجاهدة السكوت ، فلما عرفوا مافى الكلام من الآفات ثم مافيه من حظوظ النفس وإظهار صفات المدح والميل إلى أن يتميز من بين أشكاله بحسن النطق وغير هذا من الآفات وذلك نعت أرباب الرياضة ، وهذا أحد أركانهم فى المنازلة وتهذيب الخلق . وقال ذو النون : أصون الناس لنفسه أملكهم للسانه ، وبالجملة فاللائق بمن يؤمن بالله تعالى حق إيمانه وباليوم الآخر ، ووقوع الجزاء فيه أن يستعد له ويجتهد فيما يدفع به أهواله ومكارهه ، فيأتمر بأوامره تعالى ، وينتهى عن مخالفته ، ويعلم أن من أهم ما عليه ضبط جوارحه فانها رعاياه وهو مسئول عنها جارحة جارحة . قال الله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ويعلم أن من أكثر المعاصى عددا ، وأيسرها وقوعا معاصى اللسان ، إذ آفاته تزيد على العشرين ، ومن ثم قال تعالي « وقولوا قولا سديدا » . وقال صلى الله عليه وسلم « أمسك عليك لسانك » . وقال صلى الله عليه وسلم « وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » وأفاد هذا الحديث كما قاله ابن حجر أن قول الخير خير من الصمت لتقدمه عليه ولأنه إنما أمر به عند عدم قول الخير ، وأن الصمت خير من قول الشر ، وأن قول الخير غنيمة ، والسكوت عن الشر سلامة . وأن فوات الغنيمة والسلامة ينافى حال المؤمن وما يقتضيه شرف الإنسان المشتق من الأمان ولا أمان لمن فاتته الغنيمة والسلامة ، وأن الإنسان إما أن يتكلم أو يسكت ؛ فان تكلم فإما بخير وهو ربح ، وإما بشر وهو خسارة ؛ وإن سكت فاما عن شر وهو ربح ، وإما عن خير وهو خسارة ، فله فى كلامه وسكوته ربحان ، فينبغى أن يحصلهما أو خسارتان فينبغى أن يجتنبهما . قيل : وهذا الأمر عام مخصوص بما لو أكره على قول شر أو سكوت عن خير أو نسى أو خاف على نفسه من قول الخير ونحوه كخبر « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وخبر « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » انتهى ، ولا يحتاج لذلك لأن رفع القلم عن الناسى والمكره من القواعد الشرعية المقررة ، فجميع الأوامر والنواهى مخصوصة بها فى ذهن كل عالم بذلك معتقدا له ، فلا خصوصية لتخصيص هذا الحديث بها على أن التعبير بالخير وبالسكوت فى مقابلته الدال على أنه خير أيضاً دليل على ذلك التخصيص . لأن المكره عليه منهما يصير خيرا أيضا : أى مباحا ، وعند النسيان هو خير أيضا لارتفاع العقاب ، فلا يحتاج مع ذلك إلى دعوى تخصيص كما نبه عليه العلامة ابن حجر .

[تنبيه] التزام الصمت مطلقا واعتقاده قربة إما مطلقا أو فى بعض العبادات كالصوم والحج منهى عنه ، ففي خبر أبى داود « لاصمات يوم إلي الليل » . وأخرج الاسماعيلى النهى عنه فى الاعتكاف ، وروى أيضا فى الصوم ، وآثر يصمت على يسكت لأنه أخص إذ هو السكوت مع القدرة وهذا هو المأمور به . وأما السكوت مع العجز لفساد آلة النطق فهو الخرس ، أو لتوقفها فهو العى وكلا هذين : أي الخرس والعى لايحسن الأمر معه بالسكوت ، وذلك لأن الأمر إنما يكون بالأفعال

وَاجْعَلْ صَدَقَتَكَ كَفَّ الْأَذَى ، فَإِنَّكَ لَا تَتَصَدَّقُ بِشَىْءٍ أَفْضَلَ مِنْهُ ، وَلَا تَصُومُ بِشَىْءٍ أَزْكَى مِنْهُ ، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ جَانِبَ الِاجْتِنَابِ أَوْلَى بِالرِّعَايَةِ وَالِاجْتِهَادِ فِيهِ ، فَإِنْ حَصَلَ لَكَ الشَّطْرَانِ جَمِيعاً : الِاكْتِسَابُ وَالِاجْتِنَابُ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَمْرُكَ وَحَصَلَ مُرَادُكَ وَقَدْ سَلِمْتَ وَغَنِمْتَ، وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ إِلَّا إِلَى أَحَدِهِمَا فَلْيَكُنْ ذَلِكَ جَانِبَ الِاجْتِنَابِ فَتَسْلَمَ إِنْ لَمْ تَغْنَمْ وَإِلَّا خَسِرْتَ الشَّطْرَيْنِ جَمِيعاً، وَمَا يَنْفَعُكَ قِيَامُ لَيْلٍ وَتَعَبُهُ ثُمَّ تُحْبِطُهُ بِإِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ ،

الاختيارية ، وكلا هذين اضطرارى فلا يتأتى التكليف به (واجعل صدقتك كف الأذى) أى دفعه وصرفه ومنعه ، وفى ذلك إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر فى المال ، كما دل عليه خبر الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » ثم شرط الثواب على هذه الأعمال كما قاله العلامة ابن حجر : خلوص النية فيها وفعلها لله تعالى وحده كما دل عليه حديث صحيح ابن حبان ، فانه صلى الله عليه وسلم ذكر فيه خصالا : كالتصدق ، وقول المعروف ، وإعانة الضعيف ، وترك الأذى ، ثم قال : « والذى نفسى بيده ما من عبد يعمل بخصلة منها يريد بها ما عند الله إلا أخذت بيده يوم القيامة حتى يدخل الجنة » وهو مستمد من قوله تعالى « إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » وبهذا يرد ماروى عن الحسن وابن سيرين « أن من أعطى آخر شيئا حياء منه له فيه أجر » وأبو نعيم فى الحلية عن ابن سيرين « أن من تبع جنازة حياء من أهلها له أجر لصلته الحى » (فإنك لاتتصدق بشىء أفضل منه) أى من كف الأذى ودفعه (ولا تصوم بشىء أزكى) أى أطهر (منه) أى من الصمت عن جميع السوء (فإذا) أى إذا كان الأمر كذلك (علمت أن جانب الاجتناب) عن المعاصى (أولى) أى أحق (بالرعاية والاجتهاد فيه) أى فى جانب الاجتناب عما ذكر (فإن حصل لك الشطران) أى الجزآن (جميعا) وهما (الاكتساب والاجتناب، فقد استكمل أمرك وحصل مرادك ، وقد سلمت وغنمت) وربحت ربحا عظيما (وإن لم تبلغ إلا إلى أحدهما) أى الشطرين (فليكن ذلك) أى الذى بلغته من أحدهما (جانب الاجتناب فتسلم إن لم تغنم ، وإلا) أى إن لم يكن الذى بلغته جانب الاجتناب ، بل هو الاكتساب مع عدم رعاية الاجتناب عن المعاصى (خسرت الشطرين) خسرانا مبينا (جميعا ، وما) أى ليس (ينفعك قيام ليل) أى صلاته وغيرها من الأوراد (وتعبه ثم تحبطه بإرادة واحدة) من الرياء والعجب والحسد ونحوها من الصفات

وَمَا يُغْنيكَ صِيامُ نَهارٍ طَوِيلٍ ثُمَّ تُفْسِدُه بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَلَقَدْ رَوَيْنا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : مَا تَقُولُ فِي رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا كَثِيرُ الخَيْرِ كَثِيرُ الشَّرِّ ؛ وَالآخَرُ قَلِيلُ الخَيْرِ قَلِيلُ الشَّرِّ : قَالَ لَا أَعْدِلُ بِالسَّلَامَةِ شَيْئًا .

وَمِثَالُ مَا قُلْنَاهُ حَالُ المَرِيضِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُعَالَجَةَ المَرِيضِ نِصْفَانِ : نِصْفٌ هُوَ الدَّوَاءُ وَنِصْفٌ هُوَ الاِحْتِمَاءُ ، فَإِنِ اجْتَمَعَا فَكَأَنَّكَ بِالمَرِيضِ قَدْ بَرِئَ وَصَحَّ ، وَإِلَّا فَالاِحْتِمَاءُ بِهِ أَوْلَى إِذْ لَا يَنْفَعُ دَوَاءٌ مَعَ تَرْكِ الاِحْتِمَاءِ ، وَلَقَدْ يَنْفَعُ الاِحْتِمَاءُ مَعَ تَرْكِ الدَّوَاءِ .

وَلَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَصْلُ كُلِّ دَوَاءٍ الحِمْيَةُ » وَالمَعْنِيُّ بِهَا وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا تُغْنِي عَنْ كُلِّ

المهلكات (وما يغنيك) أى ليس يكفيك (صيام نهار طويل ثم تفسده بكلمة واحدة) والمراد بها مافيه إيذاء مسلم ونحوه دون مجرد المزاح المباح ، ففي الخبر « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها أصحابه فيهوى بها فى قعر جهنم سبعين خريفا » .

وذكر بعضهم أن الكلام أربعة أقسام : ضرر محض ونفع محض وضرر ومنفعة ولا ضرر ولا منفعة ، فالضرر المحض لابد من السكوت عنه ، وكذلك مافيه ضرر ومنفعة ولا تفى المنفعة بالضرر ، وأما مالا ضرر فيه ولامنفعة فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى إلا القسم الواحد فيسقط ثلاثة أرباع الكلام ، وفيه خطر إذا كان يجر مافيه إثم من الرياء والتصنع ونحوهما (ولقد روينا عن) ترجمان القرآن عبد الله (بن عباس رضى الله عنه أنه قيل له ماتقول فى) شأن (رجلين أحدهما كثير الخير كثير الشر ، والآخر قليل الخير قليل الشر ؟ قال) ابن عباس (لا أعدل) ولا أسوى (بالسلامة شيئا) قال المصنف (ومثال ماقلناه) أى من أن للعبادة شطرين (حال المريض ، و) بيان (ذلك) أى المثال (أن معالجة المريض) أى مداواته (نصفان نصف هو الدواء ، ونصف هو الاحتماء) أى الامتناع عما يضره (فإن اجتمعا) أى الدواء والاحتماء (فكأنك) نظرت (بالمريض قد برئ) أى تعافى وشفى . فى المختار برئ من المرض بالكسر برءا بالضم ، وعند أهل الحجاز برأ من المرض من باب قطع (وصح) أى ذلك المريض من مرضه (وإلا) أى وإن لم يجتمع هذان النوعان (فالاحتماء به) أى بالمريض (أولى إذ لاينفع دواء مع ترك الاحتماء ، ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء ، ولقد قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم : أصل كل دواء الحمية) أى الحفظ مما يتضرر به ، وهذا الحديث رواه ابن أبى الدنيا ، وقد تقدم مثله (والمعنى بها والله أعلم) جملة معترضة (أنها) أى الحمية (تغنى) أى تكفى (عن كل

دَوَاءٍ ، وَلِذَا يُقَالُ إِنَّ أَهْلَ الْهِنْدِ جُلُّ مُعَالَجَتِهِمُ الْحِمْيَةُ بِمَنْعِ الْمَرِيضِ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْكَلَامِ عِدَّةَ أَيَّامٍ فَيَبْرَأُ وَيَصِحُّ بِذَٰلِكَ لَا غَيْرُ. فَتَبَيَّنَ لَكَ بِهَٰذِهِ أَنَّ التَّقْوَى مِلَاكُ الْأَمْرِ وَجَوْهَرُهُ ، أَهْلُهَا هُمُ الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا مِنَ الْعُبَّادِ ، فَعَلَيْكَ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِي ذَٰلِكَ وَصَرْفِ كُلِّ الْعِنَايَةِ إِلَى ذَٰلِكَ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِرَحْمَتِهِ .

﴿ فصل ﴾ ثُمَّ رَاعِ هَٰذِهِ الْأَعْضَاءَ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي هِيَ الْأُصُولُ .

الْأَوَّلُ : الْعَيْنُ وَحَسْبُكَ فِيهَا أَنَّ مَدَارَ أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى الْقَلْبِ ، وَأَنَّ خَطَرَ الْقَلْبِ وَشُغْلَهُ وَفَسَادَهُ فِي الْأَكْثَرِ مِنَ الْعَيْنِ ، وَلِذَٰلِكَ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : مَنْ لَمْ يَمْلِكْ عَيْنَهُ فَلَيْسَ لِلْقَلْبِ عِنْدَهُ قِيمَةٌ .

وَالثَّانِي : اللِّسَانُ

دواء ، ولذا) أى لأجل أن الحمية تغني عن كل دواء (يقال إن أهل الهند جل) أى أكثر (معالجتهم الحمية) وذلك (بمنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدة أيام فيبرأ) المريض (ويصح) من مرضه (بذلك) أى بالاحتماء (لاغير) أى غير الحمية (فتبين لك بهذه الجملة) المذكورة (أن التقوى) أى امتثال الأوامر واجتناب النواهى (ملاك الأمر) أى أمر الدين . فى المختار ملاك بفتح الميم وكسرها مايقوم به (وجوهره) أى حقيقة أمر الدين، وفى [سراج السالكين] الجوهر والذات والحقيقة والماهية كلها ألفاظ مترادفة (وأهلها) أى التقوى (هم الطبقة العليا من العباد) جمع عابد (فعليك ببذل المجهود فى ذلك) أى فى تحصيل التقوى (وصرف كل العناية) أى القصد (إلي ذلك) أى ماذكر من التقوى (والله سبحانه ولى التوفيق برحمته) تعالى .

﴿ فصل ﴾

فى رعاية الأعضاء الأربعة التى هى العين واللسان والبطن والقلب

(ثم راع) أى احفظ (هذه الأعضاء الأربعة التى هي الأصول الأول العين وحسبك فيها) أى فى العين (أن مدار أمر الدين والدنيا على القلب و) حسبك (أن خطر القلب وشغله وفساده فى الأكثر من العين ، ولذلك) أى لأجل أن خطر القلب وشغله وغيره من العين (قال) أمير المؤمنين سيدنا (على) بن أبى طالب (رضى الله عنه : من لم يملك) أى يمسك (عينه) عما لايعنيه فى الدنيا والآخرة (فليس للقلب عنده قيمة والثانى) من الأعضاء الأربعة (اللسان)

وَحَسْبُكَ أَنَّ فِيهِ رِبْحَكَ وَغَنِيمَتَكَ وَثَمَرَةَ تَعَبِكَ وَاجْتِهَادِكَ كُلِّهِ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ ، وَأَنَّ خَطَرَ الْعِبَادَةِ وَإِحْبَاطَهَا وَإِفْسَادَهَا فِى الْأَكْثَرِ مِنْ قِبَلِ اللِّسَانِ بِالتَّصَنُّعِ وَالتَّزَيُّنِ وَالْغِيبَةِ وَنَحْوِهَا يُتْلِفُ عَلَيْكَ بِلَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ مَاتَعِبْتَ فِيهِ سَنَةً وَاحِدَةً بَلْ خَمْسًا وَعَشْرًا ، وَلِذَٰلِكَ قِيلَ : مَا شَىْءٌ أَحَقَّ بِطُولِ السِّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ .

وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق ، ولا يكب الناس فى النار علي مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؛ فاطلب الغلبة عليه بغاية قوتك حتى لايكبك فى قعر جهنم (وحسبك أن فيه) أى فى اللسان (ربحك وغنيمتك وثمرة تعبك واجتهادك كله للعبادة والطاعة و) حسبك (أن خطر العبادة وإحباطها وإفسادها) بمعنى واحد ، يقال حبط العمل حبطا من باب تعب ، وحبوطا فسد وهدر وحبط يحبط من باب ضرب لغة وقرئ بها فى الشواذ ، وحبط دم فلان حبطا من باب تعب هدر وأحبطت العمل والدم بالألف أهدرته كذا قاله الفيومى (فى الأكثر) والأغلب (من قبل اللسان) بكسر القاف وفتح الباء : أى من جهته (بالتصنع) أى تكلف حسن الصمت والتزين مع الإظهار عن النفس فعلا ليس فيه (والتزين والغيبة ونحوها) أى من آفات اللسان (يتلف) بضم الياء : أى يفسد هذا اللسان (عليك بلفظة واحدة ماتعبت) أى من الطاعة (فيه) أى فى فعله (سنة واحدة بل خمسا وعشرا) من السنين (ولذلك) أى لأجل الإتلاف المذكور (قيل) أى قال ابن مسعود رضى الله عنه : والله الذى لا إله إلا هو (ماشىء أحق بطول السجن) والحبس (من اللسان) لأنه أقوى أسباب الهلاك فى الدنيا والآخرة . وذكر عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه : يابنى من يصحب صاحب السوء لم يسلم ، ومن يدخل مدخل السوء يتهم ، ومن لايملك لسانه يندم ، وعن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال « طوبى لمن ملك لسانه ووسعه بيته وبكى على خطيئته » . وروى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : كانوا يقولون إن لسان الحكيم من وراء قلبه ، فإذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه ، فإن كان له قال ، وإن كان عليه أمسك ، وإن الجاهل قلبه على طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما أتى على لسانه تكلم . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن لقمان الحكيم دخل على داود النبي صلي الله عليه وسلم وكان داود يسرد الدرع فجعل يتعجب مما يرى ، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله فلما فرغ داود عليه السلام قام فلبس الدرع ثم قال : نعم الدرع للحرب ، ونعم عامله . قال لقمان : الصمت حكمة وقليل فاعله . وفى موضع أنه كان يختلف إليه سنة ويريد أن يسأله فلما فرغ منه لبسه وقال : ما أحسن هذا الدرع للحرب ، فقال لقمان : الصمت حكمة وقليل فاعله .

قال بعض الحكماء : إن جسد ابن آدم ثلاثة أجزاء ، فجزء منها قلبه ، والثانى لسانه ، والثالث الجوارح ، وقد أكرم الله تعالى كل جزء بكرامة ، فأكرم القلب بمعرفته وتوحيده ، وأكرم اللسان بشهادة أن لا إله إلا الله وتلاوة كتابه ، وأكرم الجوارح بالصلاة والصوم وسائر الطاعات ووكل

على كل جزء رقيبا وحفيظا ، فتولى حفظ القلب بنفسه فلا يعلم مافى ضمير العبد إلا الله ، ووكل على لسانه الحفظة . قال الله تعالي « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وسلط على الجوارح الأمر والنهى ، ثم إنه يريد من كل جزء وفاء ، فوفاء القلب أن يثبت على الإيمان وأن لا يحسد ولا يخون ولا يمكر ، ووفاء اللسان أن لا يغتاب ولا يكذب ولا يتكلم بما لا يعنيه ، ووفاء الجوارح أن لا يعصى الله تعالى ولا يؤذى أحدا من المسلمين ، فمن وقع من القلب فهو منافق ومن وقع من اللسان فهو كافر ومن وقع من الجوارح فهو عاص . وعن الحسن البصرى رحمه الله : نظر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلى شاب فقال يا شاب إن وقيت شر ثلاث فقد وقيت شر الشباب ، إن وقيت شر لقلقك يعنى لسانك وذبذبك يعنى فرجك وقبقبك يعنى بطنك .

وذكر أن لقمان الحكيم كان عبداً حبشيا ، فأول ما ظهر من حكمته أنه قال له مولاه يا غلام اذبح لنا هذه الشاة وائتنى بأطيب مضغتين منها فجاء بالقلب واللسان ، ثم قال مرة أخرى اذبح لنا هذه الشاة وائت بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله عن ذلك ، فقال : ليس فى الجسد مضغتان أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه لما بعث معاذاً إلي اليمن ، فقال يانبى الله أوصنى ، فأشار إلى لسانه يعنى عليك بحفظ اللسان فكأنه تهاون به فقال يا نبى الله أوصنى قال ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » . وروى عن سفيان الثورى أنه قال : لأن أرمي رجلا بسهم أحب إلي من أرميه بلسانى ، لأن رمى اللسان لا يخطىء ورمي السهم قد يخطىء . وروى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قام عند الكعبة فقال : ألا من عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا جندب بن جنادة الغفارى أبو ذر هلموا إلي أخ ناصح شفيق عليكم فاجتمع الناس حوله ، فقال : يا أيها الناس من أراد منكم سفراً من أسفار الدنيا لا يفعل ذلك إلا بزاد فكيف من يريد سفر الآخرة بلا زاد ؟ قالوا وما زادنا يا أبا ذر ؟ قال : صلاة ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور ، وصوم فى حر شديد ليوم النشور ، وصدقة على المساكين لعلكم تنجون من عذاب يوم عسير ، وحج لعظائم الأمور واجعلوا الدنيا مجلسين : مجلسا فى طلب الدنيا ، ومجلسا فى طلب الآخرة ، والثالث يضر ولا ينفع ، واجعلوا الكلام كلمتين كلمة نافعة فى أمر دينكم ، وكلمة باقية فى أمر آخرتكم ، والثالث يضر ولا ينفع ، واجعلوا المال درهمين درهما أنفقه على عيالك ، ودرهما قدمه لنفسك ، والثالث يضر ولا ينفع ثم قال أوه قتلنى هم يوم لا أدركه قيل وما ذاك ؟ قال إن أملي قد جاوز أجلي فقعدت عن عملى ، وذكر عن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أنه قال لا تكثروا الكلام فى غير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم والقلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون وما أحسن قول بعضهم :

وإن من أبعد قلوب الناس من ربنا الرحيم قلب قاسى

وروى عن أبى بكر بن عياش أنه قال : أربعة من الملوك تكلم كل واحد منهم بكلمة كأنها رمية رميت من قوس واحدة . قال كسري : لا أندم على مالم أقل ، وقد أندم على ما قلت .

وَفِيمَا رُوِيَ أَنَّ أَحَدَ الْعُبَّادِ السَّبْعَةِ قَالَ لِيُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا يُونُسُ إِنَّ الْعُبَّادَ إِذَا اجْتَهَدُوا فِى الْعِبَادَةِ لَمْ يَتَقَوَّوا عَلَى عِبَادَتِهِمْ بِشَىْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الصَّبْرِ عَنْ تَرْكِ الْكَلَامِ فِى فَصْلٍ طَوِيلٍ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى ذٰلِكَ فَقَالَ : وَلَا يَكُونَنَّ

وقال ملك الصين : مالم أتكلم بالكلمة فأنا أملكها ، فان تكلمت بها ملكتنى ، وقال قيصر ملك الروم : أنا على رد مالم أقل أقدر منى على رد ما قلت . وقال ملك الهند : العجب ممن يتكلم بكلمة إن هى رفعت ضرته وإن لم ترفع لم تنفعه وروى عن الربيع بن خيثم أنه كان إذا أصبح وضع قرطاسا وقلما ولا يتكلم بشىء إلا كتبه وحفظه ثم يحاسب نفسه عند المساء . قال أبو الليث رحمه الله : هكذا كان عمل الزهاد أنهم كانوا يتكلفون لحفظ اللسان ويحاسبون أنفسهم فى الدنيا ، وهكذا ينبغى للمسلم أن يحاسب نفسه فى الدنيا قبل أن يحاسب فى الآخرة ، لأن حساب الدنيا أيسر من حساب الآخرة ، وحفظ اللسان فى الدنيا أيسر من ندامة الآخرة . وروى عن إبراهيم التيمى أنه قال : حدثنى من صحب الربيع بن خيثم عشرين سنة فما سمع منه كلمة يعاب بها . وقال موسى بن سعيد : لما أصيب الحسين بن على رضى الله عنهما يعنى قتل ، فقال رجل من أصحاب الربيع إن تكلم الربيع فاليوم يتكلم ، فجاء حتى فتح الباب وأخبره بأن الحسين قد قتل فنظر إلى السماء ، فقال « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » ولم يزد على ذلك شيئا . وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى للعاقل أن لا يكون شاخصا إلا فى ثلاث : مرمة لمعاشه ، أو خلوة لمعاده ، أو لذة فى غير محرم » وقال « ينبغى للعاقل أن يكون له فى النهار أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يأتى فيها أهل العلم الذين يبصرونه بأمر دينه ودنياه وينصحونه ، وساعة يخلى بين نفسه ولذاتها فيما يحل ويجمل » وقال « ينبغى للعاقل أن ينظر فى شأنه ويعرف أهل زمانه ويحفظ فرجه ولسانه » قال العلامة السمرقندى : وذكر أن هذه الكلمات مكتوبة فى حكمة آل داود ، وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أربع لاتصير إلا فى مؤمن : الصمت وهو أول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله تعالي وقلة الشر » وذكر عن عيسى بن مريم عليه السلام بهذا اللفظ (وفيما روى أن أحد العباد السبعة قال ليونس) النبى (عليه) الصلاة و (السلام : يايونس إن العباد) جمع عابد (إذا اجتهدوا فى العبادة لم يتقووا) أى لم يطلبوا القوة (على عبادتهم بشىء أفضل من الصبر عن ترك الكلام) فيما لا ينفعهم (فى فصل) أي زمن (طويل) فسكت العابد عن الكلام بما ذكر (ثم عاد إلى ذلك) أى إلى التكلم مخاطبا ليونس عليه السلام (فقال) العابد (ولا يكونن

عِنْدَكَ شَيْءٌ آثَرُ مِنْ حِفْظِ لِسَانِكَ ، وَلَا تَكُونَنَّ لِشَيْءٍ أَعْنَى بِهِ مِنْ سَلَامَةِ صَدْرِكَ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

ثُمَّ اذْكُرِ الْأَنْفَاسَ الَّتِي تَكَلَّمْتَ فِيهَا بِفُضُولِ مَا كَانَ يَضُرُّكَ لَوْ قُلْتَ : أَسْتَغْفِرُ اللّٰهَ فَرُبَّمَا يُوَافِقُ سَاعَةً عَزِيزَةً فَيَغْفِرُ اللّٰهُ لَكَ فَتَرْبَحُ رَأْسَ مَالِكَ ،

عندك شيء آثر) أى أفضل وأشد اختصاصا (من حفظ لسانك ولا تكونن لشيء أعنى) أى أحفظ وأكثر عناية (به) أى بذلك الشيء (من سلامة صدرك) أى قلبك (فهذه) الجملة (هذه) أى هى الموصوفة بالعظمة والكمال (ثم اذكر) بقلبك (الأنفاس التى تكلمت فيها) أى الأنفاس (بفضول ما كان) من الكلام (يضرك لو قلت) مكان كلامك بالفضول (أستغفر الله) ونحوه من عبارات الاستغفار (فربما يوافق) قولك بالاستغفار (ساعة عزيزة) وهى التى تسمى بساعة الإجابة كما ورد فى خبر مسلم « إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة » . قال النووى : فيه إثبات ساعة الإجابة كل ليلة ويتضمن الحديث على الدعاء فى جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها ، وورد أيضا فى الخبر الصحيح « ينزل ربنا » أى رحمته « تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألنى فأعطيه ، ومن يستغفرنى فأغفر له » .

قال بعض المحققين : وتخصيصه بالليل وثلثه الأخير لأنه وقت التهجد وغفلة الناس عن التعرض لنفحات رحمة الله تعالى ، وعند ذلك تكون النية خالصة والرغبة إلى الله وافرة ، وذلك مظنة القبول والإجابة ، وهذه الرواية هى أصح الروايات كما قاله الترمذى ، وفى رواية « إذا مضى الثلث الأول أو النصف » وأخرى « النصف أو الثلث الأخير » وهناك رواية الإطلاق . قال بعض شراح الحديث : فجمع بينهما بحمل المطلقة على المقيدة . وأما التى بأو ؛ فان كانت للشك فالجزم مقدم على الشك ، وإن كان للتردد بين حالتين ، فيجمع بأن ذلك يقع بحسب اختلاف الأحوال ، لأن أوقات الليل تختلف فى الزيادة ، وفى الأوقات باختلاف تقدم الليل عند قوم وتأخره عند قوم أو النزول يقع فى الثلث الأول ، والقول يقع فى النصف وفى الثلث الثانى أو يحمل ذلك على وقوعه فى جميع الأوقات التى وردت بها الأحاديث ، ويحمل على أنه صلى الله عليه وسلم أعلم بأحد الأمور فى وقت فأخبر به ، ثم أعلم به فى وقت آخر فأخبر به ، فنقل الصحابة ذلك عنه (فيغفر الله لك فتربح رأس مالك) وقد وردت فى فضيلة الاستغفار أخبار . قال النبى صلى الله عليه وسلم « لكل داء دواء ، ودواء الذنوب الاستغفار » رواه الديلمى عن على رضى الله عنه . قال النووى فى الأذكار : وروينا فى سنن أبى داود والترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح . وقال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » وقال صلى الله عليه وسلم « من استغفر بعد الذنوب

أَوْ قُلْتَ : لَاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ فَيَكُونُ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ وَالذُّخْرِ مَالاَ يُحِيطُ بِهِ وَهْمُكَ

غفر الله له فهو لها كفارة » . وقال صلي الله عليه وسلم « إذا كثر على أحدكم الذنوب فليطلب المغفرة بالاستغفار » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كثر ذنوب أحدكم فليستغفر الله » . وقال صلى الله عليه وسلم « الاستغفار يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب اليابس » . وقال صلى الله عليه وسلم « كثرة الاستغفار تجلب الرزق » وقد قال تعالى « استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا صليتم الصبح فأكثروا من الاستغفار ، فقلنا يارسول الله علمنا شيئا نستغفر الله تعالى به ، فقال قولوا اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك من كل ذنب علمناه أو لم نعلمه في ليل أو نهار ، فمن واظب عليه فتح الله له بابا من الرزق وغلق عنه بابا من أبواب الفقر » كذا في رياض الصالحين . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الاستغفار فمن أكثر منه جعل الله له من كل غم وهم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » . وفى رواية لأحمد عن ابن عباس « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه الله من حيث لا يحتسب » . وقال النووى فى الأذكار : وروينا في سنن أبى داود وابن ماجه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » . وفي رواية أحمد عن عائشة « إذا كثرت ذنوب العبد فلم يكن له من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه به » وهو حديث حسن وفى رواية « بالهم » أى إذا كثرت ذنوب الانسان المسلم فلم يكن له من العمل الصالح ما يكفرها لفقده أو لقلته ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه فغالب ما يحصل من الهموم والغموم من التقصير فى الطاعة كذا في لباب الأخبار وغيره (أو) لو (قلت لا إله إلا الله فيكون لك من الأجر والذخر) فى الآخرة (مالا يحيط به وهمك) وعقلك وقد وردت فى فضيلة : لا إله إلا الله أحاديث كثيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال كل يوم لا إله إلا الله محمد رسول الله مائة مرة جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر » . وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : لا إله إلا الله وأنا هو من قالها دخل حصنى ، ومن دخل حصنى أمن من عقابى » . وعن عبد الواحد بن زيد أنه قال : كنت فى مركب فطرحتنا الريح علي جزيرة فخرجنا إلى الجزيرة فرأينا شخصا يعبد صنما فقلنا له تعبد هذا الصنم وفينا من يصنع مثله ؟ فقال أنتم من تعبدون ؟ فقلنا نعبد إلها فى السماء عرشه ، وفى الأرض بطشه ، وفى البحر سبيله ، قال من أعلمكم به ؟ قلنا أرسل إلينا رسولا قال ما فعل بالرسول ؟ قلنا قبضه الملك إليه قال فهل ترك عندكم من علامة ؟ قلنا نعم كتاب الملك قال : هل عندكم منه شىء ، فشرعنا نقرأ عليه سورة الرحمن فما زال يبكى حتى ختمت . ثم قال

ماينبغى أن يعصى صاحب هذا الكلام ، ثم عرضنا عليه الإسلام فأسلم وحملناه معنا فى السفينة فلما جن الليل وصلينا العشاء أخذنا مضاجعنا للنوم ، فقال لنا هذا الاله الذى دللتمونى عليه ينام ؟ قلنا بل هو حى قيوم لاينام ، قال بئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لاينام ، فلما وصلنا البر وأردنا الانصراف وجمعنا له شيئا من الدراهم ، فقال ما هذا ؟ قلنا تستعين به على نفسك ، فقال دللتمونى على طريق ما أراكم سلكتموها أنا كنت أعبد غيره فلم يضيعنى أفيضيعنى الآن بعد ما عرفته ؟ فلما كان بعد ثلاثة أيام قيل لى إنه فى النزع فجئت إليه وقلت له هل من حاجة ؟ فقال قضى حوائجى الذى أخرجنى من الجزيرة ونمت عنده فرأيت جارية فى روضة خضراء ، وهى تقول عجلوا به فى سلام فقد طال شوقى إليه فاستيقظت وقد مات فدفنته ونمت تلك الليلة فرأيته فى المنام وعلى رأسه تاج وبين يديه الحور العين وهو يقرأ « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » كذا فى تنقيح القول الحثيث . وقال صلي الله عليه وسلم « إن قول لا إله إلا الله تدفع عن قائلها تسعة وتسعين بابا من البلاء أدناها الهم » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله خرج من فيه طائر أخضر له جناحان أبيضان مكللان بالدر والياقوت يصعد إلى السماء فيسمع له دوى تحت العرش كدوى النحل ، فيقال له اسكن ، فيقول لا حتى تغفر لصاحبى فيغفر له ثم يجعل بعد ذلك للطائر سبعون لسانا تستغفر لصاحبه إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة جاء ذلك الطائر يكون قائده ودليله إلى الجنة » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا قال الله تعالى صدق عبدى أنا الله لا إله إلا أنا أشهدكم ياملائكتى أنى قد غفرت له ماتقدم من ذنبه وما تأخر » . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله خالصا مخلصا دخل الجنة » .

وأخرج الحكيم عن زيد بن الأرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل يارسول الله وما إخلاصها ؟ قال أن تحجزه عن المحارم » . وقال صلى الله عليه وسلم « من كان أول كلامه لا إله إلا الله ، وآخر كلامه لا إله إلا الله ، وعمل ألف سيئة إن عاش ألف سنة لايسأله الله عن ذنب واحد » . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لزيد الأنصارى «فإن صعب لك شىء من أمور الدنيا فأكثر من قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » . وقال صلي الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله من غير عجب طار بها طائر تحت العرش يسبح مع المسبحين إلى يوم القيامة ويكتب له ثوابه » . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة غفر له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مر المؤمن على المقابر فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير نور الله تلك القبور كلها ، وغفر لقائلها ، وكتب له ألف ألف حسنة ، ورفع له ألف ألف درجة ، وحط عنه

أَوْ تَقُولُ : أَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ ، فَرُبَّمَا يَتَمَّقُ حُسْنُ نَظَرٍ فَيَسْتَجِيبُ اللهُ تَعَالَى دَعْوَتَكَ فَنَجَوْتَ مِنْ بَلِيَّةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَلَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانِ الْعَظِيمِ وَالْغَبْنِ الْفَظِيعِ أَنْ تُفَوِّتَ عَلَى نَفْسِكَ كُلَّ هٰذِهِ الْفَوَائِدِ الْكَرِيمَةِ وَتَجْعَلَ نَفْسَكَ وَوَقْتَكَ فِى فُضُولٍ أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكَ فِيهِ اللَّوْمُ وَالْحِسَابُ وَالْحَبْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ فِى قَوْلِهِ :

وَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِالنُّطْقِ فِى الْبَا ... طِلِ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحَا

الثَّالِثُ : الْبَطْنُ ، وَحَسْبُكَ أَنَّ مَقْصُودَكَ الْعِبَادَةُ وَأَنَّ الطَّعَامَ بَذْرُ الْعَمَلِ وَمَاؤُهُ مِنْهُ يَبْدُو وَيَنْبُتُ ، وَإِذَا خَبُثَ الْبَذْرُ لَا يَطِيبُ الزَّرْعُ ؛ بَلْ فِيهِ خَطَرَانِ يُفْسِدُ عَلَيْكَ أَرْضَكَ فَلَا تُفْلِحُ أَبَدًا .

وَمِنْ ذٰلِكَ مَا بَلَغَنَا عَنْ مَعْرُوفٍ الْكَرْخِىِّ

ألف ألف سيئة » كذا ذكره السيوطى فى اللباب (أو تقول : أسأل الله العافية ، فربما يتفق) قولك ذلك (حسن نظر) من الله تعالي (فيستجيب الله تعالى دعوتك فنجوت من بلية الدنيا والآخرة ألا يكون من الخسران العظيم والغبن الفظيع) أى الشنيع (أن تفوت) بضم التاء وفتح الفاء مع كسر الواو المشددة من التفويت (على نفسك كل هذه الفوائد الكريمة و) أن (تجعل نفسك) بفتح الفاء (ووقتك فى فضول) لايعنيك (أقل ما يلزمك فيه) أى فى الفضول (اللوم والحساب والحبس يوم القيامة ، ولقد أحسن القائل فى قوله) من بحر الخفيف (وإذا ماهممت) أى قصدت وما زائدة (بالنطق في البا * طل فاجعل مكانه) أى الباطل (تسبيحا) وقد تقدم مثله . (والثالث) من الأعضاء الأربعة (البطن وحسبك) فيه (أن مقصودك العبادة وأن الطعام بذر العمل) أى بمنزلته (وماؤه) عطف على بذر العمل (منه) أى من الطعام (يبدو) أى يظهر العمل (وينبت ، وإذا خبث البذر لايطيب الزرع بل فيه) أى فى خبث البذر (خطر) من (أن يفسد) أى البذر الخبث (عليك أرضك فلا تفلح) بعد ذلك (أبدا ومن ذلك) أى من خطر الإفساد الذى لافلاح بعده (مابلغنا عن معروف الكرخى) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الصالح المشهور ، كان من المشايخ الكبار : وهو من موالى على بن موسي الرضا وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبى فكان المؤدب يقول له قل ثالث ثلاثة فيقول بل هو واحد ، فضربه المعلم يوما ضربا مبرحا فهرب معروف منه ، فكان أبواه يقولان ليته يرجع إلينا على أى دين يشاء فنوافقه عليه ، ثم إنه أسلم علي يدى على بن موسى الرضا ورجع إلي أبويه

أَنَّهُ قال : إذا صُمْتَ فَانْظُرْ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُفْطِرُ ، وَعِنْدَ مَنْ تُفْطِرُ ، وَطَعَامِ مَنْ تَأْكُلُ؟ فَكَمْ مَنْ يَأْكُلُ أَكْلَةً فَيَنْقَلِبُ قَلْبُهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ ،

فدق الباب ، فقيل له من بالباب ؟ فقال معروف ، فقيل له على أى دين جئت ؟ فقال على الدين الحنيفى فأسلم أبواه .

وكان معروف مشهورا بإجابة الدعاء ، وأهل بغداد يستشفعون بقبره ويقولون : قبر معروف ترياق مجرب ، وكان أستاذ السرى السقطى وقد قال له يوما : إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بى . وأخبار معروف ، ومحاسنه أكثر من أن تحصى ، وتوفى سنة مائتين ، وقيل سنة إحدى ومائتين ببغداد ، وقبره مشهور بها يزار رحمه الله، والكرخى بفتح الكاف وسكون الراء وبعدها خاء معجمة هذه النسبة إلى الكرخ ، وهو اسم تسع مواضع : ذكرها ياقوت الحموى فى كتابه ، وأشهرها كرخ بغداد ، والصحيح أن معروفا الكرخى منه كذا فى سراج السالكين وكان السرى السقطى يقول : رأيت الكرخى فى النوم كأنه تحت العرش ، فيقول الله عز وجل لملائكته من هذا ؟ فيقولون أنت أعلم يارب ، فيقول : هذا معروف الكرخي سكر من حبى فلا يفيق إلا بلقائى . وقال معروف : قال لى بعض أصحاب داود الطائى : إياك أن تترك العمل فإن ذلك الذى يقربك إلى رضا مولاك ، فقلت وما ذلك العمل ؟ فقال دوام طاعة ربك ، وخدمة المسلمين والنصيحة لهم ، وكان محمد بن الحسين يقول : سمعت أبى يقول : رأيت معروفا الكرخى فى النوم بعد موته ، فقلت له مافعل الله بك ؟ فقال غفرلى ، فقلت بزهدك وورعك ؟ فقال لابقولي موعظة ابن السماك ، ولزوم الفقر، ومحبتى للفقراء. وموعظة ابن السماك ماقاله معروف كنت مارا بالكوفة فوقفت على رجل يقال له ابن السماك وهو يعظ الناس، فقال فى خلال كلامه : من أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة ، ومن أقبل على الله بقلبه أقبل الله برحمته إليه وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه ، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتا ما ، فوقع كلامه فى قلبي فأقبلت على الله تعالى ، وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاى على بن موسى الرضا ، وذكرت هذا الكلام لمولاى فقال يكفيك بهذا موعظة إن اتعظت . وقيل لمعروف فى مرض موته أوص ، فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصى فإنى أريد أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا .

قال شيخ الإسلام : ظاهره أنه لم يبق له ما يكفن فيه ، وكأنه أوصى بذلك حينئذ لما علم من إخوانه وأحبائه أنهم لايتركون تجهيزه ، بل يرغبون فيه انتهى ، ومر معروف وهو صائم نفلا بسقاء يقول : رحم الله من شرب ، فتقدم فشرب ، فقيل له ألم تكن صائما فقال بلى ولكنى رجوت دعاءه ، كذا ذكره العلامة أبو القاسم القشيرى فى الرسالة (أنه قال : إذا صمت فانظر على أى شىء) أي من المأكول والمشروب (تفطر وعند من تفطر وطعام من تأكل ، فكم من يأكل أكلة) الأكلة : المرة من الأكل ، والأكلة : اللقمة (فينقلب قلبه عما كان عليه

فَلَا يَعُودُ إِلَى حَالِهِ أَبَدًا ، وَكَمْ مِنْ أَكْلَةٍ حَرَمَتْ قِيَامَ لَيْلَةٍ ، وَكَمْ مِنْ نَظْرَةٍ مَنَعَتْ قِرَاءَةَ سُورَةٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَأْكُلُ أَكْلَةً فَيُحْرَمُ بِهَا قِيَامَ سَنَةٍ ، فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِالنَّظَرِ الدَّقِيقِ وَالِاحْتِيَاطِ الْبَالِغِ الشَّدِيدِ فِي قُوتِكَ إِنْ كَانَتْ لَكَ عِنَايَةٌ بِقَلْبِكَ وَهِمَّةٌ فِي عِبَادَةِ رَبِّكَ ، هٰذَا فِي أَصْلِ الْقُوتِ حَتَّى يَكُونَ مِنْ وَجْهِهِ ، ثُمَّ عَلَيْكَ بِالْأَدَبِ فِيهِ ،

فلايعود) ذلك القلب (إلى حاله) الأول (أبدا ، وكم من أكلة حرمت) أي منعت (قيام ليلة) أي صلاتها وذلك لخبث أصل تلك الأكلة (وكم من نظرة) إلى ما لايفيد صاحبها (منعت قراءة سورة) من سور القرآن (وإن العبد ليأكل أكلة فيحرم) أي يمنع العبد (بها) أي بسبب تلك الأكلة (قيام سنة ، فعليك أيها الرجل) المهذب للأخلاق السالك طريق الحق (بالنظر) والفكر (الدقيق والاحتياط البالغ) أي الواصل إلى الكمال (الشديد فى قوتك) أي طعامك (إن كانت لك عناية) أي قصد (بقلبك وهمة) عليه (فى عبادة ربك ، هذا) أي المذكور من النظر الدقيق والاحتياط البالغ (فى أصل القوت حتى يكون) أي هذا القوت (من وجهه) أي جهة حله . (ثم عليك) أي الزم (بالأدب فيه) أي فى قوتك : أي فى أكله لأن الأكل من الدين قدمه الله على العمل ، وعليه نبه سبحانه وهو أصدق القائلين ـ كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ـ . وكان سهل يقول : من لم يحسن أدب الأكل لم يحسن أدب العمل ، فمن يقدم على الأكل بنية صالحة : وهى الاستعانة به على العلم والعمل ، ويقوى به على التقوى ، فلا ينبغى أن يترك نفسه مهملا سدى يسترسل فى الأكل استرسال البهائم فى المرعى فيأكل من غير قانون ينتهى إليه كما تأكل الدواب ، فانما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إلى إقامته ينبغى أن تظهر أشعة أنوار الدين عليه ، وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التى يزم العبد بزمامها ، ويلجم المتقى بلجامها حتى يتزن بميزان الشرع شهوة الطعام فى إقدامها وإحجامها ، فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر وإن كان فيها أو فى حظ النفس . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليؤجر حتى فى اللقمة يرفعها إلى فيه ، وإلى فى امرأته » كذا أورده صاحب القوت ، وإنما ذلك اذا رفعها بالدين وللدين مراعيا فيه آدابه وهي كثيرة ، وقد استوفى الكلام على ذلك حجة الإسلام فى إحيائه ، ونذكر فى هذا المقام : عشرة للأكل ، وستة للشرب روما للاختصار .

[الأدب الأول] غسل اليدين قبل الطعام وبعده . روى الحاكم فى تاريخه من رواية الحكم ابن عبد الله الأيلى عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن عائشة مرفوعا « الوضوء قبل الطعام حسنة وبعد الطعام حسنتان » . قال السيوطى فى الخصائص : إنما كان غسل اليدين بعد الطعام بحسنتين ، لأنه شرعه ، وقبله بحسنة لأنه شرع التوراة ، ثم إن المراد بالوضوء فى هذا الحديث

الوضوء اللغوى وهو غسل اليدين إلى الرسغين ، وهذا لا يناقضه ما رواه الترمذي « أنه صلى الله عليه وسلم قرّب إليه طعام فقالوا ألا نأتيك بوضوء ؟ قال إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة» لأن المراد بذلك الوضوء الشرعى ، وهنا الوضوء اللغوى ، وفيه رد على من زعم كراهة غسل اليد قبل الطعام وبعده ، وما تمسك به أنه من فعل الأعاجم لا يصلح حجة ولا يدل علي اعتباره دليل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر ، وبعده ينفى اللمم » : أى الجنون ، وفى رواية « ينفى الفقر قبل الطعام وبعده » رواه القضاعى فى مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن آبائه متصلا كما ذكره العراقى ، قال صاحب العوارف : وإنما كان الوضوء قبل الطعام موجبا لنفى الفقر ، لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال للنعمة بالأدب ، وذلك من شكر النعمة ، والشكر يستوجب المزيد ، فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة مذهبا للفقر ، فقد روى أنس عن النبي صلي الله عليه وسلم « من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ إذا حضر غداؤه وإذا رفع » . قال المنذرى فى الترغيب : المراد هنا غسل اليدين .

[الأدب الثانى] التسمية فى أول الأكل ، ولو قال مع كل لقمة يرفعها إلى فمه : بسم الله فهو أحسن حتي لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى ، ويقول مع اللقمة الأولى : بسم الله ، ومع الثانية بسم الله الرحمن ، ومع الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم ، هكذا ذكره صاحب القوت ، وإن أتم مع كل لقمة كان حسنا ويجهر به ليذكر غيره إن كان ناسيا . وعن أنس مرفوعا « من أحبّ أن يكثر خير بيته فليتوضأ إذا حضر غداؤه ثم يسم الله تعالى » فقوله تعالى – ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه – تفسيره تسمية الله عند ذبح الحيوان .

واختلف الشافعى وأبو حنيفة فى وجوب ذلك ، وفهم الصوفى منه تقييد القيام بظاهر التفسير أن لا يأكل الطعام إلا مقترنا بالذكر وذلك فريضة وقته وأدبه ، ويرى أن تناول الطعام والماء داء ينتج من آفة النفس ومتابعة هواها ، ويرى ذكر الله دواءه وترياقه . ويروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابى فأكله بلقمتين فقال صلى الله عليه وسلم « أما إنه لو كان يسمى الله كفاكم ، فإذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله ، فإن نسى أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره » قال صاحب العوارف : واعلم أن ذكر اسم الله تعالى فى أول الطعام هو الدواء النافع لدفع عوارض القلب الحادثة من اللقمة المتناولة . قال : وحكى أن الإمام أبا حامد الغزالى قدس سره لما رجع إلى طوس وصف له فى بعض القرى عبدصالح فقصده زائرا فصادفه وهو فى صحراء له يبذر الحنطة فى الأرض ، فلما رآه أقبل إليه وحادثه ، فجاءه رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ فى ذلك وقت اشتغاله بالغزالى ، فامتنع ولم يعطه البذر ، فسأله الغزالى عن سبب امتناعه ؟ فقال لأنى أبذر هذا البذر بقلب حاضر ذاكر أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر . قال : وكان بعض الفقراء عند الأكل يشرع فى قراءة سورة من القرآن يخص الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ، ولا يعقب الطعام

مكروها يغير مزاج القلب . قال : وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى يقول أنا آكل وأنا أصلى ، يشير إلى حضور القلب فى الطعام ، وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يتفرق همه وقت الأكل ويرى للذكر وحضور القلب فى الأكل أثرا كبيرا لايسعه الإهمال له قال : ومن الذكر عند الأكل الفكر فيما هيأ الله له من الأسنان المعينة له على الأكل ، فمنها الكاسرة ، ومنها القاطعة ، ومنها الطاحنة ، وما جعل الله من الماء الحلو فى الفم حتى لايتغير الذوق كما جعل ماء العين مالحا لما كان شحما حتى لايتغير وكيف جعل النداوة تنبع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ ، وكيف جعل القوة الهاضمة متسلطة على الطعام تفصله وتجذبه متعلقا مددها بالكبد ، والكبد بمثابة النار ، والمعدة بمثابة القدر ، وعلى قدر فساد الكبد تقل الهاضمة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولا يتصل إلى كل عضو نصيبه ، وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين ويطول شرح ذلك ، فمن أراد الاعتبار يطالع تشريح الأعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى فى تعاضد الأعضاء وتعاونها وتعلق بعضها بالبعض فى إصلاح الغذاء واستجلاب القوة منه للأعضاء وانقسامه إلى الدم والتفل واللبن لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، فالفكر فى ذلك وقت الطعام وتعرف لطيف الحكم والتدبير فيه من الذكر . قال : ومما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب أن يدعو فى أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عونا على الطاعة ويكون من دعائه : اللهم صل على محمد وآل محمد وما رزقتنا مما نحب ، واجعله عونا لنا إلى ماتحب ، ومازويت عنا مما نحب ، اجعله فراغا لنا فيما تحب . انتهى سياق صاحب العوارف ، كذا نقله العلامة الزبيدى .

[الأدب الثالث] الأكل باليمين تأدبا على الأصح ، وقيل وجوبا ، ويدل له مافى مسلم «أنه صلى الله عليه وسلم رأى من يأكل بشماله فنهاه ، فقال لاأستطيع فشلت يمينه فلم يرفعها إلى فيه حتى مات» . وروى أحمد والشيخان والأربعة من حديث عائشة رضى الله عنها «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيامن مااستطاع فى طهوره وتنعله وترجله وفى شأنه كله» . روى أحمد من حديث حفصة رضى الله عنها قالت «كان يجعل يمينه لأكله وثيابه وشربه ووضوئه وأخذه وعطائه وشماله لماسوى ذلك» . وقال صاحب القوت: ويبدأ يعنى الأكل بالملح ويختم به . قال صاحب العوارف روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ياعلى ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح فان الملح شفاء من سبعين داء : منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن ووجع الأضراس » وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

[الأدب الرابع] أن يأكل مما يليه فانه سنة وإن كان وحده وفى خبر ضعيف التفصيل بينهما إذا كان الطعام لونا واحدا فلا يتعدى الآكل مايليه ، وأما إذا كان أكثر فيتعداه إلا الفاكهة ونحوها مما لايقدر فى الأكل من غير مايلى الآكل فان له أن يدير يده بلا كراهة فيه لأنه لاضرر فى ذلك ولاتقذر . قال صلى الله عليه وسلم « كل مما يليك » متفق عليه من حديث عمر بن أبى سلمة ثم كان صلى الله عليه وسلم يدور على الفاكهة فقيل له فى ذلك ؟ فقال ليس هو نوعا واحدا : أى

فلا ضرر فى إجالة اليد فيها ولا تقذر . رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عكراش بن ذؤيب
وروى الخطيب فى ترجمة عبيد بن القاسم عن عائشة مرفوعا « كان إذا أتى بطعام أكل مما يليه ،
وإذا أتى بالتمر جالت يده فيه » .

[الأدب الخامس] أن يصغر اللقمة قدر مايسعه الفم تصغيرا وسطا ويجود مضغها ومالم يبتلعها
لم يمد اليد إلى الأخرى فان ذلك عجلة فى الأكل ، وفى تصغير اللقمة سد باب الشره والاعانة على
المضغ ، وفى جودة المضغ فائدة طبية وهى سرعة انهضامه فى المعدة، فما لم يجود مضغه بطىء هضمه .

[الأدب السادس] أن لا يأكل نائما أو متكئا إلا مايتنقل به من الحبوب ، بل ينبغى أن يجلس
الجلسة على السفرة فى أول جلوسه ويستديمها ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما
جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه ، وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى
وكان يقول « لا آكل متكئا إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .
رواه أبو داود من حديث عبد الله بن بسر . قال الزبيدى : ورد بسند حسن « أهديت للنبى
صلى الله عليه وسلم شاة فجثا على ركبته يأكل ، فقال له أعرابى ماهذه الجلسة ؟ فقال إن الله جعلنى
كريما ولم يجعلنى جبارا عنيدا » وإنما فعل صلى الله عليه وسلم ذلك تواضعا لله تعالى ، ومن ثم
قال « إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد » وفى خبر مرسل أو معضل عن
الزهرى « أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ملك لم يأته قبلها ، فقال إن ربك يخيرك بين أن تكون
عبدا نبيا أو نبيا ملكا ، فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأومأ إليه أن تواضع ، فقال لابل عبدا
نبيا قال فما آكل متكئا قط » لكنه أخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد أنه أكل متكئا مرة فان
صح فهو زيادة مقبولة ، ويؤيدها ما أخرجه ابن شاهين عن عطاء بن يسار : أن جبريل رأى
النبى صلى الله عليه وسلم يأكل متكئا فنهاه ،وفسر الأكثرون الاتكاء الميل بالميل على أحد الجانبين
لأنه يضر بالآكل فانه يمنع مجرى الطعام الطبيعى عن هيئته ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة
وتضغط المعدة فلا يستحكم فتحها للغذاء . ونقل فى الشفاء عن المحققين أنهم فسروه بالتمكن
للأكل والقعود فى الجلوس كالمتربع المعتمد على وطاء تحته لأن هذه الهيئة تستدعى كثرة الأكل
والكبر ، وورد بسند ضعيف زجر النبى صلي الله عليه وسلم أن يعتمد الرجل على يده اليسرى
عند الأكل . قال مالك رحمه الله هو نوع من الاتكاء . قال بعض المتأخرين هنا فى هذا إشارة
من مالك إلى كراهة كل مايعد الأكل فيه متكئا ولا يختص بصفة بعينها .

واختلفوا فى حكم الاتكاء فى الأكل ، فقال ابن القاص كراهته من خصائصه صلى الله عليه وسلم
وقال غيره : يكره أيضا لغيره إلا لضرورة ، وعليه يحمل ماورد عن جمع من السلف ، وتعقب
الحمل المذكور بأن ابن أبى شيبة أخرج عن جمع منهم الجواز مطلقا ، لكن يؤيد الأول ماأخرجه
ابن أبي شيبة أيضا عن النخعى كانوا يكرهون أن يأكلوا تكأة مخافة أن تعظم بطونهم وإن ثبت
كون الاتكاء مكروها أو خلاف الأولى ، فالسنة أن يجلس جاثيا على ركبتيه وظهور قدميه

أو ينصب رجله اليمنى ويجلس على اليسرى . قال ابن القيم : ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يجلس للأكل متوركا على ركبتيه ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر اليمنى تواضعا لله عز وجل وأدبا بين يديه . قال : وهذه الهيئة أنفع الهيئات للأكل وأفضلها ، لأن الأعضاء كلها تسكون على وضعها الطبيعى الذى خلقها الله تعالى عليه ، وأما حديث أنس «رأيته يأكل وهو مقع من الجوع » فقد أخرجه الترمذى أيضا فى الشمائل ، ومعناها : أى جالس على أليتيه ناصب ساقيه ، هذا هو الإقعاء المكروه فى الصلاة ، وإنما لم يكره هنا لأنه ثم تشبه بالكلاب ، وهنا تشبه بالأرقاء ففيه غاية التواضع ، ولهم إقعاء ثان لكنه مسنون فى الجلوس بين السجدتين لأنه صح عنه صلي الله عليه وسلم أنه فعله فيه ، وهو أن ينصب ساقيه ويجلس على عقبيه . قيل وهذا هو المراد هنا ، والأصح الأول لأن هيئته تدل على أنه صلى الله عليه وسلم غير متكلف ولا يعتنى بشأن الأكل . وفى القاموس أقعى فى جلوسه : تساند إلى ماوراءه ، وهذا يشعر بمزيد الرغبة عن الأكل المناسب لحاله صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ فمعنى وهو مقع من الجوع : أى مستند إلى ما وراءه من الضعف الحاصل له بسبب الجوع ، وبما قررته يعلم أن الاستناد ليس من مندوبات الأكل لأنه صلى الله عليه وسلم لم يفعله إلا لذلك الضعف الحاصل له صلى الله عليه وسلم .

[الأدب السابع] أن لا يأكل فوق الشبع وفوق الجوع ، ويعتذر إذا شبع حتى لايخجل الضيف أو من به حاجة فان الشبع المفرط يمنع من العبادة ولا يقوى عليها . قال صلى الله عليه وسلم «ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس » رواه الترمذى .

[الأدب الثامن] أن لايأكل من ذروة القصعة ولا من وسط الطعام، بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطع بالسكين ولا يقطع اللحم أيضا بالسكين كما هو عادة الأجلاف من الأتراك فقد نهى عنه وقال : « انهشوه نهشا» ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا مايؤكل به قال صلى الله عليه وسلم «أكرموا الخبز فان الله تعالى أنزله من بركات السماء» يعنى المطر وذلك لأن الخبز غذاء البدن والغذاء قوام الروح ، وقد شرفه الله وجعله من أشرف الأرزاق نعمة منه ، فمن تهاون به فوضع عليه غير إدامه فقد سخط النعمة وكفرها ، فاذا جفاها نفرت ، وإذا نفرت لم تكد ترجع ، رواه هكذا الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول .

[الأدب التاسع] أن لايمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فانه لايدرى فى أى طعامه البركة أى التغذية والقوة على الطاعة كما فى خبر مسلم .

[الأدب العاشر] أن يحمد الله تعالى بعد فراغه من الأكل .

وأما آداب الشرب فهى كثيرة أيضا :

[الأول] أن ينظر فى إنائه قبل شربه لئلا يكون به شئ مما يؤذى من قذى وغيره . [الثاني] أن يسمى الله تعالى قبل الشرب ويحمده بعده . [الثالث] أن يشربه مصا أى على مهلة شربا رقيقا لاعبا : أى تتابعا من غير تنفس، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم «مصوا الماء مصا ولاتعبوه عبا» هكذا رواه البيهقى من حديث أنس ، وفى بعض الروايات زيادة « فان الكباد من العب » الكباد

كغراب وجع الكبد . قال ابن القيم : وقد علم بالتجربة أن هجوم الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها ويضعف حرارتها ، بخلاف وروده على التدريج ، ألا ترى أن صب الماء البارد على القدر وهى تفور يضر، وبالتدريج لا . ومن آفات النهل دفعة أن فى أول الشرب يتصاعد البخار الدخانى الذى يغشى الكبد والقلب لورود البارد عليه ، فاذا شرب دفعة اتفق عند نزول الماء صعود البخار فيتصادمان ويتدافعان ، فتحدث من ذلك أمراض رديئة . [الرابع] أن يشرب فى ثلاثة أنفاس يحمد الله فى أواخرها ، ويسمى الله فى أوائلها ، وهذا هو المراد بما رواه الترمذى فى الشمائل وابن السنى والطبرانى من حديث ابن مسعود رفعه «كان يتنفس فى الإناء ثلاثا» أى بأن يشرب ثم يزيله عن فمه ويتنفس ثم يشرب ثم يفعل كذلك ، فاذا أخره حمد الله ، يفعل ذلك ثلاث مرات . وفى الغيلانيات من حديث ابن مسعود رفعه «كان إذا شرب تنفس فى الإناء ثلاثا يحمد على كل نفس ويشكر عند آخرهن» ، وأما ماورد من النهى عن التنفس فى الإناء ، فالمراد به فى جوف الإناء وذلك لأنه يغير الماء إما لتغير الفم بمأكول أو ترك سواك ، أو لأن النفس يصعد بخار المعدة وفى الشرب من غير تنفس ضرر كبير من جهة الطب ، ويندب أن يقول فى آخر النفس الأول الحمد لله ، وفى الثانى يزيد : رب العالمين . وفى الثالث يزيد: الرحمن الرحيم . هكذا نقله صاحب القوت وصاحب العوارف . [الخامس] أن لايشرب قائما ولا مضطجعا «فانه صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب قائما» . رواه مسلم من حديث أنس ؛ وروى «أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما» . قال المصنف رحمه الله ولعله كان لعذر وهو الركوب . قال الطبرى : ويجوز أن يحمل على ظاهره ، ويكون دليلا على إباحة الشرب قائما : وعن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستسقاه ، فقال العباس يافضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها ، فقال اسقنى ، فقال يارسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه ، فقال اسقنى ، فشرب ثم أتى زمزم وهم يسقون عليها ، فقال اعملوا فانكم على عمل صالح ، ثم قال لولا أن تغلبوا لنزعت حتى أضع الحبل على هذه» . وأشار إلى عاتقه . قال الطبرى : وفى هذا دليل على ترجيح الاحتمال الأول فى الحديث قبله ، لأن قوله لنزعت يدل على أنه كان راكبا إلا أنه صلى الله عليه وسلم مكث بمكة قبل الوقوف أربعة أيام بلياليها من صبيحة يوم الأحد إلى صبيحة يوم الخميس ، فلعل ابن عباس سقاه من زمزم وهو قائم في بعض تلك الأيام انتهى . وقال ابن حجر المكى فى شرح الشمائل: قوله فشرب وهو قائم إنما فعله مع أن عادته الشرب قاعدا ونهيه عن الشرب قائما وقوله فيما رواه مسلم «لايشربن أحدكم قائما فمن نسى فليقيء» للبيان أن نهيه صلى الله عليه وسلم عن الشرب قائما ليس للتحريم بل للتنزيه ، وأن الأمر بالاستقاء ليس للايجاب بل للندب ، وقول من قال : ليس الشرب من ماء زمزم قائما اتباعا له صلى الله عليه وسلم إنما يسلم له لولم يصح النهى عن الشرب قائما ، وأما بعد صحته قائما فيكون الفعل مبينا للجواز . لايقال النهى مطلقا، وشربه من ماء زمزم مقيد فلم يتواردا على محل واحد . لأنا نقول : ليس النهى مطلقا ، بل هو عام ، فالشرب من ماء زمزم قائما من أفراده ، فدخل تحت النهى فوجب حمله على أنه لبيان الجواز

وَإِلاَّ كُنْتَ حَمَّالاً لِلطَّعَامِ مُضَيِّعاً لِلْأَيَّامِ ، إِذْ قَدْ عَلِمْنَا يَقِيناً بَلْ رَأَيْنَا عِيَاناً أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَجِيءُ مِنْهَا شَيْءٌ إِذَا امْتَلَأَ الْبَطْنُ،

ولو سلمنا أنه مطلق لكان محمولا على المقيد ، فلم يفد المقيد غير الجواز أيضا . لا يقال النبى صلى الله عليه وسلم نزه عن فعل المكروه كالمحرم فكيف يشرب قائما ؟. لأنا نقول شربه قائما لبيان الجواز وهذا واجب عليه ، فلم يفعل مكروها بل واجبا ، وهكذا يقال فى كل فعل فعله صلى الله عليه وسلم لبيان الجواز مع نهيه عنه أو عما يشمله .

واعلم أن كلا من حديث نهيه وفعله صلى الله عليه وسلم المذكورين صحيح ؛ وأن الجمع بينهما ماقررناه ، وحيث أمكن الجمع بين حديثين وجب المصير إليه ، ودعوى النسخ ليست فى محلها، وتضعيف خبر النهى غير مسموع مع إخراج مسلم له ؛ والاستدلال لعدم الكراهة بفعل الخلفاء الأربعة غير جار على قواعد الأصوليين مع أنه لا يقاوم ماصح عنه صلى الله عليه وسلم سيما فى الشرب قائما ضرر ، ومن ثم ندب الاستقاء منه حتى للناسى لأنه محرك خلطا يكون القئ دواءه . قال ابن القيم : وللشرب قائما آفات : منها أنه لا يحصل به الرى التام ولا يستمر فى المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء وينزل بسرعة إلى المعدة فيخشى منه أن يبرد حرارتها ويسرع النفوذ إلى أسافل البدن بغير تدريج ؛ وكل هذا يضر بالشارب قائما ؛ وعند أحمد عن أبى هريرة «أنه رأى رجلا يشرب قائما فقال قه ، فقال لم ؟ فقال أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ قال لا. قال شرب معك من هذا أشد منه الشيطان» وروى الترمذى فى الشمائل من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما وقاعدا» . قال الشارح : أى مرة قائما لبيان الجواز ومرارا كثيرة ، بل هى الأكثر المعروف المستقر من أحواله صلى الله عليه وسلم قاعدا . [السادس] أن يناول من كان على يمينه إن كان معه غيره ، فقد ورد « أنه شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا وأبو بكر قاعد عن شماله وأعرابى عن يمينه وعمر قاعد ناحية ، فقال عمر أعط أبا بكر فناول الأعرابى ولم يناول أبا بكر ، وقال الأيمن فالأيمن فالأيمن » . قال الزبيدى : وكرر لفظ الأيمن ثلاثا للتأكيد إشارة إلى ندب الابتداء بالأيمن ولو مفضولا، وحكى عليه الاتفاق. قال ابن العربى : وتقديم من على اليمين ليس لمعنى فيه بل لمعنى فى جهة اليمين (وإلا) أى وإن لم تلزم الأدب فى قوتك وشرابك (كنت حمالا للطعام) والشراب (مضيعا للأيام) والأوقات (إذ قد علمنا) علما (يقينا) لاشك فيه (بل رأينا عيانا) أى معاينة (أن العبادة لا يجئ منها شئ إذا امتلأ البطن) ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه» الحديث ، وذلك لما فاته من خيور كثيرة جعل البطن كالأوعية التى تتخذ ظروفا توهينا لشأنه ثم جعله شر الأوعية لأنها تستعمل فى غير ماهى له ، والبطن خلق لأنه يتقوم به الصلب بالطعام وامتلاؤه يفضى إلى فساد الدين والدنيا ، فيكون شرا منها ، ووجه تحقيق ثبوت الوصف

وَإِنْ أُكْرِهَتَ النَّفْسَ عَلَى ذٰلِكَ وَجَاهَدْتَ بِضُرُوبِ الْحِيَلِ فَلَا يَكُونُ لِتِلْكَ الْعِبَادَةِ لَذَّةٌ وَلَا حَلَاوَةٌ ، وَلِذٰلِكَ قِيلَ : لَا تَطْمَعْ فِي حَلَاوَةِ الْعِبَادَةِ مَعَ كَثْرَةِ الْأَكْلِ ، وَأَىُّ نُورٍ فى نَفْسٍ بِلَا عِبَادَةٍ وَفِي عِبَادَةٍ بِلَا لَذَّةٍ وَلَا حَلَاوَةٍ؟ وَلِهٰذَا الْمَعْنَى قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ : صَحِبْتُ أَكْثَرَ رِجَالِ اللهِ تَعَالَى فِي جَبَلِ لُبْنَانَ فَكَانُوا يُوصُونَنِي : إِذَا رَجَعْتَ إِلَى أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَعِظْهُمْ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ ، قُلْ لَهُمْ مَنْ يُكْثِرِ الْأَكْلَ لَا يَجِدُ لَذَّةَ الْعِبَادَةِ ، وَمَنْ يَنَمْ كَثِيرًا لَا يَجِدُ فِي عُمْرِهِ بَرَكَةً ،

فى المفضل عليه أن ملء الأوعية لايخلو عن طمع أوحرص فى الدنيا وكلاهما شر على الفاعل ، والشبع يوقع فى مداحض فيزيغ عن الحق ويغلب عليه الكسل فيمنعه من التعبد وتكثر فيه مواد الفضول فيكثر غضبه وشهوته ويزيد حرصه فيوقعه فى طلب مازاد على الحاجة (وإن أكرهت النفس على ذلك) أى العبادة (وجاهدت بضروب) أى بأنواع (الحيل) جمع حيلة (فلا يكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة ولذلك) أى لعدم وجدان لذة العبادة وحلاوتها مع امتلاء البطن (قيل لاتطمع فى حلاوة العبادة مع كثرة الأكل ، وأى نور فى نفس بلا عبادة ، و) أى نور (فى عبادة بلا لذة ولا حلاوة) ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع ، وذلك لأن الشبع يحرك شهوته التى منها شهوة الفرج ، والعبد إذا تزوج وسلم من الفساد كثرت كلفته ؛ وإن جاءته أولاد فقد حصلت عنده الأعداء وتوالت جهة الفساد، قال تعالى «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » بخلاف الجوع فانه يحرك للطاعة ، ولذا قال يحيي ابن معاذ رحمه الله : الجوع نور والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الاحتراق ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه (ولهذا المعنى) وهو النهى عن الطمع في حلاوة العبادة مع كثرة الأكل (قال إبراهيم بن أدهم) بن منصور (رحمه الله) توفى سنة إحدى وستين ومائة (صحبت أكثر رجال الله تعالى) من الأولياء (في جبل لبنان) بالشام (فكانوا يوصوننى) أى يأمروننى ويقولون لى ياابن أدهم (إذا رجعت إلى أبناء الدنيا فعظهم بأربع خصال) أحدها (قل لهم من يكثر الأكل لايجد لذة العبادة) لأن الله تعالى ما صافى أحدا إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ولا تولاهم الله تعالى إلابالجوع كما ذكره عبد الواحد بن زيد البصرى رحمه الله تعالى (و) ثانيها قل لهم (من ينم كثيرا لايجد فى عمره بركة) ولذلك قال بكر بن عبد الله المزنى رحمه الله : ثلاثة يحبهم الله تعالى : رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة : أى فى عبادة الله تعالى ، لأنها لاتحصل إلا بجهد ومشقة .

[تنبيه] قال العلامة الرندى : البركة فى العمر أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة مايحمله على اغتنام أوقاته وانتهاز فرصة إمكانه خشية فواته فيبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية ويستفرغ

وَمَنْ طَلَبَ إِرْضَاءَ النَّاسِ فَلَا يَنْتَظِرُ رِضَاءَ الرَّبِّ ، وَمَنْ يُكْثِرِ الْكَلَامَ بِالْفُضُولِ وَالْغِيبَةِ فَلَا يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ .

فى ذلك مجهوده بالكلية ، وفى أثناء ذلك يصل إليه من المنح الإلهية ، ويشرق عليه من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه ولا تنتهى الإشارة إليه ؛ وكل ذلك فى زمن يسير وعمر قصير فيرتفع له فى شهر مثلا ما لا يرتفع لغيره في ألف شهر بمنزلة ليلة القدر العمل فيها لمن صادفها خير من العمل فى ألف شهر . قال بعض العلماء : كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر . كان أبو العباس المرسى قدس سره يقول أوقاتنا والحمد لله كلها ليلة القدر فهذا هو البركة فى العمر لا تطويله وزيادة مدته ؛ وقيل هذا المعنى فى تأويل ماروى فى الخبر «البر يزيد فى العمر» (و) ثالثها قل لهم (من طلب رضاء الناس فلا ينتظر رضا الرب) لأن رضاهم غاية لاتدرك ، وأحمق الناس من طلب ما لايدرك ، وهذا أعنى طلب رضاء الناس عذاب أليم استعجله فى دنياه إذ يفوته بذلك راحة قلبه وطيب عيشه ويسلبه أثواب الغنى والعزة ويلبسه لباس الطمع والزلة فتردى بذلك همته وتقل قيمته — ولعذاب الآخرة أكبر ، وقد قال الشاعر :

من راقب الناس مات غما   وفاز باللـذة الجسور

ورأى سهل بن عبد الله رحمه الله رجلا من الفقهاء بمكة فقال له شيئا فقال له يا أستاذ لا أقدر على هذا من أجل الناس فالتفت سهل إلى أصحابه ، فقال لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى فى الدنيا إلا هو وخالقه ، فإن أحدا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه ، أو تسقط نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه انتهى ، ثم من له بحصول ما أراده منهم فأغراضهم مختلفة وطباعهم متباينة ، فربما استحسن من نفسه شيئا لم يستحسنه غيره ، وربما أرضى شخصا بما لايرضى الآخر فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وساع فيما يضره عندهم . وعند الله تعالى مع مقاساة التعب والنصب فى نفسه (و) رابعها قل لهم (من يكثر الكلام بالفضول والغيبة) بكسر الغين (فلا يخرج) أي المكثر لما ذكر (من الدنيا على دين الاسلام) وذلك ، لأن فضول الكلام مذموم لاسيما إكثاره ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة مع أن رأس مال العبد أوقاته ، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة ، فقد ضيع رأس ماله وخسر خسرانا مبينا ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه» رواه أحمد وأبويعلى والترمذى ، وإذا حسن الاسلام اقتضى ترك ما لا يعنى كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها فهذا كله لا يعنى المسلم إذا كمل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان ، فمن عبد الله على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه وعلى استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه فقد حسن إسلامه ، ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه فى الاسلام ويشتغل بما يعنيه فيه فانه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من

وَعَنْ سَهْلٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قالَ: جِمَاعُ الْخَيْرِ كُلِّهِ فِي هٰذِهِ الْخِصَالِ الْأَرْبَعِ وَبِهَا صَارَتِ الْأَبْدَالُ أَبْدَالًا : إِخْمَاصُ الْبُطُونِ وَالصَّمْتُ وَالِاعْتِزَالُ عَنِ الْخَلْقِ وَسَهَرُ اللَّيْلِ .

وَقالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : الْجُوعُ رَأْسُ مَالِنَا، وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَا يَحْصُلُ لَنَا مِنْ فَرَاغٍ وَسَلَامَةٍ وَعِبَادَةٍ وَحَلَاوَةٍ وَعِلْمٍ وَعَمَلٍ نَافِعٍ بِسَبَبِ الْجُوعِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ .

الله تعالى، ومثل ماذكر من فضول الكلام الغيبة بل هى الصاعقة المهلكة للطاعات كما تقدم فى حفظ اللسان ، ومعلوم أن الإكثار منها قد يؤدى العبد إلي الخروج عن دينه . روى ابن أبى الدنيا عن محمد بن أبى حاتم الأزدى ، حدثنا داود بن المحبر ، حدثنا الربيع بن صبيح قال : سمعت الحسن يقول « والله للغيبة أسرع فى دين المؤمن من الأكلة فى الجسد » . وروى ابن أبى الدنيا أيضا عن نصر بن طرخان ، حدثنا عمران بن خالد الخزاعى قال : كان الحسن يقول : ياابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتي لاتعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ؛ فاذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك ؛ وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال بكر بن عبد الله المزنى «إذا رأيتم الرجل موكلا بعيوب الناس ناسيا لعيبه فاعلموا أنه قد مكر به » رواه ابن أبى الدنيا ، وقد تقدم حد الغيبة فى حفظ اللسان (وعن سهل) بن عبد الله التسترى (رحمه الله) أحد أئمة القوم لم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات والورع ، وكان صاحب كرامات توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، وقيل ثلاث وسبعين ومائتين (أنه قال : جماع الخير كله) أى الخير، فى [محيط المحيط]: جماع الشىء جمعه والخمر جماع الاثم، لأن الجماع ماجمع عددا انتهى، وأيضا فيه الجماع فعال من الجمع وهو من صيغ المبالغة ؛ والجماع كل ماتجمع وانضم بعضه إلى بعض ومن كل شىء مجتمع أصله ؛ وجماع الناس أخلاطهم من قبائل شتى (فى هذه الخصال الأربع وبها صارت الأبدال أبدالا) وتقدم بيانهم : أحدها (إخماص البطون) أى تجويعها وإخلاؤها من الطعام، فى [محيط المحيط]: خمص البطن خمصا وخموصا ومخمصة أيضا: خلا من الطعام : أى جاع وضمر وهو من باب نصر وكرم (و) ثانيها (الصمت) أى السكوت عن كل ما لانفع فيه (و) ثالثها (الاعتزال) أى الانفراد والخلوة (عن الخلق و) رابعها (سهر الليل) فى [محيط المحيط] : سهر الرجل البارحة يسهر سهرا: لم ينم ليلا وسهر أيضا ضد نام (وقال بعض العارفين: الجوع رأس مالنا) أى أصله. قال المصنف (ومعناه) أى معنى قول بعض العارفين (أن مايحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة) أى فى العبادة (وعلم وعمل نافع بسبب الجوع والصبر عليه) أى على الجوع (لله سبحانه) وتعالى ، ولذلك قال سهل بن عبد الله : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع. ورأس كل فجور بينهما الشبع . وقال أيضا : من جوع نفسه انقطعت عنه الوساوس . وقال أيضا إقبال الله على العبد بالجوع والسقم والبلاء نعمة من الله تعالى عليه ، إذ لولا أنه اختاره لما بلاه . وقال أيضا : اعلموا أن هذا زمان لاينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه الأمارة بالسوء وقتلها

وَأَمَّا القَلْبُ فَحَسْبُكَ أَنَّهُ أَصْلُ الْكُلِّ ، إِنْ أَفْسَدْتَهُ فَسَدَ الْكُلُّ ، وَإِنْ أَصْلَحْتَهُ صَلَحَ الْكُلُّ ،

بالجوع والسهر والجهد فى طاعات الله تعالى . وقال أبو طالب المكى : مثل البطن مثل المزهر ، وهو العود المجوف ذو الأوتار إنما حسن صوته لخفته ورقته ، ولأنه أجوف غير ممتلىء ، ولو كان ثقيلا جاثيا ممتلئا لم يكن له صوت وكذلك الجوف إذا خلا عن الطعام والشرب كان أرق للقلب وأعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام . وروى أن موسى عليه السلام « لما قربه الله نجيا كان قد ترك الأكل أربعين يوما » وفى القوت روينا عن أبى سعيد الخراز قال : قال جماعة من الحكماء إن الله تعالى لا يكلم أحدا وفى بطنه شىء من الدنيا ، فهذا يدل على أمره لموسى عليه السلام بترك الأكل ليلقاه خاليا من الدنيا وبنفس ساكنة عن المنازعة إلى شىء من الملك وروح روحانية قد أحياها الحى بحياته ، فعند ذلك صلح هذا الشخص لمخاطبته قبلا بلا ترجمان . وروى عن مكحول قال : ثلاث خصال يحبها الله عز وجل : قلة الأكل وقلة النوم وقلة الكلام ، وكان بعض السلف يقول : أدنى أحوال المؤمن قلة الأكل والنوم ، وأفضل أحوال المنافق كثرة الأكل والنوم . وقال القشيرى فى الرسالة : قال يحى بن معاذ : لو أن الجوع يباع فى السوق لما كان ينبغى لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره ، وكان سهل التسترى إذا جاع قوى وإذا أكل ضعف . وقال أبو عثمان المغربى : الربانى لا يأكل أربعين يوما ؛ والصمدانى لا يأكل ثمانين يوما .

(وأما القلب) هذا هو الرابع من الأعضاء الأربعة التى هى الأصول (فحسبك) فيه (أنه أصل الكل) أى كل الجوارح التى هى جنوده ورعيته (إن أفسدته) أى القلب بالجحود والكفران (فسد الكل) بالفجور والعصيان (وإن أصلحته) بالإيمان والعلم والعرفان (صلح الكل) بالأعمال والإخلاص والأحوال ، وإذا كان صلاح الكل فى إصلاح القلب وجب صرف العناية إليه ، وذلك أى صلاح القلب إنما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها دقيقها وجليلها ، وهذه هى الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية ، وهى كثيرة مثل الكبر والعجب والرياء والسمعة والحقد والحسد وحب الجاه والمال ، ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة من العداوة والبغضاء والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وترك الثقة بمجىء الرزق وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق والشح والبخل وطول الأمل والأشر والبطر والغل والغش والمباهاة والتصنع والمداهنة والقسوة والفظاظة والغلظة والغفلة والجفاء والطيش والعجلة والحدة والحمية وضيق الصدر وقلة الرحمة وقلة الحياء وترك القناعة وحب الرياسة وطلب العلو والانتصار للنفس إذا نالها الذل وذهاب ملك النفس إذا رد عليه قوله إلى غير ذلك من النعوت الذميمة والأخلاق اللئيمة ، وأصل فروعها وعنصر ينابيعها : إنما هو رؤية النفس والرضا عنها وتعظيم قدرها وترفيع أمرها ، فهذه الأمور كفر من كفر ونافق من نافق وعصى من عصى ، وبها خلع من عنقه ربقة العبودية لربه عز وجل من

خلع ، وشأن الصوفى إنما هو النظر فيما يطهرها ويزكيها من أنواع الرياضات والمجاهدات . وقد بينوا طرق ذلك فى كتبهم . قال أبو طالب المكى : لايكون المريد بدلا حتى يبدل بمعانى صفات الربوبية صفات العبودية ، وأخلاق الشياطين بأوصاف المؤمنين ، وطبائع البهائم بأوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم ، فعند ذلك يكون بدلا مقربا .

قال : والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيملكها تسخرله ويسلط عليها ، فان أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيق عليها ولاتوسع لها ، فان ملكتها ملكتك ، وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك ، وإذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها واحبسها عن معتاد ملائمها ، فان لم تمسكها انطلقت بك ، وإن أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقطع أسبابها وحبس موادها ، وإلا قويت عليك فصرعتك انتهى .

فإذا قام العبد بذلك على الوجه الذى رسموه له ، والتزم الوظائف التي أمروه بها طهر قلبه وزكت نفسه ، واتصفت بمحاسن الصفات التى تزينه بين العباد ، وينال بها من قرب ربه غاية المراد ، فيظهر حينئذ عليه آثار حميدة من التواضع لله والخشوع بين يديه والتعظيم لأمره والحفظ لحدوده والهيبة له والخوف منه والتذلل لربوبيته والإخلاص فى عبوديته والرضا بقضائه ورؤية المنة له عليه فى منعه وإعطائه ، ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة الصدر والحلم والاحتمال والصيانة والنزاهة والأمانة والثقة والعطف والتأنى والوقار والسخاء والجود والحياء والبشاشة والنصيحة وسلامة الصدر إلى غير ذلك من أخلاق الإيمان التي ينال بها العبد غاية السعادة والحسنى والزيادة . قال العلامة الرندى : وهذان المعنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية رضى الله عنهم بالتحلى والتخلى : أى التخلى عن الصفات المذمومة والتحلى بالصفات المحمودة ، ويعبرون عنهما أيضا بالتزكية والتحلية ، وهما حقيقة السلوك الذى يعبرون عنه أيضا ، فاذا صح للعبد هذا السفر وانقلب منه إلى أفضل مستقر ، تحققت عبوديته لربه عز وجل ، فلم يملكه غيره ولم يسترقه سواه ، وارتقى فى القرب من ربه إلى أشرف محل ، فيكون هناك منزله ومثواه . فيكون لنداء الحق مجيبا ، لأنه إذ ذاك مناديه باسم العبد ، فيقول له ياعبدى فيجيب حينئذ مولاه باسم الرب، فيقول له: لبيك يارب ، فيكون صادقا فى إجابته متحققا فى نسبته ، فيكون أيضا من حضرته قريبا لوجود بعده عن نفسه التى من شأنها النفور عنها والفرار منها ، فاذا أقامه الحق تعالى مقام العبودية ، وحاز مرتبة القرب من حضرة الربوبية كان محفوظا من اقتحام الأوزار ميسرا عليه أعمال الأخيار ، متحليا فى الظاهر والباطن بأشرف الحلى ، محتظيا بفضيلة التشبه بالملأ الأعلى . قال الله عز وجل « ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لايفترون » وقد قال الله تعالى « إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » وقال عز من قائل « لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » فمرتبة العبودية أنالتهم هذه الخصوصية ، وكذلك من تشبه بهم فى محاسن صفاتهم من الصفوة

إِذْ هُوَ الشَّجَرَةُ ، وَسَائِرُ الْأَعْضَاءِ أَغْصَانٌ ، وَمِنَ الشَّجَرَةِ تَشْرَبُ الْأَغْصَانُ وَتَصْلُحُ وَتَفْسُدُ ، وَإِنَّهُ الْمَلِكُ ، وَسَائِرُ الْأَعْضَاءِ تَبَعٌ وَأَرْكَانٌ ، وَإِذَا صَلَحَ الْمَلِكُ صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ ، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَتِ الرَّعِيَّةُ ، فَإِذَنْ صَلَاحُ الْعَيْنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَغَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى

الصوفية إلا أن هؤلاء محفوظون لامعصومون على ماصطلحوا عليه من الفرق بين الحفظ والعصمة ، والفرق بينهما هو ماقاله القشيرى : أن المعصوم لايلم بذنب ألبتة ، والمحفوظ قد تحصل منه هنات وقد يكون له فى الندرة زلات ، ولكن لايكون له إصرار ، أولئك الذين يتوبون إلى الله من قريب ، وقد وصف الله تعالى عباده ذوى التخصيص أولى التطهير والتمحيص فى آيات كريمة بصفات جليلة عظيمة ، وأعد لهم على ذلك خيرات جسيمة ، فقال تعالى «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» إلى قوله «خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما» . وعليك النظر فيما قاله فيها أهل التفسير ، وما استنبطه منها أرباب الإشارات والتذكير . وأما من عدا هؤلاء فهم عبيد نفوسهم الشهوانية ومسترقو حظوظهم الدنيوية ، قال الله تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم » الحديث ، وهؤلاء هم من عبيد العدد المعنيين بقوله عز وجل « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » .

واعلم أنه لايتهيأ هذا السلوك إلى حضرة ملك الملوك إلا لمن وفقه الله تعالى لمعرفة نفسه وما ركبت عليه من مذام الصفات ، ومن عرف ذلك من نفسه لايزال متهما لها مسيئا ظنه بها آخذا حذره منها ، وإلا وقع فى المعاصى والذنوب من حيث لايشعر ، وقد شبه المصنف رحمه الله ذلك القلب بالشجرة والأعضاء بالأغصان فقال (إذ هو) أى القلب (الشجرة) أى بمنزلتها (وسائر الأعضاء أغصان) أى بمنزلة ذلك (ومن الشجرة تشرب الأغصان وتصلح) أى تلك الأغصان إن كان أصلها طيبا (وتفسد) إن كان أصلها خبيثا (وأنه) أى القلب (الملك وسائر الأعضاء تبع) جمع تابع كخدم وخادم (وأركان) أى جنود ، وقد خلقت مجبولة على طاعته لاتستطيع له خلافا ولاعليه تمردا وعصيانا فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم ، كل ذلك بسرعة وكذا سائر الأعضاء وتستخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فانهم مجبولون على الطاعة لايستطيعون له خلافا بل « لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون » وإنما يفترقان فى شئ وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها ، والأجفان تطيع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب (وإذا صلح الملك صلحت الرعية وإذا فسد) أى الملك (فسدت الرعية ، فإذن) أى إذا عرفت أن القلب أصل الكل (صلاح العين واللسان والبطن وغيره) أى المذكور من الثلاثة ، وذلك الغير كاليد والرجل والأذن (دليل على

صَلاحِ الْقَلْبِ وَعِمْرَانِهِ وَإِذَا رَأَيْتَ فِيهِ خَلَلاً وَفَسَاداً فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَلَلٍ فِى الْقَلْبِ وَفَسَادٍ وَقَعَ ثَمَّ ، بَلِ الْفَسَادُ فِيهِ أَكْثَرُ فَاصْرِفْ عِنَايَتَكَ إِلَيْهِ فَأَصْلِحْهُ يَصْلُحِ الْكُلُّ بِمَرَّةٍ فَتَسْتَرِيحَ ، ثُمَّ أَمْرُهُ دَقِيقٌ عَسِيرٌ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْخَوَاطِرِ وَهِىَ لَيْسَتْ تَحْتَ يَدِكَ وَالِامْتِنَاعُ مِنَ اتِّبَاعِهَا مَجْهُودُ طَاقَتِكَ فَفِيهِ أَقْصَى الْمَشَقَّةِ ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى صَارَ إِصْلَاحُهُ أَشَدَّ عَلَى أَهْلِ الِاجْتِهَادِ ، وَالِاهْتِمَامُ بِأَمْرِهِ أَكْثَرُ وَأَكْبَرُ عِنْدَ ذَوِى الْبَصَائِرِ .

وَعَنْ أَبِى يَزِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ : عَالَجْتُ قَلْبِى عَشْرًا وَلِسَانِى عَشْرًا وَنَفْسِى عَشْرًا فَكَانَ قَلْبِى أَصْعَبَ الثَّلَاثَةِ ، فَهَذِهِ هَذِهِ .

ثُمَّ عَلَيْكَ بِالِاهْتِمَامِ بِالْخِصَالِ الْأَرْبَعِ الَّتِى ذَكَرْنَاهَا : مِنَ الْأَمَلِ ،

صلاح القلب وعمرانه) أى حسن حاله، وفى[محيط المحيط] : العمران اسم للبنيان ولما يعمر به المكان ويحسن حاله بواسطة الفلاحة وكثرة الأهالى ونجح الأعمال والتمدن ، يقال العدل أساس العمران (وإذا رأيت فيه) أى فى المذكور من العين واللسان والبطن وغيره (خللا وفسادا) عطف تفسير لما قبله كما هو مقتضى صنيع المختار (فاعلم أن ذلك) الخلل والفساد ناشئ (من خلل فى القلب و) من (فساد وقع ثم) أى فى ذلك القلب (بل الفساد فيه) أى فى القلب (أكثر) من فساد غيره من الأعضاء (فاصرف عنايتك) أى قصدك (إليه) أى القلب (فأصلحه يصلح الكل) أى جميع الجوارح (بمرة فتستريح ، ثم أمره) أى أمر ذلك القلب (دقيق) أى أمر غامض : أى خلاف الواضح (عسير) أى صعب (إذ هو) أى أمره (مبنى على الخواطر ، وهى ليست تحت) طوع (يدك) واختيارك (والامتناع من اتباعها) أى تلك الخواطر (مجهود طاقتك ففيه) أى الامتناع (أقصى المشقة) أى غايتها (ولهذا المعنى) الذى ذكرناه من أن أمر القلب دقيق عسير (صار إصلاحه أشد) وأصعب (على أهل الاجتهاد و) صار (الاهتمام بأمره) أى القلب (أكثر وأكبر) من الاهتمام بغيره (عند ذوى البصائر . وعن أبى يزيد) طيفور بن عيسى البسطامى (رحمه الله) مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين (أنه قال عالجت قلبى عشرا) من السنين (ولسانى عشرا ونفسى عشرا فكان قلبى أصعب الثلاثة فهذه) الجملة (هذه) أى الموصوفة بالعظيمة ، وذلك لأن أمراض القلوب لايمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، ولهذا قال أبو يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة هكذا ذكره القشيرى فى الرسالة (ثم عليك بالاهتمام بالخصال الأربع التى ذكرناها من الأمل)

وَالعَجَلَةِ فِي الْأُمُورِ وَالْحَسَدِ وَالْكِبْرِ، وَإِنَّمَا خَصَّصْنَا هٰذِهِ الْأَرْبَعَةَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْخِصَالِ فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ وَحَضَضْنَا عَلَى الِاحْتِرَاسِ مِنْهَا لِأَنَّهَا عِلَلُ الْقُرَّاءِ خَاصَّةً ، إِذْ هِيَ تَعْتَرِي سَائِرَ النَّاسِ عُمُومًا وَالقُرَّاءَ خُصُوصاً فَتَكُونُ أَقْبَحَ وَأَشْنَعَ ، تَرَى الرَّجُلَ الْقَارِئَ يُطَوِّلُ الْأَمَلَ وَيَعُدُّهُ نِيَّةَ خَيْرٍ فَيُوقِعُهُ فِي الْكَسَلِ وَالتَّوَانِي فِي الْعَمَلِ وَتَرَاهُ يَسْتَعْجِلُ فِي تَحْصِيلِ مَنَازِلِ الْخَيْرِ فَيَنْقَطِعُ عَنْهَا، أَوْ فِي إِجَابَةِ دُعَاءٍ صَالِحٍ فَيُحْرَمُ مِنْ ذٰلِكَ، أَوْ فِي الدُّعَاءِ عَلَى أَحَدٍ بِسُوءٍ فَيَنْدَمُ عَلَى ذٰلِكَ، كَمَا ذُكِرَ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،

أى أمل طول الحياة فى الدنيا (والعجلة فى الأمور والحسد والكبر وإنما خصصنا هذه الأربعة من بين سائر الخصال) بالذكر (فى هذا الموضع وحضضنا) أى حثنا وحرضنا (على الاحتراس) أى التحفظ (منها لأنها) أى هذه الأربعة (علل القراء) أى العلماء (خاصة إذ هى) أى هذه الأربعة (تعترى) أى تصيب (سائر الناس عموما ، و) تعترى (القراء) والعلماء (خصوصا فتكون) أى الأربعة المذكورة (أقبح وأشنع) من غيرها (ترى الرجل القارئ يطول) من التطويل (الأمل ويعده) أى طول الأمل (نية خير فيوقعه فى الكسل) بفتحتين : أي التثاقل عن الأمر (والتوانى) أى التأخر والتأنى (فى العمل وتراه) أى الرجل المذكور (يستعجل فى تحصيل منازل الخير فينقطع عنها) أى عن منازل الخير (أو) يستعجل (فى إجابة دعاء صالح فيحرم) بالبناء للمفعول : أى يمنع (من ذلك) الإجابة (أو) يستعجل (فى الدعاء على أحد بسوء فيندم) من باب طرب (على ذلك) أى على دعائه بالسوء (كما ذكر عن نوح عليه) الصلاة و (السلام) أى من قوله « لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » وقصة هلاكهم ليس هذا المقام محل بسطها ، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ بن برد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث عليه السلام، وأمه قينوش بنت راكيل وقيل بنت كابيل بن محوئيل بن أخنوخ ، أرسله الله إلى ولد قابيل ومن تابعهم من ولد شيث . قال وهب بن منبه بعث إلى قومه وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما كما أخبر الله فى القرآن العظيم ، فلما استوفى نوح العمر الذى كتبه الله له جاء إليه ملك الموت وقال له السلام عليك يا نبى الله فقال وعليك السلام من أنت فقد أرعدت قلبى بسلامك فقال أنا ملك الموت جئتك لأقبض روحك فلما سمع نوح ذلك تغير وجهه وتلجلج لسانه فقال له ملك الموت ماهذا الجزع يا نوح ألم تشبع من الدنيا وأنت أطول الناس عمرا ، فقال نوح : إنما وجدت الدنيا دارا لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . ثم إن ملك الموت ناوله كأسا من شراب الجنة وقال له اشرب من هذا الشراب حتى يسكن روعك فتناوله وشربه فلما شربه خر ميتا صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، فلما مات شرع أولاده فى تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه

وَتَرَاهُ يَحْسُدُ نُظَرَاءَهُ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ حَتَّى رُبَّمَا يَبْلُغُ مِنْهُ ذٰلِكَ مَبْلَغاً يَحْمِلُهُ عَلَى قَبَائِحَ وَفَضَائِحَ لاَ يَقْدَمُ عَلَيْهَا فَاسِقٌ وَلاَ فَاجِرٌ ، وَلِهٰذَا المَعْنَى قالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : مَا أَخَافُ عَلَى دِمِي إِلاَّ القُرَّاءَ وَالْعُلَمَاءَ فَاسْتَنْكَرُوا مِنْهُ ذٰلِكَ ، فَقَالَ : مَا أَنَا قُلْتُهُ إِنَّمَا قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

وَعَنْ عَطَاءٍ قالَ : قالَ لِي الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : أُحْذَرُوا الْقُرَّاءَ وَاحْذَرُونِي مَعَهُمْ ، فَلَوْ خَالَفْتُ أَوَدَّهُمْ لِي فِي رُمَّانَةٍ فَأَقُولُ إِنَّهَا حُلْوَةٌ وَيَقُولُ إِنَّهَا حَامِضَةٌ مَا أَمِنْتُهُ أَنْ يَسْعَى بِدَمِي إِلَى سُلْطَانٍ جَائِرٍ .

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ

فى قرية قريبة من الكرك ، ويقال إن عند قبره عين ماء تجري انتهى (وتراه) أى الرجل المذكور (يحسد نظراءه) أى أمثاله (على ما آتاهم الله من فضله حتى ربما يبلغ منه) أى الرجل المذكور (ذلك) أى الحسد (مبلغا يحمله على قبائح وفضائح) كما وقع لبنى يعقوب عليه السلام حين حسدوا يوسف لمكانته عند أبيهم (لا يقدم عليها) أى تلك القبائح والفضائح (فاسق ولا فاجر ، ولهذا المعنى قال سفيان) بن سعيد (الثورى) بفتح الثاء المثلثة وبعدها واو ساكنة وراء هذه النسبة إلى ثور بن عبد مناة (رحمه الله) ولد سنة سبع وتسعين وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة (ما أخاف على دمى إلا القراء والعلماء فاستنكروا) أى القوم الحاضرون عنده (منه) أى من الثورى (ذلك) أى القوم المذكور (فقال) الثوري لا تنكرونى فى هذا القول (ما أنا قلته) من جهة نفسى (إنما قاله) أى القول المذكور (إبراهيم) بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن سعد بن مالك بن النخع (النخعى) بفتحتين نسبة إلى النخع : قبيلة من مذحج، توفى (رحمه الله تعالى) سنة ست وتسعين وهو ابن تسع وأربعين سنة ، وقال البخارى : ابن ثمان وخمسين سنة (وعن عطاء) هو أبو محمد عطاء بن أبى رباح القرشى مولاهم المكى أحد الأعلام . روى عن عائشة وأبى هريرة وخلف ، وعنه الأوزاعى وابن جريج وأبو حنيفة والليث ، مات سنة خمسة عشر ومائتين عن ثمان وثمانين رحمه الله (قال: قال لى) سفيان (الثورى رحمه الله : احذروا القراء واحذرونى معهم ، فلو خالفت أودهم) أى أحبهم (لى فى رمانة فأقول إنها) أى الرمانة (حلوة ويقول) أودهم لى (إنها حامضة ما أمنته أن يسعى بدمى إلى سلطان جائر) أى ظالم، أخرجه أبو نعيم فى الحلية . (وعن) أبي يحي (مالك بن دينار) البصري كان عالما زاهدا كثير الورع قنوعا لا يأكل إلا من كسبه ، وكان يكتب المصاحف بالأجرة . وروى عنه أنه قال : قرأت فى التوراة أن الذى يعمل بيده طوبى لمحياه ومماته ، وتوفى سنة إحدى

أَنَّهُ قالَ : إِنِّى أَقْبَلُ شَهادَةَ الْقُرَّاءِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ وَلاَ أَقْبَلُ شَهادَةَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ لِأَنِّى وَجَدْتُهُمْ حُسَّاداً .

وَعَنِ الْفُضَيْلِ أَنَّهُ قالَ لِابْنِهِ : اشْتَرِ لِى دَارًا بَعِيدَةً مِنَ الْقُرَّاءِ ، مَالِى وَلِقَوْمٍ إِنْ ظَهَرَتْ مِنِّى زَلَّةٌ هَتَكُونِى وَإِنْ ظَهَرَتْ عَلَىَّ نِعْمَةٌ حَسَدُونِى ؛ وَكَذٰلِكَ تَرَاهُ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ وَيَسْتَخِفُّ بِهِمْ مُصَعِّرًا خَدَّهُ مُعَبِّساً وَجْهَهُ ؛ كَأَنَّمَا يَمُنُّ عَلَى النَّاسِ بِمَا يُصَلِّى زِيَادَةَ رَكْعَتَيْنِ أَوْ كَأَنَّمَا جَاءَهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى مَنْشُورٌ بِالْجَنَّةِ أَوِ الْبَرَاءَةِ مِنَ النَّارِ أَوْ كَأَنَّهُ اسْتَيْقَنَ السَّعَادَةَ لِنَفْسِهِ وَالشَّقَاوَةَ لِسَائِرِ النَّاسِ ؛ ثُمَّ مَعَ ذٰلِكَ يَلْبَسُ لِبَاسَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ صُوفٍ وَغَيْرِهِ وَيَتَمَاوَتُ وَهٰذَا لاَ يَلِيقُ بِالتَّرَفُّعِ وَالْكِبْرِ وَلاَ يُلاَئِمُهُ بَلْ يُنَاقِضُهُ وَلٰكِنِ الْأَعْمَى لاَ يُبْصِرُ . وَذَكَرَ أَنَّ فَرْقَدًا السَّبَخِىَّ

وثلاثين ومائة بالبصرة رحمه الله (أنه قال : إنى أقبل شهادة القراء على جميع الخلق ولا أقبل شهادة بعضهم) أى القراء (على بعض ، لأنى وجدتهم حسادا) يعنى أن أكثر الحسد فى القراء قاله أبو الليث (وعن) أبى على (الفضيل) بن عياض التميمى اليربوعى، تقدمت ترجمته رحمه الله تعالى (أنه قال لابنه : اشتر لى دارا بعيدة من القراء ، مالى ولقوم) وهم القراء (إن ظهرت منى زلة هتكونى ، وإن ظهرت على نعمة حسدونى ؛ وكذلك) أى كما تراه يحسد (تراه) أى الرجل القارئ (يتكبر على الناس ويستخف) أى يستحقر (بهم مصعرا) أى مائلا (خده) من الكبر . فى المختار: الصعر بفتحتين الميل فى الخد خاصة . وقد صعر خده تصعيرا وصاعره: ماله من الكبر ، ومنه قوله تعالى « ولا تصعر خدك للناس » (معبسا وجهه) عبس وجهه : كلح وفلان وجهه قطبه : أى زوى ما بين عينيه وكلح (كأنما يمن) أى ينعم (على الناس بما يصلى زيادة ركعتين أو كأنما جاءه) أى ذلك الرجل القارئ (من الله تعالى منشور) أى كتاب غير مختوم وفى نسخة مبشر (بالجنة أو البراءة من النار أو كأنه) أى ذلك الرجل (استيقن السعادة لنفسه و) استيقن (الشقاوة لسائر الناس ثم مع ذلك) التكبر الذى رأيته تراه (يلبس لباس المتواضعين من صوف وغيره ويتماوت) وفى سراج السالكين تماوت تماوتا ادعى الموت وليس به (وهذا) أى لبسه لباس المتواضعين (لا يليق) ولا يناسب (بالترفع والكبر ولا يلائمه) أى يوافقه (بل يناقضه) أى يخالفه (ولكن الأعمى لا يبصر . وذكر أن فرقدا) بفتح الفاء مع سكون الراء هو ابن يعقوب (السبخى) بفتح السين المهملة والموحدة وبخاء معجمة ، منسوب إلى سبخة محركة: موضع بالبصرة كما فى القاموس، وهو عابد صدوق لين الحديث مات سنة إحدى وثلاثين ومائة، روى له الترمذى وابن ماجه ، وفى بعض النسخ السنجى بالكسر والسكون وبالجيم ، نسبة إلى

دَخلَ عَلَى الحَسَنِ وَعَلَيْهِ كِسَاءٌ وَعَلَى الحَسَنِ حُلَّةٌ فَجَعَلَ يَلْمَسُهَا فقَالَ الحَسَنُ مَالَكَ تَنْظُرُ إلى ثِيَابِى، ثِيَابِى ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَثِيَابُكَ ثِيَابُ أَهْلِ النَّارِ، بَلَغَنِى أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ أَصْحَابُ الأَكْسِيَةِ ثُمَّ قالَ الحَسَنُ: جَعَلُوا الزُّهْدَ فِى ثِيَابِهِمْ وَالكِبْرَ فِى صُدُورِهِمْ، وَالَّذِى يُحْلَفُ بِهِ لَأَحَدُكُمْ بِكِسَائِهِ أَعْظَمَ كِبْرًا مِنْ صَاحِبِ المِطْرَفِ بِمِطْرَفِهِ

سنج : قرية بمرو كما فى سراج السالكين . والأول هو الصحيح (دخل على الحسن) البصرى رحمه الله (وعليه) أى على الفرقد (كساء وعلى الحسن حلة) بالضم ما يحل على البدن من رداء وإزار (فجعل) الفرقد (يلمسها) أى تلك الحلة (فقال الحسن : مالك تنظر إلى ثيابى) هذه الحلة (ثيابى ثياب أهل الجنة وثيابك ثياب أهل النار) تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك (بلغني أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية) نفاقا : أى يلبسونها وباطنهم مخالف لظاهرهم كما يأتى ، فالحسن رحمه الله خاطب فرقدا ينبهه أن لا يغره لبس الصوف . (ثم قال الحسن) فى معنى ذلك (جعلوا) أى أصحاب الأكسية (الزهد فى ثيابهم ، و) جعلوا (الكبر فى صدورهم) أى قلوبهم (والذى) الواو للقسم (يحلف به) بالبناء للمفعول (لأحدكم) باللام الابتدائية (بكسائه أعظم كبرا من صاحب المطرف بمطرفه) بضم الميم وكسرها : رداء من خز مربع له أعلام ، وأطرفته إطرافا : إذا جعلت فى طرفيه علمين فهو مطرف ، وربما جعل اسما برأسه غير جار على فعله وكسرت الميم تشبيها بالآلة : والجمع مطارف . يعنى أن صاحب المطرف يذل لصاحب الكساء ويرى الفضل له ، وصاحب الكساء يرى الفضل لنفسه ، فهذا معنى قول الحسن رحمه الله . وهذه الآفة قلما ينفك عنها كثير من العباد ، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ، ولا شك فى أنه صار ممقوتا عند الله ، ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار ، وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل . وجمع بين العجب والكبر والاغترار بالله عز وجل ، وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتصدى للمعارضة ، ويقول سترون ما يجرى عليه من النكال ، وإذا أصيب بمصيبة عرضت له زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله عدوا بغير علم ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء عليهم السلام بأشد أنواع الأذى ، فمنهم من ضربهم ومنهم من قتلهم . ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه فى الدنيا ولا فى الآخرة . ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه ورسله وأنه قد انتقم له بما لاينتقم لأنبيائه به ، ولعله فى مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه ، فهذه عقيدة المغترين وهى من أكبر الآفات ، وأما الأكياس من العباد فيقولون مثل ما كان يقوله عطاء السلمى البصرى حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة أو نحو ذلك من الآيات المخوفة مايصيب الناس ماأصابهم إلا بسببى ولو مات عطاء يعنى نفسه لتخلصوا واستراحوا ، أخرجه أبو نعيم

وَإلى هٰذَا المَعْنَى يُشِيرُ ذُو النُّون رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ :

تَصَوَّفَ فَازْدَهَى بِالصُّوفِ جَهْلاً ... وَبَعْضُ النَّاسِ يَلْبَسَهُ مَجَانَهْ

يُرِيكَ مَهَانَةً وَيُرِيكَ كِبْرًا ... وَلَيْسَ الْكِبْرُ مِنْ شَكْلِ المَهَانَهْ

تَصَوَّفَ كَيْ يُقَالَ لَهُ أَمِينٌ ... وَمَا مَعْنَى تَصَوُّفِهِ الْأَمَانَهْ

وَلَمْ يُرِدِ الْإِلٰهَ بِهِ وَلٰكِنْ ... أَرَادَ بِهِ الطَّرِيقَ إِلَى الخِيَانَهْ

فى الحلية (وإلى هذا المعنى) أى الذى قاله الحسن رحمه الله (يشير) أبو الفيض (ذو النون) المصرى (رحمه الله) واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن إبراهيم وأبوه كان نوبيا ، توفى يوم الاثنين ودفن بالقرافة الصغرى بمصر سنة خمس وأربعين ومائتين ، فائق هذا الشأن وأوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا ، سعوا به إلى المتوكل فاستحضروه من مصر ، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده إلى مصر مكرما ، وكان المتوكل إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكى ويقول : إذا ذكر أهل الورع فحيهلا بذى النون ، وكان رجلا نحيفا تعلوه حمرة ليس بأبيض اللحية . ومن كلامه رحمه الله: مدار الكلام على أربع: حب الجليل ، وبغض القليل ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل . ومن كلامه أيضا : من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه كذا قاله القشيرى (حيث قال) من بحر الوافر (تصوف) المتصوف : هو الذى يجاهد لطلب درجة الصوفية (فازدهى) أى تكبر (بالصوف) أى بلبسه (جهلا * وبعض الناس يلبسه) أى الصوف (مجانه) بلا تصوف، مجن الرجل مجونا ومجانة ومجنا كان لايبالى قولا وفعلا: أى هزل ضد جد (يريك مهانة) فى لسان العرب: المهانة : الحقارة والصغر (ويريك كبرا * وليس الكبر من شكل) أى صورة (المهانة . تصوف كى يقال له أمين) أى مأمون (وما معنى تصوفه الأمانة . ولم يرد) أى المتصوف (الإله) جل وعز (به) أى بتصوفه (ولكن * أراد) المتصوف (به الطريق إلى الخيانة) مع الرياء والسمعة للناس وانتشار الصيت بينهم والشهرة واقتناص الأموال بطريق السؤال وأنواع الاحتيال ، وذلك لأن أكثر متصوفة هذه الأعصار لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال لفترات عرضتها ولم يقدروا على إزالتها ، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره فى الخلوة ووقفوا عن السير ومالوا إلى الغير ؛ وكانوا بطالين غير محترفين ولامشغولين ، قد ألفوا البطالة ومالت نفوسهم إليها ، واستثقلوا العمل واستوعروا طريق الكسب ، واستلانوا جانب السؤال والتكفف ، فلم يكن لهم فى الخانقاهات حكم نافذ ، ولا تأديب للمريدين نافع ، ولا حجر عليهم قاهر يقهرهم عما لايليق ، فلبسوا المرقعات واتخذوا فى الخانقاهات متنزهات من مياه جارية وأشجار مغروسة وفرش مبسوطة ، وربما تلقفوا ألفاظا مزخرفة من الطامات ؛ فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم فى خرقهم وفى لفظهم

فَلْتَحْذَرْ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ هٰذِهِ الآفاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا لاَ سِيَّمَا الْكِبْرَ ، فَإِنَّ الثَّلَاثَ الْأُوَلَ مَدَاحِضُ لَوْ زَلَّتْ فِيهَا لَوَقَعْتَ فِى الْعِصْيَانِ ، وَالْكِبْرُ مَدْحَضٌ لَوْ زَلَّتْ فِيهِ لَوَقَعْتَ فِى بِحَارِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، وَلَا تَنْسَ حَدِيثَ إِبْلِيسَ وَفِتْنَتَهُ أَنَّهُ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَالرُّجُوعُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْصِمَنَا جَمِيعاً بِحُسْنِ نَظَرِهِ إِنَّهُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ .

﴿فصل﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ فَعَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا لاَ بَقَاءَ لَهَا ،

وفى عبارتهم وفى آداب ظاهرة من سيرتهم ، فيظنون بأنفسهم خيرا « ويحسبون أنهم يحسنون صنعا» ويعتقدون أن كل سوداء تمرة ، وأن كل بيضاء شحمة ؛ ويتوهمون أن المشاركة لهم فى الظاهر من الأقوال والأفعال توجب المساهمة والمقاسمة فى الحقائق الباطنة ، وهيهات فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم ، فهؤلاء بغضاء الله تعالى ، فان الله تعالى يبغض الشاب الفارغ كما أخرجه سعد بن منصور فى سننه ، ويحتمل أن يكون المراد بالشاب هنا الصحيح ، فقد قال العسكرى فى الأمثال : الصحة عند بعضهم الشباب ، والعرب تجعل مكان الصحة الشباب كما قالوا القلب الفارغ والشباب المقبل يكسب الآثام ، وكان يقال إن لم يكن الشغل محمدة فالفارغ مفسدة والقلب الفارغ يبحث عن السوء (فلتحذر أيها الرجل) السالك طريق الآخرة (من هذه الآفات الأربع التى ذكرناها) وهى الأمل والعجلة فى الأمور والحسد والكبر (لاسيما الكبر فإن الثلاث الأول) بضم همزة الأول علي إرادة الجمع ، وهى الأمل والعجلة والحسد (مداحض) أى مواضع الزلة ، فى المختار دحضت رجله: زلقت وبابه قطع (لو زلت فيها) أى فى تلك المداحض التى هى الثلاث الأول (لوقعت فى العصيان، والكبر مدحض لو زلت فيه) أى فى هذا المدحض (لوقعت فى بحار الكفر والطغيان) أى تجاوز الحد فى العصيان (ولا تنس) أيها الرجل (حديث إبليس وفتنته) وقد تقدم ذلك (أنه أبى) أى امتنع اللعين عن السجود لآدم عليه السلام (واستكبر) أى تكبر (وكان من الكافرين) فى علم الله تعالى (والرجوع إلى الله عز وجل أن يعصمنا جميعا بحسن نظره إنه الجواد) أى الواسع العطاء (الكريم) فانه لا يرد من سأله واعتمد عليه ، وفي الحديث «إن الله كريم يحب مكارم الأخلاق» .

﴿فصل﴾ : (وجملة الأمر) أى حاصله (أنك إذا نظرت بعقلك أيها الرجل فعلمت) بعد النظر والتفكر (أن الدنيا لا بقاء لها) وأنها لو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء كما ورد فى الخبر. وروى البيهقى عن أبى بن كعب «إن من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة» قال الحفنى : هى بغى من بغايا بنى إسرائيل :أى زانية من زناتهم، قيل إنها ذبحته بيدها، وقيل إنها

وَأَنَّ نَفْعَهَا لَا يَفِي بِضُرِّهَا وَتَبِعَاتِهَا مِنْ كَدِّ الْبَدَنِ وَشُغْلِ الْقَلْبِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالْحِسَابِ الطَّوِيلِ فِي الْآخِرَةِ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ ،

أمرت رجلا تعلق بهواها أن يذبحه فصنع ذلك وأهدى رأسه إليها فى طست من ذهب طلبا لرضاها وقيل إن ملكا من ملوك بنى إسرائيل كان يحب بنت أخيه محبة شديدة ، وكان يقضى لها كل يوم حاجة فبلغ أمها أن سيدنا يحيى يحرم نكاح المحارم ، فقالت لها إذا طلب عمك منك قضاء حاجتك ، فقولى حاجتى اليوم قتل يحيى ، فقالت له ذلك ، فقال لها اطلبى غير ذلك لكونه استعظمه فأبت ففعل ، فعلى القول الأول إسناد القتل للمرأة حقيقة وعلى الأخير مجاز : أى تسببت . قال العزيزى يعنى أن قتل يحيى حصل من هوان الدنيا : يعنى لو كان شأنها راتبا وأمرها باقيا لكان الأنبياء أحق بالحياة والاحترام فيها والرعاية والوقاية ، لكنها دار هوان (وأن نفعها لا يفى) أى يقصر عنه ولا يوازيه (بضرها وتبعاتها من كد البدن) أى تعبه (وشغل القلب فى الدنيا و) من (العذاب الأليم) أليم فعيل إما بمعنى مفعل بكسر العين : أى المؤلم بكسر اللام ، وإما بمعنى مفعل بفتح العين أى المؤلم بفتح اللام ويكون كناية عن شدة الألم حتى كأن العذاب هو المؤلم بفتح اللام (والحساب الطويل) للأعمال (فى الآخرة الذى لاطاقة) أى لاقوة (لك به) أى بالحساب الطويل لشدته روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتهيئوا للعرض الأكبر ، وإنما يخفف الحساب على من حاسب نفسه فى الدنيا ، وكان عطاء الخراسانى رضى الله عنه يقول : بلغنا أن العبد الموحد يحاسب يوم القيامة بحضرة معارفه ليكون أشد عليه ، ذكره الحافظ أبو نعيم . وروى الترمذى مرفوعا «يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب مايتمنى معه أنه لم يقض بين اثنين فى عمره قط» وروى الترمذى أيضا مرفوعا « تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، فعند ذلك تتطاير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » وهى العرضة الثانية كما فى رواية . قال العلماء : والجدال خاص بأهل الأهواء ، فيجادل أحدهم حتى لايعرض على ربه ، ويظنون أنهم إذا جادلوا نجوا وقامت حجتهم . وأما المعاذير فهى لله تعالى ، ومن الله يعتذر الخلق إلى الله ، فيتقبل ممن شاء ويرد على من شاء ، ويعتذر الحق جل وعلا إلى آدم عليه السلام وإلى نبينا وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويقيم حجته عندهم على الأعداء ثم يبعثهم إلى النار ، فهو سبحانه وتعالى يحب أن يكون عذره عند أنبيائه وأوليائه ظاهرا حتى لاتأخذهم الحيرة ، ولذلك لاأحد أحب إليه المدح من الله ، ولاأحد أحب إليه العذر من الله . وقال بعض العلماء : إن العرضة الثالثة خاصة بالمؤمنين ، فيخلو بهم ربهم ويعاتبهم فى تلك الخلوات حتى يذوب أحدهم من الحياء ويرفض عرقا بين يديه ، ثم يغفر لهم ويرضى عنهم . قال الشعرانى : وبلغنا أن شخصا تاجرا وقعت عليه امرأة تشترى لها إزارا فكلمته فتحركت بشرته عليها ، فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت

فَإِذَا عَلِمْتَ ذَٰلِكَ جِدًّا زَهِدْتَ فِى فُضُولِهَا فَلَا تَأْخُذُ مِنْهَا إِلَّا مَا لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ فِى عِبَادَةِ رَبِّكَ وَتَدَعُ التَّنَعُّمَ وَالتَّلَذُّذَ إِلَى الْجَنَّةِ ، دَارِ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِى جِوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْمَلِكِ الْقَادِرِ الْغَنِيِّ الْكَرِيمِ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ الْخَلْقَ لَا وَفَاءَ لَهُمْ ، وَأَنَّ مُؤْنَتَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ مَعُونَتِهِمْ فِيمَا يَعْنِيكَ ، وَتَرَكْتَ مُخَالَطَتَهُمْ إِلَّا فِيمَا لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ تَنْتَفِعُ بِخَيْرِهِمْ وَتَجْتَنِبُ مِنْ ضَرِّهِمْ وَتَجْعَلُ صُحْبَتَكَ لِمَنْ لَا تَخْسَرُ فِى صُحْبَتِهِ وَلَا تَنْدَمُ عَلَى خِدْمَتِهِ ،

وسأله الله عن ذلك فسقط لحم وجهه من الحياء . وروى أن عيسى عليه السلام مر بقبر فوكزه برجله وقال ياصاحب القبر قم بإذن الله ، فقام رجل من القبر وقال ياروح الله ماالذي أردت بى فانى لقائم فى الحساب منذ سبعين سنة حتى سمعت الصيحة أن أجب روح الله ، فقال عيسى ياهذا لقد كنت كثير الذنوب والخطايا ، فما كان عملك ؟ فقال ياروح الله كنت حطابا أحمل الحطب على رأسى وآكل حلالا وأتصدق ، فقال عيسى: سبحان الله ! حطاب يحمل الحطب على رأسه ويأكل حلالا ويتصدق وهو قائم فى الحساب منذ سبعين عاما ، ثم سأله عيسى عما قال له ربه فى الحساب فقال ياروح الله كان من توبيخ ربى لى أن قال: أتذكر يوم أكراك عبدى فلان لتحمل له حزمة حطب فأخذت منه عودا وخللت به أسنانك وألقيت به فى غير مكانه من الحزمة استهانة منك بى وأنت تعلم أنى أنا الله المطلع على فعلك ونيتك ، كذا ذكره الشعرانى فى التذكرة القرطبية (فإذا علمت ذلك) أى أن الدنيا لابقاء لها ونفعها لايفى بضرها (جدا زهدت فى فضولها) أى الدنيا (فلا تأخذ منها إلا ما لابد لك منه فى عبادة ربك وتدع) أى تترك (التنعم والتلذذ) بأنواع المستلذات والمشتهيات فى هذه الدار لتصل (إلى التنعم والتلذذ فى الجنة دار النعيم المقيم) أى الدائم الذى لاينعزل (فى جوار) بكسر الجيم (رب العالمين) الذى هو مالكهم ومربيهم والقائم بأمورهم والمصلح لما يفسد منها ولا ملجأ لهم إلا إليه (الملك) بالجر نعت لما قبله : أى ذى الملك والمراد به القدرة على الإيجاد والاختراع ، أو المتصرف فى جميع الأشياء يعز من يشاء ويذل من يشاء ولا يذل . وقال بعض المحققين : الملك هو الغنى مطلقا فى ذاته وصفاته عن كل ماسواه ، ويحتاج إليه كل ماسواه (القادر) أى المتمكن من الفعل بلا معالجة ولا واسطة (الغنى) أى المستغنى عن كل شئ لايفتقر إلى شئ (الكريم) أى المتفضل الذى يعطى من غير مسألة ولا وسيلة ، وقيل المتجاوز الذى لايستقصى فى العقاب ، وقيل المقدس عن النقائص والعيوب (وعلمت أن الخلق لاوفاء لهم ، وأن مئونتهم) أى مشقتهم (أكثر من معونتهم) أى إعانتهم (فيما يعنيك وتركت مخالطتهم إلا فيما لابد لك منه ، تنتفع بخيرهم ، وتجتنب من ضرهم ، وتجعل صحبتك لمن لاتخسر فى صحبته ولا تندم) من باب طرب (على خدمته) وطاعته وهو ربك وسيدك ومولاك

وَأُنْسَكَ بِكِتَابِهِ وَمُلَازَمَتِكَ إِيَّاهُ فَيَكُونُ لَكَ بِكُلِّ حَالٍ وَتَرَى مِنْهُ كُلَّ جَمِيلٍ وَإِفْضَالٍ، وَتَجِدُهُ عِنْدَ كُلِّ نَائِبَةٍ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ حَيْثُ اتَّجَهْتَ ».

وخالقك (و) تجعل (أنسك بكتابه) أى بمطالعة كتابه (وملازمتك إياه) وفى نسخة لبابه (فيكون) جل وعز (لك بكل حال وترى منه) سبحانه (كل جميل وإفضال) بكسر الهمزة : أى إحسان على وجه الفضل كما ذكره البنانى ، ومهما ذكرته بلسانك أو بقلبك أو بهما فهو جل وعز جليسك فلا ينساك ، إذ قال سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى « أنا جليس من ذكرنى » . وقال تعالى « عبدى أنا عند ظنك بى وأنا معك » أى بالتوفيق أو أنا معك بعلمى إذا ذكرتنى : أى إذا دعوتنى فأسمع ماتقول فأجيبك . هذا وما أشبهه فى ذكر عن يقظة لاعن غفلة وقال الله تعالى « يابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه ، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيت إليك أهرول » والمعنى إن ذكرتنى سرا إخلاصا وتجنبا للرياء أسرع بثوابك على منوال عملك ، وإن ذكرتنى فى جماعة افتخارابى وإجلالالى بين خلق ذكرتك فى الملائكة المقربين وأرواح المرسلين مباهاة بك وإعظاما لقدرك ، وإن تقربت منى بالاجتهاد والإخلاص فى طاعتى قربتك بالهداية والتوفيق وإن زدت زدت ، كذا أفاده العزيزى (وتجده) أى تجد الله معك بالحفظ والإحاطة والتأييد والإعانة (عند كل نائبة) أى مصيبة وشدة (فى الدنيا والآخرة كما قال) النبى (عليه الصلاة و (السلام : احفظ الله) بحفظ فرائضه وحدوده وملازمة تقواه واجتناب نهيه وما لايرضاه (تجده) سبحانه وتعالى معك (حيث) أى فى مكان (اتجهت) بالحفظ والإعانة حيثما كنت فتأنس به وتستغنى به عن خلقه ، وهذا من المجاز البليغ لاستحالة الجهة عليه تعالى فهو على حد قوله تعالى « إن الله مع المتقين . إن الله مع الصابرين » فالمعية هنا معنوية لاظرفية ، فكأن المعنى تجده حيثما توجهت وتيممت وقصدت من أمر الدين والدنيا ، وهذا الحديث جزء من حديث طويل رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح ، وأوله كما فى الأربعين بلفظ « عن أبى العباس عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال : ياغلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن الله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » . وفى رواية عبد بن حميد والإمام أحمد « احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ماأخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن

وَعَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ خَبِيثٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِمُعَادَاتِكَ فَاسْتَعِذْ بِرَبِّكَ الْقَادِرِ الْقَاهِرِ مِنْ هٰذَا الْكَلْبِ اللَّعِينِ وَلاَ تَغْفُلُ عَنْ مَكَايِدِهِ وَمَصَايِدِهِ فَتَطْرُدَهُ بِذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَلاَ تَعْبَأَنَّ بِذٰلِكَ ، فَإِنَّهُ يَسِيرٌ إِذَا ظَهَرَتْ مِنْكَ عَزِيمَةُ الرِّجَالِ ، وَإِنَّهُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج من الكرب ، وأن مع العسر يسرا» (وعلمت أن الشيطان) اللعين (خبيث) مخبيث (قد تجرد) وتمحض (لمعاداتك) وإغوائك وإضلالك (فاستعذ بربك القادر) على كل شيء (القاهر) أى المستولى على جميع الأشياء الظاهرة والباطنة (من) وساوس (هذا الكلب اللعين) المرجوم بالنجم المطرود من رحمة الله (ولا تغفل عن مكايده ومصايده) أى اللعين (فتطرده بذكر الله سبحانه) وتعالى . قال مصنفنا حجة الإسلام وغيره : ولا يمحو وسوسة الشيطان إلا ذكر ماسوى ما يوسوس به لأنه إذا خطر فى القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل . ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به ، فيجوز أيضا أن يكون مجالا للشيطان ، وذكر الله هو الذى يؤمن جانبه ، ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ، ولا يعالج الشيء إلا بضده ليكون مخرجا له ومبطلا أثره ، وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله تعالى بالاستعاذة والتبرى عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الخاشعون الغالب عليهم ذكر الله تعالى فى سائر أوقاتهم ، وإنما الشيطان يطوف عليهم فى أوقات الفلتات والغفلات على سبيل الخلسة والمخاتلة . قال الله تعالى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . وقال مجاهد فى معنى قول الله تعالى « من شر الوسواس الخناس » قال : هو منبسط على القلب ، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى انبسط على قلبه هكذا نقله صاحب القوت (ولا تعبأن) أى ولا تبالى (بذلك) أى اللعين (فإنه) أى اللعين أى طرده ودفعه (يسير) غير عسير (إذا ظهرت منك عزيمة) أى قصد (الرجال) الكاملين (وأنه) أى الشيطان اللعين : أى شأنه (كما قال الله تعالى) « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (إنه ليس له) أى لإبليس (سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان ، فكأن ذلك أوهم أن له قدرة على التصرف فى أبدان بنى آدم ، فأزال الله سبحانه وتعالى هذا الوهم بقوله « إنه ليس له سلطان » يعنى ليس له قدرة وولاية على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه ، فإنهم لا يطيعون أوامره ولا يقبلون وساوسه إلا فيما يحتقرون على ندور وغفلة ؛ ولذلك أمروا بالاستعاذة . قال سفيان : ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر ، ويظهر من هذا

وَلَقَدْ صَدَقَ أَبُو حَازِمٍ فِيمَا قَالَ : مَا الدُّنْيَا وَمَا إِبْلِيسُ ؟ أَمَّا الدُّنْيَا فَمَا مَضَى مِنْهَا فَحُلْمٌ وَمَا بَقِيَ فَأَمَانِيٌّ ؛ وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَوَاللهِ لَقَدْ أُطِيعَ فَمَا نَفَعَ ، وَلَقَدْ عُصِيَ فَمَا ضَرَّ ،

أن الاستعاذة إنما تفيد إذا حضر بقلب الإنسان كونه ضعيفا ، وأنه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان إلا بعصمة الله ، ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله (ولقد صدق أبو حازم) هو سلمة بن دينار التابعى المدني الأعرج الزاهد الفقيه المشهور بالمحاسن ، وهو مخزومي مولى الأسود بن سفيان المخزومى ، وقيل مولى لبنى ليث ، سمع سهل بن سعد الساعدى ، وأكثر الرواية عنه في الصحيحين وغيرهما والنعمان أبا عياش الزرقى وسعيد بن المسيب وعطاء وسعيد المقبرى وأبا صالح وعبد الله بن أبى قتادة وأبا سلمة بن عبد الرحمن وأبا إدريس الخولانى وعطاء بن يسار وعمرو بن شعيب وأم الدرداء الصغرى. وآخرين روى عنه ابناه عبد العزيز وعبد الجبار والزهرى ، وهو أكبر من أبى حازم ومحمد بن إسحاق ومحمد بن عجلان والمسعودى ومالك بن أنس وابن أبى ذؤيب وعبيد الله بن عمر وموسى بن عبيدة وسفيان الثورى وعمرو بن صهبان وسليمان بن بلال وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهشام بن سعد وأسامة بن زيد ومعمر وسفيان بن عيينة وأخوه محمد بن عيينة وخلائق لا يحصون ، وأجمعوا على توثيقه وجلالته والثناء عليه . قال محمد بن إسحاق بن خزيمة : لم يكن فى زمن أبى حازم مثله توفى سنة خمس وثلاثين ومائة رحمه الله تعالى (فيما قال : ما الدنيا وما إبليس ؟ أما الدنيا فما مضى منها فحلم) الحلم الرؤيا (وما بقى) منها (فأمانى) جمع أمنية ، وهى فى الأصل ما يقدره الإنسان فى نفسه ، من منى إذا قدر ، ولذلك يطلق على الكذب وعلى مايتمنى وما يقرأ (وأما الشيطان فوالله لقد أطيع فما نفع) طائعه (ولقد عصى) بالبناء للمفعول كسابقه (فما ضر) عاصيه . قال أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى قوله تعالى « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان ، فشغلهم ذلك من محبة الحبيب ، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو ، أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه . وقال بعضهم : الشيطان منديل هذه الدار : يعنى يمسح به أقذار النسب ، وهى نسبة الشرور وأنواع المعاصى والفساد إليه أدبا مع الله عز وجل ، وهذا سر إيجاده كما قال الله تعالى «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره» وقوله تعالى « هذا من عمل الشيطان » وأما أن له حولا وقوة يضر بها أو ينفع فلا . قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : ما خلق الله عز وجل خلقا أهون عليه من إبليس ، ولولا أن الله أمرنى أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبدا . وقيل لبعض العارفين كيف مجاهدتك للشيطان ؟ . فقال وما الشيطان؟ نحن قوم صرفنا هممنا إليه تعالى فكفانا من دونه ، وسئل بعضهم: بم تدفع إبليس ؟ . فقال لا أدفع من لا أعرف ، فأما إن أهملت ذلك وغفلت عنه ولم تعبأ به غلبك لا محالة لثبوت سلطنته عليك ووصوله بالوسوسة إليك . قال أهل العلم : إن لكل أحد من الناس وسواسا موكلا

وَعَلِمْتَ جَهَالَةَ هٰذِهِ النفْسِ وَجِمَاحَهَا إِلى مَا يَضُرُّهَا، وَيُهْلِكُهَا ، فَنَظَرْتَ إِلَيْهَا رَحْمَةً لَهَا نَظَرَ الْعُقَلَاءِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِى الْعَوَاقِبِ لَا نَظَرَ الْجُهَّالِ وَالصِّبْيَانِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِى الْحَالِ، وَلَا يَفْطنُونَ لِغَائِلَةِ الْأَذَى وَيَنْفِرُونَ

به مستبطنا قلبه واضعا رأسه : أو قال خرطومه عليه، فإذا غفل العبد وسوس وإذا ذكر الله خنس أى تأخر واستتر ، وتقدم مثل هذا . وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : الشيطان قديم وأنت حديث والشيطان كبير وأنت سليم الناحية ، والشيطان لا ينساك وأنت لا تزال تنساه ، وله من نفسك عليك عون ، وقيل صدر ابن آدم مسكن له ومجراه من ابن آدم مجرى الدم ، وأنت لا تقاومه إلا بعون الله تعالى . وقال مالك بن دينار رحمه الله: إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المئونة إلا من عصمه الله ، وفيه يقول القائل :

أشكو عدوا كيده يرانى ... ولا أراه حيثما يرانى
وعند ما أنساه لا ينسانى ... ياسيدى إن لم تغث سبانى

وقال ذو النون المصرى رحمه الله إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه ، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال إبليس لربه عز وجل بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم قال له ربه وعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى » وقال بعضهم : عداوة الشيطان لك نعمة عظيمة من الله عليك ؛ إذ من مقتضاها أن لا يغفل عنك وأن يبذل جهده فى محاربتك ومقاتلتك بنفسه وبجنده وبخيله وبرجله ، ولا طاقة لك على مقاتلته بنفسك لأنك فى غاية الضعف والعجز فيضطرك الحال لا محالة إلى الاستعانة عليه بمولاك القوى المتين فيوجد منك حينئذ الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه فى دفعه عنك ، فعداوة الشيطان هى التى ردك الحق تعالى بها إليه وجمعك بها عليه ، وهذا هو غاية المقصود لكن قال العلامة الشرقاوى هذا فى حق غير المحبوبين الذين صرفوا هممهم إلى جناب الحق . أما هم فلا يحتاجون إلى عدو يحوشهم ، لأن تعلقهم به تعالى كالطبيعى فيهم فلا يلتفتون إلى إبليس ، ولولا أمر الله تعالى لهم بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه ، ومن هو حتى يستعاذ بالله منه كما تقدم عن أبى سليمان الدارانى وغيره (وعلمت جهالة هذه النفس) الأمارة بالسوء (وجماحها) واعتزازها وغلبتها (إلى ما يضرها و) ما (يهلكها) ولا تعرف عاقبتها (فنظرت إليها رحمة) ورأفة (لها نظر العقلاء) أى كنظرهم (و) نظر (العلماء الذين ينظرون فى العواقب) أى فى أواخر أمرهم (لا) نظرت إلى هذه الأمارة بالسوء (نظر الجهال والصبيان الذين ينظرون فى الحال) ولا ينظرون فى المآل (ولا يفطنون) أى لا يفهمون (لغائلة الأذى) الغائلة الشر كما فى سراج السالكين (وينفرون) بفتح الياء

مِنْ مَرَارَةِ الدَّوَاءِ فَأَلْجِمْهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى بِأَنْ تَمْنَعَهَا عَمَّا لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ بِالْحَقِيقَةِ مِنْ فُضُولِ كَلَامٍ وَنَظَرٍ وَطَعَامٍ وَتَلَبُّسٍ بِخَصْلَةٍ فَاسِدَةٍ مِنْ طُولِ أَمَلٍ أَوْ عَجَلَةٍ أَوْ حَسَدِ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكَبُّرٍ فِى غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَوْ أَكْلٍ بِمَحْضِ شَهْوَةٍ وَشَرَهٍ وَتُعْطِيَهَا مَا لَيْسَ لَهَا مِنْهُ بُدٌّ وَلَا تَخَافُ مِنْهُ ضَرَرًا إِذْ لَا ضَرُورَةَ إِلَى الْفُضُولِ، وَقَدْ وَسَّعَ اللهُ تَعَالَى الْأَمْرَ عَلَى عِبَادِهِ بِرَحْمَتِهِ وَأَغْنَاهُمْ عَنْ جَمِيعِ مَا يَضُرُّهُمْ فِى أَمْرِ دِينِهِمْ فَأَىُّ حَاجَةٍ إِلَى ذٰلِكَ ؟

وكسر الفاء من باب ضرب فى اللغة العالية : أى يعرضون ويصدون (من مرارة الدواء فألجمها بلجام التقوى) وذلك (بأن تمنعها) أى النفس (عما لاتحتاج إليه بالحقيقة من فضول كلام ونظر وطعام) أى فضولهما (و) من (تلبس) أى اختلاط (بخصلة فاسدة من طول أمل أو عجلة) فى الأمور (أو حسد مسلم أو تكبر فى غير موضع) أى موضع التكبر، وذلك كالتكبر على المتواضعين فإنه مذموم، بخلاف التكبر علي المتكبرين فإنه محمود، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المتواضعين فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك مذلة لهم وصغار » قال العراقى حديث غريب ، والمعنى أن المتكبر إذا تواضعت له تمادى فى تيهه وإذا تكبرت عليه يمكن أن يتنبه، ومن ثم قال الشافعى : ماتكبر على متكبر مرتين . وقال الزهرى : التجبر على أبناء الدنيا أوثق عرى الإسلام ، وفى بعض الآثار: التكبر على المتكبر صدقة ، ويؤيده ماروى عن ركب المصرى وله صحبة مرفوعا : «طوبى لمن تواضع فى غير منقصة وذل نفسه فى غير مسكنة، وذلك بأن لايضع نفسه بمكان يزرى به ويؤدى إلى تضييع حق الحق أو الخلق» فالقصد بالتواضع خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين ، ومن هذا الحديث يؤخذ أن الرجل إذا تغير صديقه وتكبر عليه لنحو منصب أن يفارقه ، ولذلك قيل :

سأصبر عن رفيقي إذا جفانى ... على كل الأذى إلا الهوان

وقال الشيخ الأكبر قدس سره : الخضوع واجب فى كل حال إلى الله باطنا وظاهرا فاذا اتفق أن يقام فى موطن الأولى فيه ظهور عزة الإيمان وجبروته وعظمته لعز المؤمن وعظمته وجبروته ويظهر فى المؤمن من الأنفة والجبروت مايناقض الخضوع والذلة ، فالأولى إظهار مايقتضيه ذلك الموطن فان للمواطن أحكاما فافعل بمقتضاها تكن حليما والله أعلم (أو أكل بمحض شهوة) أى الشهوة الخالصة عن نية التقوى لطاعة الله تعالى (وشره) أى غلبة الحرص (وتعطيها) أى النفس (ماليس لها منه بد) أى غنى (ولا تخاف منه ضررا إذ لاضرورة) ولاحاجة (إلى الفضول) المذكور (وقد وسع الله تعالى الأمر على عباده برحمته) التى وسعت كل شئ (وأغناهم) أى العباد (عن جميع مايضرهم فى أمر دينهم ، فأى حاجة) أى لاحاجة (إلى ذلك) أى الفضول وما يضرهم

فَإِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قال بَعْضُ الصَّالِحِينَ : إِنَّ التَّقْوَى أَهْوَنُ شَيْءٍ إِذَا رَابَنِي شَيْءٌ تَرَكْتُهُ ، فَإِنَّ النَّفْسَ تَسْتَكِينُ وَتَتَعَوَّدُ مَا عَوَّدْتَهَا ، وَإِنَّهَا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

فَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وقال آخر :

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ

وَيُرْوَى : ما عَوَّدْتَهَا تَتَعَوَّدُ

وقال آخر :

صَبَرْتُ عَنِ اللَّذَّاتِ حَتَّى تَوَلَّتِ وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتِ

فى أمر الدين (فان الأمر كما قال بعض الصالحين) وهو حسان بن أبى سنان البصرى أحد العباد الورعين . قال البخارى : كان من عباد أهل البصرة ، وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا سلام بن أبى مطيع قال : قال حسان: لولا المساكين ماتجرت ، وقد ترجمه أبو نعيم فى الحلية (إن التقوى) أى اتقاء الشبهات والفضلات (أهون شئ إذا رابنى) أى شككنى (شئ تركته) وهذا القول عنه قد أخرجه البخارى فى كتاب البيوع معلقا ، ولفظه: وقال حسان بن أبى سنان : مارأيت شيئا أهون من الورع دع مايريبك إلى ما لايريبك ؛ وقد حكى عن يوسف بن أسباط وحذيفة المرعشى وغيرهما من عباد أهل الشام أن قائلهم يقول : منذ ثلاثين سنة ماحاك فى قلبى شئ إلا تركته (فان النفس تستكين) أى تخضع وتذل . فى [محيط المحيط] : استكان استكانة خضع وذل . وهو استفعل من السكون : أى صار له كون خلاف كونه ، وقيل هو استفعل من السكين ، وهو لحم داخل فرج المرأة ، وهو نظيره لأنه فى أسفل موضع وأذله : أى صار مثله فى الحقارة والذل ، ويجوز أن يكون أصله استكن افتعل من السكون وزيدت الألف لإشباع الفتحة (وتتعود ماعودتها ، وإنها كما قال القائل) من بحر الكامل (فالنفس راغبة إذا رغبتها * وإذا ترد) أى النفس (إلى قليل تقنع) أى ترضى وإذا تركتها على ما ألفته من المعاصى دامت على حبه ، وإذا منعتها عنه امتنعت كما قال صاحب البردة :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

(وقال آخر) وهو المتنبى من بحر الطويل (هى) ضمير القصة (النفس ماحملتها تتحمل) تمامه : *وللدهر أيام تجور وتعدل* هكذا فى هامش البيضاوى (ويروى: ماعودتها تتعود) أى ما كلفتها أولا يصير طبعا آخرا ومثله قوله * لكل امرئ من دهره ماتعودا * كذا ذكره الزبيدى (وقال آخر) من بحر الطويل أيضا (صبرت عن اللذات) والمشتهيات (حتى تولت) بكسر التاء الثانية للضرورة أى أعرضت تلك اللذات عن نفسى ، وهذا كناية عن صبر النفس عن نيل تلك اللذات وانقيادها فى ترك ذلك (وألزمت نفسى صبرها فاستمرت) بكسر التاء الثانية للضرورة كما تقدم

وَمَا النّفسُ إلاّ حَيْثُ يجْعَلُهَا الفتى ... فَإِنْ أُطْعِمتْ تاقتْ وَإِلاّ تَسَلَّتِ

فَإِذَا عَلِمْتَ الّذِى وَصَفْنَاهُ كُنْتَ مِنَ الزّاهِدِينَ فى الدُّنيا الرّاغِبِينَ فى الآخِرَةِ . وَاعْلَمْ أَنّ مَنْ سُمِّىَ بِاسْمِ الزّاهِدِ فَلَقَدْ سُمِّىَ بِأَلفِ اسْمٍ مَمْدُوحٍ ، وَكُنْتَ مِنَ المُنفرِدِينَ المُنْقَطِعِينَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ ، الّذِينَ هُمْ أَهْلُ الأُنْسِ وَخَدَمُ رَبِّ العَالَمِينَ ، فَتَكُونُ كَمَا قَالَ القَائِلُ :

تَشَاغَلَ قَوْمٌ بِدُنْيَاهُمُ ... وَقَوْمٌ تَخَلَّوْا لِمَوْلاَهُمُ

فَأَلْزَمَهُمْ بَابَ مَرْضَاتِهِ ... وَعَنْ سَائِرِ الخَلْقِ أَغْنَاهُمُ

(وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى * فان أطعمت) بالبناء للمفعول (تاقت) أى اشتاقت (وإلا) بأن لم تطعم (تسلت) بكسر التاء الثانية كما تقدم : أى رضيت (فاذا علمت الذى وصفناه) أى من أول الفصل إلى هنا (كنت من الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة . واعلم أن من سمى باسم الزاهد فلقد سمى بألف اسم ممدوح) عند الله وعند الخلق ، وكفى بالزهد فوزا وسعادة ، وقد روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا . وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم كانوا خيرا منكم ، قيل ولم ذلك ؟ قال كانوا أزهد منكم فى الدنيا ، وعن بعض الصحابة أيضا قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الدنيا والآخرة أبلغ من الزهد فى الدنيا . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله سألت معروفا الكرخى رحمه الله عن الطائعين لله بأى شىء قدروا على الطاعة؟ . فقال بإخراج الدنيا من قلوبهم ، ولو كان شىء منها فى قلوبهم ماصحت لهم سجدة . وقال أبو عبد الله القرشى رحمه الله: شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل أعمال البر ولا يجد حلاوة فى قلبه ، فقال لأن عندك بنت إبليس وهى الدنيا ولا بد للأب أن يزور بنته فى بيتها وهو قلبك ولا يؤثر دخوله إلا فسادا، وكان سهل يقول: يعطى الزاهد ثواب العلماء والعباد ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله قال ولا يري فى القيامة أحد أفضل من ذى زهد عالم ورع (وكنت من المنفردين المنقطعين إلى الله سبحانه الذين هم أهل الأنس) قال بعضهم : الأنس سرور القلب بما يرد عليه من المعارف الربانية (وخدم رب العالمين فتكون) أنت (كما قال القائل) من بحر المتقارب (تشاغل قوم بدنياهم) بالاشباع للوزن (وقوم) آخر (تخلوا لمولاهم . فألزمهم) مولاهم (باب مرضاته * وعن سائر الخلق أغناهم) بالإشباع للوزن

يَصُفُّونَ بِاللَّيْلِ أَقْدَامَهُمْ وَعَيْنُ الْمُهَيْمِنِ تَرْعَاهُمُ
فَطُوبَى لَهُمْ ثُمَّ طُوبَى لَهُمْ إِذَا بِالتَّحِيَّةِ حَيَّاهُمُ

وَكُنْتَ مِنَ الزَّاهِدِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِى اللهِ الْخَوَاصِّ مِنْ عِبَادِ اللهِ تَعَالَى الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ سُبْحَانَهُ : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وَكُنْتَ مِنَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ لَهُمْ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ ، وَصِرْتَ حِينَئِذٍ أَفْضَلَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، إِذْ لَيْسَتْ لَهُمْ شَهْوَةٌ تَدْعُو إِلَى قَبِيحٍ وَلَا نَفْسٌ خَبِيثَةٌ ؛ وَكُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الطَّوِيلَةَ الشَّدِيدَةَ وَرَاءَكَ وَسَبَقْتَ الْعَوَائِقَ كُلَّهَا إِلَى مَقْصُودِكَ وَلَا يَهُولَنَّكَ فَإِنَّهُ مَعَ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَالِاعْتِصَامِ بِهِ لَهَيِّنٌ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى وَهُوَ خَيْرُ مَسْئُولٍ أَنْ يُمِدَّكَ

(يصفون) لعبادة ربهم ، يقال صففت الشيء صفا من باب قتل فهو مصفوف (بالليل أقدامهم * وعين المهيمن) أى الرقيب الحافظ لكل شيء ، مفيعل من الأمن ، قلبت همزته هاء كما قاله البيضاوى (ترعاهم) أى تلحظهم (فطوبى) أى الحظ والعيش الطيب (لهم ثم طوبى لهم * إذا بالتحية حياهم) مولاهم جل وعز (وكنت من الزاهدين المجاهدين فى الله الخواص من عباد الله تعالى الذين قال) الله تعالى (فيهم سبحانه : إن عبادى ليس لك) والخطاب لإبليس (عليهم سلطان) أى سلطنة وولاية (وكنت من المتقين الذين لهم سعادة الدارين) أى الدنيا والآخرة (وصرت حينئذ) أى حين إذ كنت متصفا بالصفات المذكورة (أفضل من كثير من الملائكة المقربين) وذلك (إذ ليست لهم) أى للملائكة (شهوة تدعو إلى قبيح ولا نفس خبيثة) تدعو إلى الخبيث بل ـ يسبحون الليل والنهار لايفترون ـ ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون» . فان قيل يلزم على ماذكر تفضيل غير المعصوم على المعصوم . أجيب بأن العصمة لادخل لها فى التفضيل فلا ينظر لها فيه وإنما ينظر فى الأكثرية فى الثواب على العبادة ، فعوام البشر أكثر ثوابا من عوام الملائكة لحصول المشقة لعوام البشر فى عبادتهم بخلاف عوام الملائكة فإن جبلتهم الطاعة فلا يحصل لهم فيها مشقة كذا فى تحفة المريد (وكنت قد خلفت) أى تركت (هذه العقبة الطويلة الشديدة) وهي عقبة العوائق (وراءك وسبقت العوائق) أى الموانع (كلها إلى مقصودك ولا يهولنك) بفتح الياء وضم الهاء وسكون الواو من باب قال أى لا يفزعنك ولا يخوفنك سبق العوائق (فانه) أى السبق (مع الاستعانة بالله والاعتصام به) تعالى (لهين) أى ليسير غير عسير (نسأل الله تعالى وهو خير مسئول أن يمدك) بضم الياء وكسر الميم أى يعينك من الإمداد ، وهو فى الأصل إعطاء الشيء حالا بعد حال ، والمراد به هنا الإعانة كما فى قوله تعالى « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » أي يعينكم

وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَعَوْنِهِ وَتَيْسِيرِهِ ، فَإِنَّهُ الْكَافِي لِكُلِّ مُهِمٍّ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ مُعْضِلٍ فَبِيَدِهِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . فَهٰذَا مَا أَرَدْنَا ذِكْرَهُ فِي هٰذَا الْبَابِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

(وإيانا بحسن توفيقه وعونه وتيسيره) لكل عسير (فانه) تعالى (الكافى لكل مهم ، والاستعانة به) جل وعز (فى كل معضل) أى الأمر الشاق الذى لايهتدى لوجهه . فى [محيط المحيط] : أعضل الأمر: اشتد واستغلق، والأمر فلانا: غلبه وأعياه، والمرأة والدجاجة وغيرهما من الحيوان بولدها: عسر عليها ولادها فهى معضل ومعضلة جمع معاضيل ، وأعضل الداء الأطباء : غلبهم وعجزوا عن برئه ، وأعضلنى فلان: أعيانى أمره، وأيضا فيه المعضل اسم فاعل والشديد القبح، وداء معضل لادواء له (فبيده) أى فبقدرته تعالى (الخلق والأمر) فانه الموجد والمتصرف (وهو على) فعل (كل) هو لفظ وضع لضم أجزاء ذات الشئ ، ويستعمل فى ضم أجزائه وأحواله المختصة به ويفيد معنى التمام ، ولضمه وإحاطته كان من ألفاظ العموم وأسوار القضايا (شئ) شاءه (قدير) صيغة مبالغة بمعنى القادر ، وهو المتمكن من الفعل والترك بحسب الداعى الذى هو الإرادة (فهذا) أى الذى ذكرناه (ماأردنا ذكره فى هذا الباب) الثالث وهو باب عقبة العوائق (ولا حول) لنا نتحول به عن المعصية موجود (ولا قوة) لنا نتقوى بها على الطاعات موجودة (إلا) وهما (بالله) أى بإعانته سبحانه (العلى) الأعلى : أى البالغ في العلو إذ لارتبة إلا وهى منحطة عن رتبته ، أو الذى علا عن أن تدرك الخلق ذاته أو تتصور صفاته بالكنه والحقيقة ، فهو المرتفع (العظيم) فى ذاته على كل من سواه فليس لعظمته بداية ولا لكنه جلاله نهاية وليست بتعظيم الأغيار ، جل قدره عن الحد والمقدار وأظهر معانى العظمة القوة والقدرة ، وفيه إشارة لمجموع صفاته النفسية والمعنوية والقدسية وحظ العبد منه قوله صلى الله عليه وسلم «من تعلم وعلم فذلك يدعى فى ملكوت السماء عظيما» وأن يستحقر نفسه ويذللها بالإقبال والانقياد لأوامره تعالى واجتناب نواهيه .

[تنبيه] ينبغى الإكثار من: لاحول ولاقوة إلا بالله ، قال صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة «ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة ؟ تقول: لاحول ولاقوة إلا بالله فيقول الله أسلم عبدى واستسلم» أى فوض أمر الكائنات إليه تعالى وانقاد بنفسه له مخلصا، فإن لاحول يدل على نفي التدبير للكائنات وإثباته له تعالى . وقال عليه الصلاة والسلام لقيس بن سعد «ألا أدلك على باب الجنة ؟ وفى رواية : على كنز من كنوز الجنة ؟ قال بلى . قال لاحول ولا قوة إلابالله العلى العظيم» أى لأنها لما تضمنت براءة النفس من حولها وقوتها إلي حوله تعالى وقوته كانت موصلة إلى الجنة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ الباب الرابع فى العقبة الرابعة : وهى عقبة العوارض ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَةِ وَفَّقَكَ اللهُ بِكَفِّ الْعَوَارِضِ الشَّاغِلَةِ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَسُدَّ سَبِيلَهَا عَنْكَ لِئَلَّا تُشْغَلَ عَنْ مَقْصُودِكَ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا

الباب الرابع

قال العلامة ابن هشام فى بعض كتبه : الباب يذكر ويؤنث ، فيقال باب وبابة كما يقال طريق وطريقة . أما تذكيره فظاهر ، وأما تأنيثه فباعتبار كونه ترجمة . وقال ابن محمود فى شرح أبى داود: قد استعمل لفظ باب فى زمن التابعين ، قاله المناوى ، ومثله فى حاشية الخرشى . قال بعضهم : وانظر لفظة كتاب وفصل استعملا فى أى زمن ؟ وفى الموطأ التعبير بكتاب فيكون لفظ كتاب استعمل فى زمن التابعين بناء على أن الإمام مالكا من التابعين أو فى زمن تابع التابعين ، وهو الصحيح . وقال شيخنا فى تقريره علي الخرشى : إن استعمال لفظ كتاب أقدم من استعمال باب انتهى . والباب فى اللغة مايتوصل به إلى الشىء ، وهو حقيقة فى الأجسام كباب المسجد مجاز فى المعانى كما هنا . وأما فى عرف العامة فهو الهيئة المركبة من خشب ومسمار أو من جريد أو من بوص أو نحو ذلك . وأما فى الاصطلاح فهو اسم لجملة مخصوصة من مسائل العلم . قال بعضهم : وقد يطلق الباب مجازا على كل شىء موصل ، ومنه قول بعض العارفين مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم :

وأنت باب الله أى امرىء   أتاه من غيرك لايدخل

واعترض على ماتقدم من أنه مجاز فى المعانى كما هنا بأنه لاتصح إرادته هنا بهذا المعنى لأنه فى الاصطلاح اسم لألفاظ مخصوصة من العلم . وأجيب بأنه أريد بالمعانى ماقابل الذوات فيشمل الألفاظ فهى معان بهذا الاعتبار ، وعلى هذا يأتى اللغز المشهور ، وهو قول القائل :

وما شىء حقيقته مجاز   وأوله وآخره سواء
وفيه صحة وبه اعتلال   له الإعراب حقا والبناء
ثلاثى وفيه حرف مد   أجب عن ذا يحق لك الثناء

وهناك فهم آخر للغز ، وهو أن المراد حقيقته اللغوية مجاز : أى طريق للناس وهذا ألطف (فى العقبة الرابعة) من السبع المتقدمة (وهى عقبة العوارض) الشاغلة عن الطاعة (ثم عليك) أى الزم (ياطالب العبادة وفقك الله بكف العوارض الشاغلة عن عبادة الله تعالى وسد سبيلها) أى العوارض (عنك لئلا تشغلك عن مقصودك) وهو التعبد لمولاك جل وعز (وقد ذكرنا)

أَنَّهَا أَرْبَعَةٌ : أَحَدُهَا : الرِّزْقُ وَمُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِذٰلِكَ وَإِنَّمَا كِفَايَتُهُ فِى التَّوَكُّلِ ، فَعَلَيْكَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فِى مَوْضِعِ الرِّزْقِ وَالْحَاجَةِ بِكُلِّ حَالٍ

فى أول الكتاب (أنها) أى تلك العوارض (أربعة : أحدها الرزق) وهو ماساقه الله إلى الحيوان فانتفع به بالفعل فشمل المأكول وغيره مما انتفع به ، أفاده عبد السلام (ومطالبة النفس بذلك) الرزق (وإنما كفايته) أى هذا العارض الأول (فى التوكل) أى اعتماد القلب على الله وحده ثقة بوعده واعتمادا على كمال كرمه ورحمته وهو منزل منيف من منازل الدين،ومقام شريف من مقامات الموقنين ، بل هو من معالى درجات المقربين وستأتى حقيقة التوكل وحكمه (فعليك بالتوكل على الله سبحانه) وتعالى (فى موضع الرزق والحاجة بكل حال) قال تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فأتى سبحانه بلفظة «على» حملا للمكلف على الثقة به تعالى فى شأن الرزق والإعراض عن إتعاب النفس فى طلبه كما قال القائل :

يا طالب الرزق فى الآفاق مجتهدا ... أتعبت نفسك حتى شفك التعب
تسعى لرزق كفاك الله بغيته ... فاقعد فرزقك لا يأتى به الطلب
كم من ضعيف ضعيف العقل تعرفه ... له الولائد والأوراق والذهب
ومن حسيب له عقل يزينه ... بادى الخصاصة لم يعرف له سبب
فاسترزق الله مما فى خزائنه ... فالله يرزق لا عقل ولا حسب

قال فى روح البيان : اتفقوا على أن أربعة لا تقبل التغير أصلا : العمر ، والرزق ، والأجل ، والسعادة أو الشقاوة ؛ فعلي العاقل أن لايهتم برزقه ويتوكل علي الله فإنه حسبه . روى أن موسى عليه السلام لما أمر بالذهاب إلى فرعون تعلق قلبه بأهله قائلا من يقوم بأمرهم فأمره الله تعالى أن يضرب صخرة بعصاه فضربها فانشقت عن صخرة ، فضربها فانشقت عن أخرى ، فضربها فخرجت منها دودة فى فمها ما يجرى مجرى الغذاء فسمعها تقول : سبحان من يراني ويسمع كلامى ويعرف مكانى ويذكرنى ولا ينسانى . وعن أنس « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مفازة فى حاجة فرأينا طيرا يلحن بصوت ، فقال عليه الصلاة والسلام أتدرى ما يقول هذا الطير يا أنس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم بذلك . قال إنه يقول يا رب أذهبت بصرى وخلقتنى أعمى فارزقنى فإنى جائع فجاء طير آخر وهو الجراد فدخل فى فمه فابتلعه ثم رفع صوته وجعل يلحن ، فقال عليه الصلاة والسلام: أتدرى مايقول؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال إنه يقول: الحمدلله الذى لم ينس من ذكره» قيل وكان مكتوبا على سيف الحسن رضى الله عنه : الرزق مقسوم والحريص محروم والبخيل مذموم والحاسد مذموم ، وفى الحديث « من جاع واحتاج وكتمه عن الناس وأفضي به إلى الله تعالى كان حقا عليه أن يفتح له رزق سنة » وحقيقة التوكل فى الرزق وغيره عند المشايخ الانقطاع عن الأسباب بالكلية ثقة بالله تعالى وهذا لأهل الخصوص ، وأما أهل العموم فلا بد لهم من

التسبب . وقال تعالى « وفى السماء رزقكم وما توعدون » الآية ، فأقسم سبحانه وتعالى بأن ذلك حق حملا لعباده على التوثق بذلك ، قال الحداد فى عيون المجالس : يقال إن بعض الصوفية ضاقت يده فنازعته امرأته في الخروج لطلب رزق لهم فبات مهموما ، فرأى فى النوم أن قيل له : اذهب لمحل كذا واحفر فيه فإنك تجد فيه حبين مملوءين : أحدهما دراهم والآخر دنانير فأصبح وحدثها بذلك فأخذ فأسا وذهب إلى ذلك المحل فتذكر قوله « وفى السماء رزقكم » الآية وقال رزقي فى السماء وأطلبه فى الأرض وتركه ورجع ؛ فقالت له : لم رجعت ؟ فقال تذكرت قوله « وفى السماء رزقكم » ثم رأي ذلك ثلاث ليال كذلك فحدثت المرأة جارتها بذلك . فأخبرت الجارة زوجها فذهب وحفر فوجد حبين : أحدهما حيات والآخر عقارب فأخذهما ونوى أن يرمى بهما فى أثناء الليل إلى بيت جاره ، فلما كان جوف الليل رمي بهما فسمعت المرأة الوجبة فصعدت السطح فرأته مملوءا دراهم ودنانير بقدرته تعالى فأخبرت زوجها بذلك ، فقال ألم يقل الله تعالى « وفى السماء رزقكم » . وضاق الحسن بن على رضى الله عنهما ضيقة شديدة وكان عطاؤه من معاوية كل سنة مائة ألف فحبسها عنه فدعا بدواة ليكتب إليه ثم أمسك فرآه عليه الصلاة والسلام يقول له كيف أنت ؟ فقال بخير يا أبتي وحدثه بذلك ، فقال له: دعوت بدواة لتكتب إلى مخلوق مثلك تذكره نفسك فقال : كيف أصنع ؟ قال : قل اللهم اقذف فى قلبى رجاءك واقطع رجائى عمن سواك حتي لا أرجو أحدا بعدك ، اللهم ما ضعفت عنه قوتى وقصر عنه أملى ولم تنته إليه رغبتى ولم تبلغه مسئلتي ولم يجر على لسانى مما أعطيته الأولين والآخرين من اليقين فاخصصنى به يارب العالمين . قال فما ألححت بهن أسبوعا حتى بعث إلى معاوية بألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، فقلت : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ولا يخيب من رجاه ومن دعاه ولا يقطعه ، فرأيته صلي الله عليه وسلم فقال كيف أنت ؟ قلت بخير وحدثته حديثى فقال هكذا من رجا الخالق ولا يرجو المخلوق انتهى . وقال عليه الصلاة والسلام « إن روح القدس » أى جبريل « نفث فى روعى » بضم أوله : أى تفل فى قلبي والمراد ألقى الوحى فيه من غير أن أسمعه وأراه « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله » أى ثقوا بضمانه « وأجملوا فى الطلب » : أى اطلبوا الرزق بطريق حلال بلاحرص ولا تهافت على الحرام ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله فإن الله تعالى لاينال ما عنده إلا بطاعته . ودخل جماعة على الجنيد فقالوا أين نطلب الرزق ؟ فقال إن علمتم فى أي موضع هو فاطلبوه منه ، قالوا فنسأل الله ذلك ؟ فقال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه ، فقالوا ندخل البيت فنتوكل ، فقال التجربة شك فى أنه تعالى ضامن للرزق . قال شيخ الإسلام وهو كلام بالغ فى تعليم التوكل سواء وجدت الأسباب أم لا ، لأن الرزق عند أهل الحق ماينتفع به العبد لاما يملكه بل ولا كل ما يأكله فإنه قد يأكل شيئا ثم يقذفه من جوفه ويكون رزق غيره فلا قدرة له على معرفة رزقه ، فإنه لايعرف ما الذى ينتفع به ثم قالوا له ما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة والاعتماد بالقلوب على الله والاشتغال بما أمر به .

وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : التَّفَرُّغُ لِلْعِبَادَةِ وَيَتَمَشَّى لَكَ مِنَ الْخَيْرِحَقُّهُ ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَكُن مُتَوَكِّلاً فَلَا بُدَّ مِنَ اشْتِغَالِهِ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ بِسَبَبِ الْحَاجَةِ وَالرِّزْقِ وَالْمَصْلَحَةِ إِمَّا ظَاهِرًا وَإِمَّا بَاطِناً : إِمَّا بِطَلَبٍ وَكَسْبٍ بِالْبَدَنِ كَعَامَّةِ الرَّاغِبِينَ ، وَإِمَّا بِذِكْرٍ وَإِرَادَةٍ وَوَسْوَسَةٍ بِالْقَلْبِ كَالْمُجْتَهِدِينَ الْمُعَلَّقِينَ ، وَالْعِبَادَةُ تَحْتَاجُ إِلَى فَرَاغِ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ لِيَحْصُلَ حَقُّهَا ، وَالْفَرَاغُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْمُتَوَكِّلِينَ بَلْ أَقُولُ كُلُّ مَنْ هُوَ ضَعِيفُ الْقَلْبِ لَا يَكَادُ يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ إِلَّا بِشَيْءٍ مَعْلُومٍ ، فَلَا يَكَادُ يَتِمُّ لَهُ أَمْرٌ خَطِيرٌ مِنْ دُنْيَا وَآخِرَةٍ ، وَكَثِيرًا مَا سَمِعْتُ مِنْ شَيْخِي أَبِي مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّمَا الْأَمْرُ يَتَمَشَّى فِي الْعَالَمِ لِرَجُلَيْنِ : مُتَوَكِّلٍ أَوْ مُتَهَوِّرٍ .

قُلْتُ : وَهٰذَا كَلَامٌ جَامِعٌ فِي مَعْنَاهُ ، فَإِنَّ الْمُتَهَوِّرَ يَقْصِدُ

﴿ تنبيه ﴾ فى أمور ورد الحديث بأنها جالبة للرزق . فمنها الإكثار من لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم ومن الاستغفار ؛ وورد أنه «من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كل يوم مائة مرة لم يصبه فقر أبدا . ومن قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة » ومن دعائه صلي الله عليه وسلم بعد العصر « اللهم إنى أسألك رزقا طيبا وعلما نافعا وعملا متقبلا » . ومنها غسل اليدين عند حضور الغذاء ورفعه ، وكتابة قوله تعالى «ولقد مكنا كم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون » بعد صلاة الجمعة وجعلها فى بيته أو حانوته وغير ذلك مما هو مبسوط فى الرسالة المسماة بحصول الرفق فى أصول الرزق (وذلك) أي لزوم التوكل عليه تعالى في الرزق والحاجة (لأمرين أحدهما التفرغ للعبادة ويتمشى) أى يجرى (لك من الخيرحقه ، فان من لم يكن متوكلا) أى معتمدا على الله (فلا بد من اشتغاله عن عبادة الله بسبب الحاجة والرزق والمصلحة) أى مايصلحه فى أموره (إما ظاهرا وإما باطنا إما بطلب وكسب بالبدن كعامة) أى كثرة (الراغبين) فى الدنيا (وإما بذكر وإرادة ووسوسة بالقلب كالمجتهدين) فى العبادة (المعلقين) قلوبهم فى الدنيا (والعبادة تحتاج إلى فراغ القلب والبدن) من الشواغل (ليحصل حقها) أى العبادة (والفراغ لا يكون) أى لايوجد (إلا للمتوكلين ، بل أقول كل من هو ضعيف القلب) فى الدين (لايكاد) أى يقرب (يطمئن قلبه إلا بشىء معلوم) من الرزق (فلا يكاد يتمّ له أمر خطير) أى عظيم (من دنيا وآخرة ، وكثيرا ماسمعت من شيخى أبى محمد رحمه الله تعالى يقول إنما الأمر يتمشى) أى يجرى (فى العالم) أى فى الدنيا (لرجلين متوكل أو متهور) أى الذى يقدم علي الشىء بقلة مبالاة . فى[محيط المحيط] تهور الرجل: وقع فى الأمر بقلة مبالاة ، وفى المختار: التهور الوقوع فى الشىء بقلة مبالاة يقال فلان متهوّر (قلت وهذا) أى كلام أبى محمد رحمه الله (كلام جامع فى معناه فان المتهور يقصد

الْأُمُورَ عَلَى قُوَّةٍ عَادَةٍ وَجُرْأَةِ قَلْبٍ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى صَارِفٍ يَصْرِفُهُ أَوْ خَاطِرٍ يُضْعِفُهُ فَتَجْرِى لَهُ الْأُمُورُ ، وَالْمُتَوَكِّلُ يَقْصِدُ الْأُمُورَ عَلَى قُوَّةٍ وَبَصِيرَةٍ وَكَمَالِ يَقِينٍ بِوَعْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَمَامِ ثِقَةٍ بِضَمَانِهِ ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى إِنْسَانٍ يُخَوِّفُهُ وَلَا شَيْطَانٍ يُوَسْوِسُهُ فَيَفُوزَ بِمَقَاصِدِهِ وَيَظْفَرَ بِمَطَالِبِهِ .

وَأَمَّا الْخَلْقُ الضَّعِيفُ فَهُوَ أَبَدًا يَكُونُ بَيْنَ تَوَكُّلٍ وَتَرَدُّدٍ وَفُتُورٍ وَتَحَيُّرٍ كَالْحِمَارِ فِى مَعْلَفِهِ وَالدَّجَاجِ فِى قَفَصِهِ يَرْمُقُ مَا تَعَوَّدَ مِنْ صَاحِبِهِ لَا يَكَادُ يَنفَكُّ مِنْ ذَٰلِكَ ، قَدْ تَقَاعَدَتْ نَفْسُهُ عَنْ مَعَالِي الْأُمُورِ وَانْقَطَعَتْ هِمَّتُهُ فَلَا يَكَادُ يَقْصِدُ أَمْرًا شَرِيفًا وَإِنْ قَصَدَهُ فَلَا يَكَادُ يَظْفَرُ بِهِ وَلَا يَتِمُّ لَهُ ذَٰلِكَ ، أَمَا تَرَى أَصْحَابَ الْهِمَمِ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا لَمْ يَنَالُوا مَرْتَبَةً كَبِيرَةً وَمَنْزِلَةً خَطِيرَةً إِلَّا بِانْقِطَاعِ قُلُوبِهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ .

وَأَمَّا الْمُلُوكُ :

الأمور على قوة عادة وجرأة) بضم الجيم وسكون الراء (قلب لايلتفت) بقلبه (إلى صارف) ومانع (يصرفه) ويمنعه (أو) إلى (خاطر يضعفه) أى المتهور (فتجرى له) أى لهذا المتهور (الأمور ، والمتوكل يقصد الأمور على قوة وبصيرة) أى علم وخبرة (وكمال يقين بوعد الله سبحانه وتمام ثقة بضمانه فلا يلتفت) المتوكل بقلبه (إلي إنسان يخوفه) أى المتوكل (ولا) يلتفت إلى (شيطان يوسوسه فيفوز بمقاصده) أى المتوكل (ويظفر) أى ينال (بمطالبه . وأما الخلق الضعيف) أى ضعيف القلب فى الدين (فهو أبدا يكون بين توكل وتردد وفتور) أى انكسار وضعف (وتحير) ودهش (كالحمار في معلفه) أى موضع علفه (والدجاج) فى المختار : الدجاج معروف وفتح الدال أفصح من كسرها الواحدة دجاجة ذكرا كان أو أنثي والهاء للافراد كحمامة وبطة وفي [محيط المحيط] الدجاج بالتثليث والفتح أفصح (فى قفصه) أى محبسه (يرمق) بضم الميم من باب نصر : أى ينظر (ماتعود من صاحبه لايكاد ينفك من ذلك) أى من رمقه ونظره (قد تقاعدت نفسه) أى الضعيف (عن معالى الأمور وانقطعت همته) عنها (فلا يكاد يقصد) الضعيف (أمرا شريفا وإن) فرض أنه (قصده) أى الأمر الشريف (فلا يكاد يظفر به) أى بذلك الأمر لقصور همته (ولا يتم له) أى لهذا الضعيف (ذلك) أى مقصوده الذى هو الأمر الشريف (أما ترى أصحاب الهمم من أبناء الدنيا لم ينالوا مرتبة كبيرة ومنزلة خطيرة) أى عظيمة من مراتب الدنيا ومنازلها (إلا بانقطاع قلوبهم) أى أهل الدنيا (عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم . وأما الملوك

فَيُبَاشِرُونَ الْحُرُوبَ وَيُكَافِحُونَ الْأَعْدَاءَ إِمَّا هُلْكاً وَإِمَّا مُلْكاً حَتَّى تَحْصُلَ لَهُمْ مَرْتَبَةُ الْمُلْكِ وَعَقْدُ الْوِلَايَةِ .

وَقِيلَ : إِنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا نَظَرَ إِلَى الْعَسْكَرَيْنِ يَوْمَ صِفِّينَ

فيباشرون الحروب) جمع حرب (ويكافحون) أى يباشرون بأنفسهم (الأعداء إما هلكا) أي إما يهلكون هلكا (وإما ملكا) أى وإما يملكون ملكا (حتى تحصل لهم) أى للملوك (مرتبة الملك) والسلطان (وعقد الولاية) للامارة (وقيل إن معاوية بن أبي سفيان) الصحابي ابن الصحابى هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى القرشى الأموى ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يجتمع أبوه وأمه فى عبد شمس ، أسلم هو وأبوه أبو سفيان وأخوه يزيد بن أبي سفيان وأمه هند فى فتح مكة . وكان معاوية يقول إنه أسلم يوم الحديبية وكتم إسلامه من أبيه وأمه ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا فأعطاه من غنائم هوازن مائة بعير وأربعين أوقية . وكان هو وأبوه من المؤلفة قلوبهم ثم حسن إسلامهما ، وكان أحد الكتاب لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، ولما بعث أبو بكر رضى الله عنه الجيوش إلى الشام سار معاوية مع أخيه يزيد فلما مات يزيد استخلفه على عمله بالشام وهو دمشق فأقره عمر رضى الله عنه مكانه ، روى له عن رسول الله صلي الله عليه وسلم مائة حديث وثلاثة وستون حديثا اتفق البخارى ومسلم علي أربعة منها وانفرد البخارى بأربعة ومسلم بخمسة . روى عنه من الصحابة ابن عباس وأبو الدرداء وجرير بن عبد الله والنعمان بن بشير وابن الزبير وأبو سعيد الخدرى والسائب بن يزيد وأبو أمامة بن سهل ، ومن التابعين سعيدبن المسيب وحميد ابن عبد الرحمن وغيرهما ، ولما ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام مكان أخيه يزيد بقى أميرا خلافة عمر ثم أقره عثمان وولى الخلافة بعد ذلك عشرين سنة . قال محمد بن سعيد : بقى معاوية أميرا عشرين سنة وخليفة عشرين سنة تقريبا ، وقال الوليد بن مسلم . كانت خلافته تسع عشرة سنة ونصفا ، وقيل تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وعشرين يوما ، وولى دمشق أربع سنين من خلافة عمر واثنتى عشرة من خلافة عثمان مع ما أضاف إليه من باقى الشام وأربع سنين تقريبا أيام خلافة على وستة أشهر خلافة الحسن ، وسلم إليه الخلافة سنة إحدى وأربعين . وقيل سنة أربعين والأول أصح ، واتفقوا على أنه توفى بدمشق ثم المشهور أنه يوم الخميس لثمان بقين من رجب . وقيل لنصف رجب سنة ستين من الهجرة (لما نظر إلى العسكرين) أى عسكره رضى الله عنه وعسكر على كرم الله وجهه (يوم صفين) بكسر أوله وثانيه المشدد ، وهو اسم إقليم أو بلد بالشام قال صاحب المصباح : صفين بكسر الصاد مثقل الفاء موضع على الفرات من الجانب الغربى بطرف الشام مقابل قلعة نجم ، وكان هناك وقعة بين على عليه السلام وبين معاوية وهو فعلين

قَالَ : مَنْ أَرَادَ خَطِيرًا خَاطَرَ بِعَظِيمَتِهِ .

من الصف أو فعيل من الصفون ، فالنون أصلية على الثانى (قال) معاوية (من أراد خطيرا) أى أمرا رفيعا (خاطر) فى [محيط المحيط] خاطر بنفسه مخاطرة أشفاها على خطر هلاك أو نيل ملك (بعظيمته) أى نازلته الشديدة كما فى المختار .

وقد ذكر العلامة إبراهيم بن محمد البيجورى أن أهل صفين كانوا مع معاوية ، وكان معه ثمانون ألفا ، وكان مع على عشرون ألفا ، ونصره الله عليه ، وكان كل منهما مجتهدا فظهر له باجتهاده أن يقاتل الآخر وإن كان الحق مع علي رضى الله عنه كما يدل له قوله صلى الله عليه وسلم « ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلي الجنة ويدعونه إلى النار » وهذا من الإخبار بالمغيبات وقد وقع ذلك بصفين ، فقد دعا عمار بن ياسر رضي الله عنه أهل صفين إلى طاعة الإمام التى هى سبب فى الجنة ، وهم دعوه إلى عصيانه ومقاتلته وذلك سبب فى النار وقتلوه فعلم من ذلك أنهم الفئة الباغية ، وأن الحق مع على كرم الله وجهه ، ولما لم يقدر معاوية على إنكار هذا الحديث لكونه من أنفس الأحاديث وأصحها كما قاله القرطبي ، قال إنما قتله من أخرجه ، فقال علي إذن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى قتل حمزة لأنه أخرجه وهذا من على إلزام مفحم لا جواب عنه وحجة لا اعتراض عليها .

قال الإمام عبد القاهر الجرجانى : أجمع فقهاء الحجاز والعراق علي أن عليا مصيب فى قتاله لأهل صفين ، لكن لا يجوز الطعن فى معاوية كغيره من سائر الصحابة فإنهم كلهم عدول ، ولما جرى بينهم محامل ، ولذلك قال العلامة ذو الفيض الدانى : الشيخ إبراهيم اللقانى :

وأول التشاجر الذى ورد إن خضت فيه واجتنب داء الحسد

والمراد من تأويل ذلك أن يصرف إلى محمل حسن لتحسين الظن بهم ، فلم يخرج واحد منهم عن العدالة بما وقع بينهم لأنهم مجتهدون . وقد قال العلماء : المصيب بأجرين ، والمخطىء بأجر . وأما المراد بذلك الداء المذكور فهو داء الحسد الحامل على الميل مع أحد الطرفين علي وجه غير مرضى وقد قال صلى الله عليه وسلم « الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا من بعدى من آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » أى اتقوا الله ثم اتقوا الله ، أو أنشدكم الله ثم أنشدكم الله فى حق أصحابى وتعظيمهم لاتتخذوهم كالغرض الذى يرمى إليه بالسهام فترموهم بالكلمات التى لا تناسب مقامهم فمن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله : أى تعدى حدوده وخالفه ، ففيه مشاكلة وإلا فحقيقة الإيذاء علي الله محالة ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه : أى يقرب أن يعذبه . وفى رواية « لا تسبوا أصحابى ، فمن سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » ومعلوم جواز لعن غير المعين من العصاة . والصرف : الفرض ، والعدل : النفل . وقيل بالعكس ، وقيل غير ذلك ، وهذا فى المستحل

وَأَمَّا التُّجَّارُ : فَيَرْكَبُونَ الْمَهَالِكَ بَرًّا وَبَحْرًا وَيَطْرَحُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِى الْمَقَاطِعِ شَرْقًا وَغَرْبًا وَيُوَطِّنُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ : إِمَّا فَوْتِ الْأَرْوَاحِ ، وَإِمَّا حُصُولِ الْأَرْبَاحِ ، حَتَّى يَحْصُلَ لَهُمْ بِذٰلِكَ كُلُّ رِبْحٍ عَظِيمٍ وَمَالٍ جَسِيمٍ وَعِلْقٍ نَفِيسٍ .

وَأَمَّا السُّوقِىُّ الَّذِى ضَعُفَ قَلْبُهُ وَرَقَّ عَزْمُهُ فَلَا يَكَادُ يَقْطَعُ الْقَلْبَ عَنْ عَلَاقَتِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَهُوَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى دُكَّانِهِ طُولَ عُمْرِهِ لَا يَصِلُ إِلَى مَرْتَبَةٍ شَرِيفَةٍ كَالْمُلُوكِ ، وَلَا إِلَى رِبْحٍ عَظِيمٍ كَالتُّجَّارِ الْمُخَاطِرِينَ ، فَإِنْ نَالَ فِى سُوقِهِ رِبْحَ دِرْهَمٍ عَلَى بِضَاعَتِهِ فَذَاكَ لَهُ كَثِيرٌ ، وَذٰلِكَ لِتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِشَىْءٍ مَعْلُومٍ ، فَهٰذَا فِى الدُّنْيَا

أو خارج مخرج المبالغة فى الزجر (وأما التجار) بضم التاء مع التثقيل وبكسرها مع التخفيف جمع تاجر : أى الذين يقلبون فى أموالهم لغرض الربح (فيركبون المهالك برا وبحرا ويطرحون) بفتح الياء والراء من باب قطع : أى يرمون (أنفسهم وأموالهم فى المقاطع) أى المواضع المخاوف (شرقا وغربا) شمالا وجنوبا (ويوطنون) بضم الياء وفتح الواو مع كسر الطاء المشددة : أى يقررون ويمهدون (أنفسهم على أحد الأمرين : إما فوت الأرواح وإما حصول الأرباح حتى يحصل لهم) أى التجار (بذلك) أى بركوب المهالك وغيره (كل ربح عظيم ومال جسيم) أى عظيم (وعلق) بالكسر : النفيس من كل شىء وجمعه أعلاق كما فى المختار (نفيس) أى يتنافس فيه (وأما السوقى الذى ضعف قلبه ورق عزمه) أى قصده (فلا يكاد يقطع القلب عن علاقته) بفتح العين (من نفسه وماله ، فهو) أى السوقى يمشى (من بيته إلى دكانه) أى حانوته قال السرقسطى : النون زائدة عند سيبويه ، وكذلك قال الأخفش ، وهى مأخوذة من قولهم : أكمة دكان : أى منبسطة ، وهذا كما اشتق السلطان من السليط . وقال ابن القطاع وجماعة هى أصلية مأخوذة من دكنت المتاع : إذا نضدته ، ووزنه على الزيادة فعلان ، وعلى الأصالة فعال حكى القولين الأزهرى وغيره ، ووقع فى كلام الغزالى فى غير هذا الكتاب حانوت أو دكان فاعترض بعضهم عليه وقال : الصواب حذف إحدى اللفظتين فإن الحانوت هى الدكان ، ولا وجه لهذا الاعتراض ، لأن الدكان يطلق على الحانوت وعلى الدكة كما في المصباح (طول عمره لا يصل إلى مرتبة شريفة كالملوك ، ولا) يصل (إلى ربح عظيم كالتجار المخاطرين) بأنفسهم وأموالهم (فإن نال فى سوقه) أى السوقى (ربح درهم على بضاعته) أى متاعه (فذاك) أى ربح درهم (له) أى بذلك السوقي الضعيف قلبه (كثير ، وذلك) أى كون هذا الربح كثيرا (لتعلق قلبه بشىء معلوم) عنده (فهذا) أى المذكور من اختلاف الهمم لطلب المنزلة والأرباح (فى الدنيا) أى شأنها

وَأَبْنَاؤُهَا ؛ وَأَمَّا أَبْنَاءُ الآخِرَةِ فَرَأْسُ مَالِهِمْ هٰذِهِ الْخَصْلَةُ الَّتِي هِيَ التَّوَكُّلُ وَقَطْعُ الْقَلْبِ عَنِ الْعَلاَئِقِ لَمَّا أَحْكَمُوهَا وَحَصَّلُوهَا حَقًّا ، تَفَرَّغُوا لِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَمَكَّنُوا فِى التَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ ، وَالسِّيَاحَةِ فِى الْأَرْضِ ، وَاقْتِحَامِ الْفَيَافِى ، وَاسْتِيطَانِ الْجِبَالِ وَالشِّعَابِ ، فَصَارُوا أَقْوِيَاءَ الْعِبَادِ وَرِجَالَ الدِّينِ وَأَحْرَارَ النَّاسِ وَمُلُوكَ الْأَرْضِ ، بِالْحَقِيقَةِ يَسِيرُونَ حَيْثُ يَشَاءُونَ وَيَنْزِلُونَ حَيْثُ يَشَاءُونَ وَيَقْصِدُونَ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ عِلْماً وَعِبَادَةً مَا يَشَاءُونَ ، لاَ عَائِقَ لَهُمْ وَلاَ حَاجِزَ لَهُمْ دُونَهُمْ ، فَكُلُّ الْأَمَاكِنِ لَهُمْ وَاحِدٌ ، وَكُلُّ الْأَزْمَانِ عِنْدَهُمْ وَاحِدٌ ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ » ،

(وأبناؤها) أى الملازمين لها (وأما أبناء الآخرة فرأس مالهم) أى أصله (هذه الخصلة التى هى التوكل) أى الاعتماد على الله تعالى (وقطع القلب عن) الالتفات إلى (العلائق لما أحكموها) أى أتقنوها (وحصلوها) أى التقوى (حقا تفرغوا) أى أبناء الآخرة (لعبادة الله تعالى وتمكنوا فى التفرد عن الخلق والسياحة) أى السير والذهاب (فى الأرض واقتحام الفيافي) أى دخول المفاوز . فى المختار الفيفاء : الصحراء الملساء والجمع الفيافى (واستيطان الجبال والشعاب) بكسر الشين جمع شعب : وهو الطريق فى الجبل (فصاروا أقوياء العباد ورجال الدين وأحرار الناس وملوك الأرض بالحقيقة يسيرون حيث) أى فى مكان (يشاءون، وينزلون حيث يشاءون، ويقصدون من الأمور العظام) بيان مقدم لقوله مايشاءون (علما وعبادة ما يشاءون لاعائق) يعوق (لهم ولا حاجز) أى مانع يحجز (لهم دونهم) أى عندهم (فكل الأماكن) سهلها وحزنها قراها وصحارها (لهم واحد ، وكل الأزمان) ليلها ونهارها (عندهم واحد ، وإليه) أى المذكور من أحوال هؤلاء (الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : من سره) أى أفرحه (أن يكون) أى أن يصير (أقوى الناس) فى جميع أموره (فليتوكل علي الله) أى يفوض أموره إليه وإن كان مكتسبا كما قاله الحفنى ، لأنه إذا قوى توكله قوى قلبه وذهبت مخافته ولم يبال بأحد ، أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب التوكل عن ابن عباس وإسناده حسن . قال الزبيدى ورواه كذلك الحاكم والبيهقى وعبد بن حميد وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى والطبرانى وصاحب الحلية كلهم من طريق هشام بن زياد أبى المقدام عن محمد القرظى عن ابن عباس . قال البيهقى فى الزهد : تكلموا فى هشام بسبب هذا الحديث (و) قوله صلي الله عليه وسلم (من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله) وهذا مصداق قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . قال المناوى : وهذا الحديث

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ » .

وَعَنْ سُلَيْمَانَ الْخَوَّاصِ : لَوْ أَنَّ رَجُلاً تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ لَاحْتَاجَ إِلَيْهِ الْأُمَرَاءُ وَمَنْ دُونَهُمْ ، وَكَيْفَ يَحْتَاجُ وَمَوْلَاهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ؟. وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَوَّاصِ أَنَّهُ قَالَ : لَقِيتُ غُلَامًا فِي التِّيهِ كَأَنَّهُ سَبِيكَةُ فِضَّةٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِلَى أَيْنَ يَا غُلَامُ ؟ قَالَ إِلَى مَكَّةَ ، قُلْتُ : بِلَا زَادٍ وَلَا رَاحِلَةٍ ؟ فَقَالَ : يَا ضَعِيفَ الْيَقِينِ ، الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى حِفْظِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُوَصِّلَنِي إِلَى مَكَّةَ بِلَا زَادٍ وَلَا رَاحِلَةٍ ،

أخرجه الحاكم (و) قوله صلى الله عليه وسلم (من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله) . وفى رواية « بما عند الله » (أوثق منه) أى من وثوقه (بما فى يده) . قال العراقى : رواه الحاكم والبيهقي فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف . (وعن سليمان الخواص) رحمه الله (لو أن رجلا توكل على الله سبحانه بصدق النية لاحتاج إليه الأمراء ومن دونهم) ولا يحتاج المتوكل إليهم (وكيف يحتاج) المتوكل إليهم (و) الحال أن (مولاه) هو (الغنى) . قيل هو الذى لا يفتقر لشىء ولا يحتاج له ، وعلى هذا فالغنى صفة سلبية : وهي عدم الافتقار لشىء ، والظاهر أن الغني هو المتصف بصفات الكمال ، ومن لوازم ذلك عدم الافتقار لشئ من الأشياء (الحميد) أى المحمود المستحق للثناء ، فإنه الموصوف بكل كمال والمولى لكل نوال (وعن أبى إسحاق (إبراهيم) بن أحمد (الخواص) هو من أقران الجنيد والنورى ، وله فى التوكل والرياضات حظ كبير ، مات بالرى سنة إحدى وتسعين ومائتين ، كان مبطونا فكان كلما قام توضأ وعاد إلى المسجد وصلى ركعتين فدخل مرة الماء فمات رحمه الله .

ومن كلامه : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله ، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم . ومن كلامه أيضا : دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين ، ذكره القشيرى فى الرسالة (أنه قال) . وفى الرسالة للقشيرى قال: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسين ابن يحيى يقول : سمعت جعفرا يقول : قال إبراهيم الخواص (لقيت غلاما فى التيه) أى المفازة (كأنه سبيكة فضة) فى سراج السالكين : السبيكة : القطعة المذوبة المفرغة فى القالب من الفضة ونحوها (فقلت له إلى أين) تتوجه (يا غلام ؟ قال إلى مكة ؛ قلت بلا زاد ولا راحلة ؟ فقال) الغلام لى (يا ضعيف اليقين) قال ذلك لقوة يقينه وإن كانت السنة حمل الزاد ولا يدل على ضعف اليقين مطلقا لأن الأنبياء والأئمة حملوه لكن بلا اعتماد عليه ؛ بل على الرب سبحانه وتعالى (الذى يقدر على حفظ السموات والأرض قادر على أن يوصلنى إلى مكة بلا زاد ولا راحلة) . قال

فَلَمَّا دَخَلْتُ مَكَّةَ فَإِذَا هُوَ فِي الطَّوَافِ يَقُولُ :

يَا نَفْسُ سِيحِي أَبَدَا وَلَا تُحِبِّي أَحَدَا
إِلَّا الْجَلِيلَ الصَّمَدَا يَا نَفْسُ مُوتِي كَمَدَا

فَلَمَّا رَآنِي قَالَ يَا شَيْخُ أَنْتَ بَعْدُ عَلَى ذَلِكَ الضَّعْفِ ؛

الخواص (فلما دخلت مكة فإذا هو) أى الغلام (فى الطواف يقول) من مجزو الرجز (يا نفس سيحى) أى اسعى (أبدا * ولا تحبى أحدا) من الخلق (إلا الجليل) أى المنعوت بنعوت الجلال (الصمدا) أى الذى يصمد إليه فى الحوائج ويقصد فى الرغائب ؛ أو الملجأ الذى لا يمكن الخروج عنه لإحاطة أمره ؛ كذا فى سراج السالكين : قال ابن عباس : الصمد : الذى لاجوف له ، وبه قال جماعة من المفسرين ؛ ووجه ذلك من حيث اللغة أن الصمد : الشئ المصمد الصلب الذى ليس فيه رطوبة ولا رخاوة ؛ ومنه يقال : لسداد القارورة الصماد . فإن فسر الصمد بهذا كان من صفات الأجسام ، ويتعالى الله جل وعز عن صفة الجسمية ؛ وقيل وجه هذا القول أن الصمد الذى ليس بأجوف : معناه هو الذى لا يأكل ولا يشرب وهو الغنى عن كل شئ ؛ فعلى هذا الاعتبار هو صفة كمال . وروى البخارى فى أفراده عن أبى وائل شقيق بن سلمة قال : الصمد هو السيد الذى انتهى سؤدده وهى رواية عن ابن عباس أيضا ، قال هو السيد الذى كمل فيه جميع أوصاف السؤدد ؛ وقيل هو السيد المقصود فى جميع الحوائج المرغوب إليه فى الرغائب ؛ المستعان به عند المصائب وتفريج الكرب ، وقيل هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله ، وتلك دالة على أنه المتناهى فى السؤدد والشرف والعلو والعظمة والكمال والإحسان ، وقيل الصمد : الدائم الباقى بعد فناء خلقه ، وقيل الصمد : الذى ليس فوقه أحد ، وهو قول على كرم الله وجهه ، وقيل هو الذى لاتعتريه الآفات ولا تغيره الأوقات ، وقيل هو الذى لاعيب فيه ، وقيل الصمد : هو الأول الذى ليس له زوال والآخر الذى ليس لملكه انتقال . والأولى أن يحمل لفظ الصمد على كل ماقيل فيه لأنه محتمل له ، فعلى هذا يقتضى أن لا يكون فى الوجود صمد سوى الله تعالى العظيم القادر على كل شئ وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به ، له الأسماء الحسنى والصفات العليا « ليس كمثله شئ وهو السميع البصير » كذا ذكره الخازن (يانفس موتى كمدا) أى حزنا . فى المختار : الكمد : الحزن المكتوم ، وبابه طرب . قال الخواص (فلما رآنى) الغلام (قال) لى (ياشيخ أنت بعد) أى إلى الآن (على ذلك الضعف) أى ضعف اليقين . قال أبو بكر الوراق : اليقين على ثلاثة أوجه : يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة . وقال أبو تراب : رأيت غلاما فى البادية يمشى بلا زاد ، فقلت إن لم يكن معه يقين فقد هلك ، فقلت ياغلام فى مثل هذا الموضع بلا زاد ؟ فقال ياشيخ ارفع رأسك هل ترى غير الله عز وجل ، فقلت الآن اذهب حيث شئت . وقال القشيرى : سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت أبانصر الأصبهانى يقول : سمعت محمد بن عيسى يقول : قال أبوسعيد الخراز : العلم مااستعملك

وَقالَ أَبُو مُطِيعٍ لِحَاتِمٍ الأَصَمِّ : بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقْطَعُ المَفَاوِزَ بِالتَّوَكُّلِ مِنْ غَيْرِ زَادٍ ، قالَ حَاتِمٌ : زَادِي أَرْبَعَةُ أَشْيَاء ، قالَ مَا هِيَ ؟ قالَ أَرَى الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ مَمْلَكَةً لِلَّهِ تَعَالَى ، وَأَرَى الخَلْقَ كُلَّهُمْ عَبِيدَ اللهِ وَعِيَالَهُ ، وَأَرَى الأَرْزَاقَ وَالأَسْبَابَ كُلَّهَا بِيَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَرَى قَضَاءَ اللهِ نَافِذًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ اللهِ ،

واليقين ماحملك ، وهو العلم بأنه لافاعل إلا الله ، ولا معين سواه ، ولايجرى عليك إلاماسبق لك عنده . (وقال أبو مطيع) البلخى رحمه الله (لحاتم) بن علوان (الأصم : بلغنى أنك تقطع) أى تجاوز (المفاوز بالتوكل من غير زاد . قال حاتم) بل أقطعها بالزاد ، قال ومازادك ؟ قال حاتم (زادى) فيها (أربعة أشياء . قال) أبو مطيع (ماهى ؟ قال) حاتم : أحدها (أرى الدنيا) بحذافيرها (والآخرة مملكة لله تعالى . و) ثانيها (أرى الخلق كلهم عبيد الله وعياله) أى فقراءه وهو الذى يعولهم . (و) ثالثها (أرى الأرزاق والأسباب كلها بيد الله) أى بقدرته (عز وجل . و) رابعها (أرى قضاء الله) وحكمه (نافذا فى جميع أرض الله) وخلقه . قال أبو مطيع : نعم الزاد زادك ياحاتم ، وإنك لتجاوز بها مفاوز الآخرة ، فكيف مفاوز الدنيا ؟ .

وذكر أن رجلا جاء إلى شقيق الزاهد رحمه الله فقال له أوصنى ، فقال له شقيق : احفظ ثلاثة أشياء : اعبد الله فانه يثبتك ، وحارب عدو الله فانه ينصرك ، وصدقه بالوعد فانه يأتى به إليك . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لو أن أهل العلم صانوا علمهم وبذلوه لأهله لسادوا به أهل زمانهم ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا من دنياهم فهانوا علي أهلها ، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول « من جعل الهموم هما واحدا : يعنى هم آخرته كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه ، ومن شغلته هموم أحوال الدنيا لم يبال الله تعالي فى أى أودية النار أهلكه وأى أودية النار عذبه » ويقال مكتوب فى التوراة « يابن آدم حرك يدك أبسط لك فى رزقك ، وأطعنى فيما أمرتك ولا تعلمنى مايصلحك » وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : قوام الإسلام بأربعة أركان : اليقين ، والعدل ، والصبر ، والجهاد . والعلماء رحمهم الله فسروا هذه الأربعة أشياء فقالوا أما اليقين فهو علي وجهين : أحدهما أن يعمل لله خالصا ولا يطالب به عرض الدنيا ولا رضا المخلوقين . والثانى أن يكون آمنا بوعد الله وهو الرزق . وأما العدل فهو على وجهين : أحدهما أنه لو كان عليه حق يؤديه قبل الطلب . والثاني إذا كان له على غيره حق يرفق بطلبه ، وأما الصبر فهو على وجهين : أحدهما أن يصبر على أداء فرائض الله تعالى . والثانى أن يصبر عما نهاه الله عنه . وأما الجهاد فهو على وجهين : أحدهما أن لاتغفل عن عدوك وهو الشيطان ، فانك إن غفلت عنه فانه لم يغفل عنك فهو كالذئب إذا وقع فى الغنم فكل شاة غفلت عنها أخذها . والثانى أن أكثر فتنة بنى آدم لأجل المال فارض باليسير من المال لكيلا يغرك . وقال بعض الحكماء :

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :

أَرَى الزُّهَّادَ فِى رَوْحٍ وَرَاحَهْ قُلُوبُهُمُ عَنِ الدُّنْيَا مُزَاحَهْ
إِذَا أَبْصَرْتَهُمْ أَبْصَرْتَ قَوْمًا مُلُوكَ الْأَرْضِ سِيمَتُهُمْ سَمَاحَهْ

صفة أولياء الله تعالى ثلاث خصال : الثقة بالله فى كل شىء ، والفقر إلى الله فى كل شىء ، والرجوع إلى الله فى كل شىء . وقال فضيل بن عياض رحمه الله : أحب الناس من استغنى عن الناس ولم يسألهم شيئا ، وأبغض الناس إليهم من احتاج إليهم ؛ وأحب الناس إلى الله من احتاج إليه وسأله ، وأبغض الناس إليه من استغنى عنه ولم يسأل منه شيئا .

وذكر أن لقمان الحكيم لما حضرته الوفاة قال لابنه : يابنى كثيرا ما أوصيتك إلى هذه الغاية وإنى لموصيك الآن بست خصال فيها علم الأولين الآخرين : أولها أن لاتشغل نفسك بالدنيا إلا بقدر مابقى من عمرك . والثانى اعبد ربك بقدرحوائجك إليه . والثالث اعمل للآخرة بقدرماتريد المقام بها . والرابع ليكن شغلك فى فكاك رقبتك من النار مالم تظهر لك النجاة منها . والخامس ليكن جراءتك على المعاصى بقدر صبرك على عذاب الله . والسادس إذا أردت أن تعصي الله فاطلب مكانا لايراك الله وملائكته . وقيل لبعض الحكماء : ماالفرق بين اليقين والتوكل ؟ قال أما اليقين فهو أن تصدق الله بجميع أسباب الآخرة ، والتوكل أن تصدق الله بجميع أسباب الدنيا ، ويقال : التوكل توكلان : أحدهما فى الرزق فلا يجوز فيه الا الأمن . والثانى فى طلب ثواب العمل فيكون آمنا بوعد الله فى الثواب ويكون خائفا فى عمله أن يقبل منه أم لا يقبل .

وروي عطاء بن السائب عن يعلي بن مرة قال : اجتمعنا مع نفر من أصحاب علي كرم الله وجهه فقلنا لو حرسنا أمير المؤمنين فانه محارب ولا نأمن عليه أن يغتال فبينا نحن عند باب حجرته حتى خرج للصلاة فقال ماشأنكم ؟ فقلنا حرسناك ياأمير المؤمنين لأنك محارب وخشينا أن تغتال ، فقال أمن أهل السماء حرستمونى أم من أهل الأرض ؟ قالوا بل من أهل الأرض فكيف نستطيع أن نحرسك من أهل السماء ، قال فانه لايكون في الأرض شىء حتى يقدره الله في السماء وليس من أحد إلا وقد وكل به ملكان يدفعان عنه حتى يجىء قدره ، فإذا جاء قدره خليا بينه وبين قدره ، كذا ذكره العلامة أبو الليث السمرقندى (ولقد أحسن من قال) من بحر الوافر (أرى الزهاد) جمع زاهد (فى روح) بالفتح : ما تلذ به النفس (وراحة) أى زوال مشقة وتعب (قلوبهم عن الدنيا مزاحة) أى بعيدة ، فى المختار زاح : بعد وذهب وبابه باع وأزاحه غيره (إذا أبصرتهم) أى هؤلاء الزهاد (أبصرت قوما * ملوك الأرض سيمتهم) أى طبيعتهم (سماحة) أى سخاوة . وتقدم فى الزهد أن العلماء اختلفوا فيه وحده ، وكل تكلم على حسب وقته وحاله ، قيل ومن صدق فى زهده فى الدنيا أتته وهى راغمة لأنه لارغبة له فيها وما قدره الله له آتيه رغما أو لأنه تعالى يمتحن بها أولياءه كما قال تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » وأحسن

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِى الَّذِى اُقْتضَى التَّوَكُّلَ عَلَى اُللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِى هٰذَا الشَّأْنِ فَهُوَ مَا فِى تَرْكِهِ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيمِ وَالْأَمْرِ الْكَبِيرِ .

قُلْتُ : أَلَيْسَ اُللهُ سُبْحَانَهُ قَرَنَ الرِّزْقَ بِالْخَلْقِ فَقَالَ تَعَالَى : (خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ) فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرِّزْقَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ لَا غَيْرُ كَالْخَلْقِ ؛ ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالدَّلَالَةِ حَتَّى وَعَدَ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالْوَعْدِ حَتَّى ضَمِنَ فَقَالَ : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالضَّمَانِ حَتَّى أَقْسَمَ فَقَالَ : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

العمل فيها الزهد . قال بعضهم : الله يعطى الزاهد فوق مايريد ، والراغب دون مايريد ، والمستقيم فوق مايريد . وقال الإمام أحمد: ترك الحرام زهد العوام وترك فضول الحلال زهد الخواص وترك مايشغل عن الرب بالقلب زهد العارفين . وعن الفضيل : جعل الله الشر كله فى بيت ومفتاحه حب الدنيا ، والخير كله فى بيت ومفتاحه الزهد فيها (وأما الأمر الثانى الذي اقتضى) أى طلب (التوكل على الله سبحانه وتعالى فى هذا الشأن) أى شأن الرزق (فهو) أى الأمر الثانى (مافى تركه) أى التوكل (من الخطر العظيم والأمر الكبير . قلت أليس الله سبحانه قرن الرزق بالخلق فقال تعالى)الله الذى (خلقكم) نسما فى بطون أمهاتكم ثم أخرجكم وفيكم الروح (ثم رزقكم) الطيبات الرزق إلى الموت (فدل) هذا القول منه جل وعز (على أن الرزق من الله سبحانه لاغير) وذلك (كالخلق ، ثم لم يكتف) الله تعالى (بالدلالة) على أن الرزق منه (حتي وعد فقال عز وجل : إن الله هو الرزاق) أى خالق الأرزاق والأشياء التى يتمتع بها (ثم لم يكتف) سبحانه (بالوعد حتى ضمن فقال) جل وعز (وما من دابة فى الأرض) الدابة : اسم لكل حيوان دب على وجه الأرض ، وأطلق لفظ الدابة على كل ذى أربع من الحيوان على سبيل العرف ، والمراد منه الإطلاق فيدخل فيه الآدمى وغيره من جميع الحيوانات (إلا على الله رزقها) يعنى هو المتكفل برزقها فضلا منه لاعلى سبيل الوجوب فهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق . وقيل إن لفظة على بمعنى من ، أى من الله رزقها . وقال مجاهد : ماجاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعا (ثم لم يكتف) سبحانه وتعالي (بالضمان حتى أقسم فقال : فورب السماء والأرض) أقسم بنفسه (إنه) أى ماذكر من الرزق وغيره (لحق) صدق كائن (مثل ماأنكم تنطقون) أى مثل نطقكم ، كما أنه لاشك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لاتشكوا فى تحقق ذلك . وقال بعض الحكماء : معناه كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لايمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذى قسم له لايقدرأن يأكل رزق غيره . وقال يزيدبن مرثد: إن رجلا

ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِذَٰلِكَ كُلِّهِ حَتَّى أَمَرَ بِالتَّوَكُّلِ وَأَبْلَغَ وَأَنْذَرَ فَقَالَ: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) وَقَالَ سُبْحَانَهُ : (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فَمَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ قَوْلَهُ وَلَمْ يَكْتَفِ بِوَعْدِهِ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى ضَمَانِهِ ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِقَسَمِهِ ، ثُمَّ لَمْ يُبَالِ بِأَمْرِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ فَانْظُرْ مَاذَا يَكُونُ حَالُهُ ، وَأَيَّةُ مِحْنَةٍ تَجِيءُ مِنْ هَٰذَا؟ وَهَٰذِهِ وَاللهِ مُصِيبَةٌ شَدِيدَةٌ وَنَحْنُ مِنْهَا فِى غَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَلَقَدْ قَالَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ صلى اللهُ عليه وسلم لِابْنِ عُمَرَ : «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا بَقِيتَ بَيْنَ قَوْمٍ يَخْبَئُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ لِضَعْفِ الْيَقِينِ

جاع بمكان وليس فيه شيء فقال اللهم رزقك الذى وعدتنى فأتنى به فشبع وروى من غير طعام ولاشراب . وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لوأن أحدكم فرمن رزقه لتبعه كما يتبعه الموت » أسنده الثعلبى أفاده القرطبى (ثم لم يكتف) الله جل وعز (بذلك) أي المذكور من الدلالة والوعد والضمان والقسم (كله حتى أمر) سبحانه (بالتوكل وأبلغ وأنذر فقال: وتوكل) يامحمد (على الحى الذى لايموت) معناه أنه سبحانه وتعالى لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن لايطلب منهم أجرا ألبتة أمره أن يتوكل عليه فى جميع أموره ، وإنما قال «علي الحى الذى لايموت » لأن من توكل على حى يموت انقطع توكله عليه بموته ، وأما الله سبحانه وتعالى فانه حى لايموت فلا ينقطع توكل من توكل عليه ولا يضيع ألبتة . وقرأها بعض الصالحين فقال لايصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق (وقال سبحانه : وعلى الله فتوكلوا) بالنصرة (إن كنتم مؤمنين) أى مؤمنين به ومصدقين لوعده ، إذ الإيمان به يقتضى التوكل عليه ، وهو قطع العلائق وترك التملق للخلائق (فمن لم يعتبر قوله) جل وعز بالدلالة على أن الرزق منه (ولم يكتف بوعده) ولم يثق بجود هذا الغنى الرحيم (ولم يطمئن) قلبه (إلي ضمانه ولم يقنع) أى لم يرض (بقسمه) سبحانه (ثم لم يبال بأمره ووعده ووعيده فانظر ماذا يكون حاله) وكيف يستقر الإيمان فى قلبه ومن أين معرفته (وأية محنة) وبلية (تجيء من هذا) المتصف بما ذكر (وهذه) أى الحالة المذكورة من عدم الاعتبار بقوله جل وعز وعدم الاكتفاء بوعده وغير ذلك (والله) بواو القسم (مصيبة شديدة ، ونحن منها) أى من تلك المصيبة (فى غفلة عظيمة ، ولقد قال الصادق) المصدوق (الأمين) أى المأمون على سر وحى ربه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم لابن عمر) رضى الله عنهما (كيف أنت إذا بقيت بين قوم يخبئون) أى يسترون ويدخرون . وفى المصباح : خبأت الشيء خبئا مهموز من باب نفع : سترته (رزق سنتهم لضعف اليقين) وقد ذكر مصنفنا حجة الإسلام وغيره أن الادخار له ثلاث درجات : إحداها أن لايدخر إلا ليومه وليلته وهى درجة الصديقين . والثانية أن يدخر لأربعين يوما ولا يزيد ، فإن مازاد عليه داخل فى طول الأمل وهو مذموم ، وقد فهم العلماء ذلك الحد من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام إذ كان ميقاته أربعين ليلة ، ففهم

منه الرخصة فى أمل الحياة أربعين يوما ، وهذه درجة المتقين . والثالثة أن يدخر لسنته وهى أقصى المراتب والدرجات فى الرخصة وهى رتبة الصالحين من خواص المؤمنين ، ومن زاد فى الادخار على هذا القدر فهو واقع فى غمار العموم من المؤمنين خارج عن حيز الخصوص بالكلية ، فغنى الصالح الضعيف فى طمأنينة قلبه وفقد يقينه فى قوت سنته ، وغني الخصوص فى أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة . وقد قسم النبى صلى الله عليه وسلم لنسائه على مثل هذه الأقسام فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول مايحصل ، وبعضهن قوت أربعين يوما ، وبعضهن يوما وليلة ، وهو قسم عائشة وحفصة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول مايدرينى لعلي لاأبلغه ، وقد كان صلي الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لايثق بما ادخره ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ترك ذلك تعليما للأقوياء من أمته فإن أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوته . وادخر عليه الصلاة والسلام لعياله قوت سنة لالضعف قلب فيه وفى عياله ، حاشاهم من ذلك ، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته ، بل أخبر أن الله تعالى يحب أن تؤتي رخصه كما يحب أن تؤتي عزائمه . رواه أحمد والطبرانى والبيهقى من حديث ابن عمر ، وذلك تطييبا لقلوب الضعفاء حتي لاينتهى بهم الضعف إلى مرتبة اليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله ، فيتركون الميسور من الخير عليهم لعجزهم عن منتهى الدرجات ، فما أرسل رسول الله صلي الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم . وفى القوت : وكان سهل رحمه الله تعالى يقول فى تأويل الخبر : إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ، قال ما كان من أمر نخذ بالأوسع ، وما كان من نهى نخذ بالأشد فيه ، قال وكان يضرب للمدخر مثلا فى قصر الأمل وطوله فيقول : مثل من يترك الادخار مثل رجل يقول : أريد أن أخرج إلى الأبلة ، فيقال له خذ رغيفا ، فإن قال أريد أن أخرج إلى العسكر قيل له خذ أربعة أرغفة ، قال فكذلك ترك الادخار ينقص من فضائل الزاهدين بمقدار مايمنع من حقيقة الزهد إلا الزهاد العارفين لأنهم على عين اليقين قد أقيموا بشهادة عين التوحيد فينظرون بنور الأولية والآخرية ، فالموجودات عندهم عنده إذا كانت أيديهم يده وقبضهم قبضه فهو وكيلهم وهم خلفاؤه ينفقون مما جعلهم مستخلفين فيه ، فهو مزيد لهم لأن هذا مقام فوق الزهد قد جاوزه فكيف يعتبر به ، وهؤلاء لايوصفون بكدر الخلق والمراءاة فكيف يؤمرون بالتصفية والإخلاص إذ لايدخل عليهم الشرك لقيومية شهادة التوحيد بهم فهم بها قائمون . وأما تارك المكاسب وقاطع التسبب ممن لاعلوم له من الأولياء فانهم تركوا الادخار لأنه مقتضى حالهم ، وفيه استقامة مقامهم ، وصفاء قلوبهم لخلوصهم ولإفراد سيرهم انتهى .

وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لايضر ، ويدل عليه ماروى أبو أمامة الباهلي رضى الله عنه : أن بعض أصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن ، فقال صلي الله عليه وسلم فتشوا ثوبه ، ففتشوه فوجدوا فيه دينارين فى داخل إزاره ، فقال صلى الله عليه وسلم

وَعَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : لَعَنَ اللهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ ؛ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ نُزُولِ هٰذِهِ الآيَةِ : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) هَلَكَتْ بَنُو آدَمَ أَغْضَبُوا الرَّبَّ حَتَّى أَقْسَمَ لَهُمْ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ . وَعَنْ أُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَوْ عَبَدْتَ اللهَ عِبَادَةَ أَهْلِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَقْبَلُ مِنْكَ حَتَّى تُصَدِّقَهُ ،

« كيتان » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك فى حقه ، وهذا يحتمل وجهين ، لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كيتين من النار كما قال تعالى « تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل وترك الادخار مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس، ولذلك شدد عليه وغلظ بكيتى نار ، وعلي هذا الوجه اقتصر صاحب القوت . والثانى أن لايكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه ، وذلك لايكون عن تلبيس؛ فان كل مايخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته فى الآخرة، إذ لايؤتي أحد من الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة وهذا الوجه هو اللائق بمقام الصحابة كما لايخفي. وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ماروى عن أبى نصر بشر بن الحارث الحافى قدس سره . قال الحسين المغازلى من أصحابه: كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين فقام إليه بشر ، قال الحسين وما رأيته قام لأحد غيره قال ودفع إلى كفا من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ماتقدر عليه من الطعام قال وما قال لى قط مثل ذلك ، قال فجئت بالطعام فوضعته بين يديه فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، قال فأكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شىء كثير فأخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وجعله تحت يده وحمله معه وانصرف ، قال فعجبت من فعله ذلك وكرهته له إذ لم يأمره بذلك ولا هو استأذنه فيه ، فقال لى بشر بعد وقت لعلك أنكرت فعله ذلك، قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن ، فقال تعرفه ؟ قلت لا قال ذاك أخونا فتح بن شخرف الموصلى زارنا اليوم من الموصل وإنما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار هكذا نقله صاحب القوت (وعن الحسن) البصرى (رحمه الله تعالى : لعن الله أقواما أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه) ثم قرأ هذه الآية « وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق » الآية (وقالت الملائكة) عليهم السلام (عند نزول هذه الآية : فورب السماء والأرض) الآية (هلكت بنو آدم ، أغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم . وعن أويس) ابن عامر (القرنى) منسوب إلى قرن بن درعان روى عن على مرفوعا «خير التابعين أويس» وقد تقدمت ترجمته (رضى الله عنه أنه قال لو عبدت الله عبادة أهل السموات والأرض) أى كعبادتهم (لايقبل) الله عز وجل (منك) عبادتك (حتي تصدقه) سبحانه وتعالى

قِيلَ: وَكَيْفَ نُصَدِّقُهُ؟ قالَ تَكُونُ آمِناً بِمَا تَكَفَّلَ اللهُ لَكَ مِنْ أَمْرِ رِزْقِكَ وَتَرَى جَسَدَكَ فارِغاً لِعِبَادَتِهِ، وَلَقَدْ قالَ لَهُ هَرِمُ بْنُ حَيَّانَ: أَيْنَ تَأْمُرُنِي أَنْ أُقِيمَ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ، قالَ هَرِمٌ: كَيْفَ المَعِيشَةُ بِهَا؟ قالَ أُفٍّ لِهٰذِهِ القُلُوبِ، لَقَدْ خَالَطَهَا الشَّكُّ فَمَا تَنْفَعُهَا المَوَاعِظُ.

وَبَلَغَنَا أَنَّ نَبَّاشاً تابَ عَلَى يَدِ أَبِي يَزِيدَ البَسْطَامِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فَسَأَلَهُ أَبُو يَزِيدَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ: نَبَشْتُ عَنْ أَلْفِ قَبْرٍ فَلَمْ أَرَ وُجُوهَهُمْ إِلَى القِبْلَةِ إِلاَّ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ أَبُو يَزِيدَ مَسَاكِينُ أُولٰئِكَ

(قيل وكيف نصدقه؟ قال) أويس (تكون آمنا بما تكفل الله لك من أمر رزقك وترى جسدك فارغا لعبادته) تعالى (ولقد قال له) أى لأويس (هرم بن حيان) العبدى . قال ابن عبد البر وهو من صغار الصحابة ، وفى الزهد لأحمد أنه كان يصحب حممة الدوسى ، وحممة مات فى خلافة عثمان ؛ وفيه عن الحسن أنه لما مات دفن فى يوم صائف فجاءت سحابة فرشت قبره وما حوله وعده ابن أبى حاتم فى الزهاد الثمانية من كبار التابعين ، وقال ابن سعد ثقة له فضل وكان على عبد القيس فى الفتوح ، وأورده أبو نعيم فى الحلية وقد تقدمت ترجمته (أين تأمرني أن أقيم؟ فأومأ) أى أشار أويس (بيده إلى الشام : قال هرم كيف المعيشة بها) أى الشام (قال) أويس (أف) بفتح الفاء وكسرها منونا وغير منون ، أف يؤف أفا : بمعنى تبا وقبحا ، أو صوت يدل على تضجر ، أو اسم الفعل الذى هو أتضجر (لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما تنفعها) أى تلك القلوب (المواعظ) ولفظ القوت . وقال أبو السليل : قال رجل لأويس أصحبك : أستأنس بك ، فقال سبحان الله أما ظننت أن أحدا يعرف الله يستوحش معه ، فقال له الرجل ما المعيشة ؟ فقال أويس أف خالط القلوب الشك فما تنتفع بموعظة . وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا وجدت إلى كل خير سبيلا ، ومعنى الوكيل هو الموكول إليه الأمور كلها (وبلغنا أن نباشا) للقبر لأخذ الكفن فى المصباح نبشته نبشا من باب قتل : استخرجته من الأرض ، ونبشت الأرض نبشا : كشفتها ، ومنه نبش الرجل القبر ، والفاعل نباش للمبالغة ، ونبشت السر : أفشيته (تاب على يد أبى يزيد) طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن على (البسطامى) بفتح الباء الموحدة نسبة إلى بسطام : وهى بلدة مشهورة من أعمال قومس ، ويقال إنها أول بلاد خراسان من جهة العراق ، وكانت وفاته سنة إحدى وستين ، وقيل أربع وستين ومائتين (رحمه الله تعالى ، فسأله) أى النباش (أبو يزيد عن حاله) قبل توبته (فقال) النباش (نبشت عن ألف قبر فلم أر وجوههم إلى القبلة) أى مستقبلة لها (إلا رجلين ، فقال أبو يزيد مساكين، أولئك) أى أصحاب القبور الذين لا يستقبلون

تُهمَةُ الرِّزْقِ حَوَّلَتْ وُجُوهَهُمْ عَنِ القِبْلَةِ .

وَذَكَرَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ؟ فَقَالَ: هَلْ سَلِمْتَ بِإِيمَانِكَ ؟ فَقَالَ إِنَّمَا يَسْلَمُ الْإِيمَانُ لِلْمُتَوَكِّلِينَ ،

القبلة (تهمة الرزق) ولم يفوضوا أمره إلى ربهم (حولت وجوههم عن) استقبال (القبلة . وذكر لى بعض أصحابنا رحمه الله تعالى أنه رأى رجلا من أهل الصلاح فسأله عن حاله) أى الرجل الصالح (فقال) بعض أصحابنا (هل سلمت بإيمانك ؟ فقال) الرجل (إنما يسلم الإيمان للمتوكلين) وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ، ولا رازق سواه ، وأن كل ما يقدره سبحانه على العبد من فقر وغنى ، وموت وحياة ، وقبض وبسط ، فهو خير له مما يتمناه العبد لم يكمل حال التوكل فمبنى التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور ، وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان .

وبالجملة فالتوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين ، ولذلك قال التسترى رحمه الله تعالى : من طعن على التكسب فقد طعن على التوحيد ، وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى الخلق وهم أصناف كما هم اليوم : منهم التاجر والصانع والقاعد ومن يسأل ، فما قال للتاجر اترك تجارتك ، ولا قال للقاعد اكتسب ، ولا نهى السائل عن أن يسأل ، بل أمر أن يعطى ، ولكن بالايمان واليقين فى جميع أحوالهم وتركهم مع الله فى التدبير فعمل كل واحد بعمله ، كذا ذكره صاحب القوت . وأورده القشيرى فى الرسالة بعبارتين : الأولى قال سهل: التوكل حال النبى صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته . والثانية سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبدالله ابن على يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول : قرأت على محمد بن الحسين . قال سهل بن عبد الله من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ؛ ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الايمان انتهى . والمراد بحاله صلى الله عليه وسلم فى القول الأول أن يكون السابق لقلب العبد في تحصيل مقصوده على الله ، وسنته أن يكون السابق لقلب العبد العاجز عن الحال المذكور فى تحصيله مقصوده اعتماده على الكسب المعتاد من حيث إنه سنةالله ورسوله جرت به كما هو العادة فى ربط المسببات فى الأسباب مع اعتقاده أن الفاعل هو الله تعالى وأنه لا فعل للأسباب ،والمراد بالحركة فى القول الثانى الكسب والمراد بالطعن فى السنة الانكار بما جرت بذلك كحفر الخنادق ؟ ولبس الدرع والتحصن وحمل الزاد فى الأسفار ! وقد قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » الآية والمراد بالطعن فى التوكل أن يقول إن المقدر يحصل بفعل الله وبفعل غيره وكونه طعنا فى الإيمان أو التوحيد حيث أشرك معه تعالى فى الفعل غيره ، كذا قاله العلامة الزبيدى . قال صاحب القوت وأخبرنى أبو موسى قال : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سأل رجل شيخنا ابن سالم أنحن متعبدون بالكسب أو بالتوكل ؟ فقال التوكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والكسب سنته

نَسْأَلُ اللهَ تعالى أَنْ يُصْلِحَنَا بِفَضْلِهِ، وَأَنْ لاَ يُؤَاخِذَنَا بِمَا نَحْنُ أَهْلُهُ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَخْبِرْنَا مَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ وَحُكْمُهُ وَمَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ مِنْهُ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَتَبَيَّنُ لَكَ هٰذَا فِي أَرْبَعَةِ فُصُولٍ: بَيَانِ لَفْظِ التَّوَكُّلِ، وَمَوْضِعِهِ، وَحَدِّهِ، وَحِصْنِهِ.

فَأَمَّا اللَّفْظُ: فَإِنَّمَا هُوَ تَوَكُّلٌ تَفَعُّلٌ مِنَ الْوَكَالَةِ، فَالْمُتَوَكِّلُ عَلَى أَحَدٍ هُوَ الَّذِي

وإنما سن لهم الكسب لضعفهم حين سقطوا عن درجة التوكل فأباح لهم طلب المعاش بالمكاسب الذى هو سنته ولولا ذلك لهلكوا . وأما ابن عطاء فإنه كان يقول : ليس التوكل لزوم الكسب ولا تركه إنما التوكل طمأنينة فى القلب إلى الله تعالى . وقال أبو يعقوب السوسى : لا تطعنوا على أهل التوكل فإنهم خاصة الله سكنوا إلى الله واكتفوا به واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة ، وقال من طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان لأنه مقرون به ، ومن أحب أهل التوكل فقد أحب الله (نسأل الله تعالى أن يصلحنا بفضله) وإحسانه (وأن لا يؤاخذنا بما نحن أهله) من الخطايا (إنه أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة .

(فإن قلت : فأخبرنا ما حقيقة التوكل وحكمه وما يلزم العبد منه) أى من التوكل (فى أمر الرزق ؟ فاعلم) هداك الله تعالى (أنه) أى الحال والشأن (إنما يتبين)أى يظهر (لك هذا) أى الذى سألته من حقيقة التوكل وغيرها (فى أربعة فصول) الأول فى (بيان لفظ التوكل . و) الثاني فى (موضعه . و) الثالث فى (حده . و) الرابع فى (حصنه) أى حصن التوكل الباعث عليه (فأما اللفظ فإنما هو توكل) وهو (تفعل) مشتق (من) لفظ (الوكالة) بفتح الواو والكسر لغة فيه ، يقال وكل أمره إلى فلان من باب وعد ، وكلا بالفتح ووكولا بالضم : أى فوضه إليه واعتمد عليه فيه واكتفى به ، ويسمى الموكل إليه وكيلا فهو فعيل بمعنى مفعول ، وقد يكون بمعنى فاعل إذا كان بمعنى الحافظ ، ومنه قوله تعالى « ونعم الوكيل » وجمع الوكيل الوكلاء ، ويسمى المفوض إليه متكلا عليه ومتوكلا عليه كلاهما بمعنى ، إلا أن الاتكال من باب الافتعال ؛ والاسم منه التكلان بالضم ، والتوكل من باب التفعل كما تقدم ، وذلك مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصيره ولم يعتقد فيه عجزا ولا قصورا ، فهذه المعانى لازمة للمفوض إليه ، فالتوكل حينئذ عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ووثوقه به (فالمتوكل على أحد هو الذى

يَتَّخِذُهُ بِمَنْزِلَةِ الْوَكِيلِ الْقَائِمِ بِأَمْرِهِ ، الضَّامِنِ لِإِصْلَاحِهِ ، الْكَافِي لَهُ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَاهْتِمَامٍ ، فَهَذِهِ جُمْلَتُهُ ؛ وَأَمَّا الْمَوْضِعُ فَاعْلَمْ أَنَّ التَّوَكُّلَ اسْمٌ مُطْلَقٌ فِى ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا فِى مَوْضِعِ الْقِسْمَةِ ، وَهُوَ الثِّقَةُ بِاللهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَفُوتُكَ مَا قُسِمَ لَكَ فَإِنَّ حُكْمَهُ لَا يَتَبَدَّلُ وَهَذَا وَاجِبٌ بِالسَّمْعِ . وَالثَّانِى فِى مَوْضِعِ النُّصْرَةِ ، وَهُوَ الْاعْتِمَادُ وَالْوَثَاقَةُ بِنَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ إِذَا نَصَرْتَهُ وَجَاهَدْتَ ، قَالَ تَعَالَى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) وَقَالَ : (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ) وقَالَ تَعَالَى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) وَهَذَا وَاجِبٌ بِالْوَعْدِ ، وَالثَّالِثُ : فِى مَوْضِعِ الرِّزْقِ وَالْحَاجَةِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مُتَكَفِّلٌ بِمَا يُقِيمُ بِنْيَتَكَ لِخِدْمَتِهِ وَتَتَمَكَّنَ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ

يتخذه بمنزلة الوكيل القائم بأمره) أى المتوكل (الضامن لإصلاحه الكافى له من غير تكلف واهتمام ، فهذه) أى الجملة التى ذكرناها (جملته) أى حاصل بيان لفظ التوكل (وأما الموضع فاعلم أن التوكل اسم مطلق فى ثلاثة مواضع : أحدها فى موضع القسمة) أى ما قسمه الله لك (وهو) أى حق هذا الموضع (الثقة بالله لأنه) تعالى (لايفوتك ما قسم لك فإن حكمه) جل وعز (لا يتبدل) ولا يتغير أبدا (وهذا) أى موضع القسمة (واجب بالسمع) أى بالقرآن . (والثانى فى موضع النصرة ، وهو) أى موضع النصرة (الاعتماد والوثاقة بنصر الله عز وجل لك إذا نصرته) أى نصرت دينه (وجاهدت) بعبادته . (قال تعالى) « وشاورهم فى الأمر (فإذا عزمت) يعنى على المشاورة (فتوكل على الله ») أى فاستعن بالله فى أمورك كلها وثق به لا تعتمد إلا عليه فإنه ولي الإعانة والعصمة والتسديد، والمقصود أن لا يكون للعبد اعتماد على شىء إلا على الله تعالى فى جميع أموره وأن المشاورة لا تنافى التوكل . (وقال) تعالى « يا أيها الذين آمنوا (إن تنصروا الله) يعنى تنصروا دين الله ورسوله ، وقيل تنصروا أولياء الله وحزبه (ينصركم ») الله بالغلبة على العدو (وقال تعالى) «ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا (وكان حقا علينا نصر المؤمنين») إشعار بأن الانتقام لهم وإظهار لكرامتهم حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم ، وعنه عليه الصلاة والسلام « ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم ثم تلا ذلك » وقد يوقف على حقا على أنه متعلق بالانتقام كما فى البيضاوى (وهذا) أى موضع النصرة (واجب بالوعد . والثالث فى موضع الرزق والحاجة ، فإن الله تعالى متكفل) وضامن (بما يقيم بنيتك) أى جسدك (لخدمته) أى لطاعته جل وعز (وتتمكن به من عبادته) تعالى (وذلك) أى الكفالة والضمان (قوله تعالى : ومن يتوكل على الله)

فَهُوَ حَسْبُهُ) وَقَالَ الصَّادِقُ الأَمِينُ صلى اللهُ عليه وسلم : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا ،

يكل أمره إليه عن طمع غيره وتدبير نفسه (فهو حسبه) كافيه فى الدارين (وقال الصادق) فى خبره ، فقد ورد فى الحديث الصحيح تسميته بالصادق المصدوق . وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما كذبه قومه حزن ، فقال له جبريل إنهم يعلمون أنك صادق ، وصدقه صلى الله عليه وسلم واجب لوجوب عصمته وثبوت أمانته وما فطر عليه من الطهارة والنزاهة والتقديس وعلو الهمة وعظم الأخلاق وكرم الأعراق وشدة الحياء وحصافة العقل وجزالة الرأى وغير ذلك من موجبات صدقه صلى الله عليه وسلم . والصدق هو مطابقة الخبر للواقع فى نفس الأمر ، وقيل مطابقته للاعتقاد ، وقيل مطابقته لهما معا (الأمين صلى الله عليه وسلم) فقد كان عليه الصلاة والسلام يعرف به وشهر به قبل النبوة وبعدها وكانت قريش تسميه صلي الله عليه وسلم قبل البعثة محمدا الأمين . وفى الحديث « إني لأمين فى الأرض وأمين فى السماء » ، وقد سماه الله أمينا فقال « مطاع ثم أمين » إذا قلنا إن المراد به صلى الله عليه وسلم ، لاجبريل عليه السلام ، فهو أمين الله على وحيه ودينه ، وهو أمين فى السماء والأرض ، وفى الدر المنظم للعزفى : وأما اسمه أمين فهو الذى يلقى إليه بمقاليد المعانى ثقة بقيامه عليها وحفظها وقد تقدم بيانه . وقال فيما تقدم : وأما اسمه الأمين فإنه حفظ ما أوحى إليه وما كلف علمه وتبليغه وكان اسمه فى الجاهلية الأمين لثقته وأمانته ونزاهته عن الخيانة انتهى ، وكلامه فى الأسماء كله أو جله لابن العربى . وقال غيره : الأمين قيل معناه الأمين فى نفسه من عقاب ربه إشارة إلى ما بشره به ربه عز وجل فى سورة الفتح حيث قال « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » الآية فسمى بما يناسب قدره ، وقيل معناه الأمين فيما جاء به عن ربه من أمره ونهيه ووعيده ، بدليل المعجزات الظاهرة على يديه النازلة منزلة قول ربنا عز وجل « صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى » فسمى لهذا المعنى بما يناسب حقيقته (لو توكلتم على الله حق توكله) بأن تعلموا يقينا أن لا فاعل إلا الله ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع من الله ثم تسعون فى الطلب على الوجه الجميل (لرزقكم كما يرزق الطير) بضم المثناة التحتية علي صيغة المجهول : زاد فى رواية « فى جو السماء » (تغدو) أى تصبح من أوكارها (خماصا) جمع خميص : أى ضامرة البطون من الجوع (وتروح) أى تعود مساء إلى أوكارها (بطانا) جمع بطين : أى ممتلئة البطون ، وإنما مثل بالطير لأن الأركان المجتمعة فى الأبدان طوائر تطير إلى أوكارها ومراكزها ، فأخبر بأن الرزق فى التوكل على الله لا بالحيل والعلاج . وفى سراج السالكين فالكسب ليس برازق ، بل الرازق هو الله ، فأشار بذلك إلى أن التوكل ليس التبطل . بل لابد فيه من التوصل بنوع من السبب ، لأن الطير ترزق بالطلب والسعى ، ولهذا قال أحمد : ليس فى الحديث ما يدل على ترك الكسب بل فيه ما يدل على طلب

وَهٰذَا فَرْضٌ لَازِمٌ لِلْعَبْدِ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ جَمِيعاً ، وَهٰذَا هُوَ الْأَشْهَرُ ؛ وَالْأَبْلَغُ مِنْهُ أَعْنِي التَّوَكُّلَ فِي مَوْضِعِ الرِّزْقِ ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ هٰذَا الْفَصْلِ ، فَمَوْضِعُ التَّوَكُّلِ إِذَنْ هُوَ الرِّزْقُ ،

الرزق ، وإنما أراد لو توكلوا على الله فى ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم وعلموا أن الخير بيده جل وعز لم ينصرفوا إلا غانمين سالمين كالطير ، لكن اعتمدوا على قوتهم وكسبهم وذلك ينافى التوكل ، قال العراقى : رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عمر . قال الترمذى : حسن صحيح . قال الزبيدى : ورواه أيضا ابن المبارك وأبو داود الطيالسى وأحمد كلهم فى الزهد ، والنسائى وأبو يعلى والحاكم وصححه وأقره الذهبى ، ورواه أيضا ابن حبان والبيهقى والضياء فى المختارة كلهم من حديث عمر رضى الله عنه ، ولفظهم جميعا « لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » (وهذا) أى التوكل فى موضع الرزق والحاجة (فرض لازم للعبد بدليل العقل والشرع جميعا ، وهذا) أى كون هذا التوكل فرضا لازما للعبد (هو الأشهر والأبلغ منه أعنى التوكل فى موضع الرزق) والحاجة (وهو) أى التوكل فى موضع الرزق (المقصود من هذا الفصل فموضع التوكل إذن) أى حين إذ كان هذا التوكل هو المقصود (هو الرزق) .

[تنبيه] اختلف النحويون فى إذن ، فقيل اسم ، وقيل حرف . وهى على القول بالحرفية حرف جواب وجزاء عند سيبويه ، وقال الشلوبين : هى كذلك فى كل موضع . وقال الفارسى : فى الأكثر وقد تتمحض للجواب بدليل أنه يقال أحبك فتقول فى الجواب إذن أظنك صادقا إذ لا مجازاة هنا . قال الرضى : لأن الشرط والجزاء إما فى الاستقبال أو فى المضى ولا مدخل للجزاء فى الحال ، والمراد بكونها للجواب أن تقع فى كلام يجاب به كلام آخر ملفوظ به أو مقدر سواء وقعت فى صدره أو فى حشوه أو فى آخره . والمراد بكونها للجزاء أن يكون مضمون الكلام الذى هى فيه جزاء لمضمون كلام آخر ، وكان القياس إلغاءها لعدم اختصاصها ومن ثم اشترطوا لإعمالها الشروط الثلاثة : الأول : أن تكون مصدرة . الثانى : أن يكون الفعل بعدها مستقبلا . الثالث : أن يكون الفعل إما متصلا أو منفصلا بالقسم أو بلا النافية كما هو معلوم فى محله ولا تقع فى كلام مقتضب ابتداء ليس جوابا عن شىء فباعتبار ملابستها للجواب على هذا سميت حرف جواب . واعلم أن إذن بكسر الهمزة وفتح الذال المعجمة ثم نون : كلمة للزمان المستقبل وتقلب نونها فى الوقف ألفا على الصحيح تشبيها لها بتنوين المنصوب ، ومبنى الخلاف فى الوقف عليها على الخلاف فى كتابتها فالجمهور يكتبونها بالألف ، ولذا رسمت فى المصاحف بالألف . ونقل أن للنحويين فى رسمها ثلاثة مذاهب : الأول تكتب بالألف مطلقا . قيل وهو الأكثر . الثانى أنها تكتب بالنون مطلقا . الثالث التفصيل إن ألغيت كتبت بالألف لضعفها ، وإن أعملت كتبت بالنون ، ونقل

وَهُوَ الرِّزْقُ المَضْمُونُ فِيمَا قالَهُ الْعُلَمَاءُ بِاللهِ تعالى ، وَإِنَّمَا يَتَّضِحُ لكَ هٰـذا بِبيَانِ أَقْسَامِ الرِّزْقِ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّزْقَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ : مَضْمُونٌ ، وَمَقْسُومٌ ، وَمَمْلُوكٌ ، وَمَوْعُودٌ ؛ فَالْمَضْمُونُ هُوَ الْغِذَاءُ وَمَا بِهِ قِوَامُ الْبِنْيَةِ دُونَ سَائِرِ الْأَسْبَابِ ، فَالضَّمَانُ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِهٰذَا النَّوْعِ ، وَالتَّوَكُّلُ يَجِبُ بِإِزَائِهِ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَلَّفَنَا خِدْمَتَهُ وَطَاعَتَهُ بِأَبْدَانِنَا فَضَمِنَ مَا يَسُدُّ خَلَلَ الْبِنْيَةِ لِنَقُومَ بِمَا كَلَّفَنَا . وَقَالَ بَعْضُ مَشَايِخِ الْكَرَّامِيَّةِ كَلَامًا حَسَنًا عَلَى أَصْلِهِ : ضَمَانُ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَاجِبٌ فِى حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى لِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ السَّيِّدُ وَنَحْنُ الْعَبِيدُ ، وَعَلَى السَّيِّدِ كِفَايَةُ مُؤْنَةِ الْعَبِيدِ ، كَمَا أَنَّ الْعَبِيدَ خَدَمَةُ السَّيِّدِ ، وَالثَّانِى : أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مُحْتَاجِينَ إِلَى الرِّزْقِ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ سَبِيلاً إِلَى طَلَبِهِ إِذْ لَا يَدْرُونَ

عن الفراء عكسه وهو أنها إن أعملت كتبت بالألف إذ لا تلتبس حينئذ بإذ الظرفية لقيام المانع من اللبس وهو العمل وإن لم تعمل كتبت بالنون للفرق بينها وبين إذا ، وتبعه على ذلك ابن خروف كذا ذكره العلامة عبادة عن المدابغى (وهو الرزق المضمون فيما قال العلماء بالله تعالى) وصفاته (وإنما يتضح لك هذا) أى الرزق المضمون (ببيان أقسام الرزق، فاعلم أن الرزق أربعة أقسام : مضمون ومقسوم) أى ماقسمه الله لعباده (ومملوك) أى مايملكه كل واحد (وموعود) أى ماوعد الله به عباده (فالمضمون هو الغذاء وما به قوام البنية) أى الجسد (دون سائر الأسباب ، فالضمان من الله تعالى لهذا النوع) وهو الغذاء وما يقيم البنية (والتوكل يجب بإزائه) أى هذا النوع (بدليل العقل والشرع لأن الله تعالى كلفنا) وتعبدنا (خدمته وطاعته) مرادف لما قبله (بأبداننا فضمن) تعالى (مايسد خلل البنية لنقوم بما كلفنا) من طاعته (وقال بعض مشايخ الكرامية) فرقة من المشبهة شبهوا الله بالمخلوقات أصحاب عبد الله محمد بن كرام . قيل هو بكسر الكاف وتخفيف الراء وهو الذى نص على أن معبوده على العرش استقرارا وأطلق اسم الجوهر عليه ، تعالى الله عما يقول المبطلون علوا كبيرا (كلاما حسنا) أى استحسنه (على أصله) أى أصل هذا البعض وقاعدته (ضمان أرزاق العباد واجب فى حكمة الله تعالى لثلاثة أشياء : أحدها أنه) تعالى (السيد) المربى (ونحن العبيد) المربوبون (وعلى السيد كفاية مؤنة العبيد كما أن العبيد خدمة) جمع خادم (السيد . والثانى أنه) سبحانه (خلقهم) أى العبيد (محتاجين إلى الرزق ولم يجعل) الله تعالى (لهم) أى لعبيده (سبيلا إلى طلبه) أى الرزق (إذ لايدرون)

مَا هُوَ رِزْقُهُمْ ، وَأَيْنَ هُوَ ، وَمَتَى هُوَ ؟ لِيَطْلُبُوهُ بِعَيْنِهِ مِنْ مَكَانِهِ ، وَفِي وَقْتِهِ لِيَصِلُوا إِلَيْهِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكْفِيَهُمْ أَمْرَ ذَلِكَ وَيُوَصِّلَهُمْ إِلَيْهِ . وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ كَلَّفَهُمُ الْخِدْمَةَ وَطَلَبُ الرِّزْقِ شَاغِلٌ عَنْهَا فَوَجَبَ أَنْ يَكْفِيَهُمُ الْمُؤْنَةَ لِيَتَفَرَّغُوا لِلْخِدْمَةِ ، وَهَذَا كَلَامُ مَنْ لَمْ يُحِطْ بِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَالْقَائِلُ بِأَنَّ الرِّزْقَ عَلَى اللهِ وَاجِبٌ تَائِهٌ ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا فِي فَنِّ الْكَلَامِ فَسَادَهُ ،

ولا يعلمون (ماهو رزقهم وأين هو؟) أى الرزق (ومتى هو) أى مجىء ذلك الرزق (ليطلبوه بعينه) أى الرزق (من مكانه وفى وقته ليصلوا) أى العباد (إليه ف) إذا كانت حالهم كذلك (وجب أن يكفيهم) الله (أمر ذلك) الرزق (و) أن (يوصلهم إليه) أى الرزق (والثالث أنه) تعالى (كلفهم) أى العباد (الخدمة) أى الطاعة (و) الحال أن (طلب الرزق شاغل عنها) أى عن الخدمة (فوجب أن يكفيهم) الله عز وجل (المؤنة ليتفرغوا للخدمة ، وهذا) أى الكلام المذكور (كلام من لم يحط) أى لم يعلم (بأسرار الربوبية) وذلك لقصور نظرهم فى المعارف الإلهية والعلوم المتعلقة بذاته وصفاته الثبوتية والسلبية ورسوخ قياس الغائب على الشاهد فى طباعهم الدنيا القاصرة عن إدراك الحقائق الغيبية (والقائل) من المعتزلة (بأن الرزق على الله واجب تائه) أى ضال (وقد أوضحنا فى فن الكلام) أى علم التوحيد (فساده) أى القول بأن الرزق على الله واجب . ولنذكر هنا طرفا يسيرا لبيان فساده بقولنا : وذلك لأن من وجب عليه شىء فهو مقهور ، وأن من أدى حقا واجبا عليه لامنة له على المؤدى إليه ، وهذا القول يبطل الحمد والشكر لأن من أدى شيئا واجبا عليه لايستحق حمدا ولا شكرا عليه مع أنهما ثابتان له سبحانه . قال سيدى أحمد الدردير فى خريدته :

ومن يقل فعل الصلاح وجبا   على الإله قد أساء الأدبا

وبالجملة أنه تعالى يفعل بعباده مايشاء ، فلو أدخل جميعهم الجنة من غير طاعة سابقة كان له ذلك ولو أورد الكل منهم النار من غير زلة منهم كان له ذلك لأنه تصرف مالك الأعيان فى ملكه ليس عليه استحقاق إن أثاب فبفضله يثيب وإن عذب فلحق ملكه يعذب فلا يجب رعاية الأصلح ، بل لايعقل فى حقه الوجوب مطلقا لانقلا ولا عقلا ولا عادة فانه تعالى « لايسئل عما يفعل» بحكم ربوبيته وملكه لكل شىء الملك الحقيق « وهم يسئلون » بحكم العبودية والمملوكية لاقتضائها أن العبد المملوك لااستقلال له بتصرف ، ولا يمكنه أن يلزم مولاه ويوجب عليه شيئا . قال العلامة سيدى أحمد الدردير : وأقوى ماتمسكوا به فى ذلك القول المذكور أن ترك الأصلح يستلزم المحال من سفه أو جهل أو عبث أو بخل ، وظاهر أنه رفض لقاعدة الاختيار وتمسك بالفلسفة الظاهرة العوار . وحكي أن الامام أبا الحسن الأشعرى رضى الله عنه سأل شيخه أبا على

الجبائى ،وهو يقرر مسئلة وجوب الصلاح فقال له ماتقول فى ثلاثة إخوة مات أحدهم مطيعا والآخر عاصيا والثالث صغيرا ؟ فقال الأول يثاب فى الجنة والثانى يعاقب فى النار والثالث لايثاب ولا يعاقب فقال الأشعرى فإن قال الثالث يا رب لم أمتنى صغيرا ولم تبقنى إلى أن أكبر فأطيعك لأثاب فى الجنة فقال الجبائى يقول الرب تعالى إنى كنت أعلم منك أنك لو كبرت لعصيت فدخلت النار فكان الأصلح لك موتك صغيرا ، فقال الأشعرى : فان قال الثانى لم لم تمتنى صغيرا لئلا أعصى فأدخل النار فماذا يقول الرب فبهت الجبائى ، ويروي أنه قال للأشعرى أبك جنون ؟ فقال الأشعرى ولكن وقف حمار الشيخ فى العقبة فترك مذهبه واشتغل هو ومن معه بإبطال رأى المعتزلة وإثبات ماوردت به السنة ومضى عليه الجماعة فسموا أهل السنة والجماعة .

[تنبيهان : الأول] ذكر العلامة الزبيدى بعض أجوبة الماتريدية فى الرد على أهل الاعتزال المائل عن سمت الاعتدال من النقل والعقل . أما الأولى فقوله تعالى « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا » ولو لم يكن فى مقدوره ما لو فعل بهم لآمنوا لم تكن لهذه الآية فائدة ادعاء قدرة ومشيئة ليستا له كفعل المكلف الذى يتحلى بماليس فيه ، وقوله « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » ، ففي الآيتين دليل على بطلان القول بالأصلح إذ عندهم كل مايفعله تعالى عليه أن يفعل كذلك فى الحكمة وكل من فعل ما عليه فعله فانه لايوصف بالفضل والإفضال ، فمقتضى مذهبهم لايكون من الله تعالي تفضيل لبعض الرسل وهو خلاف النص . وبالسنة وهوقوله صلى الله عليه وسلم «ولو أراد الله تعالى بالنملة صلاحا ماأنبت لها جناحا » والحديث صحيح من رواية على رضى الله عنه ؛ وبالوجود فان الله تعالي فعل بالكافر ما لاصلاح له فيه بل له فيه مفسدة حيث أبقاه إلى وقت بلوغه وركب فيه العقل مع علمه بأنه لايؤمن بل يكفر ، ولا شك أن إماتته فى صغره وعدم تمييزه أصلح له ، إذ علم أنه يكفر عند بلوغه واعتدال عقله ، وكذا من عاش مدة على الإسلام ثم ارتد بعد ذلك فان بقاءه مع علمه بأنه يرتد ليس بمصلحة له وقد فعل ذلك ، ولو كان تعالى قبض روحه قبل ارتداده بساعة لكان أصلح له ، وكذا إبقاء الكافرين وإيلامهم ليزدادوا إثما : وبالاجماع فان المسلمين وأهل الأديان كلهم يطلبون المعونة من الله تعالى على الطاعات والعصمة عن السيئات وكشف مابهم من البليات وقد نطق النص بذلك ، ثم الحال لايخلو إن كان ماسألوا من المعونة والعصمة آتاهم الله تعالى أو لم يؤتهم . فان كان آتاهم فسؤالهم سفه وكفران للنعم ، إذ السؤال لما كان عند العقلاء لما لم يكن موجودا فيسئل كان الاشتغال بالسؤال إلحاقا لهذه النعمة الموجودة بالمعدوم ، وجل تعالي أن يأمر فى كتبه المنزلة على الأنبياء أن يشتغلوا بما هوسفه وكفران للنعمة ، وإن لم يؤتهم فلا يخلو إما أن يجوز له أن لايؤتيهم أو لايجوز ، فإن كان لا يجوز له أن يؤتيهم ، بل يجب عليه على وجه كان بمنعه ظالما وكان السؤال فى الحقيقة كأنهم قالوا اللهم لا تظلمنا بمنع حقنا المستحق عليك ولا تجر علينا ، ومن ظن أن الأنبياء والأولياء اشتغلوا بمثل هذا الدعاء فقد كفر من ساعته وإن كان يجوز أن لا يؤتيهم ذلك فقد بطل مذهبهم ، وبالمعقول ففيه تسفيه الله تعالى فى طلب شكر ما أدى إذ الشكر يكون على الإفضال دون قضاء

الحق وتناهى قدرة الله تعالى حيث لايقدر على أن يفعل بأحد أصلح مما فعل ولم يسبق فى مقدوره ولا فى خزائن رحمته أنفع لهم مما أعطاهم وإبطال منة الله تعالى على عباده بالهداية حيث فعل ما فعل على طريق قضاء حق واجب عليه ، ولا منة فى هذا فيكون الله تعالى بقوله « والله ذو الفضل العظيم » وبقوله « بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان » متصلفا ، إذ لافضل ولا منة فى قضاء مستحق عليه ، وبالله التوفيق .

[الثانى] ذكر العلامة الزبيدى أيضا معتقدين لأهل السنة والجماعة ، وهما مرتبان علي إبطال التحسين والتقبيح العقليين ، ونحن نذكرهما هنا لئلا يخلو كتابنا عن زوائد الفوائد فنقول : ومن معتقد أهل السنة والجماعة أن الصانع جل وعلا لا يفعل شيئا لغرض لأنه لو فعل لغرض لـكان ناقصا لذاته مستـكملا بغيره وهو محال . لا يقال الغرض تحصيل مصلحة العبد . لأنا نقول تحصيل مصلحة العبد وعدم تحصيلها إن استويا بالنسبة إليه لم يصلح أن يكون غرضا ذاتيا للفعل لامتناع الترجيح بلا مرجح ، وإن لم يستويا بأن يكون تحصيل المصلحة بالنسبة إليه أولى لزم الاستكمال بما هو أولى بالنسبة إليه ، وأيضا فقد ثبت أنه تعالى قادر على أن يفعل ذلك الغرض من غير واسطة فعل والعبث عليه محال إجماعا واتفق عليه أهل السنة والجماعة إلا ما نقله الفخر الرازى عن أكثرالفقهاء من ظاهر قولهم حيث يشترطون فى العلة الشرعية أن تـكون بمعنى الباعث للشارع على شرط الحـكم من جلب مصلحة ودفع مفسدة . والصواب أن ما يقع من الفقهاء من الغرض والتعليل كما يقع من المعتزلة فإن الذى يقع من الفقهاء فى الأحكام الشرعية العملية لما يقولون مثلا الحـكم بالقصاص إنما ورد من الشارع للزجر عن القتل وهذا هو الغرض منه ، فحيث يطلقون ذلك فليس قصدهم بذلك أنه مما يجب أن يكون كذلك عقلا ، وإنما يعتقدون أن ذلك كذلك بجعل الشارع وأن الشارع جعل على سبيل التـكرم والإحسان الأحكام مرتبطة إما بجلب مصالح العباد أو دفع مفاسدهم ، لا على جهة الوجوب العقلي ، واستقراء حملة الشرع ذلك من تتبع أحكام الشرع أعطتهم تلك القواعد الـكلية. وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى فى الفقه الأبسط : لايطلب الله لاحتياج من العباد شيئا إنما هم يطلبون منه الخير ، فأشار بقوله الأخير إلى أن تعليل الإيجاب بالمنفعة ودفع الضرر مبنى على كون أفعاله تعالى وأحكامه معللة بالأغراض ، وهو فاسد لاستلزام كونها علة لعلية الفاعلية والاحتياج إليها فى العلية ، والله الغنى عن العالمين ، والمحدث يقول : اتفق السلف الصالح على أنه تنزه عن ذلك ، وأما الصوفى فيقول : ترتيب المسببات عن أسبابها حكمة الأسماء الإلهية ، والمسببات وأسبابها مستوية بالنسبة إلى العلم والارادة والقدرة ضرورة إمكانها المقتضى لتعلقها بذلك فما يصلح أن يكون مسببا عن شئ ، فمن حيث الحـكمة الأسمائية حق وبهذا جاء الشرع ، ومن حيث الصفات المقتضيات للتـكوين فلا سبب ولا مسبب لوجود ظهور الـكل عن سبب الـكل فلم يبق السبب إلا من حيث ارتباط ظهور هذا عند ظهور هذا من حيث تعلق الأسماء بها على ما سبق به العلم ، وقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » مع قوله تعالى « والله خلقكم

وَلْنَرْجِعْ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ غَرَضِنَا .

وَأَمَّا الرِّزْقُ الْمَقْسُومُ : فَهُوَ مَا قَسَمَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَكَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مِمَّا يَأْكُلُهُ وَيَشْرَبُهُ وَيَلْبَسُهُ كُلُّ وَاحِدٍ

وما تعملون » يوضح لك المقصود فاعرفه . الثانى ومما اتفق عليه أهل السنة والجماعة أن الصانع جل وعز خلقنا بمقتضى رحمته وكلفنا بمقتضى حكمته ، وجعل من أطاع له الجنة بمقتضى فضله ، ومن أبى له النار بمقتضى عدله من غير أن يكون طاعة المطيع علة لاستحقاق ماله جعل ، وإباية من أبى علة أيضا لماله جعل ، بل علة الجميع تخصيص إرادته وحكمته ومشيئته فلم تكن الأعمال إلا علامة لأربابها الذين خلقت فيهم على ما يئول إليه أمرهم من سعادة أو ضدها ، وقد اتفق حملة الشرع على أن الاعتماد علي العمل شرك خفى ، ولو كانت الأعمال موجبة للثواب لكان الاعتماد عليها واجبا ؛ وفى الفقه الأبسط للامام أبى حنيفة رحمه الله : وحق الله عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، فإذا فعلوا ذلك فحقهم عليه أن يغفر لهم ويثيبهم عليه ، فأشار بالجملة الأخيرة إلى أن الأعمال لو كانت سببا موجبا للإثابة والعقاب لما تخلف واللازم باطل لثبوت العفو والمغفرة فى البعض كما فى التوبة اتفاقا وثبوت الهدم والإحباط عمن عاش على الكفر ثم آمن أو على الإيمان ثم كفر ، واشتراط الموت على ذلك للاستحقاق يبطل الاستحقاق أصلا لعدم الشرط عند تحقق العلة وانقضاء العلة عند تحققه كما فى شرح المقاصد ، والمحدث يتمسك بقوله صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وقوله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » والأحاديث فى ذلك كثيرة والصوفى يقول : من تحقق بعبودية نفسه على أن لا شىء له يوجب الحظوة عند سيده إلا بفضله وإلا لو كان شىء يوجب الحظوة غير الفضل لكان منازعا للسيد فى سيادته فافهم . والله المستعان (ولنرجع إلى المقصود من غرضنا) وهو بيان أقسام الرزق (وأما الرزق المقسوم ، فهو ما قسمه الله سبحانه) لعباده (و) ما (كتبه) لهم (فى اللوح) هو فى الهواء فوق السماء السابعة وهو معلق بالعرش كما قاله القرطبى (المحفوظ) وهو أم الكتاب ، ومنه تنسخ الكتب ، وسمى محفوظا لأنه حفظ من الشياطين ومن الزيادة والنقص ، وهو عن يمين العرش . وروى البغوى بإسناد الثعلبى عن ابن عباس قال : إن فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة . وقال : واللوح لوح من درة بيضاء طوله مابين السماء والأرض ، وعرضه مابين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدر والياقوت ؛ ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه من نور ، وكلامه سر معقود بالعرش ، وأصله فى حجر ملك ، وفى رواية كتابته نور معقود بالعرش (مما يأكله) العبد من الطعام (و) ما (يشربه) من الشراب (و) ما (يلبسه) من الثياب (كل واحد) من المأكول والمشروب والملبوس

بِمِقْدَارٍ مُقَدَّرٍ وَوَقْتٍ مُؤَقَّتٍ لاَ يَزِيدُ وَلاَ يَنْقُصُ وَلاَ يَتَقَدَّمُ وَلاَ يَتَأَخَّرُ عَمَّا كُتِبَ بِعَيْنِهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : « الرِّزْقُ مَقْسُومٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ لَيْسَ تَقْوَى تَقِيٍّ بِزَائِدِهِ وَلاَ فُجُورُ فَاجِرٍ بِنَاقِصِهِ .

(بمقدار مقدر) فى الكثرة والقلة (ووقت مؤقت لا يزيد) كل واحد مما ذكر عن مقداره ووقته (ولا ينقص) عما ذكر (ولا يتقدم ولا يتأخر) واحد مما ذكر (عما كتب) : أى قدر فى علم الله الأزلى (بعينه) ولهذا ينبغى للعبد أن يشتغل بالله تعالى بذكر وفكر ومراقبة ولا يهتم برزقه فإن الرزق مضمون يأتيه لا محالة حتى يظهر له ملك الموت فحينئذ ينقطع عنه رزق الدنيا ويدخل فى رزق الآخرة ، وإليه يشير كلام أكثر الشيوخ فى معنى التوكل ؛ فمن كانت مشاهدته فى القسم المعلوم سقط عنه جملة من الهموم واستراح العباد من أذاه وشغل عنهم بخدمه مولاه ، وعند هذا يصح ماقاله بعض العلماء ، وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه ، وأنه لو سأل الله تعالى أن لايرزقه لما استجاب له وكان فى سؤاله ذلك عاصيا ولقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ؟ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنه : اختلف الناس فى كل شىء إلا فى الرزق والأجل ، فانهم أجمعوا على أن لارازق ولا مميت إلا الله تعالى . وروى أحمد فى الزهد وابن أبى الدنيا عن سالم بن أبى الجعد . قال قال عيسى عليه السلام : اعملوا لله ولا تعملوا إلى بطونكم ، انظروا إلى هذا الطير يغدو ويروح لايحرث ولا يحصد ، الله تعالى يرزقها . فان قلتم نحن أعظم بطونا من الطير ، فانظروا إلى هذه الأباقر من الوحش والحمر تغدو وتروح لاتحرث ولاتحصد ، الله سبحانه يرزقها ، اتقوا فضول الدنيا فان فضول الدنيا عند الله رجز . وقال أبو يعقوب السوسى رحمه الله : المتوكلون تجرى أرزاقهم بعلم الله واختياره على يد خصوص عباده بلا شغل ولا تعب ، وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم من المولى ثم يفترقون في المشاهدات ، فمنهم من يأكل رزقه بذل ، ومنهم من يأكل رزقه بامتهان ، ومنهم من يأكل رزقه بانتظار ، ومنهم من يأكل رزقه بلا مهنة ولا انتظار ولا ذلة ، فأما الذين يأكلون أرزاقهم بالذل فالسؤال يشهدون بأيدى الخلق فيذلون لهم ، والذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجار ينتظر أحدهم نفاق سلعته فهو متعوب الخلق معذب بانتظاره ، والذين يأكلون أرزاقهم بامتهان فالصناع يأكل أحدهم رزقه بمهنته وكده ، والذين يأكلون أرزاقهم بعز بغير مهنة ولا انتظار ولا ذل فالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون قسمهم من يده بعزة ولا يرون الواسطة ، كذا نقله بعض المحققين عن القوت لأبى طالب المكي رحمه الله (كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : الرزق مقسوم مفروغ منه): أى من قسمته (ليس تقوى تقى) وعبادة عابد (بزائده) : أى الرزق على ماقسم له (ولا فجور فاجر) وكفر كافر (بناقصه) أى الرزق عن قسمته ، وهذا فى علم الله الأزلى الذى لايتغير ولا يتبدل .

قال سعيد بن جبير وقتادة فى قوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت » يعني يمحو الله مايشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت مايشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله . وقال ابن عباس : يمحو الله مايشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة ، ويدل على صحة هـذا التأويل ماروى عن حذيفة بن أسيد . قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملـكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى فيقضى ربك مايشاء فيكتب الملك ، ثم يقول يارب أجله فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك ، ثم يقول الملك يارب رزقه فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك الصحيفة فلا يزيد على أمر ولا ينقص » أخرجه مسلم . وروى الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدق « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه نطفة أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملـكا بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح ، فو الذى لاإله غيره إن أحـدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الـكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الـكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » . فإن قلت هـذا الحديث والذى قبله صريح بأن الآجال والأرزاق مقدرة ، وكذا السعادة والشقاوة لاتتغير عما قدره الله وعلمه فى الأزل فيستحيل زيادتها ونقصانها ، وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقيا أو الشقى سعيدا ، وقد صح فى فضل صلة الرحم أن صلة الرحم تزيد فى العمر ، فكيف الجمع بين هـذه الأحاديث وبين قوله تعالى « يمحو الله مايشاء ويثبت » . قلت قد تقرر بالدلائل القطعية أن الله عالم بالآجال والأرزاق وغيرها ، وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ماهو عليه ، فإذا علم الله أن زيدا يموت فى وقت معين استحال أن يموت قبله أو بعده، وهو قوله تعالى « فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » فدل ذلك على أن الآجال لاتزيد ولا تنقص . وأجاب العلماء عما ورد فى الحديث فى فضل صلة الرحم من أنها تزيد فى العمر بأجوبة الصحيح منها أن هذه الزيادة تـكون بالبركة فى عمره بالتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه فى الآخرة وصيانتها عن الضياع وغير ذلك . والجواب الثانى منها أنها بالنسبة إلى مايظهر للملائـكة فى اللوح المحفوظ أن عمر زيد مثلا ستون سنة إلا أن يصل رحمه ، فان وصلها زيد له أربعون سنة ، وقد علم الله فى الأزل ماسيقع من ذلك وهو معنى قوله تعالى « يمحو الله مايشاء ويثبت » : أى بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصور الزيادة . وأما انقلاب الشقي سعيدا والسعيد شقيا فيتصور فى الظاهر أيضا لأن الـكافر قد يسلم فينقلب من الشقاوة إلى السعادة، وكذا العاصى ونحوه، وقد يتوب فينقلب من الشقاوة إلى السعادة وقد يرتد المسلم والعياذ بالله تعالى فيموت على ردته فينقلب من السعادة إلى الشقاوة ، والأصل فى هذا الاعتبار بالخاتمة وما يختم الله به له، وهو المراد من علم الله الأزلى الذى لايتغير ولا يبدل ، والله أعلم . وأصل المحو إذهاب أثر الـكتابة وضده الإثبات ، فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها

وَأَمَّا المَمْلُوكُ : فَمَا يَمْلِكُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَمْوَالِ

فجعلها عامة فى كل شىء يقتضيه ظاهر اللفظ فيزيد الله ما يشاء فى الرزق والأجل ، وكذا القول فى السعادة والشقاوة والإيمان بالله والكفر، ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فانهما قالا: يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والأجل ويثبت مايشاء . وروى عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول « اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها وإن كنت كتبتنى من أهل الشقاوة فامحنى منها وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أم الكتاب» وروى مثله عن ابن مسعود ، وقد ورد فى بعض الآثار أن الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمد إلي ثلاثين سنة هكذا ذكره البغوى بغير سند ، وروى بسنده عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينزل الله تبارك وتعالى فى ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر فى الساعة الأولى منهن فى الكتاب الذى لاينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت » ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص فى بعض الأشياء دون بعض . فقال المراد بالمحو والإثبات نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر عوضا عن الحكم المتقدم ، وقيل إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بنى آدم وأقوالهم فيمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة مما ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قول القائل : أكلت شربت دخلت خرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب وهذا قول الضحاك . وقال الكلبى : يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه شىء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، وقال ابن عباس : هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو ، والذى يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت . وقال الحسن يمحو الله ما يشاء : يعنى من جاء أجله فيذهبه ويثبت من لم يجىء أجله . وقال سعيد بن جبير : يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء منها فلا يغفرها ؟ وقال عكرمة : يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات . وقال السدى . يمحو الله ما يشاء : يعنى القمر ويثبت الشمس وقال الربيع : هذا فى الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه وأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه ، وقيل إن الله يثبت فى أول كل سنة حكمها فإذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة ، وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة ، وقيل هو المحن والمصائب فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة ؛ وقيل إن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء لا اعتراض لأحد عليه ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

فإن قلت : مذهب أهل السنة أن المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن إلي يوم القيامة فكيف يستقيم مع هذا المحو والاثبات. قلت : المحو والاثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيئا ولا يثبت شيئا إلا ما سبق به علمه فى الأزل وعليه يترتب القضاء والقدر هكذا ذكره الخازن . قال المصنف رحمه الله تعالى (وأما) الرزق (المملوك فما يملكه كل واحد من أمواله

الدُّنْيَا عَلَى حَسَبِ مَاقَدَّرَ اللهُ تَعالى وَقَسَمَ لَهُ أَنْ يَمْلِكَهُ وَهُوَ مِنْ رِزْقِ اللهِ تَعَالَى، قالَ تَعالى : (أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) أَيْ مِمَّا مَلَّكْنَاكُمْ .

وَأَمَّا المَوْعُودُ : فَهُوَ مَا وَعَدَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ المُتَّقِينَ بِشَرْطِ التَّقْوَى حَلَالاً مِنْ غَيْرِ كَدٍّ ، قالَ اللهُ تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

الدنيا على حسب ماقدر الله تعالى و) ما (قسم له) أى لكل واحد (أن يملكه وهو) أى المملوك (من رزق الله تعالى . قال) الله (تعالى) «يا أيها الذين آمنوا (أنفقوا مما رزقناكم») قال المصنف (أى مما ملكناكم) قيل أراد به الزكاة الواجبة ، وقيل أراد به صدقة التطوع والإنفاق فى وجوه الخير (وأما) الرزق (الموعود فهو ماوعد الله به عباده المتقين بشرط التقوى حلالا من غير كد) أى تعب ومشقة (قال الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ») من كرب الدنيا والآخرة (ويرزقه من حيث لايحتسب) من وجه لايخطر بباله ولا يحتسبه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال : مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة . وقال صلى الله عليه وسلم « إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم : ومن يتق الله ، فما زال يقرؤها ويعيدها » كذا ذكره النسفى . وقال أكثر المفسرين : نزلت هذه الآية فى عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابنا له يسمى سالما فأتى عوف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكى إليه الفاقة ، وقال إن العدو أسر ابنى وجزعت الأم فما تأمرنى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتق الله فاصبر وآمرك وإياها أن تستكثرا من قول : لاحول ولا قوة إلا بالله » فعاد إلى بيته وقال لامرأته إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى وإياك أن نكثر من قول : لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فقالت نعم ماأمرنا به فجعلا يقولان فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها إلى المدينة وهى أربعة آلاف شاة فنزلت الآية وجعل النبى صلى الله عليه وسلم تلك الأغنام له . وروى الحسن عن عمران بن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها » وقال الزجاج : أى إذا اتقى وآثر الحلال والصبر على أهله فتح الله عليه إن كان ذا ضيق ورزقه من حيث لايحتسب . وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لايحتسب » والتوكل على الله لاينافى تعاطى الأسباب فترك تعاطيها اتكالا على الله خسة همة وعدم مروءة لأن فيه إبطال الحكمة التى أحكمها الله فى الدنيا من ترتيب المسببات على الأسباب كما ذكره الخطيب . فان قيل نرى كثيرا من الأتقياء مضيقا عليه فى الرزق . أجيب بأنه لايخلو عن رزق ، والآية لم تدل على أن المتقى يوسع له فى الرزق بل دلت على أنه يرزق من حيث لايحتسب

فَهٰذِهِ أَقْسَامُ الرِّزْقِ ، وَالتَّوَكُّلُ إِنَّمَا يَجِبُ بِإِزَاءِ الْمَضْمُونِ مِنْهَا، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ .

وَأَمَّا حَدُّ التَّوَكُّلِ : فَقَدْ قَالَ بَعْضُ شُيُوخِنَا إِنَّهُ اتِّكَالُ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ بِالْانْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالْإِيَاسِ عَمَّا دُونَهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : حِفْظُ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ بِمَوْضِعِ الْمَصْلَحَةِ بِتَرْكِ تَعْلِيقِهِ عَلَى شَيْءٍ دُونَهُ .

وَقَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : التَّوَكُّلُ تَرْكُ التَّعَلُّقِ ، وَالتَّعَلُّقُ ذِكْرُ قِوَامِ بِنْيَتِكَ عَنْ شَيْءٍ دُونَ اللهِ تَعَالَى .

قَالَ شَيْخِي الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ : التَّوَكُّلُ وَالتَّعَلُّقُ ذِكْرَانِ ، فَالتَّوَكُّلُ هُوَ ذِكْرُ قِوَامِ بِنْيَتِكَ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى، وَالتَّعَلُّقُ ذِكْرُ قِوَامِهَا عَمَّنْ دُونَ اللهِ، وَالْأَقَاوِيلُ عِنْدِي تَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ أَنْ تُوَطِّنَ قَلْبَكَ عَلَى أَنَّ قِوَامَ بِنْيَتِكَ وَسَدَّ خَلَّتِكَ

وهذا أمر مطرد فى الأتقياء كما قاله العلامة الكرخى (فهذه) أي الأقسام المذكورة (أقسام الرزق) وهى أربعة كما تقدم (والتوكل إنما يجب بإزاء) الرزق (المضمون منها) أى من تلك الأقسام (فاعلم ذلك) أى كون التوكل إنما يجب بازاء المضمون (وأما حد التوكل فقد قال بعض شيوخنا : إنه) أى التوكل (اتكال القلب إلى الله بالانقطاع إليه) تعالى (والإياس) أى القنوط (عما دونه) أى غيره من الخلق ، فالحجة فى هذا القول قصة إبراهيم عليه السلام قال له جبريل : ألك حاجة وهو مربوط فى كفة المنجنيق بين السماء والأرض يهوى إلي نار وقد تأججت ؟ فقال أما إليك فلا . قال جبريل فسل من لك إليه حاجة فقال أحب الأمرين إلى أحبهما إليه . هكذا ذكره أحمد ، فكأنه جعل التوكل التفويض والرضا بجريان الأحكام من غير مسئلة ولا اعتراض، وهذا لعمرى هو حال المتوكلين (وقال بعضهم) إنه (حفظ القلب إلى الله بموضع المصلحة) وذلك (بترك تعليقه) أى القلب (على شئ دونه) أى غيره تعالى (وقال الشيخ الإمام أبو عمر رحمه الله تعالى) قيل أراد به أبا عمرو محمدبن إبراهيم الزجاجى النيسابورى جاور بمكة سنين كثيرة ومات بها صحب الجنيد وأباعثمان والنورى والخواص ورويما، مات سنة ثمان وأربعين وثلثمائة (التوكل ترك التعلق) أى تعلق القلب (والتعلق ذكرقوام بنيتك عن شيء دون الله تعالى. قال شيخى الإمام) أبو بكر الوراق (رحمه الله التوكل والتعلق ذكران) فى القلب (فالتوكل هوذكر قوام بنيتك من قبل) بكسر القاف وفتح الباء (الله تعالى،والتعلق ذكر قوامها) أى البنية (عمن دون الله) قال المصنف رحمه الله تعالى (والأقاويل) المذكورة (عندى ترجع إلى أصل واحد.، وهو) أى الأصل الواحد (أن توطن) أى تقرر وتمهد (قلبك على أن قوام بنيتك وسد خلتك) الخلة الحاجة

وَكِفَايَتكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لاَ بِأَحَدٍ دُونَ اللهِ ، وَلاَ بِحُطَامٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلاَ بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ ، ثُمَّ اللهُ سُبْحَانَهُ إِنْ شَاءَ سَبَّبَ لَهُ مَخْلُوقًا أَوْ حُطَامًا ، وَإِنْ شَاءَ كَفَاهُ بِقُدْرَتِهِ دُونَ الأَسْبَابِ وَالْوَسَائِطِ ، وَإِذَا ذَكَرْتَ ذٰلِكَ بِقَلْبِكَ وَتَوَطَّنْتَ عَلَيْهِ وَانْقَطَعَ القَلْبُ عَنِ المَخْلُوقِينَ وَالأَسْبَابِ بِمَرَّةٍ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ ، فَقَدْ حَصَّلَ التَّوَكُّلَ حَقَّهُ ، فَهٰذَا حَدُّهُ .

والفقر والخصاصة ، كذا فى سراج السالكين (وكفايتك إنما هو) أى ماذكر من قوام البنية وسد الخلة (من الله عز وجل لا بأحد دون الله ولا بحطام من الدنيا) حطام الدنيا مافيها من مال قليل أو كثير (ولا بسبب من الأسباب ؛ ثم الله سبحانه إن شاء سبب) أى جعل السبب (له) أى للعبد المتوكل (مخلوقا أو حطاما) من الدنيا (وإن شاء كفاه) أى العبد (بقدرته) تعالى (دون الأسباب والوسائط) وذلك كما وقع لأبى الحسين النورى رحمه الله أنه جاع فى البادية فهتف هاتف أيما أحب إليك سبب أو كفاية ؟ فقال الكفاية فليس فوقها نهاية فبقى سبعة عشر يوما لم يأكل هكذا ذكره القشيرى (وإذا ذكرت ذلك) أى إن قوام البنية وسد الخلة إنما هو من الله دون غيره (بقلبك وتوطنت عليه) أى على ذكر ذلك (وانقطع القلب عن) الاعتماد على (المخلوقين والأسباب بمرة) بل كان اعتماد القلب وتوجهه وذكره (إلى الله سبحانه وحده) دون غيره (فقد حصل التوكل حقه فهذا) أي الذى ذكرناه من أن الأقاويل ترجع إلى أصل واحد (حده) أى التوكل ، وللشيوخ فى التوكل أقاويل سوى ماذكره المصنف فلابأس أن نورد ماقاله الشيوخ ولاسيما فى بعض ماقالوه فى حقيقة التوكل ، وفى بعضه إشارة إلى أعلى مقاماته ومعرفة ذلك مهمة ، فنقول : قال أبو طالب المكى صاحب القوت : قال بعض العارفين لما سئل عن حقيقة التوكل ؟ هو الفرار من التوكل : أى يتوكل ولا ينظر إلى توكله أنه لأجله يكفى أويعافى أويوفى فجعل نظره إلى توكله علة فى توكله يلزمه الفرار منها حتى يدوم نظره إلى الوكيل وحده بلا خلل ويقوم له بشهادة منه بلا ملل ، ولا يكون بينه وبين الوكيل شئ ينظر إليه أو يعول عليه أويدل به حتى التوكيل أيضا الذى هو طريقه . وقد عبرت طائفة من أهل المعرفة عن هذا المعنى بعبارات ، فقال أبو تراب النخشبى : التوكل طرح البدن فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية . وقال الزقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد . وقال غيره : التوكل هو الخمود تحت الموارد ، وكان بعض أشياخنا إذا سئل عن التوكل أجاب عنه بعين الحقيقة : فيقول : هو أن تكون مع الحق كما لم تكن فان الحق الآن كما لم يزل . وقال الجريرى : التوكل معاينة الاضطرار : أى يكون بضاعته عند مولاه الإفلاس وحاله فى الأعمال الإياس . وقال سهل : التوكل هو التبرى من الحول والقوة . وقال غيره هو عدم الاهتمام بما قد كفى كما لايهتم الصحيح بالدواء إذا عوفى . وكان الحسن يقول :

التوكل هو الرضا وهو إشارة إلى أعظم ثمراته ، وقيل هو تسليم الأقدار كلها للقادر واعتقاد أن جميعها قضاؤه وقدره ، وهو إشارة إلى القدر المفروض منه . وقال ابن عطاء : ليس التوكل لزوم الكسب ولا تركه إنما التوكل طمأنينة فى القلب إلى النار ، وكذلك قال أبو عبد الله القرشى فى التوكل : إنما هو اطمأن إلى الله سرا وجهرا ورضى به كفيلا ونحوه . قال رويم إنما التوكل الثقة بالله فى كل ماضمن فى حال . وقال أبو موسى الدبيلى : التوكل هو أن يستوى عندك البادية وباب الطاق . وقال غيره : التوكل استيلاء الوجد على إشارة وحذف التشرف إلى الإرفاق ، يعنى يغلب وجده إشارته بقول أوهمة فيشغله عن التفرغ إلى غيره . وقيل التوكل هو الكف عن الأغيار فى السر والعلانية والسكون إلى الخلق بلاواسطة . وقال سهل : التوكل هو التقوى ، واحتج بقوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » فإن المعنى اعبدوه بالتوكل . وقال مرة : هو إظهار الفقر والفاقة إليه . ووافقه فى ذلك أبو بكر محمد بن موسى الواسطى فقال : التوكل هو قصد الفاقة والافتقار . وقال النهرجورى : التوكل نسيان حظوظ النفوس . وقال الخواص: التوكل الاكتفاء بعلم الله فيك من تعلق القلب بسواه ، وقال يحي بن معاذ : من حقيقة التوكل ترك العبد محابه لمحاب الله واختياره لاختيار الله وتدبيره لتدبير الله بالغناء عن نفسه وبالنظر إلى مجارى الأحكام والقدر ، وهذا إشارة إلى المقام الثالث وهو أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل لايفارقه فى حال إلا أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت يمينا وشمالا ، وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات وأن كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه وهذا بعينه مفاد قول سهل رحمه الله . قال القشيرى قال سهل بن عبد الله : أول مقام فى التوكل أن يكون العبد بين يدى الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد لايكون له حركة ولا تدبير . وقال صاحب القوت وقد كان سهل يقول: تلقى نفسك فى اللج وتحت جريان الحكم ، وقال مرة: تكون بين يديه مثل الميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء : وأنشدت لبعضهم :

ولما رأيت القضاء جاريا لاشك فيه ولا مرية
توكلت حقا على خالق وألقيت نفسى مع الجرية

وقال يحى بن معاذ : التوكل على ثلاث درجات ترك الشكاية والرضا والمحبة، فترك الشكاية أن لايشكو ربه ، والرضا أن يرضى بما قسم له ، والمحبة أن تكون محبته فى قضاء الله تعالى ، فأولها للصالحين ، والثانية للأولياء ، والثالثة للأبدال ، وهذا إشارة إلي درجات البداية . وأما توكل النبيين والصديقين فهو أن لايركن القلب إلي سبب ولا مخلوق ولاينظر إلى مادون الله نظرة وهو من عزائم التوكل . قال صاحب القوت وأخبرنى بعض الأشياخ عن أبى على الروذبارى أنه قال : التوكل على ثلاث درجات : الأولى منها إذا أعطى شكر وإذا منع صبر . والثانية المنع والعطاء عنده واحد، والثالثة المنع مع الشكر أحب إليه من اختياره . وقال غيره : التوكل على ثلاث درجات:

أولاها الصبر عند البلاء ، وأوسطها الشكر عند شهود البلاء ، وآخرها الرضا بمجارى الأقدار والأحكام ، هذا ماذكره العلامة الزبيدى من كتاب قوت القلوب مع الاختصار. وقد ذكر القشيرى فى الرسالة بعض ماهو فى القوت فلنذكر مالم يذكره صاحب القوت . قال حمدون القصار : التوكل هو الاعتصام بالله ، وقد أشار بذلك إلى عموم التوكل فى المقامات الثلاث ، وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلا ؟ قال : إذا رضى بالله وكيلا . وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل فقال : أن لايظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها ، وذكر القشيرى قول أبى تراب النخشبى السابق إلا أنه زاد بعد قوله بالربوبية : والطمأنينة إلى الكفاية ، فان أعطى شكر وإن منع صبر. وقال ذوالنون : التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع عن الحول والقوة ، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ماهو فيه . وقال سهل : التوكل الاسترسال مع الله على مايريد، وهذا إشارة إلى مقام التسليم وفيه ترك الاختيار . وقال غيره: التوكل أن يستوى عندك الإكثار والتقلل ، وهذا إشارة إلى مقام من مقامات التوكل . وقال ابن مسروق : التوكل الاستسلام لجريان القضاء والأحكام وهذا إشارة إلى مقام التفويض وفيه ترك الاختيار وهو المقام الثالث . وقال أبو عثمان الحيرى : التوكل الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه وهذا إشارة إلى المقام الثانى . وسئل الزقاق عن التوكل؟ فقال هو الأكل بلا طمع وهذا إشارة إلى إحدى أماراته . وقيل : التوكل نفى الشكوك والتفويض إلى ملك الملوك، أراد بنفى الشكوك قوة اليقين وأطلق التوكل على التفويض وهو أعلى منه لأنه من ثمراته كما أن اليقين من أصوله ففيه إشارة إلى الأصل والثمرة . وقيل التوكل الثقة بما فى يد الله تعالى واليأس عما فى أيدى الناس ، وهذا إشارة إلى سبب التوكل الذى هو الاعتماد على الله لاعلى نفسه ، وقيل التوكل فراغ السر عن التفكر فى التقاضى فى طلب الرزق وهذا إشارة إلى ثمرة من ثمرات التوكل لانفسه فإن من توكل على الله ولم يلتفت إلى غيره من الأسباب استراح قلبه من هم الاكتساب وإن أمر بالاكتساب .

﴿ تنبيه ﴾ تقدم أن التوكل مع شرفه منخفض الرتبة عن التسليم والتفويض ، وهل التفويض أعلى مقاما أو التسليم ؟ فمنهم من قال التفويض أعلى ، ومنهم من قال التسليم أعلي ، وعلي كل حال فالواجب علي العبد لجهله أن يستخير الرب تعالى لعلمه وكمال قدرته ، فما للعبد العاجز الجاهل إلا الذل والاذعان وترك الاختيار ، إذ لو فرضنا أن الله تعالى صب علي عباده بلاء عريا عن المصلحة لكان يجب على العبد التسليم والإذعان لأنه أحكم الحاكمين ، فقد قال صاحب القوت : اعلم أن العلماء بالله لم يتكلموا عليه لأجل أن يحفظ لهم دنياهم ولا لأجل تبليغهم رضاهم ومرادهم ولا ليشترطوا عليه حسن القضاء بما يحبون ولا ليبدل لهم جريان أحكامه عما يكرهون ولا ليغير لهم سابق مشيئته إلى مايعقلون ولا ليحول عنهم مامضى من سنته التى قد خلت فى عباده من الابتلاء والامتحان والاختبار إلى مايعملون هو أجل في قلوبهم من ذلك وهم أعقل عنه وأعرف به من هذا لو اعتقد عارف بالله تعالى أحد هذه المعانى مع الله فى توكله

وَأَمَّا حِصْنُ التَّوَكُّلِ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ ، فَهُوَ ذِكْرُ ضَمَانِ اللهِ ،

لكان كبيرة توجب عليه التوبة وكان توكله معصية وكان مافات عليه من حقيقة التوحيد أشد عليه مما أدرك من توهم التوكل ، وإنما أخذوا نفوسهم بالصبر علي أحكامه كيف جرت وطالبوا قلوبهم بالرضا عنه بأى معنى جرى انتهى. فان قال قائل إن كانت الإرادة قد خصصت الأشياء ووضعها فى مراتبها والقدرة توجب ذلك بالضرورة فى الوقت المقدر ، إذ من المحال أن تخصص الإرادة شيئا ولا توجده القدرة على وفاق التخصيص فما فائدة التوكل ، وقد قال تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه» فالجواب عن هذا كالجواب فى مسئلة الدعاء ، فكما أن الدعاء عبادة فى نفسه فكذلك التوكل عبادة تعبدنا الله تعالى بها ، وهو والدعاء من جملة الأسباب التى رتب عليها مسبباتها ، ولذلك قال الله تعالى « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم » ومعلوم أن الله تعالى مولى المؤمنين والكافرين إلا أن للمؤمنين ولاية خاصة سوى الولاية العامة بسبب توكلهم علي مولاهم ؛ وكما أن الدعاء إذا وافق المشيئة حصل المدعو به بعينه وإن لم يوافق المشيئة عوض عن المدعو المطلوب أضعافا فكذلك المتوكل يتوكل على الله فى جميع أموره والرب تعالى يجرى عليه أحكامه التى سبقت بها مشيئته، فان وافقت غرض المتوكل فهو الزبد بالشهد وإن خالفت غرضه عوضه الله تعالى على توكله أضعاف ذلك، ومن هنا قالوا إن التسليم أفضل درجات التوكل لابتنائه على أعز أنواع العلم والحكمة كذا حققه الزبيدى . ثم شرع المصنف فى بيان حصن التوكل وحصن حصنه ، فقال رحمه الله تعالى (وأما حصن التوكل الباعث عليه) أى الحامل على التوكل (فهو ذكر ضمان الله) للرزق الذى تدوم به حياة العبد وهو الرزق الطالب ، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن جل جلاله واطمأن الى ضمانه وسكن إليه قلبه فإن الذى أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق ، بل مداخل الرزق لاتحصى ومجاريه لايهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وهى من عالم الملك ، وسببه فى السماء وهى من عالم الملكوت . قال الله تعالى « وفى السماء رزقكم وما توعدون » . وأسرار السماء لايطلع علي تفاصيلها لأنها من عالم الملكوت . وذكر الشيخ ابن عطاء الله فى كتاب [التنوير] لهذه الآية فوائد ماملخصها: أي ياهذا المطلع للرزق من المخلوق الضعيف العاجز في الأرض ليس رزقك عنده إنما رزقك عندى وأنا الملك القادر ، ولأجل هذا لما سمع بعض الأعراب هذه الآية نحر ناقته وخرج فارا إلى الله تعالي وهو يقول : سبحان الله رزقي فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض . فانظر كيف فهم عن الله أن مراده بهذه الآية أن يرفع هم عباده إليه وأن تكون رغبتهم فما لديه كما قال فى الآية الأخرى « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» لتنحاش الهمم إلى بابه وتجنح القلوب إلى جنابه، فكن سماويا علويا ولا تكن سفليا أرضيا ولذلك قال بعضهم :

أبعد نفوذى فى علوم الحقائق ... وبعد انبساط فى مواهب خالقى
وفى حين إشرافى على ملكوته ... أرى باسطا كفا إلى غير رازقى

وَحِصْنُ حِصْنِهِ ذِكْرُ جَلَالِ اللهِ وَكَمَالِهِ فِى عِلْمِهِ وَرِزْقِهِ وَقُدْرَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ عَنِ الْخُلْفِ وَالسَّهْوِ وَالْعَجْزِ وَالنَّقْصِ، فَإِذَا وَاظَبَ الْعَبْدُ عَلَى هٰذِهِ الْأَذْكَارِ بَعَثَهُ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فِى أَمْرِ الرِّزْقِ .

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَلْزَمُ الْعَبْدَ طَلَبُ الرِّزْقِ بِحَالٍ مَّا؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّزْقَ الْمَضْمُونَ الَّذِى هُوَ الْغِذَاءُ

وكيف تقر له بالربوبية يوم «ألست بربكم» وتعرفه وتوحده وتجهله ههنا وقد تواتر عليك إحسانه وغمرك فضله وامتنانه كما قيل :

في القلب لكم منزلة علياء لاتسكنها سعدى ولا لمياء
في الذر عرفتكم فهل يجمل بي أن أنكركم ولحيتي شمطاء

فهذه الآية هي التي غسلت الشكوك من قلوب المؤمنين وأشرقت في قلوبهم أنوار اليقين . وقد تضمنت ذكر الرزق ومحله والتشبيه له بأمر لاخفاء فيه. وفيها فوائد : [الأولى] لما علم سبحانه كثرة اضطراب النفوس في شأن الرزق كرر رزقه كما تكررت ورود عوارضه على القلوب كما تكرر الحجة . إذا علمت أن الشبه مستمكنة في نفس الخصم ليكون ذلك أوكد في الحجة فذكر في هذه الآية محل الرزق وبينه لتسكن إليه القلوب ، وليس الضمان مع إبهام المحل كالضمان مع تبيينه فهذا أبلغ في ثقة النفس به وأقوى في دفع الشك فيه . [الثانية] يحتمل أنه أراد إثبات رزقكم أي إثباته من اللوح المحفوظ ، ففيه إعلام لهم أن الشيء الذي منه رزقكم أثبتناه عندنا في كتابنا وقضيناه بمشيئتنا من قبل وجودكم فلأيّ شيء تضطربون ومالكم إليّ لاتسكنون وبوعدي لاتثقون ؟ ويحتمل أنه أراد بالرزق الماء . وقال ابن عباس : هو المطر فيكون الشيء الذي منه أصل رزقكم ولأن الماء في أصله رزق . [الثالثة] يمكن أن يكون مراد الحق بهذه الآية تعجيز العباد عن دعوى القدرة على الأسباب ، لأن الله تعالى لو أمسك الماء على الأرض لتعطل كل ذي سبب ، فكأنه يقول ليست أسبابكم هي الرازقة لكم ، ولكن أنا الرازق لكم ، وبيدي تيسير أسبابكم لأني أنا المنزل لكم مابه كانت أسبابكم . [الرابعة] في اقتران الرزق بالأمر فائدة جليلة، وذلك أن المؤمنين علموا أن ماوعدهم الحق لابد من كونه ولا قدرة لهم على تعجيله ولا تأجيله ، ولا حيلة لهم في جلبه ، فكأنه تعالى يقول كما لاشك عندكم أن عندنا ماتوعدون كذلك لايكن عندكم شك في أن عندنا ماترزقون ، وكما أنكم عن استعجال ماوعدنا قبل وقته عاجزون كذلك أنتم عاجزون عن أن تستعجلوا رزقا أجلته ربوبيتنا ووقتته إلهيتنا (وحصن حصنه) أي التوكل (ذكر جلال الله وكماله في علمه وقدرته ونزاهته عن الخلف) اسم من الإخلاف (والسهو والعجز والنقص ، فاذا واظب العبد على هذه الأذكار) أي أذكار ضمان الله وجلاله وكماله ، وغير ذلك (بعثته) أي حملته هذه الأذكار (على التوكل على الله سبحانه في أمر الرزق . فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما ، فاعلم) أرشدك الله (أن الرزق المضمون الذي هو الغذاء

وَالقِوَامُ لَا يُمْكِنُنَا طَلَبُهُ إِذْ هُوَ شَيْءٌ مِنْ فِعْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ كَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَلَا دَفْعِهِ .

وَأَمَّا الْمَقْسُومُ مِنَ الْأَسْبَابِ فَلَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ طَلَبُهُ ، إِذْ لَا حَاجَةَ لِلْعَبْدِ إِلَى ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا حَاجَتُهُ إِلَى الْمَضْمُونِ ، وَهُوَ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَفِي ضَمَانِ اللهِ تَعَالَى .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ) فَالْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ وَالثَّوَابُ ، وَقِيلَ : بَلْ هُوَ رُخْصَةٌ إِذْ هُوَ أَمْرٌ وَارِدٌ بَعْدَ الْحَظْرِ فَيَكُونُ بِمَعْنَى الْإِبَاحَةِ ،

والقوام) أى مايقيم البنية (لايمكننا طلبه) أى المضمون (إذ هو) أى هذا المضمون (شىء من فعل الله سبحانه للعبد ، كالحياة والموت لايقدر العبد على تحصيله ولا دفعه) أى ذلك المضمون (وأما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه) أى المقسوم (إذ لاحاجة للعبد إلى ذلك) الطلب (وإنما حاجته) أى العبد (إلى المضمون ، وهو) أى المضمون (من الله تعالى وفى ضمان الله تعالى) فحينئذ عليك بالقناعة بالنزر اليسير مما هو فى يديك ، والرضا بالقوت المتيسر فانه سيأتيك لامحالة وإن فررت منه ؛ ولذلك قال علىّ كرم الله وجهه : الرزق رزقان : رزق يطلبك ، ورزق تطلبه . وفسره بعض العلماء ، فقال : الرزق الذى يطلبك هو رزق الغذاء ، والرزق الذى تطلبه رزق التملك ، وهو طلب فضول القوت ، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدى من لاتحتسب ، فان اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب » إلا أنه تعالى لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة وغيرها من فضول الأقوات ، فما ضمن إلا الرزق الذى تدوم به حياته ، وهو الرزق الطالب كما تقدم (وأما قوله تعالى) « ياأيها الذين آمنوا إذا نوى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » (وابتغوا من فضل الله) اطلبوا من رزق الله إن شئتم ، فهذه رخصة بعد النهى ، ولهاوجه آخريقول «فإذا قضيت الصلاة» : إذافرغ الإمام من صلاة الجمعة «فانتشروا فى الأرض» فتفرقوا فى المسجد ، وابتغوا من فضل الله اطلبوا ماهو أفضل لكم : يعنى علم السر والتوحيد والزهد والتوكل كذا ذكره أبو طاهر فى تنوير المقباس. وفى الحديث «وابتغوا من فضل الله» ليس بطلب الدنيا وإنما هو عيادة وحضور جنازة وزيارة أخ فى الله ؛ وقيل وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم ، وإلى هذين الوجهين أشار المصنف بقوله (فالمراد به) أى بالفضل (العلم والثواب ، وقيل بل هو) أي الأمر بقوله تعالى «وابتغوا من فضل الله» (رخصة إذ هو) أى هذا الأمر (أمر وارد بعد الحظر) أى المنع ، وهو قوله «وذروا البيع» (فيكون) الأمر (بمعنى الإباحة) قال ابن عباس: إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد ، وإن شئت فصل إلى العصر. وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى

لَا بِمَعْنَى الْإِيجَابِ وَالْإِلْزَامِ .

فَإِنْ قِيلَ : لَـكِنْ لِهَذَا الرِّزْقِ الْمَضْمُونِ أَسْبَابٌ ، هَلْ يَلْزَمُنَا طَلَبُ الْأَسْبَابِ ؟

قِيلَ لَهُ : لَا يَلْزَمُكَ ذَلِكَ ، إِذْ لَا حَاجَةَ لِلْعَبْدِ إِلَيْهِ ، إِذِ اللهُ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ ، فَمِنْ أَيْنَ يَلْزَمُنَا طَلَبُ السَّبَبِ ؟

الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، وقال : اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتنى فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين (لا بمعنى الإيجاب والإلزام) وأما قولهم إن ما كان ممنوعا منه إذا جاز وجب كقطع اليد فى السرقة . فيجاب بأنها قاعدة أكثرية لا كلية بدليل سجودى السهو والتلاوة فى الصلاة كما صرح به شيخ الاسلام زكريا الأنصارى (فإن قيل : لكن لهذا الرزق المضمون أسباب هل يلزمنا طلب الأسباب) أم لا ؟ (قيل له) أى للقائل المذكور (لا يلزمك ذلك) أى طلب الأسباب (إذ لا حاجة للعبد إليه) أى الطلب (إذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب ؟) ولذلك قال أبو يعقوب السوسى : المتوكل إذا رأى السبب أو ذم أو مدح فهو مدع لا يصح له التوكل ، ولهذا قال الخواص . التوكل هو الاكتفاء بعلم الله فيك من تعلق القلب بسواه . قال عامر بن عبد الله : قرأت ثلاث آيات من كتاب الله استغنيت بهن على ماأنا فيه ، فاستغنيت بقوله تعالى « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله » . قلت إن أراد أن يضرني لم يقدر أحد أن ينفعنى ، وإن أعطانى لم يقدر أحد أن يمنعنى ، وقوله سبحانه « فاذكرونى أذكركم » فاستغنيت بذكره عن ذكر من سواه ، وقوله تعالى « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فوالله ماهممت برزقى منذ قرأتها فاسترحت . والحاصل أن حال المتوكل سكون القلب عن الاشتراك وقطع الهم عن التطلع لما بأيدى الناس وعكوف القلب على المدبر الحق مشغول الفكر بقدرة المقدر لا يحمله عدم الأسباب على ماحذره العلم عليه وذمه ، ولا يمنعه أن يقول الحق وأن يعمل به أو يوالى فى الله ويعادى فيه جريان الأسباب على أيدى الخلق فيترك الحق حياء منهم أوطمعا فيهم أوخشية قطع المنافع المعتادة ولا يدخله طوارق الحاجات ونوازل الضرورات فى الانحطاط فى أهواء الناس والميل إلى الباطل أو فى السكوت عن حق أن يلزمه أو يوالى عدوّا أو يعادى وليا ليرى بذلك حاله عندهم أو يشكر بذلك ما أسدوه إليه بالكف عنهم ولا يرى الصنعة التى قد عرف بها لقوة نظره إلى الصانع ولا يتصنع لمصنوع دخيلة لعلمه بسبق الصنع لدوام مشاهدته ولا يسكن إلى عادة عن خلق ولا يثق بمعتاد من مخلوق ، فهذه المعانى من فرض التوكل .

﴿فائدة﴾ لا يضر التصرف والتكسب ممن صح توكله ولا يقدح فى مقامه ولا ينقص حاله إذا أحكم فيه معنيين : النظر إلى الوكيل فى أول الحركة فيكون متحركا به ، والرضا فى الحكم بعد التصرف فيكون مطمئنا إليه ، وقد كان الصانع بيده أحب إليهم من التاجر والتاجر أحب إليهم من البطال ،

فإن كان حال المتوكل التصرف فيما قد وجه فيه دخل فى الأسباب وهو ناظر إلى المسبب فى تصريفه معتمد عليه واثق به فى حركته مكتسب فيما يقلبه فيه مولاه متيقن فيما يسببه له ويوجهه فيه وكيله ، وهو عالم بأن الله تعالى قد أودع الأشياء منافع خلقه وجعلها خزائن حكمته ومفاتيح رزقه مجتمع الخلق بجانبه غير متشتت بتفرق همه ، متبع للسنة والأثر تارك للترفه والنعمة ، فهو فى تكسبه وتصرفه أفضل ممن دخلت عليه العلل فى توكله فساكنها وسكن إلى سكون نفسه فى بطالتها وفراغها من هم الآخرة طلبا لراحتها ، ومن دخلت عليه الآفة فى ترك التكسب فليخرج منها إلى الاحتراف ، ومن دخل عليه اليقين واقتطع فليقعد عن الاكتساب ، ومن اعتل بالتكسب فليداو بتركه ، ومن صح فيه وأوجبه الحكم فليكتسب والتكسب خير من التشوّف إلى الخلق ومن الطمع فيهم ، واعتياد المسألة وسالكه على طريقه فهو يصل وإن كان فى طريقه بعد ، والتوكل إذا اعتد به واقتطع عن أربه ناظرا إلى الوكيل منتظرا للوارد متفرغا للفوائد أفضل إذا صح فى ذلك وصدقت حاله واستقام عليه فهو طريق قريب وسالكه مقرب . قال السرى رحمه الله : فى قوله تعالى « واجعلنا للمتقين إماما » إن المتقى لا يكون رزقه من كسبه لأن الله تعالى يقول « ويرزقه من حيث لا يحتسب » فكأنه يقول اجعلنا إماما للمتوكلين الذين أرزاقهم لا من أكسابهم بل من حيث لا يحتسبون ، وهؤلاء هم أهل الصفوة والصفاء الصوفيون الذين توكلوا على الله لله بالله لا فى الأرزاق ولا فى العالم يد عليهم من الإرفاق كما قال قائلهم : الدنيا فانية والآخرة باقية والأرزاق مفروغ منها فعلى ماذا أتوكل عليه أن لا يعدنى من قربه . وقال بعضهم : الاعتماد على الخلق هو الخذلان ومن اعتمد بسوى ربه فى توكله خاب سعيه . وقال إبراهيم الخواص : أكثر الخلق تعلقوا بالأسباب فاذا صحت المعرفة لله بالقلب سكن القلب إلى ما فى الغيب أشد من سكونه إلى ما فى اليد من الأسباب الظاهرة ، لأن ما فى يد العبد لا يدرى ما يحدث الله فيه وماله عند الله هو الباقى يأتى به على أوقاته ، فاذا كان القلب قويا عند زوال الدنيا وإدبارها متبرما بما فى اليد منها صح التوكل وإذا ضعفت المرآة فى القلب ركن القلب إلى الأسباب وخاف من زوالها قبل أن تزول ، فان زال منها شئ لحق القلب الجزع والتغير من خوف الفقر . قال بعض المحققين في قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » أى ما أريد أن يرزقوا خلقي « إن الله هو الرزاق » : أى إنه لا يطالبهم أن يرزقوا نفوسهم إذا خدموه فذكر الله فى هذه الآية الوجوه الثلاثة من تصرف العبيد التى أباحها للموالى ، ثم اختار لنفسه أحدها وهو الخدمة وعليه الكفاية ، واختار من العبد أحدها فجعلها عديدة وتنزه عن أحدها وتعالى عنه وهو الإطعام من العبيد له وصرف عموم العبيد فى الوجه الثالث من الاطعام لأنفسهم وهو التكسب وضرب هذا مثلا بينه وبين خلقه فى الأرض « وله المثل الأعلى فى السموات والأرض » فبقي العبد من الله بحكمين : [أحدهما] مع اختياره لنفسه من العبادة ، وهى المعاملة وعليه الرزق كيف شاء ومتى شاء وهؤلاء عبيد الرحمن لا عبيد الدنيا . [والثانى] ما صرف العبيد من التكسب لأنفسهم جعل ذلك رزقا منهم لهم بجوارحهم ومدحهم على هذا الوصف ، وهؤلاء عموم العبيد منهم عبيد الدنيا وعبيد

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى ضَمِنَ لَكَ ضَمَاناً مُطْلَقاً مِنْ غَيْرِ شَرْطِ الطَّلَبِ وَالْكَسْبِ ، قالَ اللهُ تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) ثُمَّ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَأْمُرَ الْعَبْدَ بِطَلَبِ مَالاَ يَعْرِفُ مَكَانَهُ فَيَطْلُبُهُ ، إِذْ لاَ يَعْرِفُ أَىُّ سَبَبٍ مِنْهَا رِزْقُهُ الَّذِى يَتَنَاوَلُهُ لاَغَيْرُ ، وَالَّذِى يَصِيرُ سَبَبَ غِذَائِهِ وَتَرْبِيَتِهِ لاَ غَيْرُ ، فَالْوَاحِدُ مِنَّا لاَيَعْرِفُ ذٰلِكَ السَّبَبَ بِعَيْنِهِ مِنْ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ فَلاَ يَصِحُّ تَكْلِيفُهُ ، فَتَأَمَّلْ رَاشِداً ، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ .

ثُمَّ حَسْبُكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَالْأَوْلِيَاءَ الْمُتَوَكِّلِينَ لَمْ يَطْلُبُوا رِزْقاً فِى الْأَكْثَرِ وَالْأَعَمِّ وَتَجَرَّدُوا لِلْعِبَادَةِ ، وَبِالْإِجْمَاعِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا تَارِكِينَ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَلاَ عَاصِينَ لَهُ تَعَالَى فِى ذٰلِكَ ، فَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ وَأَسْبَابِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ لاَزِمٍ لِلْعَبْدِ .

الهوى وبقى الموالى مع العبيد على الأحكام الثلاثة التى أباحها لهم وضرب بها المثل بينها وبينهم إن هم اختاروه كان ذلك لهم (ثم إن الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب قال الله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ثم كيف يصح أن يأمر) الله تعالى (العبد بطلب ما) أى من الرزق (لايعرف إمكانه فيطلبه ، إذ لايعرف) أى العبد (أى سبب منها) أى من الأسباب (رزقه الذى يتناوله) أى الرزق (لاغير) أى غير الرزق الذى يتناوله ويحصله (و) لايعرف أى (الذى يصير سبب غذائه وتربيته) أى العبد (لاغير) أى غير الذى ذكر (فالواحد منا لايعرف ذلك السبب بعينه من أين يحصل) أى السبب (له) أى للواحد (فلا يصح تكليفه) أى الواحد لطلب السبب (فتأمل) أى تفكر هذا الذى ذكرناه من الجواب بقولنا قيل له (راشدا) أى إصابة للصواب (فانه) أى الذى ذكرناه (بين) أى واضح (ثم حسبك) أى كفاك (أن الأنبياء صلوات الله) وسلامه (عليهم) أجمعين (و) أن (الأولياء المتوكلين) على ربهم (لم يطلبوا رزقا فى الأكثر والأعم وتجردوا للعبادة ، وبالإجماع إنهم) أى الأنبياء والأولياء (لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى ولا عاصين له تعالى فى ذلك) أى أمره تعالى (فتبين) أى ظهر (لك) بهذا الذى ذكرناه من أنهم تجردوا لعبادة مولاهم (أن طلب الرزق وأسبابه ليس) أى ذلك الطلب (بأمر لازم للعبد) ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية ، فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب الخفى لا إلى السبب. فإن قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب أهو حرام أومباح أو مندوب؟.

فإنْ قُلْتَ : هَلْ يَزِيدُ الرِّزْقُ بِالطَّلَبِ وَهَلْ يَنقُصُ بِتَرْكِ الطَّلَبِ ؟ قُلْتُ : كَلَّا ، فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِى اللَّوْحِ المَحْفُوظِ مُقَدَّرٌ وَمُؤَقَّتٌ وَلاَ تَبْدِيلَ لِحُكْمِ اللهِ وَلاَ تَغْيِيرَ لِقِسْمَتِهِ وَكِتَابِهِ . هٰذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ، خِلَافُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِ حَاتِمٍ وَشَقِيقٍ

فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأنه لايبعد أن يأتيه الرزق من حيث لايحتسب ؛ ولكن قد يتأخر عنه والصبر ممكن إلى أن يتفق وصوله ، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لاطريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام ، لأنه تسبب لإهلاك النفس نظرا لظاهر الشرع ، وكان هذا لعموم المتوكلين ، وإلا فقد نقل صاحب القوت عن بعضهم قال : قلت لبعض السلف لو أن عبدا دخل بيتا وطين عليه بابا ولا يعلم به أحد أكان رزقه يأتيه ؟ فقال نعم . فقلت ومن أين يأتيه ؟ فقال من حيث يأتيه ملك الموت انتهى . وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة من ذكر وقراءة ومراقبة وغيرها من أنواعها فالكسب والخروج إلى الناس ومعاملتهم أولى له ، ولكن ليس فعله ذلك حراما إلى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال إن لم يمكنه الكسب والكسب إن كان مطيقا له ، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ، ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى مع كمال الحال وغلبة الأنس واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من جملة التوكل ، كما قاله المصنف فى غير هذا الكتاب (فإن قلت هل يزيد الرزق بالطلب) أم لا ؟ (وهل ينقص) الرزق (بترك الطلب) أملا ؟ (قلت كلا) كلمة ردع وزجر عن القول بزيادة الرزق بالطلب ونقصانه بتركه (فإنه) أى الرزق (مكتوب فى اللوح المحفوظ مقدر ومؤقت ، ولا تبديل لحكم الله ولا تغيير لقسمته) تعالى (وكتابته) أى لذلك الرزق (هذا) أى المذكور من الجواب (هو الصحيح عند علمائنا) معاشر الصوفية (رضى الله عنهم) حال كونه (خلاف ماذهب إليه بعض أصحاب حاتم) بن علوان الأصم ، وقد تقدمت ترجمته (و) أصحاب (شقيق) هو أبو على شقيق بن إبراهيم البلخى من مشايخ خراسان له لسان فى التوكل ، وكان أستاذ حاتم الأصم . قيل كان سبب توبته أنه كان من أبناء الأغنياء خرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث فدخل بيتا للأصنام فرأى خادما للأصنام فيه حلق رأسه ولحيته ولبس ثيابا أرجوانية ، فقال شقيق للخادم إن لك صانعا حيا عالما قادرا فاعبده ، ولا تعبد هذه الأصنام التى لاتضر ولا تنفع ، فقال : إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك فلم تعنيت إلى ها هنا للتجارة ، فانتبه شقيق وأخذ فى طريق الزهد . وقيل كان سبب زهده أنه رأى مملوكا يلعب ويمرح فى زمان قحط وكان الناس مهتمين به ، فقال شقيق ماهذا النشاط الذى فيك أما ترى مافيه الناس من الجدب والقحط ؟ فقال ذلك المملوك وما على من ذلك ولمولاى

قالُوا : إنّ الرِّزْقَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ بِفِعْلِ العَبْدِ ، لٰكِنِ المَالُ يَزِيدُ وَيَنقُصُ ، وَهٰذَا
فاسِدٌ لِأَنَّ الدَّلِيلَ فى المَوْضِعَيْنِ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الْـكِتَابَةُ وَالْقِسْمَةُ ، وَ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تعَالَى:
(لِـكَيْلَا تَأْسَوْا)

قرية خالصة يدخل له منها مانحتاج نحن إليه ؟ فانتبه شقيق وقال : إن كان لمولاه قرية ومولاه مخلوق فقير ثم إنه ليس يهتم لرزقه فـكيف ينبغى أن يهتم المسلم لرزقه ومولاه غنى . قال القشيرى: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى رحمه الله يقول : سمعت أبا الحسين بن أحمد العطار البلخى يقول : سمعت أحمد بن البخارى يقول : قال حاتم الأصم : كان شقيق بن إبراهيم موسرا ، وكان يتفتى ويعاشر الفتيان ، وكان على بن عيسى بن ماهان أمير بلخ وكان يحب كلاب الصيد فقد كلبا من كلابه فسعى برجل أنه عنده ، وكان الرجل فى جوار شقيق فطلب الرجل فهرب ، فدخل دار شقيق مستجيرا فمضى شقيق إلى الأمير وقال : خلوا سبيله فان الـكلب عندى أرده إليـكم إلى ثلاثة أيام فخلوا سبيله وانصرف شقيق مهتما لما صنع ، فلما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقاء شقيق غائبا من بلخ رجع إليها فوجد فى الطريق كلبا عليه قلادة فأخذه وقال أهديه إلى شقيق فانه يشتغل بالتفتي فحمله إليه فنظر شقيق فاذا هو كلب الأمير فسر به وحمله إلي الأمير وتخلص من الضمان فرزقه الانتباه وتاب مما كان فيه وسلك طريق الزهد .

وحكى أن حاتما الأصم قال : كنا مع شقيق فى مصاف نحارب الترك فى يوم لاترى فيه إلا رءوس تندر ورماح تنقصف وسيوف تنقطع ، فقال لي شقيق كيف ترى نفسك ياحاتم فى هذا اليوم؟ تراه مثل ما كنت فى الليلة التى زفت إليك امرأتك ؟ فقلت لا والله قال لـكنى والله أرى نفسى فى هذا اليوم مثل ما كنت تلك الليلة ثم نام بين الصفين ودرقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه .
ومن كلام شقيق رحمه الله : إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر إلى ماوعده الله ووعده الناس فبأيهما يكون قلبه أوثق . ومن كلامه أيضا : تعرف تقوى الرجل فى ثلاثة أشياء : فى أخذه ومنعه وكلامه هكذا ذكره القشيرى فى الرسالة (قالوا) أى بعض أصحاب حاتم وشقيق (إن الرزق لايزيد ولا ينقص بفعل العبد لـكن المال يزيد وينقص) بذلك قال المصنف (وهذا) القول الذى ذكروه (فاسد ، لأن الدليل فى الموضعين) أى من القولين المذكورين (واحد وهو الـكتابة) فى اللوح المحفوظ (والقسمة) التي لاتتغير (وإليه) أى إلى هذا الدليل (الإشارة بقوله تعالى) « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » (لـكيلا) كى ناصبة للفعل بمعنى أن : أى أخبر تعالى بأنه فرغ من التقدير . وفى الخطيب لـكيلا : أى أعلمناكم بأنا قد فرغنا من التقدير فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير ، فلا الحزن يدفعه ولا السرور يجلبه ويجمعه (تأسوا) تحزنوا فعل مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل، وأصله تأسيون تحركت الياء وانفتح ماقبلها فقلبت ألفاً فصارت تأساون فالتقى

عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) وَلَوْ كَانَ بِالطَّلَبِ يَزِيدُ وَبِالتَّرْكِ يَنْقُصُ، لَكَانَ لِلْأَسَى وَالْفَرَحِ مَوْضِعٌ إِذَا هُوَ قَصَّرَ وَتَوَانَى، حَتَّى فَاتَهُ وَجَدَّ وَشَمَّرَ حَتَّى حَصَّلَهُ ، وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم لِلسَّائِلِ : « هَاكَ لَوْلَمْ تَأْتِهَا لَأَتَتْكَ » .

ساكنان الألف والواو التى هى الفاعل فحذفت الألف لالتقاء الساكنين فصار وزنه تفعون لأن لامه التى هى الياء المنقلبة ألفا قد حذفت والمصدر أسى فهو مقصور ، فيقال أسى أسى مثل جوى جوى . فقول بعض النحاة عند الاستشهاد بهذه الآية فى باب النواصب والتقدير لأجل عدم إساءتكم فيه نظر لما علمت من أن مصدر هذا الفعل أسى لا إساءة . وفى المصباح وأسى أسى من باب تعب حزن فهو أسى على فعيل مثل حزين . وفى المختار وأسى على مصيبته من باب عدا أى حزن ، وأسى له : أى حزن له (على ما فاتكم) من نعم الدنيا لأنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم كما ذكره القرطبى (ولا تفرحوا) فرح بطر ، بل فرح شكر على النعمة (بما آتاكم) أى بما أعطاكم الله من النعم : أى ولا بما فاتكم من المصائب لأنه لم يقدر لكم ولو قدر لحصل ، فان من علم أن الكل مقدر هان عليه الأمر ، وفى الحديث « من علم سر الله فى القدر هانت عليه المصائب » . قال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً . قال صاحب الكشاف : إن قلت ما من أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح . قلت المراد الحزن المخرج إلى مايذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر ، فأما الحزن الذى لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما والله أعلم . وقال جعفر بن محمد الصادق : يا ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يرده إليك الفوت ؟ ومالك تفرح بموجود لا يتركه فى يديك الموت ؟ (ولو كان) الرزق (بالطلب يزيد وبالترك ينقص لكان للأسى) أي الحزن (والفرح موضع إذا هو) أى العبد (قصر وتوانى) أى تأخر فى الطلب (حتى فاته) الرزق (و) إذا هو (جد) أى اجتهد (وشمر) أي جد فى طلبه فهو مرادف لما قبله (حتى حصله) أى الرزق (وقال صلى الله عليه وسلم للسائل) الذى ناوله التمرة (هاك) ها اسم فعل بمعنى خذ ، ويجوز مد ألفها ويستعملان بكاف الخطاب وبدونها (لو لم تأتها) أى هذه التمرة (لأتتك) أى تلك التمرة . قال العراقى : رواه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ، ووصله الطبرانى عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح .

﴿ مهمة ﴾ قال الخواص : الذى قيد أن يسرح فى الأرض حيث شاء فله تصديقه بمجىء الأرزاق إليه حيث كان وضعف علمه بأن الله معه فى كل مكان ، وأن الله تعالى يضيق حيث يشاء ويوسع حيث يشاء ، ويؤمن حيث يشاء ، ويخيف حيث يشاء ، فمن كان ناظراً إلى الله تعالى فما يفتح له أسباب الرزق معتمداً عليه فى استخراجه كان البر والبحر والحضر عليه سواء ، لأن من

فَإِنْ قِيلَ : فالثّوابُ وَالْعِقَابُ أَيضاً مَكْتُوبٌ فى اللّوْحِ المَحْفُوظِ ، ثُمّ يَلزَمُنَا طَلَبُ الثّوَابِ وَتَرْكُ مُوجِبِ الْعِقَابِ ، فَهَلْ يَزِيدُ بِالطَّلَبِ أَوْ يَنْقُصُ بِالتَّرْكِ ؟ .

فاعْلَمْ : أَنّ طَلَبَ الثّوَابِ إِنَّمَا وَجَبَ لِأَنّ اللهَ أَمَرَ بِهِ أَمْرًا حَتْماً ، وَأَوْعَدَ عَلَى تَرْكِهِ وَلَمْ يَضْمَنِ الثّوَابَ عَلَى غَيْرِ فِعْلٍ مِنَّا ، وَزِيَادَةُ الثّوَابِ وَالْعِقَابِ بِفِعْلِ الْعَبْدِ ؛ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فى نُكْتَةٍ ، وَهِيَ مَا قالَهُ بَعْضُ عُلَمَائِنا: إِنَّ المَكْتُوبَ فى اللّوْحِ قِسْمَانِ: قِسْمٌ مَكْتُوبٌ مُطْلَقاً مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَتَعْلِيقٍ بِفِعْلِ الْعَبْدِ ، وَهُوَ الْأَرْزَاقُ وَالآجالُ ، أَمَا تَرَى كَيْفَ ذَكَرَهُمَا اللهُ تَعَالَى مُطْلَقاً غَيْرَ مَشْرُوطٍ ، قالَ اللهُ تَعَالَى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فى الْأَرْضِ إِلاّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) وَقالَ تَعَالَى : (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

تولى الله كفايته فى الحضر تولى كفايته فى السفر ، ومن كان معتمدا على تكلفه وحيلته لم يتهيأ له أن يفارق العمران ، ولو أن عبدا مع مولاه فى السفر لكان قلبه قد سكن إليه أن يطعمه حيث سافر معه ؛ وهكذا من علم أن الله سبحانه معه لم يحتج أن يحمل زادا ولا إداوة ، ويصحح ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم للسائل وقد أعطاه تمرة : « لولم تأتها لأتتك » دلالة على ترك الحركة وتوبيخاً له فى حركته بعد حجة الضمان لمجيء الأرزاق لوقتها ونهيا له عن السعى إلا ما وقع التصديق بمجيئه لوقته . قال صاحب القوت : وهذا طريق الأقوياء الصابرين وليس هذا طريق الضعفاء المريدين ، إذ لا يقاس الضعيف الجزوع بالقوى الصبور . وكان منهم إبراهيم الخواص وأبو تراب النخشبي وذو النون المصرى وحاتم الأصم وعلي الرازى فان هؤلاء خصوص المتوكلين وما جرى لهم من الوقائع يدل على أحوالهم (فان قيل فالثواب والعقاب أيضاً) أى كالرزق (مكتوب) مقدر (فى اللوح المحفوظ ثم يلزمنا طلب الثواب) بفعل الطاعة (وترك موجب العقاب) بترك المعصية (فهل يزيد) كل من الثواب والعقاب (بالطلب أو ينقص) أى كل منهما (بالترك) أى ترك الطلب (فاعلم أن طلب الثواب إنما وجب لأن الله أمر به) أى بالطلب (أمرا حتما) أى واجبا (وأوعد) تعالى بالعقاب (على تركه) أى الطلب (ولم يضمن الثواب على غير فعل منا وزيادة الثواب والعقاب بفعل العبد والفرق بينهما) أى الرزق والثواب (فى نكتة) لطيفة (وهي) أى تلك النكتة (ما قاله بعض علمائنا إن المكتوب فى اللوح) المحفوظ (قسمان) أحدهما (قسم مكتوب مطلقا من غير شرط وتعليق بفعل العبد وهو) أى المكتوب مطلقا (الأرزاق والآجال ، أما ترى كيف ذكرهما) أى الأرزاق والآجال (الله تعالى مطلقا غير مشروط) بالطلب والكسب (قال الله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » وقال تعالى) « ولكل أمة أجل (فاذا جاء أجلهم) يعنى فإذا حل وقت عذابهم . الأجل : الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة ، ثم فى هذا الأجل

لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ») وَقالَ صَاحِبُ الشَّرْعِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: «أَرْبَعَةٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُنَّ: الْخَلْقُ، وَالْخُلُقُ وَالرِّزْقُ، وَالْأَجَلُ» وَقِسْمٌ مَكْتُوبٌ بِشَرْطٍ مُعَلَّقٍ مَشْرُوطٌ بِفِعْلِ الْعَبْدِ وَهُوَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، أَمَا تَرَى كَيْفَ ذَكَرَهُمَا اللهُ تَعَالَى فِى كِتَابِهِ مُعَلَّقاً بِفِعْلِ الْعَبْدِ قالَ تَعَالَى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) وَهذَا بَيِّنٌ فَاعْلَمْهُ .

المذكور فى الآية قولان : أحدهما أنه أجل العذاب ، والمعنى أن لكل أمة كذبت رسلها وقتاً معينا وأجلا مسمى أمهلهم الله إلى ذلك الوقت فإذا جاء (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون») يعنى فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة ، وإنما ذكرت الساعة لأنها أقل أسماء الأوقات فى العرف ، وهذا حين سألوا نزول العذاب فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتاً إذا جاء ذلك الوقت وهو وقت إهلاكهم واستئصالهم فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون . والقول الثانى أن المراد بهذا الأجل هو أجل الحياة والعمر ، فاذا انقضى ذلك الأجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة ، وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير ، وإنما قال الله تعالى «لكل أمة» لتقارب أعمار أهل كل عصر فكأنهم كالواحد فى مقدار العمر ، وعلى هذا القول أيضا يكون المقتول ميتاً بأجله خلافاً لمن يقول القاتل قطع عليه أجله ، ولله درّ اللقانى حيث يقول :

وميت بعمره من يقتل   وغير هذا باطل لا يقبل

(وقال صاحب الشرع) نبينا (عليه) الصلاة و(السلام : أربعة قد فرغ) بالبناء للمفعول : أى فرغ الله (منهن : الخلق) بفتح الخاء المعجمة وسكون اللام آخره قاف : أي الخلقة والهيئة والشكل (والخلق) بضمهما كذلك : أى الطبيعة والسجية (والرزق) أى قليلا أو كثيرا حلالا أو حراما من أى جهة هو ونحو ذلك وهو مايتناول لإقامة البدن أوانتفاعه ولو حراما خلافا للمعتزلة (والأجل) أى طويلا أو قصيرا ، وهو مدة الحياة (و) ثانيهما (قسم مكتوب بشرط معلق مشروط بفعل العبد ، وهو) أى المكتوب معلقا بذلك (الثواب والعقاب ، أما ترى كيف ذكرهما) أى الثواب والعقاب (الله تعالى فى كتابه) العزيز (معلقا بفعل العبد . قال تعالي : ولو أن أهل الكتاب) أى اليهود والنصارى (آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به (واتقوا) ما عددنا من معاصيهم ونحوه (لكفرنا عنهم سيئاتهم) يعنى لمحونا عنهم ذنوبهم التى فعلوها ولم نؤاخذهم بها (ولأدخلناهم جنات النعيم) مع المسلمين يوم القيامة ، وفيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم ، وأن الإسلام يجب ما قبله وإن جل ، وأن الكتابى لايدخل الجنة ما لم يسلم كما فى البيضاوى (وهذا) أى المذكور من الجواب بقوله فاعلم (بين) ظاهر (فاعلمه)

فَإِنْ قِيلَ : فَنَحْنُ نَجِدُ الطَّالِبِينَ يَجِدُونَ الْأَرْزَاقَ وَالْأَمْوَالَ وَالتارِكِينَ يَعْدِمُونَ وَيَفْتَقِرُونَ ؟.

قِيلَ لَهُ : كَأَنَّكَ لاَ تَجِدُ مَعَ ذٰلِكَ طَالِباً مَحْرُوماً فَقِيرًا وَتَارِكاً فَارِغاً مَرْزُوقاً غَنِيًّا بَلَى إِنَّ هٰذَا هُوَ الْأَكْثَرُ ، لِتَعْلَمَ أَنَّ هٰذَا هُوَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَتَدْبِيرُ الْمَلِكِ الْحَكِيمِ ، وَأَنْشَدَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ سَابِقٍ الْوَاعِظُ الصَّقَلِّي بِالشَّامِ رَحِمَهُ اللهُ :

كَمْ مِنْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِى تَقَلُّبِهِ ... مُهَذَّبِ الرَّأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرِفُ
وَكَمْ ضَعِيفٍ ضَعِيفٍ فِى تَقَلُّبِهِ ... كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ

أى المذكور راشدا موافقا للصواب ، والله المستعان (فان قيل فنحن نجد الطالبين) للمعاش (يجدون الأرزاق والأموال و) نجد (التاركين) للطلب (يعدمون ويفتقرون . قيل له) أى للقائل المذكور (كأنك لا تجد مع ذلك) أى الذى قلته وسألته من قولك فنحن نجد الطالبين إلى آخره (طالبا) للرزق (محروما) أى محجوباً وممنوعا عنه (فقيرا ، و) كأنك لا تجد مع سؤالك المذكور (تاركا) للطلب (فارغا) عن الكسب (مرزوقا غنيا بلي) تجد الفريقين كذلك ، وبلى حرف جواب وتختص بالنفى وتفيد إبطاله سواء كان مجردا أم مقرونا بالاستفهام ، بخلاف نعم فانه تصديق للخبر بنفي أو إيجاب (إن هذا) أى المذكور من الطالب المحروم والفارغ المرزوق (هو الأكثر لتعلم أن ذلك) أى أمر الرزق (هو تقدير العزيز) أي الغالب بقدرته على كل شئ مقدور : من قولهم : عز إذا غلب ، وقيل القوى الشديد من قولهم عز إذا قوى واشتد ، وقيل عديم المثل فيكون من أسماء التنزيه ، وقيل هو من يتعذر الإحاطة بوصفه ويعسر الوصول إليه (العليم) بناء مبالغة من العلم : أى العالم بجميع المخلوقات وهو من صفات الذات (وتدبير الملك) بكسر اللام: أى ذى الملك، وقيل الذى يستغنى فى ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود، وقيل من ملك نفوس العابدين فأقلقها ، وملك قلوب العارفين فأحرقها. وقيل من إذاشاء ملك وإذاشاء أهلك (الحكيم) أى ذى الحكمة المحكم الأشياء على ماهى عليه والإتيان بالأفعال على ما ينبغى ، فالحكمة بمعنى الإحكام كما فى العزيزى (وأنشد) الإنشاد : قراءة الشعر (أبو بكر محمد بن سابق الواعظ الصقلى) نسبة إلى جزيرة صقلية فى بحر الروم (بالشام رحمه الله) من بحر البسيط (كم من قوى قوى فى تقلبه) أى تردده (مهذب) أى مطهر (الرأى عنه) أى عن هذا القوى (الرزق منحرف) أى منصرف (وكم) من (ضعيف ضعيف فى تقلبه * كأنه) أى الضعيف فى سهولة الرزق وكثرته (من خليج البحر) أى شط البحر (يغترف) أى هذا الضعيف

هٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِلٰهَ لَهُ فِى الْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ

فَإِنْ قُلْتَ : هَلْ تَدْخُلُ الْبَادِيَةَ بِلَا زَادٍ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنْ كَانَ لَكَ قُوَّةُ قَلْبٍ بِاللهِ تَعَالَى وَالثِّقَةِ الْبَالِغَةِ بِوَعْدِ اللهِ فَادْخُلْ

(هـذا) أى انحراف الرزق عن القوى وسهولته على الضعيف (دليل) ظاهر يدل (على أن الإله له) جل وعز (فى الخلق سر خفى) عن البشر (ليس) ذلك السر (ينكشف) عنهم ، ولهـذا قال المصنف وغيره : من نظر بعين التأمل إلى مجارى سـنة الله تعالى التى خلت فى عباده علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ، فكم من ذكى محروم ، وكم من غبى مجدود ، ولذلك سأل بعض ملوك الفرس حكيما من حكمائهم عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم عن الرزق ماالسر فيه ؟ فقال الحكيم : أراد الصانع جل جلاله أن يدل بذلك على نفسه أنه الواحد الأحد الرازق ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن لا رازق غيره ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم . قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهائم

والحاصل أن من كان ذا معلوم من حرفة أو معتاد من الفئ لم يصح توكله مع سكونه إليه وطمأنينته به لأن ذلك علة فى حاله وحيرة لتوكله ، وقد يصح التوكل مع ذلك بثلاث معان : أن لا يعوض منه عوضاً يقوم مقام السبب الواصل إليه ، وأن يقطع همه عنه وعن جميع الخلق ، وأن يكون منقطعاً إلى الله تعالى مشغولا بخدمته لا بطالا مروحا لنفسه (فان قلت هل تدخل فى البادية بلا زاد) لأصحح توكلى أم لا تدخل ؟ (فاعلم أنه) أى الحال والشأن (إن كان لك قوة قلب بالله تعالى) بأن ترى أن الأفعال كلها لله تعالى فانه المحرك لك ، والمسكن لك (والثقة البالغة) أى الكاملة (بوعد الله) وضمانه (فادخل) فى البادية على قدم التوكل ، لكن هذا ليس شرطاً فى صحة التوكل بل استصحاب الزاد فى البوادى سنة الأولين من السلف الصالحين ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى ، لا على الزاد ، ولكن فعل ذلك : أى ترك استصحاب الزاد فى الأسفار جائز ؛ وهو من أعلى مقامات التوكل ، كما روى أن أبا سعيد أحمد بن عيسى الخراز رحمه الله تعالى ، وكان من المتوكلين قال : كنت فى البادية على قدم التوكل فنالنى جوع شديد بعد مضى عشرة أيام فغلبتنى نفسى أن أسال الله طعاما يرزقنيه فآكله فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فان مقتضى هذا المقام تغليب علمه تعالى بحال العبد وعدم المبادرة إلى السؤال فانه سوء أدب فطالبتنى أن أسأل الله صبرا على الجوع ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفاً يهتف بى ويقول :

ويزعم أنه منا قريب ونحن لا نضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهدا كأنا لا نراه ولا يرانا

فلما سمع ذلك سكن قلبه عن الاضطراب والقلق ، فقد فهمت من هذا أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله إياه فى سائر أحواله وشئونه كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله عز وجل فى حسن وفائه وصدق ضمانه فان أسوأ حاله أن يموت ، ولا بد أن يأتيه الموت وإن طال كما يأتى من ليس مطمئنا .فإذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب ، والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التى دبرها بلطيف حكمته صادق فى وعده وضمانه فاقنع ليصح توكلك ، وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التى لم تكن فى ظنك ، ولم تخطر فى حسابك ، ولا تكن فى توكلك منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب فلا ينبغى أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط توكل من يخوض البوادى بلا زاد يحمله ، وكذا من يقعد فى الأمصار وهو خامل الذكر . وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع فى اليوم والليلة بالطعام المتيسر مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ والأنواع المختلفة وثوب خشن من مستعمل ثياب بلده مما يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب على الدوام من غير انقطاع بل يأتيه أضعافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق أقوى من دخول الأمصار فى حق الخامل مع الاكتساب . فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين أولى الصلاح المتين ، وهو بالعلماء بالله وأحكامه أقبح لأن شرطهم القناعة ، وهذا الاهتمام يضادها وقبيح بذوى الإيمان أن ينزلوا حاجتهم بغير الله تعالى مع علمهم بوحدانيته وانفراده بربوبيته وهم يسمعون قوله تعالى «أليس الله بكاف عبده» وذلك من العلماء أقبح ، فرفع الهمة عن الخلق وعدم الاهتمام بالرزق هو ميزان العلماء وسبار الرجال ، وكما توزن الذوات توزن الأحوال والصفات «وأقيموا الوزن بالقسط» فيظهر الصادق بصدقه والمدعى بكذبه ، وقد ابتلى الله تعالى بحكمته العلماء الذين ليسوا بقانعين ولا فى وصفهم صادقين بإظهار ما كتموا من الحرص والشره والرغبة وأسروا فى أنفسهم من الشهوة فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا مباسطين لهم ملائمين موافقين لهم على مآربهم مدفوعين على أبوابهم ، فلقد وسمهم الحق سمة كشف بها عوارهم أولئك هم الكاذبون على الله الصادون للعباد عن صحبة أوليائه ، فهم حجب أهل التحقيق وسحب شموس أهل التوفيق ، ضربوا طبولهم ونشروا أعلامهم ولبسوا دروعهم ، فإذا وقعت الحملة ولوا على أعقابهم ناكصين . وأما العالم القانع فيأتيه رزقه بل ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد ذلك العالم القانع أن لا يأخذ رزقه من أيدى الناس ، ولا يأكل إلا من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل فقط ، ولم يكن له سير بالباطن بالتهذيب والرياضة ، فان الاشتغال بالكسب يمنع من السير بالفكر الباطن إلا أن يكون قويا ممن لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فاشتغاله بالسلوك الباطن حينئذ مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل ، وهذا هو المقصود الأعظم من التوكل بل ومن سائر مقامات الدين ، وفيه أيضا إعانة للمعطى على نيل الثواب وما به تقرب فائدتان إحداهما أفضل من واحدة ، ومن ذلك

وَإِلَّا فَكُنْ مَعَ الْعَوَامِّ بِعَلَائِقِهِمْ .
وَلَقَدْ سَمِعْتُ الْإِمَامَ أَبَا الْمَعَالِي رَحِمَهُ اللهُ

فى الخبر « أوحى الله إلى موسى أنى أجعل أرزاق أوليائى على أيدى العاصين ليؤجروا فيهم » فعلم هذا للمتوكلين ، ومعرفة هذه الحكمة لمن أوصل إليهم قسمهم من المؤملين مقام للجمع فى المعرفة واليقين فهو مال للمعطي الموصل وطريق للآخذ المتوكل كما فى الخبر «ماالمعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا» فسبحان مطرق الطرقات ومسبب الوصولات إلى الآخرة بزلف القربات .

فان قلت إن الدخول فى البادية بغير خفير ولا قافلة ولا زاد سبب للهلاك وقد قال الله تعالى «ولا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة » فكيف يصح توكله وكيف يكون ذلك مباحا ؟ . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه فى الحضر وجاهدها وسواها وعودها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشويش خاطر وتعذر فى ذكر الله تعالى بأن لاتسقط قوته فى القيام فى صلاته . والثانى قوة الحال وغلبة الأنس ، وهو أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة التي لاتعد قوتا فى الجملة ؛ فبعد هذين الشرطين لايخلو فى غالب الأمر فى البوادى فى كل أسبوع عن أن يلقاه آدمى أو ينتهى إلى محلة أو قرية أو إلى حشيش يجتزى به فيحيا به مجاهدا نفسه صابرا على الجوع والعطش ، والمجاهدة عماد التوكل وأساسه (وإلا) أى إن لم تكن لك قوة قلب بالله والثقة الكاملة بوعد الله كأن لاتطيق الصبر على الجوع مدة ويضطرب عليك قلبك وتتشوش عبادتك (فكن مع العوام) أى عوام الناس (بعلائقهم) ولم يجز لك ترك الزاد ، ولذلك روى أن أبا تراب النخشبى نظر إلى صوفى مد يده إلى قشر بطيخ مرمى فى الطريق ليأكله بعد ثلاثة أيام لم يأكل فيها شيئا ؛ فقال له لايصلح لك التصرف الزم السوق : أي لاتصوف إلا مع التوكل ، ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام ؛ يعنى أن حاله ذلك يدل على عدم كمال شغله بالله وعدم صبره وشدة ميله إلى الطعام ، ومن هذه صفته بقاؤه مع سبب وانتقاله شيئا فشيئا عن عبادته أولى من خروجه عما بيده جملة كما أفاده الزبيدي ؛ وكذلك قال أبو على الروذبارى : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب نقله القشيرى فى الرسالة (ولقد سمعت الإمام أبا المعالى رحمه الله) هو ضياء الدين إمام الحرمين عبد الملك ابن الشيخ أبى محمد عبد الله بن أبى يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجوينى نسبة إلى جوين ، وهى ناحية كبيرة من نواحى نيسابور من أعمال خراسان ، العراقي الشافعى . ولد رحمه الله تعالى فى ثامن عشر من المحرم عام تسع عشرة وأربعمائة وجاور بمكة والمدينة أربع سنين يفتى ويدرس ويجمع طرق الشافعى ، ومن ثم لقب بإمام الحرمين ، ثم عاد إلى نيسابور فبنى

يَقُولُ : إِنَّ مَنْ جَرَى مَعَ اللهِ تَعَالَى عَلَى عَادَةِ النَّاسِ جَرَى اللهُ مَعَهُ عَلَى مَا هُوَ عَادَةُ النَّاسِ فِى كِفَايَةِ المُؤْنَةِ ، وَهٰذَا كَلَامٌ حَسَنٌ جِدًّا ، وَفِيهِ فَوَائِدُ جَمَّةٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا .
فَإِنْ قُلْتَ : أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)
فَاعْلَمْ أَنَّ فِيهِ

له الوزير نظام الدين المدرسة النظامية بنيسابور ، فخطب بها وجلس للوعظ والمناظرة واستعد للتدريس فيها واستقامة أمور الطلبة ، وبقى على ذلك قريبا من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع ، مسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس الذكر يوم الجمعة والمناظرة ، واتفق له من المواظبة على التدريس والمناظرة ما لم يعهد لغيره مع الوجاهة الزائدة فى الدنيا . ومن تصانيفه [نهاية المطلب] فى الفقه ، وهى أربعون مجلدا كبارا لم يصنف مثلها ومختصرها واختصرها بنفسه ، وهو من محاسن كتبه . قال هو نفسه فيه : إنه يقع فى الحجم من النهاية أقل من النصف ، وفى المعنى أكثر من الضعف . والشامل فى أصول الدين ، والإرشاد فيه أيضا ، والبرهان فى أصول الفقه ، والإرشاد فيه أيضا ، والورقات فيه أيضا وغير ذلك ومنه ديوان خطب مشهور ، ومن نظمه : أخى لن تنال العلم إلا بستة . البيتين ، وتوفى ليلة الأربعاء وقت العشاء الآخرة الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فعمره نحو تسع وخمسين سنة وأغلقت الأسواق يوم موته ، وكانت تلامذته يومئذ قريبا من أربعمائة . هذا ، وقد ترجم له التاج السبكى رحمه الله فى الطبقات ترجمة حافلة فى نحو ثلاثين صفحة فانظرها إن شئت . ويكفى فى فخره ما نقل من خط ابن الصلاح أنشد بعض من رأى إمام الحرمين :

لم ترعينى تحت أديم الفلك   مثل إمام الحرمين الثبت عبد الملك

وكان الفقيه الإمام غانم الموسيلى ينشد ويقول لغيره فى إمام الحرمين :

دعوا لبس المعانى فهو ثوب   على مقدار قد أبى المعالى

ورأيت فى شرح مولد البرزنجى للسيد جعفر ما نصه : فائدة ذكر بعضهم أن الهتف وقع فى غير ما يتعلق بالمصطفى عليه الصلاة والسلام فانه سمع يوم وفاة إمام الحرمين رحمه الله تعالى قائل من الجن يهتف بهذين البيتين وهما :

يادهر بع رتب المعالى بعده   بيع الكساد ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من تشاء من الورى   مات الذى قد كنت منه تستحى

(يقول : إن من جرى مع الله تعالى على عادة الناس جرى الله معه على ماهو عادة الناس فى كفاية المؤنة) قال المصنف (وهذا) أى كلام الإمام أبى المعالى (كلام حسن جدا ، وفيه) أى فى هذا الكلام (فوائد جمة) أى كثيرة (لمن تأملها) أى الفوائد حق التأمل (فان قلت أليس الله تعالى يقول : وتزودوا) ما يبلغكم لسفركم (فإن خير الزاد التقوى ؛ فاعلم أن فيه) أى فى المراد بالزاد الذى

قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ زَادُ الآخِرَةِ، وَلِذَٰلِكَ قَالَ: خَيْرُ الزَّادِ التَّقْوَى، وَلَمْ يَقُلْ حُطَامُ الدُّنْيَا وَأَسْبَابُهَا، وَالثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ قَوْمٌ لَا يَأْخُذُونَ زَادًا فِي طَرِيقِ الْحَجِّ لِأَنْفُسِهِمْ اتِّكَالًا عَلَى النَّاسِ، وَيَسْأَلُونَ النَّاسَ وَيَشْكُونَ وَيُلِحُّونَ وَيُؤْذُونَ النَّاسَ، فَأُمِرُوا بِالزَّادِ أَمْرَ تَنْبِيهٍ عَلَى أَنَّ أَخْذَ الزَّادِ مِنْ مَالِكَ خَيْرٌ مِنْ أَخْذِ مَالِ النَّاسِ وَالِاتِّكَالِ عَلَيْهِمْ، وَكَذَٰلِكَ نَقُولُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَالْمُتَوَكِّلُ هَلْ يَحْمِلُ الزَّادَ مَعَهُ

فى قوله تعالى «وتزودوا» (قولين: أحدهما أنه) أى الزاد المذكور (زاد الآخرة) وهو تقوى الله والعمل بطاعته، وهذا الزاد أفضل من زاد الدنيا لأنه يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم فى الآخرة؛ وفى هذا المعنى قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لاتكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

(ولذلك) أى لأجل أن المراد بالزاد زاد الآخرة (قال) سبحانه وتعالى: فإن (خير الزاد التقوى) وذلك لأن من تزود التقوى نجا ولم يخف فى طريقه لأن الله مع الذين اتقوا، ومن التقوى أن لايقول العبد غدائى من أين لقول الحق «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب». وقال وهب: يقول الله تعالى: ابن آدم اتق ونم حيث شئت فالرزق ليس فيه توكل، وإنما فيه تدبر ويقوي على قدر معرفته بما صبر له ولمن صبر، ومعنى الصبر حبس النفس على الوعد بمجىء المضمون ومنعها من الحركة والتطلع إلى مجيئه حتى يسوق الله الأقسام من أماكنها، فمتى رجع الصابر إلى سبب يبتدىء فيه بالحركة من نفسه فقد خرج من حالة الصبر ضيقا من تحمل مؤنته، وهذا مقام المؤمن القوى من المتوكلين (ولم يقل) جل وعز «فإن خير الزاد» (حطام الدنيا وأسبابها. والثانى) من القولين أن المراد بالزاد: هو زاد الدنيا، وذلك سبب نزول هذه الآية (أنه) أى الحال والشأن (كان قوم) من أهل اليمن يخرجون للحج ومع ذلك (لايأخذون زادا فى طريق الحج لأنفسهم اتكالا على الناس) ويقولون نحن متوكلون، نحن نحج بيت ربنا أفلا يطعمنا؟ (و) إذا قدموا مكة (يسألون الناس ويشكون ويلحون ويؤذون الناس) وربما أفضى بهم الحال إلى النهب والغصب، ولذا قال ابن الجوزى: قد لبس إبليس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية من الخطأ، ذكره الكرخى (فأمروا) أى أهل اليمن (بالزاد) أى أخذه (أمر تنبيه على أن أخذ الزاد من مالك خير من أخذ مال الناس والاتكال عليهم، وكذلك) أى مثل المذكور من السؤال. وجوابه (نقول. فإن قلت: فالمتوكل هل يحمل الزاد معه) أى مع المتوكل

فى الْأَسْفَارِ ؟

فاعْلَمْ : أَنَّهُ رُبَّمَا يَحْمِلُ الزَّادَ وَلاَ يُعَلِّقُ الْقَلْبَ بِهِ بِأَنَّهُ لاَ مَحَالَةَ رِزْقُهُ ، وَفِيهِ قِوَامُهُ ، وَإِنَّمَا يُعَلِّقُ الْقَلْبَ بِاللهِ تَعَالَى وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ : إِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ ، وَاللهُ تَعَالَى إِنْ شَاءَ أَقَامَ بِنْيَتِي بِهٰذَا أَوْ بِغَيْرِهِ ، وَرُبَّمَا يَحْمِلُ بِنِيَّةٍ أُخْرَى بِأَنْ يُعِينَ مُسْلِماً أَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ ، وَلَيْسَ الشَّأْنُ فى أَخْذِ الزَّادِ وَتَرْكِهِ ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فى الْقَلْبِ ، لاَ تُعَلِّقْ قَلْبَكَ إِلاَّ بِوَعْدِ اللهِ تَعَالَى وَحُسْنِ كِفَايَتِهِ وَضَمَانِهِ ، فَكَمْ مِنْ حَامِلٍ لِلزَّادِ وَقَلْبُهُ مَعَ اللهِ دُونَ الزَّادِ ، وَكَمْ مِنْ تَارِكٍ لِلزَّادِ وَقَلْبُهُ مَعَ الزَّادِ دُونَ اللهِ تَعَالَى ، فَالشَّأْنُ إِذَنْ لِلْقَلْبِ ، فَافْهَمْ هٰذِهِ الْأُصُولَ تُكْفَ الْمُؤْنَةَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قِيلَ : فَالنَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم كَانَ يَحْمِلُ الزَّادَ ، وَكَذٰلِكَ الصَّحَابَةُ وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ . يُقَالُ لَهُ : لاَ جَرَمَ أَنَّ ذٰلِكَ مُبَاحٌ غَيْرُ حَرَامٍ ، وَإِنَّمَا الْحَرَامُ تَعْلِيقُ الْقَلْبِ بِالزَّادِ وَتَرْكُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فَافْهَمْ ذٰلِكَ ،

(فى الأسفار) أى أم لا (فاعلم أنه) أى المتوكل (ربما يحمل الزاد ولا يعلق) أى لا يعتمد (القلب به) أى بذلك الزاد (بأنه) أى الزاد المحمول (لامحالة) أى قطعا (رزقه) أى المتوكل (وفيه) أى فى الزاد (قوامه) أى قوام بدن المتوكل (وإنما يعلق القلب بالله تعالى) أى بتدبيره وضمانه (ويتوكل عليه) تعالى (ويقول) أى المتوكل (إن الرزق مقسوم مفروغ منه والله تعالى إن شاء أقام) سبحانه وتعالى (بنيتى) أى جسدى (بهذا) أى الرزق المحمول (أو بغيره) أى غير هذا الرزق (وربما يحمل) المتوكل ذلك الزاد (بنية أخرى) حسنة ، وذلك (بأن يعين) أى المتوكل (مسلما أو نحو ذلك) أى إعانة المسلم من وجوه البر . (و) بالجملة (ليس الشأن) المعتبر فى التوكل (فى أخذ الزاد وتركه ، وإنما الشأن) المعتد به (فى القلب لا تعلق قلبك إلا بوعد الله تعالى وحسن كفايته و) صدق (ضمانه ، فكم من) شخص (حامل للزاد وقلبه) أى الحامل (مع الله دون) الاعتماد على (الزاد ، وكم من تارك للزاد وقلبه) أى التارك يتعلق (مع الزاد دون) التوكل والاعتماد على (الله تعالى ، فالشأن) المعتبر (إذن) أى حين إذ يختلف اعتماد الحامل للزاد والتارك له (فى القلب ، فافهم هذه الأصول) التى ذكرناها (تكف المؤنة) أى المشقة (إن شاء الله تعالى . فإن قيل : فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يحمل الزاد) فى سفره (وكذلك) أى حمل الزاد (الصحابة والسلف الصالح) فى أسفارهم رضوان الله عليهم أجمعين (يقال له) أى للقائل المذكور (لاجرم) أى قطعا (أن ذلك) أى حمل الزاد (مباح غير حرام ، وإنما الحرام تعليق القلب بالزاد وترك التوكل على الله سبحانه ، فافهم ذلك) الذى ذكرناه من أن حمل الزاد

ثُمَّ مَا ظَنُّكَ بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حَيْثُ قالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لاَ يَمُوتُ) أَعصَاهُ فى ذٰلِكَ وَعَلَّقَ قَلْبَهُ بِطَعَامٍ وَشَرَابٍ أَوْ دِرْهَمٍ أَوْ دِينَارٍ؟ كَلاَّ وَحَاشَا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ، بَلْ كَانَ قَلْبُهُ مَعَ اللهِ تعالى ، وَتَوَكُّلُهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى كمَا أَمَرَهُ ، فَإِنَّهُ الَّذِى لَمْ يَلْتَفِتْ إِلى الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا وَلَمْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلى مَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ كُلِّهَا ،

مباح ، وأن تعليق القلب بالزاد وترك الاعتماد على الله حرام (ثم ماظنك برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الله تعالى له) عليه الصلاة والسلام (وتوكل على الحى الذى لايموت ، أعصاه) أى أخالف النبى صلى الله عليه وسلم ربه جل وعز (في ذلك) أى في أمره سبحانه وتعالى لرسول الله عليه الصلاة والسلام بالتوكل (وعلق قلبه) صلى الله عليه وسلم (بطعام أو شراب أو درهم أو دينار ؟ كلا) أى ليس الأمر كما ذكر من أن النبى صلى الله عليه وسلم خالف أمر ربه بالتوكل أو علق قلبه بالطعام والشراب ونحوهما (وحاشا) أى تنزيهاللنبى صلي الله عليه وسلم من (أن يكون) أى يوجد (ذلك) أى المذكور من مخالفة أمر ربه وتعلق قلبه إلى غيره جل وعز (بل كان قلبه) صلى الله عليه وسلم (مع الله تعالى ، و) كان (توكله) عليه الصلاة والسلام (على الله تعالى كما أمره) ربه بقوله «وتوكل على الحي الذي لايموت» (فإنه) صلى الله عليه وسلم (الذى لم يلتفت) بقلبه أصلا (إلى الدنيا بأسرها) أى بأجمعها (ولم يمد يده) الشريفة (إلى مفاتيح خزائن الأرض كلها) وهي موضوعة بين يديه عليه الصلاة والسلام كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال «أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة سندس» . وفى رواية «أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت بين يدى» . وروى أيضا «إن جبريل نزل عليه فقال : إن الله يقرئك السلام ويقول لك أتحب أن أجعل هذه الجبال — أى من أبى قبيس وغيره مما حوالى مكة وأطرافها — ذهبا وتكون : أى جبال الدنيا معك حيثما كنت ؟ فأطرق ساعة ، ثم قال يا جبريل : إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له : أى فى الآخرة ، يجمعها من لاعقل له ، فقال له جبريل ثبتك الله يامحمد بالقول الثابت» كذا فى الشفاء وشرحه . وقال الفقيه رضى الله تعالى عنه : حدثنى الثقة بإسناده عن طاوس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام معه . قال جبريل : هذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل قط استأذن ربه فى زيارتك فلم يمكث إلا قليلا حتى جاء الملك فقال : السلام عليك يارسول الله ، فقال وعليك السلام . قال الملك : فإن الله تعالى يخبرك أن يعطيك خزائن كل شيء ومفاتيح كل شيء لم يعطه أحدا قبلك ولا يعطه أحدا بعدك من غير أن ينقصك مما ادخر لك شيئا أو يجمعها لك يوم القيامة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بل يجمعها إلى يوم القيامة» وعن صفوان بن سليم

وَإِنَّمَا كَانَ أَخْذُ الزَّادِ مِنْهُ وَمِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لِنِيَّاتِ الْخَيْرِ لَا لِمَيْلِ قُلُوبِهِمْ عَنِ اللهِ تَعَالَى إِلَى الزَّادِ ، وَالْمُعْتَبَرُ الْقَصْدُ عَلَى مَا أَعْلَمْنَاكَ ، فَافْهَمْ وَانْتَبِهْ مِنْ رَقْدَتِكَ وَأَفِقْ مِنْ غَفْلَتِكَ وَتَفَهَّمْ يُرْشِدْكَ اللهُ .

فَإِنْ قُلْتَ : أَيُّهُمَا أَفْضَلُ : أَخْذُ الزَّادِ ، أَمْ تَرْكُهُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْحَالِ ، إِنْ كَانَ مُقْتَدًى بِهِ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ أَخْذَ الزَّادِ مُبَاحٌ أَوْ يَنْوِي بِهِ عَوْنَ مُسْلِمٍ أَوْ إِغَاثَةَ مَلْهُوفٍ وَنَحْوَ ذٰلِكَ، فَالْأَخْذُ أَفْضَلُ ، وَإِنْ كَانَ مُنْفَرِدًا قَوِيَّ الْقَلْبِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ يَشْغَلُهُ الزَّادُ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَالتَّرْكُ أَفْضَلُ، فَتَفَهَّمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ وَاحْتَفِظْ بِهَا رَاشِدًا ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

عن عبد الوهاب بن بجيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « عرض على بطحاء مكة ذهبا وفضة قلت يا رب أشبع يوما وأجوع يوما فأحمدك إذا شبعت وأضرع إليك إذا جعت » (وإنما كان أخذ الزاد منه) أى من رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن السلف الصالح) رضوان الله عليهم (لنيات الخير لا لميل قلوبهم عن الله تعالى إلى الزاد ، و) الشأن (المعتبر القصد على ما أعلمناك) بقولنا : وإنما الشأن فى القلب (فافهم) هذه الجملة المذكورة (وانتبه من رقدتك) أى نومك (وأفق) أى انتبه وتيقظ ، فى المصباح وأفاق المجنون إفاقة : رجع إليه عقله ، وأفاق السكران إفاقة . والأصل أفاق من سكره كما يقال استيقظ من نومه (من غفلتك وتفهم يرشدك الله) وبالله التوفيق (فان قلت : أيهما) أى أخذ الزاد وتركه (أفضل : أخذ الزاد ، أم تركه ؟) بدّ مما قبله (فاعلم) أرشدك الله (أن هذا) أى ماذكر من أخذ الزاد وعدمه (يختلف باختلاف الحال) وبيانه أن العبد (إن كان مقتدى به يريد أن يبين أن أخذ الزاد مباح ، أو) يريد أن (ينوى به) أى بأخذ الزاد (عون مسلم أو إغاثة ملهوف) أى إعانة مظلوم (ونحو ذلك) أى إعانة المسلم وإغاثة الملهوف من الأمور المهمة (فالأخذ) أى أخذ الزاد (أفضل) من تركه (وإن كان) العبد (منفردا قوى القلب بالله) أي بتدبيره (سبحانه يشغله الزاد عن عبادة الله سبحانه وتعالى ، فالترك) أى ترك أخذ الزاد (أفضل) من أخذه (فتفهم هذه الجملة) التى ذكرناها (واحتفظ بها) أى هذه الجملة (راشدا) أى إصابة للصواب (وبالله التوفيق) .

[تتمة] فان قلت فما الأفضل فى حق السالك أن يقعد فى بيته أو يخرج إلى السوق ويكتسب ؟ . فاعلم أنه إن كان ممن يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر ومراقبة وإخلاص واستغراق وقت العبادة ما بين صلاة وقراءة وكان الكسب يشوش عليه ذلك ويفرق وقته وهمته

وهو مع هـذا لا تستشرف نفسه إلى الناس فى انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه من الدنيا ، بل يكون قوى القلب فى الصبر على شدائده والاتـكال على الله تعالى فالقعود بهذه الشروط أولى من الخروج والـكسب ، وإن كان يضطرب قلبه فى البيت ويستشرف إلى الناس بما يأتى منهم فالـكسب أولى لأن اضطراب القلب يشعر عن عدم قوة قلبه على الاتـكال على مولاه واستشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وهو عندهم أشد من سؤال اللسان وتركه أهم من ترك الـكسب ، كذا ذكره مصنفنا أبو حامد الغزالى وغيره ، وشواهد ذلك فى كلام القوم ، ففى القوت لأبى طالب المـكى قال بعض المتوكلين : من فقد الأسباب فضعف قلبه أو كان وجودها أسكن لقلبه من عدمها لم يصح له القعود عن المـكاسب لأن فيه انتظارا لغير الله تعالى .

وقال بعض العلماء : من طرقته فاقة سبعة أيام فتصور قلبه طمعاً فى خلق أو تشرفا إلى عبد فالسوق له أفضل من المسجد . وقال أبو سليمان : الدارانى لا خير فى عبد لزم القعود فى البيت وقلبه معلق بقرع الباب حتى يطرق بسبب . وقال بعض علمائنا : إذا استوى عنده وجود السبب وعدمه وكان قلبه ساكنا مطمئنا عند العدم لم يشغله ذلك عن الله ولم يتفرق همه فترك الـكسب والقعود لهذا أفضل لشغله بحاله وتزوده لمعاده ، وقد صح له مقام فى التوكل . وقال سهل ، وقد سئل متى يصح للعبد التوكل ؟ فقال : إذا دخل عليه الضر فى جسده والنقص فى ماله فلم يلتفت إليه ولم يحزن عليه شغلا بحاله ونظرا إلى قيـام الله عليه ، وقال الخواص فى كتاب التوكل : لا ينبغى للصوفى أن يتعرض للقعود عن الـكسب إلا أن يكون مطلوبا قد أغنته الحال عن المـكاسب . وأما ما كانت الحاجات فيه قائمة ولم يقع له عزوف يحول بينه وبين التـكلف فالعمل أولى به والـكسب أجل له وأبلغ ، لأن القعود لا يصلح لمن لم يستغن عن التـكلف : يعنى أن يكون كفى بالـكفاية القاطعة من قلبه عن التـكلف الظاهر من جوارحه وأن تـكون حاله قوية تحمله بالصبر والرضا لا يضعف إلى تطلع وتشرف بقول ، فمعلوم هذا من كسبه الذى أحل به أفضل له من طمعه فى غيره الذى كره له ، هذا كله كلام الخواص . وقال فى موضع آخر من الـكتاب المذكور : ولم يؤت المريدون إلا من جهتين من قلة الصدق وإصابة الحق ومن ركون الأدلة إلى الدنيا فدلوهم على علو أنفسهم ، وصدق المريد فى إيثار الخمول ولزوم الباب وفراغ القلب وخوف فوت الوصول والتارك للتـكسب والتصرف فى الأسواق إذا كان فى أدنى كفاية وأعين بالصبر والقناعة فى مثل زماننا هذا أفضل وأتم من المـكتسب إذا خاف أن لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى من دخول فى شبهة أو خيانة لإخوانه المسلمين ؟ ولأنه قد تعذر القيام بشرط العلم مع مباشرة الأسباب وكثرة دخول الآفات والفساد فى الاكتساب فترك مباشرة أهل الأسواق ومخالطتهم على هذا الوصف المـكروه أقرب إلى السلامة لبعده من رؤية الأسباب وفقد مباشرتها ، لأن الحـكم متعلق بالرؤية ، ومثل الحرام مثل المنـكر إذا لم تره سقط عنك حكمه ، وليس الخبر كالمعاينة ولا المحاورة كالمباشرة ولا الاستتار كالإظهار ولا المعاين كالمخبر ، والتكسب ليس بفرض ، وقد يفترض بأحد معنيين: بوجود العيال مع عدم كفايتهم عن وجه من الوجوه ، أو بأن

﴿ العارضُ الثَّانى : الأخطارُ وإرادتُها وقصودُها ﴾

وَإِنَّمَا كِفَايَتُها فى التَّفْوِيضِ ، فَعَلَيْكَ بِتَفْوِيضِ

يقطع عدمه عن فرض ويضعف عنه مع فقد مايقام به الفرض مما لابد منه ، ولقد كان أبو معاذ رحمه الله يقول : ترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل والكسب مع الاستغناء عنه كلفة ، وقال فى موضع آخر من كتابه المذكور : وبعض العارفين يفضلون من لامعلوم له على من له معلوم ، وهؤلاء يرون ترك التكسب أفضل والسكون عن التحرك أعلى لأن ذلك معلوم ، ويعد هؤلاء سكون القلب مع وجود المعلوم علة . ولكن إذا سكن قلبه مع غير معلوم واجتمع همه وانقطع طمعه فى حال المعدوم فهذا هو المقام ، ولعمرى التحقيق أن الحركة فى طلب المضمون للخصوص عقوبة فقد سكون القلب إلى الرب ، كما أن ترك الحركة فى أعمال البر والقربات عقوبة سكون النفس إلى حظوظ الشهوات ، والعدول من القول فى تفصيل ترك التكسب وفعله وفقد المعلوم ووجده أن العبد لا يفضل بفقد الغنى ووجد الفقر ، ولا يشرف بالقعود عن الحركة من غير إقعاد ولا يعلو بالتحرك إلى الأسباب بغير إيجاد ، وإنما يوصف فى ذينك بالفقر أو الإباحة . لكن يفضل بحاله من مقامه من زهد أو رضا ، أو صبر وتوكل ، أو اقتطاع لخدمة ، أو إقامة بشغل متصل بصدق معاملة ، فبهذه المعانى يقع التفضيل عند العلماء ، فإن كان ذو المعلوم والتصرف أحسن معرفة وأقوى يقينا فضل على من لامعلوم له ممن نقصت معرفته ، ولا يكون سكون القلب وطمأنينة النفس أيضا مع وجود المعلوم علة فى الحال اذا ثبت المقام وصحح القصد وحسن التصرف والعقد ، ولكن لا يكون مقاما يرفع به ولا حالا يفضل فيه عند طائفة من العارفين ، إلا أن الطمع فى الخلق ، وتشبث القلب مع وجود معلوم أو الكفاية نقصان عند الكل وقطع الطمع فى الخلق وفقد الاستشراف إلى معتاد منهم أو مألوف بهم واجتماع القلب مع العدم وفقد المعلوم أفضل وأعلى عند الجماعة . فأما سكون القلب واجتماع الهم وفقد الاستشراف إلى الخلق مع العيال وثبوت الأحكام فهو أفضل وأشرف ؛ وهذا حال الأقوياء وطريق الأنبياء اتفقوا على ذلك . وأما اضطراب القلب وتفرقة الهم مع وجود العيال ، فإن كان لأجلهم والقيام بحكم الله فيهم فلا نقص فيه وقد يؤجر عليه . وأما شتات الهم وتفرق القلب ووجد الاهتمام فى حال الوحدة للمنفرد فنصيب من الرغبة موفور وصاحبه فيه غير معذور ، وقد يكون مأزورا فهذه النصوص كلها شواهد لسياق ماذكره أبو حامد الغزالى وغيره وبالله المستعان .

(العارض الثانى) من العوارض الأربعة الشاغلة عن عبادة الله تعالى وسد سبيلها عنك (الأخطار وإرادتها وقصودها ، وإنما كفايتها) أى تلك الأخطار (فى التفويض) أى استسلام الأمور كلها لله .

واعلم أن التفويض الذى هو المسالمة فوق التوكل : لأن المتوكل له مراد وهو يطلب مراده بالاعتماد على ربه ، والمفوض ليس له مراد كذا ذكره بعض المحققين (فعليك) أى الزم (بتفويض

الْأَمْرَ كُلَّهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَذَٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ فِى الْحَالِ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ خَطِيرَةً مُبْهَمَةً لَا يُدْرَى صَلَاحُهَا مِنْ فَسَادِهَا تَكُونُ بِهَا مُضْطَرِبَ الْقَلْبِ هَائِمَ النَّفْسِ ، لَا تَدْرِى تَقَعُ فِى صَلَاحٍ أَوْ فَسَادٍ ، فَإِذَا فَوَّضْتَ الْأَمْرَ كُلَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلِمْتَ أَنَّكَ لَا تَقَعُ إِلَّا فِى صَلَاحٍ وَخَيْرٍ فَتَكُونُ آمِنًا مِنَ الْخَطَرِ وَالْآفَةِ وَالْمُخَالَفَةِ مُطْمَئِنَّ الْقَلْبِ فِى الْحَالِ ، وَهَٰذِهِ الطُّمَأْنِينَةُ وَالْأَمْنُ وَالرَّاحَةُ فِى الْقَلْبِ غَنِيمَةٌ عَظِيمَةٌ ؛ وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ فِى مَجَالِسِهِ كَثِيرًا : دَعِ التَّدْبِيرَ إِلَى مَنْ خَلَقَكَ تَسْتَرِحْ ، وَقَدْ أَنْشَدَ فِى ذَٰلِكَ :

إِنَّ مَنْ كَانَ لَيْسَ يَدْرِى أَفِى الْمَحْـ ... بُوبِ نَفْعٌ لَهُ أَوِ الْمَكْرُوهِ
لَحَرِىٌّ بِأَنْ يُفَوِّضَ مَا يَعْـ ... جِزُ عَنْهُ إِلَى الَّذِى يَكْفِيهِ
الْإِلَٰهِ الْبَرِّ الَّذِى هُوَ بِالرَّأْ ... فَةِ أَحْنَى مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ

الأمر كله إلى الله سبحانه ، وذلك) أى وجوب التفويض إلى الله تعالى (لأمرين : أحدهما طمأنينة القلب فى الحال ، فإن الأمور إذا كانت خطيرة) أى عظيمة (مبهمة) أى غير معينة (لا يدرى) أى لا يعلم (صلاحها من فسادها) أى الأمور (تكون بها) أى بالأمور المبهمة (مضطرب القلب هائم) أى متحير (النفس لا تدرى تقع فى صلاح أو فساد ، فإذا فوضت الأمر كله إلى الله تعالى علمت) يقينا (أنك لا تقع إلا فى صلاح وخير فتكون آمنا من الخطر) أى الخوف (والآفة والمخالفة مطمئن القلب فى الحال ، وهذه الطمأنينة والأمن) من الخطر ونحوه (والراحة فى القلب غنيمة عظيمة . وكان شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله يقول فى مجالسه كثيرا : دع) أى اترك (التدبير) وفوض الأمر كله (إلى من خلقك) جل وعز (تسترح ، وقد أنشد) شيخنا (فى ذلك) أى فى هذا المعنى من بحر الخفيف (إن من كان ليس يدرى) أى يعلم صلاح أمره (أفى المحبوب نفع له) أى لنفسه (أو) فى (المكروه . لحرى) أى خليق وجدير (بأن يفوض ما يعجز عنه إلى الذى يكفيه . الإله) بالجر بدل من الذى (البر) أى المحسن (الذى هو) عز وجل (بالرأفة) والرحمة (أحنى) أى أرحم واشفق (من أمه وأبيه) كما روى فى الأخبار الصحيحة أنه وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد : أى فى الثمن ، وذلك فى يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة فى خباء القوم ، فأقبلت تشتد وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبى وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت : ابنى ابنى فبكى الناس وتركوا ما هم فيه ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسر برحمتهم

وَالثَّانِى مِنَ الْأَمْرَيْنِ : حُصُولُ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ فى الِاسْتِقْبَالِ ، وَذٰلِكَ لِأَنَّ الْأُمُورَ بِالْعَوَاقِبِ مُبْهَمَةٌ ، فَكَمْ مِنْ شَرٍّ فى صُورَةِ خَيْرٍ ، وَكَمْ مِنْ ضُرٍّ فى حِلْيَةِ نَفْعٍ ، وَكَمْ مِنْ سُمٍّ فى هَيْئَةِ شَهْدٍ ، وَأَنْتَ الْجَاهِلُ بِالْعَوَاقِبِ وَالْأَسْرَارِ ، فَإِذَا أَرَدْتَ الْأُمُورَ قَطْعاً وَأَخَذْتَ فِيهَا بِاخْتِيَارِكَ مُتَحَكِّماً ، فَمَا أَسْرَعَ مَا تَقَعُ فى هَلَاكٍ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ .

وَلَقَدْ حُكِىَ أَنَّ بَعْضَ الْعُبَّادِ كَانَ يَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُرِيَهُ إِبْلِيسَ ، فَقِيلَ لَهُ : سَلِ الْعَافِيَةَ ، فَأَبَى إِلَّا ذٰلِكَ ، فَأَظْهَرَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ ، فَلَمَّا رَآهُ الْعَابِدُ قَصَدَهُ بِالضَّرْبِ ، فَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ : لَوْلَا أَنَّكَ تَعِيشُ مِائَةَ سَنَةٍ لَأَهْلَكْتُكَ وَعَاقَبْتُكَ ، فَاغْتَرَّ بِقَوْلِهِ وَقَالَ فى نَفْسِهِ : إِنَّ عُمْرِى بَعِيدٌ طَوِيلٌ فَأَفْعَلُ مَا أُرِيدُ ثُمَّ أَتُوبُ ، فَوَقَعَ فى الْفِسْقِ وَتَرَكَ الْعِبَادَةَ فَهَلَكَ . فَفِى هٰذِهِ مَا يُنَبِّهُكَ عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ فى إِرَادَتِكَ وَاللَّجَاجِ

ثم بشرهم ، فقال: أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ قالوا نعم . قال صلى الله عليه وسلم فإن الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعا من هذه بابنها ، فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة (والثانى من الأمرين حصول الصلاح والخير فى) زمان (الاستقبال وذلك) أى مطلوبية التفويض في حصول الصلاح والخير فى الاستقبال (لأن الأمور بالعواقب مبهمة ، فكم من شر) فى نفس الأمر (فى صورة خير) فى الظاهر (وكم من ضر فى حلية) بالكسر أى صورة (نفع ، وكم من سم) قاتل (فى هيئة شهد) أى فى صفة عسل والجمع شهاد (وأنت الجاهل) أى الذى لايعلم (بالعواقب والأسرار ، فاذا أردت الأمور قطعا) أى جزما (وأخذت) أى دخلت (فيها) أى فى تلك الأمور (باختيارك متحكما) فى المصباح تحكم فى كذا فعل ماراه (فما أسرع) فعل تعجب (ماتقع فى هلاك وأنت لاتشعر) أى لاتعلم لجهلك وعدم احتياطك (ولقد حكى أن بعض العباد) جمع عابد (كان يسأل الله أن يريه) أى أن يطلع الله العابد (إبليس) اللعين (فقيل له) أى للعابد (سل الله العافية) من إبليس وغيره (فأبى) أى امتنع العابد (إلا ذلك) أى رؤية إبليس (فأظهره) أى اللعين (الله تعالى له فلما رآه) أى اللعين (العابد قصده) أى قصد العابد ذلك اللعين (بالضرب فقال له) أى للعابد (إبليس) على سبيل المكر والخداع كما هو عادته (لولا أنك تعيش مائة سنة لأهلكتك وعاقبتك فاغتر) أى انخدع العابد (بقوله) أى اللعين (وقال) العابد المغرور (في نفسه) أى فى قلبه (إن عمرى بعيد طويل فأفعل ماأريد) أى من المشتهيات واللذات (ثم أتوب) إلى الله تعالي (فوقع) المغرور (فى الفسق) كشرب الخمر والزنا وغيرهما (وترك العبادة فهلك) العابد هلاكا لايرجى فلاحه (في هذه) الحكاية (ماينبهك على ترك الحكم) والجزم (على إرادتك واللجاج) أى التمادى وفى بعض النسخ النجاح :

فِى مَطْلُوبِكَ وَيُحَذِّرُكَ طُولَ الْأَمَلِ أَيْضاً فَإِنَّهُ الآفَةُ الْعَظِيمَةُ ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

وَإِيَّاكَ الْمَطَامِعَ وَالْأَمَانِى فَكَمْ أُمْنِيَّةٍ جَلَبَتْ مَنِيَّهْ

وَأَمَّا إِذَا فَوَّضْتَ أَمْرَكَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَسَأَلْتَهُ أَنْ يَخْتَارَ لَكَ مَا هُوَ صَلَاحُكَ لَمْ تَلْقَ إِلاَّ الْخَيْرَ وَالسَّدَادَ ، وَلَا تَقَعُ إِلاَّ عَلَى الصَّلَاحِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ : (وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

أى الظفر (فى مطلوبك و) ما (يحذرك طول الأمل أيضا) أى كالحكم والجزم فى الإرادة (فانه) أى طول الأمل (الآفة العظيمة ، ولقد صدق القائل) من بحر الوافر (وإياك) أى احذر (المطامع والأمانى) جمع أمنية (فكم) من (أمنية) الأمنية : البغية وما يتمنى وما يقدر (جلبت منيه) وهى الموت (وأما إذا فوضت أمرك) كله (إلى الله سبحانه وسألته) تعالى (أن يختار) جل وعز (لك ماهو صلاحك) وخيرك (لم تلق إلا الخير والسداد) بالكسر أى الصواب (ولا تقع إلا على الصلاح) والخير (قال الله تعالى حكاية عن العبد الصالح) وكان اسم ذلك العبد الصالح حزقيل عند ابن عباس وأكثر العلماء ، وقال ابن إسحاق : كان اسمه جبريل ، وقيل حبيب ، وقال فى مبهمات القرآن : الأصح أن اسمه شمعان بفتح الشين المعجمة بوزن سلمان كذا فى سراج السالكين (وأفوض) أى أكل وأسلم (أمرى إلى الله) ليعصمنى من كل سوء ، وذلك أنهم توعدوه لمخالفته دينهم (إن الله بصير بالعباد) يعنى يعلم المحق من المبطل ثم خرج الرجل المؤمن من بينهم فطلبوه فلم يقدروا عليه ، وذلك قوله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا) أى شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاقا أنواع العذاب بمن خالفهم ، ونجا ذلك الرجل مع موسى عليه السلام من الغرق كما ذكره أبو السعود (وحاق) نزل (بآل فرعون) بفرعون وقومه واستغنى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك ، وقيل بطلبة المؤمن من قومه فانه فر إلى جبل فاتبعه طائفة فوجدوه يصلى والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعبا فقتلهم فرعون كما فى البيضاوى (سوء العذاب) أى شدة العذاب وهو الغرق فى الدنيا والنار فى الآخرة ، وذلك قوله تعالى « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا » قال ابن مسعود : أرواح آل فرعون فى أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار ، ويقال يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة ، وقيل تعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشيا مادامت الدنيا ، ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر أعاذنا الله تعالى منه بمنه وكرمه ، روى الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان

أَمَا تَرَى كَيْفَ أَعْقَبَ تَفْوِيضَهُ الْوِقَايَةَ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَبُلُوغَ الْمُرَادِ، فَتَأَمَّلْ مُوَفَّقاً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قُلْتَ : بَيِّنْ لَنَا مَعْنَى التَّفْوِيضِ وَحُكْمَهُ : فَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا فَصْلَيْنِ بِهِمَا يَتَّضِحُ الْكَلَامُ : أَحَدُهُمَا : مَوْضِعُ التَّفْوِيضِ وَحُكْمُهُ ؛ وَالثَّانِي : مَعْنَاهُ وَحَدُّهُ وَضِدُّهُ .

أَمَّا مَوْضِعُهُ : فَاعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَاتِ ثَلَاثَةٌ : مُرَادٌ تَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّهُ فَسَادٌ وَشَرٌّ لَاشَكَّ فِيهِ أَلْبَتَّةَ كَالنَّارِ وَالْعَذَابِ ، وَفِي الْأَفْعَالِ كَالْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى إِرَادَةِ ذٰلِكَ ، وَالثَّانِي : مُرَادٌ تَعْلَمُ قَطْعاً أَنَّهُ صَلَاحٌ كَالْجَنَّةِ وَالْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ ، فَلَكَ إِرَادَتُهَا بِالْحُكْمِ ، لَا مَوْضِعَ لِلتَّفْوِيضِ فِيهِ ، إِذْ لَاخَطَرَ فِيهِ وَلَاشَكَّ أَنَّهُ خَيْرٌ وَصَلَاحٌ وَالثَّالِثُ : مُرَادٌ وَلَا تَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّ لَكَ فِيهِ صَلَاحًا أَوْ فَسَادًا وَذٰلِكَ نَحْوُ النَّوَافِلِ وَالْمُبَاحَاتِ فَهٰذَا مَوْضِعُ التَّفْوِيضِ ، فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تُرِيدَهَا قَطْعاً بَلْ بِالْاِسْتِثْنَاءِ وَشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، فَإِنْ قَيَّدْتَ إِرَادَتَكَ بِالْاِسْتِثْنَاءِ

من أهل النار يقال : هذا مقعدك حتي يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة » قال المصنف (أما ترى كيف أعقب) سبحانه وتعالى (تفويضه) أى العبد الصالح (الوقاية من الأسـواء و) أعقب (النصر على الأعداء وبلوغ المراد فتأمل موفقا) راشدا (إن شاء الله تعالى . فان قلت بين) أى فصل وأظهر (لنا معنى التفويض وحكمه . فاعلم أن ههنا) أى التفويض (فصلين بهما يتضح الـكلام : أحدهما) أى الفصلين (موضع التفويض وحكمه . و) الفصل (الثانى معناه) أى بيان معنى التفويض (وحده وضده . أما موضعه فاعلم أن المرادات) من الأمور (ثلاثة) الأول أمر (مراد تعـلم يقينا أنه) أى هذا المراد (فساد وشر لاشك فيه) أى فى فساده وشره (ألبتة) أى قطعا (كالنار والعذاب ، وفى الأفعال كالـكفر والبدعة والمعصية فلا سبيل إلى إرادة ذلك) المراد المذكور (والثانى مراد تعـلم قطعا) بلا شك (أنه صلاح كالجنة والإيمان والسنة) أى الطريقة النبوية (ونحو ذلك) من أنواع الخيرات (فلك إرادتها) أى تلك المرادات كالجنةونحوها (بالحـكم) أى بالجزم بغيراستثناء (لاموضع للتفويض فيه) أى فى هذا المراد الثانى (إذ لاخطر فيه ولا شك أنه خير وصـلاح . والثالث مراد لاتعلم يقينا أن لك فيه) أى فى الأمر المراد (صلاحا أو فسادا وذلك) المراد الثالث (نحـو النوافل والمباحات ، فهذا) أى المراد الثالث (موضع التفويض فليس لك أن تريدها) أى النوافل والمباحات (قطعا ، بل) لك أن تريدها (بالاستثناء وشرط الخـير والصلاح ، فان قيدت إرادتك بالاستثناء

فَهُوَ تَفْوِيضٌ ، وَإِنْ أَرَدْتَ دُونَ الاُسْتِثْنَاءِ فَهُوَ طَمَعٌ مَذْمُومٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ ، فَمَوْضِعُ التَّفْوِيضِ إِذَنْ كُلُّ مُرَادٍ فِيهِ الْخَطَرُ ، وَهُوَ أَنْ لَا تَسْتَيْقِنَ صَلَاحَكَ فِيهِ .

وَأَمَّا مَعْنَى التَّفْوِيضِ فَقَدْ قَالَ بَعْضُ شُيُوخِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ : هُوَ تَرْكُ اُخْتِيَارِ مَا فِيهِ مُخَاطَرَةٌ إِلَى الْمُخْتَارِ الْمُدَبِّرِ الْعَالِمِ بِمَصْلَحَةِ الْخَلْقِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ؛ وَعِبَارَةُ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ السِّجْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ : هُوَ تَرْكُ اُخْتِيَارِكَ الْمُخَاطَرَةَ عَلَى الْمُخْتَارِ لِيَخْتَارَ لَكَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ : هُوَ تَرْكُ الطَّمَعِ ، وَالطَّمَعُ هُوَ إِرَادَةُ الشَّيْءِ الْمُخَاطِرِ بِالْحُكْمِ ، فَهٰذِهِ عِبَارَاتُ الْمَشَايِخِ .

وَالَّذِي نَقُولُ لَكَ : إِنَّ التَّفْوِيضَ إِرَادَةُ أَنْ يَحْفَظَ اللهُ عَلَيْكَ مَصَالِحَكَ فِيمَا لَا تَأْمَنُ فِيهِ الْخَطَرَ ؛ وَضِدُّ التَّفْوِيضِ الطَّمَعُ ، وَالطَّمَعُ فِي الْجُمْلَةِ يَجْرِي عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : فِي مَعْنَى الرَّجَاءِ تُرِيدُ شَيْئاً لَا خَطَرَ فِيهِ ، أَوْ مُخَاطَرَةً بِالاُسْتِثْنَاءِ ، وَذٰلِكَ مَمْدُوحٌ غَيْرُ مَذْمُومٍ ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى :

فهو) أى ماقيدته بالإرادة (تفويض ، وإن أردت دون الاستثناء فهو طمع مذموم منهى عنه) أى عن ذلك الطمع (فموضع التفويض إذن) أى حين اذ عرفت التفصيل المذكور (كل مراد فيه الخطر وهو) أى الخطر (أن لاتستيقن صلاحك فيه) أى فى المراد الذى أردته (وأما معنى التفويض فقد قال بعض شيوخنا رحمهم الله : هو) أى التفويض (ترك اختيار مافيه مخاطرة إلى المختار المدبر العالم بمصلحة الخلق لاإله الا هو ، وعبارة الشيخ أبى محمد السجزى) بالكسر والسكون وزاى نسبة إلى سجستان على غيرقياس (رحمه الله : هو ترك اختيارك المخاطرة على المختار) جل وعز (ليختار لك ماهو خير) وصلاح (لك ، وقال الشيخ أبو عمر رحمه الله : هو) أى التفويض (ترك الطمع والطمع هو إرادة الشىء المخاطر بالحكم) بغير استثناء ، قال القشيرى : وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : التوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين . قال شيخ الإسلام : وذلك لأن المتوكل يرى السبب ويعتمد على الله تعالى فى أموره ، والولى مسلم إلى الله تعالى فى سائر أموره ، والموحد صارت نفسه محلا لجريان قدر الله تعالى فيه لكمال تفويضه ، وقال القشيرى أيضا : فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص (فهذه) أى الأقاويل الثلاثة (عبارات المشايخ) رضوان الله عليهم (والذى نقول لك : أن التفويض إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لاتأمن فيه الخطر ، وضد التفويض الطمع ، والطمع فى الجملة) من غير تفصيل (يجرى على وجهين : أحدهما فى معنى الرجاء تريد شيئا لاخطرفيه أو) فيه (مخاطرة بالاستثناء وذلك) أى الوجه الأول (ممدوح غير مذموم كما قال الله تعالى) حكاية عن إبراهيم على

(وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) وَقالَ : (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لنَا رَبُّنَا خَطَايَانا) وَهٰذَا الْقِسْمُ لَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِسَبِيلٍ هٰهُنَا ، وَالثَّانِى : طَمَعٌ مَذْمُومٌ ، قالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « إِيَّاكُمْ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ فَقرٌ حَاضِرٌ » وَقِيلَ :

نبينا وعليه الصلاة والسلام (والذي أطمع) أرجو (أن يغفر لى خطيئتى) أى ذنبي (يوم الدين) أى يوم الجزاء والحساب . قال القاضى البيضاوى : ذكر ذلك هضما لنفسه وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر ، وطلب لأن يغفر لهم مايفرط منهم ، واستغفارا لما عسى يندر منه من الصغائر ، وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث « إنى سقيم . بل فعله كبيرهم » وقوله لامرأته هى : أختى ضعيف لأنها معاريض جائزة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار . روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت « قلت يارسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين أكان ذلك نافعا له ؟ قال لاينفع إنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتي يوم الدين » (وقال) تعالى حكاية عن السحرة « قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون (إنا نطمع) - نرجو - (أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أن كنا أول المؤمنين » أى من أهل المشهد أو من رعية فرعون أراد ولا ضرر علينا فى ذلك بل لنا أعظم النفع لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا ، أو لاضير لنا فما تتوعدنا به أنه لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت ، والقتل أهون أسبابه وأرجاها ، أو لاضير لنا فى قتلك إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع فى مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق من الإيمان كذا ذكره النسفى (وهذا القسم) يعنى الوجه الأول (ليس مما نحن فيه بسبيل) أى من الكلام على ضد التفويض (ههنا) أى فى باب التفويض (والثانى) من الوجهين (طمع مذموم . قال النبى صلي الله عليه وسلم : إياكم والطمع) الذى هو انبعاث هوى النفس إلى مافى أيدى الناس (فانه فقر حاضر) :

والحر عبد إن طمع والعبد حر إن قنع

والطمع فيما فى أيدى الناس انقطاع عن الله ، ومن انقطع عن الله فهو المخذول الخائب فانه عبد بطنه وفرجه وشهوته . وهذا الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن جابر بلفظ « إياكم والطمع فانه الفقر الحاضر وإياكم وما يعتذر منه » أى قوا أنفسكم الكلام فيما يحوج إلى الاعتذار .

والحاصل أن الطمع من أعظم العيوب القادحة فى العبودية ، بل هو أصل جميع الآفات لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم وعبودية لهم ، وفى ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه ، وسببه الشك فى المقدور ، ولذا قال بعضهم : لو قيل للطمع من أبوك لقال الشك فى المقدور ، ولو قيل ماحرفتك قال اكتساب الذل ، ولو قيل ماغايتك قال الحرمان ، فالطامع لامحالة فاسد الدين (و) لذلك (قيل) أى قال على بن أبى طالب رضى الله عنه للحسن البصرى لما دخل جامع البصرة فوجد القصاص

يقصون فأقامهم حتى جاء على إليه : يافتى إنى سائلك عن أمر فان أجبتنى فيه أبقيتك ، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك ، وكان قد رأى عليه سمتا وهديا ، فقال الحسن سل عما شئت . قال مافساد الدين وملاكه ؟ فقال الحسن (هلاك الدين وفساده الطمع ، وملاكه) أى مايقوم به الدين (الورع) قال على: اجلس فمثلك من يتكلم على الناس . قال ابن عطاء فى التنوير : وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : كنت فى ابتداء أمرى بثغر الإسكندرية جئت إلى بعض من يعرفنى ، فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ، ثم قلت فى نفسى لعله لايأخذه منى فهتف بي هاتف : السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين . قال وسمعته يقول : صاحب الطمع لايشبع أبدا ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة الطاء والميم والعين . ثم قال بعد هذا : فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم فقد سبقت قسمتك وجودك وتقدم ثبوته ظهورك ، واسمع ما قاله بعض المشايخ : أيها الرجل ما قدر لما ضغيك أن يمضغاه فلا بد أن يمضغاه فكله ويحك بعز ولا تأكله بذل ، وقد تقدم ذكر الورع فى مقابلة الطمع فى جواب الحسن لعلى رضى الله عنهما ، ولا شك أن الورع الظاهر لعامة الناس : وهو ترك الشبهات والتحرج من اقتحام المشكلات لا يقابل الطمع كل المقابلة ، وإنما يقابله ورع الخاصة ، وهو صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين ووجود السكون إليه وعكوف الهمم عليه وطمأنينة القلب به ، ولا يكون له ركون إلى غيره ولا انتساب إلى خلق ولا كون ، فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد ، وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد كما نبه عليه الحسن فى جوابه المذكور . قال يحى بن معاذ رحمه الله : الورع على وجهين ، ورع فى الظاهر أن لا يتحرك إلا لله ، وورع فى الباطن وهو أن لا يدخل قلبك إلا الله . وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رحمه الله : اعلم أن الورع أن لايكون بينك وبين الخلق نسبة فى أخذ أو عطاء أو قبول أورد ، وأن يكون السبق لله تعالى وهو أن يأتى إليه طاهراً من جميع الأشياء والعلم والعمل كما قال « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » ، وقال أيضا : الورع أن لايخطر الرزق بالبال ولا يكون بينه وبينه نسبة لا فى التحصيل ولا عند المباشرة ، لأنه لا يدرى أيأكل أملا ؟ وقال أيضا : الورع أن لا تتحرك ولا تسكن إلا وترى الله فى الحركة والسكون فاذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقى مع الله ، فالحركة ظرف لما فيها كما قال بعضهم : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه فاذا رأى الله ذهبت الأشياء . وقال ابن عطاء فى لطائف المنن : اعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل فان من جملة ورعهم تورعهم عن أن يسكنوا لغيره تعالى أو يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم فى غير فضله وخيره ، ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب وخلع الأنداد والأرباب ، ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات والاعتماد على الطاعات والسكون إلى أنوار التجليات ، ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو ترفعهم الآخرة تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاء . قال الشيخ

قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : الطَّمَعُ الْمَذْمُومُ شَيْئَانِ : سُكُونُ الْقَلْبِ إِلَى مَنْفَعَةٍ مَشْكُوكَةٍ . وَالثَّانِى : إِرَادَةُ الشَّىْءِ الْمُخَاطَرِ بِالْحُكْمِ ، وَهٰذِهِ الْإِرَادَةُ

عثمان بن عاشوراء : خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا أنا بالدنيا قد عرضت على بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها فأعرضت عنها ، فعرضت على الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وأثمارها فلم أشتغل بها . فقيل لى يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنافها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك؟ وقال الشيخ عبد الرحمن المغربى وكان مقيما بشرقى الاسكندرية : حججت سنة من السنين فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الاسكندرية فاذا العلي يقول لى : إنك فى العام القابل عندنا فقلت فى نفسى إذا كنت فى العام القابل ههنا فلا أعود إلى الاسكندرية فخطر لى الذهاب إلى اليمن فأتيت إلى عدن فأنا يوما على ساحلها وإذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم ، ثم نظرت فإذا رجل فرش سجادته على البحر ومشى على الماء ، فقلت فى نفسى لم أصلح للدنيا ولا للآخرة فإذا العلى يقول لى من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا . وقال الشيخ أبو الحسن رحمه الله : الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون فى عين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى . وأما أدنى الأدنى فالله يوزعهم عنه ثوابا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميزان فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى وميراثه التعزز على خلقه والاستكبار على مثله والدلالة على الله بعلمه فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العلى العظيم من ذلك ، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه . ومن لم يزدد بعلمه وعمله احتقاراً لنفسه وافتقاراً إلى ربه وتواضعا لخلقه فهو هالك ، فسبحان من قطع كثيراً من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم « فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم » . قال ابن عطاء : فانظر فهمك الله سبيل أوليائه ومن عليك بمتابعة أحبابه هذا الورع الذى ذكره الشيخ أبو الحسن هل كان يصل فهمك إلى مثل هذا النوع ؟ ألا ترى قوله قد انتهي بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة . فهذا هو ورع الأبدال والصديقين لا ورع المنقطعين الذى نشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم انتهى . وإنما أوردنا هذه المعانى ههنا تتميما للفائدة المتعلقة بكلام المصنف عن الحسن من كون الورع مقابلا للطمع (قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : الطمع المذموم شيئان) الأول (سكون القلب إلى منفعة مشكوكة) غير متيقنة (والثانى إرادة الشىء المخاطر بالحكم) أى بغير استثناء (وهذه الإرادة

تُقَابِلُ التَّفْوِيضَ لاَ غَيْرُ ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ .

وَأَمَّا حِصْنُ التَّفْوِيضِ فَهُوَ ذِكْرُ خَطَرِ الْأُمُورِ وَإِمْكَانِ الْهَلَاكِ وَالْفَسَادِ فِيهَا ، وَحِصْنُ حِصْنِهِ ذِكْرُ عَجْزِكَ عَنِ الاعْتِصَامِ عَنْ ضُرُوبِ الْخَطَرِ وَالِامْتِنَاعِ عَنِ الْوُقُوعِ فِيهَا بِجَهْلِكَ وَغَفْلَتِكَ وَضَعْفِكَ ؛ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَى هٰذَيْنِ الذِّكْرَيْنِ تَحْمِلُكَ عَلَى تَفْوِيضِ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَالتَّحَفُّظِ عَنِ الْحُكْمِ فِيهَا وَالِامْتِنَاعِ عَنْ إِرَادَتِهَا إِلاَّ بِشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

فَإِنْ قِيلَ لَكَ : مَا هٰذَا الْخَطَرُ الَّذِى

تقابل التفويض لا غير) أى لا تقابله غير هذه الإرادة (فاعلم ذلك) أي الطمع الذى يقابل التفويض ، وذلك لأن الطمع فى الشىء دليل على الحب له وفرط الاحتياج إلى نيله وذلك عبودية له ولذا يقابله التفويض ؛ وقيل لولا الأطماع الكاذبة لما استعبد الأحرار بكل شىء لاخطر له . قال العلامة الرندى : حكى عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدم التلميذ إليه خبزا قفارا ولم يكن له أدم فأخذ يتمنى بقلبه أن ليت كان له أدم يقدمه إلى أستاذه فقام الأستاذ وقال تعال معى فحمله إلى باب السجن فرأى الناس يضرب واحد ويقطع آخر ويعذب كل واحد بأنواع العذاب ، فقال الأستاذ للتلميذ ترى هؤلاء ؟ هم الذين لم يصبروا على الخبز القفار ، وقيل إن العقاب يطير فى فضاء عزه بحيث لا يرتقى طرف إلى مطاره ولا تسمو همة إلى الوصول إليه فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه فيصيده صبي يلعب به ، وقيل إن فتحا الموصلى رحمه الله كان قاعدا فسئل عمن تابع الشهوات كيف صفته وكان بقربه صبيان مع أحدهما خبز بلا أدم ومع الآخر خبز مع كامخ ، فقال الذى لم يكن معه كامخ لصاحبه أطعمنى من الكامخ ، فقال له بشرط أن تكون كلبى ، فقال نعم فجعل فى رقبته خيطا وجعل يجره كما يقاد الكلب ، فقال فتح للسائل أما إنه لو رضى بخبزه ولم يطمع في كامخ صاحبه لم يصر كلبا لصاحبه (وأما حصن التفويض فهو ذكر خطر الأمور وإمكان الهلاك والفساد فيها) أى فى تلك الأمور (وحصن حصنه) أى التفويض (ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب) أى أنواع (الخطر و) عن (الامتناع عن الوقوع فيها) أي فى ضروب الخطر (بجهلك وغفلتك وضعفك؛ والمواظبة على هذين الذكرين) أى ذكر خطر الأمور وذكر العجز عن الاعتصام عما ذكر (تحملك) أى تبعثك (على تفويض الأمور كلها إلى الله سبحانه و) تحملك على (التحفظ عن الحكم) بغير استثناء (فيها) أى فى الأمور (والامتناع عن إرادتها إلا بشرط الخير والصلاح فهذه) الجملة (هذه) أى موصوفة بالكمال والعظمة (وبالله التوفيق . فإن قيل لك : ماهذا الخطر الذى

يُوجِبُونَ التَّفوِيضَ لِأَجْلِهِ فى الْأُمُورِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَرَ فى الْجُمْلَةِ خطَرَانِ : خَطَرُ الشَّكِّ بِأَنَّهُ يَكُونُ أَوْ لَا يَكُونُ ، وَأَنَّكَ تَصِلُ إِلَيْهِ أَوْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ، وَهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى الِاسْتِثْنَاء وَيَقَعُ فى بَابِ النِّيَّةِ وَالْأَمَلِ . وَالثَّانِى : خَطَرُ الْفَسَادِ بِأَنْ لَا تَسْتَيْقِنَ فِيهِ الصَّلَاحَ لِنَفْسِكَ ، وَهٰذَا الَّذِى يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى التَّفْوِيضِ .

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْأَئِمَّةِ فى الْخَطَرِ ؛ فَمِنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْخَطَرَ فى الْفِعْلِ هُوَ أَنْ تَكُونَ دُونَهُ نَجَاةٌ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَامِعَهُ ذَنْبٌ ؛ فَالْإِيمَانُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَالسُّنَّةُ لَا خَطَرَ فِيهَا ، إِذْ لَا يُمْكِنُ دُونَ الْإِيمَانِ نَجَاةٌ أَلْبَتَّةَ ؛ وَالِاسْتِقَامَةُ لَا يُجَامِعُهَا ذَنْبٌ ، فَإِذَنْ تَصِحُّ إِرَادَةُ الْإِيمَانِ وَالِاسْتِقَامَةِ بِالْحُكْمِ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ رَحِمَهُ اللهُ : الْخَطَرُ فى الْفِعْلِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَرِضَ فِيهِ مَا يَكُونُ الِاشْتِغَالُ بِالْعَارِضِ أَوْلَى مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى ذٰلِكَ الْفِعْلِ ، وَذٰلِكَ

يوجبون) أى العلماء رضوان الله عليهم (التفويض لأجله) أى الخطر (فى الأمور ، فاعلم أن الخطر فى الجملة خطران) الأول (خطر الشك بأنه) أي الأمر (يكون) أى يوجد (أولا يكون) أى لايوجد (وأنك تصل إليه) أى إلى الأمر (أو لاتصل إليه ، وهذا) الخطر (يحتاج إلى الاستثناء ويقع) العبد (فى باب النية) أى نية الخير إن كان الاستثناء والتفويض (والأمل) أى ويقع فى طول الأمل إن لم يكن الاستثناء والتفويض (والثانى خطر الفساد بأن لاتستيقن فيه) أى فى الأمر الذى خطر (الصلاح) والخير (لنفسك وهذا) أى خطر الفساد (الذى يحتاج فيه) أى فى ذلك الخطر (إلى التفويض . ثم اختلفت عبارات الأئمة) رضى الله عنهم (فى الخطر ؛ فمن بعضهم أن الخطر فى الفعل هو أن تكون دونه) أى دون ذلك الفعل : أى فى عدمه (نجاة ويمكن أن يجامعه) أى ذلك الفعل (ذنب ؛ فالإيمان والاستقامة) على الطاعة (والسنة لاخطر فيها) أى فى هذه الثلاثة (إذ لا يمكن دون الإيمان نجاة ألبتة) أى قطعا (والاستقامة لايجامعها ذنب ، فإذن) أى حين إذ كانت تلك الثلاثة لاخطر فيها (تصح إرادة الإيمان والاستقامة) والسنة (بالحكم) أى بحكم القطع والجزم (وقال الأستاذ) قيل هو أبو إسحاق الاسفراينى الأستاذ إبراهيم ابن محمد الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى صاحب التصانيف الجليلة : توفى يوم عاشوراء سنة ثمان وعشرة وأربعمائة (رحمه الله : الخطر فى الفعل مايمكن) من الخطر (أن يعترض فيه) أى فى ذلك الخطر (مايكون الاشتغال بالعارض أولى من الإقدام على ذلك الفعل وذلك) الخطر المذكور

يَقعُ فِي المُبَاحَاتِ وَالسُّنَنِ وَالْفَرَائِضِ ؛ أَلاَ تَرَى أَنَّ مَنْ تَضَيَّقَ عَلَيهِ وَقْتُ الصَّلاَةِ وَقَصَدَ أَدَاءهَا فَعَرَضَ لَهُ حَرِيقٌ أَوْ غَرِيقٌ يُمْكِنهُ إِنْقَاذُهُ ، فَالِاشْتِغَالُ بِإِنْقَاذِهِ أَوْلَى مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى صَلاَتِهِ ؛ فَلاَ تَصِحُّ إِذَنْ إِرَادَةُ المُبَاحَاتِ وَالنَّوَافِلِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الْفَرَائِضِ بِالْحُكْمِ .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَفْتَرِضَ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ شَيْئاً وَيُوعِدَهُ عَلَى تَرْكِهِ ثُمَّ لا يَكُونُ لَهُ صَلاَحٌ فِي فِعْلِهِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ شَيْخَنا رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : إِنَّ اللهَ تَعالى لا يَأْمُرُ الْعَبْدَ بِشَيْءٍ إِلاَّ وَفِيهِ صَلاَحُهُ إِذَا تَجَرَّدَ عَنِ الْعَوَارِضِ ، وَلاَ يُضَيِّقُ عَلَيْهِ فِعْلاً فَرْضاً بِحَيْثُ لاَ مَعْدِلَ لَهُ عَنْ ذٰلِكَ إِلاَّ وَلَهُ فِيهِ صَلاَحٌ ، وَإِنَّمَا رُبَّمَا يُسَبِّبُ اللهُ تَعالى لَهُ عُذْرًا لِأَجْلِهِ يَكُونُ الْعُدُولُ عَنْ أَحَدِ المَأْمُورَيْنِ أَوْلى مِنَ الِاشْتِغَالِ بِالآخَرِ كَمَا ذَكَرْنَا ، فَيَكُونُ الْعَبْدُ فِي ذٰلِكَ مَعْذُورًا بَلْ مَأْجُورًا لاَ بِتَرْكِ هٰذَا الْفَرْضِ بَلْ بِفِعْلِ الْفَرْضِ الثَّانِي

(يقع فى المباحات والسنن والفرائض ، ألا ترى أن من تضيق عليه وقت الصلاة وقصد أداءها) أى الصلاة فى ذلك الوقت (فعرض له حريق أو غريق يمكنه إنقاذه) أى الحريق أو الغريق (فالاشتغال بانقاذه أولى من الإقبال على صلاته) بل صرح بعضهم بأن من رأى حيوانا محترما يقصده ظالم : أى ولا يخشى منه قتالا أو نحوه أو يغرق لزمه تخليصه وتأخيرها أو إبطالها إن كان فيها أو مالا جاز له ذلك وكره له تركه كما فى التحفة (فلا تصح إذن) أى حين إذ يكون الاشتغال بالعارض أولى من الإقدام على ذلك الفعل (إرادة المباحات والنوافل والكثير من الفرائض بالحكم) بل تصح بالاستثناء (فإن قيل كيف يصح أن يفترض الله على عبده شيئا و) أن (يوعده) بالعقاب (على تركه) أى الشيء المفترض (ثم لا يكون له) أى للعبد (صلاح فى فعله) أى الشيء المذكور (فاعلم أن شيخنا رحمه الله قال : إن الله تعالى لا يأمر العبد بشيء إلا وفيه) أي فى ذلك الشيء (صلاحه) أى العبد (إذا تجرد) العبد (عن العوارض ولا يضيق) سبحانه وتعالى (عليه) أى على عبده (فعلا فرضا بحيث لامعدل) أى لاعدول (له) أى للعبد (عن ذلك) الفعل المذكور (إلا وله) أى للعبد (فيه) أى فى ذلك الفعل (صلاح وإنما) وفى نسخة إنه : أى الشأن كما فى سراج السالكين (ربما يسبب الله تعالى له) أى للعبد (عذرا لأجله) أى العذر (يكون العدول عن أحد المأمورين أولى من الاشتغال بالآخر كما ذكرنا) بقولنا ، ألا ترى أن من تضيق عليه وقت الصلاة إلى آخره (فيكون العبد فى ذلك) أى العدول عن أحد المأمورين (معذورا بل مأجورا لابترك هذا الفرض بل) يكون أجره (بفعل الفرض الثانى)

الَّذِى هُوَ أَوْلَى .

وَلَقَدْ سَمِعْتُ الْإِمَامَ رَحِمَهُ اللّٰهُ فِى هٰذِهِ الْمَسْئَلَةِ يَقُولُ : إِنَّ كُلَّ مَا افْتَرَضَ اللّٰهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَنَحْوِهِ ، فَفِيهَا صَلَاحٌ لَا مَحَالَةَ لِلْعَبْدِ ، وَصَحَّتْ إِرَادَتُهَا بِالْحُكْمِ ، قَالَ فَاتَّفَقَ رَأْيُنَا عَلَى ذٰلِكَ فَبَقِىَ الْمُبَاحَاتُ وَالنَّوَافِلُ إِذَنْ فِى هٰذَا الْحُكْمِ ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ غَوَامِضِ الْبَابِ ، وَبِاللّٰهِ التَّوْفِيقُ .

فَإِنْ قِيلَ : هَلْ يَأْمَنُ الْمُفَوِّضُ الْهَلَاكَ وَالْفَسَادَ وَالدَّارُ دَارُ مِحْنَةٍ ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ فِى الْأَغْلَبِ لَا يُفْعَلُ بِالْمُفَوِّضِ إِلَّا الصَّلَاحُ ، وَقَدْ يُفْعَلُ بِهِ فِى النَّادِرِ غَيْرُ الصَّلَاحِ ، وَلِذٰلِكَ رُبَّمَا يَخْذُلُهُ فَيَقَعُ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ ، وَلَا صَلَاحَ لِلْعَبْدِ فِى الْخِذْلَانِ وَالْوُقُوعِ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ ، وَبِهِ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللّٰهُ .

وَقِيلَ : لَا يُفْعَلُ بِالْمُفَوِّضِ إِلَّا مَا فِيهِ صَلَاحُهُ

الذى عدل إليه (الذى هو) أى الفرض الثانى (أولى) من الإقدام على الفرض الأول (ولقد سمعت الإمام) أبا المعالى المعروف بإمام الحرمين (رحمه الله) وقد تقدمت ترجمته (فى هذه المسئلة) المذكورة فى قول شيخه أبى بكر الوراق : إن الله تعالى لايأمر العبد بشىء إلا وفيه صلاحه إذا تجرد عن العوارض (يقول : إن كل ماافترض الله على عباده من الصلاة والصوم والحج ونحوه) أى المذكور من الثلاثة (ففيها) أى فى هذه الثلاثة ونحوها (صلاح لامحالة للعبد وصحت إرادتها بالحكم) أى حكم القطع (قال) الإمام رحمه الله (فاتفق رأينا على ذلك) أى صحة إرادتها (فبقى المباحات والنوافل إذن) أى حين اتفق ذلك (فى هذا الحكم) أى حكم التفويض (فاعلم ذلك) أى الذى ذكر من بقاء المباحات والنوافل فى هذا الحكم (فانه) أى المذكور من المباحات والنوافل (من غوامض الباب) أى باب التفويض ، والغوامض جمع غامض والغامض من الكلام خلاف الواضح (وبالله التوفيق ، فإن قيل هل يأمن المفوض الهلاك والفساد) أم لايأمن ذلك (والدار) أى دار الدنيا (دار محنة) وبلية (فاعلم أن فى الأغلب) والأكثر (لايفعل) بالبناء للمفعول (بالمفوض إلا الصلاح) والخير (وقد يفعل به) أى بالمفوض (فى النادر غير الصلاح ولذلك) أى لأجل أن يفعل بالمفوض فى النادر غير الصلاح (ربما يخذله فيقع) أى المفوض (عن منزلة التفويض ولا صلاح للعبد فى الخذلان والوقوع عن منزلة التفويض وبه) أى بالجواب المذكور (قال الشيخ أبو عمر رحمه الله . وقيل لايفعل بالمفوض إلا مافيه صلاحه) أى المفوض

فِيمَا فَوَّضَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ . وَالخِذْلاَنُ وَالقُصُورُ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ مِمَّا لاَ يَقَعُ فِيهِ التَّفْوِيضُ إِذْ لاَشَكَّ فِي فَسَادِ ذَلِكَ ؛ وَالتَّفْوِيض إِنَّمَا يَقَعُ فِيمَا يُشَكُّ فِي فَسَادِهِ وَصَلاَحِهِ، وَهٰذَا أَوْلَى القَوْلَيْنِ عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ ، إِذْ لَوْلاَ ذَلِكَ لَمَا قَوِيَتِ البَاعِثَةُ عَلَى التَّفْوِيضِ .

(فيما فوض إلى الله سبحانه . و) أما (الخذلان والقصور عن منزلة التفويض) فهذا (مما لايقع فيه التفويض ، إذ لاشك فى فساد ذلك) أى الخذلان والقصور عن منزلة التفويض (والتفويض إنما يقع فيما) أى فى أمر (يشك فى فساده وصلاحه وهذا) أى القول الثاني (أولى القولين) أحدهما يفعل والآخر لايفعل به (عند شيخنا رحمه الله إذ لولا ذلك) أى أنه لايفعل بالمفوض إلا مافيه صلاحه فيما فوض إلى الله تعالى (لما قويت الباعثة على التفويض) .

﴿ تنبيهان : الأول ﴾ قال القشيرى : الفرق بين التفويض والتضييع أن التفويض فى حقك وهو محمود، والتضييع فى حق الله وهو مذموم . وقال صاحب القوت : حدثونا عن بعض السلف. قال : رأيت بعض العباد من أهل البصرة فى المنام فقلت : مافعل الله بك ؟ . قال غفر لى وأدخلنى الجنة ، فقلت : أى الأعمال وجدت هناك أفضل ؟ قال التوكل وقصر الأمل ، وفى وصية لقمان : ومن الإيمان بالله التوكل على الله ، وإن التوكل يحبب العبد إلى الله ، وإن التفويض إلى الله من هدى الله وبهدى الله يوافق العبد رضوان الله ، ومن موافقة العبد رضوان الله يستوجب كرامة الله ، وكان سهل يقول : التوكل هو التفويض ثم الرضا، وكان الحسن يقول : الغنى والعز يجولان فى طلب التوكل فإذا ظفرا به وطناه ، وفى هذا المعنى قيل :

يجول الغنى والعز فى كل موطن ليستوطنا قلب امرئ إن توكلا
ومن يتوكل كان مولاه حسبه وكان له فيما يجول معقلا
إذا رضيت نفسى بمقدور حظها تعالت وكانت أفضل الخلق منزلا

ويقال : إن الخوف من المخلوقات عقوبة نقصان الخوف من الخالق فإن ذلك من قلة الفقه عن الله وضعف التوكل عليه . ﴿ الثانى ﴾ التوكل على الله لايمنع دخول اللصوص ولا يمنع وقوع الاقتدار للبلوى بمحو الدار ، وقد قال أبو يزيد قدس سره وهو من أعلى المتوكلين : ماسافرت فى قافلة قط إلا قطع علي الطريق . وقال آخر من نظرائه : ماخرجت فى سفر قط ومعى سبب إلا سلط الله علي من يأخذه حتى أبقى مع الله بالله مجردا بلا سبب فهذه آيات يرد الله بها أولياءه إليه فى تسليطات يدلهم بها عليه ليرجعوا إليه ؛ فالتوكل على الله تعالى فى الأسباب لايوجب بقاءها للعبد ولا إيثاره بها ولا حفظها عليه ، ولا يقدم شيئا عن شىء ولا يؤخره لصلاح دنيا أو اختيار عبد بل هو إلى الإذهاب والإتلاف أقرب ، لأن التوكل قرين للزهد وثمرته ،

فَإِنْ قِيلَ : هَلْ يَجِبُ أَنْ يُفعَلَ بِالْمُفَوِّضِ مَاهُوَ الأَفْضَلُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الإِيجَابَ مُسْتَحِيلٌ فِى حَقِّ اللهِ تَعَالَى فَلاَ يَجِبُ لِعِبَادِهِ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَقَدْ يَفْعَلُ

فهو يرد المتوكل إلى أصله وذلك وصف صادقى المتقين ، ولولا الامتحان لكثر الصادقون ، ولولا الإخراج من المعتاد والمألوف لكثر الصالحون ؛ فإذا كان مقام التوكل الرضا بجريان القضاء والمحبة لمواقيع البلاء لم يبال بقي ماله وسلم سببه الذى توكل عليه عنه أو عطب إذا كان محبة وكيله فيه ورضاه به، فما عرضه من موافقة محبته وحلاوة رضاه فضل من إتلاف نفسه ودنياه (فإن قيل: هل يجب أن يفعل) بالبناء للمفعول (بالمفوض ماهو الأفضل ، فاعلم أن الإيجاب مستحيل) أى باطل (فى حق الله تعالى فلا يجب لعباده عليه) تعالى (شىء) لأنه خالق الخلق أنعم عليهم بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، فكيف يجب لهم عليه شىء ، بل إن أنعم عليهم ففضله ، وإن منعهم فبعدله ، وأما نحو قوله تعالى « كتب ربكم على نفسه الرحمة» وقوله «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» فانما هو إحسان وتفضل لا إيجاب وإلزام ، وما أحسن قول بعضهم :

وما إن فعل أصلح ذا افتراض   على الهادى المقدس ذى التعالى

والحاصل أن مذهب أهل السنة أن الأصلح للعبد ليس بواجب على الله تعالى وجمهور المعتزلة نصوا على أنه واجب ، وذهب بعضهم إلى وجوب رعاية المصلحة لا وجوب الأصلح . قال العلامة النوبى : كلا القولين متقاربان لاتفاوت بينهما من حيث إضافة الوجوب إلى الله تعالى ، وشبهتهم فى ذلك أنهم قالوا إن الله تعالى حكيم فى أمره ، وإذا أمر عبده بأمر اقتضت حكمته أن يعطى هذا العبد مايتهيأ به للاتيان بالمأمور ، وإذا أعطى الله هذا العبد شيئا ومنعه منه كان بخلا وهو محال عليه تعالى . والجواب أنه ليس ببخل لأن البخل إنما يكون إذا كان واجبا حقا مستحقا للمحتاج عندنا وترك إسعافه ليس ببخل وإنما هو عدل لمقتضى الحكمة الإلهيــة ، لأنه يعطى من يشاء من فضله ويمنع من يشاء بعدله ، فلا يجب عليه شىء من ذلك . وقال العلامة القارى وغيره : قد رد كلام جميع المعتزلة القائلين بوجوب الأصلح والمصلحة أولا بأن الألوهية تنافى الوجوب المختص بالعبودية ولا يسئل عما يفعل ، وثانيا بأن الأصلح بحسب الظاهر أن يهدى الخلق جميعا ، وقد قال سبحانه «يضل من يشاء ويهدى من يشاء» مع قوله « ولو شاء لهداكم أجمعين» فما أراد اختلاف العباد إلا لإظهار عدله وإيثار فضله ، وأيضا قال تعالى «إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » مع أن الإملاء لزيادة الإثم ليس بصلاح عند العقلاء ، وكذلك خلق الكافر الفقير المعذب فى الدنيا والآخرة ، فإن العدم أصلح له من الوجود فى عالم الشهود فلله الحجة البالغة والحكم السابغة فلا خلل فى شىء من مقدوراته بل أتقن بحكمته جميع مصنوعاته وأبدع كل شىء من سائر مخلوقاته ، وإنما العقول قاصرة عن إدراك حقيقة سر الحكم الإلهية (وقد يفعل) الله تعالى

بِالعَبْدِ الْأَصْلَحَ دُونَ الْأَفْضَلِ حِكْمَةً مِنْ فِعْلِهِ ، أَلاَ تَرَى أَنَّهُ قَدَّرَ لِلنَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ أَنْ يَنَامُوا طُولَ اللَّيْلِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ فِى بَعْضِ الْأَسْفَارِ حَتَّى فَاتَتْهُمْ صَلَاةُ اللَّيْلِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ ، وَالصَّلَاةُ أَفْضَلُ مِنَ النَّوْمِ ؛ وَرُبَّمَا يُقَدِّرُ لِلْعَبْدِ الْغِنَى وَالنِّعْمَةَ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ الْفَقْرُ أَفْضَلَ ، وَرُبَّمَا يُقَدِّرُ لَهُ الِاشْتِغَالَ بِالْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ وَإِنْ كَانَ التَّجَرُّدُ لِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَفْضَلَ ، فَإِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ، وَهٰذَا

(بالعبد الأصلح دون الأفضل حكمة من فعله) تعالى (ألا ترى أنه قدر) أى قضى الله تعالى (للنبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه أن يناموا طول الليل) بوادى القرى شمالى المدينة النبوية (إلى طلوع الشمس) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من استيقظ والشمس فى ظهره فقام الصحابة رضى الله عنهم فزعين . ثم قال صلى الله عليه وسلم اركبوا فساروا حتي ارتفعت الشمس ثم نزلوا وتوضئوا ثم أذن بلال فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ثم صلى الغداة فجعل بعض الصحابة يهمس إلى بعض ما كفارة ماصنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟ ثم قال صلى الله عليه وسلم «أما لكم فى أسوة؟ أما إنه ليس فى النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها» . قال بعض المحققين : والقصة فى عدة مواضع من الصحيح : أى صحيح البخارى عن قتادة قال «سرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فقال بعض القوم لو عرست بنا يارسول الله ؟ قال أخاف أن تناموا عن الصلاة . قال أنا أوقظكم فاضطجعوا فأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه فنام فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فقال يابلال أين ماقلت ؟ قال ماألقيت على نومة مثلها قط . قال عليه الصلاة والسلام إن الله قبض أرواحكم حيث شاء وردها عليكم حيث شاء قم يابلال فأذن بالصلاة» (فى بعض الأسفار) وذلك حين رجوعه صلي الله عليه وسلم من غزوة خيبر (حتى فاتتهم صلاة الليل وصلاة الفجر) أى الصبح . واستشكل ذلك بحديث «نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا» . وأجيب بأن للأنبياء نومين فكان هذا النوم من النوم الثانى وهو خلاف نوم العين ، وبأن دخول الوقت من وظائف الأعين وهى كانت نائمة فهو لاينافى استيقاظ القلوب وبأن ذلك للتشريع ، لأن من نامت عيناه لا يخاطب بأداء الصلاة حال نومه وهو صلى الله عليه وسلم مشارك لأمته إلا فيما اختص به ، ولم يرد اختصاصه بالخطاب حال نوم عينيه دون قلبه فتأمل ومعلوم أن الصلاة أفضل من النوم (وربما يقدر) أى يقضى الله ويحكم (للعبد الغنى والنعمة فى الدنيا وإن كان الفقر أفضل) من ذلك (وربما يقدر) الله تعالى (له) أى للعبد (الاشتغال بالأزواج والأولاد وإن كان التجرد) عنهما (لعبادة الله عز وجل أفضل فانه) سبحانه وتعالى (بعباده خبير) أى عالم؛ من الخبرة: وهو العلم بالخفايا الباطنة (بصير) بأحوالهم (وهذا) أى المذكور من أنّ الله قد

كَمَا أَنَّ الطَّبِيبَ الْحَاذِقَ النَّاصِحَ يَخْتَارُ لِلْمَرِيضِ مَاءَ الشَّعِيرِ وَإِنْ كَانَ مَاءُ السُّكَّرِ أَفْضَلَ وَأَنْفَسَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ صَلَاحَ عِلَّتِهِ فِى مَاءِ الشَّعِيرِ ، وَالْمَقْصُودُ لِلْعَبْدِ النَّجَاةُ مِنَ الْهَلَاكِ لَا الْفَضْلُ وَالشَّرَفُ مَعَ الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَهَلْ يَكُونُ الْمُفَوِّضُ مُخْتَارًا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الصَّحِيحَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا أَنَّهُ يَكُونُ مُخْتَارًا وَلَا يَقْدَحُ فِى تَفْوِيضِهِ ، وَذَٰلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ إِذَا كَانَ لَهُ صَلَاحٌ فِى الْفُضُولِ وَالْأَفْضَلِ فَهُوَ يُرِيدُ مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى أَنْ يُسَبِّبَ لَهُ الْأَفْضَلَ ، كَمَا أَنَّ الْمَرِيضَ يَقُولُ لِلطَّبِيبِ : اُجْعَلْ دَوَائِى مَاءَ السُّكَّرِ دُونَ مَاءِ الشَّعِيرِ إِذَا كَانَ لِى صَلَاحٌ فِى كِلَيْهِمَا لِيَحْصُلَ لِى الْفَضْلُ وَالصَّلَاحُ جَمِيعاً ، فَكَذَٰلِكَ الْعَبْدُ إِذَا سَأَلَ اللّٰهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ صَلَاحَهُ فِيمَا هُوَ الْأَفْضَلُ ؛ وَيُسَبِّبَ لَهُ ذَٰلِكَ لِيَجْمَعَ لَهُ الْفَضْلَ وَالصَّلَاحَ جَمِيعاً ، وَلَٰكِنْ بِشَرْطِ أَنَّهُ إِنِ اخْتَارَ اللّٰهُ لَهُ الصَّلَاحَ فِى غَيْرِ الْأَفْضَلِ أَنْ يَكُونَ رَاضِياً بِذَٰلِكَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَلِمَاذَا كَانَ

يفعل بالعبد الأصلح دون الأفضل حكمة من فعله (كما أن الطبيب الحاذق) أى الماهر فى علم الطب (الناصح) أى الذى يريد الخير (يختار للمريض ماء الشعير وإن كان ماء السكر) والسكر معروف، وهو أيضا نوع من الرطب شديد الحلاوة (أفضل وأنفس) وأحسن، وذلك (لما علم) الطبيب (أن صلاح علته) أى المريض (فى ماء الشعير والمقصود للعبد النجاة من الهلاك) والفساد (لاالفضل والشرف مع الفساد والهلاك . فإن قيل: فهل يكون المفوض مختارا) أملا (فاعلم أن الصحيح عند علمائنا) رضوان الله عليهم(أنهيكون)أى المفوض(مختارا ولايقدح) من بابقطع:أى لايطعن اختياره (فى تفويضه) أى المفوض (وذلك) أى بيان أن الاختيار لايقدح فى تفويضه (أن المعنى) أي الحكمة (فيه) أى فى اختياره (إذا كان له) أى للمفوض (صلاح فى المفضول والأفضل فهو) أى المفوض (يريد من الله تعالى أن يسبب) أى يجعل سببا (له) أى للمفوض (الأفضل) وهذا (كما أن المريض يقول للطبيب اجعل دوائى ماء السكر دون ماء الشعير إذاكان لى صلاح فى كليهما) أى ماء السكر وماء الشعير (ليحصل لى الفضل والصلاح جميعا ، فكذلك) أى مثل المريض (العبد إذا سأل الله تعالى أن يجعل صلاحه) أى العبد (فيما هو الأفضل و) أن (يسبب) جل وعز (له) أى للعبد (ذلك) الصلاح فيه (ليجمع) سبحانه وتعالى (له) أى للعبد (الفضل والصلاح جميعا ولكن بشرط أنه) أى الشأن (إن اختار الله له الصلاح فى غير الأفضل أن يكون) العبد السائل (راضيا بذلك) أى باختيار الله له الصلاح (فان قيل : فلماذا) أى لأى شيء (كان

لِلْعَبْدِ أَنْ يَخْتَارَ الْأَفْضَلَ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَخْتَارَ الْأَصْلَحَ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْعَبْدَ يَعْرِفُ الْأَفْضَلَ مِنَ الْمَفْضُولِ ، وَلَا يَعْرِفُ الصَّلَاحَ مِنَ الْفَسَادِ لِيُرِيدَهُ بِالْحُكْمِ ؛ ثُمَّ إِنَّ مَعْنَى اخْتِيَارِهِ الْأَفْضَلَ أَنْ يُرِيدَ مِنَ اللهِ تَعَالى أَنْ يَجْعَلَ صَلَاحَهُ فِيمَا هُوَ الْأَفْضَلُ وَيَخْتَارَ لَهُ ذٰلِكَ وَيُقَدِّرَ لَا أَنَّ لِلْعَبْدِ تَحَكُّماً فِي شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ فَاعْلَمْهُ .

فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ مِنْ دَقِيقِ هٰذَا الْعِلْمِ وَأَسْرَارِهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْحَاجَةَ مَسَّتْ إِلَيْهِ لَمَا تَعَرَّضْنَا لِإِيرَادِهِ لِأَنَّهُ تَلَاطُمُ بِحَارِ عُلُومِ الْمُكَاشَفَةِ مَعَ أَنِّي اقْتَصَرْتُ عَلَى النُّكْتَةِ الْمُقْنِعَةِ فِي هٰذَا الْكِتَابِ وَقَصَدْتُ الْإِيضَاحَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ فُحُولُ الْعُلَمَاءِ وَالْمُبْتَدِئُونَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ العارضُ الثالث : القضاء ووُرُود أنواعه ﴾

وَإِنَّمَا كِفَايَتُهُ فِي الرِّضَا بِهِ

للعبد أن يختار الأفضل وليس له) أى للعبد (أن يختار الأصلح فاعلم أن الفرق بينهما) أى الأفضل والأصلح (أن العبد يعرف الأفضل من المفضول ولا يعرف الصلاح من الفساد ليريده) أى الصلاح (بالحكم) أى حكم الجزم بغير استثناء (ثم إن معنى اختياره) أي العبد (الأفضل هو (أن يريد من الله تعالى أن يجعل) جل وعز (صلاحه) أى العبد (فيما هو الأفضل و) أن (يختار) سبحانه (له) أى للعبد (ذلك) أى صلاحه فيما هو الأفضل (و) أن (يقدره) أى الصلاح لذلك العبد (لا) أى لا يكون معنى الاختيار (أن للعبد تحكما فى شىء من ذلك) أى ما هو الأفضل (فاعلمه) أى المعنى المذكور (فهذه) أى الجملة المذكورة (جملة من دقيق هذا العلم) أى علم التفويض (وأسراره) أى هذا العلم (ولولا أن الحاجة مست إليه) أى إلى هذا العلم (لما تعرضنا لايراده) أى ذكره (لأنه تلاطم بحار علوم المكاشفة) أى تضارب الأمواج بعضها بعضا (مع أنى اقتصرت على النكتة المقنعة) أى المكفية (وفى هذا الكتاب) المسمى بالمنهاج (وقصدت الايضاح) والبيان (لينتفع به) أى بهذا الكتاب (فحول العلماء) أى أكابرهم (والمبتدئون إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق) والعصمة .

﴿ العارض الثالث ﴾

من العوارض الأربعة الشاغلة عن عبادة الله تعالى (القضاء) أى فيما حكم به فى الأزل (وورود أنواعه) أى القضاء بالحلو والمر (وإنما كفايته فى الرضا به) أى بالقضاء . قال أبو طالب صاحب القوت : واعلم أن الرضا من مقامات اليقين وأحوال المحبين ومشاهدة

المتوكلين ، وهو داخل فى كل أفعال الله تعالى لأنها عن قضائه ، لا يكون فى ملكه إلا ما قضاه ، فعلى العارفين به الرضا بالقضاء ، ثم يرد ذلك إلى تفصيل العلم وترتيب الأحكام؛ فما كان من خير وبر أمر به أو ندب إليه رضى به العبد وأحبه شرعا وفعلا ووجب عليه الشكر ، وما كان من شر نهى عنه وتهدد عليه فعلى العبد أن يرضى به عدلا وقدرا ويسلمه لمولاه حكمة وحكما وعليه أن يصبر عنه ويقر به ذنبا ويعترف به لنفسه ظلما ويرضى بعود الأحكام عليه بالعقاب وإن اجترحه بجوارحه اكتسابا ، ويرضى بأن لله سبحانه عليه الحجة البالغة وأن لاعذر له فيه ، ويرضى بأنه فى مشيئة الله من عفو عنه برحمته وكرمه إن شاء أو عقوبة بعدله وحقه إن شاء ، لأن الموقنين والمحبين لا يسقطون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا ينكرون إنكار المعاصى وكراهتها بالألسنة والقلوب من قبل أن الإيمان فرضها والشرع ورد بها ، ولأن الحبيب كرهها فكانوا معه فيما كره كما كانوا معه فيما أحب . ومقام اليقين لايسقط فرائض الإيمان ومشاهدة التوحيد لا تبطل شرائع الرسول ولا تسقط اتباعه فمن زعم ذلك فقد افترى على الله ورسوله وكذب على الموقنين والمحبين؛ فمن رضي بالمعاصى والمناكير منه أو من غيره وأحب لأجلها ووالى ونصر عنها أو ادعى أن ذلك يدخل فى مقام الرضا الذى يجازى عليه أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالى ومدحهم ، فهو من الذين ذمهم الله ومقتهم ثم ذكر جملة من الآيات والأخبار والآثار، ثم قال: وقد غلط فى باب الرضا بعض البطالين من المتأخرين ممن لا علم له ولا يقين فحمل الرضا على ما يكون منه من معصية وهوي فحمله بالتفصيل وقلة فقهه بعلم التأويل ولا تباعه ما تشابه من التنزيل طلبا للفتنة وغربة الحال ، وابتداعا فى القول والفعال أو لهواه فى العصيان والفسوق وأراد أن يقيم بذلك عند الجاهلين سوق معذرة له وتطريقا إليه ، ولو عصم من الهوى لاستراح ، ولو زهد فى الدنيا لأراح ، ولو كان علمه التأويل لله الفتاح العليم لأفلح ، ولعلم الناس من علمه فربح وأربح، وأنى له بذلك والهوى يقلبه والبلاء المعقود به يعمره ، وإنما يعلم التأويل منزل التنزيل، ألم تسمع إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وبطلان قول هذا أوضح من أنه يدل على فساده فكفونا عن مناظرته بطرده وإبعاده، والاشتغال بالبطال بطالة لأن أوقاته قد ضاعت فيضيع وقت غيره بذكرها ، ثم قال وقد يحتج أيضا بطال لبخله وقلة مواساته وبذله ، أو يعتل لاتساعه فى أمر الدنيا واستئثاره علي الفقراء أن الذى يمنعه من البذل والإيثار أو الزهد فيما فى يديه والاخراج رضاه بحاله وقلة اعتراضه على مجريه فيه وأن هذا من مقام الرضا خص به عند نفسه ، وهذا قول لاعب ذى هوى ، وهو من خدع النفوس وأمانيها ومن غرور العدو ومكايده لأن الرضا لايمنع من اختيار الفقر والضيقة لمعرفة الراضى بفضل الزهد وأوصافه، كيف ولحب مولاه للفقر ولمقته على التكاثر، فالرضا لا يأمر بالاستئثار والاتساع ما كره من النعمة والاستكثار لأن الرضا يأمر بما أمر الإيمان به إذا كان مقاما فيه ، فهو لايوقف عما ندب إليه العبد ، ولا يدخل فيما كره له من فضول الدنيا إنما يوقف من ذلك غلبة الهوى ويدخل فيه محبة الدنيا ، وهما مذمومان فى العلم وعند العلماء تأمر به النفس الأمارة بالسوء ويوسوس به العدو

فَعَلَيْكَ أَنْ تَرْضَى بِقَضَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

بالهمز والخطم ، وهذه مذمومات وأحالها بجهله على الرضا ، وهذه اغترارات من النفس لها وتمويه على الخلق ليسلم منه ولا عذر له، فهذا عند مالكه ولا سلامة له فيه من خالقه ولا مقام له فى الرضا عند العلماء من أهل الرضا (فعليك) أى الزم (أن ترضى بقضاء الله عز وجل) قال الله تعالى « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وروى البيهقي فى الشعب عن أبى سعيد الخراز . قال فى معنى الآية هل جزاء من انقلع من نفسه إلا التعلق بربه ، وهل جزاء من انقطع عن أنس المخلوقين إلا الأنس برب العالمين ،وهل جزاء من صبر علينا إلا الوصول إلينا. ومن وصل إلينا هل يجمل به أن يختار علينا وهل جزاء التعب فى الدنيا والنصب فيها إلا الراحة فى الآخرة ، وهل جزاء من صبر على البلوى إلا التقرب إلى المكون ، وهل جزاء من سلم قلبه إلينا أن نجعل توليه إلى غيرنا، وهل جزاء من بعد عن الخلق إلا التقرب إلى الحق؟ وفى حديث ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » .

وسئل ذوالنون المصرىعن هذا، فقال معناه هل جزاء من أحسنت إليه إلا أن أحفظ إحسانى عليه فيكون إحسانا إلى إحسان . وقال تعالى « ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر » فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكرولذكر الله أكبر » فكما أن مشاهدة المذكور فىالصلاة أكبرمن الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكانالجنة ، وروى «أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ماأنتم؟ فقالوا مؤمنون ،فقال ماعلامة إيمانكم ؟ قالوا نصبر على البلاء ونشكر عندالرخاء ونرضى بمواقع القضاء؟ فقال مؤمنون وربالكعبة» وفى خبر آخر «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» قال الزبيدى : فما شهد لهم بالإيمان إلا بعد وصف الرضا، وكذلك جعل لقمان الحكيم الرضا من شرط الإيمان لايصلح إلا به . فقال فى وصيته : للايمان أربعة أركان لايصلح إلا بهن كما لايصلح الجسد إلا باليدين والرجلين ذكر منها الرضا بقدر الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون مارأينا حسابا فتقول لهم هل جزتم الصراط ؟ فيقولون مارأينا صراطا ، فتقول لهم هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون مارأينا شيئا ، فتقول الملائكة من أمة من أنتم ؟ فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول نشدناكم الله حدثونا ماكانت أعمالكم فى الدنيا ؟ فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله فيقولون وما هما فيقولون كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه ونرضى باليسيرمما قسم لنا فتقول الملائكة يحق لكم هذا» . قالالعراقى : رواه ابن حبان منحديث أنس ، وفى أخبار موسى عليه السلام : أن بنى إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا . فقال موسى عليه السلام : إلهى قد سمعت ماقالوا ، فقال : ياموسى قل لهم

وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : التَّفَرُّغُ لِلْعِبَادَةِ لِأَنَّكَ إِذَا لَمْ تَرْضَ بِالْقَضَاءِ فَتَكُونَ مَهْمُومًا مَشْغُولَ الْقَلْبِ أَبَدًا بِأَنَّهُ لِمَ كَانَ كَذَا وَلِمَ ذَا يَكُونُ كَذَا ؟

يرضون عني حتى أرضى عنهم ، ويشهد لهذا الخبر ماروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر مالله عز وجل عنده فان الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه» . وقال القشيرى : وقيل قال موسى عليه السلام إلهى دلنى على عمل إذا عملته رضيت عنى فقال إنك لاتطيق ذلك فخر موسى ساجدا متضرعا فأوحى الله إليه : يا ابن عمران إن رضائى فى رضاك بقضائى . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : لقد أصبحت وما بقي لي سرور إلا فى مواقع القدر ، وقيل له ماتشتهى فقال مايقضى الله تعالى. وقال أبو عبد الرحمن البناجى: من عباد الله خلق يستحبون من الصبر يتلقفون مواقع الأقدار بالرضا تلقفا . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وقال عبد العزيز بن أبى رواد: ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ولا فى لبس الصوف والشعر ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل . وعن بعض السلف إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال الثورى يوما عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض؟ فقال أستغفر الله ، فهى ذكرته بأن رضا الله إنما هو ثمرة رضا العبد عن الله تعالى فتذكر الثورى ورجع إلى نفسه واستغفر ، فقال سليمان بن جعفر فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى ؟ قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى. وقال أحمد بن أبى الحوارى قال لى أبو سليمان الدارانى إن الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم . قلت وكيف ذلك ؟ قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه؟ قلت نعم قال فان محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه. وقال سهل بن عبد الله: حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا علي قدر عيشهم مع الله عز وجل ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط » قال العراقي : رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود ، والآيات والأخبار والآثار فى فضيلة الرضا أكثر من أن تحصى وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب (وذلك) أى مطلوب الرضا ولزومه (لأمرين : أحدهما للتفرغ للعبادة) وذلك (لأنك إذا لم ترض بالقضاء فتكون مهموما مشغول القلب أبدا بأنه) أى الشأن (لم) أى لأى شيء (كان) أى الأمر (كذا) أى تعبا ومشقة مثلا (ولم ذا) أى لأى شيء (يكون كذا) أى رديئا وعسرا مثلا ، وفى

فإذَا اُشْتَغَلَ الْقَلْبُ بِشَىْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْهُمُومِ كَيفَ يَتفرَّغُ لِلْعبادَةِ إِذْ لَيْسَ لَكَ إِلاَّ قَلْبٌ وَاحِدٌ ، وَقَدْ مَلأَتْهُ مِنَ الْهُمُومِ ، وَمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ؟ فَأَىُّ مَوْضِعٍ يَبْقَى فِيهِ لِذِكْرِ اللهِ وَلِعِبَادَتِهِ وَفِكْرِ الآخِرَةِ .

وَلَقَدْ صَدَقَ شَقِيقٌ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ : إِنَّ حَسْرَةَ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ وَتَدْبِيرَ الآتِيَةِ قَدْ ذَهَبَتْ بِبَرَكَةِ سَاعَتِكَ هٰذِهِ .

وَالثَّانِى مِنَ الْأَمْرَيْنِ : خَطَرُ مَافِى السُّخْطِ مِنْ غَضَبِ اللهِ تعالَى . وَلَقَدْ رَوَيْنَا فِى الْأَخْبَارِ أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ شَكَا بَعْضَ مَا نَالَهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَتَشْكُونِى وَلَسْتُ بِأَهْلِ ذَمٍّ وَلاَ شَكْوَى ، هٰكَذَا بَدَا شَأْنُكَ فِى عِلْمِ الْغَيْبِ فَلِمَ تَسْخَطُ قَضَائِى عَلَيْكَ ، أَتُرِيدُ أَنْ أُغَيِّرَ الدُّنْيَا لِأَجْلِكَ ،

الخبر المشهور «يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف ؟ » كذا نقله فى القوت . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : «خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى لشىء فعلته لم فعلته ولا لشىء لم أفعله لم لافعلته ، ولاقال فى شىء كان ليته لم يكن ولا فى شىء لم يكن ليته وكان اذا خاصمنى مخاصم من أهله يقول دعوه لوقضى شىء لكان » (فاذا اشتغل القلب بشىء من هـذه الهموم) والأحزان (كيف يتفرغ للعبادة إذ ليس لك إلا قلب واحد) قال الله تعالى « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » أى ماجمع قلبين فى جوف لأن القلب معدن الروح الحيوانى المتعلق للنفس الإنسانى أولا ومنبع القوى بأسرها وذلك يمنع التعدد (و) الحال أنك (قد ملأته من الهموم وماكان) عطف على الهموم (وما يكون من أمر الدنيا ، فأى موضع بقى فيه لذكرالله ولعبادته وفكر) أمور (الآخرة ؟ ولقد صدق) أبو على (شقيق) بن إبراهيم البلخى وقد تقدمت ترجمته (رحمه الله حيث قال : إن حسرة الأمور الماضية وتدبير) الأمور (الآتية قد ذهبت ببركة ساعتك هـذه) أى الساعة التى أنت فيها (والثانى من الأمرين خطر مافى السخط) وهو ترك الرضا (من غضب الله تعالي. ولقد روينا فى الأخبار) السالفة (أن نبيا من الأنبياء شكا بعض مانالة) أى أصابه (من المكروه) وهوالجوع والفقر والقمل عشرسنين كما فى الإحياء (إلى الله تعالى، فأوحي الله تعالى إليه أتشكونى ولست بأهل ذم ولا شكوى؟ هكذا بدا) أى ظهر (شأنك) عندى (فى علم الغيب) أى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا (فلم) أى لأى شىء (تسخط قضائى عليك؟أتريد أن أغير الدنيا لأجلك

أَمْ أُبَدِّلَ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ بِسَبَبِكَ فَأَقْضِي مَا تُرِيدُ دُونَ مَا أُرِيدُ ، وَيَكُونُ مَا تُحِبُّ دُونَ مَا أُحِبُّ ، فَبِعِزَّتِي حَلَفْتُ لَئِنْ تَلَجْلَجَ هٰذَا فِي صَدْرِكَ مَرَّةً أُخْرَى لَأَسْلُبَنَّكَ ثَوْبَ النُّبُوَّةِ وَلَأُورِدَنَّكَ النَّارَ وَلَا أُبَالِي .

قُلْتُ : فَلْيَسْتَمِعِ الْعَاقِلُ هٰذِهِ السِّيَاسَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْوَعِيدَ الْهَائِلَ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ فَكَيْفَ مَعَ غَيْرِهِمْ ؟ ثُمَّ اسْتَمِعْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : لَئِنْ تَلَجْلَجَ هٰذَا فِي صَدْرِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَهٰذَا فِي حَدِيثِ النَّفْسِ وَتَرَدُّدِ الْقَلْبِ ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَصْرُخُ وَيَسْتَغِيثُ وَيَشْكُو وَيُنَادِي بِالْوَيْلِ وَالصُّرَاخِ مِنْ رَبِّهِ الْكَرِيمِ الْمُحْسِنِ عَلَى رُءُوسِ الْمَلَإِ ؟ وَيَتَّخِذُ لَهُ أَعْوَانًا وَأَصْحَابًا ، وَهٰذَا لِمَنْ سَخِطَ مَرَّةً ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ فِي السُّخْطِ عَلَى اللهِ تَعَالَى جَمِيعَ عُمْرِهِ ؟

أم أبدل اللوح المحفوظ بسببك فأقضى ماتريد دون ماأريد ويكون ماتحب دون ماأحب فبعزتي) وجلالى (حلفت لئن تلجلج) أى تحرك (هذا) أى المذكور من الشكاية (فى صدرك مرة أخرى لأسلبنك ثوب النبوة ولأوردنك) أى أدخلنك (النار ولا أبالى) نقله صاحب القوت . وروى فى بعض الأخبار أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يجعل أحدهم رجلاه على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد الى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لاينطق ولا يرفع رأسه فقال له بعض ولده ياأبت أما ترى مايصنع هذا بك لو نهيته عن هذا؟ فقال يابنى إنى رأيت مالم تروا وعلمت مالم تعلموا إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء فأخاف أن أتحرك حركة أخرى فيصيبنى مالا أعلم نقله صاحب القوت. قال: وروينا فى بعض الأخبار أنه قال: إن الله تعالى ضمن لى إن حفظت لساني أن يردني إلى الدار التي أخرجنى منها (قلت فليستمع العاقل هذه السياسة العظيمة والوعيد الهائل) أى المخيف (مع أنبيائه وأصفيائه) عليهم الصلاة والسلام (فكيف) الحال (مع غيرهم ثم استمع قوله عزوجل لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى فهذا) أى التلجلج والتحرك (فى حديث النفس وتردد القلب فكيف بمن يصرخ) أى يصوت وينادى. فى المختار: الصراخ الصوت ، وفى [محيط المحيط] : صرخ يصرخ صراخا وصريخا: صاح شديدا واستغاث وأغاث . والعامة تقول صرخ له بمعنى ناداه (ويستغيث ويشكو وينادى بالويل) أى الهلاك (والصراخ من ربه الكريم المحسن على رؤوس الملأ) أى الجماعة (ويتخذ له) أى لنفسه لأجل الصراخ المذكور (أعوانا وأصحابا ، وهذا) أى التخويف المذكور وهو قوله عز وجل : لئن تلجلج (لمن سخط مرة فكيف ممن هو فى السخط على الله تعالى جميع عمره؟

وَهٰذَا لِمَنْ شَكَا إِلَيْهِ ، فَكَيْفَ مِمَّنْ شَكَا إِلَى غَيْرِهِ ؟ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنَّا وَيَغْفِرَ لَنَا سُوءَ آدَابِنَا وَيُصْلِحَنَا بِحُسْنِ نَظَرِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا مَعْنَى الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَحَقِيقَةُ ذٰلِكَ وَحُكْمُهُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ عُلَمَاءَنَا قَالُوا : إِنَّ الرِّضَا تَرْكُ السُّخْطِ ، وَالسُّخْطُ ذِكْرُ غَيْرِ مَا قَضَى اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ أَوْلَى بِهِ وَأَصْلَحُ لَهُ فِيمَا لَا يَسْتَيْقِنُ فَسَادَهُ وَصَلَاحَهُ ، فَهٰذَا شَرْطٌ فِيهِ ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ .

وهذا) أى التخويف المذكور (لمن شكا إليه) تعالى (فكيف ممن شكا إلى غيره ؟ نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، و) من (سيئات أعمالنا ، ونسأله) سبحانه وتعالى (أن يعفو عنا ويغفر لنا سوء آدابنا ويصلحنا بحسن نظره ، إنه أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (فان قيل: فما معنى الرضا بالقضاء ، وحقيقة ذلك وحكمه ، فاعلم أن علماءنا) رضوان الله عليهم (قالوا إن الرضا ترك السخط والسخط ذكر غير ماقضى الله تعالى بأنه) أى ذلك الغير (أولى) أى أحق (به) أى بالعبد (وأصلح له فيما لايستيقن فساده وصلاحه ، فهذا) أى ترك السخط (شرط فيه) أى فى الرضا (فاعلم ذلك) أى المذكور مما قالوه فى الرضا . ومن ذلك قال أبو على الدقاق : ليس الرضا أن لاتحس بالبلاء إنما الرضا أن لاتعترض على الحكم والقضاء . وقال النصراباذى : من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ماجعل الله رضاه فيه ، وقال ابن خفيف: الرضاسكون القلب إلى أحكامه وموافقة القلب بما رضى الله به واختاره. وقيل قال الشبلى بين يدى الجنيد : لاحول ولا قوة إلا بالله، فقال الجنيد قولك ذا ضيق صدر وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء فسكت الشبلى. وقال أبوسليمان: الرضا أن لاتسأل الله تعالى الجنة ولا تستعيذ به من النار . وكان سعيد بن عثمان يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول : ثلاثة من أعلام الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب فى حشو البلاء ، وذلك لأن الراضى يحسن ما يجريه الله عليه لااختيار له وإنما هو مذعن لما يختاره الله لعلمه بفضل ربه عليه وحسن اختياره له فيما يجريه عليه ، ومتى كان له اختيار فى نفسه فهو مع نفسه راض بحكمها ، لا بحكم ربه كما أفاده شيخ الاسلام : وقيل للحسين ابن علي بن أبى طالب رضى الله عنهما : إن أبا ذر يقول : الفقر أحب إلى من الغنى ، والسقم أحب إلى من الصحة ، فقال رحم الله تعالى أباذر ، أما أنا فأقول من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له لم يتمن غير مااختاره الله عز وجل له . وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافى : الرضا أفضل من الزهد فى الدنيا لأن الراضى لايتمنى فوق منزلته. وسئل أبو عثمان عن قول النبى صلى الله

فَإِنْ قُلْتَ : أَلَيْسَ الشُّرُورُ وَالمَعَاصِي بِقَضَاءِ اللهِ تعالى وَقَدَرِهِ ، فَكَيْفَ يَرْضَى العَبْدُ بِالشَّرِّ وَيَلزَمُهُ ذٰلِكَ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّضَا إِنَّمَا يَلزَمُ بِالقَضَاءِ ، وَقَضاءُ الشَّرِّ لَيْسَ بِشَرٍّ وَإِنَّمَا الشَّرُّ هُوَ المَقْضِيُّ فَلَا يَكُونُ رِضًا بِالشَّرِّ ؛

عليه وسلم « أسألك الرضا بعد القضاء » فقال لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا والرضا بعد القضاء هو الرضا . وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول : أرجو أن أكون عرفت طرفا من الرضا ، لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضيا . وقال أبوعمر الدمشقي : الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان . وقيل كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعرى : أما بعد، فإن الخير كله في الرضا؛ فان استطعت أن ترضى والافاصبر . وقيل إن عتبة الغلام بات ليلة يقول إلى الصباح إن تعذبني فأنا لك محب وإن ترحمني فأنا لك محب . وكان أبو على الدقاق يقول : الإنسان خزف وليس للخزف من الخطر مايعارض فيه حكم الحق تعالي . وقال أبو عثمان الحيرى منذ أربعين سنة ماأقامني الله عز وجل في حال فكرهته وما نقلني إلى غيره فسخطته (فان قلت) فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (أليس الشرور والمعاصى بقضاء الله تعالى وقدره) أي بتقديره الأمور وإحاطته بها، فان كانت المعاصى بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وإن كانت بغير ذلك فهو محال وهو قادح في التوحيد (فكيف يرضى العبد بالشر ويلزمه) أى العبد (ذلك) أى الرضا بالشر (فاعلم أن الرضا إنما يلزم) أى يجب (بالقضاء) بمعنى أنا نرضي بخلق الله المعصية ولا نعترض عليه ، ويجب علينا كراهتها من حيث كونها معصية . قال الإمام الغزالى ونظيره ماإذا كان لك عدوان : أحدهما عدو للآخر فانك تكره موته من حيث أنه ساع في هلاك عدوك وتفرح به من حيث إنه عدوك ، وكذلك المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فترضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه . وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم (وقضاء الشر) بمعنى الإرادة الأزلية (ليس بشرّ وإنما الشرّ هو المقضى فلا يكون) أى الرضا بالقضاء (رضا بالشرّ) وقد يطلق القضاء على المقضى كما في حديث « اللهم إني أعوذ بك من درك الشقاء وسوء القضاء » وهذا لايجب الرضا به مطلقا، بل إن كان واجبا وجب أو مندوبا ندب أو مباحا أبيح أو مكروها كره أو حراما حرم بخلافه بمعنى إرادة الله الأشياء . وقال الكمال محمد بن إسحاق في مقاصد المنجيات: أفعال العباد على ثلاثة أقسام : طاعات ومباحات ومعاص ، فالطاعات يرضى بها مطلقا والمعاصى لايرضى بها مطلقا ، والمباحات منها ما تعين على الطاعات وفراغ القلب للذكر فيلحق

بالطاعات . ومنها مايشغل القلب عن ذكر الله ويحث على المخالفة فيلحق بالمعاصى فى عدم الرضا ، والسر فى ذلك أن الله تعالى أراد مالا يرضى ولا يأمر إلا بما يرضى والعباد متعبدون بما يصدر من الأمر والنهى لا بما يصدر عن مشيئته وتدبيره : فالرب تعالى لايأمر العباد إلا بما فيه مصلحة لهم عاجلة أو آجلة ، وقد تعبدنا ربنا بكراهة المعاصى لمصلحتين : إحداهما مقصودة فى نفسها . والثانية وسيلة لغيرها . أما المصلحة المقصودة لنفسها فان الله تعالي تسمى بالخافض الرافع . ولهما آثار فى الوجود من الخفض والرفع فندب الله عباده إلى أن يكون المخفوض عنده المخفوض عندهم والمرفوع عنده المرفوع عندهم . ولا يوجد كمال هذه العبادة إلا عند المحبين لأن المحبة إذا قربت تعدت إلى كل مايتعلق بالمحبوب حتى يحب حبيبه ويبغض بغيضه وإليه الإشارة بقوله تعالى « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » أى قاتل نفسك وقوله تعالى « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » . وأما المصلحة المقصودة لغيرها فان الله جبل طباع العباد على النفرة عما يكرهونه ، فكراهة المعاصى على هذا وسيلة إلى تركها ونبذها لا من حيث إنها من فعل الله .

فان قلت الرضا والسخط أيضا مرادان وقد قلت إن الله أراد مالا يرضى، وما معنى قوله تعالى « ولا يرضى لعباده الكفر » فأقول الرضا والسخط مردّدان بين الإرادة والفعل . ومعنى الآية محمول على الصفة الفعلية لا على الصفة الذاتية فقوله تعالى « ولا يرضى لعباده الكفر » أى إذا كفروا عاملهم معاملة الساخط عليهم وهذا معنى قولك يريد مالا يرضى : أى خصهم بفعل يعاقبهم عليه لأن حقيقة لفظى الرضا والسخط محالان فى حق الله تعالى كذا أفاده العلامة الزبيدى . وقد ذكر مصنفنا الإمام الغزالى رحمه الله أن مقت الله لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره وإختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده أعنى تسليط دواعى المعصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته . فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادى من أبعده الله عن حضرته وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره ، والمبعد عن درجات القرب ينبغى ألا يكون مقيتا بغيضا إلي جميع المحبين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده ، وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض فى الله والحب فى الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة فى مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل وبه يظهر معنى قوله تعالى « أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال « جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم » وكذلك أمر المؤمنين فى قوله تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » وهذا كله يستمد من سر القدر الذى لا رخصة فى إفشائه إلا لأهله وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به ، فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير افتراق فى الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ،

وَقَدْ قَالَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ الْمَقْضِيَّاتِ أَرْبَعَةٌ : نِعْمَةٌ ، وَشِدَّةٌ ، وَخَيْرٌ ، وَشَرٌّ .

فَالنِّعْمَةُ يَجِبُ الرِّضَا فِيهَا بِالْقَاضِي وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ الشُّكْرُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا نِعْمَةٌ ، وَإِظْهَارُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ بِإِبْدَاءِ أَثَرِ النِّعْمَةِ .

وَالشِّدَّةُ يَجِبُ أَيْضاً الرِّضَا فِيهَا بِالْقَاضِي وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا شِدَّةٌ .

وَالْخَيْرُ يَجِبُ فِيهِ الرِّضَا بِالْقَاضِي وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ ذِكْرُ الْمِنَّةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خَيْرٌ وُفِّقَ لَهُ .

وَالشَّرُّ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ الرِّضَا بِالْقَاضِي وَالْقَضَاءِ وَالْمَقْضِيِّ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَقْضِيٌّ لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَرٌّ ، وَكَوْنُهُ

فالأولى السكوت والتأدب بآداب الشرع ، فقد قال صلي الله عليه وسلم «القدر سر الله فلا تفشوه» رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصى وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فان الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف، كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى فى العطش وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبة مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبة الله تعالي وأمر به . وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا علي سنة الله تعالى لايناقض التوكل ، فاعلم ذلك (وقد قال شيوخنا رحمهم الله تعالى: إن المقضيات) أى الأمور التى قضاها الله تعالى (أربعة: نعمة وشدة وخير وشر ، فالنعمة يجب الرضا فيها بالقاضى والقضاء والمقضى ويجب عليه) أى على العبد (الشكر من حيث إنها) أى النعمة (نعمة و) يجب (إظهار النعمة عليه) أي العبد (بإبداء) أى إظهار (أثر النعمة) وروى «أن شخصا كان جالسا عند النبى صلي الله عليه وسلم فرآه رث الثياب ، فقال له صلى الله عليه وسلم ألك مال ؟ قال نعم فقال له صلى الله عليه وسلم : إذا آتاك الله مالا فلير أثره عليك» . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده » كذا ذكره الخطيب (والشدة يجب أيضا) أى كالنعمة (الرضا فيها بالقاضى والقضاء والمقضى ، ويجب عليه) أى العبد (الصبر من حيث إنها) أى تلك الشدة (شدة والخير يجب فيه الرضا بالقاضى والقضاء والمقضى ويجب عليه) أى العبد (ذكر المنة من حيث إنه) أى ذلك الخير (خير وفق) العبد (له) أى للخير (والشر يجب عليه) أى على العبد (فيه) أى فى الشر (الرضا بالقاضى والقضاء والمقضى من حيث إنه مقضى لا من حيث إنه شر وكونه)

مَقْضِيًّا يَرْجِعُ إلى القَضاءِ وَالْقاضى بِالْحَقِيقَةِ ، وَهٰذا كَما أَنَّكَ تَرْضَى مَذْهَبَ الْمُخالِفِ أَنْ يَكُونَ مَعْلوماً لَكَ لاَ أَنْ يَكُونَ مَذْهَباً لَكَ ؛ ثُمَّ كَوْنُهُ مَعْلوماً يَرْجِعُ إلى الْعِلْمِ ، فَالرِّضا وَالمَحَبَّةُ إِنَّما يَكُونانِ بِالْحَقِيقَةِ لِلْعِلْمِ بِمَذْهَبِ الْمُخالِفِ لاَ بِمَذْهَبِهِ ، فَكَذَلِكَ الرِّضا بِالْمَقْضِيِّ .

فَإِنْ قِيلَ : فالرَّاضى هلْ يَكُونُ مُسْتَزِيدًا ؟ قِيلَ لَهُ نَعَمْ بِشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلاح دُونَ الْحُكْمِ ، فَلاَ يُخْرِجُهُ ذٰلِكَ عَنِ الرِّضا ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى الرِّضا فَهُوَ أَوْلَى ، لِأَنَّ مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ وَرَضِيَ ذٰلِكَ اسْتَزادَ مِنْهُ ؛ وَكانَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم إِذا حَضَرَ اللَّبَنُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ بارِكْ لَنا فِيهِ وَزِدْنا مِنْهُ ، وَفى غَيْرِهِ يَقُولُ : وَزِدْنا خَيْرًا مِنْهُ ،

أى الشر (مقضيا يرجع إلى القضاء والقاضى بالحقيقة وهذا) أى الرضا بالمذكور من حيث إنه مقضى (كما أنك ترضى مذهب المخالف أن يكون) أى المذهب (معلوما لك لا) أنك ترضى (أن يكون) أى مذهب المخالف (مذهبا لك ، ثم كونه) أي هذا المذهب (معلوما) لك (يرجع إلى العلم ، فالرضا والمحبة إنما يكونان بالحقيقة للعلم بمذهب المخالف لا بمذهبه) أى لا يكون الرضا والمحبة بتلبس مذهب المخالف ، بل للعلم بذلك المذهب فيما يظهر (فكذلك) أى مثل كون الرضا والمحبة بالحقيقة للعلم بما ذكر (الرضا بالمقضى . فان قيل فالراضى هل يكون مستزيدا) أى طالبا للزيادة والكثرة بالمال أم لا ؟ (قيل له) أى للقائل بما ذكر (نعم) يكون مستزيدا (بشرط الخير والصلاح دون الحكم) أى حكم القطع والجزم (فلا يخرجه) أى الراضى (ذلك) أى طلب الزيادة (عن الرضا بل يدل) ذلك الطلب لما ذكر (على الرضا فهو) أى الطلب المذكور (أولى) وذلك (لأن من أعجبه شيء ورضى ذلك) الشيء الذى أعجبه (استزاد) أى طلب للزيادة (منه) أى من ذلك الشيء (وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حضر اللبن يقول : اللهم بارك لنا فيه) أى فى اللبن (وزدنا منه) أى من هذا اللبن (وفى غيره) أى غير اللبن (يقول) صلي الله عليه وسلم « اللهم بارك لنا فيه (وزدنا خيراً منه) » أى مما رزقتنا من الطعام غير اللبن ، فذلك الدعاء مما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن لعموم نفعه ، ووجه ذلك أنه يجزئ مكان الطعام والشراب كما ورد ذلك فى حديث ابن عباس « فلا خير من اللبن » وبهذا يندفع قول بعضهم هل يلحق ماعدا اللبن من الأشربة به أو بالطعام ، ووجه اندفاعه أن الحديث صريح فى تخصيص ذلك باللبن قال ابن عباس : « دخلت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وخالد بن الوليد على ميمونة فجاءتنا بإناء من لبن فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عن يمينه وخالد عن شماله ، فقال لي الشربة لك فان شئت آثرت بها خالدا ، فقلت ما كنت أوثر على سؤرك أحدا . ثم قال رسول الله صلى الله

وَفى مَوْضِعٍ مِنَ المَوْضِعَيْنِ لَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ رَاضٍ بِمَا قَدَّرَ اللهُ تعالى لَهُ مِنْ ذٰلِكَ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَلَمْ يُذْكَرْ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم الاُسْتِثْنَاءُ وَشَرْطُ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الأُمُورَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْقَلْبِ ، وَأَنَّ مَا يُقَالُ بِاللِّسَانِ عِبَارَةٌ عَنْ ذٰلِكَ ، فَلَا مُعْتَبَرَ بِتَرْكِ عِبَارَتِهِ مَعَ حُصُولِهِ بِالْقَلْبِ ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ مُوقِناً .

﴿ العارضُ الرّابع : الشّدائدُ والمصائبُ ﴾

وَإِنَّمَا كِفَايَتُهَا بِالصَّبْرِ ،

عليه وسلم : من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس شيء يجزىء مكان الطعام والشراب غير اللبن » رواه أبوداود والترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى واللفظ له : هذا حديث حسن وروى النسائى الفصل الأول منه ، قاله صاحب سلاح المؤمن . ورواه كذلك أحمد وابن سعد وابن السنى فى عمل يوم وليلة ، وفى بعض ألفاظهم : «إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك فيه وأبدلنا خيراً منه» (وفى موضع من الموضعين) وهما الدعاء عند شرب اللبن والدعاء عند أكل غيره (لم يدل) أى هذا الدعاء بالزيادة وغيرها فى كل منهما (على أنه) صلى الله عليه وسلم (غير راض بما قدر الله تعالى له) عليه الصلاة والسلام (من ذلك) أى من اللبن وغيره (فان قلت : فلم يذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم الاستثناء وشرط الخير والصلاح . فاعلم أن هذه الأمور) أى من الاستثناء وشرط الخير والصلاح وعدم ذلك (إنما تكون بالقلب وأن مايقال باللسان عبارة عن ذلك) أى مافى القلب (فلا معتبر بترك عبارته) أى مافى القلب باللسان (مع حصوله بالقلب فاعلم ذلك) أى المذكور من أن هذه الأمور إنما تكون بالقلب وأن نطلق اللسان عبارة عما فيه (موقنا) بلا شك، وبالله التوفيق .

﴿ العارض الرابع ﴾

هذا آخر العوارض الأربعة الشاغلة عن العبادة (الشدائد والمصائب) مرادف لما قبله كمرض وسقم وموت نحو ولد وفقد مال وتسلط أشرار (وإنما كفايتها) أى تلك الشدائد والمصائب (بالصبر) أى حبس النفس على كريه تتحمله أو لذيذ تفارقه ، وهو ممدوح ومطلوب وذلك بأن تترك الشكوى لمخلوق وتكل الأمر لعلام الغيوب كما قال بعضهم :

صبرت ولم أطلع هواك على صبرى ... وأخفيت ما بى منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميرى صبابتى ... إلى دمعتي سرا فتجرى ولا أدرى

قال ذوالنون : الصبر التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البليات بنزول الآلام

والأسقام وإظهار الغنى مع حلول الفقر به فى جميع الحالات . وقال ابن عطاء : هو الغناء فى البلوى بلا إظهار شكوى ؛ وقيل هو القيام مع البلاء بحسن الصحبة كالإقامة مع العافية .

واعلم أن الصبر هو الإيمان كله ومدار قطب الإسلام بأسره ، «لأنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن الإيمان ؟ قال : الصبر » وقد ذكر الصبر فى الكتاب العزيز نيفا وسبعين مرة ، ويطلق معناه علي الشكر وعكسه ، مثل أن يصاب فيصبر ويرى أن هذه المصيبة نعمة من الله تعالى باطنة فيشكر عليها ويصبر فقد اجتمع له فى ذلك الصبر والشكر ؛ وفى الأربعين : «الصبر نصف الإيمان وأقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار» والصبر كنز من كنوز الجنة، وحقيقته ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى ولا يتصور إلا فى الإنسان لأن له جندين : حزب الله وهو العقل ودواعيه ، وحزب الشيطان وهو الشهوة ودواعيها والحاجة إليه داعية فى جميع الأحوال إذ مايلقاه الإنسان فى الدنيا إما أن يوافقه أولا ، فان وافقه كالصحة والجاه فما أحوجه له فانه إن لم يضبط نفسه طغى واتبع الهوى ، وإن خالفه كالطاعة احتاج له أول العمل بالإخلاص وحالته بالدوام على الأدب وبعده بترك إفشائه . قال بعض الصحابة: ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى ، وهو من أعلى المقامات . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر فى القرآن على ثلاث مقامات : صبر علي أداء الفرائض وله ثلثمائة درجة ، وصبر على محارم الله وله ستمائة درجة ، وصبر على مصيبة الله عند الصدمة الأولى وله تسعمائة درجة. وقد قال عليه الصلاة والسلام «إن الله سبحانه وتعالي قال إذا واجهت عبدا من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا» وقال عليه الصلاة والسلام «انتظار الفرج بالصبر عبادة» فقد عرفت أنك لاتستغنى عنه فى جميع أحوالك ؛ وبه يظهر أنه شطر الإيمان والشطر الآخر فيما يتعلق بالأعمال وهو الشكر . وقد قال عليه الصلاة والسلام « الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » وهذا بالنظر إلى الأعمال والتعبير بالإيمان عنها .

يحكى أن أبا الحسن رأى امرأة فى الطواف قد أضاء حسن وجهها ، فقال والله مارأيت قط نضارة وحسنا مثل هذه وماذاك إلا لقلة الهم والحزن ، فسمعته فقالت له : والله إنى لوثيقة بالأحزان مكلومة الفؤاد بالهموم والأشجان مايشركنى فيها أحد . ذبح زوجى شاة ضحينا بها ولى ولدان صغيران يلعبان وعلى يدى طفل يرضع ، فقمت لأصنع لهم طعاما إذ قال ابنى الكبير للصغير ألا أريك كيف صنع أبى بالشاة فأضجعه وذبحه وهرب فأكله الذئب فطلبه أبوه وأدركه العطش فمات فوضعت الطفل وخرجت أنظر ما فعل أبوهم فدب الطفل البرمة على النار فألقى يده فيها وصبها على نفسه وهى تغلى فانتثر لحمه عن عظمه فبلغ ذلك ابنة لى كانت عند زوجها فرمت بنفسها فوافقت أجلها فأفردنى الدهر من بينهم، فقال لها وكيف صبرك على ذلك ؟ فقالت مامن أحد ميز الصبر والجزع إلا وجد بينهما منهاجا متفاوتا، فأما الصبر بحسن العلانية فمحمود العاقبة ، وأما الجزع فصاحبه غير معوض ثم أعرضت وهى تقول :

فَعَلَيْكَ بِالصَّبْرِ فى المَوَاطِنِ كُلِّهَا ، وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : الْوُصُولُ إِلى الْعِبَادَةِ وَحُصُولُ الْمَقْصُودِ مِنْهَا ، فَإِنَّ مَبْنَى أَمْرِ الْعِبَادَةِ كُلِّهَا عَلَى الصَّبْرِ وَاُحْتِمَالِ الْمَشَقَّاتِ ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ صَبُورًا لَمْ يَصِلْ إِلى شَىْءٍ مِنْهَا بِالْحَقِيقَةِ ، وَذٰلِكَ أَنَّ مَنْ قَصَدَ عِبَادَةَ اللهِ تعالى وَتَجَرَّدَ لَهَا مُحِقًّا اُسْتَقْبَلَتْهُ شَدَائِدُ وَمِحَنٌ وَمَصَائِبُ مِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَا عِبَادَةَ إِلَّا وَفى نَفْسِهَا مَشَقَّةٌ ، وَلِذٰلِكَ

صبرت وكان الصبر خير معول ... وهل جزع يجدى علي فأجزع

صبرت على مالو تحمل بعضه ... جبال شرورى أصبحت تتصدع

ملكت دموع العين حتى رددتها ... إلي ناظرى فالعين فى القلب تدمع

وما أحسن قول الشاعر :

إنى وجدت وفى الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقل من جد فى شئ يطالبه ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وكم ورد فى الصبر من آيات وأحاديث وآثار كثيرة عجيبة كقوله تعالى «إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب» فبين سبحانه وتعالى ثواب الطاعات كلها على لسان نبيه فلما انتهى إلى الصبر قال «إنما يوفى» الآية وقوله «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا» فجعلهم أئمة لصبرهم وقوله «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم» أى على طاعة الله «فنعم عقبي الدار» الجنة ، وقوله صلى الله عليه وسلم «إن فى الجنة منازل لاينالها العبد بأعماله ليس لها علاقة من فوقها ولا عماد من تحتها، قيل يارسول الله كيف يدخلها أهلها ؟ قال يدخلها أهلها شبه الطير، قيل لمن تكون تلك المنازل ؟ قال لأصحاب البلايا والغموم والهموم والأمراض» ولبعضهم :

الدهر لايبقي على حالة ... لابد أن يقبل أو يدبرا

فان تلقاك بمكروهه ... فاصبر فان الدهر لن يصبرا

والكلام فيه كثير شهير وأقوالهم فيه لاتكاد تحصر (فعليك بالصبر فى المواطن كلها وإنما) يجب عليك (ذلك) أى الصبر فى جميع المواطن (لأمرين : أحدهما الوصول إلى العبادة وحصول المقصود منها) أى العبادة (فإن مبنى أمر العبادة كلها على الصبر واحتمال المشقات ، فمن لم يكن صبورا) أى كثير الصبر (لم يصل إلى شئ منها) أى العبادة (بالحقيقة وذلك) أى عدم وصوله إلى شئ منها بالحقيقة (أن من قصد عبادة الله تعالى وتجرد لها محقا استقبلته شدائد ومحن) جمع محنة ، فى المختار : المحنة واحدة المحن التى يمتحن بها الانسان من بلية (ومصائب من وجوه) أربعة (أحدها أنه) أى الشأن (لاعبادة إلا وفى نفسها مشقة ولذلك) أى لأجل المشقة فى نفس

كَانَ كُلُّ هٰذَا التَّرْغِيبُ فِيهِ وَوَعْدُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ ، إِذْ لَا يَتَأَتَّى فِعْلُ الْعِبَادَةِ إِلَّا بِقَمْعِ الْهَوَى وَقَهْرِ النَّفْسِ ، إِذْ هِيَ زَاجِرَةٌ عَنِ الْخَيْرِ ؛ وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى وَقَهْرُ النَّفْسِ مِنْ أَشَدِّ الْأُمُورِ عَلَى الْإِنْسَانِ .

وَثَانِيهَا : أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا فَعَلَ الْخَيْرَ مَعَ الْمَشَقَّةِ لَزِمَهُ الْاحْتِيَاطُ لَهُ حَتَّى لَا يَفْسُدَ عَلَيْهِ وَالْاتِّقَاءُ عَلَى الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ .

وَثَالِثُهَا : أَنَّ الدَّارَ دَارُ مِحْنَةٍ ، فَمَنْ كَانَ فِيهَا فَلَابُدَّ لَهُ مِنَ الْابْتِلَاءِ بِشَدَائِدِهَا وَمَصَائِبِهَا

العبادة (كان كل هذا الترغيب فيه) أى الصبر عليها (ووعد الثواب عليه) أى علي الصبر (إذ لا يتأتى) ولا يتحصل (فعل العبادة إلا) بالصبر وذلك (بقمع الهوي) أى قهره (وقهر النفس) الأمارة بالسوء (إذ هي) أى النفس (زاجرة) ومانعة (عن الخير ومخالفة الهوى وقهر النفس) أى والحال أن ذلك (من أشد الأمور) وأشقها (على الإنسان) ولذلك قال سهل التسترى رحمه الله : ما عبد الله بشىء مثل مخالفة النفس والهوى ، وقال ذو النون المصرى : مفتاح العبادة الفكرة ، وعلامة الاصابة مخالفة النفس والهوى، ومخالفتهما ترك شهواتهما (وثانيها) أى الوجوه الأربعة (أن العبد إذا فعل الخير مع المشقة لزمه الاحتياط له) أى لفعل الخير (حتى لا يفسد) أى ذلك الفعل (عليه) أى العبد (والاتقاء) أى الاحتراز والاجتناب (على العمل) أى آفاته ومفسداته (أشد من العمل) ولذلك قال أيوب السختيانى : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال ، وكذا قال يوسف بن أسباط : تخلص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد ، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لاتهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل رضى الله عنه « أخلص العمل يجزك منه القليل» (وثالثها) أى الوجوه الأربعة (أن الدار) أى دار الدنيا (دار محنة) وبلية (فمن كان فيها) أى في الدنيا (فلا بد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها) ولا يجد لنفسه راحة ولهذا قال جعفر الصادق رضي الله عنه : من طلب من لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق ، فقيل له وما ذاك ؟ قال الراحة فى الدنيا وفى معناه أنشدوا :

تطلب الراحة فى دار العنا　　خاب من يطلب شيئا لايكون

وقال بعض البلغاء ملتمس السلامة فى دار المتالف والمعاطب كالمتمرغ على مزاحف الحيات ومداب العقارب . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : الدنيا كلها غموم فما كان منها فى سرور فهو ربح ، وقال الجنيد قدس سره : لست أستبشع مايرد علي من العالم لأنى قد أصلت أصلا وهو أن الدنيا دارهم وغم وبلاء وفتنة وأن العالم كله شر ، ومن حكمه أن يتلقانى بكل ماأكره فإن تلقانى بكل ما أحب فهو فضل وإلا فالأصل هو الأول ، وقال أبو تراب رحمه الله : ياأيها الناس

أنتم تحبون ثلاثة أشياء وليس هي لكم : تحبون النفس وهى لهواها وتحبون الروح والروح لله وتحبون المال والمال للورثة وتطلبون اثنين ولا تجدونهما الراحة والفرح وهما فى الجنة ، فالواجب على العبد أن لايوطن على الراحة فى الدنيا نفسا ولا يركن فيها إلى مايقتضى فرحا وأنسا وأن يعمل على قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه « الدنيا سجن المؤمن » فتوطين العبد على المحن فى دنياه يهون عليه مايلقاه ويجد السلوان عند فقدان مايهواه كما قيل فى المعنى :

يمثل ذو اللب فى لبه ... شدائد قبل أن تنزلا
فان نزلت بغتة لم ترعه ... لما كان فى نفسه مثلا
رأى الأمر يفضى إلى آخر ... فصير آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه ... وينسى مصارع من قدخلا
فان دهمته صروف الزمان ... ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم فى نفسه ... لعلمه الصبر عند البلا

فليتلق العبد مايرد عليه بالصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضاء فعن قريب ينجلى الأمر ويستوجب من الله تعالى جزيل الأجر والله تعالى ولى التوفيق . قال أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله قال لى أبو سليمان الدارانى : جوع قليل وعرى قليل وذل قليل وصبر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا ، فمن جعل الصبر معتمده فى نوازله واعتده من أعظم عدده ووسائله فهو مصيب فى رأيه منجح فى سعيه ، ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب كان عاملا فيما يزيده ضرا ويكسبه وزرا ويفوته أجرا وناهيك به خسرا كما قيل :

وإذا تصبك مصيبة فاصبر لها ... عظمت مصيبة مبتلى لايصبر

وكما قيل أيضا :

وعوضت أجرا من فقيد فلاتكن ... فقيدك لايأتى وأجرك يذهب

قال بعض العارفين : ورود الأكدار الدنيوية على العبد نعم من الله تعالى عليه لأن ذلك لامحالة يدعوه إلى الزهادة فى الدنيا والتجافى عنها ويصرف عنه وجود الغباوة والجهالة لأجل تمسكه بالخيال وما يستضر به فى الحال والمآل ، لأن الموجب لرغبته فيها وحرصه على نيلها إنما هو مايتوهمه فيها من الحصول على منيته وبغيته وقضاء غرضه من شهوته ونهمته من غير مكدر ولا منغص ولو تصور له حصول على هذه الأشياء على حسب مايحبه ويهواه كان ينبغى له أن يرغب عنها عوضا عن الرغبة فيها إن كان عاقلا لأن مآل أمره إلى الفناء والزوال والافتقار والانقضاء والارتحال ، وقد قال الشاعر :

أشد الغم عندى فى سرور ... تيقن عنه صاحبه ارتحالا
أرى الدنيا على من كان فيها ... تدور فلا تديم عليه حالا

وَذٰلِكَ أَقْسَامٌ : فَمِنْهَا الْمُصِيبَةُ فِى الْأَهْلِ وَالْقَرَابَاتِ وَالْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ بِالْمَوْتِ وَالْفَقْدِ وَالْفِرَاقِ ، وَفِى النَّفْسِ بِأَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ ، وَفِى الْعِرْضِ بِقِتَالِ النَّاسِ إِيَّاهُ ، وَالطَّمَعِ فِيهِ وَالْإِزْدِرَاءِ بِهِ وَالْغِيبَةِ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِ ، وَفِى الْمَالِ بِالذَّهَابِ وَالزَّوَالِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ الْمَصَائِبِ لَذْعَةٌ وَحُرْقَةٌ مِنْ نَوْعٍ غَيْرِ نَوْعِ الْآخَرِ ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ عَلَيْهَا كُلِّهَا وَإِلَّا فَيَمْنَعُهُ الْجَزَعُ وَالتَّلَهُّفُ مِنَ التَّفَرُّغِ لِلْعِبَادَةِ .

وَرَابِعُهَا :

ثم هى مانعة له من سعادة الآخرة والقرب من الله عز وجل الذى هو غاية طلب الطالبين ونهاية رغبة الراغبين فكيف وهو معرض فيها لأنواع المصائب والفجائع ، فما من أحد فيها إلاوهو فى كل حال ووقت غرض لأسهم ثلاثة : سهم بلية وسهم رزية وسهم منية ، فإذا نزل به ذلك عادت النعمة نقمة وانقلبت الحيرة عبرة وصارت الفرحة ترحة ، وهكذا شأن الدنيا أبدا فلا يفى مرجوها بمخوفها ولا يقوم خيرها بشرها ولقد صدق الشاعر فى قوله :

إن الليالى لم تحسن إلى أحد   إلا أساءت إليه بعد إحسان

وصدق أيضا من قال :

ماقام خـيرك يازمان بشدة   أولى بنا ماقل منك وما كفى
زمن إذا أعطى استرد عطاءه   وإذا استقام بدا له متحـرفا

قال أبو هاشم الزاهد رحمه الله إن الله وسم الدنيا بالوحشية ليكون أنس المريدين به دونها وليقبل المطيعون إليه بالإعراض عنها وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون وإلى الآخرة متشاقون وقيل أوحى الله تعالى إلى الدنيا تضيق وتشددى على أوليائى وترفهى وتوسعى على أعدائى: تضيق على أوليائى حتى لايتعرفوا بك عنى وتوسعى على أعدائى حتى يشتغلوا بك عنى فلا يتفرغوا لذكرى (وذلك) أى الابتلاء بما ذكر (أقسام : فمنها المصيبة فى الأهل والقرابات والاخوان والأصحاب بالموت والفقد والفراق، و) منها المصيبة (فى النفس بأنواع الأمراض والأوجاع) مرادف لما قبله (و) منها المصيبة (فى العرض بقتال الناس إياه والطمع فيه والازدراء) أى الاحتقار (به) أى بالعبد (والغيبة والكذب عليه ، و) منها المصيبة (فى المال بالذهاب والزوال ولكل واحد من هذه المصائب لذعة) أى حرقة . فى المختار : لذعته النار أحرقته وبابه قطع (وحرقة) أى حرارة وعطفه لما قبله تفسيرى (من نوع غير نوع الآخر، فيحتاج) العبد (إلى الصبرعليها كلها) أى المصائب (وإلا) أى إن لم يصبر عليها (فيمنعه) أى العبد (الجزع) . فى المختار : والجزع ضد الصبر وبابه طرب (والتلهف) أى الحزن والتحسر (من التفرغ للعبادة . ورابعها) أى الوجوه

أَنَّ طَالِبَ الآخِرَةِ أَشَــدُّ ابْتِلَاءً وَأَكْثَرُ مِحْنَةً أَبَدًا ، وَمَنْ كَانَ إِلَى اللهِ أَقْرَبَ فَالْمَصَائِبُ فِى الدُّنْيَا أَكْثَرُ ، وَالْبَلَاءُ عَلَيْهِ أَشَدُّ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ » فَإِذَنْ مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وَتَجَرَّدَ لِطَرِيقِ الآخِرَةِ اسْتَقْبَلَتْهُ هٰذِهِ الْمِحَنُ ، فَإِنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهَا وَلَا يَكُونُ بِحَيْثُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا انْقَطَعَ عَنِ الطَّرِيقِ وَاشْتَغَلَ عَنِ الْعِبَادَةِ ، فَلَا يَصِلُ إِلَى شَىْءٍ مِنْ ذٰلِكَ .

الأربعة (أن طالب الآخرة أشد ابتلاء وأكثر محنة أبداً ، ومن كان إلى الله أقرب فالمصائب فى الدنيا أكثر والبلاء عليه أشد ، أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم : أشد الناس بلاء) أى محنة واختباراً (الأنبياء) والمراد بهم ما يشمل الرسل عليهم الصلاة والسلام كما فى [سراج السالكين] وبهذا لما قال إنسان يارسول الله إن بى حمى شديدة . قال صلى الله عليه وسلم «إنى لأمعك كما يمعك الرجلان منكم » وذكر الحديث : أى إذا أصاب أحدكم مرض ثم أصابنى ذلك المرض كان على فى المشقة مثل مشقته على رجلين . فان قيل أن المحب لايضر محبه : أجيب بأنه تعالى إذا أحب إنسانا ألقى فى قلبه محبته تعالى فيحدث الإنسان نفسه أنه يحبه تعالى فيختبره تعالى بالمرض من جهة أنه محب لامحبوب فكأنه يقول زعمتم محبتى فأختبركم حينئذ هل تصدقون فى ذلك كذا ذكره العلامة الحفنى (ثم العلماء) وفى رواية «ثم الصالحون» (ثم الأمثل فالأمثل) أى الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى فهم معرضون للمحن والبلاء، والسر فى ذلك أن البلاء فى مقابلة النعمة ، فمن كانت نعمة الله عليه أكثر كان بلاؤه أشد إلا أنه كلما قويت المعرفة بالمبتلى هان عليه البلاء ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « ليس بمؤمن » أى مستكمل الإيمان « من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة» ومنهم من ينظر إلى أجر البلاء فيهون عليه البلاء ، وأعلى من ذلك درجة من يرى أن هذا تصرف المالك فى ملكه فيسلم ولايعترض، وأرفع منه من شغلته المحبة عن طلب رفع البلاء ، وهذا الحديث رواه الطبرانى فى الكبير عن فاطمة أخت حذيفة . قال العلقمى : بجانبه علامة الحسن (فإذن) أى حين إذ كان الأمر كما فى الحديث (من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة) أى سلوكها (استقبلته هذه المحن) والمصائب (فان لم يصبر عليها) أى على هــذه المحن والمصائب (ولا يكون بحيث لايلتفت إليها انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة فلا يصل إلى شىء من ذلك) أى قصده الخير وتجرده لطريق الآخرة .

[مهمة] ومما يخفف ألم البلاء على العبد علمه بأن الله تعالى رحيم به ومستعطف عليه وناظر إليه فكل مايورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغى له أن لا يكترث بذلك ولا يباليه فليحسن به ظنه وليعتقد أن ذلك اختيار له وأن فى ذلك مصالح خفية لا يعلمها إلا هو كما قال الله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » قال أبو طالب صاحب القوت فى هذه الآية : فالعبد يكره

وَلَقَدْ أَعْلَمَنا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِاتِّقَاءِ الْمِحَنِ وَالْمَصَائِبِ وَابْتِلَائِنا بِها ، وَحَقَّقَ ذٰلِكَ وَأَكَّدَهُ فقَالَ تعالى : (لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ

العيلة والفقر والخمول والضر وهو خير له فى الآخرة ، وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شر له عند الله تعالى وأسوأ عاقبة وفى معنى ذلك قوله تعالى « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » وقيل ظاهرة العوافى وباطنة البلايا لأنها نعمة الآخرة فإذن كل مايصيب المؤمن فهو نعمة كائنا ماكان فله الحمد على نعمه . قال ابن عطاء فى التنوير : إنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره ، وأنشد فيه لنفسه بقوله :

وخفف عنى ماألاقى من العنا   بأنك أنت المبتلى والمقدر

وما لامرئ عما قضى الله معدل   وليس له منه الذى يتخير

وكان أبو على الدقاق رحمه الله يقول : جربت مرة وكنت فى صوزة وحشة من ذلك فدخلت الحمام ففتح على قلبي شيء من الرضا فكنت ألثم كل واحدة من تلك القروح فخرجت ولم يبق منها أثر . وقال القشيرى رحمه الله : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول فى آخر عمره وقد اشتدت به العلة : من أمارات التأييد حفظ التوحيد فى أوقات الحكم ثم قال كالمفسر لقوله مشيرا إلى ماكان فيه من حاله هو أن يقرضك بمقاريض القدرة فى إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن خامد . وقال الجنيد رحمه الله : كنت نائما عند سرى السقطى رحمه الله فنبهنى وقال لى ياجنيد رأيت كأنى قد وقفت بين يديه جل وعز فقال لى : ياسرى خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتى فخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم وبقى معى العشر وخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار العشر وبقى معى عشر العشر ، وخلقت النار فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر عشر العشر . فقلت للباقين معى : لاالدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولامن النار هربتم ولامن البلاء فررتم فماذاتريدون؟قالوا إنك لتعلم مانريد، فقلت لهم إنى أسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم مالا تقوم به الجبال الرواسى أتصبرون؟ قالوا إذا كنت أنت المبتلى فافعل ماشئت فهؤلاء عبادى حقا (ولقد أعلمنا الله سبحانه وتعالي بإتقاء المحن والمصائب وابتلائنا بها) أى بتلك المحن والمصائب (وحقق) سبحانه وتعالى (ذلك) أى المذكور من الاتقاء والابتلاء (وأكده) أى ماذكر منهما حتى حسن ذكره (فقال تعالى « لتبلون) اللام لام القسم تقديره والله لتبلون : أى لتختبرن فتوقع عليكم المحن ليعلم المؤمن وغيره ، والاختبار طلب المعرفة ليعرف الجيد من الردىء وذلك فى وصف الله تعالى محال لأن الله تعالى عالم بحقائق الأشياء كلها قبل أن يخلقها، فعلى هذا يكون معنى الاختبار فى وصف الله تعالى أنه يعامل العبد معاملة المختبر (فى أموالكم) يعنى بالابتلاء فى الأموال بالنقصان منها ، وقيل بأداء مافرض فيها من الحقوق

وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا) ثُمَّ قَالَ : (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) فَكَأَنَّهُ يَقُولُ : وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَنَّهُ لَابُدَّ لَكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَايَا ، فَإِنْ تَصْبِرُوا فَأَنْتُمُ الرِّجَالُ وَعَزَائِمُكُمْ عَزَائِمُ الرِّجَالِ ؛ فَإِذَنْ مَنْ عَزَمَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ يَجِبُ أَوَّلًا أَنْ يَعْزِمَ عَلَى الصَّبْرِ الطَّوِيلِ وَيُوَطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى احْتِمَالِ الْمَشَاقِّ الْعَظِيمَةِ الْمُتَوَالِيَةِ إِلَى الْمَوْتِ، وَإِلَّا فَقَدْ قَصَدَ الْأَمْرَ بِغَيْرِ آلَتِهِ وَأَتَاهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ .

وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الْفُضَيْلِ رَحِمَهُ اللهُ

(وأنفسكم) يعني بالمصائب والأمراض والقتل وفقد الأقارب والعشائر (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعني اليهود والنصارى الشتم والطعن والكذب والزور على الله (ومن الذين أشركوا) يعني مشركي العرب أيضا (أذى كثيرا) بالشتم والضرب والطعن والقتل والكذب والزور على الله تعالى (ثم قال) تعالى (وأن تصبروا) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين : يعني على أذاهم (وتتقوا) فيما أمركم به ونهاكم عنه ، لأن الصبر عبارة عن احتمال الأذى والمكروه ، والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لاينبغي (فان ذلك) يعني الصبر والتقوى (من عزم الأمور) أي من صواب التدبير الذي لاشك أن الرشد فيه ولاينبغي لعاقل تركه ، وأصله من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا : أي ألزمتك أن تفعله لامحالة ولا تتركه ، وقيل معناه فان ذلك مما قد عزم عليكم فعله : أي ألزمتم الأخذ به . قال المصنف (فكأنه) سبحانه وتعالى (يقول وطنوا أنفسكم على أنه) أي الشأن (لابد لكم من أنواع البلايا فان تصبروا) على ذلك (فأنتم الرجال) الكرام (وعزائمكم عزائم الرجال) وفي الخازن: خوطب بهذه الآية المسلمون ليوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى وما سيلقون من الشدائد والمصائب ليصبروا على ذلك حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدون بالصبر لها لايرهقهم مايرهق غيرهم ممن تصيبه الشدة بغتة فينكرها ويشمئز منها (فإذن) أي حين إذا فهمت المعنى المذكور (من عزم على عبادة الله سبحانه يجب أولا) أي قبل شروعه في العبادة (أن يعزم على الصبر الطويل و) أن (يوطن) أي يقرر ويمهد (نفسه على احتمال المشاق العظيمة المتوالية إلى الموت وإلا) أي وإن لم يعزم على الصبر الطويل ولم يوطن نفسه علي الاحتمال (فقد قصد الأمر بغير آلته وأتاه من غير وجهه) أي جهته (ولقد ذكر عن الفضيل) ابن عياض بن مسعود بن بشر أبي علي التميمي اليربوعي الزاهد (رحمه الله) وتقدمت ترجمته

أَنَّهُ قالَ : مَنْ عَزَمَ عَلَى قَطْعِ الطريقِ لِلْآخِرَةِ فَلْيَجْعَلْ فى نَفْسِهِ أَرْبَعَةَ أَلْوانٍ مِنَ المَوْتِ : الأَبْيَضِ ، وَالْأَحْمَرِ ، وَالْأَسْوَدِ ، وَالْأَخْضَرِ ؛ فَالْمَوْتُ الْأَبْيَضُ : الْجُوعُ ، وَالْأَسْوَدُ : ذَمُّ النَّاسِ ، وَالْأَحْمَرُ : مُخَالَفَةُ الشَّيْطَانِ ، وَالْأَخْضَرُ : الْوَقَائِعُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ .

وَالثَّانِي مِنَ الْأَمْرَيْنِ : مَافِى الصَّبْرِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، فَمِنْ ذٰلِكَ النَّجَاةُ وَالنَّجَاحُ . قالَ تَعَالَى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

(أنه قال : من عزم على قطع طريق الآخرة فليجعل فى نفسه أربعة ألوان من الموت) أحدها (الأبيض و) ثانيها (الأحمر و) ثالثها (الأسود و) رابعها (الأخضر ، فالموت الأبيض) هو (الجوع و) الموت (الأسود) هو (ذم الناس) أى احتماله (و) الموت (الأحمر مخالفة) النفس و (الشيطان و)الموت (الأخضر الوقائع بعضها على بعض) أورده القشيرى فى الرسالة عن حاتم الأصم ولم يذكر الفضيل قال فيها سمعت عبدالله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا نصر منصور بن محمد بن إبراهيم الفقيه يقول سمعت أبا محمد جعفر بن محمد بن نصير يقول : روى عن حاتم أنه قال من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت : موتا أبيض وهو الجوع وموتا أسود وهو احتمال الأذى من الخلق وموتا أحمر وهو العمل الخالص من الشوب فى مخالفة الهوى وموتا أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض . قال العلامة الرندى ، قال سهل بن عبد الله رحمه الله : للنفس سر ماظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون فقال «أنا ربكم الأعلى» ولها سبعة حجب سماوية وسبعة حجب أرضية ، فكلما يدفن العبد نفسه أرضا سما قلبه سماء سماء ، فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش : يعنى إذا خالفتها وفارقتها ، وسبيل العبد إلى الوصول إلى موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء والرغبة إلى مولاه فى أن يعينه ويقويه على أمر نفسه ، ولذا قال بعض العارفين : لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما الخروج من النفس بالله ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة فى ظاهره وباطنه والتزام آدابهما ولكل عبد عمل مخصوص يقتضى لامحالة حكما مخصوصا يقوم بحقه وذلك مختلف باختلاف أحوال الناس ، فحركات العبد وسكناته هى أعماله الظاهرة ومقصوده وهمه وإرادته هى أعماله الباطنة وكل واحد من القسمين ينبغى أن يأخذ فيه بعزائم الأمور ويجتنب الرخص التى هى من شأن العامة والجمهور (والثانى من الأمرين مافى الصبر من خير الدنيا والآخرة ، فمن ذلك) أى مافى الصبر (النجاة والنجاح) أى الظفر بالمراد (قال) الله (تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب»)

مَعْنَاهُ : مَنْ يَتَّقِ اللهَ تَعَالَى بِالصَّبْرِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ الشَّدَائِدِ ، وَمِنْهَا الظَّفَرُ بِالْأَعْدَاءِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) وَمِنْهَا الظَّفَرُ بِالْمُرَادِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) .

وَقِيلَ : كُتُبَ يُوسُفُ

قال المصنف رحمه الله (معناه من يتق الله تعالى بالصبر يجعل له مخرجا من الشدائد) وأورد أبو طاهر محمد بن يعقوب فى تفسيره عن ابن عباس مثله ، فقال : ومن يتق الله عند المصيبة فيصبر يجعل له مخرجا من الشدة ، ويقال من المصيبة إلى الطاعة ، ويقال من النار إلى الجنة (ومنها) أى من الخيرات الكائنة فى الصبر (الظفر بالأعداء . قال الله تعالى) «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا (فاصبر) يامحمد على أذى مشركى قومك كما صبر نوح على أذى قومه (إن العلقبة) يعني النصر والظفر على الأعداء والفوز بالسعادة الأخروية (للمتقين)» عن الشرك والمعاصي (ومنها) أى من الخيرات الكائنة فى الصبر(الظفر بالمراد، قال الله تعالى «وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل») يعني وتمت كلمة الله وهى وعدهم بالنصر علي عدوهم والتمكين فى الأرض من بعدهم ، وقيل كلمة الله هي قوله «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض» الآية والحسنى صفة للكلمة وهي تأنيث الأحسن وتمامها إنجاز ماوعدهم به من تمكينهم فى الأرض وإهلاك عدوهم (بما صبروا) بسبب صبرهم على الشدائد(وقيل كتب يوسف) بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وفى يوسف ست لغات أو ستة أوجه ضم السين وفتحها وكسرها مع الهمز وتركه ، والفصيح الذى جاء به القرآن ضمها بلا همز وهو اسم أعجمي . والصواب أنه لااشتقاق له ، ولبعض المفسرين وغيرهم تخبيط فى اشتقاقه ويوسف هذا نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله وخليله عليهم الصلاة والسلام ، وذكر الله تعالى قصته فى القرآن مبسوطة مفصلة أكمل البسط وسورته مختصة بقصته إلا ما انضم إليها ، والأحاديث الصحيحة متضافرة بفضائله ، منها حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» رواه البخارى، وعن أبى هريرة قال «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس ؟ قال أتقاهم لله . قالوا ليس عن هذا نسألك. قال فأكرم الناس يوسف ابن نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله وخليل الله» رواه البخارى، وعن أبى هريرة أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو لبثت فى السجن مالبث يوسف ثم أتانى الداعى لأجبته» رواه الشيخان وهذا لفظ البخارى ، وعن أنس فى حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثم عرج بى إلى السماء الثالثة ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير » . وذكر أبو إسحاق

فى جَوَابِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: إِنَّ آبَاءَكَ صَبَرُوا فَظَفَرُوا فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا تَظْفَرْ كَمَا ظَفَرُوا؛

الثعلبى فى كتابه العرائس فى قصة يوسف : أنه كان أبيض اللون حسن الوجه جعد الشعر ضخم العين مستوى الخلق غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن أقنى الأنف صغير السرة ، وكان بخده الأيمن خال أسود وكان ذلك الخال يزين وجهه وبين عينيه شامة تزيده حسنا ، وكان جده إسحاق حسنا وكانت أم إسحاق سارة حسنة . قالوا : وأعطى الله يوسف من الحسن وصفاء اللون ونقاء البشرة مالم يعط أحداً . قالوا ورثت سارة هذا الحسن من جدتها حواء زوج آدم . قال الثعلبى عن العلماء بأخبار الماضين : أقام يعقوب وأولاده بعد قدومهم على يوسف بمصر أربعا وعشرين سنة بأغبط عيش فلما حضرته الوفاة أوصاهم بأن يحمل جسده الى بيت المقدس ويدفن عند أبيه وجده فخرج به يوسف بمصر وإخوته وعسكره محمولا فى تابوت ، كان عمر يعقوب مائة وسبعا وأربعين سنة وعاش يوسف بعد يعقوب ثلاثا وعشرين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة ودفن بمصر فى النيل ثم حمله موسى فى زمنه إلى الشام حين خرجت بنو إسرائيل من مصر إلى الشام ، كذا نقله العلامة عبد الحق عن تهذيب الأسماء (فى جواب) كتاب أبيه (يعقوب عليهما السلام : إن آباءك) من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (صبروا فظفروا فاصبر) أنت (كما صبروا تظفر كما ظفروا) قال صاحب البصائر نقلا عن بعض المشايخ كان صبر يوسف عليه السلام عن طاعة امرأة العزيز أكمل من صبره على إلقاء إخوته إياه فى الجب وبيعهم وتفريقهم بينه وبين أبيه فان هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ليس للعبد حيلة فيها عن الصبر . وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس ، ولاسيما مع أسباب تقوى معها داعية الموافقة فانه كان شابا وداعية الشاب إليها قوية ، وكان عزبا ليس له مايعوضه ويرد شهوته ، وغريبا والغريب لايستحى فى بلد غربته مما يستحى منه بين أصحابه وأهله ، ويحسبونه مملوكا والمملوك ليس وازعه كوازع الحر ، والمرأة جميلة وذات منصب وقد غاب الرقيب وهى الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص ومع ذلك توعدته بالسجن إن لم يفعل ، فمع هذه الدواعى كلها صبر اختيارا وإيثارا لما عند الله ، وأين هذا من صبره فى الجب على ماليس من كسبه ؟ والصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات ، فان مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية .

واعلم أن الشكوى إلى الله عز وجل لاتنافى الصبر ، فان يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل والنبى إذا وعد لايخلف ، ثم قال « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » وكذلك أيوب عليه السلام أخبر الله عنه أنه وجده صابرا مع قوله « مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » وإنما ينافى الصبر شكوى الله لا الشكوى إلي الله كما رؤى بعضهم يشكو إلى آخر فاقة وضرورة ، فقال ياهذا تشكو من يرحمك إلى من لايرحمك ، ثم أنشد :

وَفِى هٰذَا المَعْنَى قِيل :

لاَ تَيْأَسَنْ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ ... إِذَا اُسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجًا
أَخْلِقْ بِذِى الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنُ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا

وَمِنْهَا التَّقَدُّمُ عَلَى النَّاسِ وَالْإِمَامَةُ ، قَالَ تَعَالَى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) . وَمِنْهَا الثَّنَاءُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) . وَمِنْهَا الْبِشَارَةُ وَالصَّلَاةُ وَالرَّحْمَةُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

وإذا اعترتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فانه بك أرحم
وإذاشكوت إلىابن آدملا كما ... تشكوالرحيم إليالذىلايرحم

(وفى هذا المعنى قيل) من بحر البسيط (لاتيأسن) بالنون المخففة : أى لاتقنط من رحمة الله (وإن طالت مطالبة * إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا) أى سعة (أخلق بذى الصبر) فعل تعجب : أى أجدر بصاحب الصبر (أن يحظى) أى يظفر (بحاجته) أى ذى الصبر (ومدمن) أى مداوم (القرع للأبواب) قرع الباب يقرعه قرعا: دقه وتقرعليه ومنه المثل : من قرع بابا ولج ولج (أن يلجا) أى أن يدخل .

(ومنها) أى من الخيرات الكائنة فى الصبر (التقدم على الناس والإمامة قال تعالى) «وجعلناه» يعنى الكتاب «هدى لبنى إسرائيل» (وجعلنا منهم) أى من بنى اسرائيل (أئمة) أى قادة للخير يقتدى بهم وهم الأنبياء الذين كانوا فى بنى إسرائيل ، وقيل هم أتباع الأنبياء (يهدون) الناس الى مافى التوراة من دين الله وشرائعه (بأمرنا) إياهم به أو بتوفيقنا له (لما صبروا) حين صبروا على الحق بطاعة الله أو عن المعاصى ، وقرأ حمزة والكسائى وورش «لما صبروا» أى لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا ، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس .

(ومنها) أى من الخيرات الثابتة فىالصبر (الثناء من الله سبحانه وتعالى . قال سبحانه وتعالى: إنا وجدناه) أى أيوب بن عيص بن إسحاق عليهم الصلاة والسلام (صابرا) على البلاء . نعم قد شكا إلى الله مابه واسترحمه ، لكن الشكوى إلى الله لاتسمى جزعا ، فقد قال يعقوب عليه السلام «إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله» على أنه عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم أنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ماابتلى به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان كذا ذكره النسفي (نعم العبد) أيوب (إنه أواب) مقبل ورجاع إلى الله تعالى .

(ومنها البشارة والصلاة والرحمة . قال الله تعالى « وبشر الصابرين ») على هذه البلايا

إلى قوله تعالى : (أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) الآية . وَمِنْهَا المَحَبَّةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى . قالَ اللهُ تَعالى : (وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) . وَمِنْها الدَّرَجَاتُ العُلَى فى الجَنَّةِ ، قالَ اللهُ تَعالى : (أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) . وَمِنْها الْكَرَامَةُ الْعَظِيمَةُ قالَ تَعالى ، (سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) .

أو المسترجعين عند البلايا ، لأن الاسترجاع تسليم وإذعان ، وفى الحديث « من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقبابه وجعل له خلفا صالحا يرضاه » وطفىء سراج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، فقيل أمصيبة هى؟ قال نعم كل شىء يؤذى المؤمن فهو مصيبة» والخطاب لرسول الله صلي الله عليه وسلم أو لكل من يتأتي منه البشارة كما ذكره النسفي (إلى قوله تعالى : أولئك) يعنى من هذه صفتهم (عليهم صلوات من ربهم) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى مغفرة من ربهم . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «اللهم صل على آل أبى أوفى » أى اغفر لهم وارحمهم وإنما جمع الصلوات ؛ لأنه عنى مغفرة بعد مغفرة ورحمة بعد رحمة (ورحمة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ونعمة ، والرحمة من الله إنعامه وإفضاله وإحسانه ، ومن الآدميين رقة وتعطف ، وقيل إنما ذكر الرحمة بعد الصلوات لأن الصلاة من الله الرحمة لاتساع المعنى واتساع اللفظ وتفعل ذلك العرب كثيرا إذا اختلف اللفظ واتفق المعنى ، وقيل كلاهما للتأكيد : أى عليهم رحمة بعد رحمة (الآية) بالنصب مفعول لفعل محذوف تقديره اقرأ بقية الآية ونصها من أولها « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» . (ومنها) أى من الخيرات المذكورة (المحبة من الله تعالى : قال الله تعالى « والله يحب الصابرين ») يعنى فى الجهاد : والمعنى أن من صبر علي تحمل الشدائد فى طلب الآخرة ولم يظهر الجزع والعجز فإن الله يحبه ، ومحبة الله تعالى للعبد عبارة عن إرادة إكرامه وإعزازه وإيصال الثواب له وإدخاله الجنة مع أوليائه وأصفيائه ذكره الخازن . (ومنها) أى الخيرات المذكورة (الدرجات العلا فى الجنة . قال الله تعالى) «والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما (أولئك) أهل هذه الصفة (يجزون) يثابون (الغرفة») أعلى مواضع الجنة وهى اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى «وهم فى الغرفات آمنون » وللقراءة بها ، وقيل هي من أسماء الجنة (بما صبروا) بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات كذا فى البيضاوى ، وقوله من مضض بيان للمشاق وأصله الوجع ، والمراد به هنا ثقلها كما فى سراج السالكين . (ومنها) أى من الخيرات المذكورة (الكرامة العظيمة قال) الله (تعالى) والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم) يعنى يقولون لهم سلام عليكم فأضمر القول ههنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم)

وَمِنْهَا ثَوَابٌ بِلَا غَايَةٍ وَلَا نِهَايَةٍ ، خَارِجًا عَنْ أَوْهَامِ الْخَلْقِ وَإِعْدَادِهِمْ وَتَحْصِيلِهِمْ . قَالَ تَعَالَى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

يعنى يقولون لهم سلمكم الله من الآفات التى كنتم تخافونها فى الدنيا وأدخلكم بما صبرتم فى دار الدنيا على الطاعات وترك المحرمات الجنة ، وقيل إن السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثوابا للفعل فعلى هذا يكون قوله سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعنى سلمكم الله بما صبرتم . قال مقاتل : إن الملائكة يدخلون عليهم فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى يقولون « سلام عليكم بما صبرتم » . وروى البغوى بسنده عن أبى أمامة موقوفا عليه قال « إن المؤمن ليكون متكئا على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فإذا بالملك يستأذن فيقول للذى يليه ملك يستأذن ويقول الآخر كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم إلي المؤمن ائذنوا له ويقول الذى يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف » .

(ومنها) أى من الخيرات المذكورة (ثواب بلا غاية ولانهاية) هما مترادفان (خارجا عن أوهام الخلق وإعدادهم وتحصيلهم ، قال تعالى إنما يوفى الصابرون) على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لها (أجرهم) ثوابهم (بغير حساب) أجرا لا يهتدى إليه حساب الحساب ، وفى الحديث « إنه تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صباحتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل » . ولنذكر فى هذا المقام أحاديث وردت فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين : روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يصب منه » يعنى يبتليه بالمصائب « حتي يأجره على ذلك » وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنه عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها خطاياه » النصب : التعب والإعياء . والوصب : المرض ، ورويا أيضا عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به عنه من سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » ، ورويا أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تفيئه ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تحصد » الأرزة شجر معروف بالشام ، ويعرف فى العراق ومصر بالصنوبر والصنوبر ثمرة الأرز ، وقيل الأرزة الثابتة فى الأرض وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال :

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إلٰهٍ سَيِّدٍ مَاجِدٍ مَا أَكْرَمَهُ ، وَكُلُّ هٰذِهِ الْكَرَامَاتِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ يُعْطِيهَا عَبْدَهُ عَلَى صَبْرِ سَاعَةٍ . فَبَانَ لَكَ أَنَّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فِى الصَّبْرِ . قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَا أُعْطِىَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٍ أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » وَعَنْ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : جَمِيعُ خَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فِى صَبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرْجَى وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُونْ

«إذاأراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبد شرا أمسك عنه حتى يوافى يوم القيامة » وبهذا الإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وان الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » أخرجه الترمذى، وله عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقاريض» وله عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة» وقال حديث حسن صحيح ، وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى مالعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة» وعن سعيد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: «قلت يارسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة هون عليه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » أخرجه الترمذى ، وقال حديث حسن (فسبحانه من إله سيد ماجد) أى كريم جواد (ما أكرمه) للتعجب (وكل هذه الكرامات فى الدنيا والآخرة يعطيها) الله تعالى (عبده على صبر ساعة) أى زمان قليل (فبان) أى ظهر (لك أن خير الدنيا والآخرة فى الصبر. قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم : ماأعطى) بالبناء للمفعول (أحد من عطاء خير أوسع من الصبر) قال العلامة عبد الرءوف المناوى فى كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق رواه ابن منيع بلفظ « ماأعطى أحد عطاء هو خير وأوسع من الصبر » (وعن عمر) بن الخطاب (رضى الله عنه أنه قال : جميع خير المؤمنين فى صبر ساعة واحدة . ولقد أحسن القائل) فما قال من مجزو البسيط (الصبر مفتاح ما يرجى) من أنواع الخير (وكل خير به) أى بالصبر (يكون) أى يوجد

فَاصْبِرْ وَإِنْ طَالَتِ اللَّيالِي فَرُبَّمَا أَمْكَنَ الحُرُونْ
وَرُبَّمَا نِيلَ بِاصْطِبَارٍ مَا قِيلَ هَيْهَاتَ لاَ يَكُونْ

وَلِقَائِلٍ آخَر :

صَبَرْتُ وَكَانَ الصَّبْرُ مِنِّي سَجِيَّةً وَحَسْبُكَ أَنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَى الصَّبْرِ
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا فَإِمَّا إِلَى يُسْرٍ وَإِمَّا إِلَى عُسْرِ

فَعَلَيْكَ بِاغْتِنَامِ هٰذِهِ الخَصْلَةِ الشَّرِيفَةِ المَحْمُودَةِ وَبَذْلِ المَجْهُودِ فِيهَا تَكُنْ مِنَ الْفَائِزِينَ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

فَإِنْ قُلْتَ فَمَا حَقِيقَةُ الصَّبْرِ وَحُكْمُهُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لَفْظَةَ الصَّبْرِ مِنْ طَرِيقِ اللُّغَةِ الحَبْسُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) الآيَة . أَيِ احْبِسْ نَفْسَكَ مَعَهُمْ

(فاصبر وإن طالت الليالى) والأيام (فربما أمكن الحرون) أى الذى لاينقاد من الخيل (وربما) للتكثير (نيل باصطبار)أى بصبر (ماقيل) من الأمر (هيهات) أى بعد (لا يكون) أى لا يوجد الأمر (ولقائل آخر) من بحر الطويل(صبرت وكان الصبرمنى سجية* وحسبك) أى كافيك (أن الله أثنى على الصبر. سأصبر حتي يحكم الله بيننا * فإما إلى يسر وإما إلى عسر . فعليك) أى الزم (باغتنام هذه الخصلة الشريفة المحمودة) وهى الصبر (وبذل المجهود فيها) أى فى تلك الخصلة (تكن من الفائزين) فى الدارين (والله تعالى ولى التوفيق . فان قلت فما حقيقة الصبر وحكمه ؟) أى حكم الصبر (فاعلم أن لفظة الصبر من طريق اللغة الحبس) والكف فى ضيق ومنه قتل فلان صبرا : إذا أمسك وحبس للقتل(قال الله تعالى « واصبر نفسك») الآية نزلت فى عيينة بن حصن الفزارى «أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان وعليه شملة صوف قد عرق فيها وبيده خوص يشقه وينسجه ، فقال عيينة للنبي صلى الله عليه وسلم أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلساً فأنزل الله عز وجل «واصبر نفسك» أى احبس يا محمد نفسك (مع الذين يدعون) يعبدون (ربهم الآية) أى اقرأ تمامها وهو « بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا» قال المصنف (أى احبس نفسك معهم) والصبر ضربان : صبر بدنى وذلك كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها على قدر قوة البدن ونهايته معلومة وأكثرها لذوى الجسوم الخشنة وليس ذلك بفضيلة تامة ، ولهذا قال الشاعر :

والصبر بالأرواح يعرف فضله صبر الملوك وليس بالأجسام

وَإِنَّمَا يُوصَفُ اللهُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَلَى مَعْنَى حَبْسِهِ الْعَذَابَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ فَلَا يُعَاجِلُهُمْ بِهِ، ثُمَّ الْمَعْنَى الَّذِى هُوَ مِنْ مَسَاعِى الْقَلْبِ سُمِّىَ صَبْرًا لِأَنَّهُ حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ ، وَالْجَزَعُ فِيمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ ذِكْرُ اضْطِرَابِكَ فِى الشِّدَّةِ ، وَقِيلَ بَلْ إِرَادَةُ الْخُرُوجِ عَنِ الشِّدَّةِ بِالْحُكْمِ وَالصَّبْرُ تَرْكُهُ ، وَحِصْنُ الصَّبْرِ ذِكْرُ مِقْدَارِ الشِّدَّةِ وَوَقْتِهَا وَأَنَّهَا لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ وَلَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ وَلَا فَائِدَةَ فِى الْجَزَعِ بَلْ فِيهِ الضَّرَرُ وَالْخَطَرُ وَحِصْنُ هَذَا الْحِصْنِ ذِكْرُ حُسْنِ عِوَضِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَكَرِيمِ الذُّخْرِ فِى ذَلِكَ لَدَيْهِ ،

وهو إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة إما من العبادات كأن يصلى حتى ترم رجلاه أو يصوم مواصلا حتى تسقط قوته أو من غيرها كالمشي الكثير ورفع الحجر الثقيل ، وإما بالاحتمال وهو الانفعالى كالصبر على الضرب الشديد بالمقارع والمرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع نصا أو قياسا أو استحبابا ، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر عن النفس وذلك بأن يكف النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى وبه تتعلق الفضيلة (وإنما يوصف الله تعالى بالصبر على معنى حبسه) سبحانه (العذاب عن) القوم (المجرمين فلا يعاجلهم به) أى بالعذاب (ثم المعنى) أى معنى الصبر (الذى هو من مساعى) أى أعمال (القلب، سمي) هذا المعنى (صبرا لأنه حبس النفس عن الجزع) بفتحتين (والجزع) أى معناه (فيما قاله العلماء) رضى الله عنهم (ذكر اضطرابك) وقلقك (في) حال (الشدة ، وقيل بل إرادة الخروج عن الشدة بالحكم) أى بلا استثناء (والصبر تركه) أى الجزع (وحصن الصبر) هو (ذكر مقدار الشدة ووقتها و) ذكر (أنها) أى الشدة (لا تزيد ولا تنقص ولا تتقدم ولا تتأخر ولا فائدة فى الجزع بل فيه) أى فى الجزع (الضرر والخطر وحسن هذا الحصن ذكر حسن عوض الله تعالى عليه) أى على الصبر (و) ذكر (كريم الذخر) والأجر (في ذلك) الصبر (لديه) أى عنده تعالى يقول الله تعالى « يا ابن آدم إذا أخذت منك كريمتيك فصبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرض لك ثوابا دون الجنة » رواه الطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة ، وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم « إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فاذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته فإلى رحمتى » وقال داود عليه السلام فى محض مخاطباته مع الله عز وجل : يارب ماجزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه ، وقرأ قوله تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . وقيل إن امرأة فتح الموصلى عثرت برجلها فانقطع ظفرها فضحكت

فَهٰذِهِ هٰذِهِ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

(فصل) فَعَلَيْكَ بِقَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الشَّدِيدَةِ الْمَنِيعَةِ بِدَفْعِ هٰذِهِ الْعَوَارِضِ الْأَرْبَعَةِ وَإِزَاحَةِ عِلَّتِهَا وَإِلَّا فَلَا تَدَعُكَ تَذْكُرُ مَقْصُودَكَ مِنَ الْعِبَادَةِ وَتَتَفَكَّرُ فِيهَا فَضْلًا عَنْ أَنْ تُدْرِكَهَا فَتُحَصِّلَهَا وَإِنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا شُغْلًا شَاغِلًا عَاجِلًا وَآجِلًا . ثُمَّ إِنَّ أَعْظَمَهَا وَأَعْضَلَهَا أَمْرُ الرِّزْقِ وَتَدْبِيرُهُ ، فَإِنَّهُ الْبَلِيَّةُ الْكُبْرَى لِعَامَّةِ الْخَلْقِ أَتْعَبَتْ نُفُوسَهُمْ وَشَغَلَتْ قُلُوبَهُمْ وَأَكْثَرَتْ هُمُومَهُمْ وَضَيَّعَتْ أَعْمَارَهُمْ وَأَعْظَمَتْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَوْزَارَهُمْ ، وَعَدَلَتْ بِهِمْ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَخِدْمَتِهِ إِلَى خِدْمَةِ الدُّنْيَا وَخِدْمَةِ الْمَخْلُوقِينَ فَعَاشُوا فِى الدُّنْيَا فِى غَفْلَةٍ وَظُلْمَةٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ

فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه (فهذه) الجملة المذكورة (هذه) أى عظيمة (وبالله التوفيق) .

فصـــــل

(فعليك بقطع هذه العقبة الشديدة المنيعة) أى القوية ، وذلك (بدفع هذه العوارض الأربعة) المذكورة من الرزق والأخطار والقضاء والمصائب (وإزاحة) أى إزالة (علتها ، وإلا) أى إن لم تقطع ولم تجاوز هذه العقبة المذكورة (فلا تدعك) أى تتركك (تذكر مقصودك من العبادة وتتفكر فيها) أى فى العبادة (فضلا) . قال قطب الدين الشيرازى فى شرح المفتاح : اعلم أن فضلا يستعمل فى موضع يستبعد فيه الأدنى ويراد به استحالة مافوقه ، ولهذا يقع بين كلامين متغايرى المعنى . وأكثر استعماله أن يجىء بعد نفى كما هنا ، وقولهم لايملك درهما فضلا عن دينار وشبهه معناه لايملك درهما ولا دينارا وعدم ملكه للدينار أولى بالانتفاء ، وكأنه قال لايملك درهما فكيف يملك دينارا وانتصابه على المصدر ، والتقدير فقد ملك درهم فقدا يفضل عن فقد ملك دينار (عن أن تدركها فتحصلها وإن لكل واحد منها) أى من العوارض الأربعة (شغلا شاغلا عاجلا وآجلا ، ثم إن أعظمها) أى تلك العوارض الأربعة (وأعضلها) أى أشدها (أمر الرزق وتدبيره فإنه) أى أمر الرزق (البلية الكبرى) والداهية العظمى (لعامة الخلق) أى أكثرهم (أتعبت) أى تلك البلية (نفوسهم وشغلت قلوبهم وأكثرت همومهم) وأحزانهم (وضيعت أعمارهم وأعظمت تبعاتهم) أى حقوقهم (و) أعظمت (أوزارهم) وأثقلت أحمالهم (وعدلت) أى تجاوزت (بهم عن باب) رحمة (الله تعالى وخدمته) أى طاعته (إلى خدمة الدنيا) وطلبها (وخدمة المخلوقين فعاشوا) أى هؤلاء العامة (فى الدنيا فى غفلة) عن خدمة ربهم وطاعته (وظلمة) من دخان الشواغل (وتعب ونصب)

وَمَهَانَةٍ وَذُلٍّ وقَدِمُوا إِلَى الآخِرَةِ مَفَالِيسَ بَيْنَ أَيْدِيهِمُ الْحِسَابُ والْعَذَابُ، إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ ، وَانظُرْ كَمْ آيَةٍ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فى ذٰلِكَ ، وَكَمْ ذِكْرٍ مِنْ وَعْدِهِ وَضَمَانِهِ وَقَسَمِهِ عَلَى ذٰلِكَ . وَلَمْ تَزَلِ الأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ يَعِظُونَ النَّاسَ وَيُبَيِّنُونَ لَهُمُ الطَّرِيقَ وَيُصَنِّفُونَ الْكُتُبَ وَيَضْرِبُونَ لَهُمُ الأَمْثَالَ وَيُخَوِّفُونَهُمْ بِاللهِ تَعَالَى وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ لَا يَهْتَدُونَ وَلَا يَتَّقُونَ وَلَا يَطْمَئِنُّونَ ، بَلْ هُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ ذٰلِكَ لَا يَزَالُونَ يَخَافُونَ أَنْ يَفُوتَهُمْ غَدَاءٌ أَوْ عَشَاءٌ وَأَصْلُ ذٰلِكَ كُلِّهِ قِلَّةُ التَّدَبُّرِ لِآيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَقِلَّةُ التَّفَكُّرِ فى صَنَائِعِ اللهِ ، وَتَرْكُ التَّذَكُّرِ لِكَلَامِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، وَتَرْكُ التَّأَمُّلِ لِأَقْوَالِ الصَّالِحِينَ مَعَ الِاسْتِرْسَالِ لِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَالْإِصْغَاءِ إِلَى كَلَامِ الْجَاهِلِينَ وَالِاغْتِرَارِ بِعَادَاتِ الْغَافِلِينَ حَتَّى تَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ وَرَسَخَتِ الْعَادَاتُ فى قُلُوبِهِمْ فَتَأَدَّى بِهِمْ ذٰلِكَ إِلَى ضَعْفِ الْقَلْبِ وَرِقَّةِ الْيَقِينِ .

بمعنى واحد (ومهانة وذل) بمعنى واحد أيضا (وقدموا إلى الآخرة مفاليس) من الحسنات (بين أيديهم الحساب) للحلال (والعذاب) للحرام (إن لم يرحم الله تعالى بفضله) ورحمته (وانظر كم آية) فى القرآن العزيز (أنزل الله تعالى فى ذلك) أى فى أمر الرزق (وكم ذكر) الله تعالى (من وعده) تعالى (وضمانه وقسمه على ذلك) أى الرزق (ولم تزل الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام (والعلماء) رضى الله عنهم (يعظون الناس ويبينون) أى الأنبياء والعلماء (لهم) أى للناس (الطريق ويصنفون) أى العلماء (لهم) أى لهؤلاء الناس (الكتب) التى فيها ذكر مايصلحهم فى أمر دينهم ودنياهم (ويضربون) أى يبينون (لهم الأمثال ويخوفونهم) أى يخوف الأنبياء والعلماء هؤلاء الناس (بالله تعالى) أى بعذابه (وهم) أى هؤلاء الناس (مع ذلك) أى المذكورة من الآيات المنزلة فى أمر الرزق والمواعظ من الأنبياء والعلماء وغيرهما (لايهتدون ولا يتقون ولا يطمئنون بل هم فى غمرة) أى شدة (من ذلك) أى الرزق (لايزالون يخافون) أى الناس من (أن يفوتهم غداء) أى طعام النهار (أو عشاء) أى طعام الليل (وأصل ذلك) أى خوف فوات الغداء أو العشاء (كله) بالجر (قلة التدبر لآيات الله سبحانه وقلة التفكر فى صنائع الله) وعجائب خلقه (وترك التذكر) والاتعاظ (لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك التأمل لأقوال الصالحين) والعلماء رضوان الله عليهم أجمعين (مع الاسترسال لوساوس الشيطان والإصغاء) أى الاستماع والميل (إلى كلام الجاهلين) المغرورين (والاغترار) أى الانخداع (بعادات الغافلين) عن طاعة مولاهم (حتى تمكن الشيطان منهم) أى من أولئك المذكورين (ورسخت) أى ثبتت (العادات فى قلوبهم فتأدى) أى أوصل (ذلك) أى الاسترسال لوساوس الشيطان وما بعده (إلى ضعف القلب ورقة اليقين) والحال أن اليقين مقام فوق الإيمان وهو الطمأنينة التى

وَأَمَّا الْأَخْيَارُ الَّذِينَ هُمْ أُولُو الْأَبْصَارِ وَأَرْبَابُ الْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ فَأَبْصَرُوا طَرِيقَ السَّمَاءِ فَلَمْ يَعْبَئُوا بِأَسْبَابِ الْأَرْضِ وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللهِ فَلَمْ يَكْتَرِثُوا بِعَلَائِقِ الْخَلْقِ وَتَيَقَّنُوا بِآيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَأَبْصَرُوا طَرِيقَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَالْخَلْقِ وَالنَّفْسِ، فَإِذَا وَسْوَسَ لَهُمْ شَيْطَانٌ أَوْ نَفْسٌ أَوْ إِنْسَانٌ بِشَيْءٍ قَامُوا مَعَهُ بِالْمُنَاقَشَةِ وَالْمُدَافَعَةِ وَالْمُخَالَفَةِ حَتَّى وَلَّى الْخَلْقُ عَنْهُمْ وَاعْتَزَلَ عَنْهُمُ الشَّيْطَانُ وَانْقَادَتْ لَهُمُ النَّفْسُ وَاسْتَقَامَ لَهُمُ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ عَلَى مَا ذُكِرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْبَادِيَةَ أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَخَوَّفَهُ

حكاها الله سبحانه وتعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام بقوله « أو لم تؤمن قال بلى » الآية . قال ذو النون المصرى رحمه الله : ثلاثة من أعلام اليقين : قلة مخالطة الناس فى العشرة وترك المدح لهم فى العطية ولا ينافيه طلب الدعاء لهم وشكرهم لأنهما يحصلان بنحو جزاك الله خيرا وأكرمك الله ، والمدح ذكر المحاسن المقترن غالبا بدخول العجب على الممدوح والتنزه عن ذمهم عند منعهم العطية إذ المانع حقيقة هو الله تعالى ولا يليق الذم بغير الفاعل فذمه هنا يخشى منه ذم الفاعل حقيقة . وبالجملة من تيقن أن الله هو الرزاق في سائر الأحوال حصلت منه هذه الثلاثة (وأما الأخيار الذين هم أولو) أى أصحاب (الأبصار) والبصائر (وأرباب الجدوالاجتهاد فأبصروا طريق السماء) أى الذى يشار إليه بقوله تعالى «وفى السماء رزقكم» الآية (فلم يعبثوا) أى لم يبالوا (بأسباب الأرض واعتصموا) أى تمسك الأخيار أولو البصائر (بحبل الله) أى بدينه الإسلام أو بكتابه لقوله صلى الله عليه وسلم «القرآن حبل الله المتين » استعار له الحبل من حيث إن التمسك به سبب للنجاة من الردى كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردى وللوثوق به والاعتماد عليه الاعتصام ترشيحا للمجاز . وفى أفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ألا وإنى تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة » الحديث (فلم يكترثوا)) أى لم يبالوا (بعلائق الخلق وتيقنوا) أى الأخيار (بآيات الله تعالى وأبصروا طريقه) أى دينه (فلم يلتفتوا) بقلوبهم (إلى وساوس الشيطان والخلق والنفس فاذا وسوس لهم) أى لهؤلاء الأخيار (شيطان أو نفس أو إنسان بشىء قاموا معه) أى مع الموسوس من الشيطان أو النفس أو الإنسان (بالمناقشة) أى بالمنازعة (والمدافعة والمخالفة حتى ولى الخلق) أى أعرضوا (عنهم) عن هؤلاء الأخيار (واعتزل عنهم) أى عن الأخيار (الشيطان وانقادت لهم النفس واستقام لهم الطريق المستقيم على ماذكر عن) أبى إسحاق (إبراهيم بن أدهم) بن منصور من كورة بلخ (رحمه الله) وكان كبير الشأن فى باب الورع (أنه) أى إبراهيم بن أدهم (لما أراد أن يدخل البادية بلا زاد (أتاه) أى إبراهيم بن أدهم (الشيطان فخوّفه) أى خوف الشيطان

بِأَنَّ هٰذِهِ بَادِيَةٌ مُهْلِكَةٌ وَلاَ زَادَ مَعَكَ وَلاَ سَبَبَ فَعَزَمَ عَلَى نَفْسِهِ رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يَقْطَعَ الْبَادِيَةَ عَلَى تَجَرُّدِهِ ذٰلِكَ وَأَنْ لاَيَقْطَعَهَا حَتَّى يُصَلِّيَ تَحْتَ كُلِّ مِيلٍ مِنْ أَمْيَالِهَا أَلْفَ رَكْعَةٍ وَقَامَ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ وَبَقِيَ فِى الْبَادِيَةِ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى إِنَّ الرَّشِيدَ حَجَّ فِى بَعْضِ تِلْكَ السِّنِينِ فَرَآهُ تَحْتَ مِيلٍ يُصَلِّى فَقِيلَ لَهُ هٰذَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ يُصَلِّى فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا إِسْحٰقَ ؟ فَأَنْشَأَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا فَلاَ دِينُنَا يَبْقَى وَلاَ مَانُرَقِّعُ

فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللهَ رَبَّهُ وَجَادَ بِدُنْيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ

ابن أدهم (بأن هذه) أى البادية التى أردت أن تدخلها (بادية مهلكة ولازاد معك ولاسبب فعزم على نفسه رحمه الله أن يقطع البادية) ولم يلتفت إلى وسواس الشيطان (على تجرده) أى ابن أدهم (ذلك) أى الزاد والسبب (و) عزم (أن لايقطعها) أى البادية (حتى يصلى تحت كل ميل) الميل قدر مد البصر من الأرض ومنار يبنى للمسافر أو مسافة من الأرض متراخية بلا حد أو مائة ألف أصبع إلا أربعة آلاف أصبع أو ثلاثة أو أربعة آلاف ذراع بحسب اختلافهم فى الفرسخ بل هو تسعة آلاف بذراع القدماء أو اثنا عشر ألف ذراع بذراع المحدثين كما في القاموس (من أميالها) أى البادية (ألف ركعة وقام) ابن أدهم (بما عزم) أى قصد (عليه) أى من دخول البادية بغير زاد وصلاة ألف ركعة تحت كل ميل من أميالها (وبقي) ابن أدهم (فى البادية اثنتى عشرة سنة حتى إن) هرون (الرشيد) هو أحد الخلفاء العباسية . ولد هرون فى سنة تسع وأربعين ومائة ، وولى الخلافة بالعراق سنة سبعين ومائة ، فكانت مدته ثلاثا وعشرين سنة ، وكان يحج سنة ويغزو سنة (حج) إلى بيت الله الحرام (فى بعض تلك السنين فرآه) أى رأى الرشيد ابن أدهم (تحت ميل يصلى فقيل له) أى للرشيد (هذا) أى الشخص الذى تحت الميل (إبراهيم بن أدهم يصلى فأتاه) أى أتى الرشيد ابن أدهم (فقال) الرشيد (له) أى لابن أدهم (كيف تجدك) أى تجد نفسك (ياأبا إسحق) كنية إبراهيم (فأنشأ إبراهيم) ابن أدهم (يقول) من بحر الطويل (نرقع) أى نصلح ، رقع الثوب بمعنى رقعه ورقع الثوب ألحم خرقه وأصلحه بالرقاع كذا فى سراج السالكين (دنيانا بتمزيق) أى بتخريق وتشقيق (ديننا * فلا ديننا يبقى ولا مانرقع) يعنى الدنيا (فطوبى لعبد آثر) أى اختار (الله ربه * وجاد) أى سخي (بدنياه لما يتوقع) . وأخرج أبو نعيم فى الحلية من طريق يعلى بن عبيد قال : دخل إبراهيم بن أدهم على أبى جعفر أمير المؤمنين ، فقال كيف شأنكم ياأبا إسحاق ؟ قال ياأمير المؤمنين :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا مانرقع

وَعَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ فِى بَعْضِ الْبَوَادِى فَوَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطَانُ بِأَنَّكَ مُتَجَرِّدٌ وَهٰذِهِ بَادِيَةٌ مُهْلِكَةٌ لَا عُمْرَانَ فِيهَا وَلَا نَاسَ فَعَزَمَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنْ يَمْضِىَ عَلَى تَجَرُّدِهِ وَأَنْ يَطْرُقَ الطَّرِيقَ حَتَّى لَا يَأْخُذَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَأْكُلَ شَيْئًا حَتَّى يُجْعَلَ فِى فَمِهِ السَّمْنُ وَالْعَسَلُ ثُمَّ عَدَلَ عَنِ الشَّارِعِ وَمَرَّ عَلَى وَجْهِهِ سَائِحًا؛ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: فَسِرْتُ مَاشَاءَ اللهُ فَإِذَا بِقَافِلَةٍ قَدْ أَضَلَّتِ الطَّرِيقَ وَهُمْ يَسِيرُونَ فَلَمَّا أَبْصَرْتُهُمْ رَمَيْتُ بِنَفْسِى إِلَى الْأَرْضِ لَعَلَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَنِى فَسَيَّرَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى وَقَفُوا عَلَىَّ فَغَمَضْتُ عَيْنِى فَدَنَوْا مِنِّى وَقَالُوا هٰذَا مُنْقَطِعٌ غُشِىَ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ فَهَاتُوا سَمْنًا وَعَسَلًا نَجْعَلُهُ فِى فِيهِ لَعَلَّهُ يُفِيقُ فَأَتَوْا بِسَمْنٍ وَعَسَلٍ فَسَدَدْتُ فَمِى وَأَسْنَانِى فَأَتَوْا بِسِكِّينٍ

ومن طريق أبى عمير عن حمزة قال: دخل إبراهيم بن أدهم على بعض الولاة فقال له مم معيشتك قال نرقع دنيانا الخ ، فقال أخرجوه فقد استقبل (و) روى (بعض الصالحين رحمه الله أنه كان فى بعض البوادى فوسوس له الشيطان بأنك متجرد) عن الزاد (وهذه) أى البادية التي أنت فيها (بادية مهلكة لاعمران فيها) أى فى هذه البادية (ولا ناس فعزم) بعض الصالحين (على نفسه بأن يمضى على تجرده و) عزم (أن يترك الطريق حتى لايأخذ) ما يأكله (من الناس ولا يأكل شيئا حتى يجعل فى فمه السمن والعسل ثم عدل) بعض الصالحين (عن الشارع) أى الطريق الكبير (ومر على وجهه سائحا) أى ذاهبا (قال) بعض الصالحين (رحمه الله فسرت) فى البادية (ماشاء الله فاذا) أنا (بقافلة قد أضلت الطريق وهم) أى القافلة (يسيرون ، فلما أبصرتهم رميت بنفسى إلى الأرض لعلهم) أى القافلة (لايبصروننى فسيرهم الله عز وجل حتى وقفوا على فغمضت عينى فدنوا) أى قربوا (منى وقالوا هذا) أى الرجل (منقطع) عن الطريق (غشى عليه من الجوع والعطش فهاتوا) أى ائتوا (سمنا وعسلا نجعله) أى ماأتيتم به من السمن والعسل (فى فيه) أى في فم هذا الرجل (لعله يفيق) من مغشيه (فأتوا) أى أتى أهل القافلة (بسمن وعسل) قال بعض الصالحين (فسددت فمى وأسنانى فأتوا بسكين) قال العلامة الفيومي: السكين معروف سمى بذلك لأنه يسكن حركة المذبوح . وحكى ابن الأنبارى فيه التذكير والتأنيث . وقال السجستانى : سألت أبا زيد الأنصارى والأصمعى وغيرهما ممن أدركنا فقالوا هو مذكر وأنكروا التأنيث ، وربما أنث فى الشعر على معنى الشفرة ، ولهذا قال الزجاج : السكين مذكر وربما أنث بالهاء لكنه شاذ غير مختار . ونونه أصلية فوزنه فعيل من التسكين ، وقيل النون زائدة فهو فعلين مثل غسلين فيكون من

يُعَالِجُونَ فِمِى حَتَّى يَفْتَحُوهُ ، فَضَحِكْتُ فَفَتَحْتُ فَاىَ فَلما رَأَوْا ذٰلِكَ مِنِّى قالُوا مجْنُونٌ أَنْتَ ؟ قُلْتُ لاَ وَالحَمْدُ للهِ تعَالَى وَأَخْبَرْتهُمْ بِبَعْضِ مَاجَرَى لِى مَعَ الشّيْطَانِ ، فَتعَجّبُوا مِنْ ذٰلِكَ .

وَعَنْ بَعْضِ مَشَايِخِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ قالَ: نَزَلْتُ فى بَعْضِ أَسْفَارِى فى أَيَّامِ التَّعْلِيمِ مَسْجِداً بَعِيدًا عَنِ النّاسِ وَكُنْتُ مُتَجَرِّدًا عَلَى عَادَةِ أَوْلِيَائِنَا فَوَسْوَسَ إِلَىَّ الشّيْطَانُ بِأَنّ هٰذَا مَسْجِدٌ بَعِيدٌ عَنِ النّاسِ لَوْ سِرْتَ إلى مَسْجِدٍ بَيْنَ النّاسِ لَرَآكَ أَهْلُهُ وَقامُوا بِكِفَايَتِكَ فَقُلْتُ لا أَبِيتُ إلاّ هٰهُنَا وَعَلَىَّ عَهْدُ اللهِ أَنْ لاَ آكُلَ شَيْئًا إلاّ الحَلْوَاءَ وَلاَ آكُلَ حَتَّى يُوضَعَ فى فِمِى لُقْمَةً لُقْمَةً فَصَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ، فَلَمّا مَضَى صَدْرٌ

المضاعف (يعالجون فمى حتى يفتحوه) أى فمى قال (فضحكت ففتحت فاى فلما رأوا ذلك) الضحك (منى قالوا مجنون أنت ؟ قلت لا) أى لست بمجنون (والحمد لله تعالى وأخبرتهم ببعض ماجرى لى مع الشيطان) من الوسواس المذكور (فتعجبوا من ذلك) أى مما جرى لى مع الشيطان. وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت البادية مرة بغير زاد لأصحح توكلى فأصابنى فيها فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأنى قد وصلت ثم فكرت أنى سكنت واتكلت على غيره تعالى فى تحصيل ماأنا محتاج إليه فعزمت على مخالفة نفسى وآليت أن لاأدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسى حفيرة وواريت فيها جسدى إلي صدرى تأديبا للنفس وتوبيخا لها فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا يقول . ياأهل المرحلة : إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة ممن سمع الصوت فأخرجونى وحملونى إلى القرية فقوى بذلك يقينى وتمكن توكلى على ربى ، وهذا وأمثاله يفعلون ذلك لتعلم اليقين ، وهو أن يغلب على القلب أن الله تعالى على كل شئ قدير . وفيما ذكر دلالة على مراعاة الوفاء بالعهد مع الله فيما عزم عليه العبد من نيل المقامات الرفيعة ، وفيه فضيلة للخراز حيث أقسم على الله فأبره .

(وعن بعض مشايخنا رحمهم الله قال: نزلت فى بعض أسفارى فى أيام التعليم مسجدا بعيدا عن الناس وكنت متجردا) عن الزاد على قدم التوكل (على عادة أوليائنا فوسوس إلى الشيطان بأن هذا) أى المسجد الذى نزلت فيه (مسجد بعيد عن الناس لوسرت إلى مسجد بين الناس لرآك أهله وقاموا) أى أهل المسجد (بكفايتك فقلت) مخالفا لمراد الشيطان (لا أبيت إلا ههنا) أى فى المسجد البعيد عن الناس (وعلي عهد الله ان لا آكل شيئا إلا الحلواء ولا آكل حتى يوضع) أي الحلواء (فى فمى لقمة لقمة) قال بعض مشايخنا (فصليت العتمة) أى العشاء (وأغلقت الباب) أى باب المسجد (فلما مضى صدر

مِنَ اللَّيْلِ إِذَا أَنَا بِإِنْسَانٍ يَدُقُّ الْبَابَ وَمَعَهُ سِرَاجٌ، فَلَمَّا كَثُرَ الدَّقُّ فَتَحْتُ الْبَابَ فَإِذَا أَنَا بِعَجُوزٍ مَعَهَا شَابٌّ وَقَدْ دَخَلَتْ فَوَضَعَتْ بَيْنَ يَدَيَّ طَبَقًا مِنَ الْخَبِيصِ وَقَالَتْ: هٰذَا الشَّابُّ وَلَدِي صَنَعْتُ لَهُ هٰذَا الْخَبِيصَ وَجَرَى بَيْنَنَا كَلَامٌ، فَحَلَفَ أَنْ لَا يَأْكُلَ حَتَّى يَأْكُلَ مَعَهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ، أَوْ قَالَتْ هٰذَا الْغَرِيبُ الَّذِي فِي الْمَسْجِدِ: فَكُلْ رَحِمَكَ اللهُ فَأَخَذَتْ تَضَعُ فِي فَمِي لُقْمَةً وَفِي فَمِ وَلَدِهَا لُقْمَةً حَتَّى اكْتَفَيْنَا ثُمَّ انْصَرَفَا وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ عَلَيَّ مُتَعَجِّبًا مِمَّا جَرَى، فَهٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِنْ مُجَاهَدَاتِ الصَّالِحِينَ وَمُنَاقَضَتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ، فَإِنَّ لَكَ فِي ذٰلِكَ فَوَائِدَ ثَلَاثَةً: إِحْدَاهَا أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الرِّزْقَ لَا يَفُوتُ مَنْ قُدِّرَ لَهُ بِحَالٍ. وَالثَّانِيَةُ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْرَ الرِّزْقِ وَالتَّوَكُّلِ لَمُهِمٌّ جِدًّا وَأَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ غَوَائِلَ وَوَسَاوِسَ عَظِيمَةً حَتَّى أَنَّ مِثْلَ أُولٰئِكَ الْأَئِمَّةِ الزُّهَّادِ لَمْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ذٰلِكَ وَلَمْ يَيْأَسْ

من الليل) صدر كل شيء أوله (إذا أنا بإنسان يدق الباب ومعه) أى الإنسان (سراج) أى مصباح (فلما أكثر) الإنسان (الدق) أى دق الباب وقرعه (فتحت الباب فاذا أنا بعجوز معها شاب وقد دخلت) أى تلك العجوز (فوضعت بين يدى طبقا من الخبيص) نوع من الحلاوات تعمله العرب من التمر والسمن والخضر من الأرز والدبس، وهو مأخوذ من الخبص: بمعنى الخلط (وقالت) أى العجوز (هذا الشاب ولدى صنعت له هذا الخبيص وجرى بيننا كلام) أى نوع من الخصومة (فحلف) ولدى (أن لا يأكل) هذا الخبيص (حتى يأكل معه) أى مع ولدى (رجل غريب أو قالت) العجوز حتى يأكل معه (هذا) الرجل (الغريب الذى فى المسجد، فكل) هذا الخبيص (رحمك الله) قال بعض مشايخنا (فأخذت) أى شرعت تلك العجوز (تضع فى فمى لقمة) (و) تضع (فى فم ولدها لقمة حتى اكتفينا ثم انصرفا) أى العجوز وولدها من مكانى (وأغلقت الباب) أى باب المسجد (على متعجبا مما جرى) لى مع العجوز وولدها (فهذه) أى الحكاية المذكورة (وأمثالها من مجاهدات الصالحين) أى القائمين بحقوق الله وحقوق عباده (ومناقضتهم) ومخالفتهم (للشيطان فان لك فى ذلك) أى المذكور من هذه الحكاية وأمثالها (فوائد ثلاثة: إحداها أن تعلم أن أمر الرزق لا يفوت من قدر) بالبناء للمفعول من التقدير والنائب عن الفاعل الرزق (له بحال) سواء طلب أو لم يطلب (والثانية أن تعلم أن أمر الرزق والتوكل لمهم جدا و) أن تعلم (أن للشيطان فيه) أى فى أمر الرزق والتوكل (غوائل) أى غرورا وشرورا (ووساوس عظيمة حتى إن مثل أولئك الأئمة الزهاد لم يتخلصوا من ذلك) المذكور من الغوائل والوساوس (ولم ييأس

مِنْهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْدَ طُولِ تِلْكَ الرِّيَاضَاتِ وَكَثْرَةِ الْمُجَاهَدَاتِ الَّتِى سَبَقَتْ لَهُمْ ، حَتَّى يَحْتَاجُوا إِلَى دَفْعِهِ بِهٰذِهِ الْمُنَاقَضَاتِ ، وَلَعَمْرِى أَنَّ مَنْ جَاهَدَ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ سَبْعِينَ سَنَةً لَا يَأْمَنُ أَنْ يُوَسْوِسَا لَهُ كَمَا يُوَسْوِسَانِ لِلْمُبْتَدِئِ فِى الْعِبَادَةِ بَلْ لِغَافِلٍ لَمْ يَجْتَهِدْ سَاعَةً فِى الرِّيَاضَةِ وَلَوْ ظَفِرَا بِهِ لَفَضَحَاهُ وَأَهْلَكَاهُ هَلَاكَ الْغَافِلِينَ الْمُغْتَرِّينَ ، وَفِى ذٰلِكَ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَبْصَارِ . وَالثَّالِثَةُ : أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْجِدِّ الْمَحْضِ وَالْمُجَاهَدَةِ الْبَالِغَةِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا لَحْمًا وَدَمًا وَبَدَنًا وَرُوحًا مِثْلَكَ بَلْ كَانُوا أَنْحَفَ أَبْدَانًا وَأَضْعَفَ أَرْكَانًا وَأَدَقَّ عِظَامًا مِنْكَ وَلٰكِنْ كَانَتْ لَهُمْ قُوَّةُ الْعِلْمِ وَنُورُ الْيَقِينِ وَهِمَّةُ أَمْرِ الدِّينِ حَتَّى قَوَوْا عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الْمُجَاهَدَاتِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ وَدَاوِهَا مِنْ هٰذَا الدَّاءِ الْمُعْضِلِ لَعَلَّكَ تُفْلِحُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

منهم الشيطان بعد طول تلك الرياضات و) بعد (كثرة المجاهدات التى سبقت لهم) أى الأئمة (حتى يحتاجوا إلى دفعه) أى الشيطان (بهذه المناقضات) والمجاهدات (ولعمرى) قسمى (إن من جاهد النفس والشيطان سبعين سنة) مثلا (لا يأمل أن يوسوسا) أى النفس والشيطان (له) أى لذلك المجاهد زمنا طويلا (كما يوسوسان) أى كوسوستهما (للمبتدىء فى العبادة ، بل) كما يوسوسان (لغافل) عن عاقبة أمره (لم يجتهد ساعة) أى قطعة من الزمن (فى الرياضة) والمجاهدة (ولو ظفرا) أى النفس والشيطان (به) أى بمن ذكر (لفضحاه) أى أوقعاه فى الفضيحة (وأهلكاه) أى أوقعاه فى الهلاك (هلاك الغافلين المغترين وفى ذلك) أى الوقوع فى الفضيحة والإهلاك (عبرة) اعتبار (لأولى الأبصار . والثالثة أن تعلم أن الأمر) أى أمر التوكل (لا يتم إلا بالجد المحض والمجاهدة البالغة) أى الكاملة (فإنهم) أى أولئك الأئمة (كانوا لحما ودما وبدنا وروحا مثلك بل كانوا أنحف) أى أهزل (أبدانا وأضعف أركانا) أى جوارح وأعضاء (وأدق عظاما منك ولكن كانت لهم قوة العلم والعمل (ونور اليقين وهمة أمر الدين حتى قووا على مثل تلك المجاهدات) الشديدة (و) على (القيام بحق تلك المقامات) الرفيعة (فانظر لنفسك رحمنا الله وإياك وداوها) أى النفس (من هذا الداء المعضل) الذى أعجز الأطباء (لعلك تفلح) أى تفوز (إن شاء الله تعالى) وبالله التوفيق والعصمة .

(فصل) ثُمَّ اُعْلَمْ بَعْدَ هٰذِهِ الْجُمْلَةِ أَنِّي مُجَرِّدٌ لَكَ نُكَتاً وَجَدْتُهَا بِحَيْثُ تَمْكُثُ فِي الْقَلْبِ إِذَا تَذَكَّرْتَهَا وَتَكْفِيكَ مُؤْنَةَ هٰذَا الْبَابِ وَتَدَعُكَ عَلَى وَاضِحَةٍ مِنَ الْحَقِّ إِنْ تَأَمَّلْتَهَا وَعَمِلْتَ بِهَا ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ الْمُوَفِّقُ .

الْأُولَى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ضَمِنَ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ فِي كِتَابِهِ، فَقَدْ ضَمِنَ رِزْقَكَ وَتَكَفَّلَ لَكَ بِهِ فَمَا تَقُولُ لَوْ وَعَدَكَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا أَنَّهُ يُضِيفُكَ اللَّيْلَةَ وَيُعَشِّيكَ وَأَنْتَ حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ أَنَّهُ صَادِقٌ وَلَا يَكْذِبُ وَلَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ بَلْ لَوْ وَعَدَكَ بِذٰلِكَ سُوقِيٌّ أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ

فصل

(ثم اعلم بعد هذه الجملة) المذكورة (أنى مجرد) أى مظهر (لك نكتا) جمع نكتة (وجدتها بحيث تمكث) وفى نسخة تنكث، أى تؤثر وتفيد (فى القلب إذا تذكرتها) أى النكت (وتكفيك تلك النكت (مؤنة هذا الباب) أى باب التوكل (وتدعك) أى تتركك (على واضحة من الحق إن تأملتها) أى النكت (وعملت بها) أى بمقتضاها (والله سبحانه الموفق)

النكتة (الأولى : أن تعلم أن الله تعالى ضمن الرزق لعباده فى كتابه العزيز بقوله «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها» (فقد ضمن) تعالى (رزقك وتكفل لك به) أى بالرزق (فما تقول لو وعدك ملك من ملوك الدنيا أنه) أى الملك (يضيفك) أى يكرمك بالضيافة (الليلة ويعشيك) أى يطعمك العشاء (وأنت حسن الظن به) أى بالملك (أنه) أى ذلك الملك (صادق) فيما وعده (ولا يكذب ولا يخلف الوعد بل لو وعدك بذلك) أى بالضيافة والعشاء (سوقى) منسوب إلى السوق . فى المصباح والسوق يذكر ويؤنث . وقال أبو إسحاق : السوق التى يباع فيها مؤنثة ، وهو أفصح وأصح وتصغيرها سويقة والتذكير خطأ لأنه قيل سوق نافقة ، ولم يسمع نافق بغيرها والنسبة إليها سوقى على لفظها وقولهم رجل سوقة ليس المراد أنه من أهل الأسواق كما تظنه العامة ، بل السوقة عند العرب خلاف الملك قال الشاعر :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

وتطلق السوقة على الواحد والمثنى والمجموع وربما جمعت على سوق مثل غرفة وغرف (أو يهودى) نسبة لليهود وهم قوم موسى عليه الصلاة والسلام سموا بذلك لأنهم هادوا : أى رجعوا عن عبادة العجل من هاد إذا رجع من خير إلى شر أو عكسه أو لأنهم كانوا يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة (أو نصرانى) واحد النصارى وهم قوم عيسى عليه الصلاة والسلام، سموا بذلك لأنهم

أَوْ مَجُوسِيٌّ مَسْتُورٌ عِنْدَكَ بِظَاهِرِهِ عَفِيفٌ فِي مَقَالَتِهِ أَلَسْتَ تَثِقُ بِهِ وَبِوَعْدِهِ وَتَطْمَئِنُّ بِقَوْلِهِ وَلَا تَهْتَمُّ لِعَشَائِكَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ اتِّكَالًا عَلَيْهِ ، فَمَا بَالُكَ وَقَدْ وَعَدَكَ اللَّهُ تَعَالَى وَضَمِنَ لَكَ رِزْقَكَ وَتَكَفَّلَ بِهِ ، بَلْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، وَأَنْتَ لَا تَطْمَئِنُّ بِوَعْدِهِ وَلَا تَسْكُنُ إِلَى قَوْلِهِ وَضَمَانِهِ ، وَلَا تَنْظُرُ إِلَى قَسَمِهِ بَلْ يَضْطَرِبُ قَلْبُكَ وَيَهْتَمُّ ، فَيَا لَهَا مِنْ فَضِيحَةٍ لَوْ رَأَتْ وَبَالَهَا ، وَمِنْ مُصِيبَةٍ لَوْ عَلِمَتْ حَالَهَا .

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

أَتَطْلُبُ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ   وَتُصْبِحُ مِنْ خَوْفِ الْعَوَاقِبِ آمِنَا

وَتَرْضَى بِصَرَّافٍ وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا   ضَمِينًا وَلَا تَرْضَى بِرَبِّكَ ضَامِنَا

نصروه قال تعالى «من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله» أو لنصرة بعضهم بعضا أو لأنهم كانوا في قرية يقال لها نصرانة أو ناصرة أو نصرة والياء في نصراني للمبالغة كالياء في أحمرى (أو مجوسى) نسبة إلي المجوس وهم أمة من الناس أثبتوا للعالم صانعين: خيرا ويسمونه يزدان وشرا ويسمونه أهرمبت ورد زعمهم بقوله تعالى ــ الله خالق كل شيء ــ (مستور) أى حاله (عندك بظاهره) أى الذى وعدك ممن ذكر (عفيف في مقالته ألست تثق به وبوعده) بالضيافة والعشاء (وتطمئن بقوله ولا تهتم لعشائك) بفتح العين ما يؤكل آخر النهار (تلك الليلة اتكالا) أى اعتمادا (عليه) أى الذى وعدك ممن ذكروصفه (فما بالك) أى حالك . والبال يطلق لمعان منها الحال والقلب والحوت العظيم ويصح أن يراد به هنا الحال (وقد وعدك الله تعالى وضمن لك رزقك وتكفل به) أى برزقك وبالغ في الإيجاب على نفسه في كتابه حيث قال « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » (بل أقسم) تعالى (عليه في غير موضع) واحد بل في مواضع كثيرة كقوله جل وعز « وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (وأنت لا تطمئن بوعده) سبحانه وتعالى (ولا تسكن إلى قوله وضمانه) جل وعز (ولا تنظر إلى قسمه) تعالى (بل يضطرب قلبك ويهتم) بالرزق (فيالها) أى للنفس (من فضيحة لو رأت وبالها و) يالهـا (من مصيبة لو علمت حالها . وعن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال) من بحر الطويل (أتطلب رزق الله من عند غيره * وتصبح) أى تصير (من خوف العواقب آمنا . وترضى بصراف) مبالغة من الصيرفي ، وهو من يبيع الذهب بالدراهم . قال ابن فارس : الصرف فضل الدرهم في الجودة على الدرهم ، ومنه اشتقاق الصيرفي (وإن كان) الصراف (مشركا) أى كافرا (ضمينا) أى ضامنا لك (ولا ترضى بربك ضامنا .

كَأَنَّكَ لَمْ تَقرَأْ بِمَا فِي كِتَابِهِ   فَأَصْبَحْتَ مَنْحُولَ الْيَقِينِ مُبَايِنَا

وَلِهٰذَا الْمَعْنَى يَنْجَرُّ هٰذَا الْأَمْرُ إِلَى الشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ ، وَيُخَافُ عَلَى صَاحِبِهِ ـ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ـ سَلْبُ الْمَعْرِفَةِ وَالدِّينِ ، وَلِهٰذَا الْمَعْنَى قَالَ سُبْحَانَهُ : (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

كأنك لم تقرأ بما فى كتابه) العزيز من آية الضمان لرزق العباد (فأصبحت) أى صرت (منحول) أى ضعيف (اليقين مباينا) أى مبعدا عن اليقين (ولهذا المعنى) أى منحول اليقين (ينجر هذا الأمر) أى أمر الرزق (إلى الشك والشبهة ويخاف) بالبناء للمفعول (على صاحبه) أى الشك (والعياذ بالله سلب المعرفة والدين ، ولهذا المعنى) أى انجرار هذا الأمر إلى الشك والشبهة والخيفة على صاحبه سلب المعرفة والدين (قال) الله (سبحانه ـ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) فمع شرفه قد أوجبه على سائر المؤمنين ، لأن الإيمان يوجب على المؤمن مدلوله ومدلولات الإيمان هى الناشئة عن نفس الإيمان بحسب الملاحظات ، فمن لاحظ عن زيد أنه قائم بالأمر عول عليه واعتمد على كفايته ، وإن لاحظ مع كونه قائما بالأمر أنه حكيم فى علمه وأفعاله فيما يقدم ويؤخر وفيما يرفع ويخفض سلم الأمر إليه واستسلم لحكمه ، لأن التفويض معناه ترك اختيار العبد لحسن اختيار الله له ، والاستسلام هو انقياد العبد وإذعانه لما اختاره الله له وبما حكم به عليه من الأمر والنهى وملازمة الحدود التي حدها له وإن لاحظ مع ذلك كمال صدقه ووفاء وعده وثق به ، لأن الثقة نتيجة التصديق ومعناه الربط على القلب وعدم الانفصام على ما حواه من التصديقات ، فالثقة إذن على هذا مكملة لجميع المقامات والأحوال ، ولهذا قال أبو إسماعيل الهروى : الثقة سواد عين التوكل ونقطة دائرة التفويض وسويداء قلب التسليم ، وإن لاحظ بعد ذلك ألوهيته مال إليه بوجهه وانصرف إليه بكليته ، وإن لاحظ المعنى الجامع لصفات ألوهيته هو المعبر عنه بقولك : الله حصل الدهش والتحير ، فهكذا ينبغى أن يفهم ملاحظة مدلولات الإيمان . وقال صاحب القوت : وقد أمر الله بالتوكل وقرنه بالإيمان ليدل بذلك أنهما شيئان إذ التوكل على الوكيل هو من الإيمان بالمؤمن لأنه عن حقيقة الإيمان وهو اليقين وبمشاهدة الوكيل وهو الحسب الحسيب ونعم الوكيل فأمر بالتوكل قولا وفعلا بعد الإخبار عن محبته للمتوكل عليه فقال تعالى « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا » مع اشتراط التوكل للايمان بعد الأمر به فى قوله تعالى « وعلى الله فتوكلوا ، إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » فلم يخرج عموم المسلمين من شرط عموم المتوكل كما لم يخرج خصوص المؤمنين من شرط وجود الإسلام . وكما كل مؤمن حقا مسلم لا بد عملا كذلك كل مسلم صدقا يكون على الله متوكلا فقد صار المتوكل من عباد الرحمن الذين أضافهم إلى وصف الرحمة ومن عباد التخصيص الذين ضمن لهم الكفاية وهم الذين وصفهم فى الكتاب بالهون والسكينة ونعتهم بالسلامة والخوف وذكرهم بالسجود والقيام

(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) فَحَسْبُ الْمُؤْمِنِ الْمُهْتَمِّ لِأَمْرِ دِينِهِ هٰذِهِ النُّكْتَةُ الْوَاحِدَةُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

وَالثَّانِيَةُ : أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ ، صَحَّ ذٰلِكَ فِى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى ،

ومدحهم بالاقتصاد والقوام فى قوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » إلى آخر الآيات ، وقال تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فليخصوه بالتوكل عليه لا علي غيره لأن الأمر كله لله ولا راد لقضائه ولا دافع لحكمه فيجب أن يتوكل العبد فى كل الأمور على الله تعالى لا على غيره ، وقيل التوكل أن لا تعصى الله من أجل رزقك ولا تطلب لنفسك ناصرا غيره ولا لعملك شاهدا سواه . روى مسلم عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب قالوا : ومن هم يارسول الله ؟ قال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلي ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن رضى الله عنه فقال يارسول الله : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال أنت منهم فقام آخر فقال : يانبى الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال : سبقك بها عكاشة » (فحسب المؤمن) أى كافيه (المهتم لأمر دينه هذه النكتة الواحدة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) ولما كان لا يتم شىء إلا بالله ومعونته وحسن توفيقه ناسب أن يأتى رحمه الله بالحوقلة : أى بقوله : لا حول ولا قوة إلا بالله لأن فيها التبرى من حول العبد وقوته والركون إلى حول الله وقوته ، فمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله لا تحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونة الله .

واعلم أنه جاء فى فضائل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم شىء كثير ، فمن ذلك ما أخرجه الطبرانى وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فإنها كنز من كنوز الجنة وفيها شفاء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم » ومن ذلك ما أخرجه الطبرانى وابن عساكر عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أبطأ عليه رزقه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » وفى الفشنى عن الأربعين النووية : ومن الأدعية المستجابة أنه إذا حل بالشخص أمر ضيق يطبق أصابع يده اليمنى ثم يفتحها بكلمة : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اللهم لك الحمد ومنك الفرج وإليك المشتكى وبك المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وهى فائدة عظيمة انتهي .

وبالجملة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لها تأثير عظيم فى طرد الشياطين والجن وفى جلب الرزق والغنى والشفاء وتحصيل القوة ودفع العجز وغير ذلك كذا قاله السيد بكرى المكي رحمه الله (و) النكتة (الثانية أن تعلم) وفى نسخة أنك تعلم (أن الرزق مقسوم صح ذلك) أى كون الرزق مقسوما (فى كتاب الله تعالى) كقوله تعالى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم » . قال النسفى : أى

وَأَخْبَارِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَتَعْلَمَ أَنَّ قِسْمَتَهُ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ ، فَإِنْ أَنْكَرْتَ الْقِسْمَةَ أَوْ جَوَّزْتَ نَقْضَهَا ، فَذَلِكَ بَابُ الْكُفْرِ تَقْرَعُهُ ، نَعُوذُ بِاللهِ ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ حَقٌّ لَا يَتَغَيَّرُ فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِى الْاهْتِمَامِ وَالطَّلَبِ إِلَّا الذُّلُّ وَالْهَوَانُ فِى الدُّنْيَا وَالشِّدَّةُ وَالْخُسْرَانُ فِى الْآخِرَةِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « مَكْتُوبٌ عَلَى ظَهْرِ الْحُوتِ وَالثَّوْرِ رِزْقُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ فَلَا يَزْدَادُ الْحَرِيصُ إِلَّا جُهْدًا » ، وَفِى ذَلِكَ يَقُولُ شَيْخُنَا ،

ما يعيشون به وهو أرزاقهم فى الحياة الدنيا الآية معناه نحن أوقعنا هذا التفاوت بين العباد فجعلنا هذا غنيا وهذا فقيرا وهذا مالكا وهذا مملوكا وهذا قويا وهذا ضعيفا ، ثم إن أحدا من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا ذكره الخازن (و) صح أيضا فى (أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم) كما روى عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » الحديث . وما روى عن عمرو مولى المطلب عن المطلب بن حنطب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما تركت شيئا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به وما تركت شيئا مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه ألا وإن الروح الأمين جبريل عليه السلام قد ألقى فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوعب كل الذى كتب لها فمن أبطأ عنه شىء من ذلك فليجمل فى الطلب فإنكم لا تدركون ما عند الله بمثل طاعته » (و) أن (تعلم أن قسمته) تعالى للرزق (لاتتبدل ولا تتغير فان أنكرت القسمة أو جوزت نقضها) أى القسمة (فذلك) أى إنكار القسمة أو تجويز نقضها وظن ذلك (باب الكفر تقرعه) بفتح أوله من باب قطع : أى طرقت هذا الباب ونقرت عليه (نعوذ بالله) من ذلك (وإن علمت أنه) أى تقسيم الرزق (حق لا يتغير فأى فائدة) اى لا فائدة (فى الاهتمام) للرزق (والطلب) له (إلا الذل والهوان) بمعنى واحد (فى الدنيا والشدة والخسران فى الآخرة ولذلك) أى لأجل عدم الفائدة فى الاهتمام والطلب إلا الذل والخسران فى الدارين (قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم : مكتوب على ظهر الحوت) أى العظيم من السمك وهو مذكر . وفى التنزيل « فالتقمه الحوت » والجمع حيتان (والثور) أي الذكر من البقر والأنثى ثورة والجمع ثيران وأثوار وثيرة مثل عنبة (رزق فلان بن فلان فلا يزداد الحريص) على الدنيا (إلا جهدا) ومشقة ، وهذا لم أجد له إسنادا (وفى ذلك) أى لأجل هذا الخبر (يقول شيخنا) أبو بكر الوراق

رَحِمَهُ اللهُ : إِنَّ مَا قدِّرَ لِمَاضِغَيْكَ أَنْ يَمْضُغَاهُ فَلَا يَمْضُغهُ غَيْرُكَ ، فَكُلْ رِزْقَكَ ـ وَيْحَكَ ـ بِالْعِزِّ ، وَلَا تَأْكُلْهُ بِالذُّلِّ ، وَهٰذِهِ نُكْتَةٌ مُقْنِعَةٌ لِلرِّجَالِ .

وَالثَّالِثَةُ : مَا سَمِعْتُ مِنْ شَيْخِي الْإِمَامِ رَحِمَهُ اللهُ يَحْكِي عَنِ الْأُسْتَاذِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ مِمَّا يُقْنِعُنِي فِى أَمْرِ الرِّزْقِ أَنِّي تَذَكَّرْتُ وَقُلْتُ فِى نَفْسِى : أَلَيْسَ هٰذَا الرِّزْقُ لِلْحَيَاةِ وَالْعَيْشِ ، وَالْمَيِّتُ مَا يَصْنَعُ بِالرِّزْقِ ، فَإِذَا كَانَ حَيَاةُ الْعَبْدِ فِى خَزَانَةِ اللهِ تَعَالَى وَبِيَدِهِ ، فَكَذٰلِكَ الرِّزْقُ إِنْ شَاءَ يُعْطِينِي وَإِنْ شَاءَ يَمْنَعُنِي ، وَهُوَ غَيْبٌ عَنِّي مَوْكُولٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى يُدَبِّرُهُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَأَنَا سَاكِنُ النَّفْسِ بِذٰلِكَ ، وَهٰذِهِ نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ مُقْنِعَةٌ لِأَهْلِ التَّحْقِيقِ .

وَالرَّابِعَةُ مِمَّا ذَكَرْنَا فِي هٰذَا الْفَصْلِ : أَنَّ اللهَ تَعَالَى ضَمِنَ رِزْقَ الْعِبَادِ وَلَمْ يَضْمَنْ إِلَّا الرِّزْقَ الْمَضْمُونَ الَّذِى هُوَ الْغِذَاءُ وَالتَّرْبِيَةُ ، وَفِيهِ الْقِوَامُ وَالْعُدَّةُ .

(رحمه الله : إن ما قدر) بالبناء للمفعول : أى كتبه الله تعالى وقدره (لماضغيك) تثنية ماضغ ، والماضغان هما أصول اللحيين عند منبت الأضراس أو عرقان فى اللحيين (أن يمضغاه) أى ما قدر لهما ، فى المصباح : مضغت الطعام مضغا من بابى نفع وقتل: علكته ، والمضاغ بالفتح ما يمضغ والمضاغة بالضم ما يبقى في الفم مما يمضغ (فلا يمضغه غيرك فكل رزقك ويحك) كلمة رحمة (بالعز ولا تأكله بالذل) والهوان ، ولذلك بأن تهتم بطلبه لا سيما من غير حله (وهذه) النكتة الثانية (نكتة مقنعة) أى مكفية (للرجال) العقلاء والكرماء ، لأن العاقل تكفيه الإشارة والغافل لايفيده صريح العبارة (و) النكتة (الثالثة : ماسمعت من شيخى الإمام) أى إمام الحرمين (رحمه الله يحكى عن الأستاذ) أبى إسحاق (رحمه الله أنه) أى الأستاذ (كان يقول إن مما يقنعنى) أى يرضينى (فى امر الرزق أنى تذكرت وقلت فى نفسى اليس هـذا الرزق للحياة والعيش والميت مايصنع بالرزق ، فاذا كان حياة العبد فى خزانة الله تعالى وبيده) أى بقدرته (فكذلك) أى فى خزانة الله تعالى (الرزق إن شاء) الله الإعطاء (يعطيني وإن شاء) عدم ذلك (يمنعنى وهو) اى الرزق (غيب) أى خفى (عنى موكول إلى الله تعالى يدبره) اى ذلك الرزق (كيف يشاء وأنا ساكن النفس) عن الاهتمام والطلب (بذلك) أى بسبب أنه موكول إلى الله تعالى (وهذه) الثالثة (نكتة لطيفة مقنعة لأهل التحقيق) والعرفان (و) النكتة (الرابعة مما ذكرنا فى هـذا الفصل) أى فصل التوكل (أن الله تعالي ضمن رزق العباد ولم يضمن إلا الرزق المضمون الذى هو الغذاء والتربية) للبدن (وفيه) أى فى هذا المضمون (القوام) أى للجسد (والعـدة) بضم

﴿ وأَمَّا الأَسبَابُ ﴾ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ: فالْعَبْدُ إِذَا تجَرَّدَ لِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ فرُبَّمَا يُحْبَسُ عَنْهُ الْأَسْبَابُ ، فَلاَ يَعْبَأَنَّ بِذٰلِكَ وَلاَ يَضْجَرُ لِمَا عَلِمَ مِنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ أَنَّ الضَّمَانَ لِقِوَامِ الْبِنْيَةِ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ ، إِنَّمَا هُوَ فِى هٰذَا الْمَعْنَى لاَغَيْرُ وَالْمُنْتَظَرُ مِنَ اللهِ تَعَالَى هٰذَا الْمَعْنَى ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ مَحَالَةَ يُمِدُّهُ بِالْقُوَّةِ لِيَقُومَ بِحَقِّ الْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ مَا دَامَ لَهُ أَجَلٌ وَتَكْلِيفٌ بِالْعِبَادَةِ ، وَهٰذَا هُوَ الْمَقْصُودُ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَ بِنْيَةَ عَبْدِهِ بِطَعَامٍ وَشَرَابٍ أَوْ بِطِينٍ وَتُرَابٍ أَوْ بِتَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ كَالْمَلاَئِكَةِ ،

العين : أى ماأعددته للطاعة (وأما الأسباب من الطعام والشراب فالعبد إذا تجرد لعبادة الله تعالى وتوكل على الله فربما يحبس عنه) أى عن العبد (الأسباب) مما ذكر (فلا يعبأن) أى فلا يبالى ، يقال ماعبأت بفلان : أى مابالیت به (بذلك) أى احتباس الأسباب عنه (ولا يضجر) بقلبه ، ومعنى الضجر القلق من الغم وذلك (لما علم) أى العبد (من حقيقة الأمر أن الضمان) أى ضمان الله لرزق عباده (لقوام البنية) بكسر الباء : أى الجسد (والتوكل على الله سبحانه إنما هو) أى التوكل (فى هذا المعنى) أى قوام البنية (لاغير والمنتظر) بصيغة اسم المفعول : أى الرزق الذي ينتظره العبد (من الله تعالى هذا المعنى) أى مايقيم البنية (و) علم العبد أيضا من حقيقة الأمر (أن الله تعالى لامحالة يمده) بضم الياء وكسر الميم من الإمداد : أى يعينه ويقويه (بالقوة ليقوم) أى العبد (بحق العبادة والخدمة) أى الطاعة (مادام له أجل) أى مدة العمر (وتكليف بالعبادة وهذا) أى الإمداد بالقوة (هو المقصود والله سبحانه) وتعالى (قادر على مايشاء إن شاء أن يقيم بنية عبده) أى جسده (بطعام وشراب أو بطين وتراب) أى أكل ذلك (أو) يقيم بنية عبده (بتسبيح) نحو سبحان الله وبحمده (أو بتهليل) وهو لاإله إلا الله فعل ذلك مايشاء هذا جواب الشرط (كالملائكة) عليهم الصلاة والسلام فانهم خلقهم الله تعالى من غير واسطة أب ولا أم ، فليسوا رجالا ولا نساء ولا خناثى ، فمن اعتقد ذكورتهم كان مبتدعا فاسقا، وفى كفره قولان: ومن اعتقد أنوثتهم كان كافرا بالإجماع لأن الذكورة أشرف من الأنوثة ، وقد بين الله تعالى كفر من اعتقد أنوثة الملائكة بقوله تعالي «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» : أى واعتقدهم الكافرون إناثا وأولى بالكفر من اعتقد خنوثتهم لمزيد التنقيص وهم غير الجن لايأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتناكحون ولا يتوالدون ، ولا تكتب أعمالهم لأنهم الكتاب ، ولا يحاسبون لأنهم الحساب ، ولا توزن أعمالهم لأنهم لاسيئات لهم ، ويحشرون مع الجن والإنس يشفعون فى عصاة بنى آدم ويراهم المؤمنون فى الجنة ، ويدخلون الجنة ويتناولون النعمة فيها بما شاء الله كذا قاله السحيمى والباجورى ، وقال بعضهم : تبعا لمجاهد

وَإِنْ شَاءَ بِغَيْرِ هٰذَا كُلِّهِ ، فَلَيْسَ مَطْلُوبُ الْعَبْدِ إِلاَّ الْقِوَامَ وَالْقُوَّةَ لِلْعِبَادَةِ لَيْسَ الأكْلَ وَالشُّرْبَ وَشِدَّةَ الشَّهْوَةِ وَنَيْلَ اللَّذَّةِ ، فَلاَ اعْتِبَارَ إِذَنْ بِالْأَسْبَابِ ، وَلِهٰذَا الْمَعْنَى قُوِيَتِ الْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ عَلَى الْأَسْفَارِ وَطَيِّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَأْكُلْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَأْكُلْ شَهْرًا وَشَهْرَيْنِ وَهُوَ عَلَى قُوَّتِهِ ،

إنهم لايأكلون فيها ولا يشربون ولاينكحون وأنهم يكونون فيها كما كانوا فى الدنيا ، ورده السحيمى بقوله : وهذا يقتضى أن الحور والولدان كذلك انتهى وهم أجسام نورانية لطيفة بأرواح قادرون على التشكل بأشكال مختلفة فى أشكال حسنة شأنهم الطاعة ، ومسكنهم السموات غالبا ، ومنهم من يسكن الأرض صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى « يسبحون الليـل والنهار » لاينقطعون ولا يعصون الله فى الأمور التى قد أمرهم ويفعـلون الأمر الذى يؤمرون به ، ومنهم الموكل بالحجب والسموات والأرض والنار والتصوير فى الرحم والبحار والسحاب ، وورد أنه ينزل مع كل قطرة ملك ، ومنهم حملة العرش ، ومنهم سياحون فى الأرض يتبعون مجالس الذكر ، ومنهم المبلغون الصلاة إليه صلى الله عليه وسلم ممن صلى عليه ، ومنهم الحفظة لأبدان بنى آدم ولأعمالهم وغيرذلك ، وبالجملة فهم خدمة الملك كله وليس فى العالم من أعلاه إلى أسفله بشر إلا هو معمور بهم . قال بعضهم : ولذا نهى عن الاستقبال والاستدبار للقبلة ببول أو غائط إكراما للمصلى منهم إليها قال تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وقال صلى الله عليه وسلم « أطت السماء : أى صوتت وحق لها أن تئط مامن موضع إلا وفيه ملك ساجد أو راكع » والمراد كثرتهم وإن لم يكن هناك أطيط ، وورد أنه يدخل البيت المعمور كل يوم سبعون ألفا لايعودون إليه إلى يوم القيامة ويموتون بالنفخة الأولى إلا حملة العرش والرؤساء الأربعة فانهم يموتون بعدها ، وأما قبلها فلا يموت منهم أحد ولا يلزمنا معرفة حقيقة جنسهم ولا من أى شىء خلقوا ، ويجب الإيمان بأنهم بالغون فى الـكثرة إلى حد لايعلمه إلا الله تعالى على الإجمال إلا من ورد تعيينه باسمـه المخصوص أو نوعه فيجب الإيمان بهم تفصيلا ، فالأول كجبريل ونحوه مما هو مقرر فى بابه ، والثانى كحملة العرش والحفظة والـكتبة (وإن شاء) الله تعالى إقامة البنية (بغير هذا) أى المذكور من الطعام والشراب وما بعده (كله) بالجر تأكيد أقامها به والله يفعل مايشاء (فليس مطلوب العبد إلا القوام) أى قوام البنية (والقوة للعبادة ليس) أي مطلوبه (الأكل والشرب وشدة الشهوة ونيل اللذة فلا اعتبار إذن) أى حين كان المطلوب هو القوام والقوة للعبادة (بالأسباب) من الطعام والشراب(ولهذا المعنى قويت العباد) بضم العين جمع عابد (والزهاد على الأسفار وطي الليالى والأيام ، فمنهم) أى من العباد والزهاد (من لم يأكل عشرة أيام ، ومنهم من لم يأكل شهرا وشهرين وهو) باق (على قوته) للعبادة

وَمِنْهُمْ: مَنْ كَانَ يَسْتَفُّ الرَّمْلَ فَيَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالى لَهُ غِذَاءً، نَحْوُ مَاذُكِرَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ نَفِدَتْ نَفَقَتُهُ بِمَكَّةَ ، فَمَكَثَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً يَسْتَفُّ الرَّمْلَ . وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الْأَسْوَدُ : رَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ يَأْكُلُ الطِّينَ عِشْرِينَ يَوْمًا . وَعَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ : قَالَ لِي إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى : مَا أَكَلْتُ مُنْذُ شَهْرٍ ، قُلْتُ مُنْذُ شَهْرٍ؟ قَالَ : وَلاَ شَهْرَيْنِ إِلاَّ أَنَّ إِنْسَاناً نَاشَدَنِي اللهَ عَلَى عُنْقُودٍ مِنْ عِنَبٍ فَأَكَلْتُهُ، فَأَنَا أَشْتَكِي بَطْنِي .

(ومنهم من كان يستف الرمل) أي يرمى الرمل فى الفم (فيجعله) أى الرمل (الله تعالى له غذاء نحو ماذكر عن سفيان) بن سعيد (الثورى رحمه الله) وهو من تابعى التابعين وقد تقدمت ترجمته (أنه نفدت) أى فنيت وانقطعت (نفقته بمكة) زادها الله شرفا (فمكث) الثورى (خمسة عشر يوما يستف الرمل ، وقال أبو معاوية الأسود) رحمه الله تعالى (رأيت إبراهيم بن أدهم) بن منصور رحمه الله (يأكل الطين عشرين يوما . وعن الأعمش) هو أبو سليمان بن مهران الكوفى كان ثقة عالما فاضلا توفى سنة ثمان وأربعين ومائة فى شهر ربيع الأول ، وقيل سنة سبع وأربعين ، وقيل سنة تسع وأربعين رحمه الله تعالى (قال : قال لي إبراهيم) بن يزيد بن شريك (التيمى) تيم الرباب أبو أسماء الكوفى كان من العباد ثقة صالح الحديث قتله الحجاج ولم يبلغ أربعين سنة ، روى له الجماعة ، وفى سراج السالكين توفى فى حبس الحجاج سنة اثنتين وتسعين (رحمه الله تعالى: ما أكلت منذ شهر قلت منذ شهر ؟ قال) التيمى (ولا شهرين إلا أن إنسانا ناشدنى الله) أى سألنى بالله (على عنقود من عنب) العنقود ماتعقد وتراكم من حب فى عرق واحد (فأكلته) أى ذلك العنقود (فأنا اشتكى بطنى) وممن اشتهر بالطى حتى انتهى إلى ثلاثين يوما وأربعين يوما جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم محمد بن عمرو القرنى وعبد الرحمن بن إبراهيم وإبراهيم التيمى وحجاج بن فرافصة وحفص العابد المصيصى والمسلم بن سعيد وزهير بن نعيم وسلمان الخواص وسهل بن عبد الله وإبراهيم الخواص ، وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام ، وكان ابن الزبير رضى الله عنه يطوى سبعة أيام ، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا ، وروى أن الثورى وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة . قال السهروردى فى العوارف : واشتهر حال جدنا محمد بن عبد الله المعروف بعمرويه وكان صاحب أحمد الأسود الدينورى أنه كان يطوى أربعين يوما وأقصى مابلغ فى هذا المعنى من الطى رجل أدركنا زمانه وما رأيته كان بأبهر يقال زاهد خانقة كان يأكل فى كل شهر لوزة ولم يسمع أن أحدا بلغ فى هذه الأمة بالطى والتدريج إلى هذا الحد ، فكان فى أول أمره على ماحكي ينقص القوت بنشاف العود ، ثم يطوى حتى انتهى إلى

قُلْتُ أَنَا : وَلاَ تَعْجَبَنّ مِنْ ذٰلِكَ ، فَإِنّ لِلّٰهِ تَعَالَى الْقُدْرَةَ عَلَى مَايَشَاءُ ، مِثْلُ هٰذَا الْمَرِيضِ
تَرَاهُ لاَ يَأْكُلُ شَهْراً ، وَهُوَ حَيٌّ يَعِيشُ ، وَالْمَرِيضُ

اللوزة فى الأربعين فقد سلك فى هذه الطريق جمع من الصادقين ، وقد سلك غير الصادق هذا الوجود هوى مستكن فى باطنه يهون عليه ترك الأكل إذا كان له استحلاء نظر الخلق ، وهذا عين النفاق نعوذ بالله من ذلك ، والصادق ربما يقدر على الطى إذا لم يعلم بحاله أحد وربما يضعف إذا علم بأنه يطوى فان صدق فى الطي ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطى ، فاذا علم به أحد تضعف عزيمته فى ذلك وهذه علامة الصادق ، فمهما أحس فى نفسه أنه يحب أن يرى بعين التقلل فليتهم نفسه فإن فيه شائبة نفاق ، ومن يطوى لله خالصا يعوضه الله تعالى فرحا فى باطنه ينسيه الطعام وقد لاينسى الطعام لامتلاء قلبه بالأنوار يقوى جاذب الروح الروحانى فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحانى ويقفو بذلك عن أرض الشهوة النفسانية ، ومن آثر جاذب الروح إذا تخلف عنه جاذب النفس عند كمال طمأنينتها وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير بأقل من جاذب المغناطيس للحديد ، إذ المغناطيس يجذب الحديد لروح فى الحديد مشاكل للمغناطيس يجذبه بنسبته الجنسية الخاصة ، فاذا تجنس النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير فى النفس روح استمدها القلب من الروح وأداها إلى النفس فيجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادث فيه فيزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية ويتحقق بمعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » ولا يقدر على ماذكرناه الا عبد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة فيتناول من الطعام أيضا ضرورة، ولو تكلم مثلا بكلمة من غير ضرورة التهب فيه نار الجوع التهاب الحلفاء بالنار لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل مايوقظها واذا استيقظت نزعت الى هواها ، فالعبد المراد بهذا إذا فطن بسياسة النفس ورزق العلم سهل عليه الطى وتداركته المعونة من الله تعالى لاسيما إن كوشف بشىء من المنح الإلهية ، وقد حكى لى فقير أنه اشتد به الجوع وكان لايطلب ولا يتسبب . قال فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح على بتفاحة قال فتناولت التفاحة وقصدت أكلها فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرت إليها عقب كسر التفاحة فحدث عندى من الفرح بذلك ماستغنيت عن الطعام أياما ، ولذا قال سهل بن عبد الله من طوى لله أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت : أى كوشف ببعض الأسرار الإلهية .

قال المصنف رحمه الله تعالى (قلت أنا : ولا تعجبن من ذلك) أى المذكور من طى هؤلاء الأئمة الأعلام وجوعهم أياما كثيرة (فان لله تعالى القدرة) بالنصب اسم إن مؤخرا (على مايشاء) وذلك (مثل هذا المريض تراه لايأكل شهراً وهو) أى المريض (حى يعيش) ولايموت (و) معلوم أن (المريض

عَلَى كلِّ حَالٍ أَضْعَفُ نَفْساً وَأَرَقُّ طَبْعاً مِنَ الْقَوِيِّ .

وَأَمَّا الَّذِى يَمُوتُ جُوعًا فَذَٰلِكَ أَجَلٌ حَضَرَهُ، كَالَّذِى يَمُوتُ شِبَعاً وَتُخَمَةً ، وَلَقَدْ بَلَغَنِى عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخَرَّازِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ حَالِى مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُطْعِمَنِى فِى كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، فَدَخَلْتُ الْبَادِيَةَ فَمَضَتْ عَلَىَّ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مَا طَعِمْتُ ، فَلَمَّا كَانَ فِى الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَجَدْتُ ضَعْفاً فَجَلَسْتُ مَكَانِى فَإِذَا بِهَاتِفٍ يَقُولُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: سَبَبٌ أَوْ قُوًى؟ فَقُلْتُ: لَا، إِلَّا الْقُوَى، فَقُمْتُ مِنْ وَقْتِى وَقَدِ اسْتَقْلَلْتُ فَأَقَمْتُ اثْنَىْ عَشَرَ يَوْماً مَا طَعِمْتُ وَلَا وَجَدْتُ أَلَماً لِذَٰلِكَ .

فَأَمَّا إِذَا رَأَى الْعَبْدُ احْتِبَاسَ الْأَسْبَابِ عَنْهُ، وَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ فَلْيَسْتَيْقِنْ أَنْ يَمُدَّهُ اللهُ تَعَالَى بِالْقُوَّةِ فَلَا يَضْجَرَنَّ لِذَٰلِكَ ، بَلْ حَقُّهُ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ تَعَالَى عَلَى ذَٰلِكَ ،

على كل حال أضعف نفسا) من الصحيح (وأرق طبعا من القوى وأما الذى يموت جوعا فذلك) أى موته (أجل) أى مدة حلول الموت (حضره) فى الوقت الذى علم الله حصول موته فيه أزلا بخلقه تعالى من غير مدخلية للجوع فيه (كالذى يموت شبعا) من الطعام (وتخمة) بضم ففتح أى بطنة . قال العلامة عبد الحق : التخمة الداء يصيب الإنسان من أكل الطعام الوخيم وعند الأطباء عبارة عن فسادالطعام واستحالته فى المعدة إلى كيفية غير صالحة وأصلها الوخمة جمع تخمات وتخم والعامة تسكن الخاء من التخمة (ولقد بلغنى عن أبى سعيد الخراز) البغدادى العارف شيخ الصوفية وصاحب التصانيف أحمد بن عيسى وكان من المتوكلين مات سنة سبع وسبعين وقيل سنة ست وثمانين ومائتين (رحمه الله) والخراز بتشديد الراء نسبة إلى خرز الجلود من القرب ونحوها (أنه قال كان حالي مع الله سبحانه أن يطعمنى فى كل ثلاثة أيام فدخلت البادية فمضت على ثلاثة أيام ماطعمت) أى ما أكلت طعاما (فلما كان) الحال (فى اليوم الرابع وجدت ضعفا) فى بدنى (فجلست مكانى فاذا) أنا (بهاتف) أى قائل لايرى شخصه (يقول يا أبا سعيد أيما أحب اليك سبب) وذلك بالأكل (أو قوى) بلا أكل (فقلت : لا) أحب (إلا القوى) بضم القاف جمع قوة (فقمت من وقتى وقد استقللت) أى رأيت ثلاثة أيام قليلا (فأقمت اثنى عشر يوما ماطعمت ولا وجدت ألما لذلك) أى لعدم أكل الطعام (فأما إذا رأى العبد احتباس الأسباب) من الطعام والشراب (عنه) أى العبد (وعلم من نفسه التوكل على الله فليستيقن أن يمده) أى يعينه (الله تعالى بالقوة فلا يضجرن) أى العبد (لذلك) أى لاحتباس الأسباب مع إمداد القوة (بل حقه) أى العبد (أن يشكر الله تعالى على ذلك) الاحتباس

شُكْرًا كَثِيرًا ، فَإِنّ لَهُ المَنّةَ وَالصُّنْعَ اللّطِيفَ إِذْ رَفَعَ عَنْهُ المُؤْنَةَ وَأَعْطَاهُ المَعُونَةَ وَحَصَلَ لَهُ الْأَصْلُ وَالمَقْصُودُ وَدَفَعَ عَنْهُ الثِّقَلَ وَالْوَاسِطَةَ وَخَرَقَ لَهُ عَلَائِقَ الْعَادَةِ ، وَأَرَاهُ طَرِيقَ القُدْرَةِ وَشَبَّهَ حَالَهُ بِحَالِ المَلَائِكَةِ وَرَفَعَهُ عَنْ حَالَةِ الْبَهَائِمِ وَالْعَامَّةِ فِى تِلْكَ الْكَرَامَةِ ، فَتَأَمَّلْ هٰذَا الْأَصْلَ الْكَبِيرَ تَغْنَمِ الرِّبْحَ الْكَثِيرَ الْعَظِيمَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى .

قُلتُ أَيضاً : وَلَعَلَّكَ تَقُولُ : إِنَّكَ أَطْنَبْتَ فِى هٰذَا الْفَصْلِ خِلَافَ شَرْطِ الْكِتَابِ .

فَأَقُولُ لَعَمْرُو اللهِ إِنّهُ لَقَلِيلٌ فِى جَنْبِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِى هٰذَا المَعْنَى ، إِذْ هُوَ أَهَمُّ شَأْنًا فِى الْعِبَادَةِ ، بَلْ عَلَيْهِ مَدَارُ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْعُبُودِيَّةِ ، فَمَنْ لَهُ هِمَّةٌ فِى هٰذَا الشَّأْنِ فَلْيَسْتَمْسِكْ بِذٰلِكَ وَلْيَرْعَهُ حَقَّهُ ، وَإِلاّ فَهُوَ عَنِ المَقْصُودِ بِمَعْزِلٍ ، وَالَّذِى يَدُلُّكَ عَلَى بَصِيرَةِ عُلَماءِ الآخِرَةِ وَالْعَارِفِينَ بِاللهِ : أَنَّهُمْ بَنَوْا أَمْرَهُمْ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ وَالتَّفَرُّغِ ،

مع الإيقان بما ذكر (شكرا كثيرا) ليزيده الله الإمداد قال تعالى «لئن شكرتم لأزيدنكم» (فان له) تعالى (المنة والصنع اللطيف إذ رفع) عز وجل (عنه) أى عن العبد (المؤنة) أى التعب فى الأسباب (وأعطاه) أي العبد (المعونة) أى الإعانة للعبادة (وحصل له) أى للعبد (الأصل والمقصود ودفع) تعالى (عنه الثقل) أى ثقل الطعام (والواسطة وخرق) الله (له علائق العادة وأراه) أى العبد (طريق القدرة وشبه) تعالى (حاله) أى حال العبد (بحال الملائكة) أى فى الاستغناء عن الأكل (ورفعه) الله تعالى (عن حالة البهائم و) حالة (العامة) الجاهلين (في تلك الكرامة) وهى المعونة ورفع المؤنة عن نفسه (فتأمل هذا الأصل الكبير تغنم الربح الكثير العظيم إن شاء الله تعالى . قلت أيضا) أى كما تقول ماتقدم (ولعلك تقول إنك أطنبت) أى بسطت الكلام (فى هذا الفصل) أى فصل التوكل فى أمر الرزق (خلاف شرط) هذا (الكتاب) المسمى بالمنهاج وشرطه الاختصار كما يعلم من أول الكتاب (فأقول: لعمرالله) أى بقاء الله واللام لتوكيدالابتداء والخبر محذوف والتقدير لعمرالله قسمى ولعمر الله ماأقسم به (إنه) أى ماأطنبت من الكلام فى هذا الفصل (لقليل فى جنب مايحتاج إليه فى هذا المعنى) أى فى التوكل فى أمر الرزق (إذ هو) أى هـذا المعنى (أهم شأنا فى العبادة بل عليه) أى على هذا المعنى (مدار الدنيا والعبودية فمن له همة) عالية (فى هذا الشأن) أى شأن العبادة (فليستمسك بذلك) المعنى المذكور (وليراعه) أى يحفظه (حقه وإلا) أى إن لم يستمسك بالمعنى المذكور ولم يراع حقه (فهو عن المقصود بمعزل) أى مجانب له (والذى يدلك على بصيرة علماء الآخرة العارفين بالله أنهم) أى علماء الآخرة (بنوا أمرهم على التوكل على الله والتفرغ

لِعِبَادَةِ اللهِ وَقَطْعِ الْعَلَائِقِ كُلِّهَا ، فَكَمْ صَنَّفُوا مِنْ كِتَابٍ ، وَكَمْ أَوْصَوْا بِوَصِيَّةٍ ، وَقَيَّضَ اللهُ لَهُمْ أَعْوَانًا مِنَ السَّادَةِ وَأَصْحَابًا، حَتَّى يَتَمَشَّى لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ الْمَحْضِ مَالَمْ يَتَمَشَّ لِطَائِفَةٍ مِنْ طَوَائِفِ الْأَئِمَّةِ الْأَزْهَادِ الْكَرَامِيَّةِ ، فَإِنَّهُمْ بَنَوْا مَذْهَبَهُمْ عَلَى أُصُولٍ غَيْرِ مُسْتَقِيمَةٍ ، وَمَازِلْنَا أَعِزَّةً مَادُمْنَا عَلَى مِنْهَاجِ أَئِمَّتِنَا نَخْرُجُ مِنْ مَعَابِدِنَا وَمَدَارِسِنَا كُلَّ حِينٍ ، إِمَّا إِمَامٌ فِي الْعِلْمِ كَالْأُسْتَاذِ أَبِي إِسْحٰقَ وَأَبِي حَامِدٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ وَابْنِ فُورَكٍ وَشَيْخِنَا الْإِمَامِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ السَّادَةِ ، وَإِمَّا صِدِّيقٌ فِي الْعِبَادَةِ كَأَبِي إِسْحٰقَ الشِّيرَازِي ،

لعبادة الله وقطع العلائق كلها فكم صنفوا) أى علماء الآخرة (من كتاب وكم أوصوا بوصية وقيض الله) أى هيأه وبعثه . وقال بعضهم : أصل التقيض التيسير والتهيئة قيضته له أي هيأته ويسرته وهذان ثوبان قيضان : أى كل منهما مكافئ للآخر فى الثمن والمقايضة المعاوضة (لهم) أى لعلماء الآخرة (أعوانا) جمع عون بمعنى معين (من السادة) الأماثل (وأصحابا حتى يتمشى) أى يجرى (لهم من الخير المحض) أى الخالص (مالم يتمش) أى مالم يجر (لطائفة من طوائف الأئمة الأزهاد الكرامية) فرقة من المشبهة أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام (فانهم) أى الطائفة الكرامية (بنوا مذهبهم على أصول غير مستقيمة وما زلنا أعزة مادمنا) أى مدة دوامنا (على منهاج) أى طريق (أئمتنا) معاشر أهل السنة والجماعة (يخرج من معابدنا ومدارسنا كل حين) وزمن (إما إمام) أى مقتدى به (فى العلم كالأستاذ أبى إسحق) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفرايني الملقب بركن الدين الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى ذكره الحاكم أبو عبد الله . وقال أخذ عنه الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور وأقر له بالعلم أهل العراق وخراسان وله التصانيف الجليلة منها كتابه الكبير الذى سماه جامع الحلى فى أصول الدين والرد على الملحدين وغير ذلك من المصنفات توفى يوم عاشوراء سنة ثمان عشرة وأربعمائة (وأبى حامد) أحمد بن أبي طاهر محمد ابن أحمد الاسفرايني الفقيه الشافعى توفى ليلة السبت لأحدى عشرة ليلة بقيت من شوال سنه ست وأربعمائة ببغداد (وأبى الطيب) طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبرى القاضى الفقيه الشافعى توفى فى شهر ربيع الأول يوم السبت لعشر بقين منه سنة خمسين وأربعمائة (وابن فورك) أبى بكر محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الأصبهانى بلغت مصنفاته فى أصول الفقه والدين ومعانى القرآن قريبا من مائة مصنف وكانت وفاته سنة ست وأربعمائة وفورك بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء وبعدها كاف ، وهو اسم علم (وشيخنا الإمام) أبى بكر الوراق (وأمثالهم) أى هؤلاء الأئمة (من السادة ، وإما) يخرج من ذلك (صديق) أى كثير الصدق (فى العبادة كأبى إسحق الشيرازي) إبراهيم بن على بن يوسف توفى ستة ست

وَأَبِي سَعِيدٍ الصُّوفِي وَنَصْرِ الْمَقْدِسِي وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ فَاقَ الْأُمَّةَ عِلْماً وَزُهْداً حَتَّى ضَعُفَتِ الْقُلُوبُ مِنْ بَعْضِنَا وَتَلَطَّخْنَا بِشَيْءٍ مِنَ الْعَلَائِقِ الَّتِي ضَرَرُهَا أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهَا ، فَتَرَاجَعَتِ الْأُمُورُ ، وَتَقَاعَدَتِ الْهِمَمُ ، وَطَارَتِ الْبَرَكَاتُ وَزَالَتِ اللَّذَّاتُ وَالْحَلَاوَاتُ ، فَلَا يَكَادُ يَصْفُو لِأَحَدٍ عِبَادَتُهُ أَوْ يَحْصُلُ لَهُ عِلْمٌ وَحَقِيقَةٌ ، وَأَنَّ اللَّمْعَةَ الَّتِي تَظْهَرُ مِنَّا الْآنَ لَيْسَتْ إِلَّا مِمَّنْ بَقِيَ عَلَى مِنْهَاجِ أَسْلَافِنَا وَشُيُوخِنَا الْمُتَقَدِّمِينَ كَالْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ ،

وسبعين وأربعمائة ببغداد . والشيرازى بالكسر آخره زاى نسبة إلى شيراز بلدة بفارس (وأبى سعيد الصوفى) نسبة إلى التصوف (ونصر المقدسى) هو أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسى بكسر الدال نسبة إلى بيت المقدس ثم الدمشقى الإمام الزاهد المجمع على جلالته وفضيلته وله مصنفات كثيرة فى المذهب وغيره وصحبه الغزالى متبركا به حين قدم الغزالى دمشق متزاهدا توفى يوم الثلاثاء التاسع من المحرم سنة تسعين وأربعمائة بدمشق (وغيرهم) أى هؤلاء العباد الزهاد (ممن فاق الأمة علما) وعملا (وزهدا حتى ضعفت القلوب من بعضنا وتلطخنا بشىء من العلائق التى ضررها أكثر من نفعها) أى تلك العلائق (فتراجعت الأمور) بعد السلف الصالحين (وتقاعدت الهمم) عن تحصيل المنازل الرفيعة (وطارت البركات) أى ذهبت (وزالت اللذات والحلاوات) في العبادة (فلا يكاد) أى يقرب (يصفو لأحد عبادة أو يحصل له علم) نافع (وحقيقة) فى العبودية (وإن اللمعة) من العلم والعمل (التي ظهر منا الآن) أى فى آخر القرن الخامس (ليست إلا ممن بقي على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحارث) أى كأبى عبد الله الحارث بن أسد الزاهد البصرى صاحب التصانيف فى التصوف وغيره (المحاسبى) بالضم سمى به لكثرة محاسبته لنفسه . توفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين رحمه الله كذا فى سراج السالكين . قال القشيرى فى الرسالة قيل إنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئا . قيل لأن أباه كان يقول بالقدر فرأى فى الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئا ، وقال صحت الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايتوارث أهل ملتين » . قال القشيرى فيها : سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت الحسين بن يحي يقول سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول سمعت محمد بن مسروق يقول : مات الحرث بن أسد المحاسبي وهو محتاج إلى درهم وخلف أبوه ضياعا وعقارا فلم يأخذ منه شيئا . قال سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله تعالي يقول : كان الحرث المحاسبي إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على أصبعه عرق فكان يمتنع منه . قال أبو عبد الله بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا لهم حالهم ، الحرث بن أسد المحاسبي والجنيد بن محمد وأبو محمد رويم وأبو العباس بن عطاء وعمرو بن عثمان المكى لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق . قال شيخ الإسلام أى بين الشريعة والحقيقة ، ومن جمع بينهما كلم الناس بقدر ماتقضيه أحوالهم ، وغيره وهو من غلب عليه

وَمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَالمزَنِيِّ وَحَرْمَلَةَ ،

حاله إنما يكلمهم مما غلب عليه فلا يصلح أن يقتدى به ، فمن غلب عليه حال الجوع مثلا وفتح عليه به إنما يكلم الناس بحاله ، وليس كل سالك يصلح له ذلك فقد يكون بعض الناس إنما يفتح عليه من باب التبذل ولبس الثياب الخلقة وخدمة الفقراء لامن باب الجوع ، فالشيخ المقتدى به ينبغى أن يكون طبيبا عارفا بسائر الأدوية والأمراض فيداوى كل عليل بالدواء اللائق بمرضه .

ومن كلام الحرث المحاسبي : من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة . ويحكي عن الجنيد أنه قال : مر بى يوما الحرث المحاسبي فرأيت فيه أثر الجوع فقلت ياعم تدخل الدار وتتناول شيئا فقال نعم فدخلت الدار وطلبت شيئا أقدمه إليه ، فكان فى البيت شيء من طعام حمل إلى من عرس قوم فقدمته إليه فأخذ لقمة وأدارها فى فيه ، ثم إنه قام وألقاها فى الدهليز ومر ، فلما رأيته بعد ذلك بأيام قلت له فى ذلك ، فقال إنى كنت جائعا وأردت أن أسرك بأكلى وأحفظ قلبك ولكن بينى وبين الله سبحانه علامة : أن لايسوغنى طعاما فيه شبهة فلم يمكن ابتلاعه فمن أين كان لك ذلك الطعام ؟ فقلت إنه حمل إلى من دار قريب لى من العرس . ثم قلت تدخل اليوم فقال نعم فقدمت إليه كسرا يابسة كانت لنا فأكل . وقال إذا قدمت إلى فقير شيئا فقدم إليه مثل هذا (ومحمد بن إدريس) بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد القرشى المطلبى (الشافعى) نسبة إلى جده شافع . وكان الإمام الشافعى كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين اجتمع فيه من العلوم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة والعربية والشعر ما لم يجتمع فى غيره ، مولده سنة خمسين ومائة . وقد قيل إنه ولد فى اليوم الذى توفى فيه الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله ، وتوفى يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين (والمزنى) هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحى ابن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزني صاحب الإمام الشافعى رحمه الله ، وهو من أهل مصر . وكان زاهدا عالما مجتهدا محجاجا غواصاً على المعانى الدقيقة ، وهو إمام الشافعيين وأعرفهم بطرقه وفتاويه وما ينقله عنه ، صنف كتبا كثيرة فى مذهب الإمام الشافعى : منها الجامع الكبير والجامع الصغير ومختصر المختصر والمنشور والمسائل المعتبرة والترغيب فى العلم وكتاب الوثائق وغير ذلك . وقال الشافعى رحمه الله فى حقه : المزنى ناصر مذهبى ، وكان أحد الزهاد فى الدنيا ، وكان من خير خلق الله عز وجل ، ومناقبه كثيرة . وتوفى لست بقين من شهر رمضان سنة أربع وستين ومائتين بمصر ، والمزنى بضم الميم وفتح الزاى وبعدها نون نسبة إلى مزينة بنت كليب ، وهى قبيلة كبيرة مشهورة (وحرملة) هو أبو عبد الله حرملة بن يحى بن عبد الله التجيبى المصرى صاحب الامام الشافعى رحمه الله كان أكثر أصحابه اختلافا إليه واقتباساً منه ، وكان

وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ، رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ ، فَهُمْ كَمَا قَالَ القَائِلُ :

وَمَا صَحِبُوا الْأَيَّامَ إِلاَّ تَعَفُّفَاً ... وَمَا وَجَدُوا مِنْ حُبِّ سَيِّدِهِمْ بُدَّا

أَفَاضِلُ صِدِّيقُونَ أَهْلُ وِلاَيَةٍ ... إِلَى سَيِّدِ السَّادَاتِ قَدْ جَعَلُوا الْقَصْدَا

تَحَلَّلَ عَقْدُ الصَّبْرِ مِنْ كُلِّ صَابِرٍ ... وَمَا حَلَّتِ الْأَيَّامُ مِنْ عَقْدِهِمْ عَقْدَا

وَكُنَّا فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مُلُوكاً فَصِرْنَا سُوقَةً ، وَكُنَّا فُرْسَاناً فَصِرْنَا رِجَالَةً ، وَلَيْتَنَا لاَ نَنْقَطِعُ عَنِ الطَّرِيقِ بِمَرَّةٍ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى الْمَصَائِبِ ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ لاَ يَسْلُبَنَا هٰذَا الرَّمَقَ ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ ،

حافظا للحديث ، وصنف المبسوط والمختصر . وروى عنه مسلم بن الحجاج فأكثر فى صحيحه من ذكره ومولده في سنة ست وستين ومائة وتوفى ليلة الخميس لتسع بقين من شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين بمصر وقيل أربع وأربعين رحمه الله تعالى . والتجيبى بضم التاء المثناة من فوقها وكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها باء موحدة نسبة إلى تجيب وهو اسم امرأة فنسب إليها أولادها (وغيرهم من أئمة الدين رحمهم الله أجمعين ، فهم) أى هؤلاء الأئمة (كما قال القائل) من بحر الطويل (وما صحبوا) أى الأسلاف والشيوخ (الأيام إلا تعففا *) عن غرور الدنيا (وما وجدوا من حب سيدهم) وهو الله سبحانه وتعالى (بدا) أى تفرقا (أفاضل) أى هم أفاضل ، والأفاضل جمع الأفضل (صديقون أهل ولاية) قال الله تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (إلى سيد السادات) متعلق بقد جعلوا (قد جعلوا القصدا . تحلل عقد الصبر من كل صابر * وما) نافية (حلت الأيام من عقدهم عقدا . وكنا فى الصدر) أى فى الزمان (الأول ملوكا فصرنا سوقة) أى راعية : قال العلامة عبد الحق : السوقة الرعية من الناس تحت سياسة الولاة للولاة . وتطلق على الجمع والمذكر والمؤنث ، سموا سوقة لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمر ومراد (وكنا) فى ذلك الصدر (فرسانا) جمع فارس والفارس الراكب على الحافر فرسا كان أو بغلا أو حمارا قاله ابن السكيت (فصرنا رجالة) جمع راجل ، والراجل من لم يكن له ظهر يركبه وهو خلاف الفارس (وليتنا لا تنقطع عن الطريق) أى طريق الهدى (بمرة والله المستعان على المصائب ، وهو) تعالى (المسئول) فى (أن لا يسلبنا هذا الرمق) أى البقية من العلم والمعرفة (إنه جواد) أى كثير الجود والعطاء (كريم) أى متفضل على من شاء بما شاء .

واختلفوا فى معنى الكريم على أقوال أحسنها ما قاله مصنفنا أبو حامد الغزالى فى المقصد الأسنى إن الكريم هو الذى إذا قدر عفا وإذا وعد وفى وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ولا يبالى كم

مَنَّانٌ رَحِيمٌ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

﴿ وأمَّا التفويضُ ﴾ فَتأمَّلْ فِيهِ أَصْلَيْنِ ، أَحَدُهُما : أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ الاِخْتِيارَ لاَيَصْلُحُ إِلاَّ لِمَنْ كَانَ عَالِماً بِالأُمُورِ بِجَمِيعِ جِهَاتِهَا وَظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا وَحَالِهَا وَعَاقِبَتِهَا ، وَإِلاَّ فَلاَ يَأْمَنُ أَنْ يَخْتَارَ الْفَسَادَ وَالْهَلاَكَ عَلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلاَحُ ، أَلاَ تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ لِبَدَوِيٍّ أَوْ قَرَوِيٍّ أَوْ رَاعِي غَنَمٍ : أُنْقُدْ لِي هٰذِهِ الدَّرَاهِمَ وَمَيِّزْ لِي بَيْنَ جَيِّدِهَا وَرَدِيئِهَا ، فَإِنَّهُ لاَ يَهْتَدِي لِذٰلِكَ ، وَلَوْ قُلْتَ لِسُوقِيٍّ غَيْرِ صَيْرَفِيٍّ فَرُبَّمَا يَعْسُرُ أَيْضاً ، فَلاَ تَأْمَنْ إِذَنْ ،

أعطى ولاما أعطى وإن رفعت حاجتك إلى غيره لا يرضى وإن جافاه عاتب ومااستقصى ولا يضيع من لاذ به والتجا ويغنيه عن الوسائل والشفعا، فمن اجتمع له ذلك لا بالتكليف فهو الكريم المطلق (منان) أى كثير المن الذي هو الإنعام أوتعداد النعم وهو بالمعنى الثانى مذموم إلا بالنسبة لله ورسوله صلي الله عليه وسلم . واستثنى بعضهم الشيخ والوالد (رحيم) أى ذو الرحمة الكثيرة (ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) أتى المصنف رحمه الله بالحوقلة للتبرى من حوله وقوته لتصحيح إخلاصه كما قيل : صحح عملك بالإخلاص ، وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة وبالله التوفيق(وأما التفويض) أى تسليم الأمر كله إلى الله تعالى (فتأمل فيه) أى فى التفويض (أصلين أحدهما أنك تعلم أن الاختيار) أى اختيار الفعل (لايصلح إلا لمن كان عالما بالأمور بجميع جهاتها) أى الأمور (وظاهرها وباطنها) وخيرها وشرها (وحالها وعاقبتها وإلا) أى وإن لم يكن عالما بالأمور بجميع ماذكر (فلا يأمن أن يختار الفساد والهلاك على مافيه الخير والصلاح . ألا ترى أنك لو قلت لبدوى) نسبة إلى البادية على غير قياس (أو قروى) بفتح الراء نسبة إلى القرية على غير قياس ، وفى كفاية المتحفظ القرية كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قرارا وتقع على المدن وغيرها والجمع قرى على غير قياس . قال بعضهم لأن ما كان علي فعلة من المعتل فبابه أن يجمع على فعال بالكسر مثل ظبية وظباء وركوة وركاء والنسبة إليها كما تقدم (أوراعى غنم: انقد لى هذه الدراهم) فى المصباح نقدت الدراهم نقدا من باب قتل والفاعل ناقد ، والجمع نقاد مثل كافر وكفار وانتقدت كذلك إذا نظرتها لتعرف جيدها وزيفها . وفى المختار ونقد الدراهم وانتقدها: أخرج منها الزيف من باب نصر (وميزلى بين جيدها ورديئها) أى الدراهم (فانه) أى من ذكر من البدوى وغيره (لايهتدى لذلك) أى لنقد الدراهم والتميز بين جيدها ورديئها (ولو قلت لسوقى غير صيرفى) قال الفيومي : وصرفت الذهب بالدراهم بعته واسم الفاعل من هذا صيرفى وصيرف وصراف المبالغة (فربما يعسر) ذلك (أيضا) أى كما يعسر علي من ذكر من البدوى ومن بعده (فلا تأمن إذن) أى حين لايهتدى من ذكر إلى ذلك

إلا بِأنْ تَعْرِضَهَا عَلَى الصَّيْرَفِيِّ الخَبِيرِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الخَوَاصِّ وَالْأَسْرَارِ ، وَهٰذَا الْعِلْمُ المُحِيطُ بِالْأُمُورِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ لَايَصْلُحُ إِلَّا لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَا يَسْتَحِقُّ إِذَنْ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ الِاخْتِيَارُ وَالتَّدْبِيرُ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِذٰلِكَ يَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) .

وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ قِيلَ لَهُ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى : سَلْ تُعْطَ ، وَكَانَ مُوَفَّقاً فَقَالَ : إِنَّ عَالِماً بِجَمِيعِ الْوُجُوهِ يَقُولُ لِجَاهِلٍ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ :

النقد والتميز (إلا بأن تعرضها) أى تلك الدراهم (على الصيرفى الخبير) أى العليم (بالذهب والفضة وما فيهما من الخواص والأسرار وهذا العلم المحيط بالأمور) كلها (من جميع الوجوه لايصلح) أى هذا العلم (إلا لله رب العالمين فلا يستحق إذن) أى حين إذ كان العلم المحيط بالأمور من جميع الوجوه لايصلح إلا لله رب العالمين (أحد أن يكون له الاختيار والتدبير إلا الله وحده لاشريك له ولذلك) أى لاستحقاقه تعالى الاختيار والتدبير دون غيره (يقول عز من قائل : وربك يخلق مايشاء) كما يشاء (ويختار) أى وربك يختار مايشاء نزلت هذه الآية جوابا للمشركين حين قالوا «لولا نزلا هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» يعنى الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم لأنه المالك المطلق ، وله أن يخص من يشاء بما يشاء لااعتراض عليه ألبتة كذا ذكره الخازن (ما كان لهم) لأهل مكة (الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير ، وظاهره نفي الاختيار عنهم رأسا والأمر كذلك عند التحقق فان اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها كما ذكره البيضاوى . وقال النسفى : معناه ليس لهم أن يختاروا على الله شيئا ما وله الخيرة عليهم ، ولم يدخل العاطف فى « ما كان لهم الخيرة » لأنه بيان لقوله : ويختار . إذ المعنى أن الخيرة لله وهو أعلم بوجوه الحكمة وأفعاله فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ومن وصل على معنى ويختار الذى لهم فيه الخيرة فقد أبعد ، بل مالنفي اختيار الخلق تقرير لاختيار الحق ومن قال ومعناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل إلى الاعتزال . والخيرة : من التخير يستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم محمد خيرة الله من خلقه (ثم قال تعالى : وربك يعلم ما تكن) أى تخفى (صدورهم) أى قلوبهم من البغض والعداوة (وما يعلنون) مايظهرون من المعاصى (وحكى أن بعض الصالحين) رحمه الله (قيل له من قبل الله تعالى) بكسر القاف وفتح الباء (سل) ماشئت (تعط) مسئولك (وكان) بعض الصالحين (موفقا) للخير (فقال) بعض الصالحين (إن عالما جل وعز بجميع الوجوه يقول لجاهل) يعنى نفسه (من جميع الوجوه :

سَلْ تُعطَ ، أَيْش أَعْلَمُ مَاذَا يَصْلُحُ لِي فَأَسْأَلُهُ وَلَـكِنِ اُخْتَرْ أَنْتَ لِي ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

وَالْأَصْلُ الثَّانِي مَاتَقُولُ لَوْ أَنَّ رَجُلاً قالَ لَكَ : أَنَا أَقُومُ بِجَمِيعِ أُمُورِكَ وَأُدَبِّرُ جَمِيعَ مَاتَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَصَالِحِكَ ، فَفَوِّضِ الْأَمْرَ كُلَّهُ إِلَيَّ وَاشْتَغِلْ أَنْتَ بِشَأْنِكَ الَّذِي يَعْنِيكَ وَهُوَ عِنْدَكَ أَعْلَمُ أَهْلِ زَمَانِكَ ، وَأَحْـكَمُهُمْ وَأَقْوَاهُمْ وَأَرْحَمُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ وَأَصْدَقُهُمْ وَأَوْفَاهُمْ ، أَلَسْتَ تَغْتَنِمُ ذٰلِكَ وَتَعُدُّهُ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ وَتَمْـتَنُّ مِنْهُ أَكْبَرَ مِنَّةٍ وَتُقَدِّمُ لَهُ أَوْفَرَ شُـكْرٍ وَأَجْمَلَ ثَنَاءٍ ، ثُمَّ إِذَا اُخْتَارَ لَكَ شَيْئاً لَاتَعْرِفُ وَجْهَ الصَّلَاحِ فِيهِ فَلَا تَضْجَرْ لِذٰلِكَ ، بَلْ تَثِقُ وَتَطْمَئِنُّ إِلَى تَدْبِيرِهِ ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَايَخْتَارُ لَكَ إِلَّا مَاهُوَ الْخَيْرُ ، وَمَا يَنْظُرُ لَكَ إِلَّا الصَّلَاحَ كَيْفَمَا كَانَ الْأَمْرُ ، بَعْدَ مَاوَكَلْتَ الْأَمْرَ إِلَيْهِ وَضَمِنَ ذٰلِكَ ، فَمَا لَكَ إِذَنْ لَاتُفَوِّضُ الْأَمْرَ إِلَى اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ ؟ فَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ كُلَّهُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ

سل تعط ، أيش) أى أىّ شىء (أعلم ماذا يصلح لى فأسأله ، ولـكن اختر أنت) يارب (لى) ماشئت (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة :

﴿ والأصل الثانى ﴾ من الأصلين (ما) أى أىّ شىء (تقول لو أن رجلا قال لك أنا أقوم بجميع أمورك وأدبر) أى أقضى وأنفذ (جميع ما تحتاج إليه من مصالحك ففوض الأمر كله إلى واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك) أى ينفعك (وهو) أى القائل لك ما ذكر (عندك أعلم أهل زمانك وأحكمهم) أى أعد لهم (وأقواهم وأرحمهم) للناس (وأتقاهم) لربه (وأصدقهم) فى كلامه (وأوفاهم) لوعده (ألست تغتنم ذلك) أى القول الذى صدر منه (وتعده) أى ذلك القول (أعظم نعمة وتمتن) أى تشعر بالمن (منه) أى من القائل المذكور (أكبر منة وتقدم له) أى لهذا القائل (أوفر شكر) أى أكمله (وأجمل ثناء) أى أحسنه (ثم إذا اختار) القائل (لك شيئا لاتعرف وجه الصلاح فيه) أى فى ذلك الشىء (فلا تضجر) ولا تقلق (لذلك) أى لاختياره ذلك (بل تثق وتطمئن) بقلبك (إلى تدبيره) ونظره (وتعلم أنه) أى الرجل المذكور (لا يختار لك إلاما هو الخير وما ينظر لك إلا الصلاح كيفما كان الأمر بعد ما وكلت) أى فوضت (الأمر) كله (إليه) أى إلى الرجل المذكور (وضمن ذلك) الأمر كله (فمالك) أى أى شىء لك (إذن) أى حين وكلت أمرك كله إلى هذا الرجل مع الثقة والاطمئنان إلى تدبيره (لا تفوض الأمر إلى الله رب العالمين سبحانه فهو) تعالى (الذى يدبر الأمر كله من السماء إلى الأرض) يعنى أنه تعالى يدبر أمر العالم العلوى والسفلى ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال لا يشغله شأن عن شأن ، وقيل : يدبر الأمر بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة ، ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة ، لأن جميع

فَهُوَ أَعْلَمُ كُلِّ عَالِمٍ، وَأَقْدَرُ كُلِّ قَادِرٍ، وَأَرْحَمُ كُلِّ رَاحِمٍ، وَأَغْنَى كُلِّ غَنِيٍّ، لِيَخْتَارَ لَكَ بِلَطِيفِ عِلْمِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ عِلْمُكَ وَلَا يُدْرِكُهُ فَهْمُكَ، وَاشْتَغِلْ أَنْتَ بِشَأْنِكَ الَّذِي يَعْنِيكَ فِي عَاقِبَتِكَ، وَإِذَا اخْتَارَ لَكَ أَمْرًا لَا تَعْلَمُ وَجْهَ سِرِّهِ رَضِيتَ بِذَٰلِكَ وَاطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ كَيْفَمَا كَانَ، فَهُوَ الصَّلَاحُ وَالْخَيْرُ، فَتَأَمَّلْ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

وَأَمَّا الرِّضَا بِالْقَضَاءِ، فَتَأَمَّلْ فِيهِ أَصْلَيْنِ مُقْنِعَيْنِ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِمَا.

أَحَدُهُمَا: مَا فِي الرِّضَا مِنَ الْفَائِدَةِ فِي الْحَالِ وَالْمَآلِ.

أَمَّا الْفَائِدَةُ فِي الْحَالِ فَفَرَاغُ الْقَلْبِ وَقِلَّةُ الْهَمِّ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَلِذَٰلِكَ قَالَ بَعْضُ الزُّهَّادِ رَحِمَهُ اللهُ: إِذَا كَانَ الْقَدَرُ حَقًّا فَالْهَمُّ فَضْلَةٌ، وَأَصْلُهُ الْخَبَرُ الْمَأْثُورُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته (فهو أعلم كل عالم وأقدر كل قادر وأرحم كل راحم وأغنى كل غنى ليختار) جل وعز (لك بلطيف علمه وحسن تدبيره ما لا يبلغه علمك ولا يدركه فهمك) لقصوره (واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك فى عاقبتك وإذا اختار) الله تعالى (لك أمراً لا تعلم وجه سره) أى الأمر (رضيت بذلك) أى باختياره سبحانه وتعالى (واطمأننت إليه كيفما كان فهو) أى الأمر المختار (الصلاح والخير ، فتأمل راشدا إن شاء الله وبالله التوفيق) والعصمة .

(وأما الرضا بالقضاء) أى بقضاء الله تعالى (فتأمل فيه) أى فى الرضا (أصلين مقنعين) أى كافيين (لا مزيد عليهما . أحدهما ما فى الرضا) بالقضاء (من الفائدة فى الحال والمآل . أما الفائدة فى الحال ففراغ القلب) من الشواغل (وقلة الهم) والحزن (من غير فائدة ولذلك) أى لأجل فراغ القلب وقلة الهم (قال بعض الزهاد رحمه الله : إذا كان القدر) بفتح الدال وسكونها مصدر قدرت الشىء بتخفيف الدال إذا أحطت بمقداره : أى بتقدير الله الأمور وإحاطته بها وهو عند الأشاعرة إيجاده تعالى الأشياء على مقدار مخصوص فى ذواتها وأحوالها بطبق ما سبق به العلم . وعند الماتريدية تحديده تعالى فى الأزل كل مخلوق بصفته التى يوجد عليها ، من حسن ونفع وضدها وما يحويه من زمان ومكان وما يفعله من طاعة أو عصيان وغير ذلك فهو على الأول صفة فعل وعلى الثانى صفة ذات (حقا) أى صدقا (فالهم فضلة) أى زائد باطل (وأصله) أى قول بعض الزهاد (الخبر المأثور) أى المنقول (عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود) أى عبد الله بن مسعود ، وقد رآه حزينا (رضى الله عنه) روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثاً اتفق البخارى ومسلم منها على أربعة وستين وانفرد

« لِيَقِلَّ هَمُّكَ وَمَا قُدِّرَ يَكُنْ وَمَا لَمْ يُقَدَّرْ لَمْ يَأْتِكَ » هٰذَا هُوَ الْكَلَامُ الْجَامِعُ النَّبَوِيُّ الْبَالِغُ فِي قِلَّةِ لَفْظِهِ وَكَثْرَةِ فَائِدَةِ مَعْنَاهُ .

وَأَمَّا الْفَائِدَةُ فِي الْمَآلِ فَثَوَابُ اللهِ تَعَالَى وَرِضْوَانُهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) وَمَا فِي السُّخْطِ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالضَّجَرِ فِي الْحَالِ ، وَالْوِزْرِ وَالْعُقُوبَةِ فِي الْمَآلِ بِلَا فَائِدَةٍ إِذِ الْقَضَاءُ نَافِذٌ فَلَا يَنْصَرِفُ بِهَمِّكَ وَسُخْطِكَ كَمَا قِيلَ :

مَاقَدْ قُضِي يَانَفْسُ فَاصْطَبِرِي لَهُ   وَلَكِ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يُقْدَرِ

البخارى بأحد وعشرين ، ومسلم بخمسة وثلاثين وكان من كبار الصحابة وساداتهم وفقائهم ومقدميهم فى القرآن والفقه والفتوى وأصحاب الحلق وأصحاب الاتباع فى العلم (ليقل همك وما قدر) بالبناء للمفعول : أى قدره الله (يكن وما لم يقدر لم يأتك) فنى هذا الحديث تقرير وحض على تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى مع شهود أنه الفاعل لما يشاء وأن ما قضاه وأبرمه لا يمكن أن يتعدى حده المقدر له ، وهذا راجع لقوله تعالى « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » الآية ، فان من علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب من خير وشر ونفع وضر . وأن اجتهاد الخلق كلهم بخلاف المقدور لا يفيد شيئا ألبتة علم أن الله تعالى وحده هو الضار النافع المعطى المانع فأفرده بالطاعة وحفظ حدوده وخافه ورجاه وأحبه وقدم طاعته على طاعة خلقه كلهم وأفرده بالاستعانة به والسؤال له والتضرع إليه والرضى بقضائه فى حال الشدة والرخاء . قال العراقى : رواه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع ، وقد اختلف فى صحبته، ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المعافى مرسلا انتهى . قال الزبيدى : وقد رواه أيضا ابن ماجه فى القدر والديلمى وابن النجار من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن يونس من تاريخ من دخل مصر من الصحابة من طريق عياش بن عياش عن أبى موسى الغافقى واسمه مالك بن عبد الله « أن النبى صلى الله عليه وسلم نظر إلى ابن مسعود فقال لايكثر همك مايقدر يكون وما ترزق يأتيك » (هذا هو الكلام الجامع النبوى البالغ فى قلة لفظه وكثرة فائدة معناه . وأما الفائدة فى المآل) أى فى العاقبة (فثواب الله تعالى ورضوانه . قال الله تعالى « رضى الله عنهم) بطاعتهم له (ورضوا عنه ») بما أعطاهم من ثوابه وجزيل كرامته (وما فى السخط من الهم والحزن والضجر) أى القلق من الغم (فى الحال والوزر والعقوبة فى المآل بلا فائدة ، إذ القضاء نافذ فلا ينصرف بهمك وسخطك كما قيل) من بحر الكامل (ما قد قضى يا نفس فاصطبرى له * ولك الأمان) والسلامة (من الذى لم يقدر .

وَتَحَقَّقِي أَنَّ الْمُقَدَّرَ كَائِنٌ حَتْماً عَلَيْكِ صَبَرْتِ اَمْ لَمْ تَصْبِرِي

وَالْعَاقِلُ لاَ يَخْتَارُ الْهَمَّ بِلاَ فَائِدَةٍ مَعَ الْوِزْرِ وَالْعُقُوبَةِ عَلَى رَاحَةِ الْقَلْبِ وَثَوَابِ الْجَنَّةِ .

وَالْأَصْلُ الثَّانِي مَا فِي السُّخْطِ مِنْ عِظَمِ الْخَطَرِ وَالضَّرَرِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ إِلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى «فَلَاوَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

وتحقق أن المقدر كائن* حتما) أى واجباً (عليك صبرت أم لم تصبري . والعاقل لا يختار الهم) والحزن (بلا فائدة) فى الحال(مع الوزر والعقوبة) فى المآل (على راحة القلب وثواب الجنة . والأصل الثانى) من الأصلين (مافى السخط من عظم الخطر والضرر والكفر والنفاق إلا أن يتداركه الله تعالى) برحمته (وتأمل قوله تعالى « فلا وربك) أى فو ربك ولا مزيدة لتأكيد القسم لا لتظاهر «لا» فى قوله (لايؤمنون) لأنها تزاد أيضا فى الإثبات كقوله « لا أقسم بهذا البلد » (حتى يحكموك فيما شجر بينهم) فيما اختلف بينهم واختلط ، ومنـه الشجر لتداخل أغصانه كذا فى البيضاوى ، وذكر الخازن أن هذه الآية نزلت فى الزبير بن العوام ورجل من الأنصار ، روى الشيخان عن عروة بن الزبير عن أبيه رضى الله عنه : أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير فى شراج الحرة التى يسقون بها النخل ، فقال الأنصارى سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عندرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : « اسق يازبير ثم أرسـل إلى جارك فغضب الأنصارى ، ثم قال يارسول الله أن كان ابن عمتك فتلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال للزبير اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، فقال الزبير والله إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » زاد البخارى فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد أشار على الزبير رأيا : أى أراد سعة له وللأنصارى فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم قال الزبير : والله ما أحسب هذه الآية نزلت فى ذلك . قوله فى شراج الحرة الشراج مسايل الماء التى تكون من الجبل وتنزل إلى السهل الواحدة شرجة بسكون الراء . والحرة الأرض الحمراء المتلبسة بالحجارة السود ، وقوله فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى تغير ، وقوله فلما أحفظ : أى أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله حتى يرجع إلى الجدر وهو بفتح الجيم : يعنى أصل الجدار ، وقوله فاستوعى له : أى استوفى حقه فى صريح الحكم وهو أن من كان أرضه أقرب إلى فم الوادى فهو أولي بأول الوادى وحقه تمام السقى فرسول الله صلى الله

ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) فَنَفَى الْإِيمَانَ وَأَقْسَمَ عَلَى فَقْدِ الْإِيمَانِ عَمَّنْ سَخِطَ وَوَجَدَ فى نَفْسِهِ حَرَجًا مِنْ قَضَاءِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَهُ تعالَى ؟ وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ اللهَ تَعَالَي يَقُولُ « مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائى وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلاَئِى وَلَمْ يَشْكُرْ عَلَى نَعْمَائِى فَلْيَتَّخِذْ إِلٰهاً سِوَائِى »

عليه وسلم أذن للزبير فى السقى على وجه المسامحة فلما أبى خصمه ذلك ولم يعترف بما أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسامحة لأجله أمر الزبير باستيفاء حقه على التمام وحمل خصمه على مر الحق فعلى هذا القول تكون الآية مستأنفة لاتعلق لها بما قبلها . قال البغوى : وروى أنهما لما خرجا مرا على المقداد ، فقال لمن كان القضاء ؟ قال الأنصارى لابن عمته ولو شدقه ففطن له يهودى كان مع المقداد ، فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فىقضاء يقضى بينهم وايم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة فى حياة موسى فدعا موسى إلي التوبة ، فقال فاقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا فى طاعة ربنا حتى رضى عنا ، فقال ثابت بن قيس ابن شماس : أما والله إن الله ليعلم منى الصدق ولو أمرنى محمد صلي الله عليه وسلم أن أقتل نفسى لفعلت ، وقال مجاهد والشعبى نزلت هذه الآية فى بشر المنافق واليهودى اللذين اختصما إلى الطاغوت ، وعلى هذا القول تكون الآية متصلة بما قبلها . فلا وربك معناه فوربك فعلى هذا تكون لامزيدة لتأكيد معنى القسم ، وقيل إن «لا» رد لكلام سبق كأنه قال : ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك ، ثم استأنف القسم ، فقال تعالى « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » يعنى فيما اختلفوا فيه من الأمور . وأشكل عليهم حكمه ، وقيل فيما التبس عليهم ، يقال شاجره فى الأمر إذا نازعه فيه ، وأصله التداخل والاختلاط وشجر الكلام إذا دخل بعضه فى بعض واختلط (ثم لايجدوا فى أنفسهم) فى قلوبهم (حرجا مما قضيت) ضيقا مما حكمت به ، أو من حكمك، أو شكا من أجله فان الشاكى فى ضيق من أمره (ويسلموا تسليما) يعنى وينقادوا لأمرك انقيادا بظاهرهم وباطنهم ولا يعارضونك فى شىء من أمرك ، وقيل معناها يسلموا ماتنازعوا فيه لحكمك (فنفى) سبحانه وتعالى (الإيمان وأقسم) جل وعز (علي فقد الإيمان عمن سخط ووجد فى نفسه حرجا) أى ضيقا وشكا (من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف حال من سخط قضاءه تعالى وقد روينا أن الله تعالى يقول) « أنا الله الذى لاإله إلا أنا» (من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر على نعمائى فليتخذ إلها سوائى) أى غيرى . قال العراقى رواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله « من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليلتمس ربا سوائى » وإسناده ضعيف . قال الزبيدى وكذلك رواه أبو نعيم في الصحابة وابن عساكر كلهم من طريق

قِيلَ كَأَنَّهُ يَقُولُ : هٰذَا لَا يَرْضَانِي رَبًّا حِينَ يَسْخَطُ فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا آخَرَ يَرْضَاهُ ، وَهٰذَا غَايَةُ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ لِمَنْ عَقَلَ ، وَلَقَدْ صَدَقَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذْ قِيلَ لَهُ : مَا الْعُبُودِيَّةُ وَمَا الرُّبُوبِيَّةُ ؟ فَقَالَ : لِلرَّبِّ أَنْ يَقْضِيَ وَلِلْعَبْدِ أَنْ يَرْضَىٰ ، فَإِذَا قَضَىٰ الرَّبُّ وَلَمْ يَرْضَ الْعَبْدُ فَمَا هُنَاكَ عُبُودِيَّةٌ وَلَا رُبُوبِيَّةٌ .

سعيد بن زياد بن فائد بن زياد بن أبي هند الدارى عن أبيه زياد كشداد عن أبيه فائد بالفاء عن أبيه زياد عن أبيه أبي هند قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يعنى عن ربه فساقه. قال الحافظ فى الإصابة فائد وولده ضعيفان ، وروى الشيرازى فى الألقاب من حديث على « قال لى جبريل قال الله عز وجل : يا محمد من آمن بى ولم يؤمن بالقدرخيره وشره فليلتمس رباغيرى» وفيه محمد بن علاثة الكرمانى ، وروى البيهقى وابن النجار من حديث أنس . قال الله عز وجل « من لم يرض بقضائى وقدرى فليلتمس ربا غيرى » ورواه الخطيب بلفظ « من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلها غير الله عز وجل » (قيل كأنه) تعالى (يقول هذا) أى المتصف بما ذكر (لا يرضانى ربا حين يسخط فليتخذ ربا آخر يرضاه ، وهذا) الحديث (غاية الوعيد والتهديد لمن عقل) وفى نسخة لمن غفل عن الله تعالى (ولقد صدق بعض السلف) رحمه الله (إذ قيل له ما العبودية وما الربوبية ؟ فقال) بعض السلف (للرب أن يقضى) ما يشاء (وللعبد أن يرضى) بقضائه (فإذا قضى الرب ولم يرض العبد فما هناك عبودية ولا ربوبية) قال القشيرى : وسئل محمد بن خفيف متى تصح العبودية ، فقال إذا طرح كله على مولاه وصبر معه على بلواه قال: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفر ابن محمد بن نصير يقول سمعت ابن مسروق يقول : سمعت سهل بن عبد الله يقول : لايصح التعبد لأحد حتى لا يجزع من أربعة أشياء : من الجوع والعرى والفقر والذل ، وقيل العبودية أن تسلم إليه كلك وتحمل عليه كلك ، وقيل من علامة العبودية ترك التدبير وشهود التقدير ، وقال ذو النون المصرى : العبودية أن تكون عبده فى كل حال كما أنه ربك فى كل حال ؛ وقال الجريرى : عبيد النعم كثير عديدهم وعبيد المنعم عزيز وجودهم . قال سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : أنت عبد من أنت فى رقه وأسره فإن كنت فى أسر نفسك فأنت عبد نفسك وإن كنت فى أسر دنياك فأنت عبد دنياك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدنيا تعس عبد الخميصة » وقيل العبودية شهود الربوبية . قال شيخ الإسلام وهو سبب عظيم فى دوام العبودية لأن العبد إذا توالت عليه مراقبته لجلال مولاه ذل فى نفسه بالنظر لما هى عليه من جهة طبعها لا بالنظر لما خصها به ربها من كرامته . وقال النصراباذى قيمة العابد بمعبوده

فَتَأَمَّلْ هٰذَا الْأَصْلَ وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ لَعَلَّكَ تَسْلَمُ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ .

وَأَمَّا الصَّبْرُ فَإِنَّهُ دَوَاءٌ مُرٌّ وَشُرْبَةٌ كَرِيهَةٌ مُبَارَكَةٌ تَجْلِبُ كُلَّ مَنْفَعَةٍ وَتَدْفَعُ عَنْكَ كُلَّ مَضَرَّةٍ ، فَإِذَا كَانَ الدَّوَاءُ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ فَالْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ يُكْرِهُ النَّفْسَ عَلَى شُرْبِهِ وَتَجَرُّعِهِ وَيُغَصُّ

كما أن شرف العارف بمعروفه ، وقال أبو حفص : العبودية زينة العبد ، فمن تركها تعطل من الزينة ، وكان ابن عطاء يقول : العبودية فى أربع خصال : الوفاء بالعهود والحفظ للحدود والرضى بالموجود والصبر عن المفقود ، وكان عمرو بن عثمان المكى يقول : ما رأيت أحدا من المتعبدين في كثرة من لقيت بمكة حرسها الله تعالى وغيرها ، ولا أحدا ممن قدم علينا في المواسم أشد اجتهادا ولا أدوم على العبادة من المزنى رحمه الله تعالى ولا رأيت أحدا أشد تعظما لأوامر الله تعالى منه ، وما رأيت أحدا أشد تضيقا علي نفسه وتوسعة على الناس منه . وقال أبو على الدقاق : ليس شىء أشرف من العبودية ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، وكان أشرف أوقاته فى الدنيا « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام » وقال تعالى « فأوحى إلى عبده ما أوحى » فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به ، وفى معناه أنشدوا :

يا عمرو ثارى عند زهرائى يعرفه السامع والرائى

لا تدعني إلا بيا عبدها فانه أشرف أسمائى

وقال بعضهم: إنما هو شيئان سكونك إلى اللذة واعتمادك على الحركة ، فإذا أسقطت عنك هذين فقد أديت العبودية حقها كما قال الواسطى : احذروا لذة العطاء فانها غطاء لأهل الصفاء . وقال أبو على الجوزجانى : الرضى دار العبودية والصبر بابه والتفويض بيته ، فالصوت على الباب والفراغة فى الدار والراحة في البيت . وقال أبو على الدقاق : كما أن الربوبية نعت للحق سبحانه لا يزول فالعبودية صفة للعبد لا تفارقه مادام ، وأنشد بعضهم :

فان تسألونى قلت هاأنا عبده وان سألوه قال هذاك مولايا

وكان أبو عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت النصراباذى يقول : العبادات إلى طلب الصفح والعفو عن تقصيرها أقرب منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها ، وسمعت النصر اباذى أيضا يقول: العبودية إسقاط رؤية التعبد فى مشاهدة المعبود . وقال الجندى : العبودية ترك الاشتغال والاشتغال بالشغل الذى هو أصل الفراغة (فتأمل هذا الأصل وانظر لنفسك) فما يصلحها (لعلك تسلم بعون الله وتوفيقه . وأما الصبر فإنه دواء مرّ) ضد حلو (وشربة كريهة) أى مكروهة للنفس (مباركة تجلب كل منفعة وتدفع عنك كل مضرة ،فإذا كان الدواء بهذه الصفة) المذكورة (فالإنسان العاقل يكره) بضم الياء مع كسر الراء: أى يقهر(النفس علي شربه)أى الدواء (و)على (تجرعه ويغص)

عَلَى مَرَارَتِهِ وَحِدَّتِهِ وَيَقُولُ : مَرَارَةُ سَاعَةٍ رَاحَةُ سَنَةٍ .

وَأَمَّا الْمَنَافِعُ الَّتِي يَجْلِبُهَا الصَّبْرُ، فَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ : صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَصَبْرٌ عَنْ فُضُولِ الدُّنْيَا ، وَصَبْرٌ عَلَى الْمِحَنِ وَالْمَصَائِبِ ؛ فَإِذَا احْتَمَلَ مَرَارَةَ الصَّبْرِ وَصَبَرَ فِي هٰذِهِ الْمَوَاطِنِ الْأَرْبَعَةِ تَحْصُلُ لَهُ الطَّاعَاتُ وَمَنَازِلُهَا مِنَ الْاِسْتِقَامَةِ

أى العاقل فى سراج السالكين : غص الرجل بالطعام والماء يغص ويغص غصصا من باب علم ونصر : اعترض فى حلقه شيء منه فمنعه التنفس ، ويقال غص بالغيظ علي التشبيه وغص الشيء يغصه غصا : قطعه (على مرارته) أى الدواء، يقال مر الشيء يمر ويمر مرارة من باب نصر وعلم صار مرا ضد حلا (و) على (حدته ويقول) العاقل (مرارة ساعة راحة سنة . وأما المنافع التى يجلبها الصبر ، فاعلم أن الصبر أربعة أقسام : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصبر عن فضول الدنيا ، وصبر على المحن) جمع محنة (والمصائب) جمع مصيبة (فإذا احتمل) العبد (مرارة الصبر وصبر فى هذه المواطن الأربعة) التي هى الطاعة والمعصية وفضول الدنيا والمصائب (تحصل له) أى للعبد الذى احتمل ذلك (الطاعات ومنازلها من الاستقامة) وهى كما قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، ومن لم يكن مستقيما فى حالته ضاع سعيه وخاب جهده . قال الله تعالى « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » ومن لم يكن مستقيما فى صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره ولم يبن سلوكه على صحة، فمن شرط المستأنف الاستقامة فى أحكام البداية كما أن من حق العارف الاستقامة فى آداب النهاية ، فمن أمارات استقامة أهل البداية أن لا تشوب معاملتهم فترة ، ومن أمارات استقامة أهل الوسائط أن لا يصحب منازلهم وقفة ، ومن أمارات استقامة أهل النهاية أن لا تتداخل مواصلتهم حجبة . وقال أبو على الدقاق الاستقامة لها ثلاثة مدارج: أولها التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة، فالتقويم من حيث تأديب النفس والإقامة من حيث تهذيب القلوب والاستقامة من حيث تقريب الأسرار . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى معنى قوله ــ ثم استقاموا ــ لم يشركوا . وقال عمر رضى الله عنه : لم يروغوا روغان الثعالب ، فقول الصديق محمول علي مراعاة الوصول فى التوحيد ، وقول عمر محمول على ترك طلب التأويل والقيام بشرط العهود . وقال ابن عطاء : استقاموا على انفراد القلب بالله تعالى . وقال أبو علي الجوزجانى : كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة . قال القشيرى : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت أبا على الشبوى يقول : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت له روى عنك أنك قلت : شيبتنى هود ، فما الذى شيبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ فقال لا ولكن قوله تعالى « فاستقم كما أمرت » وقيل إن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المعهودات

وَثَوَابُهَا الْجَزِيلُ فِى الْعَاقِبَةِ، ثُمَّ لَا يَقَعُ فِى الْمَعَاصِى وَبَلِيَّاتِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَبِعَاتِهَا فِى الآخِرَةِ، ثُمَّ لَا يُبْتَلَى بِطَلَبِ الدُّنْيَا وَمَالَهَا مِنَ الشُّغْلِ فِى الْحَالِ وَالتَّبِعَةِ فِى الْمَآلِ ، ثُمَّ لَا يُحْبَطُ أَجْرُهُ عَلَى مَا ابْتُلِىَ بِهِ وَذَهَبَ عَنْهُ ، فَحَصَلَ إِذَنْ بِسَبَبِ الصَّبْرِ الطَّاعَةُ وَمَنَازِلُهَا الشَّرِيفَةُ وَثَوَابُهَا وَالتَّقْوَى وَالزُّهْدُ وَالْعِوَضُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَتَفْصِيلُ ذَٰلِكَ أَمْرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَأَمَّا دَفْعُ الْمَضَارِّ فَيُرِيحُهُ أَوَّلًا مِنْ مُؤْنَةِ الْجَزَعِ وَمُقَاسَاتِهِ ،

ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدى الله تعالى على حقيقة الصدق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « استقيموا ولن تحصوا » أى تستطيعوا الاستقامة : أى المخالفة للمعتاد . وقال الواسطى : الخصلة التى بها كملت المحاسن وبفقدها قبحت المحاسن الاستقامة . وحكى عن الشبلى أنه قال : الاستقامة أن تشهد الوقت قيامة ، ويقال الاستقامة فى الأقوال بترك الغيبة وفي الأفعال بنفي البدعة ، وفي الأعمال بنفى الفترة ، وفى الأحوال بنفى الحجبة . وقال الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسين : السين فى الاستقامة سين الطلب : أى طلبوا من الحق أن يقيمهم على توحيدهم ثم على استدامة عهودهم وحفظ حدودهم . قال القشيرى : واعلم أن الاستقامة توجب إدامة الكرامة : قال الله تعالى « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » لم يقل سقيناهم ، بل قال أسقيناهم ، يقال أسقيته إذا جعلت له سقيا فهو يشير إلى الدوام : أى دوام الخير من المطر وما يترتب عليه : قال سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسين بن أحمد يقول سمعت أبا العباس الفرغانى يقول : قال الجنيد لقيت شابا من المريدين فى البادية تحت شجرة من شجر أم غيلان : فقلت ما أجلسك ههنا ؟ فقال حال افتقدته فمضيت وتركته ، فلما انصرفت من الحج إذا أنا بالشاب قد انتقل إلى موضع قريب من الشجرة : فقلت ما جلوسك ههنا ؟ فقال وجدت ما كنت أطلبه فى هذا الموضع فلزمته . قال الجنيد فلا أدرى أيهما كان أشرف لزومه لافتقاد حاله أو لزومه للموضع الذى نال فيه مراده (و) يحصل له (ثوابها) أى الطاعات (الجزيل فى العاقبة ، ثم لا يقع) أى العبد (فى المعاصى وبلياتها فى الدنيا وتبعاتها فى الآخرة ، ثم لا يبتلى بطلب الدنيا ومالها) أى للدنيا (من الشغل فى الحال والتبعة فى المآل . ثم لا يحبط أجره على ما ابتلى به و) ما (ذهب عنه) أى عن العبد (فحصل إذن بسبب الصبر الطاعة ومنازلها الشريفة) من الاستقامة (و) حصل (ثوابها والتقوى والزهد والعوض والثواب الجزيل) أى العظيم (من الله سبحانه ، وتفصيل ذلك) أى ما يحصل للعبد من الأجر بسبب الصبر (أمر لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وأما دفع المضار فيريحه) أى العبد (أولا من مؤنة الجزع ومقاساته) أى الجزع

فى الدنيا ، ثم وزره وعقوبته فى العقبى .

وأما إن هو ضعف عن الصبر وسلك طريق الجزع فاته كل منفعة ولحقه كل مضرة ، إذ لا يصبر على مشقة الطاعة فلا يفعل الطاعة ولا يصبر على حفظها فيحبطها ، أو لا يصبر على المواظبة عليها فلا يصل إلى منزلة شريفة فيها من درجات الاستقامة ، أو لا يصبر عن معصية فيقع فيها أو عن فضول فيشتغل به ، أو لا يصبر على مصيبة فيحرم ثواب الصبر ، وربما يكثر الجزع حتى يفوت العوض بسبب ذلك فتكون له مصيبتان ، إحداهما : فوت الشىء ، والأخرى : فوت الأجر والعوض ، وحلول المكروه ، وحرمان الصبر ، ولقد قيل : حرمان الصبر على المصيبة أشد من المصيبة ، فأى فائدة فى شىء يذهب بالحاصل الموجود ، ولا يرد عليك الذاهب المفقود ، فاجتهد إذا فاتك أحدهما أن لا يفوتك الآخر .

ومن الكلام الجامع ما ذكر أن عليا رضى الله عنه عزى رجلا فقال :

(فى الدنيا ثم وزره) أى إثمه (وعقوبته فى العقبى ، وأما إن هو) أى العبد (ضعف عن الصبر وسلك طريق الجزع فاته) أى الضعيف عما ذكر (كل منفعة) فى الدنيا والآخرة (ولحقه كل مضرة إذ لا يصبر) الضعيف (على) احتمال (مشقة الطاعة فلا يفعل الطاعة ولا يصبر على حفظها) أى الطاعة (فيحبطها ، أو لا يصبر على المواظبة) والملازمة (عليها فلا يصل إلى منزلة شريفة فيها) أى الطاعة (من درجات الاستقامة أو لا يصبر عن معصية فيقع فيها) أى فى المعصية (أو) لا يصبر (عن فضول) أى ما لا يعنيه (فيشتغل به) أى بذلك الفضول (أو لا يصبر على مصيبة فيحرم) أى يمنع (ثواب الصبر : وربما يكثر الجزع حتى يفوت العوض بسبب ذلك) أى كثرة الجزع (فتكون له) أى للعبد الضعيف الذى سلك طريق الجزع (مصيبتان : إحداهما فوت الشىء و) المصيبة (الأخرى فوت الأجر والعوض وحلول المكروه وحرمان الصبر ، ولقد قيل حرمان الصبر على المصيبة أشد من المصيبة) ولذلك قال ابن المبارك : المصيبة واحدة ، فاذا جزع صاحبها صارت اثنتين إحداهما المصيبة والثانية ذهاب أجر المصيبة وهو أعظم من المصيبة ، وروى فى الخبر عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بى فانها من أعظم المصائب » (فأى فائدة فى شىء يذهب بالحاصل الموجود ولا يرد عليك الذاهب المفقود فاجتهد إذا فاتك أحدهما) أى الحاصل والمفقود (أن لا يفوتك الآخر . ومن الكلام الجامع ماذكر أن عليا رضى الله عنه) وكرم وجهه (عزى رجلا) أى سلاه وأمره بالصبر (فقال)

إِنْ صَبَرْتَ جَرَتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ .

كرم الله وجهه (إن صبرت) على مصيبتك (جرت عليك المقادير) التى قدرها الله تعالى (وأنت مأجور) بسبب صبرك أجرا مضاعفا على أجر الشكر . قال أبو طالب المكى رحمه الله : قد روينا يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ؟ فيقول نعم يارب فيقول الله كلا، أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه فيعطي أضعاف جزاء الشاكرين . وجاء فى الخبر «إن لأبواب الجنة مصراعين يأتى بها زحام إلا باب الصبر فانه مصراع واحد لايدخل منه إلا الصابرون أهل البلاء فى الدنيا واحد بعد واحد» وللصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر لايتم كل واحد منهما إلا بصاحبه فمن كان التقوي مقامه كان الصبر حاله فصار الصبر أفضل الأحوال من حيث كان التقوى أفضل المقامات إذ الأتقى هو الأكرم عند الله ، والأكرم عند الله هو الأفضل ، وقيل لسفيان الثورى ماأفضل الأعمال ؟ قال الصبر عند الابتلاء . وقال بعض العلماء : لايطمئن طامع فى مدح الله تعالى وحسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصبر له ، ولا يطمعن أحد فى حقيقة الإيمان وحسن اليقين قبل أن يمدحه الله تعالى ويثنى عليه ولو أظهر الله تعالى على جوارحه سائر الأعمال ، ثم لم يمدحه بوصف ولم يثن عليه بخير لم يؤمن عليه سوء الخاتمة ، وذلك أن من رحمة الله تعالى أنه إذا أحب عبدا أو رضى عمله مدحه ووضعه فمن ابتلاه بكراهة ومشقة أو هوي أو شهوة فصبر لذلك أو صبر عن ذلك فانه تعالى يمدحه ويثنى عليه بكرمه وجوده فيدخل هذا العبد فى أسماء الموصوفين ، ويصير واحدا من الممدوحين فعندها يثبت قدمه من الزلل ويختم له بما سبق له من صالح العمل ، وأفضل الصبر الصبر على الله تعالى بالمجالسة والإصغاء إليه وعكوف الهمم عليه وقوة الوجد به، وهذا لخصوص المقربين أوحياء منه أو حبا له أو تسليما له أو تسليما إليه ، وهو السكون تحت جريان الأقدار وشهودها من الإنعام . ومن حسن تدبير الاقتسام وشهود المشيئة له والحكمة فيها والقصد بالابتلاء بها ، وهو داخل فى قوله تعالى « ولربك فاصبر » وفى قوله تعالى « فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » وقال سهل فى تأويل قول على رضى الله عنه : إن الله يحب كل عبد نؤمة . قال هو الساكن تحت جريان الأحكام عن الكراهة والاعتراض ، وقال عمر بن عبدالعزيز أصبحت ومالى سرور إلا فى مواضع القدر ، ويقال من علامات اليقين التسليم للقضاء بحسن الصبر والرضى وهو مقام العارفين، والصبر أيضا على إظهار الكرامات وهى الإخبار بكشف القدرة والآيات داخل فى حسن الأدب من المعاملات، وهذا فى معنى الحياء من الله تعالى ، وهذا طريق المحبين لله وهو حقيقة الزهد ، ومن فضائل الصبر حبس النفس عن حب الحمد والمدح والرياسة، وقد روى فى خبر مقطوع «الصبر فى ثلاث : الصبر عن تزكية النفس والصبر عن شكوى المصيبة . والصبر على الرضى بقضاء الله تعالى خيره وشره» (وإن جزعت) فما يصيبك من المصائب (جرت عليك المقادير وأنت مأزور) أى آثم وحسبك أن الجزع يحبط الأجر

ثُمَّ أَقُولُ : فَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّ قَطْعَ الْقَلْبِ عَنِ الْعَلَائِقِ الْمَأْلُوفَةِ وَمَنْعَ النَّفْسِ عَنِ الْعَادَاتِ الرَّاسِخَةِ بِالتَّوَكُّلِ الْمَحْضِ عَلَى اللهِ جَلَّ اسْمُهُ ، وَتَرْكِ التَّدْبِيرِ فِى الْأُمُورِ وَتَفْوِيضِهَا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِمَا هُوَ السِّرُّ فِيهَا وَكَبْحِ النَّفْسِ عَنِ السُّخْطِ وَالْجَزَعِ مَعَ تَسَارُعِ النَّفْسِ إِلَيْهِ وَإِكْرَاهِهَا عَلَى لِجَامِ الرِّضَا وَتَجَرُّعِ شُرْبَةِ الصَّبْرِ مَعَ نُفْرَتِهَا عَنْ ذٰلِكَ ،

قال العلامة أبو الليث السمرقندى :حدثنا الفقيه أبوجعفر حدثنا أبويعقوب إسحاق بن عبد الرحمن القارىء حدثنا إبراهيم بن إسحاق القاضى بالكوفة حدثنا محمد بن عاصم صاحب الحكايات حدثنا سليمان بن عمرو عن مجاهد بن الحسن عن عبد الرحمن بن غانم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال « مات ابن لى فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل السلام عليك فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر ، ثم إن نفوسنا وأموالنا وأهالينا وأولادنا وأموالهم من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة نتمتع بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم ، ثم افترض الله علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى وكان ابنك هذا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة متعك الله به فى غبطة وسرور وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت فلا تجمعن عليك يامعاذ أن يحبط جزعك أجرك فتندم على مافاتك ، فلو قدمت على ثواب مصيبتك عرفت أن المصيبة قصرت عنه . واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ولا يدفع حزنا فليذهب عنك أسفك بما هو نازل بك فكأنك قد نزل بك والسلام » قال السمرقندى : معنى قوله فليذهب عنك أسفك بما هو نازل بك : يعنى تفكر فى الموت الذى هو نازل بك حتى يذهب حزنك فكأن قد ، يعنى كأنه قد جاء الموت ، لأن الرجل إذا تفكر فى موت نفسه وعلم أنه يموت عن قريب فلا يجزع له لأن الجزع لا يرد ميتا ، ويبطل ثواب المصيبة لأن الذى يجزع على المصيبة إنما يشكو ربه ويرد قضاءه . قال وهب بن منبه رحمه الله : وجدت فى التوراة أربعة أسطر متواليات : أحدها من قرأ كتاب الله تعالى فظن أنه لم يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله تعالى . والثانى من شكا مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه . والثالث من حزن على مافاته فقد سخط على قضاء ربه . والرابع : من تواضع لغنى ذهب ثلثا دينه ، يعنى نقص من يقينه (ثم أقول فجملة الأمر) أى حاصله (أن قطع القلب عن العلائق المألوفة ، و) أن (منع النفس عن العادات الراسخة) أى الثابتة (بالتوكل المحض) أى الخالص (على الله جل اسمه وترك التدبير فى الأمور وتفويضها إلى الله سبحانه من غير علم بما هو السر فيها) أى الأمور (وكبح النفس) أى منعها ، فى المختار كبح الدابة : جذبها إليه باللجام لكى تقف ولا تجرى وبابه قطع (عن السخط والجزع مع تسارع النفس إليه) أى السخط (وإكراهها) أى النفس (على لجام الرضا ، و) على (تجرع شربة الصبر مع نفرتها) أى النفس (عن ذلك) أى عن

لِأَمْرٍ مُرٍّ وَعِلَاجٌ شَدِيدٌ وَحَمْلٌ ثَقِيلٌ ، وَلٰكِنَّهُ تَدْبِيرٌ سَدِيدٌ وَطَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَلَهُ عَاقِبَةٌ مَحْمُودَةٌ وَأَحْوَالٌ سَعِيدَةٌ مَسْعُودَةٌ ، وَمَا تَقُولُ فِي الْوَالِدِ الْمُشْفِقِ الْغَنِيِّ إِذَا مَنَعَ وَلَدَهُ الْعَزِيزَ رُطَبَةً أَوْ تُفَّاحَةً يَأْكُلُهَا وَهُوَ أَرْمَدُ ، وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَلِّمِ الْغَلِيظِ السَّائِسِ وَيَحْبِسُهُ طُولَ النَّهَارِ عِنْدَهُ وَيُضْجِرُهُ وَيَحْمِلُهُ إِلَى الْحَجَّامِ لِيَحْجِمَهُ فَيُوجِعَهُ وَيُقْلِقَهُ ، أَتَرَى أَنَّهُ مَنَعَ ذٰلِكَ مِنْ بُخْلٍ فِيهِ ؟ فَكَيْفَ وَهُوَ يُعْطِي الْأَجَانِبَ وَيُوَسِّعُ عَلَيْهِمْ ؟ أَوْ هَوَانٍ لِهٰذَا الْوَلَدِ عِنْدَهُ ، كَيْفَ وَهُوَ يَكْنِزُ لَهُ جَمِيعَ مَا فِي يَدَيْهِ أَوْ قَصَدَ بِذٰلِكَ

الرضا والصبر (لأمر) أى لشىء (مر) شديد المرارة ، وهذا خبر أن من قوله أن قطع القلب كما أفاده العلامة عبد الحق بن شاه رحمه الله (وعلاج شديد ، وحمل) بالكسر (ثقيل ولكنه) أى هذا الأمر المر (تدبير سديد) أى صواب (وطريق مستقيم وله) أى لهذا الأمر (عاقبة محمودة وأحوال سعيدة مسعودة وما تقول فى الوالد المشفق) على ولده (الغنى إذا منع ولده العزيز) المحبوب عنده (رطبة) أى نضيج البسر واحدة الرطب (أو) منع (تفاحة) وهى فاكهة معروفة (يأكلها وهو) أى الولد (أرمد) رمد الرجل هاجت عينه فهو أرمد ورمد (وسلمه) أى سلم الأب ولده (إلى المعلم) ليعلم ما يصلحه من أمر دينه (الغليظ السائس) أى القائم على إصلاح الحال (ويحبسه) أى يحبس الأب ولده (طول النهار عنده) أى المعلم (ويضجره) بضم الياء من أضجر : أى يوقع الأب ولده فى الضجر والقلق (و) قد (يحمله) أى الولد (إلى الحجام) فى المصباح حجمه الحاجم حجما من باب قتل : شرطه وهو حجام أيضا واسم الصناعة حجامة بالكسر ، والقارورة محجمة بكسر الأول والهاء تثبت وتحذف والمحجم مثل جعفر : موضع الحجامة (ليحجمه) أى الولد (فيوجعه) أى يوقع الحجام هذا الولد فى الوجع والألم (ويقلقه) بضم الياء : أى يوقعه فى القلق والاضطراب ، وذلك لأن نظر الوالد فى حقه أتم فيما يئول إليه من النفع ، ونظر الولد قاصر على اللذة العاجلة (أترى) أى أتظن (أنه) أى الوالد (منع) ولده العزيز (ذلك) أى الرطبة والتفاحة (من بخل) أى لأجله (فيه) أى فى الوالد المشفق (فكيف) يكون ذلك المنع من البخل (و) الحال (هو) أى الوالد (يعطى الأجانب) أى الأباعد (ويوسع) الوالد (عليهم) أى الأجانب (أو) ترى أن الوالد منع ذلك من (هوان) أى ذل (لهذا الولد عنده) أى الأب (كيف) يكون لأجل إهانة الولد (وهو) أى الأب (يكنز) من باب ضرب : أى يجمع (له) أى لولده (جميع ما فى يديه) أى الأب من الأموال (أو) تري أن الوالد المشفق (قصد بذلك) أى

إِتْعابَهُ وَإِيذاءَهُ لِبُغْضٍ لَهُ ، كَيْفَ وَهُوَ قُرَّةُ عَيْنِهِ وَثَمَرَةُ فُؤادِهِ ، وَلَوْ هَبَّتْ عَلَيْهِ رِيحٌ لَعَزَّ عَلَيْهِ ذٰلِكَ ، كَلاَّ ، وَلٰكِنْ لَمّا عَلِمَ أَنَّ صَلاَحَهُ فِي ذٰلِكَ ، وَأَنَّ بِهٰذا التَّعَبِ الْقَلِيلِ يَصِلُ إِلى خَيْرٍ كَثِيرٍ وَنَفْعٍ عَظِيمٍ .

وَمَا تَقُولُ فِي الطَّبِيبِ الْحاذِقِ النَّاصِحِ الْمُحِبِّ إِذَا مَنَعَ الْمَرِيضَ الدَّنِفَ شُرْبَةَ ماءٍ وَهُوَ ظَمْآنُ يَتَقَلَّى كَبِدُهُ وَسَقاهُ شُرْبَةَ إِهْلِيلَجٍ كَرِيهَةً تَجْزَعُ عَنْ ذٰلِكَ نَفْسُهُ وَطَبْعُهُ ، أَتُرَى أَنَّ ذٰلِكَ مِنْهُ مُعَادَاةٌ وَإِيذاءٌ ؟ كَلاَّ ، بَلْ هُوَ نُصْحٌ وَإِحْسَانٌ لِمَا عَلِمَ

منع الولد مماذكر ، وتسليمه إلى المعلم الغليظ وحمله إلى الحجام (إتعابه وإيذاءه) أى الولد (لبغض) من الوالد (له) أى لولده (كيف) قصد الأب ذلك الإتعاب والإيذاء لولده (وهو) أى الولد (قرة عينه) أى الأب (وثمرة فؤاده) أى قلبه (ولو هبت عليه) أى على الولد (ريح لعز) أى لشق (عليه) أى على أبيه (ذلك) أى هبوب الريح (كلا) كلمة زجر وردع : أى لا تظن أن منع الأب ولده لما ذكر من البخل والهوان وقصد الإيذاء (ولكن) فعل ما ذكر (لما علم) الأب المشفق (أن صلاحه) أى ولده (فى ذلك) أى المنع وغيره (و) علم (أن) مخففة من الثقيلة : أى أنه : أى الشأن (بهذا التعب القليل يصل) الولد (إلى خير كثير ونفع عظيم ، وما تقول فى الطبيب الحاذق) أى الماهر فى صنعته (الناصح) أى الذى يريد الخير (المحب إذا منع) الطبيب (المريض الدنف) أى الشديد والثقيل فى مرضه ، فى سراج السالكين: دنف المريض يدنف دنفا: ثقل من المرض وأشرف على الموت الدنف مصدر ، والمرض اللازم والذى لازمه المرض : يقال رجل دنف وامرأة دنف ورجلان وامرأتان دنف ورجال ونساء دنف فيستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع . فإن قلت رجل دنف بكسر النون قلت امرأة دنفة ورجلان دنفان وامرأتان دنفتان ورجال أدناف ونساء دنفات (شربة ماء وهو) المريض (ظمآن) أى عطشان (يتقلى) أى يتحرق (كبده وسقاه) أى الطبيب هذا المريض (شربة إهليلج) قال العلامة عبد الحق الإهليج يقال فيه هليلج بلا همزة خلافا لقوم : ثمر ، وهو أصناف كثيرة منه الأصفر الفج ومنه الأسود الهندى وهو البالغ النضيج ومنه كابلى وهو أكبر الجميع ومنه صينى وهو دقيق خفيف معرب هليلة بالفارسية الواحدة بالهاء (كريهة تجزع) بفتح أوله من باب طرب (عن ذلك) أى شربة الإهليلج (نفسه وطبعه) أى المريض (أترى) أى أتظن (أن ذلك) أى منع شرب الماء وسقى الإهليلج (منه) أى من الطبيب الحاذق (معاداة) أى عداوة (وإيذاء) لذلك المريض (كلا) أى لا تظن ذلك (بل هو) أى منع ما يشتهيه المريض وسقى ما يكرهه (نصح وإحسان) وذلك (لما علم) أى علمه الطبيب

يَقِيناً أَنَّ فِي إِعْطَائِهِ شَهْوَتَهُ سَاعَةً هَلاَكَهُ وَعَطَبَهُ رَأْساً ، وَفِي مَنْعِ ذٰلِكَ شِفَاؤُهُ وَبَقَاؤُهُ ؛ فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِذَا حَبَسَ اللهُ عَنْكَ رَغِيفاً أَوْ دِرْهَماً فَتَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّهُ يَمْلِكُ مَا تُرِيدُ ، وَيَقْدِرُ عَلَى إِيصَالِهِ إِلَيْكَ ، وَلَهُ الْجُودُ وَالْفَضْلُ ، وَيَعْلَمُ حَالَكَ فَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَلاَ عُدْمَ وَلاَ عَجْزَ وَلاَ خَفَاءَ وَلاَ بُخْلَ ، تَعَالَى عَنْ ذٰلِكَ وَتَقَدَّسَ ، فَإِنَّهُ أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ وَأَقْدَرُ الْقَادِرِينَ ، وَأَعْلَمُ الْعُلَمَاءِ وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ ؛ فَتَعْلَمُ إِذَنْ بِالْحَقِيقَةِ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْكَ إِلاَّ لِصَلاَحٍ وَاخْتِيَارٍ ، كَيْفَ وَهُوَ الَّذِى يَقُولُ : (خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) كَيْفَ وَهُوَ الَّذِى جَادَ عَلَيْكَ بِمَعْرِفَتِهِ ، وَهِيَ الَّتِي تَتَلاَشَى فِي جَنْبِهَا الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا ،

(يقينا أن فى إعطائه شهوته) أى المريض (ساعة) واحدة (هلاكه وعطبه) اسم أن مؤخرا وهما بمعنى واحد (رأسا) أى ابتداء غير مستطرد إليه من غيره (وفى منع ذلك) أى ما يشتهيه المريض من شربة ماء (شفاؤه) من مرضه (وبقاؤه ، فتأمل أيها الرجل) العاقل (إذا حبس الله عنك رغيفا أو درهما فتعلم يقينا أنه) تعالى (يملك ماتريد، ويقدر على إيصاله) أى ما تريد (إليك وله الجود والفضل ويعلم) سبحانه (حالك فلا يخفى عليه) تعالى (شىء فلا عدم ولا عجز ولا خفاء ولا بخل ، تعالى) الله (عن ذلك) المذكور من العدم والعجز والخفاء والبخل (وتقدس) أى تطهر (فإنه) عز وجل (أغنى الأغنياء وأقدر القادرين ، وأعلم العلماء وأجود الأجودين فتعلم إذن) أى إذ كان الله يملك ما تريد ويقدر على إيصاله إليك (بالحقيقة أنه) سبحانه وتعالى (لم يمنعك) عن الرغيف أو الدرهم (إلالصلاح واختيار ، كيف وهو) جل وعز (الذى يقول) فى كتابه العزيز : هوالذى (خلق لكم مافى الأرض جميعا) يعنى من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار . والمعنى كيف تكفرون بالله ، وقد خلق لكم ما فى الأرض جميعا لتنتفعوا فى مصالح الدين والدنيا؟ أمامصالح الدين فهو الاعتبار والتفكر فى عجائب مخلوقات الله تعالى الدالة على وحدانيته وأما مصالح الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها ، كذا ذكره الخازن (كيف وهو) تعالى (الذى جاد عليك بمعرفته وهى) أى المعرفة (التي تتلاشى) أى تهلك (فى جنبها الدنيا بأسرها) أى بجميعها . قال الأستاذ أبو القاسم : المعرفة على لسان العلماء: هو العلم، فكل علم معرفة وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله تعالى عارف وكل عارف عالم ، وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته . ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله ، وصدق الله تعالى فى جميع

أحواله وانقطع عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره فاذا صار من الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه بريا ، ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، ودام فى السر مع الله تعالى مناجاته ، وحق فى كل لحظة إليه رجوعه ، وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة ، وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل ، وقد تكلم المشايخ فى المعرفة فكل نطق بما وقع له ، وأشار إلى ماوجده فى وقته . قال الأستاذ سمعت أبا على الدقاق رحمه الله يقول : من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته وسمعته يقول المعرفة توجب السكينة فى القلب كما أن العلم يوجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته وكان الشبلى يقول : ليس لعارف علاقة ولا لمحب شكوى ولا لعبد دعوى ولا لخائف قرار ولا لأحد من الله عز وجل فرار ، وكان يقول أيضا وقد سئل عن المعرفة : أولها الله تعالى وآخرها مالا نهاية له فقد تكلموا فى المعرفة وأكثروا . قال أحمد بن عاصم الأنطاكى : من كان بالله أعرف كان له أخوف ، وقال بعضهم : من عرف الله تعالى تبرم بالبقاء وضاقت عليه الدنيا بسعتها فقد حكى الله تعالى عن كعب بن مالك وأصحابه لما تخلفوا عن غزوة تبوك وهجروا إلى أن نزل فيهم قرآن أنهم « ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه » وذلك لمعرفتهم بالله وعظمته وعظمة رسوله ، فكل من عرف الجليل العظيم لايحتمل قلبه الاشتغال بغيره ولا البعد عنه ، وقيل من عرف الله تعالى صفا له العيش وطابت له الحياة وهابه كل شىء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله تعالى ، وقيل من عرف الله تعالى ذهبت عنه رغبة الأشياء وكان بلا فصل ولا وصل ، وقيل المعرفة توجب الحياء والتعظيم كما أن التوحيد يوجب الرضا والتسليم ، وقال رويم : المعرفة للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه ، وقال ذو النون المصرى : ركضت أرواح الأنبياء فى ميدان المعرفة فسبقت روح نبينا صلى الله عليه وسلم أرواح الأنبياء عليهم السلام إلى روضة الوصال ، وقال ذو النون المصرى أيضا : معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلقا بأخلاق الله عز وجل ، وسئل بن يزدانيار متى يشهد العارف الحق سبحانه ؟ فقال إذابدأ الشاهدوفنى الشواهد وذهب الحواس واضمحل الإخلاص، وقال الحسين بن منصور: إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة أوحى الله تعالى إليه بخواطره وحرس سره أن يسنح فيه غير خاطر الحق ،وقال علامة العارف:أن يكون فارغامن الدنيا والآخرة وقال سهل بن عبدالله المعرفة غايتها شيئان الدهش والحيرة ، وقال ذو النون : أعرف الناس بالله تعالى أشدهم تحيرا فيه وقال رجل للجنيد من أهل المعرفة أقوام يقولون إن ترك الحركات من باب البر والتقوى فقال الجنيد إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيم والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فان العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإلى الله تعالى رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة ، وقيل لأبى يزيد بماذا وجدت هذه المعرفة ؟

فقال ببطن جائع وبدن عار. وقال أبو يعقوب النهرجوري : قلت لأبي يعقوب السوسي هل يتأسف العارف على شيء غير الله عز وجل ؟ فقال وهل يرى غيره فيتأسف عليه . قلت فبأى عين ينظر إلى الأشياء ؟ فقال بعين الفناء والزوال . وقال أبو يزيد : العارف طيار والزاهد سيار ، وقيل العارف تبكي عينه ويضحك قلبه . وقال الجنيد : لايكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالمطر يسقى مايحب ومالايحب . وقال يحيى بن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ولا يقضى وطره من شيئين بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه عز وجل . وقال أبو يزيد : إنما نالوا المعرفة بتضييع مالهم والوقوف مع ماله . وقال يوسف بن على رحمه الله : لايكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله عز وجل طرفة عين . وقال ابن عطاء : المعرفة على ثلاثة أركان : الهيبة والحياء والأنس ، وقيل لذى النون المصرى بم عرفت ربك ؟ قال عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى وقيل العالم يقتدى به والعارف يهتدى به . وقال الشبلى : العارف لايكون لغيره لاحظا ولا بكلام غيره لافظا ولا يرى لنفسه غير الله تعالى حافظا ، وقيل العارف أنس بذكر الله تعالى فأوحشه من خلقه ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذل لله تعالى فأعزه فى خلقه . وقال أبو الطيب السامرى : المعرفة طلوع الحق : أي ظهوره وغلبته على محل الأسرار ، وهو القلب بمواصلة الأنوار : أى بتوالى أنوار معرفته عليه حتى لاينساه فى شيء من حالاته، وقال أبو سليمان الدارانى: إن الله تعالى يفتح للعارف وهو على فراشه مالا يفتح لغيره وهو قائم يصلى . وقال الجنيد : العارف من نطق الحق عن سره وهو ساكت ، وقال ذو النون : لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله تعالى . وقال رويم : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين وقال أبو بكر الوراق : سكوت العارف أنفع وكلامه أشهى وأطيب . وقال ذو النون : الزهاد ملوك الآخرة وهم فقراء العارفين ، وسئل الجنيد عن العارف فقال : لون الماء لون إنائه : يعنى أنه بحكم وقته ، وسئل أبو يزيد عن العارف فقال : لا يرى فى نومه غير الله تعالى ولا يقظته غير الله تعالى ، ولا يوافق غير الله تعالى ولا يطالع غير الله تعالى ، وسئل بعض المشايخ بم عرفت الله تعالى ؟ فقال : بلمعة لمعت بلسان مأخوذ عن التميز المعهود ، ولفظة جرت على لسان هالك مفقود ، يشير إلى وجد ظاهر ، ويخبر عن سر ساتر هو هو بما أظهره وغيره بما أشكله ثم أنشد :

نطقت بلا نطق هو النطق انه ... لك النطق لفظا أو يبين عن النطق

ترأيت كى أخفى وقد كنت خافيا ... وألمعت لى برقا فأنطقت بالبرق

وسئل أبو تراب عن صفة العارف فقال : الذى لا يكدره شيء ويصفو به شيء . وقال أبو عثمان المغربى : العارف تضىء له أنوار العلم فيبصر به عجائب الغيب . قال القشيرى : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : العارف مستهلك فى بحار التحقيق كما قال قائلهم : المعرفة أمواج

وَفى الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : إِنِّى لَأَذُودُ أَوْلِيَائِى عَنْ نَعِيمِ الدنْيَا كَمَا يَذُودُ الرَّاعِى الشَّفِيقُ إِبلَهُ عَنْ مَبَارِكِ الْعِرَّةِ » .

تغط وترفع وتحط ، وسئل يحي بن معاذ عن العارف فقال : رجل كائن بائن، ومرة قال كان فبان ، وقال ذو النون : علامة العارف ثلاثة : لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم يتقضى عليه ظاهرا من الحكم ، ولا تحمله كثرة نعم الله عز وجل عليه على هتك أستار محارم الله تعالى . وقيل ليس العارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة فكيف عند أبناء الدنيا وقال أبو سعيد الخراز : المعرفة تأتى من عين الجود وبذل المجهود ، وسئل الجنيد عن قول ذى النون المصرى فى صفة العارف كان هاهنا فذهب فقال الجنيد : العارف لا تحصره حال عن حال ولا يحجبه منزل عن التنقل فى المنازل ، فهو مع أهل كل مكان بمثل الذى هو فيه يجد مثل الذى يجدون وينطق بمعالمها لينتفعوا بها ، وكان محمد بن الفضل يقول : المعرفة حياة القلب مع الله تعالى وكان الكتانى يقول : سئل أبو سعيد الخراز هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء ؟ فقال نعم إنما البكاء فى أوقات سيرهم إلى الله تعالى ؛ فإذا نزلوا إلى حقائق القرب ، وذاقوا طعم الوصول من بره زال عنهم ذلك (و) روى (فى الخبر المشهور) وهو عند علماء المصطلح ما رواه ثلاثة فأكثر ، وذلك لأن الحديث إن رواه واحد فقط يسمى غريبا ؛ وإن رواه اثنان سمى عزيزا ، وإن رواه ثلاثة يسمى مشهورا . قال العراقي :

بالانفراد عن إمام يجمع — حديثه فان عليه يتبع
من واحد واثنين فالعزيزفو — قه فمشهور وكل قد رأوا

(إن الله تعالي يقول : إنى لأذود) أى أمنع (أوليائى عن نعيم الدنيا كما يذود الراعى الشفيق) أى المشفق (إبله عن مبارك العرة) المبرك موضع بروك الإبل ؛ وهو كمدخل من دخل ، والعرة عذرة الناس والبعر والسرجين ، كذا فى لسان العرب : أى عن الاضطجاع بمكان الوحل ، كذا فى بعض الحواشى ، وأيضا فى لسان العرب العر والعرة الجرب ؛ وأيضا فيه فى حديث علقمة « لا تقربهم فإن على أبوابهم فتنا كمبارك الإبل » وهو الموضع الذى تبرك فيه أرداؤها تعدي كما أن الإبل الصحاح إذا أنيخت فى مبارك الجربى جربت انتهي ، وهكذا فى النهاية لابن الأثير، وهذا الخبر أورده صاحب الحلية وصاحب القوت طويلا عن وهب بن منبه قال : لما بعث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يرو عنكما لباسه الذى لبس من الدنيا فان ناصيته بيدى ليس ينطق بحرف ولا يطرف بلحظ ولا يتنفس إلا بإذنى ولا يعجبنكما ما تمتع به منها ، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما فإنما هى زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت ولكنى أرغب بكما عن ذلك فأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن

وَإِذَا أَبْتَلَاكَ بِشِدَّةٍ فَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ امْتِحَانِكَ وَابْتِلَائِكَ ، عَالِمٌ بِحَالِكَ ، بَصِيرٌ بِضَعْفِكَ ، وَهُوَ بِكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلم « لَلَّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا »

مراتع الهلكة ، وإنى لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن مبارك العرة ، وما ذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم ينقصه الهوى . واعلم ياموسى أنه لم يتزين إلى العباد بزينة هى أبلغ عندى من الزهد فى الدنيا فإنها زينة الأبرار عندى إنما يتزين لى أوليائى بالذل والخشوع والخوف والنحول والسجود والتقوى تثبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم ، فهى ثيابهم التي يلبسون ودثارهم الذى يظهرون وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التي بها يفوزون ورجاؤهم الذى إياه يأملون ومجدهم الذي به يفخرون وسماهم التى بها يعرفون أولئك هم أوليائى حقا ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك . واعلم ياموسى أنه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ثم أنا الثائر له يوم القيامة : أى الآخذ بالثأر (وإذا ابتلاك) الله (بشدة) وبلية (فاعلم يقينا أنه) سبحانه (غنى عن امتحانك وابتلائك عالم بحالك بصير بضعفك وهو) جل وعز (بك رءوف رحيم) والرءوف : هو المنعم بنعم نشأت عن محبته للمنعم عليه غنيا كان أو فقيرا ، والرحيم هو المنعم بنعم من أجل احتياج المنعم عليه وفاقته ولا يكون إلا فقيرا ، فإذا أنعم المولى علي أحد من عباده بنعمة فإن كانت النعمة ناشئة عن محبة الله لذلك العبد المنعم عليه قيل للمولى رءوف ، وإن كان إنعامه عليه بتلك النعمة لفاقة ذلك العبد واحتياجه قيل له رحيم ، فعلمت من هذا أن نعم الله تارة تكون ناشئة عن محبته للمنعم عليه ، وتارة تكون ناشئة لأجل احتياج المنعم عليه ، وأن الرءوف أبلغ من الرحيم ، لأن مبدأ الرأفة شفقة المحسن ومحبته والرحمة مبدؤها فاقة المحسن إليه ، ولأجل الأبلغية المذكورة قدم المصنف رحمه الله الرءوف أفاده بعض المحققين (أما تسمع قوله صلي الله عليه وسلم : لله تعالى) بلام الابتداء (أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها) قال العراقي : متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ، وفى أوله قصة المرأة من السبى «إذ وجدت صبيا فى السبي فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا رسول صلى الله عليه وسلم : أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أرحم بعباده من هذه بولدها» هذا لفظ مسلم وقال البخارى « فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسعى إذ وجدت صبيا » الحديث انتهى . قال الزبيدى : ورواه عبد بن حميد من حديث عبد الله بن أبى أوفى بلفظ : «أترون هذه رحيمة بولدها والذى نفسى بيده الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها » وفى هذا الحديث أعظم دليل على سعة رحمة الله تعالى ولله در القائل :

فإذا عَلِمْتَ هٰذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يُنزِلْ بِكَ هٰذَا المَكْرُوهَ إِلاَّ لِصَلاحٍ لٰكِنْ جَهِلْتَهُ أَنْتَ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذٰلِكَ ، وَلِهٰذَا المَعْنَى تَرَاهُ يُكْثِرُ ٱبْتِلاءَ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيائِهِ الَّذِينَ هُمْ أَعَزُّ عِبَادِهِ حَتَّى يَقُولَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْماً ٱبْتَلاهُمْ » وَيَقُولُ النَّبِيُّ : « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ » .

لم لا يرجى العفو من ربنا أم كيف لا نطمع فى حلمه
وفى الصحيحين أنى أنه بعبده أرأف من أمه

وفيه أيضا حصول ذلك لعامة المؤمنين كما دلت بذلك رواية عبد بن حميد أو لعامة الخلق . وقد روى الطبرانى والبيهقى فى البعث من حديث حذيفة رضى الله عنه « والذى نفسى بيده ليدخلن الجنة الفاجر فى دينه الأحمق فى معيشته ، والذى نفسى بيده ليدخلن الجنة الذى قد محشته النار بذنبه والذى نفسى بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ماخطرت على قلب بشر ، والذى نفسى بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها ابليس رجاء أن تصيبه » .

(فإذا علمت هذا) أى أن الله غنى عن امتحانك وابتلائك عالم بأحوالك بصير بضعفك مع الرأفة والرحمة بك (علمت أنه) تعالى (لم ينزل بك هذا المكروه) من الامتحان والابتلاء (إلا لصلاح) لك (لكن جهلته أنت) أى كون نزول المكروه لأجل الصلاح (وهو) سبحانه وتعالى (عليم بذلك) الصلاح (ولهذا المعنى) وهو كون نزول البلية والمحنة صلاحا (تراه) جل وعز (يكثر ابتلاء أوليائه وأصفيائه الذين هم أعز عباده حتى) روى « أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسمى فقال صلي الله عليه وسلم «لاخير فى عبد لايذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره» . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك» وحتى (يقول) رسول الله (صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم) فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع» هكذا رواه أحمد من حديث محمود بن لبيد . وروى البيهقي من حديث أبى هريرة « إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ليسمع صوته » وعند هناد « ليسمع تضرعه » . وعن الحسن مرسلا « إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم » (و) حتى (يقول النبى) صلى الله عليه وسلم (إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الشهداء ، ثم الأمثل فالأمثل) أى الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى روى أحمد والبخارى والترمذى وابن ماجه من حديث سعد « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » الحديث . وروى الطبرانى في الكبير من حديث أخت حذيفة « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل » وروى ابن ماجه وأبو يعلى والحاكم من حديث أبى سعيد « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى مايجد إلا العباءة يحويها فيلبسها ويبتلى بالقمل حتى يقتله ، ولأحدهم كان أشد فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء » .

فَإِذا رَأَيْتَ اللهَ يَحْبِسُ عَنكَ الدُّنْيَا أَوْ يُكْثِرُ عَلَيْكَ الشَّدَائِدَ وَالْبَلْوَى فَاعْلَمْ أَنكَ عِنْدَهُ عَزِيزٌ ، وَأَنكَ عِنْدَهُ بِمَكَانٍ عَلِيٍّ ، وَأَنَّهُ يَسْلُكُ بِكَ طَرِيقَ أَوْلِيَائِهِ ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ وَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى ذٰلِكَ . أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا) بَلِ اعْرِفْ مِنَّتَهُ عَلَيْكَ فِيمَا يَحْفَظُهُ عَلَيْكَ مِنْ صَلاَحِكَ وَيُكْثِرُ مِنْ أَجْرِكَ وَثَوَابِكَ وَيُنْزِلُكَ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ وَالْأَعِزَّةِ عِنْدَهُ ، فَكَمْ تَرَى مِنْ عَوَاقِبَ حَمِيدَةٍ وَمَوَاهِبَ كَرِيمَةٍ ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

﴿ فصل ﴾ وَبِالْجُمْلَةِ إِذَ عَلِمْتَ يَقِيناً أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْمَلِيءُ

قال المصنف أبو حامد الغزالى : كل ذلك نظرا لهم وامتنانا عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ويلزمه ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحبا له لابخلا عليه ، ولهذا الحديث قال بعضهم : فعلى قدر قرب العبد من ربه يقوم به المرض والمحن (فإذا رأيت الله يحبس) أى يمنع (عنك الدنيا أو يكثر عليك الشدائد والبلوى) والبلية (فاعلم أنك عنده) تعالى (عزيز وأنك عنده بمكان) أى رتبة ومنزلة (على) أى رفيعة (وأنه) تعالى (يسلك بك طريق أوليائه فإنه) سبحانه (يراك) ، إذ هو قائم على كل نفس بما كسبت مشاهد لكل أحد من خلقه فى حركته وسكونه (ولا يحتاج) سبحانه وتعالى (إلى ذلك) أى إلى حبس الدنيا عنك أو إكثار الشدائد والبلية عليك ، بل هو غنى عن امتحانك وابتلائك عالم بحالك بصير بضعفك ، وهو بك رءوف رحيم (أما تسمع قوله تعالى « واصبر لحكم ربك ») بإمهالهم وإبقائك فى عنائهم إلى أن يقع بهم العذاب الذى حكمنا عليهم به ، ويقال : ارض بقضاء ربك فيما يصيبك فى طاعة الله (فانك بأعيننا) فى حفظنا بحيث نراك ونكلؤك ، وجمع العين لجمع الضمير والمبالغة بكثرة أسباب الحفظ كذا ذكره البيضاوى . قال ابن عباس : نرى مايعمل بك (بل اعرف منته) وفضله (عليك فيما يحفظه عليك من صلاحك ويكثر من أجرك وثوابك) بمعنى واحد (وينزلك منازل الأبرار والأعزة) جمع عزيز (عنده) تعالى (فكم ترى من عواقب حميدة) أى محمودة (ومواهب كريمة ، والله ولى التوفيق بمنه وفضله) .

فصل

(و) أقول قولا ملتبسا (بالجملة) أى حاصل الكلام أنك (إذا علمت يقينا أن الله تعالى هو الملىء) بالهمز أو تركه مع الإدغام : أى الغنى ، ويقال رجل ملىء مهموز على فعيل غنى مقتدر ،

بِضَمَانِ رِزْقِكَ الَّذِى لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ فِى بَقَائِكَ وَقِيَامِكَ بِعِبَادَتِهِ ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ كَيْفَ شَاءَ ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِحَاجَتِكَ حَالاً فَحَالاً سَاعَةً فَسَاعَةً اتَّكَلْتَ عَلَى ضَمَانِهِ الْحَقِّ وَوَعْدِهِ الصِّدْقِ ، وَسَكَنَ قَلْبُكَ بِذَلِكَ وَانْصَرَفْتَ عَنْ ذِكْرِ الْعَلَائِقِ وَالْأَسْبَابِ ، وَتَعَلُّقِ قَلْبِكَ بِهَا ، إِذِ الْعَلَائِقُ لَا تُغْنِيكَ وَلَا تَكْفِيكَ دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُيَسِّرُ أَكْلَهَا وَشُرْبَهَا ، ثُمَّ هُوَ الَّذِى يُمْرِئُهَا وَيُهْنِئُهَا ، ثُمَّ هُوَ الَّذِى يُلْحِقُكَ قُوَّتَهَا وَنَفْعَهَا ، وَيَدْفَعُ عَنْكَ ثِقْلَهَا وَضُرَّهَا ، وَهُوَ تَعَالَى يُغْنِيكَ وَيَكْفِيكَ دُونَهَا إِذَا شَاءَ ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ لَا غَيْرُ ؛ وَكَذَلِكَ تَتْرُكُ التَّدْبِيرَ فِى أُمُورِكَ إِلَى مَنْ يُدَبِّرُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ، وَتُرِيحُ نَفْسَكَ عَنْ شَىْءٍ لَا يَبْلُغُهُ

ويجوز البدل والإدغام كما فى المصباح (بضمان رزقك الذى لابد لك منه) أى الرزق (فى بقائك) أى فى حياتك (وقيامك بعبادته) تعالى (و) علمت (أنه القادر على مايشاء كيف شاء وهو البصير بحاجتك حالا فحالا ساعة فساعة) وقتا فوقتا (اتكلت) جواب إذا : أى اعتمدت (على ضمانه) سبحانه (الحق) بالجر نعت للضمان (ووعده الصدق وسكن قلبك بذلك) أى لضمانه ووعده (وانصرفت عن ذكر العلائق والأسباب و) عن (تعلق قلبك بها) أى بالعلائق والأسباب (إذ العلائق لاتغنيك ولا تكفيك) مرادف لماقبله (دون الله) أى دون إعانته وإرادته (عزوجل فانه تعالى يسر) أى يسهل (أكلها) أى المطعومات (وشربها) أى المشروبات (ثم هو) تعالى (الذى يمرئها) أى يصيرها مريا قال العلامة عبد الحق : مرأ الطعام ومرىء يمرأ ومرؤ يمرؤ مراءة صار مريا وساغ عن غير غصص ، يقال هنأنى الطعام ومرأنى للازدواج فإن أفرد قيل أمرأنى من باب أفعل ، ومنهم من يقول مرأنى وأمرأنى لغتان مرأه تمرئة قال له هنيئا مريئا وطعام مرىء هنىء : أى حميد المغبة بين المراءة وهنيئا مريئا دعاء للشارب والآكل ، وقيل الهنىء ما يلذه الإنسان ، والمرىء ما يحمد عاقبته (ويهنئها) هنأه يهنؤه ويهنئه هنأ من باب نصر وضرب أطعمه وفلانا أعطاه وهنأه الطعام وهنأ له يهنىء ويهنأ ويهنؤ هنأ وهنأ وهنوؤا من باب ضرب ومنع وكرم صار هنيئا وساغ ، وتقول هنأ تنيه العافية :أى جعلته هنيئا لى (ثم هو) تعالى (الذى يلحقك) بضم الياء من ألحق (قوتها) أى العلائق (ونفعها ويدفع) جل وعز (عنك ثقلها وضرها ، وهو تعالى يغنيك ويكفيك دونها) أى دون العلائق (إذا شاء فالأمر كله) مفوض (اليه) تعالى (وحده لا شريك له، فتوكل) أى اعتمد (عليه لاغير، وكذلك) أى مثل أنك توكلت على الله (تترك التدبير فى أمورك) وفوض (إلى من يدبر السماء والأرض) تبارك وتعالى (وتريح نفسك عن) طلب (شىء لايبلغه

عِلْمِكَ وَفِكْرُكَ مِنْ أَمْرِ غَدٍ ، وَنَظَرُكَ فى أَمْرٍ يَكُونُ غَدًا أَوْ لاَ يَكُونُ ، وَأَنَّهُ كَيْفَ يَكُونُ ، وَتَكُفُّ عَنْ لَعَلَّ وَلَوْ إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِلاَّ شَغْلُ الْقَلْبِ وَتَضْيِيعُ الْوَقْتِ ، وَلَعَلَّهُ تَكُونُ أُمُورٌ لَمْ تَخْطُرْ بِبَالِكَ ، فَيَكُونُ مَا سَبَقَ فى فِكْرِكَ وَتَدْبِيرِكَ وَتَضْيِيعِكَ الْوَقْتَ الْعَزِيزَ فِيهِ لَغْوًا بِلاَ فَائِدَةٍ ، بَلْ خُسْرَانًا تَنْدَمُ عَلَيْهِ وَتُغْبَنُ فِيهِ لِمَكَانِ شُغْلِ الْقَلْبِ فِيهِ ، وَتَضْيِيعِ الْعُمْرِ فى ذٰلِكَ ؛ وَفى هٰذَا الْمَعْنَى لِبَعْضِ الزُّهَّادِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ :

سَبَقَتْ مَقَادِيرُ الْإِلٰهِ وَحُكْمُهُ ⁂ فَأَرِحْ فُؤَادَكَ مِنْ لَعَلَّ وَمِنْ لَوْ

وقَالَ آخَرُ :

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فى وَقْتِهِ ⁂ وَأَخُو الْجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ

علمك وفكرك من أمر غد ونظرك فى أمر يكون غدا أو لايكون وأنه) أى الأمر (كيف يكون وتكف) بفتح التاء وضم الكاف من باب قتل : أي تمنع عن الاعتراض على أحكام الله (عن) قولك (لعل) أى بالنسبة للمستقبل بأن تقول لعلى أذهب إلى السلطان فيعطينى كذا وهو للتوقع وترجى المحبوب والاشفاق عن المكروه ، نحو : لعل الحبيب قادم ، ولعل القريب حاصل ، وتختص بالممكن الذى لا وثوق بحصوله ، وما أحسن قول بعضهم :

ولترج وتوقع لعل ⁂ كقولهم لعل محبوبى وصل

(ولو) بالنسبة للماضى بأن تقول لو فعلت كذا لحصل لى كذا وهو للشرطية والتمنى (إذ ليس فيه) أى فى الاعتراض بقولك لعل ولو (إلا شغل القلب وتضييع الوقت ولعله) أى الشأن (تكون) أى توجد (أمور لم تخطر) بالبناء للمفعول (ببالك) أى بقلبك (فيكون ما سبق فى فكرك وتدبيرك وتضييعك الوقت العزيز فيه) أى فيما سبق فى فكرك (لغو بلا فائدة بل) يكون (خسرانا تندم) من باب طرب وسلم (عليه) أى على ما سبق في ذلك (وتغبن) على حد ضرب (فيه) أى فيما سبق (لمكان شغل القلب فيه وتضييع العمر) النفيس (فى ذلك) أى فيما سبق وجرى فى فكرك (وفى هذا المعنى لبعض الزهاد رضى الله عنه) من بحر الكامل (سبقت مقادير الإله وحكمه) فى الأزلي (فأرح) أمر من الراحة : وهو زوال المشقة والتعب كما فى المصباح (فؤادك) أى قلبك (من لعل ومن لو . وقال آخر) من بحر الكامل أيضا (سيكون ماهو كائن فى وقته) إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر (وأخو الجهالة متعب محزون) .

فَلَعَلَّ مَا تَخْشَاهُ لَيْسَ بِكَائِنٍ　　وَلَعَلَّ مَا تَرْجُوهُ لَيْسَ يَكُونُ

وَتَقُولُ لِنَفْسِكَ فِى الْجُمْلَةِ يَا نَفْسُ : (لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا

فلعل ما تخشاه) من الأمور المضرة (ليس بكائن) أى بموجود (ولعل ما ترجوه) من الأمور النافعة (ليس يكون) أى يوجد (وتقول لنفسك فى الجملة) أى من غير تفصيل (يانفس : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أي قدره الله لنا وعلينا ، وكتبه فى اللوح المحفوظ ، لأن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا أراده لم يقدر له ، وقد روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما حديث « رفعت الأقلام وجفت الصحف » قال العلامة ابن حجر وغيره : وهى التى فيها مقادير الكائنات كاللوح المحفوظ ، ومعناه فرغ من الأمر وجفت كتابته ، لأن الصحيفة حال كتابتها لابدأن تكون رطبة المداد أو بعضه فلم يمكن بعدذلك أن يقع فيها تبديل أو نسخ لما كتب من ذلك واستقر لما أنها أمور ثابتة لاتبدل ولا تغير عما هى عليه ، فذلك كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد ، ولا ينافى هذا قوله تعالى « يمحو الله مايشاء ويثبت » لأن المحو والإثبات مما جفت به الصحف أيضا كما فى تفسير القاضى ، لأن القضاء قسمان مبرم ومعلق ، وحكى أن عبد الله بن طاهر دعا الحسن بن الفضل وقال له أشكل على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لى . قوله تعالى « فأصبح من النادمين » وقد صح أن الندم توبة ، وقوله « كل يوم هو فى شأن » ، وقد صح أن الصحف جفت بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقوله « وأن ليس للانسان إلا ماسعى » فما بال الأضعاف ، فقال الحسين : يجوز أن الندم لم يكن توبة إذ ذاك وإن كان توبة لنا ، لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركها فيها الأمم ، وقيل إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله . أما قوله « كل يوم هو فى شأن » فانها شئون يبديها لاشئون يبتديها ، وأما قوله « وأن ليس للانسان إلاماسعى » فمعناه ليس له إلا ذلك عدلا وله تعالى أن يجازيه على الواحدة ألفا فضلا فقام عبد الله وقبل رأسه ووسع خراجه ، وهذا الخبر المذكور من أحسن الكنايات وأبلغها ، وقد دل الكتاب والسنة على ذلك فمن علم ذلك وشهده بعين بصيرته هان عليه التوكل على خالقه والإعراض عما سواه ويشهد لذلك الرفع والجفاف ، وما رواه ابن العربى بسنده أنه صلى الله عليه وسلم قال « أول ماخلق الله تعالى القلم ثم خلق النون وهى الدواة ، وذلك قوله تعالى « نٓ والقلم » ثم قال له اكتب . قال وما أكتب ؟ قال ماكان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ثم ختم العمل فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة ، ثم خلق العقل فقال الجبار : ماخلقت خلقا أعجب إلى منك وعزتى لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت ثم قال صلى الله عليه وسلم : أكمل الناس عقلا أطوعهم لله سبحانه وتعالى وأعلمهم بطاعته » وروى مسلم « إن الله سبحانه

هُوَ مَوْلَانَا) وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ؛ إِذْ هُوَ قَدِيرٌ لَانِهَايَةَ لِقُدْرَتِهِ ، حَكِيمٌ لَانِهَايَةَ لِحِكْمَتِهِ ، رَحِيمٌ لَانِهَايَةَ لِرَحْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ حَقِيقٌ أَنْ يُتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيُفَوَّضَ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ ، فَعَلَيْكَ بِالتَّفْوِيضِ ، وَكَذٰلِكَ تُوَطِّنُ قَلْبَكَ عَلَى أَنَّ مَا قَضَى اللهُ وَيَقْضِي لَكَ فَهُوَ الْأَوْفَقُ وَالْأَصْلَحُ ، وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ لَا يَبْلُغُ عِلْمُنَا كَيْفِيَّتَهُ وَسِرَّهُ ، وَتَقُولُ : يَا نَفْسُ الْمَقْدُورُ

وتعالى كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماء والأرض بخمسين ألف سنة ، وفيه أيضا يارسول الله ففيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟. قال بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير . قال ففيم العمل ؟ قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ». وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى « أول ماخلق الله تعالى القلم ثم قال اكتب فى تلك الساعة ماهو كائن إلى يوم القيامة». قيل وأول من كتب العربى وغيره آدم وقيل إسمعيل هو أول من كتب العربى وقيل غيرهما ولم يصح فى ذلك شىء ، وقول الكلبي أول من وضع الخط نفر من طيء مردود لأنه لايوثق بنقله (هو) سبحانه وتعالى (مولانا) أى ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة (وهو) تعالى (حسبنا) أى كافينا فحسب بمعنى كافى فهو بمعنى اسم الفاعل ، وقيل إن حسب اسم فعل بمعنى يكفى قال الله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » فمن اكتفى بالله كفاه وأعطاه سؤاله ومناه وكشف همه وأزال غمه ، كيف لا ومن التجأ إلى ملك من الملوك حفظه وسلك به أحسن السلوك ؟ فالأولى بذلك من يحتسب رب العالمين ويكتفى به عن الخلق أجمعين (ونعم الوكيل) أى الله فالمخصوص بالمدح محذوف ثم إن وكيل فعيل بمعنى مفعول ، وقيل إنه بمعنى فاعل ، والمعنى على الأول ونعم الموكول إليه الأمر لأن عباده وكلوا أمورهم إليه واعتمدوا فى حوائجهم عليه ، والمعنى على الثانى ونعم القائم على خلقه بما يصلحهم فوكل أمور عباده إلى نفسه وقام بها فرزقهم وقضى حوائجهم ومنحهم كل خير ودفع عنهم كل ضير . اللهم اجعلنا من المعتمدين عليك المفوضين جميع أمورنا لديك (إذ هو) سبحانه وتعالي (قدير) أى قادر على مايشاء (لانهاية لقدرته) تعالى ، والقدرة صفة وجودية قائمة بذاته تعالى يتأتي بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة (حكيم لانهاية لحكمه) بكسر الحاء وفتح الكاف جمع حكمة (رحيم لانهاية لرحمته ، ومن كان بهذه الصفات) من القدرة وما بعدها (حقيق) أى جدير (أن يتوكل عليه) بالبناء للمفعول (ويفوض الأمر كله إليه) أى المتصف بما ذكر من الصفات (فعليك) أى الزم (بالتفويض ، وكذلك) أى مثل لزوم التفويض (توطن) أى تقرر وتمهد (قلبك علي أن ماقضى الله ويقضى لك فهو الأوفق والأصلح وإن كان ذلك) أى ماقضاه الله ويقضيه لك (لايبلغ علمنا كيفيته وسره وتقول) لنفسك (يانفس المقدور

كَائِنٌ لاَ مَحَالَةَ ؛ فَلاَ فَائِدَةَ فِى السُّخْطِ وَالْخِيرَةُ فِيمَا يَصْنَعُ اللّٰهُ ، فَلاَ وَجْهَ لِلسُّخْطِ ، أَلَسْتِ تَقُولِينَ : رَضِيتُ بِاللّٰهِ رَبًّا ، فَكَيْفَ لاَ تَرْضِينَ بِقَضَائِهِ ! وَالْقَضَاءُ مِنْ شَأْنِ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِّهَا ، فَعَلَيْكِ بِالرِّضَا ؛ وَكَذٰلِكَ إِذَا أَصَابَتْكَ مُصِيبَةٌ وَحَلَّ بِكَ مَكْرُوهٌ فَتَرَاعِى نَفْسَكَ عِنْدَ ذٰلِكَ ، وَتَضْبُطُ قَلْبَكَ حَتَّى لاَ تَجْزَعَ ، وَلاَ تُظْهِرُ مِنْكَ شِكَايَةً وَقَلَقٌ ، لاَ سِيَّمَا عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى ، فَإِنَّ الشَّأْنَ هُنَالِكَ

كائن لامحالة فلا فائدة فى السخط والخيرة) أى التخير (فيما يصنع الله فلا وجه) أى لاسبيل (للسخط ألست تقولين رضيت بالله ربا فكيف لاترضين بقضائه) وحكمه (والقضاء من شأن الربوبية وحقها فعليك بالرضا) بذلك الذى قضاه الله تعالى وقدره (وكذلك) أى مثل لزوم الرضا (إذا أصابتك مصيبة وحل) أى وقع (بك مكروه فتراعى) أى تحفظ (نفسك عند ذلك) أى عند إصابة المصيبة وحلول المكروه ونزوله (وتضبط قلبك حتى لاتجزع ولا تظهر منك شكاية وقلق) أى اضطراب (لاسيما) كلمة يستثنى بها وهى مركبة من سى وما تستعمل لترجيح مابعدها على ماقبلها فيكون مخرجا عن مساواته إلى التفضيل عليه وبهذا الاعتبار ساغ جعلها للاستثناء (عند الصدمة الأولى) أصل الصدم الضرب فى شىء صلب ثم استعمل مجازا فى كل مكروه حصل بغتة (فان الشأن) فى أفضلية الصبر (هنا لك) أى فى الصدمة الأولى لأن كل شىء يوجد صغيرا ثم يأخذ فى النماء والزيادة إلا المصيبة فانها تبدو عظيمة ثم تصغر وتأخذ فى النقصان وهـذا الصبر على المصائب بالثبت عنـد الصدمة الأولى واجب ، فان غفل وجزع ثم رجع عن غفلتـه وندم واسترجع كان ندمه واسترجاعه توبة له . وقد قلنا إن التوبة تصح من كل ذنب ويدخل فى هذا النوع الصبر على اللعن ومكافأة الجانى بما هو معصية حرام ومكافأته بما هو مباح مكروه لذهاب الملائـكة وعدم إجابتها عنه وإن تألم فى باطنه ولـكن ترك المـكافأة عليه فى الظاهر فهو أحسن حالا من الأول ، ولا يدخل فى نهى التحريم لأن الألم لم يدخل تحت اختيار العبد والرب تعالى لايكلف العباد ولا يؤاخذهم إلا بما يدخل تحت اختيارهم ، ويستحب علاج الألم وتـكسبه إلى أن يستوى عنـد القلب وجود الأذى وعدمـه كما تـكتسب الطاعة والمشقة ويجتنب المعاصى . فان فرح بالجناية ودعا للجاني ، فهذه هى القربة الصديقية ولا يحصل هذا إلا لعبد فتح نور التوحيد قلبه فارتفعت على قلبه رؤية الوسائط وشاهد المتوحد بالأفعال ويعرّفه إيمانه أن سيده اختار له ذلك ليزكى قلبه وينمى له نوره ، وقد روى صالح بن محمد باسناده عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر والصبر عند الصدمة الأولى يعظم الأجر وعظم الأجر على قدر عظم المصيبة ومن استرجع بعد المصيبة جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها »

وَالنَّفسُ مُتَسَارِعَةٌ جِدًّا إِلَى عَادَةِ الْجَزَعِ عِنْدَ ذٰلِكَ وَتَقُولُ : يَا نَفسُ هٰذِهِ قَدْ وَقَعَتْ ، فَلَا حِيلَةَ لِدَفعِهَا ، وَقَدْ دَفَعَ اللهُ تَعَالَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا ، فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْبَلَاءِ فِى خَزَائِنِهِ لَكَثِيرَةٌ ، وَإِنَّ هٰذِهِ سَتَنْقَضِى فَلَا تَبقَى ، وَأَنَّهَا سَحَابَةٌ سَتَنْقَشِعُ . فَتَجَلَّدِى يَا نَفسُ قَلِيلاً تَجِدِى لِذٰلِكَ سُرُورًا طَوِيلاً ، وَثَوَابًا جَزِيلاً بَعْدَ أَنْ لَا دَفْعَ لِلنَّازِلِ ، وَلَا فَائِدَةَ فِى الْجَزَعِ ، وَلَا مُصِيبَةَ فِى الْحَقِيقَةِ مَعَ الْعَزَاءِ وَالصَّبْرِ ، فَتَشْغَلُ لِسَانَكَ بِالِاسْتِرْجَاعِ

(والنفس) الأمارة بالسوء (متسارعة جدا إلى عادة الجزع) والسخط (عند ذلك) أى إصابة المصيبة ونزول المكروه ووقوعه (وتقول يانفس هذه) أى المصيبة (قد وقعت فلا حيلة) أى لاتدبير قال العلامة الفيومي : والحيلة الحذق فى تدبير الأمور ، وهو تقليب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود (لدفعها وقد دفع الله تعالى) عنك (ما هو أكبر منها) أى المصيبة التى أصابتك لأن كل مصيبة مرض فيتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى ؛ فلو ضعفها الله تعالى وزادهاماذا كنت ترده وتحجزه فلتشكرى، إذ لم تكن أعظم منها ويمكن أيضا أن يكون مصيبتك فى دينك .

حكى أنه قال رجل لسهل بن عبد الله التسترى رحمه الله دخل اللص بيتى وأخذ متاعى فقال له على وجه التذكير بما فوق ذلك من البلايا اشكر الله لو دخل اللص الذي هو الشيطان قلبك فأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ قال الزبيدى عرفه سهل بذلك نعمة الله عليه فما عرفه عنه من البلاء الذى هو أعظم من بلائه فإن بلاء الآخرة أشد من بلاء الدنيا أورده القشيرى فى الرسالة ولذلك استعاذ عيسى عليه السلام فى دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى أى لأنها أعظم من مصيبة الدنيا (فإن أنواع البلاء فى خزائنه) تعالى (لكثيرة وإن هذه) المصيبة (ستنقضى) أى سوف تزول (فلا تبقى وأنها سحابة) أى مثلها (ستنقشع) أى تنكشف (فتجلدى) أى اشتدى (يا نفس قليلا) أى زمانا قليلا (تجدى لذلك) أى التجلد والشداد (سرورا طويلا وثوابا جزيلا) أى عظيما (بعد أن) عرفت أنه (لادفع للنازل) من المصيبة ونحوها (ولا فائدة فى الجزع ولا مصيبة فى الحقيقة مع الجزاء والصبر) بمعنى واحد (فتشغل لسانك بالاسترجاع) أى بقولك « إنا لله وإنا إليه راجعون » قال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم آجرنى في مصيبتى وأعقبنى خيرا منها إلا فعل الله به ذلك » رواه مسلم من حديث أم سلمة . وروى أحمد وابن ماجه عن حديث الحسين بن على « ما من مسلم ولا مسلمة يصاب مصيبة فيذكرها ، وإن طال عهدها فيحدث لذلك

وَقَلْبَكَ بِذِكْرِ مَا يَحْصُلُ لَكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْأَجْرِ ، وَتَتَذَكَّرُ صَبْرَ أُولِي الْعَزْمِ عَلَى الْمَصَائِبِ الْعِظَامِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ الْأَعِزَّةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى ،

استرجاعا إلا جعله الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب » (و) تشغل (قلبك بذكر ما يحصل لك عند الله تعالى من الأجر) والثواب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من يرد الله به خيرا يصب منه» أى ينل منه بالمصائب ويبتليه بها قال العراقى رواه البخارى من حديث أبى هريرة . وقال صلى الله عليه وسلم «قال الله تعالى : إذا وجهت إلى عبدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا » رواه الحكيم فى النوادر والديلمي فى مسند الفردوس من حديث أنس والأخبار الواردة فى الصبر على المصائب كثيرة ، وقال صاحب القوت فى قوله تعالى « إن الإنسان لربه لكنود » قيل وهو الذى يشكو المصائب وينسى النعم ولو علم أن مع كل مصيبة عشر نعم بحذائها وزيادة قلت شكواه وبدلها شكرا ، ثم إن المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام كلها نعم من الله تعالى : إما أن تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين ، أو تكون كفارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللأبرار ، أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين فتعجيل العقوبة فى الدنيا رحمة ونعمة ومعرفة هذه النعم طريق للشاكرين (وتتذكر صبر أولى العزم) أى أصحاب الجد والثبات والصبر (على المصائب العظام من) الرسل (والأنبياء والأولياء الأعزة) جمع عزيز (على الله تعالى) أى عنده ، اعلم أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والأذى ، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالصبر فقال « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل» ؛ وروى عن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال « أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه فى ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا يارسول الله ألا تدعو الله ألا تستنصر الله لنا ؟ فجلس محمرا لونه ثم قال: إن من كان قبلكم كان يؤتى بالرجل فيحفر له فى الأرض حفرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه » وروى عن حميد عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الأرض فيغمس فى النار غمسة فيخرج أسود محترقا : فيقال له هل مر بك نعيم قط ، إذ كنت فيها فيقول لا لم أزل فى هذا البلاء منذ خلقنى ، ويؤتى بأشد أهل الدنيا بلاء فيغمس فى الجنة غمسة » يعنى يدخل فيها ساعة « فيخرج كأنه القمر ليلة البدر ؛ فيقال له هل مر بك شدة قط فيقول لا لم أزل فى هذا النعيم منذ خلقنى » ، وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون لله الذين يحمدون على السراء والضراء » فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ويعلم أن ما دفع الله عنه من البلاء أكثر مما أصابه ويحمد الله تعالى على ذلك وينبغى للعبد أن يقتدى بنبيه صلى الله عليه وسلم وينظر إلى صبره على أذى المشركين ، وروى عن

وَإِذَا حَبَسَ

عمرو بن ميمون عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « بينما رسول الله صلي الله عليه وسلم يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل لعنه الله أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتف محمد إذ سجد فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد النبى صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا وأنا قائم أنظر قلت لو كان لى منعة لطرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والنبى صلي الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتي انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضى الله عنها وجاءت وهى جويرية فطرحته ثم أقبلت عليهم تسبهم فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته فدعا عليهم فقال اللهم عليك بقريش ثلاث مرات فلما سمعوا صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته فقال عليك بأبى جهل وعقبة وعتبة وشيبة والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : والذي بعث محمدا بالحق لقد رأيت الذين سماهم صرعي يوم بدر » كذا ذكره العلامة السمرقندى .

﴿ تنبيه ﴾ اختلفوا فى أولى العزم من الرسل من هم ؟ فقال ابن زيد : كل الرسل كانوا أولى عزم لم يبعث الله نبيا إلا كان ذا عزم وحزم ورأى وكمال وعقل ، وهذا القول هو اختيار الإمام فخر الدين الرازى ، وقال بعضهم : الأنبياء كلهم أولو العزم إلا يونس لعجلة كانت فيه ، ألا ترى أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم ولا تكن كصاحب الحوت ، وقال قوم : أولو العزم هم نجباء الرسل المذكورين فى سورة الأنعام وهم : ثمانية عشر نبيا لقوله بعد ذكرهم « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » ، وقال الكلبى : هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشرة لأعداء الله . وقيل هم ستة هم : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ، وهم المذكورون على النسق فى سورة الأعراف والشعراء ، وقال مقاتل : هم ستة نوح صبر على أذى قومه ،وإبراهيم صبر على النار ، وإسحاق صبر على الذبح فى قول ، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره ، ويوسف صبر على الجب والسجن ، وأيوب صبر على الضر . وقال ابن عباس وقتادة : هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى أصحاب الشرائع فهم مع محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين خمسة ، وقد ذكرهم الله علي التخصيص والتعيين فى قوله « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » وفى قوله « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا » الآية ، روى البغوي بسنده عن عائشة قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عائشة إن الدنيا لاتنبغى لمحمد ولآل محمد ، ياعائشة إن الله لم يرض من أولى العزم إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ولم يرض إلا أن كلفنى ما كلفهم فقال : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . وإني والله لابد لى من طاعته ؛ والله لأصبرن كما صبروا ولأجهدن ولا قوة إلا بالله » (وإذا حبس) الله تعالى

عَنْكَ ٱلدُّنْيَا فى وَقْتٍ فَتَقُولُ : يَا نَفْسُ هُوَ أَعْلَمُ بِالْحَالِ وَأَرْحَمُ بِكِ وَأَكْرَمُ ، وَأَنَّهُ الَّذِى يُطْعِمُ الْكَلْبَ فى خِسَّتِهِ ، وَيُطْعِمُ الْكَافِرَ فِى عَدَاوَتِهِ ، وَأَنَا عَبْدُهُ الْعَارِفُ الْمُوَحِّدُ ، أَلاَ أُسَاوِى عِنْدَهُ رَغِيفاً ! هٰذَا مُحَالٌ أَيْضًا ، فَاعْلَمِي بِالْحَقِيقَةِ أَنَّهُ لَمْ يَحْبِسْ ذٰلِكِ عَنْكِ إِلاَّ لِنَفْعٍ عَظِيمٍ ، وَسَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ، فَاصْبِرِى قَلِيلاً تَرَىِ الْعَجَبَ مِنْ لَطِيفِ صُنْعِهِ ، أَمَا سَمِعْتِ قَوْلَ الْقَائِلِ :

تَوَقَّعْ صُنْعَ رَبِّكَ سَوْفَ يَأْتِي ... بِمَا تَهْوَاهُ مِنْ فَرَجٍ قَرِيبِ

وَلاَ تَيْأَسْ إِذَا مَا نَابَ خَطْبٌ ... فَكَمْ فِي الْغَيْبِ مِنْ عَجَبٍ عَجِيبِ

وقَوْلَ الآخَرِ مِثْلَه :

أَلاَ يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ ... الَّذِى الْهَمُّ بِهِ بَرَّحْ

إِذَا اشْتَدَّتْ بِكَ الْعُسْرَى ... فَفَكِّرْ فى أَلَمْ نَشْرَحْ

فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ ... إِذَا كَرَّرْتَهُ فَافْرَحْ

ومنع (عنك الدنيا فى وقت) من الأوقات (فتقول يا نفس هو) تعالى (أعلم) أى عالم (بالحال وأرحم بك وأكرم وأنه) سبحانه (الذى يطعم الكلب فى خسته) أى الكلب والخنزير مع سوء حالته (ويطعم) الله تعالى (الكافر فى عداوته) لربه (وأنا عبده العارف الموحد ألا أساوي عنده) تعالي (رغيفا) أى خبزا ، وجمعه أرغفة ورغف بضمتين ورغفان (هذا) أى عدم التساوى (محال أيضا) أى كما يستحيل أن لا يطعمنى الله (فاعلمى) يا نفس (بالحقيقة أنه) جل وعز (لم يحبس ذلك) أى ماذكر من الدنيا (عنك إلا لنفع عظيم وسيجعل الله بعد عسر) أى بعد ضيق وشدة (يسرا) أى غنى وسعة ؛ فالمعسر ينتظر الرزق من الله كما نص الله تعالى فى كتابه العزيز « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا » . قال البيضاوى : أي عاجلا وآجلا (فاصبرى) يا نفس (قليلا) أى زمانا قليلا (ترى العجب من لطيف صنعه) جل وعز وبديع حكمه (أما سمعت قول القائل) من بحر الوافر (توقع) أى انتظر (صنع ربك سوف يأتى * بما تهواه) أى تحبه (من فرج) أى كشف للكرب عن المكروب (قريب . ولا تيأس) من رحمة الله (إذا ماناب) أى أصاب وما زائدة (خطب) أى أمر عظيم (فكم فى الغيب) أى ماغاب عنك وخفى (من عجب عجيب . و) أما سمعت (قول الآخر مثله) أى مثل قول القائل فى المعنى ، وهذا من بحر الوافر المعصوب الأجزاء وبعض أجزائها منقوص (ألا يا أيها المرء * الذى الهم به) أى بالمرء (برح) أى اشتد وعظم كما فى المصباح (إذا اشتدت بك العسرى . ففكر فى) سورة (ألم نشرح . فعسر بين يسرين * إذا كررته فافرح) وذلك فى قوله « فإن مع

العسر يسرا إن مع العسر يسرا » وبيانه أن المعرفة وهي العسر أعيدت معرفة فكانت عين الأولى ولم تتعدد بخلاف اليسر فانه ذكر نكرة فكان متعددا فصار المعنى إن مع العسر يسرين . قال أبومعاذ : يقال إن مع الأميرغلاما إن مع الأميرغلاما ، فالأميرواحد ومعه غلامان ، وإذا قال إن مع أمير غلاما وإن مع الأمير الغلام فالأمير واحد والغلام واحد ، وإذا قيل إن معأمير غلاما وإن مع أمير غلاما فهما أميران وغلامان كذا فى شرح التأويلات نقله النسفى . قال الحسن : لما نزلت هذه الآية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين » وقال ابن مسعود : لوكان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتي يدخل عليه ويخرجه إنه لن يغلب عسر يسرين . قال المفسرون فى معنى قوله : لن يغلب عسر يسرين إن الله تعالى كرر لفظ العسر وذكره بلفظ المعرفة وكرر اليسر بلفظ النكرة ، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسما معرفا ثم أعادته كان الثانى هو الأول ، وإذا ذكرت اسما نكرة ثم أعادته كان الثانى غير الأول كقولك كسبت درهما فأنفقت درهما فالثانى غير الأول ، وإذا قلت كسبت درهما فأنفقت الدرهم فالثانى هو الأول فالعسر فى الآية مكرر بلفظ التعريف فكان عسرا واحدا واليسر مكرر بلفظ التنكير فكانا يسرين فكأنه قال فان مع العسر يسرا إن مع ذلك العسر يسرا آخر . وزيف أبوعلى الحسن بن يحيى الجرجانى هذا القول وقال قد تكلم الناس فى قوله : لن يغلب عسر يسرين فلم يحصل منه غير قولهم : إن العسر معرفة واليسر نكرة فوجب أن يكون عسر واحد ويسران ، وهذا قول مدخول فيه إذا قال الرجل إن مع الفارس سيفا إن مع الفارس سيفا ، فهذا لايوجب أن يكون الفارس واحدا والسيف اثنين فمجاز قوله : لن يغلب عسر يسرين أن الله عز وجل بعث نبيه صلى الله عليه وسلم وهو مقل مخف فكانت قريش تعيره بذلك حتى قالوا إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالا حتي تكون كأيسر أهل مكة فاغتم النبي صلى الله عليه وسلم لذلك وظن أن قومه إنما كذبوه لفقره فعدد الله نعمه عليه فى هذه السورة ووعده الغني ليسليه بذلك عما خامره من الغم ، فقال تعالى « فان مع العسر يسرا » : أى لا يحزنك الذى يقولون فان مع العسر الذى فى الدنيا يسرا عاجلا ، ثم أنجز ماوعده وفتح عليه القرى القريبة ووسع ذات يده حتي كان يعطى المئين من الإبل ويهب الهبة السنية، ثم ابتدأ فضلا آخر من أمور الآخرة فقال تعالى « إن مع العسر يسرا » والدليل على ابتدائه تعريه من الفاء والواو وهذا وعد لجميع المؤمنين ، والمعنى إن مع العسر الذى فى الدنيا للمؤمن يسرا فى الآخرة ، وربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا وهو ماذكره فى الآية الأولى ويسر الآخرة وهو ماذكره فى الآية الثانية فقوله : لن يغلب عسر يسرين : أى إن عسر الدنيا لن يغلب اليسر الذي وعده الله المؤمنين فى الدنيا واليسر الذى وعدهم فى الآخرة إنما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا ، فأما يسر الآخرة فدائم أبدا غير زائل : أى لايجتمعان فى الغلبة ، فهو كقوله صلي الله عليه وسلم « شهرا عيد لاينقصان » أى لايجتمعان فى النقص . قال القشيرى : كنت يوما فى البادية بحالة من الغم فألقى فى روعى بيت شعر فقلت :

أرى الموت لمن أصـ   ـبح مغموما له أروح

فَإِذَا أَجْرَيْتَ هٰذِهِ الْأَذْكَارَ وَنَحْوَهَا ، وَوَاظَبْتَ عَلَيْهَا بِالتَّكْرِيرِ وَالتَّمْرِينِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ سَيُهَوِّنُ عَلَيْكَ إِذَا كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ وَاجْتِهَادٌ زَمَانًا غَيْرَ طَوِيلٍ .

وَلَقَدْ دَفَعْتَ هٰذِهِ الْعَوَارِضَ الْأَرْبَعَةَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَكُفِيتَ مُؤْنَتَهَا وَصِرْتَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ الْمُفَوِّضِينَ ، الرَّاضِينَ بِقَضَائِهِ ، الصَّابِرِينَ عَلَى بَلَائِهِ ؛ وَحَصَّلْتَ لِنَفْسِكَ رَاحَةَ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِى الدُّنْيَا ، وَعَظِيمَ الثَّوَابِ وَالذُّخْرِ فِى الْعُقْبَى ،

فلما جن الليل سمعت هاتفا يهتف فى الهواء :

ألا أيها المرء الـ ٭ ـذى الهم به برح
وقد أنشد بيتا لم ٭ يزل فى فكره يسنح
إذا اشتد بك العسر ٭ ففكر فى ألم نشرح
فعسر بين يسرين ٭ إذا أبصرته فافرح

قال فحفظت الأبيات ففرج الله عنى ، وقال إسحق بن بهلول القاضى :

فلا تيأس إذا أعسرت يوما ٭ فقد أيسرت فى دهر طويل
ولا تظنن بربك ظن سوء ٭ فان الله أولى بالجميل
فإن العسر يتبعه يسار ٭ وقول الله أصدق كل قيل

وقال أحمد بن سليمان فى المعنى :

توقع لعسر دهاك سرورا ٭ تر العسر عنك بيسر تسرى
فما الله يخلف ميعاده ٭ وقد قال إن مع العسر يسرا

وقال غيره : وكل الحادثات إذا تناهت ٭ يكون وراءها فرج قريب

(فإذا أجريت) فى قلبك (هـذه الأذكار) وهى ذكر ما يحصل لك عند الله من الأجر وذكر صبر أولى العزم على المصائب العظام وغير ذلك (ونحوها) أى الأذكار (وواظبت) أى لازمت (عليها بالتكرير والتمرين) أى التعويد (فإن ذلك) أى إجراء الأذكار فى القلب ومواظبتها بالتكرار (سيهون عليك) ما أنت عليه من الشدائد (إذا كانت لك همة) عالية (واجتهاد زمانا غير طويل ولقد دفعت) أيها الرجل (هذه العوارض الأربعة) المذكورة وهي الرزق والأخطار والمصائب وأنواع القضاء من الله سبحانه وتعالى بالحلو والمر (عن نفسك وكفيت مؤنتها) أى تعبها وثقلها (وصرت عند الله تعالى من المتوكلين المفوضين) إلى الله تعالى (الراضين بقضائه الصابرين على بلائه) تعالى ومصيبته (وحصلت) أيها الرجل (لنفسك راحة القلب والبدن فى الدنيا و) حصلت (عظيم الثواب والذخر) أى الذخيرة (فى العقبى) أى فى الآخرة

وَجَلِيلَ الْقَدْرِ وَالمَحَبَّةِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيَجْتَمِعُ لَكَ خَيْرُ الدَّارَيْنِ ، وَتَسْتَقِيمُ لَكَ طَرِيقُ الْعِبَادَةِ ، إِذْ لاَ عَائِقَ وَلاَ شَاغِلَ ، وَكُنْتَ حِينَئِذٍ قَدْ قَطَعْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْعُسْرَةَ ، وَاللهُ تَعَالَى المَسْئُولُ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، فَإِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

﴿ البابُ الخامس : فى العقبة الخامسة : وهى عقبة البواعث ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِى بِالسَّيْرِ إِذَا اسْتَقَامَ لَكَ الطَّرِيقُ ، وَسَهُلَتِ السَّبِيلُ ،

(و) حصلت (جليل القدر) أى عظيم الرتبة والمنزلة (والمحبة عندرب العالمين فيجتمع لك خير الدارين) أى الدنيا والآخرة (وتستقيم لك طريق العبادة إذ لا عائق) أى لا مانع يمنعك عن العبادة (ولا شاغل) يشغلك عنها(وكنت حينئذ) أى حين إذ اجتمع لك خير الدارين (قد قطعت) وجاوزت (هذه العقبة العسرة) بضم العين وهى عقبة العوارض الأربعة (والله تعالى المسئول أن يمدك) أى يعينك (وإيانا بحسن توفيقه فإن الأمر كله بيده) أى بقدرته (وهو أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (ولا حول) أى لا تحول عن معصية الله إلا بعصمة الله (ولا قوة) على طاعة الله (إلا بالله) أى بمعونته (العلى) أى الرفيع فوق خلقه ، وليس فوقه شىء ، فالمراد به علو قدر ومنزلة ، وقيل العلى بالملك بالسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد (العظيم) أى شأنه وقدره وقد جاء فى فضائل لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم شىء كثير ، فمنه ما رواه ابن أبى الدنيا بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قال فى كل يوم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم مائة مرة لم يصبه فقر أبدا » ومن ذلك ماروى أن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه أسر المشركون ابنا له يسمى سالما فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أسرابنى وشكي إليه الفاقة فقال عليه الصلاة والسلام ما أمسى عند آل محمد إلا مد فاتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ففعل فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها ، ومن ذلك ما قد ذكرنا بيانه فليراجع والله أعلم .

الباب الخامس : فى العقبة الخامسة

(وهى عقبة البواعث) على الخير والطاعة

(ثم عليك يا أخى) فى الدين (بالسير) إلى طاعة الله (إذا استقام لك الطريق وسهلت السبيل

وَارْتَفَعَتِ الْعَوَائِقُ ، وَزَالَتِ الْعَوَارِضُ ؛ وَلاَ يَحْصُلُ لَكَ السَّيْرُ الْمُسْتَقِيمُ إلاَّ بِاسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْتِزَامِهِمَا حَقَّهُمَا عَلَى حَدِّهِمَا . أَمَّا الْخَوْفُ فَإِنَّمَا يَجِبُ الْتِزَامُهُ لِأَمْرَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : الزَّجْرُ عَنِ الْمَعَاصِى ،

وارتفعت)عنك (العوائق) والموانع (وزالت العوارض ،ولا يحصل لك السير المستقيم إلا باستشعار الخوف والرجاء والتزامهما حقهما على حدهما) وسيأتى بيان ذلك (أما الخوف) وهو الخامس من مقامات اليقين ، وهو باب عظيم من أبواب الإيمان . وأحوال القلوب تنقسم إلى مقامات ، وأحوال وحالات متوسطة بينهما ، وهذا بالنسبة إلى الثبات وسرعة الزوال ، والحالة المتوسطة متى دامت ألحقت بالمقام ومتى زالت ألحقت بالحال فالخوف لايتعلق إلا بمشكوك فيه أو مظنون (فانما يجب التزامه لأمرين : أحدهما الزجر عن المعاصى) .

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار . أما الاعتبار فسبيله أن تعرف أن فضيلة الشىء بقدر غنائه فى الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى فى الآخرة إذ لامقصود سوى السعادة إذ هى الغاية المطلوبة ولاسعادة للعبد إلا فى لقاء مولاه والقرب منه ، فكل ماأعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر إعانته ، وقد ظهر أنه لاوصول إلى سعادة لقاء الله فى الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به فى الدنيا فيموت على ذلك ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة لأنها فرعها من لم يعرف لم يحب ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر فى مشاهدة جلاله تعالى ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر لآلاء الله تعالى ولا يتيسر الذكر والفكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب وفراغه منه ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات وكف النفس عنها ولا تنقمع الشهوة بشىء كما تنقمع بنار الخوف . فاذا عرفت منزلته من الدين فلا تتعداها فالخوف هو النار المحرقة للشهوات والمزيل لآثار آفتها فإذا فضيلته بقدر مايحرق من الشهوة ، وبقدر مايكف عن المعاصى ويحث علي الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف . نعم يستحب إكسابه وتذكاره عند وجود أسبابه مثل قراءتك « مالك يوم الدين وغير المغضوب عليهم » وعند تذكر ماأعده الله للعصاة ؛ وعند الكسوف والخسوف والصواعق والزلازل وكيف لايكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة ؟ والورع والتقوى والمجاهدة ، وهى الأعمال الفاضلة المحمودة التى تقرب إلى الله تعالى زلفى ، وفى هذا القدر مقنع لأهل التأمل والاعتبار وعبرة لأولي الأبصار ، وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر والإحصاء وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين مافرقه على المؤمنين من الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، وهى مجامع مقامات أهل الجنان . قال الله تعالى « هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » والرهبة من لواحق الخوف ومقام من مقاماته . وقال تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فوصفهم بالعلم لخشيتهم والخشية مقام من مقات الخوف . وقال تعالى

فَإِنَّ هٰذِهِ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ مَيَّالَةٌ إِلَى الشَّرِّ ، طَمَّاحَةٌ إِلَى الْفِتْنَةِ فَلَا تَنْتَهِي عَنْ ذٰلِكَ إِلَّا بِتَخْوِيفٍ عَظِيمٍ ، وَتَهْدِيدٍ بَالِغٍ ، وَلَيْسَتْ هِيَ فِي طَبْعِهَا حُرَّةً ، يَهُمُّهَا الْوَفَاءُ ، وَيَمْنَعُهَا الْحَيَاءُ عَنِ الْجَفَاءِ ، إِنَّمَا هِيَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

الْعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ الْمَلَامَهْ

وَالتَّدْبِيرُ فِي أَمْرِهَا أَنْ تَقْرَعَهَا أَيْضًا بِسَوْطِ التَّخْوِيفِ قَوْلًا وَفِعْلًا وَفِكْرًا ، نَحْوَ مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّ نَفْسَهُ دَعَتْهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ ، فَانْطَلَقَ وَنَزَعَ ثِيَابَهُ ، وَجَعَلَ يَتَمَرَّغُ فِي الرَّمْضَاءِ ،

« رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » والخشية كما ذكر من مقامات الخوف ، فخص الرضوان بأهل الخشية وكل مادل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم بالله تعالى ، ولذلك جاء فى خبر موسى عليه السلام: وأما الخائفون فان لهم الرفيق الأعلى لايشاركون فيه . فانظر كيف أفردهم من غير مشاركة بمرافقة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ، ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول : أسألك الرفيق الأعلى فاذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد فى فضائل الورع والتقوى حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد وآله أجمعين (فإن هذه النفس الأمارة بالسوء ميالة) أى كثيرة الميل (إلى الشر طماحة) فى المختار : طمح بصره إلى الشىء : ارتفع وبابه خضع وطماحا أيضا بالكسر وكل مرتفع طامح ورجل طماح بالتشديد أى شره (إلى الفتنة فلا تنتهى) أى هذه النفس (عن ذلك) أى عن كثرة ميلها إلى الشر وشرهها إلى الفتنة (إلا بتخويف عظيم وتهديد بالغ ، وليست هي فى طبعها) أى هذه النفس (حرة يهمها) أى يقصدها (الوفاء) بالعهد (ويمنعها الحياء عن الجفاء) فى المختار : الجفاء ممدودا ضد البر (إنما هى) أى النفس (كما قال القائل) من مجزو الكامل (العبد يقرع) أى يضرب (بالعصا * والحر تكفيه الملامه . والتدبير فى أمرها) أى النفس (أن تقرعها) أى تضربها (أبدا بسوط التخويف قولا وفعلا وفكرا) وذلك (نحو ماذكر عن بعض الصالحين) رحمه الله تعالى (أن نفسه دعته) أى طلبته (إلى معصية فانطلق) أى ذهب بعض الصالحين (ونزع ثيابه وجعل يتمرغ) أى صار يتدلك ويتقلب (فى الرمضاء) أى فى التراب الحار ، فى المختار: الرمض بفتحتين : شدة وقع الشمس

وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ : ذُوقِى فَنَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا مِنْ هٰذِهِ ، أَىْ جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ بَطَّالَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَالثَّانِى : لاَ يَعْجَبُ بِالطَّاعَاتِ فَيَهْلِكَ ، بَلْ يَقْمَعُهَا بِالذَّمِّ وَالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْأَوْزَارِ الَّتِى فِيهَا ضُرُوبُ الْأَخْطَارِ وَنَحْوُ ذٰلِكَ، وَذٰلِكَ نَحْوُ مَا ذُكِرَ عَنِ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « لَوْ أَنِّى وَعِيسَى أُوخِذْنَا بِمَا اكْتَسَبَتْ هَاتَانِ لَعُذِّبْنَا عَذَابًا لَمْ يُعَذَّبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ » . وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ مَا يَأْمَنُ أَحَدُنَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ ذَنْبًا فَطُبِّقَ بَابُ الْمَغْفِرَةِ دُونَهُ فَهُوَ يَعْمَلُ فِى غَيْرِ مَعْمَلٍ .

وَعَنِ الْمُبَارَكِ فِيمَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ : تَقُولِينَ قَوْلَ الزَّاهِدِينَ ، وَتَعْمَلِينَ عَمَلَ الْمُنَافِقِينَ وَفِى الْجَنَّةِ تَطْمَعِينَ ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! إِنَّ لِلْجَنَّةِ قَوْمًا آخَرِينَ ،

على الرمل وغيره، والأرض رمضاء بوزن حمراء ، وقد رمض يومنا : اشتد حره وبابه طرب (ويقول) مخاطبا (لنفسه ذوقى) هـذه الرمضاء (فنار جهنم أشد حرا من هـذه) الرمضاء (أى جيفة) وأى ندائيـة (بالليـل) أى بسبب النوم (بطالة) أى عطالة (بالنهار) قال العلامة عبد الحق : البطالة الـكسالة المؤدية إلى إهمال المهمات والتفرغ من العمل والبطال المتفرغ والمتعطل والـكسل (والثانى) من الأمرين (لا يعجب) أى العبد (بالطاعات فيهلك) مع الهالـكين (بل يقمعها) أى يقهرها : أى النفس (بالذم والعيب والنقص بما فيها) أى فى النفس (من الأسواء) جمع سوء (والأوزار) جمع وزر وهو الإثم (التى فيها) أى فى الأسواء والأوزار (ضروب الأخطار) أى أنواع المخاوف (ونحو ذلك) أى ضروب الأخطار (وذلك) أى الأخطار والمخاوف (نحو ماذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو أنى وعيسى أخذنا بما اكتسبت هاتان) إشارة إلي نفسه وإلى نفس عيسى عليهما الصلاة والسلام (لعذبنا) بالبناء للمفعول : أى لعذبنا الله (عذابا لم يعذبه) أى لم يعذب بذلك العذاب (أحـــد من العالمين وأشار) صلى الله عليه وسلم (بأصبعيه) إلي نفسهما عليهما الصـلاة والسلام (وعن الحسن) البصرى التابعى ، توفى سنة عشر ومائة رحمه الله (أنه كان يقول : ما يأمن أحدنا أن يكون قد أصاب ذنبا فطبق) أى غلق (باب المغفرة دونه فهو يعمل فى غير معمل) أى فى موضع غير لائق (وعن ابن المبارك) وهو من تابعى التابعين ، توفى سنة إحدى وثمانين ومائة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة رحمه الله (فيما يعاتب نفسه) يانفس (تقولين قول الزاهدين ، وتعملين عمل المنافقين وفى الجنة تطمعين ، هيهات هيهات) أى بعد بعد (إن للجنة قوما آخرين ،

وَلَهُمْ أَعْمَالٌ غَيْرُ مَا تَعْمَلِينَ ؛ فَهٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا يَلْزَمُ الْعَبْدَ تَذْكِيرُهَا لِلنَّفْسِ وَتَكْرِيرُهَا عَلَيْهَا ، لِئَلَّا تَعْجَبَ بِطَاعَةٍ ، أَوْ تَقَعَ فِى مَعْصِيَةٍ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

ولهم أعمال غير ماتعملين ، فهذه) أى أقاويل هؤلاء الأئمة (وأمثالها مما يلزم العبد تذكيرها للنفس وتكريرها عليها) أى النفس (لئلا تعجب) النفس (بطاعة أو تقع فى معصية ، وبالله التوفيق) قال أبو حامد الغزالى وغيره : اعلم أن الخوف لايتحقق إلا بانتظار مكروه فى الاستقبال وذلك المكروه لايخلو ، إما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار مثلا ؛ وإما أن يكون مكروها لالذاته بل لأنه يفضى إلى المكروه فتكون كراهته عارضة كما تكره المعاصى لالذاتها ولكن لأدائها إلى مكروه في الآخرة وهو العتاب والعذاب ، وهذا كما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف أن يتمثل فى نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره فى قلبه حتى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ومقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة ، فالذين يغلب على قلوبهم ماليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد بالخيانة ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف وهن العزم بعد القوة ، أوخوف قلة الوفاء بترك المعاملة بالصفاء ، أوخوف زوال رقة القلب وتبديلها بالقساوة ، أو خوف حدوث الفترة بعد الشره عن المعاملة ، أو خوف ظهور الصفة بعد استتار الشهوة والآفة ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة ، أوخوف الجنايات والاكساب ، أو خوف الوعد وسوء العقاب ، أوخوف التقصير عن الأمر بتسبيب الأسباب ، أو خوف مجاوزة الحد ، أو خوف سلب المريد ، أو خوف حجاب اليقظة عن القلب بالغفلة أو خوف قطع الفتنة من العقل بالوسوسة ، أو خوف أن يكله الله إلى حسناته التى اتكل عليها وتعزز بها فى عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة وإضمار السوء أو خوف الوقوع فى الفتنة بتسبيب الخدعة بالمحنة « إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » ، أو خوف البلوى بعود جرى العادة ، أو خوف الرجوع عن قصد الإرادة ، أو خوف استذلال المهانة بعد الكرامة ، أو خوف الحور بعد الكور وهو الرجوع عن المحجة بعد إيقاع الحكم عليه إلى طريق الهدى ، أو خوف ما لا يدرى أنه يحدث فى بقية عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا أو الإفتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه ، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أو خوف السابقة التى سبقت له فى الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين وطرقات الطالبين وبعضها أعلى من بعض ، وفيها ما هو أشد من بعض ولكل واحدة خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف

وَأَمَّا الرَّجَاءُ : فَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ اسْتِشْعَارُهُ لِأَمْرَيْنِ . أَحَدُهُمَا : لِلْبَعْثِ عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَيْرَ ثَقِيلٌ ، وَالشَّيْطَانُ عَنْهُ زَاجِرٌ ، وَالْهَوَى إِلَى ضِدِّهِ دَاعٍ ، وَحَالُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ مِنْ عَامَّةِ الْخَلْقِ فِى النَّفْسِ مُنْطَبِعٌ مُشَاهَدٌ ، وَالثَّوَابُ الَّذِى يُطْلَبُ بِالطَّاعَاتِ عَنِ الْعَيْنِ غَائِبٌ ، وَأَمَدُ الْوُصُولِ إِلَيْهِ فِيمَا يَحْسَبُهُ بَعِيدٌ ، وَإِذَا كَانَ الْحَالُ عَلَى هٰذِهِ الْحَالَةِ ، فَلَا تَنْبَعِثُ النَّفْسُ لِلْخَيْرِ ، وَلَا تَرْغَبُ فِيهِ حَقَّهُ ، وَلَا تَهْتَزُّ لَهُ إِلَّا بِأَمْرٍ يُقَابِلُ كُلَّ هٰذِهِ الْمَوَانِعِ ، وَيُسَاوِيهَا ، بَلْ يَزِيدُ عَلَيْهَا ، وَذَلِكَ الْأَمْرُ هُوَ الرَّجَاءُ الْقَوِىُّ فِى رَحْمَةِ اللهِ ، وَالتَّرْغِيبُ الْبَالِغُ فِى حُسْنِ ثَوَابِهِ وَكَرِيمِ أَجْرِهِ ؛ وَلَقَدْ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : الْحُزْنُ يَمْنَعُ عَنِ الطَّعَامِ ، وَالْخَوْفُ يَمْنَعُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَالرَّجَاءُ يُقَوِّى عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَذِكْرُ الْمَوْتِ يُزَهِّدُ فِى الْفُضُولِ . وَالثَّانِى : لِيُهَوِّنَ عَلَيْكَ احْتِمَالَ الشَّدَائِدِ وَالْمَشَقَّاتِ .

وَاعْلَمْ : أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَا يَطْلُبُ هَانَ عَلَيْهِ مَا يَبْذُلُ ، وَمَنْ طَابَ لَهُ شَىْءٌ وَرَغِبَ فِيهِ حَقَّ رَغْبَتِهِ ،

فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس والخطرات وهكذا إلى بقية الأقسام (وأما الرجاء فإنما يلزمك استشعاره) أى الرجاء (لأمرين : أحدهما للبعث) والحث (على الطاعات وذلك) أى بيان أن الرجاء باعث على الطاعات (أن الخير ثقيل والشيطان عنه) أى عن الخير (زاجر) ومانع (والهوى إلى ضده) أى الخير وهو الشر (داع وحال أهل الغفلة من عامة الخلق فى النفس منطبع مشاهد والثواب الذى يطلب بالطاعات عن العين غائب) غير مرئى (وأمد الوصول) أى مدته (إليه) أى إلى ذلك الثواب (فيما يحسبه) أى يظنه (بعيد وإذا كان الحال) وهو الطاعات (على هذه الحالة) أى الثقيلة ونحوها (فلا تنبعث النفس للخير ولا ترغب فيه حقه) أى الخير (ولا تهتز) أى تتحرك النفس (له) أي لفعل الخير (إلا بأمر يقابل كل هذه الموانع ويساويها بل يزيد) الأمر (عليها) أى الموانع (وذلك الأمر هو الرجاء القوى فى رحمة الله والترغيب البالغ) أى الكامل (فى حسن ثوابه) تعالى (وكريم أجره ، ولقد قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : الحزن) الشديد (يمنع عن) أكل (الطعام والخوف) الصادق (يمنع من) ارتكاب (الذنوب ، والرجاء يقوى على الطاعات ، وذكر الموت يزهد فى الفضول) أى فيما لا يعنيه (والثانى) من الأمرين إنما يلزمك استشعار الخوف (ليهون) أى يسهل (عليك احتمال الشدائد والمشقات) فى العبادات (واعلم أن من عرف ما يطلب هان) أى يسهل (عليه ما يبذل) أى يعطى (ومن طاب له شىء ورغب فيه حق رغبته)

أُحْتَمِلَ شِدَّتَهُ وَلَمْ يُبَالِ بِمَا يَلْقَى مِنْ مُؤْنَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا حَقَّ مَحَبَّتِهِ . أَحَبَّ أَيْضًا أُحْتِمَالَ مِحْنَتِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَجِدُ بِتِلْكَ الْمِحْنَةِ ضُرُوبًا مِنَ اللَّذَّةِ ، أَلَا تَرَى مُشْتَارَ الْعَسَلِ لَا يُبَالِى بِلَسْعِ النَّحْلِ لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنْ حَلَاوَةِ الْعَسَلِ ، وَالْأَجِيرُ لَا يَعْبَأُ بِارْتِقَاءِ السُّلَّمِ الطَّوِيلِ مَعَ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ طُولَ النَّهَارِ الصَّائِفِ الْمَدِيدِ ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنْ أَخْذِ دِرْهَمَيْنِ بِالْعَشِيِّ ، وَإِنَّ الْفَلَّاحَ لَا يَتَفَكَّرُ بِمُقَاسَاةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَمُبَاشَرَةِ الشَّقَاءِ وَالْكَدِّ طُولَ السَّنَةِ ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنَ الْبَيْدَرِ أَوَانَ الْغَلَّةِ ؛ وَكَذَلِكَ يَا أَخِي الْعُبَّادَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الِاجْتِهَادِ إِذَا ذَكَرُوا الْجَنَّةَ فِى طِيبِ مَقِيلِهَا ، وَأَنْوَاعِ نَعِيمِهَا مِنْ حُورِهَا ، وَقُصُورِهَا ، وَطَعَامِهَا ، وَشَرَابِهَا ، وَحُلِيِّهَا ، وَحُلَلِهَا ،

أى الشيء (احتمل شدته ولم يبال بما يلقى من مؤنته) وثقله (ومن أحب أحدا حق محبته أحب أيضا) أى كمحبته لذلك الأحد (احتمال محنته حتى إنه) أى المحب (ليجد بتلك المحنة ضروبا) أى أنواعا (من اللذة، ألا ترى مشتار العسل) أي الذى يجتنى ويستخرج عسل النحل من محله، فى القاموس شار العسل شورا وشيارا وشيارة ومشارا ومشارة: استخرجه من الوقبة كأشاره واشتاره واستشاره ، وفى المختار وشار النحل اجتناها وبابه قال: واشتارها أيضا ،وأشارها لغة فيه نقلها أبو عمرو وأنكرها الأصمعى (لايبالى بلسع) أى بلدغ (النحل) وذلك (لما يتذكر) أى المشتار (من حلاوة العسل و) ألا ترى (الأجير لا يعبأ) أى لا يبالى (بارتقاء السلم الطويل) والسلم بضم السين وفتح اللام مع تشديدها بوزن سكروهى المرقاة ،وقد تذكر والجمع سلاليم وسلالم كما فى القاموس(مع الحمل) بالكسر (الثقيل طول النهار الصائف) أى الحار يقال يوم صائف : أى حار وصيف صائف تأكيد كليل لائل (المديد) أى الطويل (لما يتذكر) أى الأجير (من أخذ درهمين) ونحوهما للأجرة (بالعشى) فى المختار : العشى من صلاة المغرب إلى العتمة(و) ألا ترى أيضا (أن الفلاح) أى الحارث (لايتفكر بمقاساة الحر والبرد ومباشرة الشقاء) بالفتح أى الشدة (والكد) أى الشدة فى العمل (طول السنة لما يتذكر) أى الفلاح (من البيدر) أى الموضع الذى يداس فيه الطعام(أوان الغلة) أى زمانها والغلة فائدة أرض (وكذلك) أى مثل من ذكر من المشتار ومن بعده (يا أخى العباد) بضم العين(الذين هم أهل الاجتهاد إذا ذكروا) أى العباد (الجنة فى طيب مقيلها) أى مكانها يؤوى إليه للاسترواح بالأزواج والتمتع بهن (وأنواع نعيمها) أى الجنة (من حورها وقصورها) ومنازلها (وطعامها وشرابها وحليها) والحلى مايزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة والجمع حلى ، وقد تكسر الحاء لمناسبه اللام المكسورة لمناسبة الياء مثل عصى ، وقرىء فى سورة الأعراف «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا » بالضم والكسر (وحللها) أى الجنة، الحلل جمع حلة ، فى المختار: الحلة

وَسَائِرِ مَا أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى لِأَهْلِهَا ، هَانَ عَلَيْهِمْ مَا احْتَمَلُوهُ مِنْ تَعَبٍ فِى عِبَادَةٍ ، أَوْ مَا فَاتَهُمْ فِى الدُّنْيَا مِنْ لَذَّةٍ وَنِعْمَةٍ ، أَوْ نَالَهُمْ مِنْ ضَرَرٍ وَذِلَّةٍ أَوْ نِقْمَةٍ أَوْ مَشَقَّةٍ لِأَجْلِهَا .

وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ أَصْحَابَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى كَلَّمُوهُ فِيمَا كَانُوا يَرَوْنَ مِنْ خَوْفِهِ وَاجْتِهَادِهِ وَرَثَاثَةِ حَالِهِ ، فَقَالُوا : يَا أُسْتَاذُ : لَوْ نَقَصْتَ مِنْ هٰذَا الْجُهْدِ نِلْتَ مُرَادَكَ أَيْضاً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، فَقَالَ سُفْيَانُ : كَيْفَ لَا أَجْتَهِدُ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَكُونُونَ فِى مَنَازِلِهِمْ ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ نُورٌ تُضِيءُ لَهُ الْجِنَانُ الثَّمَانِيَةُ ،

إزار ورداء ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين (وسائر ما أعده الله تعالى لأهلها هان) جواب إذا : أى سهل (عليهم) أى العباد (ما احتملوه من تعب فى عبادة أو مافاتهم فى الدنيا من لذة ونعمة أو) ما (نالهم) فى الدنيا (من ضرر وذلة أو نقمة) اسم من الانتقام وهى المكافأة بالعقوبة والجمع نقم ونقمات (أو مشقة لأجلها) أى الجنة (ولقد حكى أن أصحاب سفيان) بن سعيد وهو من تابعى التابعين : ولد سنة سبع وتسعين ، وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة (الثورى) بفتح الثاء المثلثة وبعدها واو ساكنة وراء نسبة إلى ثور بن عبد مناة (رحمه الله تعالى كلموه فيما كانوا يرون من خوفه) أى الثورى (واجتهاده) فى العبادة (ورثاثة حاله) الرثاثة البذاذة وخلوقة الثياب وسوء الحال (فقالوا) أى أصحابه (يا أستاذ) أى يا معلم : قال العلامة عبد الحق : الأستاذ المعلم والمقرىء والمدبر والعالم وأستاذ الصناعة رئيسها فارسى معرب ، والجمع أساتيذ وأساتذة وأستاذون (لو نقصت من هذا الجهد) أى المشقة (نلت مرادك أيضا إن شاء الله تعالى فقال سفيان كيف لا أجتهد ، وقد بلغنى أن أهل الجنة يكونون فى منازلهم فيتجلى) أى يظهر (لهم نور تضىء له) أى لأجل النور (الجنان الثمانية) .

قال العلامة الزبيدى : اعلم أن للجنة أسماء عديدة باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار ذواتها فهى مترادفة من هذا الوجه مختلفة باعتبار صفاتها ، فاسم الجنة هو الاسم العام المتناول لتلك الذوات وما اشتملت عليه من النعيم والسرور وقرة العين ، وهذه اللفظة مشقة من الجن وهو الستر ، ومنه سمي البستان جنة لأنه يستر داخله بالأشجار ، والجنان كثيرة جدا كما جاء في الخبر « أنه صلى الله عليه وسلم قال لأم حارثة لما قتل ابنها حارثة في بدر : يا أم حارثة إنها جنان فى الجنة وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى » وقال تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فذكرهما ثم قال « ومن دونهما جنتان » وفى حديث أبى موسى عند الشيخين « جنتان من ذهب وجنتان من فضة » فهن أربع كما دلت عليه رواية الطبرانى « الجنان أربع » . قال القرطبي : هى سبع وعدها وأعلاهن جنة عدن وهى منازل المرسلين والشهداء والصديقين . وقد ورد في الخبر أنه تعالي غرسها بيده وهى قصبة

فَيَظُنُّونَ أَنَّ ذٰلِكَ نُورٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فَيَخِرُّونَ سَاجِدِينَ ، فَيُنَادَوْنَ : أَنِ ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ ، لَيْسَ الَّذِى تَظُنُّونَ ، إِنَّمَا هُوَ نُورُ جَارِيَةٍ تَبَسَّمَتْ فِى وَجْهِ زَوْجِهَا ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

مَا ضَرَّ مَنْ كَانَتِ الْفِرْدَوْسُ مَسْكَنَهُ ... مَاذَا تَحَمَّلَ مِنْ بُؤْسٍ وَإِقْتَارِ

تَرَاهُ يَمْشِى كَئِيباً خَائِفاً وَجِلاً ... إِلَى الْمَسَاجِدِ يَمْشِى بَيْنَ أَطْمَارِ

يَا نَفْسُ مَالَكِ مِنْ صَبْرٍ عَلَى لَهَبٍ ... قَدْ حَانَ أَنْ تُقْبِلِى مِنْ بَعْدِ إِدْبَارِ

قُلْتُ أَنَا : فَإِذَا كَانَ مَدَارُ أَمْرِ الْعُبُودِيَّةِ عَلَى الْأَمْرَيْنِ : الْقِيَامِ بِالطَّاعَةِ ، وَالِانْتِهَاءِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ مَعَ هٰذِهِ النَّفْسِ

الجنة ، وفيها الكثيب الذى تقع فيه الرؤية وعليها تدور ثمانية أسوار بين كل سورين جنة فالتى تلى جنة عدن من الجنان جنة الفردوس وأصلها البستان وهى أوسط الجنان الذى دون جنة عدن وأفضلها ثم جنة الخلد ثم جنة النعيم ثم جنة المأوى ثم دار السلام ، ثم دار المقامة ، ومنهم من قسم الجنان بالنسبة إلى الداخلين فيها ثلاثة: جنة اختصاص إلهى وهى التى تدخلها الأطفال وأهل الفترة . الثانية جنة ميراث ينالها كل من دخل الجنة من المؤمنين ، وهي الأماكن التى كانت معينة لأهل النار لو دخلوها . الثالثة جنة الأعمال وهى التى تنزل الناس فيها بأعمالهم فمن كان أفضل من غيره فى وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر ، وسواء كان الفاضل دون المفضول أو لم يكن غير أن فضله فى هذا المقام بهذه الحالة فما من عمل من الأعمال إلا وله جنة ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ماتقتضى أحوالهم (فيظنون) أى أهل الجنة (أن ذلك) أى النور (نور من قبل الرب) أى من جهته (سبحانه فيخرون ساجدين فينادون : أن ارفعوا رءوسكم ليس الذى تظنون إنما هو) أى النور (نور جارية تبسمت فى وجه زوجها ثم أنشأ) الثورى (يقول) من بحر البسيط (ما ضر من كانت الفردوس مسكنه * ماذا تحمل من بؤس) أي شدة (وإقتار) أى ضيق فى النفقة (تراه يمشى كئيبا) أى حزينا (خائفا وجلا) بمعنى واحد (إلى المساجد يمشى بين أطمار) جمع طمر بمعنى الثوب الخلق أو الكساء البالي من غير الصوف (يانفس مالك من صبر على لهب) أى اشتعال النار ، فى القاموس : اللهب اشتعال النار اذا خلص من الدخان أو لهيبها لسانها (قد حان) أى قرب الوقت (أن تقبلى) من الإقبال (من بعد إدبار) بكسر الهمزة (قلت أنا فإذا كان مدار أمر العبودية على الأمرين) الأول (القيام بالطاعة . و) الثانى (الانتهاء) والامتناع (عن المعصية وذلك) أى القيام والانتهاء (لا يتم مع هذه النفس) الأمارة بالسوء إلا بترغيب وترهيب وترجية وتخويف

الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ، إِلَّا بِتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ وَتَرْجِيَةٍ وَتَخْوِيفٍ ، فَإِنَّ الدَّابَّةَ الْحَرُونَ تَحْتَاجُ إِلَى قَائِدٍ يَقُودُهَا ، وَإِلَى سَائِقٍ يَسُوقُهَا ، وَإِذَا وَقَعَتْ فِى مَهْوَاةٍ فَرُبَّمَا تُضْرَبُ بِالسَّوْطِ مِنْ جَانِبٍ ، وَيُلَوَّحُ لَهَا الشَّعِيرُ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ حَتَّى تَنْهَضَ وَتَتَخَلَّصَ مِمَّا وَقَعَتْ فِيهِ ، وَإِنَّ الصَّبِيَّ الْعَرِمَ لَا يَمُرُّ إِلَى الْكُتَّابِ إِلَّا بِتَرْجِيَةٍ مِنَ الْوَالِدَيْنِ ، وَتَخْوِيفٍ مِنَ الْمُعَلِّمِ ؛ فَكَذَٰلِكَ هَٰذِهِ النَّفْسُ دَابَّةٌ حَرُونٌ وَقَعَتْ فِى مَهْوَاةِ الدُّنْيَا ، فَالْخَوْفُ سَوْطُهَا وَسَائِقُهَا ، وَالرَّجَاءُ شَعِيرُهَا وَقَائِدُهَا ، وَإِنَّهَا الصَّبِيُّ الْعَرِمُ يُحْمَلُ إِلَى كُتَّابِ الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى ، فَذِكْرُ النَّارِ وَالْعِقَابِ تَخْوِيفُهُ ، وَذِكْرُ الْجَنَّةِ وَثَوَابِهَا تَرْجِيَتُهُ وَتَرْغِيبُهُ ، فَكَذَٰلِكَ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الطَّالِبَ لِلْعِبَادَةِ وَالرِّيَاضَةِ ، أَنْ يُشْعِرَ النَّفْسَ بِالْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا : الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ ، وَإِلَّا فَلَا تُسَاعِدُ النَّفْسُ الْجَمُوحُ عَلَى ذَٰلِكَ ، وَبِهَٰذَا الْمَعْنَى وَرَدَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ بِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ : الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ، وَالتَّرْغِيبُ وَالتَّهْدِيدُ ، وَبَالَغَ فِى كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، فَذَكَرَ ،

فإن الدابة الحرون) أى التى لا تنقاد (تحتاج إلى قائد يقودها و) تحتاج (إلى سائق يسوقها وإذا وقعت) أى هذه الدابة (فى مهواة) أى مهلكة (فربما تضرب بالسوط من جانب) واحد (ويلوح) بالبناء للمفعول : أى يظهر (لها) أى للدابة (الشعير من جانب آخر حتى تنهض) أى تقوم (وتتخلص مما وقعت فيه وإن الصبى العرم) أى سيىء الخلق أو الجاهل (لا يمر إلى الكتاب) أى موضع التعليم (إلا بترجية من الوالدين وتخويف من المعلم فكذلك) أى مثل ماذكر من الدابة الحرون والصبى العرم (هذه النفس دابة حرون وقعت فى مهواة الدنيا فالخوف سوطها وسائقها) أى النفس (والرجاء شعيرها وقائدها وأنها) أى النفس (الصبى العرم يحمل إلى كتاب العبادة والتقوى فذكر النار والعقاب تخويفه) أى الصبى العرم (وذكر الجنة وثوابها ترجيته وترغيبه فكذلك) أى مثل الصبى العرم فى التخويف والترغيب (يلزم العبد الطالب للعبادة والرياضة أن يشعر) أى يعلم (النفس بالأمرين الذين هما الخوف والرجاء وإلا) أى وإن لم يشعر النفس بهذين الأمرين (فلا تساعد النفس الجموح على ذلك) أى العبادة (وبهذا المعنى) وهو وجوب إشعار النفس وإعلامها بالأمرين المذكورين (ورد الذكر) أى القرآن (الحكيم بمجموع الأمرين : الوعد) لمن أطاع الله تعالى بالثواب (والوعيد) لمن عصاه بالعقاب (والترغيب والتهديد وبالغ) أى الذكر الحكيم (فى كل واحد منهما) أى من الأمرين (فذكر) الذكر

مِنَ الثَّوَابِ الْكَرِيمِ مَالَا صَبْرَ عَنْهُ ، وَذَكَرَ مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ ؛ فَعَلَيْكَ إِذًا بِالْتِزَامِ هٰذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ ، يَحْصُلْ لَكَ مُرَادُكَ مِنَ الْعِبَادَةِ ، وَيَسْهُلْ عَلَيْكَ احْتِمَالُ الْمَشَقَّةِ ، وَاللّٰهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا حَقِيقَةُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ وَحُكْمُهُمَا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللّٰهُ تَعَالَى يَرْجِعَانِ إِلَى قَبِيلِ الْخَوَاطِرِ ، وَإِنَّمَا الْمَقْدُورُ لِلْعَبْدِ مُقَدِّمَاتُهُمَا ، قَالُوا : فَالْخَوْفُ رَعْدَةٌ تَحْدُثُ فِى الْقَلْبِ عَنْ ظَنِّ مَكْرُوهٍ يَنَالُهُ ، وَالْخَشْيَةُ نَحْوُهُ ، لٰكِنِ الْخَشْيَةُ تَقْتَضِى ضَرْبًا مِنَ الِاسْتِعْظَامِ وَالْمَهَابَةِ ؛ وَضِدُّ الْخَوْفِ ، الْجَرَاءَةُ ، وَلٰكِنْ قَدْ يُقَابَلُ بِالْأَمْنِ ، يُقَالُ : خَائِفٌ ، وَآمِنٌ ، وَخَوْفٌ ، وَأَمْنٌ ، لِأَنَّ الْآمِنَ الَّذِى يَجْتَرِئُ عَلَى اللّٰهِ سُبْحَانَهُ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْجَرَاءَةَ تُضَادُّهُ ،

الحكيم (من الثواب الكريم ما لا صبر عنه وذكر من العقاب الأليم) أى المؤلم (مالا صبر عليه فعليك إذن) أى إذ ورد الذكر الحكيم بمجموع الأمرين (بالتزام هذين المعنيين) وهما الخوف والرجاء (يحصل لك مرادك من العبادة ويسهل عليك احتمال المشقة) فى العبادة (والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته . فان قلت فما حقيقة الرجاء والخوف و) ما (حكمهما فاعلم) هداك الله (أن الخوف والرجاء عند علمائنا) معاشر الصوفية (رحمهم الله تعالى يرجعان إلى قبيل الخواطر) أى أنواعها (وإنما المقدور للعبد مقدماتهما) أى الخوف والرجاء (قالوا) أى علماؤنا (فالخوف رعدة) بفتح الراء : أى اضطراب (تحدث فى القلب عن ظن مكروه يناله والخشية نحوه) أى الخوف (لكن الخشية تقتضى) أى تطلب (ضربا) أى نوعا (من الاستعظام والمهابة) أى الخوف من الله تعالى (وضد الخوف الجراءة) أى الشجاعة فى محيط المحيط : جرؤ الرجل يجرؤ جرأة وجرة بحذف الهمزة وجرأة وجرائية وجراية ، وهو نادر لإبدال الهمزة ياء بعد الفتح: شجع (ولكن قد يقابل) الخوف (بالأمن ، يقال) هو (خائف وآمن وخوف وأمن لأن الآمن الذى يجترئ على الله سبحانه ، والحقيقة أن الجرأة تضاده) أى الخوف . قال القشيرى فى الرسالة : الخوف معنى متعلقه فى المستقبل لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه أو يفوته محبوب ولا يكون هذا إلا لشىء يحصل فى المستقبل . فأما ما يكون فى الحال موجوداً فالخوف لا يتعلق به والخوف من الله تعالى هو أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ، وقد فرض الله سبحانه على العباد أن يخافوه فقال تعالى « وخافون إن كنتم مؤمنين » ، وقال تعالى « وإياى فارهبون » ومدح المؤمنين بالخوف فقال تعالى « يخافون ربهم من فوقهم » قال القشيرى رحمه الله : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الخوف على مراتب الخوف والخشية والهيبة . فالخوف من شرط

الإيمان وقضيته . قال الله تعالى « وخافون إن كنتم مؤمنين » والخشية من شرط العلم . قال الله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » والهيبة من شرط المعرفة . قال الله تعالى « ويحذركم الله نفسه » . قال شيخ الإسلام : لما كان العارفون مشغولين بربهم عمن سواه حذرهم من نفسه ولم يذكر شيئا من عذابه وبما قاله علم أن الخوف يطلق على الثلاثة ، وأن الخوف الثانى أخص من الأول ، ونظيره: الهبة تنقسم إلى هبة وهدية وصدقة كما هو مقرر فى محله ، وهذا لا ينافى قول بعضهم الخشية حال من مقام الخوف ، والخوف اسم جامع لحقيقة التقوى ، والتقوى معنى جامع للعبادة ، وفسر بعضهم الخشية بأنها خوف مقترن بتعظيم . وبذلك فسرت قراءة « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع اسم الله ونصب العلماء : أى إنما يعظم الله من عباده العلماء . قال رحمه الله : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت محمد بن علي الجبرى يقول سمعت محفوظاً يقول : سمعت أبا حفص يقول : الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه . وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين رهبة وخشية فصاحب الرهبة يلتجىء إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجىء إلى الرب . قال رحمه الله ورهب وهرب تصح أن يقال هما واحد مثل جذب وجبذ فاذا هرب انجذب فى مقتضى هواه كالرهبان الذين اتبعوا أهواءهم فإذا كبحهم لجام العلم وقاموا بحق الشرع فهو الخشية . قال سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول سمعت أبا عثمان يقول سمعت أبا حفص يقول : الخوف سراج القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر . سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول: الخوف أن لاتعلل نفسك بعسى وسوف . سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول سمعت أبا عمرو الدمشقي يقول : الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان ، وقال ابن الجلاء : الخائف من تأمنه المخوفات ، وقيل : ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه إنما الخائف من يترك مايخاف أن يعذب عليه ، وقيل للفضيل مالنا لانرى خائفا؟ فقال لو كنتم خائفين لرأيتم الخائفين، إن الخائف لا يراه إلا الخائفون وإن الثكلى هى التى تحب أن ترى الثكلى ، وقال يحى بن معاذ : مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة . وقال شاه الكرمانى : علامة الخوف الحزن الدائم . وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف من شىء هرب منه ومن خاف من الله عز وجل هرب إليه ، وسئل ذو النون المصرى رحمه الله تعالى متى يتيسر علي العبد سبيل الخوف ؟ فقال إذا أنزل نفسه منزلة السقيم يحتمى من كل شىء مخافة طول السقام ، وقال معاذ بن جبل : إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراءه ، وقال بشر الحافى: الخوف ملك لايسكن إلا فى قلب متق . وقال أبو عثمان الحيرى: عيب الخائف فى خوفه السكون إلى خوفه لأنه أمر خفى . وقال الواسطى : الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد ، وهذا اللفظ فيه إشكال ، ومعناه أن الخائف متطلع لوقت ثان وأبناء الوقت لا تطلع لهم فى المستقبل وحسنات الأبرار سيآت المقربين . سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت محمد بن على النهاودى يقول سمعت إبراهيم بن فاتك يقول سمعت النورى يقول : الخائف يهرب من ربه إلى ربه . وقال بعضهم :

علامة الخوف التحير على باب الغيب . سمعت أبا عبد الله الصوفى يقول سمعت على بن إبراهيم العكبرى يقول سمعت الجنيد يقول وسئل عن الخوف فقال : توقع العقوبة مع مجارى الأنفاس . سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت الحسين بن أحمد الصفار يقول سمعت محمد بن المسيب يقول سمعت هاشم بن خالد يقول سمعت أبا سليمان الداراني يقول : ما فارق الخوف قلبا إلا خرب وسمعته يقول سمعت عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن يقول سمعت أبا عثمان يقول : صدق الخوف . هو الورع عن الآثام ظاهرا وباطنا . وقال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فاذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق . وقال حاتم الأصم : لكل شيء زينة وزينة العبادة الخوف وعلامة الخوف قصر الأمل . وقال رجل لبشر الحافى أراك تخاف الموت ؟ فقال القدوم على الله شديد . سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول . دخلت على الإمام أبى بكر بن فورك عائدا فلما رآنى دمعت عيناه ، فقلت له إن شاء الله تعالى يعافيك ويشفيك ، فقال لن ترانى أخاف من الموت إنما أخاف مما وراء الموت . قال القشيرى . أخبرنا على بن أحمد الأهوازى . قال أخبرنا أحمد بن عبيد . قال حدثنا محمد بن عثمان قال حدثنا القاسم بن محمد قال حدثنا يحى بن يمان عن مالك ابن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن موهب عن عائشة رضى الله عنها قالت « قلت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر ؟ قال لا ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » . وقال ابن المبارك الذى يهيج الخوف حتى يسكن فى القلب دوام المراقبة فى السر والعلانية ، إذ الحامل على دوامها إنما هو قوة الخوف من لحوق الضرر فبتوالى الخوف على القلب تحصل المراقبة . وعلامة سكون الخوف فى القلب تواليه فيه حتى يصير كأنه ساكن فان الأعراض لا بقاء لها كما قرره شيخ الإسلام. وكان إبراهيم بن شيبان يقول : إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه . وطرد رغبة الدنيا عنه . وقيل الخوف قوة العلم بمجارى الأحكام ، وقيل الخوف حركة القلب من جلال الرب وعظمته فمتى استشعر القلب نظر الرب إليه فى حالته التى هو فيها وإن كانت أفضل عباداته اضطرب قلبه واقشعر جلده كما قال تعالى « إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » . وقال أبو سليمان الدارانى : ينبغى للقلب أن لا يكون الغالب عليه إلا الخوف فانه إذا غلب الرجاء على القلب فسد القلب ، ثم قال يا أحمد بالخوف ارتفعوا فان ضيعوه نزلوا ، وقال الواسطى : الخوف والرجاء زمامان على النفوس لئلا تخرج إلى رعوناتها . وقال الواسطى : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف قال الأستاذ أبو القاسم وهذا فيه إشكال ومعناه إذا اصطلمت شواهد الحق الأسرار ملكتها فلا يبقى فيها مساغ بذكر حدثان والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بأحكام البشرية . وقال الحسين بن منصور : من خاف من شيء سوى الله عز وجل أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء وسلط عليه المخافة وحجبه بسبعين حجابا أيسرها الشك وإن مما أوجب شدة خوفهم فكرهم فى العواقب وخشية تغير أحوالهم قال الله تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » وقال الله تعالى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم

وَمُقَدِّمَاتُ الْخَوْفِ أَرْبَعٌ ، الْأُولَى: ذِكْرُ الذُّنُوبِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي سَبَقَتْ ، وَكَثْرَةُ الْخُصُومِ الَّذِينَ مَضَوْا إِلَى الظَّالِمِ ، وَأَنْتَ مُرْتَهِنٌ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ الْخَلَاصُ بَعْدُ . وَالثَّانِيَةُ : ذِكْرُ شِدَّةِ عُقُوبَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، الَّتِي لَا طَاقَةَ لَكَ بِهَا . وَالثَّالِثَةُ : ذِكْرُ ضَعْفِ نَفْسِكَ عَنِ احْتِمَالِ الْعُقُوبَةِ . وَالرَّابِعَةُ : ذِكْرُ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْكَ مَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ .

يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فكم من مغبوط فى أحواله انعكست عليه الحال ومنى بمقارفة قبيح الأفعال فبدل بالأنس وحشة وبالحضور رغيبة. وقيل لما ظهر على إبليس ماظهر طفق جبريل ومكائيل عليهما السلام يبكيان زمانا طويلا فأوحى الله تعالى إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا يا رب لانأمن مكرك فقال الله تعالى «هكذا كونا لاتأمنا مكرى» . وقال حاتم الأصم: لاتغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة فلقى آدم عليه السلام فيها مالقى ، ولا تغتر بكثرة العبادة فان إبليس بعد طول تعبده لقى مالقى ، ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعم بن باعوراء كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقى ، ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر قدرا من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه .

وسئل الشبلى لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ فقال لأنها عزلت عن مكان التمام فاصفرت لخوف المقام وكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه لأنه يخاف المقام ، فاذا طلعت الشمس طلعت مضيئة كذلك المؤمن إذا بعث من قبره خرج ووجهه مشرق . ويحكي عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال : سألت ربى عز وجل أن يفتح على بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلى فقلت يارب أعطنى على قدر ماأطيق فسكن ذلك عنى ، ثم قال المصنف رحمه الله (ومقدمات الخوف أربع : الأولى ذكر الذنوب الكثيرة التى سبقت) منك (و) ذكر (كثرة الخصوم الذين مضوا إلى الظالم وأنت مرتهن) بعملك (لم يتبين لك الخلاص بعد) أى إلى الآن (والثانية ذكر شدة عقوبة الله سبحانه) فى الآخرة (التى لاطاقة) أى لاقوة (لك بها) أى بالعقوبة الشديدة (والثالثة ذكر ضعف نفسك عن احتمال العقوبة . والرابعة ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء) ولنذكر بعض مايتعلق بمقام الخوف مما ذكره أبو طالب المكى فى القوت . قال : الخوف اسم جامع لحقيقة الإيمان وهو علم لوجود الإيقان ، وهو سبب اجتناب كل نهى ومفتاح كل أمر ، وليس يحرق شهوات النفوس ويزيل آثارها إلا مقام الخوف . وقد قال ذو النون المصرى . لايسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه ، وقال سهل : كمال الايمان بالعلم وكمال العلم بالخوف . وقال مرة : العلم كسب الايمان والخوف كسب المعرفة وكل مؤمن بالله خائف لكن خوفه على قدر قربه . وشكا واعظ إلى بعض الحكماء ألا ترى إلى هؤلاء أعظهم

وأذكر فلا يرقون ؟ فقال كيف ينتفع بالموعظة من لم يكن فى قلبه من الله مخافة ؟ وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك « سيذكر من يخشي . ويتجنبها الأشقى » أى يتجنب التذكرة الشقي فجعل من عدم الخوف شقيا وحرمه التذكرة ، فخوف عموم المؤمنين بظاهر القلب عن ظاهر العلم بالعقل وخوف خصوصهم وهم الموقنون بباطن القلب عن باطن العلم بالوجد ؛ فأما خوف اليقين فهو للصديقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ماأمر به من الصفة المخوفة ؛ وقد جاء فى الخبر « إن العبد إذا أدخل فى قبره لم يبق شىء كان يخافه دون الله تعالى إلا مثل له يفزعه ويرعبه إلي يوم القيامة » فأول خوف اليقين المحاسبة للنفس فى كل وقت والمراقبة للرقيب فى كل حين والورع عن الإقدام على الشبهات من كل شىء من العلوم بغير يقين بها ومن الأعمال بغير فقه فيها ، ثم سجن اللسان وحزن الكلام أن لايدخل فى دين الله ولا فى العلم ما لم يشرعه الله فى كتابه أو يذكره الرسول فى سنته أو لم ينطق به الأئمة من السلف فى سيرهم مما لم يكن أصله موجودا فى الكتاب والسنة ، وتسميته واضحة فى العلم فيجتنب ذلك كله، ولا يقف ماليس له به علم خوفا من المسألة عنه ولا يدخل فيه لدقيق هوى يدخل عليه ولا لعظم حظ دنيا يدخل فيه وأن ينصح نفسه لله لأنها أولى الخلق ثم ينصح الخلق فى الله ، وثمرة الخوف العلم بالله والحياء من الله ، وهو أعلى مثوبات أهل المزيد. وأكثر مايقع سوء الخاتمة بثلاثة طوائف: أهل البدع والزيغ فى الدين لأن إيمانهم مرتبط بالمعقول؛ فأول آية تظهر لهم من قدرة الله تعالى أن يطيح عقله عند معاينتها فيذهب إيمانه ولا يثبت لشهادتها كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح . الطبقة الثانية أهل الكبر والانكار لآيات الله وكراماته لأوليائه فى الحياة الدنيا لأنهم لم يكن لهم يقين يحمل القدرة ويمده الايمان فيعتورهم الشك ويقوى عليهم لفقد اليقين . والطبقة الثالثة ثلاثة أصناف متفرقون متفاوتون فى سوء الخاتمة وجميعهم دون تينك الطائفتين في سوء الخاتمة لأن سوء الختم على مقامات أيضا كمقامات اليقين والشرك فى عمر الحياة منهم المدعى المتظاهر الذى لم يزل إلى نفسه وعمله ناظرا ؛ والفاسق والمعلن والمقر المدمن تتصل بهم المعاصى إلى آخر العمر ويدوم تقليبهم فيها إلى كشف الغطاء ، فإذا رأوا الآيات تابوا إلى الله بقلوبهم . وقد انقطعت أعمال الجوارح فليس يتأثر منهم فلا تقبل توبتهم ولا تقال عثرتهم ولاترحم عبرتهم ، وقد كان عبد الواخد بن زيد يقول : ماصدق خائف قط ظن أنه لا يدخل النار وما ظن أنه يدخل النار إلا خاف أن لا يخرج منها أبدا . وكان سهل يقول: خوف التعظيم من ميراث خوف السابقة . وقال زهير بن نعيم البابى : ما أكثر همى ذنوبى إنما أخاف ما هو أعظم على من الذنوب أن أسلب التوحيد وأموت على غيره؛ وروى ابن المبارك غن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة قال : كان رجل يعتزل الناس إنما هو وحده فجاءه أبو الدرداء فقال أنشدك الله ما يحملك على أن تعتزل الناس ؟ قال إنى أخشى أن يسلب دينى وأنا لا أشعر قال أتري فى الحى مائة يخافون ما تخاف فلم يزل ينقص حتى بلغ عشرة قال فحدثت بذلك رجلا من أهل الشام ، فقال ذاك شرحبيل بن السمط هو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان سفيان الثورى يلتفت إلى حماد بن سلمة فيقول يا أبا سلمة ترجو لمثلي العفو أو يغفر لمثلي؟

فيقول له حماد نعم أرجو له . وكان بعض السلف يقول : لو أنى أعلم أنه يختم لى بالسعادة كان أحب إلى مما طلعت عليه الشمس فى حياتي أجعله فى سبيل الله . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى إذا أعطى عبدا معرفة ثم لم يشكره عليها ولم يحسن معاملته بها لم يسلبه إياها بل أبقاها عليه ليحاسبه على قدرها ولكن يرفع منه البركة ويقطع عنه المزيد ، فمثل عيش هذا فى الدنيا كمثل البخيل الغنى يعيش عيش الفقراء ويحاسب حساب الأغنياء . كذلك العالم البطال يحيا حياة الجهال ويحاسب غدا محاسبة العلماء . ومن أعلى المخاوف خوف سلب الإيمان الذى هو عنده وديعة وفى خزانة المؤمن يظهره كيف شاء ويبديه ويعيده إلى الغيب متى شاء ويخفيه ذلك من صفة المكر وحكم الماكر وكثافة الستر ولطف الساتر لا تدرى أهبة وهبه لك فيبقيه عليك بكرمه وفضله أم وديعة وعرية أودعك إياه وأعارك فيأخذه إذن لا محالة بحكمته وعدله وقد أخفى عنك حقيقة ذلك واستأثر بعاقبته . وكان يحي يقول ينبغى أن يشغلك خوف قوت تأكله لا تدرى أحلالا هو أم حرام عن تمنى الفضول وينبغى أن يشغلك خوف ذهاب الايمان عن تمنى درجات الأبدال ؟ فاذا لم تعطها استقللت ماقد أعطيت وأنت قد أعطيت خير شىء فى خزائن الله الايمان به ولعمرى إن الخوف على فقد الايمان علامة الغبطة بوجوده . وقال بعض العارفين : إنما قطع بالقوم عند الوصول وقال آخر : واخطراه ، ومن المخاوف خوف قطع المزيد من علم الايمان مع تبقية المعرفة المبدأة تكون مستدرجا بها ممنوعا من المزيد ، وقد لا يكون مدرجا إلا أن توقف المزيد عنه هو لعلة واقفة من الهوى فيه وقد يقسى قلبه ويجرى عنه وذلك من النقصان الذى يعرفه أهل التمام لأن عين الوجه من الملك للدنيا وعين القلب من الملكوت للآخرة فيمنعه ما ينفعه عنده ويعطيه ما يضره به ويفتتن عند الخلق كمن أعطي الصنو المأكول . وقال مجاهد : إن الرجل لتبكي عينه وقلبه أقسى من الجماد . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة إذا استكمل العبد النفاق ملك عينه فيبكى كما شاء .

وسئل أبو محمد سهل هل يعطى الله أحدا من المؤمنين من الخوف زنة مثقال ؟ فقال من المؤمنين من يعطى من الخوف وزن جبل أحد قيل فكيف يكون حالهم يأكلون وينكحون وينامون ؟ قال نعم يفعلون ذلك والمشاهدة لا تفارقهم قيل له فأين الخوف ؟ قال يحمله حجاب القدرة بلطيف الحكمة ويستتر القلب تحت الحجاب فى التصريف بصفات البشرية فيكون مثل هذا العبد مثل المرسلين . وقال أيضا : الخوف مباينة النهى ، والخشية الورع ، والاشفاق : هو الزهد ، وكان يقول : دخول الخوف على الجاهل يدعوه إلى العلم ، ودخوله على العالم يدعوه إلى الزهد ، ودخوله على العامل يدعوه إلى الاخلاص فقد صار الخوف يصلح للكافة ، إذ دخوله على العام يخرجه عن الحرام ودخوله على الخاص يدخله فى الورع والزهد . وقال أيضا : الإخلاص فريضة لا تنال إلا بالخوف ولا ينال الخوف إلا بالزهد . وقال : إنه لا يصح علم الرجاء إلا للخائف : يعنى لتعدل شهادتاه بتقدمه الخوف فيكون بشهادته قائما

وَأَمَّا الرَّجَاءُ : فَهُوَ ابْتِهَاجُ الْقَلْبِ بِمَعْرِفَةِ فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَاسْتِرْوَاحُهُ إِلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَهٰذَا مِنْ جُمْلَةِ الْخَوَاطِرِ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ ، وَرَجَاءٌ هُوَ مَقْدُورٌ لِلْعَبْدِ ، وَهُوَ تَذَكُّرُ فَضْلِ اللهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَقَدْ سُمِّيَ أَيْضاً إِرَادَةُ الْمُخَاطَرَةِ بِالِاسْتِثْنَاءِ رَجَاءً ، وَالْمُرَادُ مِنْ هٰذَا الْبَابِ

وإخلاء قلبه من الخوف وانفراده بحال الرجاء يخرجه إلى الأمن والاغترار . وكان يقول : الخوف ذكر المحبة والمحبة أنثى . ألا ترى أن أكثر الناس يدعون المحبة يريد بهذا أن فضل الخوف على الرجاء كفضل الذكر على الأنثى وهو كما قال لأن الخوف حال العلماء والرجاء وصف العمال ففضله عليه كفضل العلم على العمل . وكان الحسن يقول : ما عبد الله بشيء أفضل من طول الحزن والخوف . وقال بعض السلف : حسبك من الخوف اجتناب المعاصى . وكان الثورى يقول : ما أحب أني عرفت الأمر حق معرفته إذن لطاش عقلي ، ومما يدلك على أن الخوف اسم لحقيقة العلم بالله تعالى أن فى إحدى القراءتين من قراءة أبيّ وعبد الله فى معنى قوله تعالى « فخشينا أن يرهقهما طغيانا » فخاف ربك وقال الفراء معناه فعلم ربك وقال الخوف من أسماء العلم . ومن معنى هذا أيضا سمي الحياء بمعنى الخشية وهى من الخوف فجعل الحياء اسم الخشية ، ومن ذلك فسر قوله تعالي « وتخشى الناس » أى تستحييهم ، ومما يدل على باطن الخوف كثرة الاستغفار فى كل حال والخوف من يسير الأعمال ومن نقل عنه المخافة من حقير الأمر الذى لعله والله أعلم زنة ذرة من الشر أكثر من أن يحصى ، كما روى أن رجلا قال لعطاء السلمى ما هذا الخوف كله؟ قال لعظيم فقلت وما هو ؟ قال اصطدت حماما لجارتى منذ أربعين سنة فأنا أبكي منذ ذلك أما أنى قد تصدقت بثمنه مرات . وقال ضيغم الراسبي ذنب أذنبته أنا أبكى عليه منذ أربعين سنة وذلك أنه زارنى أخ لى فاشتريت سمكا بدانق فأراد أن يغسل يده فأخذت قطعة طين من حائط جارى فغسلت به يده ، وقال آخر تكلمت بكلمة أنا أبكي عليها منذ كذا ، قيل وما هى ؟ قال رأيت درهما فى يد رجل فقلت هذا الدرهم جرجانى ولعله لم يضرب بجرجان . وقال بعضهم وصفت لنا امرأة من العوابد فأتينا منزلها فاذا هي قد غلقت بابها لا يدخل عليها أحد فسألنا عنها فقيل لنا هى تبكي فى جوف بيت قد غلقت عليها الباب منذ ثلاثة أيام لا ندرى ما شأنها قال فسألناها بعد وقت فقالت قتلت نملة ، هذا لأنه قيل إن الأبرار لا يؤذون الذر ولا يقتلون النمل . وبكى نصر بن جرير على معصية ثلاثين سنة .هكذا نقله العلامة الزبيدى (وأما الرجاء فهو ابتهاج) أى سرور (القلب بمعرفة الله سبحانه واسترواحه) أى القلب (إلى سعة رحمة الله تعالى ، وهذا) أى الابتهاج والاسترواح (من جملة الخواطر غير مقدور للعبد ورجاء هو مقدور للعبد ، وهو) أى المقدور له (تذكر فضل الله وسعة رحمته . وقد سمى أيضا) أى كما يسمى ما ذكر رجاء (إرادة المخاطرة بالاستثناء رجاء والمراد من هذا الباب) أى باب الرجاء

هُوَ الْأَوَّلُ وَهُوَ التَّذَكُّرُ عَلَى حَسَبِ الِابْتِهَاجِ وَالِاسْتِرْوَاحِ ، وَضِدُّهُ الْيَأْسُ ، وَهُوَ تَذَكُّرُ فَوَاتِ رَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ وَقَطْعُ الْقَلْبِ عَنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ مَعْصِيَةٌ مَحْضَةٌ

(هو الأول وهو التذكر على حسب الابتهاج) والسرور بمعرفة فضل الله (والاسترواح) إلى سعة رحمته (وضده) أى الأول الذى هو التذكر (اليأس وهو) أى اليأس (تذكر فوات رحمة الله وفضله وقطع القلب عن ذلك) أى التذكر (وهو) أى اليأس (معصية محضة) أى خالصة عن شائبة الخير . وقد ذكر الأستاذ أبو القاسم القشيرى الرجاء بقوله : هو تعلق القلب بمحبوب سيحصل فى المستقبل ؛ وكما أن الخوف يقع فى مستقبل الزمان فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل فى الاستقبال : وبالرجاء عيش القلوب واستقلالها . والفرق بين الرجاء وبين التمنى أن التمنى يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجد وبعكسه صاحب الرجاء ، فالرجاء محمود والتمنى معلول ، وتكلموا فى الرجاء فقال شاه الكرمانى : علامة الرجاء حسن الطاعة . ومن المعهود فى أعمال الدنيا أن من وضع حبة فى أرض طيبة قد رويت قوى رجاؤه وظنه بحصول مطلوبه ؛ وعكسه من وضع حبة فى أرض سبخة فى زمن الصيف وقال الله قادر أن ينبته فيها وهذا القول وإن كان صحيحا لكن المتبع ما أجراه الله من عادته فى خلقه كما قاله شيخ الإسلام . وقال ابن خبيق : الرجاء ثلاثة رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها . ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة . والثالث الرجل الكاذب يتمادى فى الذنوب ويقول أرجو المغفرة ، ومن عرف نفسه بالإساءة ينبغى أن يكون خوفه غالبا علي رجائه . وقيل الرجاء ثقة الوجود من الكريم الودود ، وقيل الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال ، وقيل هو قرب القلب من ملاطفة الرب ، وهذا قريب مما قبله . وفيه إشارة إلي الحضور ودوام العلم بتوالى نعم الله تعالى على العبد . وقيل سرور الفؤاد بحسن المعاد . وقيل هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى . قال القشيرى : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت أبا على الروذبارى يقول : الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت . وسمعته يقول سمعت النصراباذى يقول سمعت ابن أبي حاتم يقول سمعت على بن شهمرذان يقول قال أحمد بن عاصم الأنطاكى وسئل ما علامة الرجاء فى العبد ؟ قال أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر راجيا لتمام النعمة من الله تعالى عليه في الدنيا وتمام عفوه فى الآخرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء استبشار بوجود فضله . وقال : ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب . سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من حمل نفسه على الرجاء تعطل ومن حمل نفسه على الخوف قنط ولكن من هذه مرة ومن هذه مرة . وسمعته يقول حدثنا أبو العباس البغدادى قال حدثنا الحسن بن صفوان قال حدثنا ابن أبى الدنيا قال حدثت عن بكر بن سليم

الصواف قال: دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها فقلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك ؟ فقال ما أدرى ما أقول لكم غير أنكم ستعاينون من عفو الله تعالى مالم يكن لكم فى حساب ، ثم ما برحنا حتى أغمضناه . وقال يحي بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب يغالب رجائى لك مع الأعمال لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف . وكلموا ذا النون المصرى وهو فى النزع فقال : لا تشغلونى فقد تعجبت من كثرة لطف الله تعالى معى . وقال يحي بن معاذ : إلهي أحلى العطايا فى قلبي رجاؤك وأعذب الكلام على لسانى ثناؤك ، وأحب الساعات إلى ساعة يكون فيها لقاؤك . وفى بعض التفاسير « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أصحابه من باب بني شيبة فرآهم يضحكون فقال أتضحكون؟ لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ثم مر ثم رجع القهقرى وقال : نزل على جبريل عليه السلام وأتى بقوله تعالى: نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » . قال القشيرى أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد الأهوازى قال حدثنا أبو الحسن الصفار قال حدثنا عباس بن تميم قال حدثنا يحي بن أيوب قال حدثنا مسلم بن سالم قال حدثنا خارجة بن مصعب عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تعالى ليضحك من يأس العباد وقنوطهم وقرب الرحمة منهم ، فقلت بأبى وأمى يا رسول الله أو يضحك ربنا عز وجل ، فقال والذى نفسى بيده إنه ليضحك ، فقالت لا يعدمنا خيرا إذا ضحك » .

قال شيخ الإسلام : وذلك إذ الضحك علامة الرضا ، وبذلك علم أنه تعالى لاتضره معصية ولا تنفعه طاعة ، فمن أطاعه فبركة طاعته عائدة عليه ، ومن عصاه فشؤم معصيته راجع إليه ، فإن تاب عنها فلا ييأس من رحمة الله فإن أيس منها فهو جاهل وضحك الله تعالى ممن ييأس لأنه أتى بشئ عجيب ، وهو غفلته عن سعة رحمة الله أو جهله واعتقاده أن معصيته يرجع إلى ربه منها شيء فضحك ربه مقابلة له بضد حاله فإنه لما أيس من رحمته أسبغها عليه ، لا سيما بعد توبته .

واعلم أن الضحك فى وصفه تعالى من صفات فعله وهو إظهار فضله كما يقال ضحكت الأرض بالنبات وضحكه من قنوطهم إظهار تحقيق فضله الذى هو ضعف انتظارهم له . وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقال له إن أسلمت أضفتك ، فقال المجوسى إذا أسلمت فأى منة تكون لك على؟ فمر المجوسى فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبرهيم لم تطعمه إلا بتغييره دينه نحن منذ سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا عليك فمر إبراهيم عليه السلام خلف المجوسى وأضافه فقال له المجوسى : ايش كان السبب فى الذى بدا لك فذكر له ذلك فقال له المجوسى أهكذا يعاملنى ؟ ثم قال اعرض على الإسلام فأسلم . وكان أبو على الدقاق يقول : رأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاج ، وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الأمر أسهل مما توهمنا . وكان أبو بكر بن أشكيب يقول : رأيت أبا سهل الصعلوكى

فى المنام على هيئة حسنة لا توصف فقلت له يا أستاذ بم نلت هذا ؟ فقال بحسن ظنى بربى . ورؤى مالك بن دينار فى المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال قدمت على ربى عز وجل بذنوب كثيرة محاها عنى حسن ظني به تعالى . وقيل كان ابن المبارك يقاتل علجا مرة فدخل وقت صلاة العلج فاستمهله فأمهله فلما سجد للشمس أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه فسمع من الهواء قائلا يقول «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا» فأمسك فلما سلم المجوسى قال له لم أمسكت عما هممت به فذكر له ماسمع ، فقال له المجوسى نعم الرب رب يعاتب وليه فى عدوه فأسلم وحسن إسلامه وقيل إنما أوقعهم فى الذنب حين سمى نفسه عفوا ، وقيل لو قال لا أغفر الذنوب لم يذنب مسلم قط كما أنه لما قال « إن الله لا يغفر أن يشرك به » لم يشرك مسلم قط ولكن لما قال « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » طمعوا فى مغفرته .

ويحكى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال : كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف لى فكانت ليلة ظلماء فيها مطر شديد فخلا المطاف فدخلت وكنت أقول فيه : اللهم اعصمنى اللهم اعصمنى فسمعت هاتفا يقول لى يا ابن أدهم أنت تسألنى العصمة وكل الناس يسألونى العصمة فإذا عصمتكم فلمن أرحم ؟ وقيل رأى أبو العباس بن سريج فى منامه فى مرض موته كأن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه يقول : أين العلماء قال فجاءوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال ، فقلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض به وأراد جوابا آخر فقلت : أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه فقال اذهبوا فقال غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال . وفى هذا دلالة على جواز الغفران لمن لم يشرك بالله كالآية التى أشار اليها وعلى بشرى عظيمة لابن سريج وهو أنه مغفور له ! وقد اعترف هو ومن معه بالتقصير ، ومن اعترف بتقصيره رجى له المغفرة ، وقيل كان رجل شريب : أى كثير الشرب للخمر جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلام أربعة دراهم وكان الغلام صالحا ينكر عليه ذلك وأمره أن يشترى بها شيئا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول من دفع له أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال : فدفع الغلام الدراهم لأنه رأى أن سيده يرضى بذلك أو رأى أن هذا أولى مما أمره به سيده وهان عليه مشقة الضرب والألم من سيده حتى لا يقع فى هذا المنكر الشديد . وظن منصور أنه مالك الدراهم ، فقال منصور ما الذى تريد أن أدعو لك ؟ فقال لى سيدى أريد أن أتخلص منه فدعا لى منصور وقال ما الأخرى ؟ فقال أن يخلف الله تعالى على دراهمى فدعا ثم قال وما الأخرى؟ فقال أن يتوب الله على سيدى فدعا قال وما الأخرى؟ فقال أن يغفر الله تعالى لى ولسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام إلى سيده فقال لم أبطأت ؟ فقص عليه القصة فقال وبم دعا ؟ فقال سألت لنفسى العتق فقال اذهب فأنت حر وأيش الثانى؟ فقال أن يخلف الله على الدراهم ، فقال لك أربعة آلاف درهم فقال وأيش الثالث؟ فقال أن يتوب الله عليك فقال تبت إلى الله تعالى ،فقال وأيش الرابع؟ فقال أن يغفر الله تعالى لك ولى وللقوم وللمذكر فقال هذا الواحد ليس إلى فلما بات رأى فى المنام كأن قائلا يقول له أنت فعلت ما كان

إليك تراني لا أفعل ما إلى قد غفرت لك وللغلام وللمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين . وقيل حج رباح القيسى حجات كثيرة فقال يوما وقد وقف تحت الميزاب إلهى وهبت من حجاتى كذا كذا للرسول صلى الله عليه وسلم وعشرة منهـا لأصحابه العشرة وثنتين لوالدى والباقي للمسلمين ولم يحبس شيئا لنفسه فسمع هاتفا يقول : هو ذا يتسخى علينا لأغفرن لك ولأبويك ولمن شهـد شهادة الحق ؟ . وروى عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى قال : رأيت جنازة يحملها ثلاثة من الرجال وامرأة قال : فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة فصلينا عليها ودفناها فقلت للمرأة من كان هذا منك ؟ فقالت ابنى قلت أو لم يكن لـكم جيران ؟ قالت نعم ولـكنهم صغروا أمره فقلت وأيش كان هذا ؟ فقالت مخنثا قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا ونمت تلك الليلة فرأيت كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البـدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكر لي فقلت من أنت ؟ فقال المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى عز وجل باحتقار الناس إياى ، وكان الأستاذ أبو على الدقاق يقول : مر أبو عمرو البيكندى يوما بسكة فرأى قوما أرادوا إخراج شاب من المحلة لفساده وامرأة تبكي قيل إنها أمه فرحمها أبو عمرو فشفع له إليهم ، وقال هبوه منى هذه المرة ، فإن عاد إلى فساده فشأنـكم فوهبوه منه فمضى أبو عمرو فلمـا كان بعد أيام اجتاز بتلك السكة فسمع بكاء العجوز من وراء ذلك الباب فقال فى نفسه لعل الشاب عاد إلى فساده فنفي من المحلة فدق عليها الباب وسألها عن حال الشاب فخرجت العجوز وقالت إنه مات فسألها عن حاله فقالت لما قرب أجله قال لا تخبرى بموتى الجيران فلقد آذيتهم وإنهم يشمتون بى ولا يحضرون جنازتى ، وإذا دفنتينى فهذا خاتم لى مكتوب عليه بسم الله فادفنيه معى فإذا فرغت من دفنى فتشفعى لى إلى ربى عز وجل قالت ففعلت وصيته فلما انصرفت عن رأس قبره سمعت صوته يقول : انصرفى يا أماه فقـد قدمت على رب كريم ، وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم إنى لم أخلقهم لأربح عليهم وإنما خلقتهم ليربحوا على وكان إبراهيم الأطروش يقول : كنا قعودا ببغداد مع معروف الـكرخى على الدجلة إذ مر بنا قوم أحداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقلنا لمعروف أما تراهم كيف يعصون الله تعالى مجاهرين ؟ ادع الله عليهم فرفع يده وقال : إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة . فقالوا إنما سألناك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم وإذا تابوا زال عنـكم ما تـكرهونه فيحصل مطلوبكم من الدعاء عليهم ، وهذا من كمال المعرفة والسياسة فى تغيير المنـكر الذى لا يتمكن العبد من إزالته لقوة الجاه والسطوة فسلك معروف فى إزالته مسلك السؤال وطلب الفضل من الله بأن يغـير أحوالهم عما هى عليه لأنه تعالى الفاعل بهم ماهم فيه ؛ فقال اللهم كما فرحتهم فى الدنيـا ففرحهم فى الآخرة فأعلمهم بذلك أن التغيير فى هذا الوقت لمثل هؤلاء إنما هو بالدعاء لهم بالتوبة . وكان أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد يقول : كان يحي بن أكثم القاضى صديقا لى وكان يودنى وأوده فمات يحي فـكنت أشتهى أن أراه فى المنام فأقول له ما فعل الله تعالى بك

وَهٰذَا الرَّجَاءُ فَرْضٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَبْدِ سَبِيلٌ إِلَى الِامْتِنَاعِ عَنِ الْيَأْسِ إِلَّا بِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ نَفْلٌ بَعْدَ اعْتِقَادِ الْجُمْلَةِ فِى فَضْلِ اللهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ . وَمُقَدِّمَاتُ الرَّجَاءِ أَرْبَعٌ : الْأُولَى ذِكْرُ سَوَابِقِ فَضْلِهِ إِلَيْكَ مِنْ غَيْرِ قَدَمٍ أَوْ شَفِيعٍ . وَالثَّانِيَةُ ذِكْرُ مَا وَعَدَ اللهُ مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ وَعَظِيمِ كَرَامَتِهِ عَلَى حَسَبِ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ ، وَأَنَّ اسْتِحْقَاقَكَ إِيَّاهُ بِالْفِعْلِ ، إِذْ لَوْ كَانَ عَلَى حَسَبِ الْفِعْلِ لَكَانَ أَقَلَّ شَىْءٍ وَأَصْغَرَ أَمْرٍ . وَالثَّالِثَةُ ذِكْرُ كَثْرَةِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ فِى أَمْرِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ فِى الْحَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِمْدَادِ وَالْأَلْطَافِ ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ أَوْ سُؤَالٍ . وَالرَّابِعَةُ ذِكْرُ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى

فرأيته ليلة فى المنام فقلت ما فعل الله تعالى بك قال غفر لى إلا أنه وبخنى ثم قال لى يا يحيى خلطت علي في دار الدنيا فقلت : أى رب اتكلت على حديث حدثنيه أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك قلت إنى لأستحى أن أعذب ذا شيبة فى النار » فقال قد عفوت عنك يا يحيى وصدق نبيي إلا أنك خلطت على فى دار الدنيا ، ثم قال المصنف رحمه الله تعالى (وهذا الرجاء فرض إذا لم يكن للعبد سبيل إلى الامتناع عن اليأس إلا به) أى الرجاء (وإلا) أى وإن كان للعبد سبيل إلى الامتناع عن اليأس (فهو نفل بعد اعتقاد الجملة فى فضل الله وسعة رحمته. ومقدمات الرجاء أربع : الأولى ذكر سوابق فضله) تعالى (إليك من غير قدم) أى من غير عمل منك قبل (أو شفيع) أى من غير شفيع لك (والثانية ذكر ما وعد الله من جزيل) أى عظيم (ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه دون استحقاقك إياه) أى الثواب الجزيل (بالفعل إذ لو كان) هذا الثواب (على حسب الفعل لكان أقل شئ وأصغر أمر . والثالثة ذكر كثرة نعمة الله عليك فى أمر دينك ودنياك فى الحال من أنواع الإمداد) والتوفيق (و) أنواع (الألطاف من غير استحقاق أوسؤال . والرابعة ذكر سعة رحمة الله تعالى) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » رواه مسلم . قال النوربشتي : رحمة الله تعالى غير متناهية فلا يعتورها التقسيم والتجزئة ؛ وإنما قصد من ذكره ضرب المثل للأمة ليعرفوا التفاوت بين القسطين : قسط أهل الإيمان منها فى الآخرة ، وقسط كافة المربوبين فى الأولى ، فجعل مقدار حظ الفئتين من الرحمة في الدارين على الأقسام المذكورة تنبيها على المستعجم وتوقيفا على المستفهم ولم يرد به تحديد ماقد جل عن الحد أو تعديد ماتجاوز العد . وقال المهلب : الرحمة رحمتان : رحمة من صفة الذات وهي لاتتعدد ، ورحمة من صفة الفعل وهى هذه .

وَسَبَقِهَا غَضَبَهُ ، وَأَنَّهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ، الْغَنِيُّ الْكَرِيمُ ، الرَّءُوفُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ

وقال العارف البونى : رحمة الله تعالى الذاتية واحدة ورحمته المتعدية متعددة ، وهى كما فى هذا الخبر مائة ، ففى الأرض منها واحدة يقع بها الارتباط بين الأنواع وبها يكون حسن الطباع والميل بين الجن والإنس والبهائم كل شكل إلى شكله ، والتسعة والتسعين حظ الإنسان يوم القيامة تتصل بهذه الرحمة فتكمل مائة فيصعد بها فى صرح الجنة حتى يرى ذات الرحيم ويشاهد رحمته الذاتية (و) ذكر (سبقها) أى الرحمة (غضبه) تعالى كما روى « إنه إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه : إن رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة » قال العراقى متفق عليه . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف » رواه الطبراني . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى ؟ فيقولون نعم يا ربنا فيقول ؟ لم فيقول رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتى » رواه أحمد والطبرانى وروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام « يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه » وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم « ينادى مناد تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى » . وروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ قوله تعالى « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » فقال الأعرابى : والله ماأنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها ، فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه ؛ وذلك لأن الأعراب الغالب على طبعهم عدم الإدراك للطائف المعانى (و) ذكر (أنه) تعالى (الرحمن الرحيم الغنى الكريم الرءوف) من الرأفة : شدة الرحمة (بعباده المؤمنين) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما نزلت هذه الآية « ورحمتى وسعت كل شىء » تطاول إبليس اللعين وقال أنا شىء من الأشياء يكون لى نصيب من رحمته وتطاولت اليهود والنصارى ، فلما نزل قوله تعالى « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » يئس إبليس من رحمته ، وقالت اليهود والنصارى نحن نتقي الشرك ونؤتى الزكاة ونؤمن بآياته . ثم نزل قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى » فيئس اليهود والنصارى وبقيت الرحمة للمؤمنين خاصة . فالواجب على كل مؤمن أن يحمد الله تعالى على ما أكرمه به من الإيمان وجعل اسمه من جملة المؤمنين ويسأل ربه أن يتجاوز عن ذنوبه كما روى عن يحيي بن معاذ الرازى أنه كان يقول : إلهى قد أنزلت إلينا رحمة واحدة وأكرمتنا بذلك الرحمة وهى الإسلام ، فاذا أنزلت علينا مائة رحمة فكيف لا نرجو مغفرتك ، وذكر عنه أنه قال : إلهى إن كان ثوابك للمطيعين ورحمتك للمذنبين ، فإنى وإن كنت لست مطيعا لا أرجو ثوابك فأنا من المذنبين فأرجو رحمتك ، وذكر عنه أنه قال : إلهى خلقت الجنة وجعلتها وليمة

فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْأَذْكَارِ أَفْضَى بِكَ إِلَى اُسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ بِكُلِّ حَالٍ ، وَاللهُ تَعالى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

لأوليائك وآيست الكفار منها وخلقت ملائكتك غير محتاجين إليها وأنت مستغن عنها ، فان لم تعطنا الجنة فلمن تكون الجنة ؟ وقال ابن مسعود : لن تزال الرحمة بالناس يوم القيامة حتى إن إبليس يرفع رأسه مما يرى من سعة رحمة الله وشفاعة الشافعين (فاذا واظبت) أيها الرجل (على هذين النوعين من الأذكار أفضى) ذلك المذكور من المواظبة (بك إلى استشعار الخوف والرجاء بكل حال والله تعالى ولى التوفيق بمنه وفضله) وكرمه ، وقد ذكر أبو طالب المكى فى القوت الكلام فيما يتعلق بالرجاء ونقله العلامة الزبيدى وقد أحببت أن أسوقه لتمام الفائدة .

قال صاحب القوت عن بعض السلف : كل عاص فانه يعصى تحت كنف الرحمن ، فمن ألقى عليه كنفه ستر عورته ، ومن رفع عنه كنفه افتضح . والرجاء اسم لقوة الطمع فى الشىء بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشىء ، ولذلك أقام الله الطمع مقام الرجاء فى التسمية ، وأقام الحذر مقام الخوف فقال تعالى « يدعون ربهم خوفا وطمعا » وقال تعالى « يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » وهو وصف من أوصاف المؤمنين ، وخلق من أخلاق الإيمان لايصح إلا به كما لايصح الإيمان إلا بالخوف ، فالرجاء بمنزلة أحد جناحى الطائر لايطير إلا بجناحيه كذلك لايؤمن حتى يرجو من آمن به ويخافه وكان ابن مسعود يحلف بالله ماأحسن عبد ظنه بالله إلا أعطاه الله ذلك لأن الخير كله بيده : أى فاذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه مايظنه لأن الذى حسن ظنه به هو الذى أراد أن يحققه له ، وروينا عن يوسف بن أسباط قال : سمعت سفيان الثورى يقول فى قول الله تعالى « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » قال : أى أحسنوا بالله الظن . والرجاء مقام جليل وحال شريف نبيل لايصلح إلا للكرماء من أهل العلم والحياء ، وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف يروحون به الكرب ويستريحون إليه من مقارفة الذنب ، ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء ، ومن لم يقم فى مقامات الخوف لم يرفع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء ورجاء كل عبد من حقيقة خوفه ومكاشفته عن أخلاق مرجوه من معنى ما كان كوشف به من صفات مخوفة ، فان كان أقيم مقام المخوفات من المخلوقات مثل الذنوب والعيوب والأسباب رفع من حيث تلك المقامات إلى مقامات الرجاء بتحقيق الوعد وغفران الذنب وتشويق الجنان ومافيها من الأوصاف الحسان ، وهذه مواجهات أصحاب اليمين ، وإن كان أقيم مقام مخاوف الصفات عن مشاهدة معانى الذات ، مثل سابق العلم وسوء الخاتمة وخفى المكر وباطن الاستدراك وبطش القدرة وحكم الكبر والجبرية رفع من حيث هذه المقامات إلى مقام المحبة والرضا فرجا من معانى الأخلاق والأسماء الكرم والإحسان والفضل والعطف واللطف والامتنان ، وليس يصلح أن نخبر بكل مانعلم من شهادة أهل الرجاء فى مقامات الرجاء من قبل أنه لايصلح لعموم المؤمنين وهو يفسد من لم يرد به أشد الفساد ، فليس يصلح

إلا بخصوصه ولا يجذب ولا يستجيب له من المحبين ولا محبة إلا بعد نصح القلب من المخافة ، فالمؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه ، وكلسان الميزان بين كفتيه ، ومنه قول مطرف : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ، وللمؤمن فى اعتدال الخوف والرجاء مقامان : أعلاهما مقام المقربين وهو ماحال عليهم من مقام مشاهدة الصفات المخوفة والأخلاق المرجوة . والثانى مقام أصحاب اليمين وهو ماعرفوه من بدائع الأحكام وتفاوت الأقسام من ذلك أنه تعالى أنعم على الخلق بفضله عن كرمه اختيارا لا إجبارا فلما أعلمهم ذلك رجوا تمام النعمة من حيث ابتداؤها ، ومن ها هنا طمع السحرة فى المغفرة لمـا ابتدءوا بالايمان فقالوا « إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » أى من حيث جعلنا أول المؤمنين ، من هذا المـكان نرجو بأن يغفر لنا بأن جعلنا مؤمنين به فرجوه منه ، وقد ذم الله تعـالى عبدا أوجده نعمة ثم سلبها فأيس من عودها عليه . فقال تعـالى « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور » ثم استثنى عباده الصابرين عليه الصالحين له فقال تعـالى « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » ثم إن الخلق خلقوا على أربع طبقات فى كل طبقة طائفة ، فمنهم من يعيش مؤمنا ويموت مؤمنا فمن هاهنا رجاؤهم لأنفسهم وغيرهم من المؤمنين إذ قد أعطاهم فرجوا أن يتم عليهم نعمته وأن لا يسلبهم بفضل مابه بدأهم ، ومنهم من يعيش مؤمنا ويموت كافرا فهذا موضع خوفهم عليه وعلى غيرهم لمـكان علمهم بهذا الحـكم ولغيب حـكم الله تعالى بعلمه السابق فيهم ، ومن الناس من يعيش كافرا ويموت مؤمنا فهذان الحـكمان أوجبا رجاءهم . الثانى للمشرك إذا رأوه فلم يقطعوه لظاهره أيضا خوف هذا الرجاء خوفا ثانيا أن يموت على تلك الحالة وإن كان ذلك هو حقيقة عند الله تعالى ، فعلم المؤمن بهذه الأحكام الأربعة وزن خوفه ورجائه معا فاعتدل حاله بذلك لاعتدال إيمانه به وحكم على الخلق بالظاهر ووكل إلى علام الغيوب السرائر ولم يقطع على عبد بظاهره من الشر بل يرجو له مايظن عند الله من الخير ولم يشهد لنفسه ولا لغيره بظاهر الخير ، بل يخاف أن يكون قد استسر عند الله باطن شر إلا أن حال التمام أن يخاف العبد على نفسه ويرجو لغيره لأن ذلك هو وجد المؤمنين من قبل أنهم مأمورون بحسن الظن فهم يحسنون الظن بالناس ويخرجون لهم المعاذير بسلامة الصدور وتسليم ما غاب إلى من إليه تصير الأمور ، ثم هم فى ذلك يسيئون الظن بنفوسهم لمعرفتهم بصفاتها ، ويوقعون الملام عليها ولا يحتجون لها لباطن الاشفاق منهم عليهم ولخوف التزكية منهم لهم ، فمن غلب عليه هذان المعنيان فقد مكر به حتى يحسن الظن بنفسه ويسىء ظنه بغيره فيكون خائفاً على الناس راجيا لنفسه عاذرا لنفسه محتجا لها لائم الناس ذاما لهم فهذه من أخلاق المنافقين ، ثم إن للراجى حالا من مقامه وللحال علامة من رجائه ، فمن علامة الرجاء عن مشاهدة المرجو دوام المعاملة وحسن التقرب إليه وكثرة التحبب بالنوافل لحسن ظنه به وجميل أمنه منه ، وأنه يتقبل صالح ما أمر به تفضلا منه من حيث كرمه لا من حيث الواجب عليه ولا الاستحقاق منا فانه أيضا يكفر سيء ماعمله إحسانا منه ورحمة من حيث لطفه بنا وعطفه علينا لأخلاقه السنية وألطافه الخفية لا من حيث اللزوم بل من حيث الظن به . ومقام الرجاء كسائر مقامات اليقين منها فرض

ونفل ، فعلى العبد فرض أن يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقه من حيث كرمه وفضله لامن حيث نظره إلى صفات نفسه ولؤمه . وقد كان سهل يقول : من سأل الله شيئا فنظر إلى نفسه وأعماله لايرى الإجابة حتى يكون ناظرا إلى الله وحده وإلى لطفه وكرمه ويكون موقنا بالإجابه ولا يقبل الله عملا ولا دعاء إلا من موقن الاجابة مخلص ، فاذا شهد التوحيد ونظر إلى الوحدانية له فقد فتح له بابا من العبادة . ثم يتفاوت الراجون فى فضائل الرجاء ، فالمقربون منهم رجوا النصيب الأعلى من القرب والتجلى لمعانى الصفات مما عرفوه وهذا من علمهم به ، وأصحاب اليمين فى الراجين رجوا النصيب الأوفر من مزيده والفضل الأجزل من عطائه يقينا بما وعد ، ومن الرجاء انشراح الصدر بأعمال البر وسرعة السبق والمبادرة بها خوف فوتها ورجاء قبولها ، ثم مهاجرة السوء ومجاهدة النفس رجاء انتجاز الموعود ومنه قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » ومن الرجاء كثرة التلاوة لكلام الله تعالى ، وإقام الصلاة التى هى خدمة المعبود ، وبذل المال سرا وعلانية ، وأن لايشتغل عن ذلك بتجارة الدنيا كما وصف المحققين من الراجين إذ يقول الله تعالى « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » ومن الرجاء القنوت فى ساعات الليل وهو طول القيام للتهجد والدعاء عند تجافى الجنوب عن المضاجع لما وقر فى الصدور والقلوب من المخاوف ؛ وكذلك وصف الله تعالي الراجين بهذا فى قوله « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » فسمى أهل الرجاء والحذر وأهل التهجد آناء الليل علماء ، وحصل من دليل الكلام أن من لم يخف ولم يرج غير عالم لنفيه المساواة بينهما ، وهذا مما حذف خبره اكتفاء بأحد وصفيه إذ فى الكلام دليل عليه ، فالرجاء هو أول مقام من اليقين عند المقربين ، وهو ظاهر أوصاف الصديقين ولا يكمل فى قلب عبد ولا يتحقق به صاحبه حتى تجتمع فيه هذه الأوصاف : الايمان بالله والمهاجرة إليه والمجاهدة فيه وتلاوة القرآن وإقام الصلاة والإنفاق في سبيل الله ثم السجود آناء الليل والقيام والحذر مع ذلك كله ، فهذه جمل أوصاف الراجين وهو أول أحوال الموقنين ، ثم تتزايد الأعمال فى ذلك ظاهرا وباطنا بالجوارح والقلوب عن تزايد الأنوار والعلوم ، ومكاشفات الغيوب بالأوصاف المرجوة ، وفصل الخطاب أن الخوف والرجاء طريقان إلى مقامين ، فالخوف طريق العلماء إلى مقام العلم ، والرجاء طريق العاملين إلى مقام العمل ، وقد وصف الله الراجين مع الأعمال الصالحة لقوة رجائهم بالخوف تكملة لصدق الرجاء وتتمة لعظيم الغبطة به ، فقال تعالى مخبرا عنهم فى حال وفائهم وأعمال برهم « إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا » وقال تعالى « يوفون بالنذر ويخافون يوما » من قبل أن الخوف مرتبط بالرجاء ، فمن تحقق بالرجاء صارعه الخوف أن يقطع به دون مارجا . وقال أهل العربية فى قوله تعالى « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله » أى الذين لايخافون عقوبات الله تعالى ، فاذا كان هذا أمره بالمغفرة لمن لايرجو فكيف يكون عفوه وفضله على من رجوه ، وبعضهم يقول فى معنى قوله تعالى « وترجون من الله مالا يرجون » أى تخافون

منه مالا يخافون ، فلولا أنهما عند العلماء كشيء واحد مافسر أحدهما بالآخر ، ومن الرجاء الأنس بالله تعالى فى الخلوات ، ومن الأنس به الأنس بالعلماء والتقرب إلى الأولياء وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير وسعة الصدور والروح عندهم ، ومن الرجاء سقوط ثقل المعاونة على البر والتقوى لوجود حلاوة الأعمال والمسارعة إليها والحث لأهلها عليها والحزن على فوتها والفرح بدركها ، ومن الرجاء التلذذ بدوام حسن الاقبال والتنعم بمناجاة ذى الجلال وحسن الاصغاء إلى محادثة القريب والتلطف فى التملق للحبيب وحسن الظن به فى العفو الجميل ومنال الفضل الجزيل.
وقال بعض العارفين : للتوحيد نور وللشرك نار ، ونور التوحيد أحرق للسان الموحدين من نار الشرك لحسنات المشرك . وقدكان يحي بن معاذ يقول فى مقامات الرجاء : إذا كان توحيد ساعة يحبط ذنوب خمسين سنة فتوحيد خمسين سنة ماذا يصنع بالذنوب ؟ وقد قال سهل : لايصح الخوف إلا لأهل الرجاء . وقال مرة : العلماء مقطوعون إلا الخائفين والخائفون مقطوعون إلا الراجين . وكان يجعل الرجاء مقاما فى المحبة وهو عند العلماء أول مقام المحبة ثم يعلو فى الحب على قدر ارتفاعه فى الرجاء وحسن الظن . وفى الخبر «إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يفزعهم وينفرهم» وقال بشر الحافى : سكون النفس إلى المدح أضر عليها من المعاصى . ورأى يوسف بن الحسين مخنثا فأعرض عنه إزراء عليه فالتفت المخنث إليه فقال وأنت أيضاً يكفيك ما بك ففزع من قوله وقال : أى شيء بى ؟ قال لأن عندك أنك خيرمنى فاعترف يوسف بذلك فتاب واستغفر ، وكان بعض الراجين يفهم من قوله تعالي إذا تلا « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » يرجو بذلك بوادى الجود والكرم والإحسان مالم يحتسبه فى الدنيا قط . ويقال إن حملة العرش يتجاوبون بأصوات : سبحانك على حلمك بعد علمك سبحانك على عفوك بعد قدرتك ، فللراجين من العارفين فهوم من السمع للكلام نحو علو نظرهم عن سمو علومهم بمعانى الصفات ، فكل صاحب مقام يشهد من مقامه ويسمع من حيث شهادته ، فأعلاهم شهادة الصديقين ثم الشهداء ثم الصالحين ثم خصوص المؤمنين ، فيه تبارك وتعالى استدلوا عليه وبه نظروا إليه « هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » وكان سهل يقول : المؤمن يعيش فى سعة الرحمة والمؤمن يعيش فى سعة الحلم فصفاته تعالى كاملات ، فمن شهد ترجيح بعضها على بعض دخل عليه النقص من مشاهدته لتصور علمه عن تمام علم من فوقه من الشهداء ولأجل مقامه المراد به دون طريق الصديقين من الأقوياء فعاد ذلك علي العبد فصار مقاما له فى القرب والبعد ، تعالى وصف المشهوذ عن النقصان والحد ومثل الرجاء من الخوف مثل الرخصة من العزائم. وفى الخبر «إن الله تعالي يحب أن يؤتى برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» وفى لفظ آخر أبلغ من هذا وأوكد « إن الله تعالى يحب أن تقبل رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » وفى الخبر « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض نفسك إلى عبادة الله تعالى وخير الدين أيسره » وقال «هلك المتعمقون هلك المتنطعون» وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى نظر إليه منتبذاً وحدانياً ، فقال مالك وحدانياً. فقال عاديت الخلق فيك ، قال أو ما علمت أن محبتى أن تعطف على عبادي وتأخذ عليهم بالفضل هنالك أكتبك

من أوليائي وأحبابى ولا تنظر إلى عبيدى نظرة جفاء ولا قسوة فاذا أنت قد أبطلت أجرك فاحفظ عنى ثلاثاً : خالص حبيبى مخالصة وخالق أهل الدنيا مخالقة ودينك فقلدنيه ، وروينا عن الضحاك « إن العبد ليدنو من ربه عند العرض فيقول له عبدى أتحصى عملك فيقول إلهى كيف أحصيه من دونك وأنت الحافظ للأشياء فيذكره الله تعالى جميع ذنوبه فى الدنيا ويقول لم أجعل للذنوب رائحة توجد منك ولم أجعل فى وجهك شيها وأنا أغفرها لك اليوم على ما كان منك بإيمانك بى وتصديقك المرسلين » ومن الرجاء شدة الشوق إلى ما شوق إليه الكريم وسرعة التنافس فى كل نفيس ندب إليه الرحيم ، والأخبار فى حقيقة الرجاء تزيد المغترين اغترارا وتزيد المستدرجين بالستر والنعم خسارا ، وهو مزيد التوابين الصادقين وقرة عين للمحبين المخلصين وسرور لأهل الكرم والحياء وروح وارتياح لذوى العصمة والوفاء ينصح به كرمهم ويشتد عنده حياؤهم وترتاح إليه عقولهم فهؤلاء يستخرج منهم الرجاء وحسن الظن من العبادات مالا يستخرجه الخوف ، إن المخاوف تقطع عن أكثر المعاملات فصار الرجاء طريقا لأهله وصاروا واجدين به كما قال عمر رضى الله عنه : رحم الله صهيبا لو لم يخف الله لم يعصه : أى يترك المعاصي للرجاء لا للخوف فصار الرجاء طريقه فهؤلاء هم الراجون حقا وهذه علامتهم ، ولمثل هؤلاء ذكرنا الأسباب التى توجب الرجاء وتولد حسن الظن فى قلوب أهل الصفاء المعصومين من الهوى الموفقين لحسن خدمة المولى فهذه جمل أحكام الرجاء وأوصاف الراجين فمن تحقق بجميعها فقد استحق درجات أهل الرجاء وهو عند الله تعالى من المقربين ومن كان فيه وصف من هـذه الأوصاف فله مقام من الرجاء .

واعلم أن مقامات اليقين لا يزيل بعضها بعضا ، فمن غلب عليه حال منها عن وجد مشاهدته وصف بما غلب عليه واستحق ما سوى ذلك من المقامات فيه ، ومن عمل بشرط مقام منها فقام بحكم الله فيه نقل إلى ما سواه وكان المقام الأول له علما . والثانى الذى أقيم فيه له وجدا فكتم الوجد لأنه سره وعبر عن العلم لأنه قد جاوزه فصار علانيته ومقام الرجاء هو جند من جنود الله يستخرج من بعض العباد مالا يستخرج غيره لأن بعض القلوب تلين وتستجيب عن مشاهدة الكرم والإحسان ويقبل ويطمئن معاملة النعم والامتنان مالا يوجد ذلك منها عند التخويف والترهيب بل قد يقطعها ذلك ويوحشها إذ قد جعل الرجاء طريقها فوجدت فيه قلوبها. إلى هنا انتهى كلام صاحب القوت ، وقد حذفت منها أشياء كثيرة .

قال المصنف رحمه الله :

فصل

(فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة) الخامسة : وهى عقبة البواعث (فى تمام الاحتياط

وَالتَّحَرُّزِ وَحَدِّ الرِّعَايَةِ ، فَإِنَّهَا عَقَبَةٌ دَقِيقَةُ الْمَسْلَكِ ، خَطِرَةُ الطَّرِيقِ ، وَذَلِكَ أَنَّ طَرِيقَهَا بَيْنَ طَرِيقَيْنِ مَخُوفَيْنِ مُهْلِكَيْنِ : أَحَدُهُمَا طَرِيقُ الْأَمْنِ . وَالثَّانِى طَرِيقُ الْيَأْسِ ، وَطَرِيقُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ هُوَ الطَّرِيقُ الْعَدْلُ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ الْجَائِرَيْنِ ، فَإِنْ غَلَبَ الرَّجَاءُ عَلَيْكَ حَتَّى فَقَدْتَ الْخَوْفَ أَلْبَتَّةَ وَقَعْتَ فِى طَرِيقِ الْأَمْنِ : (وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) وَإِنْ غَلَبَ عَلَيْكَ الْخَوْفُ حَتَّى فَقَدْتَ الرَّجَاءَ أَلْبَتَّةَ ، وَقَعْتَ فِى طَرِيقِ الْيَأْسِ (وَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) فَإِنْ كُنْتَ رَكِبْتَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَاعْتَصَمْتَ بِهِمَا جَمِيعاً فَهُوَ الطَّرِيقُ الْعَدْلُ الْمُسْتَقِيمُ ، الَّتِى هِىَ سَبِيلُ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَصْفِيَائِهِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً

والتحرز) والتحفظ (وحد الرعاية) أى الحفظ (فإنها) أى هذه العقبة (عقبة دقيقة المسلك) أى المدخل (خطرة الطريق وذلك) أى بيان الدقيقة والخطرة (أن طريقها) أى العقبة (بين طريقين مخوفين مهلكين أحدهما طريق الأمن) من مكر الله (والثاني طريق اليأس) من رحمة الله (وطريق الرجاء والخوف هو الطريق العدل) أى الوسط (بين الطريقين) أى طريق الأمن واليأس (الجائرين) أى المائلين عن الطريق المستقيم (فان غلب الرجاء عليك حتي فقدت الخوف ألبتة) أى قطعا (وقعت فى طريق الأمن ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) الذين خسروا أنفسهم بالكفر وترك النظر والاعتبار وفى الكتاب العزيز « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » بالفاء : يعنى أنه لا يأمن أن يكون ما أعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجا إلا من خسر في أخراه وهلك مع الهالكين كذا فى الخازن (وإن غلب عليك الخوف حتى فقدت الرجاء ألبتة وقعت فى طريق اليأس ولا ييأس من روح الله) أى ولا يقنط من فرجه وتنفيسه (إلا القوم الكافرون) بالله وصفاته فان العارف لا يقنط من رحمة الله فى شىء من الأحوال وفى الكتاب العزيز « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » قال النسفى : لأن من آمن يعلم أنه متقلب فى رحمة الله ونعمته ، وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه فى نعمته فييأس من رحمته (فان كنت ركبت بين الخوف والرجاء واعتصمت بهما) أى الخوف والرجاء (جميعا فهو) أى الركوب والسلوك بينهما (الطريق العدل المستقيم التى هى سبيل أولياء الله وأصفيائه الذين وصفهم الله تعالي بقوله إنهم) يعنى المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (كانوا يسارعون فى الخيرات) يبادرون إلى أبواب الخيرات (ويدعوننا رغبا ورهبا)

وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) فَإِذَا ظَهَرَتْ لَكَ فِى هٰذِهِ الْعَقَبَةِ طُرُقٌ ثَلَاثَةٌ : طَرِيقُ الْأَمْنِ وَالْجُرْأَةِ ، وَطَرِيقُ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ ، وَطَرِيقُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ مُمْتَدًّا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ مِلْتَ عَنْهُ بِقَدَمٍ إِلَى يَمِينِكَ أَوْ يَسَارِكَ وَقَعْتَ فِى الْمُهْلِكِينَ وَهَلَكْتَ مَعَ الْهَالِكِينَ ، ثُمَّ الشَّأْنُ أَنَّ الطَّرِيقَيْنِ الْجَائِرَيْنِ الْمُهْلِكَيْنِ أَوْسَعُ مَجَالاً وَأَكْثَرُ دَاعِياً ، وَأَسْهَلُ سُلُوكاً مِنَ الطَّرِيقِ الْعَدْلِ ، لِأَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ مِنْ جَانِبِ الْأَمْنِ ، رَأَيْتَ مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ وَكَثْرَةِ فَضْلِهِ وَغَايَةِ جُودِهِ ، مَالاَ يَبْقَى لَكَ مَعَهُ خَوْفٌ ، فَتَتَّكِلُ عَلَى ذٰلِكَ بِمَرَّةٍ وَتَأْمَنُ ، وَإِنْ نَظَرْتَ مِنْ جَانِبِ الْخَوْفِ ، رَأَيْتَ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَسِيَاسَتِهِ وَكَثْرَةِ هَيْبَتِهِ ، وَدِقَّةِ أَمْرِهِ ، وَغَايَةِ مُنَاقَشَتِهِ ، مَعَ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ ، مَا لاَ يَكَادُ يَبْقَى مَعَهُ رَجَاءٌ فَتَيْأَسُ بِمَرَّةٍ وَتَقْنَطُ ، فَتَحْتَاجُ إِذَنْ أَنْ لاَتَنْظُرَ إِلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ فَقَطْ ، حَتَّى تَتَّكِلَ وَتَأْمَنَ ، وَلاَ إِلَى عَظِيمِ الْهَيْبَةِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَقَطْ ،

ذوى رغب أو راغبين فى الثواب راجين للاجابة أوفى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية (وكانوا لنا خاشعين) أى متذللين مخبتين أو دائمي الوجل ، والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال (فإذا) أى إذا عرفت ما ذكر (ظهرت لك فى هذه العقبة طرق ثلاثة) : أحدها (طريق الأمن والجرأة) بضم الجيم : أى الشجاعة . (و) ثانيها (طريق اليأس والقنوط) عطف تفسير . فى المصباح : القنوط بالضم الإياس من رحمة الله تعالى (و) ثالثها (طريق الخوف والرجاء ممتدا) أى مطولا (بينهما) أى بين الطريقين الجائرين (فإن ملت) أى عدلت (عنه) أى عن طريق الخوف والرجاء (بقدم إلى يمينك أو يسارك وقعت فى المهلكين) وهما الأمن واليأس (وهلكت مع الهالكين ، ثم الشأن أن الطريقين الجائرين المهلكين أوسع مجالا) أى ميدانا ومدخلا (وأكثر داعيا وأسهل سلوكا من الطريق العدل) المستقيم الذى هو طريق الخوف والرجاء (لأنك إذا نظرت من جانب الأمن) والجرأة (رأيت من سعة رحمة الله وكثرة فضله وغاية جوده ما لا يبقى لك معه خوف فتتكل) أى تعتمد (على ذلك) أى سعة الرحمة وكثرة الفضل والجود (بمرة وتأمن وإن نظرت من جانب الخوف رأيت من عظيم قدرة الله تعالى وسياسته) أى تدبيره (وكثرة هيبته ودقة أمره وغاية مناقشته) أى استقصائه فى الحساب (مع أوليائه وأصفيائه مالا يكاد يبقى معه رجاء فتيأس) أى تقنط (بمرة وتقنط) بكسر النون أو فتحها من بابى ضرب وتعب كما فى المصباح (فتحتاج إذن) أى حين إذ عدم الخوف فى النظر الأول والرجاء فى الثاني (أن لاتنظر إلى سعة رحمة الله فقط) أى دون عظيم سياسته وهيبته (حتى تتكل وتأمن ولا) تنظر (إلى عظيم) السياسة و (الهيبة والمناقشة فقط) أى دون سعة رحمة الله (حتى

حَتَّى تَقْنَطَ وَتَيْأَسَ ، بَلْ تَنْظُرَ إِلَى هٰذَا وَإِلَى هٰذَا جَمِيعاً ، وَتَأْخُذَ مِنْ هٰذَا بَعْضًا وَمِنْ هٰذَا بَعْضاً ، فَتَرْكَبَ بَيْنَهُمَا طَرِيقاً دَقِيقاً وَتَسْلُكَ ذٰلِكَ لِتَسْلَمَ . فَإِنَّ طَرِيقَ الرَّجَاءِ الْمَحْضِ سَهْلٌ وَاسِعٌ عَرِيضٌ ، وَعَاقِبَتُهُ تُؤَدِّيكَ إِلَى الْأَمْنِ وَالْخُسْرَانِ . وَطَرِيقُ الْخَوْفِ الْمَحْضِ وَاسِعٌ عَرِيضٌ ، وَعَاقِبَتُهُ تُؤَدِّيكَ إِلَى الضَّلَالِ . وَطَرِيقُ الْعَدْلِ بَيْنَهُمَا ، أَعْنِي طَرِيقَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ طَرِيقاً دَقِيقاً عَسِراً فَإِنَّهُ سَبِيلٌ سَالِمٌ ، وَمَنْهَجٌ بَيِّنٌ يُؤَدِّي إِلَى الْغُفْرَانِ وَالْإِحْسَانِ ، ثُمَّ إِلَى الْجِنَانِ وَالرِّضْوَانِ ، وَلِقَاءِ الْمَلِكِ الرَّحْمٰنِ سُبْحَانَهُ ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي أَبْنَاءِ هٰذَا السَّبِيلِ : (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً) ثُمَّ قَالَ : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

حتى تقنط وتيأس بل تنظر إلى هذا) أى سعة رحمة الله (وإلى هذا) أى عظيم الهيبة (جميعا وتأخذ من هذا) أى الرحمة (بعضا و) تأخذ (من هذا) أى عظيم الهيبة (بعضا فتركب بينهما) أى بين الطريقين المذكورين (طريقا دقيقا وتسلك ذلك) أى الطريق الدقيق (لتسلم) من الهلاك (فإن طريق الرجاء المحض) أى الخالص عن شائبة الخوف (سهل واسع عريض ، وعاقبته) أى الرجاء المحض (تؤديك إلى الأمن والخسران ، وطريق الخوف المحض) أى الخالص عن شائبة الرجاء (واسع عريض وعاقبته) أى الخوف المحض (تؤديك إلى الضلال وطريق العدل بينهما . أعنى طريق الخوف والرجاء ، وذلك) أى الطريق العدل (وإن كان طريقا دقيقا عسرا فإنه) أى الطريق العدل (سبيل سالم ومنهج) أى طريق (بين) ظاهر (يؤدى إلى الغفران والإحسان ثم) يؤدى (إلى الجنان والرضوان ولقاء الملك الرحمن سبحانه . أما تسمع قوله تعالى فى أبناء هذا السبيل) أى الذين يقيمون فى طريق الخوف والرجاء . قال العلامة عبد الحق : الإبن الولد الذكر ويكنى به فى بعض الأشياء عن الصاحب كابن عرس وابن ماء على الاستعارة والتشبيه ، ويقال أيضا لكل ما يحصل من جهة شىء أو تربيته أو كثرة خدمته أو قيامه بأمره أو توجهه إليه أو إقامته عليه هو ابنه كما يقال : أبناء العلم وأبناء السبيل وأبناء الدنيا (يدعون ربهم خوفا) من سخطه (وطمعا) فى رحمته (ثم قال) تعالى (فلا تعلم نفس) أى فليس تعلم أنفسهم (ما أخفى لهم) ما أعد لهم وما رفع لهم وما دخر لهم (من قرة أعين) أى مما تقر به أعينهم فلا يلتفتون إلى غيره ، قال ابن عباس : هذا مما لا تفسير له . وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم (جزاء بما كانوا يعملون) أى من الطاعات فى دار الدنيا . روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تبارك وتعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن

فَتَأَمَّلْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ جِدًّا وَتَشَمَّرْ وَتَنَبَّهْ لِلْأَمْرِ ، فَإِنَّهُ لَا يَجِيءُ بِالْهُوَيْنَا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَتَأَتَّى لَكَ سُلُوكُ هٰذِهِ الطَّرِيقِ ، وَحَمْلُ هٰذِهِ النَّفْسِ الْجَمُوحِ الْكَسْلَى عَنِ الْخَيْرِ بِاجْتِنَابِ الْمَحْبُوبِ عِنْدَهَا ، وَاكْتِسَابِ الطَّاعَاتِ الثَّقِيلَةِ عَلَيْهَا ، إِلَّا بِالتَّحَفُّظِ بِثَلَاثَةِ أُصُولٍ ، وَالتَّذَكُّرِ لَهَا عَلَى سَبِيلِ الدَّوَامِ ، مِنْ غَيْرِ فَتْرَةٍ وَلَا غَفْلَةٍ ، أَحَدُهَا : ذِكْرُ أَقْوَالِهِ تَعَالَى سُبْحَانَهُ فِى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ . وَالثَّانِى ذِكْرُ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ فِى الْأَخْذِ وَالْعَفْوِ . وَالثَّالِثُ ذِكْرُ جَزَائِهِ لِلْعِبَادِ فِى الْمَعَادِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ؛ وَتَفْصِيلُ كُلِّ فَصْلٍ مِنْهَا يَحْتَاجُ إِلَى صُحُفٍ كَثِيرَةٍ ، وَلِأَجْلِهَا صَنَّفْنَا كِتَابَ : [تَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ] وَنَحْنُ نُشِيرُ فِى هٰذَا الْكِتَابِ إِلَى كَلِمَاتٍ تُوقِفُكَ عَلَى الْمَقْصُودِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة عين» (فتأمل) أيها الرجل (هـذه الجملة) التى ذكرناها (جدا) أى نهاية ومبالغة (وتشمر) أى تهيأ (وتنبه) أى تيقظ (للأمر) وهو السلوك فى الطريق المستقيم (فإنه) أى هذا الأمر (لا يجىء بالهوينا) تصغير الهونى ، والهونى تأنيث الأهون : بمعنى الأسهل (والله ولى التوفيق) والعصمة (ثم اعلم أنه) أى الحال والشأن (لا يتأتى لك سلوك هذه الطريق) العدل بين الطريقين الجائرين (و) لا يتأتى لك (حمل هذه النفس الجموح) أى التى لا تنقاد (الكسلى) أى المتثاقلة (عن الخير باجتناب المحبوب) من المشتهيات (عندها واكتساب الطاعات الثقيلة عليها) أى النفس (إلا بالتحفظ بثلاثة أصول والتذكر لها) أى لهذه الثلاثة (على سبيل الدوام من غير فترة) أى ضعف وانقطاع (ولا غفلة : أحدها) أى الأصول الثلاثة (ذكر أقواله تعالى سبحانه فى الترغيب والترهيب) أى التخويف . (والثانى ذكر أفعاله سبحانه فى الأخذ) بالعذاب (والعفو . والثالث ذكر جزائه) تعالى (للعباد فى المعاد) أى فى الآخرة (من الثواب) للمطيعين (والعقاب) للعاصين (وتفصيل كل فصل منها) أى من الأصول الثلاثة (يحتاج) أى التفصيل (إلى صحف كثيرة) وذكره فى هذا الكتاب يخرجه عن شرطه وهو الاختصار (ولأجلها) أى الأصول الثلاثة (صنفنا كتاب تنبيه الغافلين ، ونحن نشير فى هذا الكتاب) أعنى منهاج العابدين (إلى كلمات توقفك على المقصود إن شاء الله عز وجل ، والله ولى التوفيق) .

﴿الأصلُ الأوّل : أقواله سبحانهُ وتعالى﴾

تَدَبَّرْ أَيُّهَا الرجلُ مَافى الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، مِنْ آيَاتِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالتَّرْجِيَةِ ، وَالتَّخْوِيفِ ؛ فَمِنْ آيَاتِ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تعَالى : (لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً

﴿الأصل الأول (من الثلاثة المذكورة) أقواله سبحانه وتعالى﴾ (تدبر) أى تفكر (أيها الرجل مافى الكتاب العزيز من آيات الترغيب والترهيب والترجية والتخويف ، فمن آيات الرجاء قوله تعالى) فى سورة الزمر (لا تقنطوا من رحمة الله) لا تيأسوا من مغفرته أولا وتفضله ثانيا . وذكر الخازن عن ابن عباس « أن سبب نزول هذه الآية أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا وانتهكوا الحرمات فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد إن الذى تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا بأن لما عملنا كفارة فنزلت « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر إلى قوله : فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » قال يبدل شركهم إيمانا وزناهم إحصانا ، ونزلت « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » أخرجه النسائى . وعن ابن عباس أيضا قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشى يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعونى إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما يضاعف له العذاب ، وأنا قد فعلت ذلك كله فأنزل الله تعالى « إلا من تاب وآمن وعمل صالحا » فقال وحشى هذا شرط شديد لعلى لا أقدر عليه فهل غير ذلك ؟ فأنزل الله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » فقال وحشى أرانى بعد فى شبهة ، فلا أدرى أيغفرلي أم لا فأنزل الله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ، فقال وحشى نعم هذا فجاء فأسلم . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآيات فى عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا قوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا به فأنزل الله تعالى هذه الآية فكتبها عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيده ثم بعث بها إلى عياش بن أبى ربيعة والوليد ابن الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا جميعا وهاجروا . وعن ابن عمر أيضا قال: كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أو نقول : ليس شىء من حسناتنا إلا وهى مقبولة حتى نزلت « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » فلما نزلت هذه الآية قلنا ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقال الكبائر والفواحش . قال فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها قلنا هلك فنزلت هذه الآية فكففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا من أصحابنا من أصاب شيئا من ذلك خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئا رجونا له (إن الله يغفر الذنوب جميعا) عفوا ولو بعد تعذيب ، وتقييده

بالتوبة خلاف الظاهر . ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك قوله « إن الله لا يغفر أن يشرك به » الآية ذكره البيضاوى .

فصل : فى ذكر أحاديث تتعلق بالآية

روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه دخل المسجد فإذا قاص يقص وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال لم تقنط الناس ؟ ثم قرأ « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمه الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » . وروى عن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى » أخرجه الترمذى ، وقال حديث حسن غريب . وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ثم خرج يسأل هل له توبة ؟ فأتى راهبا فسأله ، فقال هل لى من توبة ؟ قال لا فقتله وجعل يسأل ، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فضرب صدره تخوفا فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تقربى وأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى ، وقال قيسوا ما بينهما فوجد أقرب إلى هذه بشبر فغفر له » لفظ البخارى . ولمسلم قال « فدل على راهب فأتاه ، فقال له إن رجلا قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال لا فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا كان نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربى ، وإلى هذه أن تباعدى ، وقال : قيسوا ما بينهما فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض الذى أراد فقبضته ملائكة الرحمة » .

وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان رجل أسرف على نفسه » وفى رواية « لم يعمل خيرا قط فلما حضره الموت قال لبنيه إذا أنا مت فأحرقونى ثم اطحنونى ، ثم ذرونى فى الريح فو الله لئن قدر على ربى ليعذبنى عذابا ماعذبه أحدا فلما مات فعل به ذلك فأمر الله تعالى الأرض فقال اجمعى ما فيك منه ففعلت فإذا هو قائم فقال : ماحملك على ماصنعت ، قال : خشيتك يارب أوقال مخافتك فغفر له بذلك » وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كان فى بنى إسرائيل رجلان متحابان أحدهما مذنب والآخر فى العبادة مجتهد فكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول له أقصر فوجده يوما على ذنب فقال له أقصر فقبض الله أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال الرب تبارك وتعالى للمجتهد أكنت على ما فى يدى قادرا ، وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر

وَمَنْ يَغْفِرُ الذنُوبَ إلاّ اللهُ ـ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقابِلُ التوْبِ ـ وَهُوَ الّذِى يَقبَلُ التوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ

اذهبوا به إلى النار » قال أبو هريرة تكلم والله بكلمة أو بقت دنياه وآخرته . أخرجه أبو داود عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل يا ابن آدم إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك ماكان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى يا ابن آدم لو أنك أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » أخرجه الترمذى . قوله عنان السماء : العنان السحاب ، وقيل هو ما عن لك منها ، وقراب الأرض بضم القاف : هو مايقارب ملأها . ومن آيات الرجاء قوله تعالى في سورة آل عمران « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » (ومن) أى لا أحد (يغفر الذنوب إلا الله) وصف نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة ، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له وأنه لا مفزع للمذنبين إلا إلى فضله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته وفيه تنبيه على أن العبد لا يطلب المغفرة إلا منه ، وأنه القادر على عقاب الذنب وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه فثبت أنه لا يجوز طلب المغفرة إلا منه . ومنها أيضا قوله تعالى فى سورة المؤمن « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (غافر الذنب) أى ساتر ذنب المؤمنين (وقابل التوب)» قابل توبة الراجعين ، والتوب والثوب والأوب أخوات ، وإدخال الواو فى وقابل التوب لنكتة وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وأن يجعلها محاءة للذنوب كأن لم يذنب كأنه قال جامع المغفرة والقبول . وروى أن عمر رضى الله عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشأم فقيل له تتابع فى هذا الشراب فقال عمر لكاتبه اكتب من عمر إلى فلان سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو بسم الله الرحمن الرحيم « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير » وختم الكتاب وقال لرسوله لاتدفعه إليه حتى تجده صاحيا، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى وحذرني عقابه فلم يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته ، فلما بلغ عمر أمره قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا كم زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا له الله أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه . ومنها قوله تعالى فى سورة الشورى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما تابوا عنه : يقال قبلت منه الشىء إذا أخذته منه وجعلته مبدأ قبولى ، ويقال قبلته عنه : أى عزلته عنه وأبنته عنه ! والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لايعود وإن كان لعبد فيه حق لم يكن بد من التقضى على طريقه . وقال على رضى الله عنه

وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ـ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ـ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ـ

هو اسم يقع على ستة معان : على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته . وعن السدى هو صدق العزيمة على ترك الذنوب والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب . وعن غيره هو أن يجد حلاوة الذنب فى القلب عند ذكره . وعن سهل هو الانتقال من الأحوال المذمومة إلي الأحوال المحمودة . وعن الجنيد هو الإعراض عما دون الله (ويعفو عن السيئات) صغيرها وكبيرها لمن يشاء ، ومنها قوله تعالى فى سورة الأنعام (كتب ربكم) أى فرض وقضى (على نفسه الرحمة) وهذا يفيد الوجوب . وسبب هذا أنه تعالى يتصرف فى عباده كيف يشاء وأراد فأوجب على نفسه الرحمة على سبيل الفضل والكرم لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، كذا ذكره الخازن ، والمراد بالرحمة مايعم الدارين ومن ذلك الهداية إلى معرفته والعلم بتوحيده بنصب الأدلة وإنزال الكتب والإمهال على الكفر . ومنها قوله تعالى فى سورة الأعراف (ورحمتى وسعت كل شيء) يعنى أن رحمته سبحانه وتعالى عمت خلقه كلهم . وقال بعضهم هذا من العام أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر فى الدنيا وهى للمؤمنين خاصة فى الآخرة ، وقيل للمؤمنين خاصة فى الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله فاذاكان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة . قال جماعة من المفسرين لما نزلت « ورحمتى وسعت كل شيء » تطاول إبليس إليها وقال أنا من ذلك الشيء فنزعها الله تعالى من إبليس فقال الله تعالى (فسأكتبها) فسأثبتها فى الآخرة أو فسأكتبها كتبة خاصة منكم يابنى إسرائيل (للذين يتقون) ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » فأيس إبليس منها . وقالت اليهود نحن نتقى ونؤتى الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله من اليهود وأثبتها لهذه الأمة . فقال تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى » الآية . وقال نوف البكالى : لما اختار موسى من قومه سبعين رجلا قال الله تعالى لموسى أجعل لك الأرض مسجدا وطهورا تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مرحاض أو حمام أو قبر ، وأجعل السكينة فى قلوبكم وأجعلكم تقرءون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبدوالصغير والكبير . فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لانريد أن نصلى إلا فى الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة فى قلوبنا ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ولا نريد أن نقرأها إلا نظرا . قال الله تعالى « فسأكتبها للذين يتقون إلى قوله المفلحون » فجعلها الله تعالى لهذه الأمة فقال موسى رب اجعلنى نبيهم ، قال نبيهم منهم . قال اجعلنى منهم ، قال إنك لن تدركهم . قال موسى يا رب أتيتك بوفد بنى إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » فرضى موسى .

إنّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ — وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) فَهَذِهِ وَنَحْوُهَا آيَاتُ الرَّجاءِ .

وَمِنْ آيَاتِ الْخَوْفِ وَالسِّيَاسَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ — أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ — أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى —

أما التفسير فقوله « الذين يتقون » يعنى الشرك وسائر مانهوا عنه لأن جميع التكاليف محصورة في نوعين : الأول التروك وهي الأشياء التى يجب على الإنسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها وإليه الإشارة بقوله تعالى «للذين يتقون» . والثانى الأفعال المأمور بها وتلك الأعمال بدنية وقلبية: أما البدنية فإليها الإشارة بقوله «ويؤتون الزكاة» وهذه الآية وإن كانت فى حق المال لكن يختص البدن باخراجها ، والأعمال القلبية كالإيمان والمغفرة وإليها الإشارة بقوله تعالى « والذين هم بآياتنا يؤمنون » ومنها قوله تعالى فى سورة البقرة « وما كان الله ليضيع إيمانكم » (إن الله بالناس لرءوف رحيم) يعنى لا يضيع أجورهم ، والرأفة أخص من الرحمة ، وقيل الرأفة أشد من الرحمة ، وقيل الرأفة الرحمة ، وقيل فى الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهى دفع المكروه وإزالة الضرر . وأما الرحمة فانها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه أيضا جميع الأفضال والإنعام فذكر الله الرأفة أولا بمعنى أنه لايضيع أعمالهم ، ثم ذكر الرحمة ثانيا لأنها أعم وأشمل . ومنها قوله تعالى فى سورة الأحزاب « هو الذى يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور (وكان بالمؤمنين رحيما) » فيه بشارة لجميع المؤمنين وإشارة إلى أن قوله يصلى عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحى ، بل هو عام لجميع المسلمين كما فى الخازن (فهذه) أى الآيات المذكورة (ونحوها آيات الرجاء ، ومن آيات الخوف والسياسة قوله تعالى) فى سورة الزمر (ياعباد فاتقون) أى خافون ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى ، ومن آيات الخوف والسياسة قوله تعالى فى سورة المؤمنين (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) توبيخ على تغافلهم وعبثا حال بمعنى عابثين أو مفعول له : أى إنا لم نخلقكم تلهيا بكم وإنما خلقناكم لتعبدكم ونجازيكم على أعمالكم . وهو كالدليل على البعث كما فى البيضاوى (وأنكم إلينالاترجعون) أى فى دار الآخرة للجزاء . روى البغوى بسنده عن الحسن «أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه فى أذنه — أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون — حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا رقيت فى أذنه فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال » . ومن الآيات المذكورة قوله تعالى فى سورة القيامة (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) أى مهملا لا يؤمر ولا ينهى ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ — مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا —

فى الآخرة . ومنها قوله تعالى فى سورة النساء (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب) أى ليس ما وعد الله من الثواب ينال بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأمانى أهل الكتاب وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح ، وقيل ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . روي « أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم . وقال المسلمون نحن أولى بالله منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة فنزلت » وقيل الخطاب مع المشركين ويدل عليه تقدم ذكرهم : أى ليس الأمر بأمانى المشركين وهو قولهم لا جنة ولا نار وقولهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيرا منهم وأحسن حالا « ولا أمانى أهل الكتاب » وهو قولهم « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » وقولهم « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » ، ثم قرر ذلك وقال (من يعمل سوءا يجز به) عاجلا أو آجلا لما روى « أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله عنه فمن ينجو مع هذا يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام أما تحزن أما تمرض أما يصيبك اللأواء ؟ قال بلى يا رسول الله . قال هو ذاك » كذا ذكره البيضاوى . وفى الخازن قال الضحاك يقول : ليس لكم ما تمنيتم وليس لأهل الكتاب ما تمنوا ، ولكن من عمل سوءا يعنى شركا فمات عليه يجزبه النار . وقال الحسن : هذا فى حق الكفار خاصة لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير ، ولا يجزى المؤمن بسيء عمله ولكن يجزى بأحسن عمله ويتجاوز عن سيئاته ، ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله (ولا يجد له من دون الله وليا) قريبا ينفعه (ولا نصيرا) مانعا يمنعه وهذا هو الكافر . فأما المؤمن فله ولى ونصير ، وقال آخرون : هذه الآية في حق كل من عمل سوءا من مسلم ونصرانى وكافر . قال ابن عباس رضى الله عنهما هى عامة فى حق كل من عمل سوءا يجز به إلا أن يتوب قبل أن يموت فيتوب الله عليه ، وقال ابن عباس : فى رواية أبى صالح عنه « لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين مشقة شديدة وقالوا يا رسول الله وأينا من لم يعمل سوءا غيرك فكيف الجزاء ؟ قال : منه ما يكون فى الدنيا ، فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات ، ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته وبقيت له تسع حسنات ، فويل لمن غلبت آحاده أعشاره ، وأما من كان جزاؤه فى الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر فى الفضل فيعطى الجزاء فى الجنة فيؤتى كل ذى فضل فضله » . ويدل على صحة هذا القول ما روى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال « لما نزلت من يعمل سوءا يجز به » بلغت من المسلمين مبلغا شديدا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها » أخرجه مسلم . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال « كنت

وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً — وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ — وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُسَلِّمَنَا بِرَحْمَتِهِ .

وَمِنَ الآيَاتِ اللَّطِيفَةِ الجَامِعَةِ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (نَبِّئْ عِبَادِي

عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت : « من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت على؟ قلت: بلى يا رسول الله : فأقرأنيها فلا أعلم إلا أنى وجدت نقصا ما فى ظهرى فتمطأت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شأنك يا أبا بكر ؟ فقلت يارسول الله بأبى أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءا وإنا لمجزيون بأعمالنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجتمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة » أخرجه الترمذى ، وقال حديث غريب وفى إسناده مقال ، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى بكر وليس له إسناد صحيح . فإن قلنا هذه الآية خاصة فى حق الكفار فتأويلها ظاهر ؛ وإن قلنا إنها فى حق كل عامل سوءا من مسلم وكافر فانه لاولى لأحد من دون الله يوم القيامة ولا ناصر ، فالمؤمنون لا ولى لهم غير الله وشفاعة الشافعين تكون بإذن الله فليس يمنع أحد أحدا عن الله ، ومنها قوله تعالى فىسورة الكهف «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا (وهم يحسبون) أى يظنون (أنهم يحسنون صنعا ») أى عملا لعجبهم واعتقادهم أنهم على الحق . ومنها قوله تعالى فى سورة الزمر « ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ») أى ظهر لهم حين بعثوا مالم يحتسبوا أنه نازل بهم فى الآخرة ، وقيل ظنوا أن لهم حسنات فبدت لهم سيئات . المعنى أنهم يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأصنام فلما عوقبوا عليها بدالهم من الله مالم يحتسبوا ، وروى أن محمد بن المنكدر جزع عند الموت ، فقيل له فى ذلك فقال : أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب . ومنها قوله تعالى فى سورة الفرقان (« وقدمنا) عمدنا (إلى ما عملوا) فى كفرهم (من عمل) من الخير كصدقة وصلة رحم وقرى ضيف وإغاثة ملهوف فى الدنيا (فجعلناه هباء منثورا ») أي باطلا لا ثواب له لأنهم لم يعملوه لله عز وجل ، ومنه الحديث الصحيح « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » والهباء : هو ما يرى فى الكوة كالغبار إذا وقعت الشمس فيها فلا يمس بالأيدى ولا يرى فى الظل والمنثور المفرق . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر ، وقيل هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير من الغبار (نسأل الله تعالى أن يسلمنا) من الوقوع فى المهالك (برحمته . ومن الآيات اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء قوله تعالى) فىسورة الحجر (نبئ) خبر يا محمد (عبادى

أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) ثُمَّ قَالَ فِى عَقِبِهِ : (وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) لِئَلَّا يَسْتَوْلِى عَلَيْكَ الرَّجَاءُ بِمَرَّةٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (شَدِيدُ الْعِقَابِ) ثُمَّ قَالَ فِى عَقِبِهِ : (ذِى الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) لِئَلَّا يَسْتَوْلِى عَلَيْكَ الْخَوْفُ بِمَرَّةٍ ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ . قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)

أنى أنا الغفور الرحيم) . قال ابن عباس : يعنى لمن تاب منهم ، وروى « أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال : أتضحكون وبين أيديكم النار ؟ فنزل جبريل بهذه الآية وقال : يقول لك ربك يامحمد مم تقنط عبادى ؟ » ذكره البغوى بغير سند (ثم قال) تعالى (فى عقبه) أى عقب هذا القول المذكور (وأن عذابى هو العذاب الأليم) . قال قتادة : بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه » يعنى لقتل نفسه . روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأدخل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار » وفى الآية لطائف : منها أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه بقوله : « نبىء عبادى » وهذا تشريف وتعظيم لهم ، ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله سبحانه «الذى أسرى بعبده ليلا» فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل فى هذا التشريف العظيم . ومنها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بألفاظ ثلاثة : أولها قوله أنى ، وثانيها أنا ، وثالثها إدخال الألف واللام فى الغفور الرحيم ، وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ، ولما ذكر العذاب لم يقل إنى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك ، بل قال « وأن عذابى هو العذاب الأليم » على سبيل الإخبار . ومنها أنه سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ عباده هذا المعنى ، فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة (لئلا يستولى) أى وإنما قال ذلك لئلا يستولى : أى يغلب (عليك الرجاء بمرة . و) من الآيات اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء أيضا (قوله تعالى) فى سورة المؤمن (شديد العقاب) للكافرين : أي مشدده (ثم قال) تعالى (فى عقبة ـ ذى الطول) أى السعة والغنى ، وقيل ذى الفضل والنعم ، وأصل الطول : الإنعام الذى تطول مدته على صاحبه (لا إله إلا هو) أى هو الموصوف بصفات الوحدانية التى لا يوصف بها غيره فيجب الإقبال الكلى على عبادته (لئلا يستولى عليك الخوف بمرة وأعجب منه) أى من القول المذكور (قوله سبحانه وتعالى) فى سورة آل عمران (ويحذركم الله نفسه) أى ويخوفكم الله أن تعصوه بأن ترتكبوا المنهي عنه

ثُمَّ قَالَ فِى عَقِبِهِ : (وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) وَأَعْجَبُ مِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (مَنْ خَشِىَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ) عَلَّقَ الْخَشْيَةَ بِاسْمِ الرَّحْمٰنِ ، دُونَ اسْمِ الْجَبَّارِ ، وَالْمُنْتَقِمِ ، وَالْمُتَكَبِّرِ وَنَحْوِهِ ، لِتَكُونَ الْخَشْيَةُ مَعَ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ ، فَلَا تَكُونُ الْخَشْيَةُ تُطِيرُ قَلْبَكَ بِمَرَّةٍ ، فَيَكُونُ تَخْوِيفاً فِى تَأْمِينٍ وَتَحْرِيكاً فِى تَسْكِينٍ كَمَا تَقُولُ : أَمَا تَخْشَى الْوَالِدَةَ الرَّحِيمَةَ ؟ أَمَا تَخَافُ الْوَالِدَ الْمُشْفِقَ ؟ أَمَا تَحْذَرُ الْأَمِيرَ الْكَرِيمَ ؟ وَالْمُرَادُ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ الطَّرِيقُ عَدْلاً ، فَلَا تَذْهَبْ إِلَى أَمْنٍ وَقُنُوطٍ . جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُتَدَبِّرِينَ لِهٰذَا الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وَالْعَامِلِينَ بِمَا فِيهِ بِرَحْمَتِهِ ، إِنَّهُ هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِىِّ الْعَظِيمِ .

﴿ الأصلُ الثانى : فى أفعاله عزّ وجلّ ومعاملاته ﴾

أَمَّا مِنْ جَانِبِ الْخَوْفِ : فَاعْلَمْ أَنَّ إِبْلِيسَ عَبَدَهُ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ،

أو تخالفوا المأمور به أو توالوا الكفار فتستحقوا عقابه على ذلك كله . قال القاضى : وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى المنهى عنه فى القبح . وذكر النفس ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة (ثم قال) تعالى (فى عقبه « والله رءوف بالعباد») إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم ، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم ، فيرجى رحمته ويخشى عذابه (وأعجب منه) أى من هذا القول (قوله سبحانه وتعالى) فى سورة قٓ (من خشى الرحمن بالغيب) أى خاف الرحمن فأطاعه وإن لم يره ، وقيل خافه فى الخلوة بحيث لا يراه أحد إذا ألقى الستر وأغلق الباب (علق) سبحانه وتعالى (الخشية باسم الرحمن دون اسم الجبار) جبر خلقه على ما أراده (و) دون اسم (المنتقم) أى المعاقب للعصاة (والمتكبر) عما لا يليق (ونحوه) أى نحو ماذكر من الجبار والمنتقم والمتكبر (لتكون الخشية مع ذكر الرحمة فلا تكون الخشية تطير قلبك بمرة فيكون ذكر الرحمة تخويفا فى تأمين) أى مع تأمين (وتحريكا فى تسكين) أى مع تسكين (كما تقول : أما تخشى الوالدة الرحيمة ، أما تخاف الوالد المشفق ، أما تحذر الأمير الكريم ؟ والمراد من ذلك) أى كون الخشية مع ذكر الرحمة (أن يكون الطريق عدلا) بين الطريقين المهلكين (فلا تذهب إلى أمن وقنوط ، جعلنا الله وإياكم من المتدبرين) والمتفكرين (لهذا الذكر) أى القرآن (الحكيم و) من (العاملين بما فيه) أى الذكر الحكيم (برحمته إنه) تعالى (هو الجواد الكريم ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) .

﴿ الأصل الثانى) : من الأصول الثلاثة (فى) ذكر (أفعاله عز وجل ومعاملاته ﴾ فى الأخذ والعفو (أما) ذكر أفعاله (من جانب الخوف . فاعلم أن إبليس) اللعين (عبده) تعالى (ثمانين ألف سنة)

فَلَمْ يَتْرُكْ فِيمَا قِيلَ مَوْضِعَ قَدَمٍ إلاّ وَسَجَدَ للهِ تعالى فِيهِ سَجْدَةً ، ثُمَّ تَرَكَ أَمْرًا وَاحِدًا فطَرَدَهُ عَنْ بَابِهِ ، وَضَرَبَ بِوَجْهِهِ عِبَادَةَ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَلَعَنَهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا أَلِيمًا إلى أَبَدِ الآبِدِينَ .

حَتَّى رُوِيَ أَنَّ الصَّادِقَ الْأَمِينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ، رَأَى جبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مُتَعَلِّقًا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَهُوَ يَصْرُخُ وَيُنَادِي : إِلٰهِي وَسَيِّدِي : لاَ تُغَيِّرِ اسْمِي ، وَلاَ تُبَدِّلْ جِسْمِي .

بل أكثر منها كما قاله بعضهم (فلم يترك) إبليس اللعين (فيما قيل موضع قدم إلا وسجد لله تعالى فيه) أى فى ذلك الموضع (سجدة ، ثم) كان اللعين فى عاقبة أمره أنه (ترك أمرا واحدا) وهو السجود لآدم عليه السلام (فطرده) الله تعالى (عن بابه) أى باب رحمته (وضرب) سبحانه وتعالى (بوجهه) أى اللعين (عبادة ثمانين ألف سنة ولعنه) أى أبعده من رحمته (إلى يوم الدين) أى الجزاء (وأعد) تعالى (له) أى اللعين (عذابا أليما) أى مؤلما (إلى أبد الآبدين حتى روى أن الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه رأى جبريل عليه السلام متعلقا بأستار الكعبة وهو) أى جبريل (يصرخ) من باب قتل : أى يصيح ويستغيث (وينادى : إلهى وسيدى لا تغير اسمى ولا تبدل جسمى) وحتى روي في الخبر المشهور «أن النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك» وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب ، وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله قد أمنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما كما أن خليله إبراهيم عليه السلام اختبره تعالى لما وضع فى المنجنيق وأهوى به فى الهواء قال : حسبي الله وكانت هذه القولة من الدعاوى العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء حتى قال ، ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقه قوله : حسبي الله ، فأخبر الله تعالى عنه فقال « وإبراهيم الذى وفى » أى بموجب قوله : حسبي الله ، ومثل هذا المعنى أخبر عن موسى عليه السلام حيث قال « إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة ، إذ لم يأمن مكر الله والتباس الأمر بأن يكون قد أسر عنه فى غيبه ، وقد استأثر عن نفسه تعالى مالم يظهره له فى القول لمعرفته عليه السلام بخفى المكر وباطن الوصف ولعلمه أنه لم يعطه الحكم إذ هو محكوم عليه مقهور نخاف خوفا ثانيا حتى جدد عليه الأمن بحكم ثان ، وقيل له «لا تخف إنك أنت الأعلى ، لا تخف إنك من الآمنين» فاطمأن إلى القائل ولم يسكن إلي الإظهار الأول لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغيوب التي لانهاية لها ولأن القول أحكام والحاكم لا تحكم

ثُمَّ آدَمُ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، صَفِيُّهُ وَنَبِيُّهُ الَّذِى خَلَقَهُ بِيَدِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَهُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ إِلى جِوَارِهِ ، انْبَسَطَ فَأَكَلَ أَكْلَةً وَاحِدَةً لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِيهَا ، فَنُودِىَ: أَلاَ لا يُجَاوِرُنِى مَنْ عَصَانِى ، وَأَمَرَ المَلَائِكَةَ الَّذِينَ حَمَلُوا سَرِيرَهُ يَزُجُّونَهُ مِنْ سَمَاءٍ إِلى سَمَاءٍ ، حَتَّى أَوْقَعُوهُ بِالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ تَوْبَتَهُ فِيمَا رُوِى ، حَتَّى بَكَى عَلَى ذٰلِكَ مِائَتَىْ سَنَةٍ ، وَلَحِقَهُ مِنَ الْهَوَانِ وَالْبَلَاءِ مَالَحِقَهُ ، وَبَقِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ فى تَبِعَاتِ ذٰلِكَ عَلَى الْأَبَدِ .

ثُمَّ إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيْخَ المُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، الَّذِى احْتَمَلَ فى أَمْرِ دِينِهِ مَا احْتَمَلَ ، لَمْ يَقُلْ إِلاَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا إِذْ نُودِىَ : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ،

عليه الأحكام كما لاتعود عليه الأحكام وإنما تفصل الأحكام من الحاكم العلام ثم تعود على الحكومات أبدا ولأنه جلت قدرته لا يلزمه ما ألزم الخلق الذين هم تحت الحكم ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (ثم) إن (آدم صلى الله عليه وسلم صفيه ونبيه الذى خلقه بيده) أى بقدرته (وأسجد) تعالي (له) أى لآدم عليه السلام (ملائكته وحمله على أعناقهم إلى جواره) فى جنة النعيم مجاورة معنوية (انبسط) أى اتسع فى الجنة (فأ كل)عليه السلام(أ كلة واحدة لم يؤذن له) أى لآدم (فيها) أىفى تلك الأكلة (فنودى : ألا لايجاورنى من عصانى وأمر) تعالى (الملائكة الذين حملوا سريره) عليه السلام (يزجونه) أى يسوقونه ويدفعونه زجاه يزجوه زجوا واوى : ساقه ودفعه برفق وزجى الشىء تزجية : دفعه برفق وأزجاه إزجاء بمعنى زجاه كذافى سراج السالكين (من سماء إلى سماء حتى أوقعوه) أى آدم عليه السلام (بالأرض ولم يقبل توبته فيما روى حتي بكى) عليه السلام (على ذلك) أى على انبساطه فى الأ كل المنهى عنه (مائتى سنة ولحقه) أى آدم (من الهوان) أى الذل . هان الرجل هونا وهوانا ومهانة :ذل وحقر وضعف وسكن وقر (والبلاء ما لحقه وبقيت ذريته فى تبعات) أى حقوق (ذلك) الذنب (على الأبد . ثم إن نوحا عليه السلام شيخ المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين الذى احتمل) عليه السلام (فى أمر دينه ما احتمل) أى من الصبر على إيذاء قومه وغيره (لم يقل) نوح عليه السلام(إلا كلمة واحدة) وهي قوله «إن ابنى من أهلي» قيل له «إنه ليس من أهلك» إلى آخره (على غير وجهها)وفى نسخة علي غير موضعها (إذ نودى « فلا تسألن ماليس لك به علم») وذلك أن نوحا عليه السلام سأل ربه إنجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده ، وهو لا يعلم أن ذلك محذور لإصرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسئلة وأعلمه أن ذلك لا يجوز .

إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) حَتَّى رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ لَمْ يَرْفَع رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَيَاءً مِنَ اللهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً .

ثُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا هَفْوَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَكَمْ خَافَ وَتَضَرَّعَ وَقَالَ : (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) حَتَّى رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَبْكِي مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ، فَيُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ الْأَمِينَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيَقُولُ يَا إِبْرَاهِيمُ : هَلْ رَأَيْتَ خَلِيلاً يُعَذِّبُ خَلِيلَهُ بِالنَّارِ فَيَقُولُ : يَا جِبْرِيلُ إِذَا ذَكَرْتُ خَطِيئَتِي نَسِيتُ خُلَّتَهُ .

ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ صلى اللهُ عليه وسلم ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا لَطْمَةٌ وَاحِدَةٌ عَنْ حِدَّةٍ ،

فقال «فلا تسألن ماليس لك به علم» بجواز مسألته (إني أعظك) يعني أنهاك (أن تكون من الجاهلين) يعني لمثل هذا السؤال (حتى روى في بعض الأخبار أنه) أي نوحا عليه السلام (لم يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله أربعين سنة . ثم إن إبراهيم خليل الله عليه السلام لم يكن منه إلا هفوة) أي زلة (واحدة) وهي قوله واغفر لأبي (فكم خاف) إبراهيم عليه السلام (وتضرع وقال والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) أي يوم الجزاء وهو يوم القيامة لأن الناس يجزون فيه على أعمالهم وفي البيضاوي ذكر ذلك هضما لنفسه وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر وطلب لأن يغفر لهم ما يفرط منهم واستغفارا لما عسى يندر منه من الصغائر وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث «إني سقيم بل فعله كبيرهم» وقوله هي أختي ضعيف لأنها معاريض وليست خطايا وذكر الخازن حديث مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت « قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين أكان ذلك نافعا له ، قال لا ينفع إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » (حتى روى أنه) أي إبراهيم (كان يبكي من شدة الخوف فيرسل الله تعالى إليه الأمين جبريل عليه السلام فيقول) جبريل له : ربك يقرئك السلام ويقول (يا إبراهيم هل رأيت خليلا يعذب خليله بالنار؟ فيقول) إبراهيم (يا جبريل إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلته) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين (ثم) إن (موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم لم يكن منه إلا لطمة) أي ضربة على الوجه بباطن الراحة (واحدة عن حدة) هو ما يعتري الإنسان من الغضب قال ابن عباس رضي الله عنهما لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع ، وكان بنو إسرائيل قد عزوا

فَكَمْ خَافَ وَتَضَرَّعَ ، وَاسْتَغْفَرَ وَقَالَ : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) ، ثُمَّ فِي زَمَانِهِ بَلْعَمُ بْنُ بَاعُورَاءَ ، كَانَ بِحَيْثُ إِذَا نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَرَى الْعَرْشَ ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا

بمكان موسى لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من القبط فاستغاثه الذى من شيعته يعنى الإسرائيلى على الذى من عدوه يعنى الفرعونى . والمعنى أنه سأله أن يخلصه منه وأن ينصره عليه فغضب موسى واشتد غضبه لأنه أخذه وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة فقال موسى للفرعونى خل سبيله ، فقال إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فنازعه ، فقال الفرعونى لقد هممت أن أحمله عليك ، وكان موسى قد أوتى بسطة فى الخلق وشدة فى القوة «فوكزه موسى» أى ضربه بجمع كفه «فقضى عليه» أى قتله وفرغ من أمره فتندم موسى عليه ، ولم يكن قصده القتل ودفنه في الرمل (فكم خاف) موسى عليه السلام (وتضرع واستغفر) ربه (وقال رب إنى ظلمت نفسى) أى بقتل القبطى من غير أمر ، وقيل هو على سبيل الاتضاع لله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب (فاغفرلى) أى ترك هذا المندوب ، وقيل يحتمل أن يكون المراد رب إنى ظلمت نفسى حيث فعلت هذا فإن فرعون إذا عرف ذلك قتلنى به ، فقال فاغفر لى . أى فاستره على ولا توصل خبره إلى فرعون (ثم) كان (فى زمانه) أى موسى عليه السلام (بلعم بن باعوراء) و (كان) ابن باعوراء (بحيث إذا نظر إلى السماء يرى العرش) أى عرش الرحمن قال النووي بن عمر فى ترغيبه٧ والعرش جسم عظيم نورانى علوى ، وهو قبة ذات قوائم يحمله الآن أربعة وفى الآخرة ثمانية رؤوسهم فوق السماء السابعة وأقدامهم فى الأرض السفلى وإنما زيد فى حملته فى الآخرة لأنه يزداد تجلى الجلال عليه فيها ، وقد ورد أن له ثلثمائة وستين قائمة عرض كل قائمة منها قدر عرض الدنيا سبعين ألف مرة وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صخرة فى كل صخرة ستون ألف عالم وكل عالم كالثقلين من الجن والإنس ولذلك وصفه الله تعالى بالعظيم فى قوله تعالى «وهو رب العرش العظيم» بناء على قراءته بالجر كما هو القراءة المشهورة (وهو المعنىّ) أى المراد (بقوله تعالى واتل عليهم) أى على اليهودى (نبأ) خبر (الذى آتيناه آياتنا) وهى علوم الكتب القديمة والتصرف بالاسم الأعظم فكان يدعو به حيث شاء فيجاب بعين ماطلب فى الحال واختلفوا فيه أى فى الذى أوتى الآيات فقال ابن عباس رضي الله عنهما هو بلعم بن باعوراء ، وقال مجاهد بلعم بن باعر ، وقال بن مسعود هو بلعم بن أبر قال عطية قال ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان من بنى إسرائيل ، وفى رواية أخرى عنه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين ، وقال مقاتل هو من مدينة البلقاء . وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما ومحمد بن إسحاق والسدى وغيرهم من أصحاب الأخبار والسير قالوا إن موسى

عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشأم أتى قوم بلعام إليه وكان عندهم اسم الله الأعظم فقالوا إن موسى رجل حديد وإن معه جنودا كثيرة وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع أن يردهم عنا ، فقال ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإنى إن فعلت هذا ذهب دنياى وآخرتى فراجعوه وألحوا عليه فقال حتي أؤامر ربى وكان لايدعو حتى يؤامر ربه فى المنام فأتى فى المنام فقيل له لا تدع عليهم ، فقال للقوم إنى قد آمرت ربى فنهانى أن أدعو عليهم فأهدوا له هدية فقبلها وراجعوه ، فقال حتى أؤامر ربى فآمر فلم يوح إليه بشىء فقال قد آمرت ربى فلم يوح إلى شىء فقالوا له لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك أول مرة فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه ، فافتتن فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسان ، فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتي أذلقها فأذن الله عز وجل لها فى الكلام وأنطقها له فكلمته حجة عليه ، فقالت ويحك يا بلعام أتدرى أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامى يردونى عن وجهى هذا ؟ ويحك أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين فتدعو عليهم ؟ فلم ينزع فخلى الله سبيل الأتان فانطلقت به حتي إذا أشرفت به على جبل حسان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشىء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بنى إسرائيل ، فقال له قومه يابلعام أتدرى ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ، فقال هذا ما لاأملكه هذا شىء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره ، فقال لقومه قد ذهبت منى الدنيا والآخرة ولم يبق لى إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال ، ثم قال جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ، ثم أرسلوهن إلى عسكر بنى إسرائيل ليبعنها عليهم ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنه إن زنى رجل منهم بواحدة منهن كفيتموه ففعلوا ذلك ، فلما دخل النساء على العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستى بنت صور على رجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له زمرى ابن شلوم سبط شمعون بن يعقوب فقام إلى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام . وقال إنى لأظنك تقول هذه حرام عليك ، فقال أجل هى حرام عليك لاتقربها ، قال والله إنى لا أطيعك فى هذا ثم قام ودخل بها إلى قبته فوقع عليها فأرسل الله عز وجل الطاعون على بنى إسرائيل فى ذلك الوقت وكان فنحاص بن العيزار بن هارون وكان صاحب أمر موسى وكان رجلا فظا قد أعطى بسطة فى الخلق وقوة البطش ، وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس فى بنى إسرائيل فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فطعنهما بحربته فانتظمهما ثم خرج بهما وهو رافعهما إلى السماء ، وقد أخذ الحربة بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند

فَانْسَلَخَ مِنْهَا) وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلاَّ أَنَّهُ مَالَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَتَرَكَ لِوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ

الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن عصاك ورفع الطاعون من بنى إسرائيل فحسب من مات منهم فى ذلك الطاعون فما بين أن أصاب ذلك الرجل المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه وقد هلك سبعون ألفا فى ساعة واحدة من النهار فمن هنالك يعطى بنو إسرائيل لولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها الفشة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته ويعطوهن البكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار . وفى بلعام أنزل الله عز وجل « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » الآية . وقال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى : فقال بلعام إنه من أهل دينى ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها ، فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الأتان فضربها ، فقالت لم تضربنى وأنا مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتنى أن أمشى ؟ فرجع إلى الملك فأخبره بذلك ، فقال لتدعون عليه أو لأصلبنك فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بنى إسرائيل فى التية بدعاء بلعام عليه ، فقال موسى يارب بأى ذنب وقعت فى التيه ؟ قال بدعاء بلعام ، قال فكما سمعت دعاءه على فاسمع دعائى عليه ، فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء ، فذلك قوله تعالى «آتيناه آياتنا فانسلخ منها» . فإن قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين ، وفيها أن موسى عليه السلام دعا على بلعام بأن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان ، وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه فى النبوة أن يدعو على إنسان بالكفر بعد الإيمان أو رضى له بذلك ؟ . قلت : الجواب عنه من وجوه : أحدها: منع صحة هذه القصة لأنها من الإسرائيليات ، ولا يلتفت إلى ما يسطره أهل الأخبار إذا خالف الأصول . الوجه الثانى : أن سبب وقوع بنى إسرائيل فى التيه هو عبادتهم العجل أو قولهم لموسى عليه السلام «اجعل لنا إلها» فكان ذلك هو سبب وقوعهم فى التيه لادعاء بلعام عليهم الوجه الثالث : على تقدير صحة هذه القصة وأن موسى عليه السلام دعا على بلعام أن موسى عليه السلام لم يدع عليه إلا بعد أن ثبت عنده أن بلعام كفر وارتد عن الإيمان بدعائه على موسى وإيثاره الحياة الدنيا فدعا عليه مقابلة لدعائه عليه ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك كله ؛ والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة عما ينقله أصحاب الأخبار فى كتبهم من غير نظر فيه ولا بحث عن معناه (فانسلخ منها) يعنى نخرج من الآيات التى كان الله آتاه إياها كما تنسلخ الحية من جلدها . وقال ابن عباس : نزع منه العلم (ولم يكن منه) أى من بلعام (إلا أنه مال إلى الدنيا وأهلها) ورضى بها (ميلة واحدة وترك) بلعام (لولى) أى لموسى عليه السلام (من أوليائه) تعالى

حُرْمَةً وَاحِدَةً، فَسَلَبَهُ اللهُ مَعرِفَتَهُ، وَجَعَلَهُ بِمَنزِلَةِ الْكَلْبِ المَطْرُودِ، فقَال: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ) الآيَة . فَأَوْقَعَهُ فى بَحْرِ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ إِلى آخِرِ الْأَبَدِ حَتَّى سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ فى أَوَّلِ أَمْرِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ فى مَجْلِسِهِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مِحْبَرَةٍ لِلْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ عَنْهُ ، ثُمَّ صَارَ بِحَيْثُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ صَنَّفَ كِتَاباً وَذَكَرَ فِيهِ : أَنَّ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعٌ ، نَعُوذُ بِاللهِ ، ثُمَّ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ

(حرمة واحدة فسلبه الله معرفته) وعلمه (وجعله) الله (بمنزلة الكلب المطرود، فقال) تعالى (فمثله) فصفته التى هى مثل فى الخسة (كمثل الكلب) كصفته فى أخس أحواله وهو (إن تحمل عليه يلهث » الآية) أى اقرأ بقيتها وهى قوله « أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الإعياء والتعب ، وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن آتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات وهو الكلب فى أخس أحواله وهو اللهث ، لأن الكلب فى حال لهثه لايقدر علي نفع نفسه ولا ضرها، كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضررها فى الآخرة ، لأن التمثيل به علي أنه يلهث على كل حال إن حملت عليه أو تركته كان لاهثا وذلك عادة منه وطبيعة وهى مواظبته على اللهث دائما ، فكذلك من آتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة ثم إنه مال إليها وطلبها كانت حاله كحال الكلب اللاهث ، وقيل إن العالم إذا توصل بعلمه إلى طلب الدنيا فإنه يظهر علومه عند أهلها ويدلع لسانه فى تقرير تلك العلوم وبيانها، وذلك لأجل مايحصل عنده من حرارة الحرص الشديد وشدة العطش إلى الفوز بمطلوبه من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذى أدلع لسانه من اللهث فى غير حاجة ولا ضرورة ؛ ومعنى إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث : أى إن شددت عليه وأهجته لهث وإن تركته على حاله لهث لأن اللهث طبيعة أصلية فيه ، فكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه ؛ وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضا لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب (فأوقعه) أى أوقع بلعام كل من ميله إلى الدنيا ميلة واحدة وتركه احترام موسى عليه السلام حرمة واحدة (فى بحر الضلال والهلاك إلى آخر الأبد حتى سمعت بعض العلماء يقول : إنه) أى بلعام (كان فى أول أمره بحيث يكون فى مجلسه اثنا عشر ألف محبرة) بالكسر الدواة (للمتعلمين الذين يكتبون عنه) أى بلعام (ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا وذكر فيه) أى فى ذلك الكتاب (أن) أى أنه (ليس للعالم صانع ، نعوذ بالله ، ثم نعوذ بالله من سخطه

وَمِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ ، وَفَظِيعِ خِذْلَانِهِ الَّذِى لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ . فَانْظُرْ إِلَى خُبْثِ الدُّنْيَا وَشُؤْمِهَا مَاذَا يَجْلِبُ لِلْعُلَمَاءِ خَاصَّةً فَتَنَبَّهْ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ خَطِيرٌ ، وَالْعُمْرُ قَصِيرٌ ، وَفِى الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ ، وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ ؛ فَإِنْ خَتَمَ بِالْخَيْرِ أَعْمَالَنَا وَأَقَالَنَا عَثَرَاتِنَا ، فَمَا ذٰلِكَ عَلَيْهِ بِعَسِيرٍ . ثُمَّ إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيفَتَهُ فِى أَرْضِهِ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَاحِدًا

ومن عذابه الأليم) أى المؤلم (وفظيع) أى شنيع (خذلانه الذى لاطاقة لنا به فانظرإلى خبث الدنيا. وشؤمها) وشرورها (ماذا يجلب) أى يجر (للعلماء خاصة ، فتنبه) من نوم غفلتك (فإن الأمر خطير) أى مخوف (والعمر قصير وفى العمل تقصير والناقد بصير، فإن ختم) الله تعالى (بالخير أعمالنا وأقالنا عثراتنا) فى [محيط المحيط] أقال الله عثرتك وأقالكها : أى رفعك من سقوطك ؛ قيل ، ومنه الإقالة فى البيع لأنها رفع العقد (فما ذلك) أى ليس المذكور من الختم والإقالة (عليه) تعالى (بعسير . ثم إن داود عليه السلام خليفته فى أرضه أذنب ذنبا واحدا) . واختلف العلماء بأخبار الأنبياء فى سبب ذلك ، وسأذكر ماقاله المفسرون ثم أتبعه بفصل فيه ذكر نزاهة داود عليه الصلاة والسلام عما لايليق بمنصبه عليه السلام لأن منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فلا ينسب إليها إلا ما يليق بها . وأما ما قاله المفسرون : فهو أن داود عليه السلام تمنى يوما من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وذلك أنه كان قد قسم الدهر ثلاثة أيام : يوم يقضى فيه بين الناس ، ويوم يخلو فيه لعبادة ربه عز وجل ، ويوم لنسائه وأشغاله ، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب . فقال يارب أرى الخير كله قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى . فأوحى الله إليه إنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها : ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنمروذ وذبح ابنه ، وابتلى إسحاق بالذبح وبذهاب بصره ، وابتلى يعقوب بالحزن على يوسف ؛ فقال داود عليه الصلاة والسلام : رب لوابتليتنى بمثل ما ابتليتهم صبرت أيضا ؛ فأوحى الله عز وجل اليه إنك مبتلي فى شهر كذا فى يوم كذا فاحترس ، فلما كان اليوم الذى وعده الله به دخل داود محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وقد تمثل له فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن وجناحاها من الدر والزبرجد فوقعت بين رجليه فأعجبه حسنها ، فمد يده ليأخذها ويريها بنى إسرائيل لينظروا إلى قدرة الله تعالى ، فلما قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن يؤيسه من نفسها ، فامتد إليها ليأخذها فتنحت فتبعها فطارت حتى وقعت فى كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها له فأبصر امرأة فى بستان على شاطئ بركة تغتسل ، وقيل رآها تغتسل علي سطح لها فرآها من أجمل النساء خلقا فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها فزاده ذلك إعجابا بها ، فسأل عنها فقيل هى نشابع بنت شايع

فَبَكَى عَلَى ذَٰلِكَ حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ فِى الْأَرْضِ مِنْ دُمُوعِهِ وَقَالَ : إِلٰهِى أَمَا تَرْحَمُ بُكَائِى وَتَضَرُّعِى ، فَأُجِيبَ : يَا دَاوُدُ نَسِيتَ ذَنْبَكَ ، وَذَكَرْتَ بُكَاءَكَ ! وَلَمْ يَقْبَلْ تَوْبَتَهُ أَرْبَعِينَ يَوْماً ، وَقِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً .

امرأة أوريا بن حنانا وزوجها فى غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود فكتب داود إلى ابن أخته أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وقدمه قبل التابوت وكان من قدم على التابوت لايحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه فبعثه فقتل المرة الثالثة ، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود فهى أم سليمان عليه السلام . وقيل إن داود أحب أن يقتل أوريا فتزوج امرأته فهذا كان ذنبه . وقال ابن مسعود : كان ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل له عن امرأته ، وقيل كان ذلك مباحا لهم غيرأن الله عز وجل لم يرض لداود ذلك لأنه رغبة فى الدنيا وازدياد من النساء وقد أغناه الله تعالى عنها بما أعطاه من غيرها . وقيل فى سبب امتحان داود أنه كان جزأ الدهر أجزاء يوما لنسائه ويوما للعبادة ويوما للحكم بين بنى إسرائيل ويوما يذاكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه ، فلما كان يوم بنى إسرائيل ذكروا فقالوا هل يأتى على الإنسان يوم لايصيب فيه ذنبا فأضمر داود فى نفسه أنه سيطيق ذلك ، وقيل إنهم ذكروا فتنة النساء فأضمر داود في نفسه أنه إن ابتلى اعتصم فلما كان يوم عبادته أغلق عليه الأبواب وأمر أن لايدخل عليه أحد وأكب على قراءة التوراة فبينما هو يقرأ إذ دخلت حمامة وذكر نحو ماتقدم فلما دخل بالمرأة لم يلبث إلا يسيرا حتي بعث الله عز وجل الملكين اليه ، وقيل إن داود عليه السلام مازال يجتهد فى العبادة حتى برز له حافظاه من الملائكة فكانوا يصلون معه ، فلما استأنس بهم قال أخبرونى بأى شىء أنتم موكلون ؟ قالوا نكتب صالح أعمالك ونوافقك ونصرف عنك السوء، فقال فى نفسه ليت شعرى كيف أكون لوخلونى ونفسى وتمنى ذلك ليعلم كيف يكون، فأوحى الله تعالى إلى الملكين أن يعتزلاه ليعلم أنه لاغنى له عن الله تعالى فلما فقدهم جد واجتهد في العبادة إلى أن ظن أنه قد غلب نفسه فأراد الله تعالى أن يعرفه ضعفه فأرسل طائرا من طيور الجنة ، وذكر نحو ماتقدم . وقيل إن داود قال لبنى إسرائيل لأعدلن بينكم ولم يستثن فابتلي . وقيل إنه أعجبه عمله فابتلي فبعث الله إليه ملكين فى صورة رجلين وذلك فى يوم عبادته فطلبا أن يدخلا عليه فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان وهو يصلى يقال كانا جبريل وميكائيل فذلك قولهعز وجل «وهل آتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب» الآية (فبكى داود عليه السلام (على ذلك) أى الذنب الواحد (حتى نبت العشب) أى الكلأ الرطب (فى الأرض من دموعه وقال إلهى) وسيدى (أما ترحم بكائى وتضرعي فأجيب) داود عليه السلام (ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ولم يقبل توبته) عليه السلام (أربعين يوما وقيل أربعين سنة)

وروى البغوى باسناد الثعلبي عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن داود النبي صلى الله عليه وسلم حين نظر إلى المرأة فهم ففظع على بني إسرائيل أوصى صاحب البعث فقال إذا حضر العدو فقرب فلانا بين يدى التابوت وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ، ومن قدم بين يدى التابوت لم يرجع حتى يقتل أو يهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة ونزل الملكان يقصان عليه قصته ففطن داود فسجد فمكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبهته وهو يقول فى سجوده : رب زل داود زلة أبعد مابين المشرق والمغرب . رب إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثا فى الخلق من بعده فجاءه جبريل من بعد أربعين ليلة فقال يا داود إن الله تعالى قد غفر لك الهم الذى هممت به ، فقال داود إن الرب قادر على أن يغفر لى الهم الذى هممت به وقد عرفت أن الله عدل لايميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال رب دمى الذى عند داود ؟ فقال جبريل ماسألت ربك عن ذلك وإن شئت لأفعلن قال نعم، فعرج جبريل وسجد داود ماشاء الله تعالى ثم نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال سألت الله يا داود عن الذى أرسلتني فيه فقال قل لداود إن الله تعالى يجمعكما يوم القيامة فيقول له هب لى دمك الذى عند داود فيقول هو لك يا رب فيقول الله تعالى فإن لك فى الجنة ماشئت وما اشتهيت عوضا عن دمك » فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير فى قصة امتحان داود .

فصل

فى تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لايليق به وما ينسب إليه

اعلم أن من خصه الله تعالى بنبوته وأكرمه برسالته وشرفه علي كثير من خلقه وائتمنه على وحيه وجعله واسطة بينه وبين خلقه لايليق أن ينسب إليه مالو نسب إلى آحاد الناس لاستنكف أن يحدث به عنه فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأمناء ذلك . روى سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : من حدثكم بحديث داود على مارويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهو حد الفرية على الأنبياء ، وقال القاضى عياض : لايجوز أن يلتفت إلى ماسطره الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين ولم ينص الله تعالى على شىء من ذلك ولا ورد فى حديث صحيح ، والذى نص عليه الله فى قصة داود « وظن داود أنما فتناه » وليس فى قصة داود وأوريا خبر ثابت ولا يظن بنبى محبة قتل مسلم ، وهذا هو الذي ينبغى أن يعول عليه من أمر داود . قال الإمام فخر الدين : حاصل القصة يرجع إلى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع فى زوجته وكلاهما منكر عظيم فلا يليق بعاقل أن يظن بداود عليه الصلاة والسلام هذا . وقال غيره : إن الله تعالى أثنى على داود قبل هذه القصة ومابعدها وذلك يدل على استحالة مانقلوه من القصة فكيف

ثُمَّ إِنَّ يُونُسَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، غَضِبَ غَضْبَةً وَاحِدَةً فِى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ،

يتوهم عاقل أن يقع بين مدحين ذم، ولو جرى ذلك من بعض الناس لاستهجنه العقلاء ولقالوا أنت فى مدح شخص كيف تجرى ذمه أثناء مدحك والله تعالى منزه عن مثل هذا فى كلامه القديم. فإن قلت فى الآية مايدل على صدور الذنب منه وهو قوله تعالى « وظن داود أنما فتناه » وقوله: «فاستغفر ربه» وقوله «وأناب» وقوله «فغفرناله ذلك». قلت ليس فى هذه الألفاظ شىء ممايدل على ذلك وذلك لأن مقام النبوة أشرف المقامات وأعلاها فيطالبون بأكمل الأخلاق والأوصاف وأسناها فاذا نزلوا من ذلك إلى طبع البشرية عاتبهم الله تعالى على ذلك وغفره لهم كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فإن قلت فعلى هذا القول والاحتمال فمامعنى الامتحان فى الآية. قلت ذهب المحققون من علماء التفسير وغيرهم فى هذه القصة إلى أن داود عليه الصلاة والسلام ما زاد على أن قال للرجل انزل لى عن امرأتك واكفلنيها فعاتبه الله تعالى على ذلك ونبهه عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا . وقيل إن داود تمنى أن تكون امرأة أوريا له فاتفق أن أوريا هلك فى الحرب فلما بلغ داود قتله لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده ثم تزوج امرأته فعاتبه الله تعالى على ذلك ، لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهى عظيمة عند الله تعالى . وقيل إن أوريا كان قد خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها فلما غاب فى غزاته خطبها داود فزوجت نفسها منه لجلالته فاغتم لذلك أوريا فعاتبه الله تعالى على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسع وتسعون امرأة . ويدل على صحة هذا الوجه قوله « وعزنى فى الخطاب » فدل هذا على أن الكلام كان بينهما فى الخطبة ولم يكن قد تقدم تزوج أوريا لها فعوقب داود بسببين : أحدهما خطبته على خطبة أخيه ، والثانى إظهار الحرص على التزوج مع كثرة نسائه . وقيل إن ذنب داود الذى استغفر منه ليس هو بسبب أوريا والمرأة وإنما هو بسبب الخصمين وكونه قضى لأحدهما قبل سماع كلام الآخر ، وقيل هو قوله لأحد الخصمين « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه » فحكم على خصمه بكونه ظالما بمجرد الدعوى ، فلما كان هذا الحكم مخالفا للصواب اشتغل داود بالاستغفار والتوبة فثبت بهذه الوجوه نزاهة داود عليه الصلاة والسلام مما نسب إليه، والله أعلم .

(ثم إن يونس) بن متى (نبيه عليه) الصلاة و (السلام غضب غضبة واحدة فى غير موضعها) أى الغضبة. قال ابن عباس فى رواية عنه : كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى منهم سبطان ونصف ، فأوحى الله إلى شعياء النبى أن سر إلى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا فإنى ألقى فى قلوب أولئك الرعب حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فقال له الملك فمن ترى ؟ وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء . قال يونس إنه قوى أمين ، فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل الله أمرك باخراجي ؟ قال لا : قال فهل سمانى الله لك ؟ قال لا . قال فهاهنا غير أنبياء أقوياء فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبى وللملك وقومه وأتى بحر الروم فركب . وقيل ذهب عن قومه مغاضبا لربه لما كشف عنهم العذاب بعد ما أوعدهم وكره أن يكون بين أظهر

فَسَجَنَهُ فى بَطْنِ الْحُوتِ تَحْتَ قَعْرِ الْبِحَارِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَهُوَ يُنَادِى : (أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) وَسَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ صَوْتَهُ ، فَقَالُوا : إِلٰهَنَا وَسَيِّدَنَا صَوْتٌ مَعْرُوفٌ مِنْ مَوْضِعٍ مَجْهُولٍ ، فَقَالَ اللهُ تعالى : ذٰلِكَ صَوْتُ عَبْدِى يُونُسَ ، فَتَشَفَّعَتْ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ ، ثُمَّ مَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ

قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع العذاب عنهم به فكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وأنه يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله . وفى بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أنهم يقتلون من جربوا عليه الكذب نخشى أن يقتلوه ما لم يأتهم العذاب للميعاد فذهب مغاضبا . وقال ابن عباس : أتي جبريل يونس فقال : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم فقال التمس دابة قال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلي السفينة . وقال وهب : إن يونس كان عبدا صالحا وكان فى خلقه ضيق فلما حمل أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها من يديه وخرج هاربا منها فلذلك أخرجه الله من أولى العزم من الرسل وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » وقال « ولا تكن كصاحب الحوت » (فسبحنه) أى حبسه (فى) ظلمة (بطن الحوت تحت) ظلمة (قعر البحار) وظلمة الليل؛ وقعر البحر نهاية أسفله والجمع قعور مثل فلس وفلوس كما فى المصباح (أربعين يوما) وقيل سبعة أيام ، وقيل ثلاثة ، وقيل إن الحوت ذهب به حتى بلغ تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربه وراجع نفسه فى بطن الحوت (وهو ينادى « أن) أى بأنه (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ») لنفسى فى خروجى من قومي قبل أن تأذن لى . فى الحديث « ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له » وعن الحسن ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم (وسمعت الملائكة صوته) عليه السلام (فقالوا) يا (إلهنا وسيدنا) هذا (صوت معروف من موضع مجهول) لا نعرفه (فقال الله تعالى ذلك) الصوت الذى سمعتم (صوت عبدى يونس فتشفعت فيه) أى يونس عليه السلام (الملائكة) وروى أبو هريرة مرفوعا قال « أوحى الله تعالى إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه فى البحر فلما انتهى به إلي أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ماهذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه هذا تسبيح دواب البحر قال : فسبح هو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة » وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول؟ فقال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت، فقالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل فذلك قوله تعالى « فاستجبنا له ونجيناه من الغم » (ثم مع ذلك) أى المذكور من السجن فى بطن الحوت ونداؤه فيه وغير ذلك (كله) بالجر

غَيْرَ اسْمِهُ فقالَ : (وَذَا النُّونِ) فَنَسَبَهُ إِلَى سِجْنِهِ ثُمَّ قالَ : (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ وَمِنَّتَهُ فَقالَ : (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ) .

فَانْظُرْ إِلَى هٰذِهِ السِّيَاسَةِ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ .

وَكَذٰلِكَ هَلُمَّ جَرًّا إِلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ أَكْرَمِ

(غير) سبحانه وتعالى (اسمه) أى يونس عليه السلام (فقال) تعالى فى سورة الأنبياء («وذا النون») أى واذكر صاحب الحوت يونس ابن متى (فنسبه إلى سجنه) وهو الحوت لابتلاعه إياه كما ذكره القاضى (ثم قال) تعالى فى سورة والصافات («فالتقمه الحوت») أى ابتلعه (وهو مليم) داخل فى الملامة أوآت بما يلام عليه أو مليم نفسه ، وقرئ بالفتح مبنيا من ليم كمشيب فى مشوب (فلولا أنه كان من المسبحين) الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أو فى بطن الحوت وهو قوله « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ». وقال ابن عباس، من المصلين : وقيل من العابدين . قال الحسن : ما كانت له صلاة فى بطن الحوت ولـكنه قدم عملا صالحا فشكر الله تعالى له طاعته القديمة . قال بعضهم : اذكروا الله فى الرخاء يذكركم فى الشدة فإن يونس كان عبدا صالحا ذاكرا الله تعالى فلما وقع فى الشدة فى بطن الحوت شكر الله تعالى له ذلك فقال « فلولا أنه كان من المسبحين (للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ») حيا وقيل ميتا، وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه ، ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده عند الضراء (ثم ذكر) الله تعالى (نعمته ومنته) عليه (فقال) في سورة نٓ « ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم (لولا أن تداركه نعمة من ربه») يعنى التوفيق للتوبة وقبولها وحسن تذكير الفعل للفصل، وقرئ تداركته وتداركه : أى تتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا أن كان يقال فيه تتداركه (لنبذ) لطرح من بطن الحوت (بالعراء) أى بالأرض الخالية عن الشجر والنبات، وقيل بالساحل . روى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهوا إلى البر فلفظه (وهو مذموم) أى يذم ويلام بالذنب ، وقيل فى معنى الآية لولا تداركته نعمة من ربه لبقى فى بطن الحوت الي يوم القيامة ، ثم ينبذ بعراء القيامة : أى بأرضها وفضائها . فإن قلت هل يدل قوله وهو مذموم على كونه كان للذنب؟. قلت : الجواب عنه من ثلاثة أوجه : أحدها أن كلمة لولا دلت على أنه لم يحصل منه ما يوجب الذم . الثانى لعل المراد منه ترك الأفضل فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . الثالث لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة يدل عليه قوله تعالى « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » : أى النبيين (فانظر إلى هـذه السياسة أيها المسكين وكذلك هلم جرا) بفتح الميم : أى احضر وهو اسم فعل وجر نصب على المصدرية أى جر جرا : أى جذب جذبا كذا فى سراج السالـكين . وقال الفيومي فى مصباحه : هلم كلمة بمعنى الدعاء إلي الشيء كما يقال تعالى، إلى أن قال : وأهل الحجاز ينادون بها بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع وعليه قوله «والقائلين لإخوانهم هلم إلينا» (إلى سيد المرسلين أكرم

خَلْقِهِ عَلَيْهِ يَقُولُ لَهُ : (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) حَتَّى كَانَ النَّبِيُّ صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم يَقُولُ : « شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » قِيلَ عَنَى هٰذِهِ الآيَةَ وَأَشْكَالَهَا فِى القُرْآنِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

خلقه عليه) أى عنده تعالى (يقول) الله تعالى (له) أى لسيد المرسلين (« فاستقم كما أمرت) يعنى فاستقم يا محمد على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربك ، والأمر فى فاستقم للتأكيد لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك : أى دم على ماأنت عليه من القيام حتى آتيك (ومن تاب معك) يعنى ومن آمن معك من أمتك فليستقيموا أيضا على دين الله والعمل بطاعته . قال عمر بن الخطاب : الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تروغ منه روغان الثعلب ، روى مسلم عن سفيان بن عبدالله الثقفي قال « قلت يا رسول الله قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : قل آمنت بالله ثم استقم » (ولا تطغوا) يعنى ولا تجاوزوا أمرى إلى غيرى ولا تعصونى ، وقيل معناه ولا تغلوا فى الدين فتجاوزوا ماأمرتكم به (إنه بما تعملون بصير») يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأعمالكم لايخفى عليه شىء منها فهو مجازيكم عليه وهو فى معنى التعليل للأمر والنهي ، وفى الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان (حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «شيبتنى هود) أى سورة هود (وأخواتها») أى وشبهها من السور التى فيها ذكر أحوال القيامة ، والحزن إذا تفاقم على الإنسان أسرع إليه الشيب قبل الأوان ، رواه الطبرانى فى الكبير عن عقبة بن عامر الجهنى وأبى جحيفة حسن أو صحيح كما ذكره العلامة عبد الحق (قيل عني) أى أراد صلى الله عليه وسلم بقوله هود وأخواتها (هذه الآية) وهى « فاستقم كما أمرت » الآية (وأشكالها) أى أمثالها (فى القرآن فقال الله تعالى «واستغفر لذنبك») أى لأجله قيل له ذلك مع عصمته لتستن به أمته وقد فعله قال صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله فى كل يوم مائة » هذا أحد وجوه فى تأويل الآية ؛ وفى القرطبي واستغفر لذنبك يحتمل وجهين : أحدهما يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب . الثانى استغفر الله ليعصمك من الذنوب ، وقيل لما ذكر الله تعالى حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان : أي اثبت على ماأنت عليه من الإخلاص والتوحيد والحذر عما يحتاج معه إلى استغفار ، وقيل الخطاب له والمراد به الأمة وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المؤمنين ، وقيل كان عليه الصلاة والسلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين فنزلت ، أى فاعلم أنه لا كاشف يكشف مابك إلا الله فلا تعلق قلبك بأحد سواه ، وقيل أمر بالاستغفار لتقتدى به الأمة ، وفى الخازن « واستغفر لذنبك » أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم مع أنه مغفور له لتستن به أمته وليقتدوا به في ذلك ، روى مسلم عن الأغر المزنى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم مائة مرة » وفى رواية قال « توبوا إلى ربكم فو الله إنى لأتوب إلى ربى

إِلَى أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيهِ بِالْغُفْرَانِ فَقَالَ : (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ) وَقَالَ تَعَالَى : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

عز وجل فى اليوم مائة مرة » وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم سبعين مرة » وفى رواية « أكثر من سبعين مرة » وقوله : « إنه ليغان على قلبى ». الغين التغطية والستر : أى يلبس على قلبى ويغطى وسبب ذلك ما أطلعه الله عليه من أحوال أمته بعده فأحزنه ذلك حتى كان يستغفر لهم ، وقيل إنه لما كان يشغله النظر فى أحوال المسلمين ومصالحهم حتى يرى أنه قد شغل ذلك وإن كان من أعظم طاعة وأشرف عبادة وأرفع مقام مما هو فيه ، وهو التفرد بربه عز وجل وصفاء وقته معه وخلوص همه من كل شىء سواه فلهذا السبب كان صلي الله عليه وسلم يستغفر الله فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقيل هو مأخوذ من الغين ، وهو الغيم الرقيق الذى يغشى السماء فكان هذا الشغل والهم يغشى قلبه صلى الله عليه وسلم ويغطيه عن غيره ، فكان يستغفر الله عز وجل منه ، وقيل هذا الغين هو السكينة التى تغشى قلبه صلى الله عليه وسلم وسبب استغفاره لها إظهار العبودية والافتقار إلى الله عز وجل . وحكى الشيخ محي الدين النووى رحمه الله عن القاضى عياض أن المراد به الفترات والغفلات عن الذكر الذى كان شأنه صلى الله عليه وسلم الدوام عليه فإذا فتر وغفل وعد ذلك ذنبا واستغفر منه وحكي الوجوه المتقدمة عنه وعن غيره . وقال الحارث المحاسبى : خوف الأنبياء والملائكة خوف إعظام وإجلال وإن كانوا آمنين من عذاب الله ، وقيل يحتمل أن هذا الغين حالة حسنة وإعظام يغشى القلب ويكون استغفاره شكرا كما قال « أفلا أكون عبدا شكورا » وقيل فى معنى الآية استغفر لذنبك : أى لذنوب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات يعنى من غير أهل بيته وهذا إكرام من الله عز وجل لهذه الأمة حيث أمر صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم (إلى أن من الله عليه) صلى الله عليه وسلم (بالغفران فقال) تعالى (« ووضعنا) حططنا (عنك وزرك الذى أنقض) أثقل (ظهرك ») وهذا كقوله تعالى « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك » أى فهو مصروف عن ظاهره : أى إنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب لو كان ، وقيل مغفور لك ما كان من سهو وغفلة ، وقيل من ذنبك : أى ذنب أمتك ، وقيل المراد بالذنب ترك الأولى كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين وترك الأولى ليس بذنب كما فى المواهب . وقال الرازى معنى وضعنا عنك وزرك عصمناك من الوزر الذى ينقض ظهرك لو كان الوزر حاصلا، فوضع الوزر كناية عن عصمته وتطهيره من دنس الأوزار ففيه استعارة تمثيلية حيث سمى العصمة وضعا مجازا (وقال تعالى) « إنا فتحنا لك فتحا مبينا (« ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ») قيل اللام فى قوله « ليغفر لك الله » لام كى . والمعنى فتحنا لك فتحا مبينا لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة بالفتح . وقال الحسن بن الفضل هو مردود

وَكَانَ بَعْدَ ذَٰلِكَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ يُصَلِّي اللَّيْلَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَيَقُولُونَ : أَتَفْعَلُ هَٰذَا يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَيَقُولُ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا .

إلى قوله تعالى « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ـ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ـ وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات » . وقال ابن جرير هو راجع إلى قوله فى سورة النصر « واستغفره إنه كان توابا ـ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك » وقيل إن الفتح لم يجعل سببا للمغفرة ، ولكن لاجتماع ماقدر له من الأمور الأربعة المذكورة ؛ وهى المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قال يسرنا لك الفتح ونصرناك على عدوك وغفرنا لك ذنبك وهديناك صراطا مستقيما ليجتمع لك عز الدارين وأغراض العاجل والآجل . وقيل يجوز أن يكون الفتح سببا للغفران لأنه جهاد للعدو وفيه الثواب والمغفرة مع الظفر بالعدو والفوز بالفتح وقيل لما كان هذا الفتح سببا لدخول مكة والطواف بالبيت كان ذلك سببا للمغفرة ؛ ومعنى الآية ليغفر لك الله جميع ما فرط منك ما تقدم من ذنبك يعنى قبل النبوة وما تأخر يعنى بعدها ، وهذا على قول من يجوز الصغائر على الأنبياء . وقال عطاء الخراسانى ما تقدم من ذنبك يعنى من ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك ، وما تأخر من ذنوب أمتك بدعائك لهم . وقال سفيان الثورى ما تقدم من ذنبك مما كان منك قبل النبوة وما تأخر يعنى كل شيء لم تعمله ويذكر مثل هذا على طريق التأكيد كما تقول أعطى من تراه ومن لم تره واضرب من لقيت ومن لم تلقه ، فيكون المعنى ما وقع لك من ذنب ومالم يقع فهو مغفور لك ، وقيل المراد منه ما كان من سهو وغفلة وتأول لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له ذنب كذنوب غيره فالمراد بذكر الذنب هنا ماعسى أن يكون وقع منه من سهو ونحو ذلك لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين فسماه ذنبا فما كان من هذا القبيل وغيره فهو مغفور له فأعلمه الله عز وجل بذلك وأنه مغفور له ليتم نعمته عليه وهو قوله تعالى « ويتم نعمته عليك » (وكان بعد ذلك) أى منه تعالى بالغفران (صلوات الله) وسلامه (عليه يصلى الليل حتى تورمت) أى انتفخت (قدماه) صلى الله عليه وسلم ، وسبب ورم القدمين من كثرة القيام انصباب المواد التى فى أعالى الجسم إليهما لطول القيام فإنه صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن يزيد بالليل على اثنتى عشرة ركعة لكن كان يطيل القيام فيها ، وقد روى المغيرة « أنه صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا » ؟ وفى رواية أنه قال له جبريل أبق على نفسك ، فان لها عليك حقا فأنزل الله سبحانه وتعالى « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » كذا فى حاشية البردة (فيقولون) أى الصحابة (أتفعل هذا) أى قيام الليل (يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول) عليه الصلاة والسلام (أفلا أكون عبدا شكورا) قال العراقى رواه

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: «لَوْ أَنِّي وَعِيسَى أُوخِذْنَا بِمَا كَسَبَتْ هَاتَانِ لَعُذِّبْنَا عَذَابًا لَمْ يُعَذَّبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ».

وَكَانَ يُصَلِّي اللَّيْلَ وَيَبْكِي وَيَقُولُ: «أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَبِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

الشيخ ابن حبان فى كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى عن عطاء بن أبى رباح قال «دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فبكت وقالت وأى شأنه لم يكن عجبا إنه أتانى ليلة فدخل معى في فراشى أو قالت فى لحافي حتى مس جلدى جلده. ثم قال يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى قالت قلت إنى أحب قربك لكنى أوثر هواك فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلى فبكى وهو قائم حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى وهو راكع، ثم رفع رأسه فبكى، ثم سجد فبكى: ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فاذنه بالصلاة، فقالت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا؟ ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله على: «إن فى خلق السموات والأرض الآية». قال ابن حجر فى شرح الشمائل وقد ظن من سأله صلى الله عليه وسلم فى سبب تحمله المشقة فى العبادة أن سببها إما خوف الذنب أو رجاء المغفرة فأفادهم أن لها سببا آخر أتم وأكمل هو الشكر على التأهل لها مع المغفرة وإجزال النعمة وهو أعنى الشكر الاعتراف بالنعمة والقيام فى الخدمة ببذل المجهود فمن أدام ذلك كان شكورا وقليل ما هم، ولم يفز أحد بكمال هذه المرتبة غير نبينا صلي الله عليه وسلم، ثم سائر الأنبياء عليهم السلام، وإنما ألزموا بذلك فى الجد فى العبادة وعظيم الخشية لعلمهم بعظيم نعمة ربهم عليهم ابتداء بها فضلا ومنة من غير سابقة توجب استحقاقها أداء لبعض الشكر وإلا فحقوقه تعالى أعظم من أن يقوم بها أحد من خلقه (وكان عليه السلام يقول: لو أنى وعيسى أخذنا بما كسبت هاتان) أشار بأصبعيه إلى نفسه وإلى نفس عيسى عليهما الصلاة والسلام (لعذبنا عذابا لم يعذبه) أى لم يعذب بذلك العذاب (أحد من العالمين. و) قد روى أنه (كان) صلى الله عليه وسلم (يصلى الليل ويبكى ويقول) فى سجوده: «اللهم إنى (أعوذ بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك) أى لا أطيقه ولا آتى عليه، وقيل لا أحيط به. وقال مالك رحمه الله معناه لا أحصى نعمتك وإحسانك والثناء بها عليك وإن اجتهدت فى الثناء عليك (أنت كما أثنيت على نفسك») اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته ورد للثناء إلى الجملة دون التفصيل والاحصاء والتعيين فوكل ذلك إلى الله سبحانه وتعالي المحيط بكل شىء جملة وتفصيلا، وكما أنه لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه لأن تابع الثناء للمثنى عليه وكل ثناء أثنى به عليه وإن كثر وطال وبولغ فيه فقدر الله أعظم مع أنه متعال عن القدر وسلطانه أعز وصفاته أكبر

ثُمَّ الصَّحَابَةُ الذينَ هُمْ خَيْرُ قَرْنٍ فى خَيْرِ أُمَّةٍ ، كَانَ يَبْدُو مِنْهُمْ شَىْءٌ مِنَ المزَاحِ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعالَى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ) .

وأكثر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ . وفى هذا الحديث دليل لأهل السنة فى جواز إضافة الشر إلى الله تعالى كما يضاف إليه الخير لقوله «وبرضاك من سخطك» . قال الإمام أبو سليمان الخطابى رحمه الله تعالى فى هذا معنى لطيف وذلك أنه استعاذ بالله تعالى وسأله أن يجيره برضاه من سخطه وبعفوه من عقابه والرضا. والسخط ضدان متقابلان ، وكذلك العفو والعقاب، فلما صار إلى ذكر مالاضد له وهو الله سبحانه وتعالى استعاذ به منه لا غير ، ومعناه الاستغفار من التقصير فى بلوغ الواجب من حق عبادته والثناء عليه أخرجه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فى سجوده قاله العراقى . قلت قال مسلم حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أبو أسامة هو حماد بن أسامة عن عبد الله بن عمر عن محمد بن يحى بن حبان عن الأعرج عن أبى هريرة عن عائشة رضى الله عنها قالت « فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وأخرجه الإمام أحمد عن أبى أسامة قال الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث الأذكار : وفى السند لطيفة وهى رواية صحابى عن صحابى أبو هريرة عن عائشة (ثم الصحابة الذين هم خير قرن فى خير أمة) ومعنى القرن هو أهل زمان واحد متقارب اشتركوا فى أمر من الأمور المقصودة كالصحابة فانهم اشتركوا فى الصحبة وهكذا من بعدهم، وقيل معناه الزمان الذى اشترك أهله فى الأمر المذكور ، وسمى قرنا لأنه يقرن أمة بأمة وعالما بعالم . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خير أمتي القرن الذين يلونى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » وظاهره أن مابعد القرون الثلاثة سواء فى الفضيلة وذهب جماعة إلى تفاوت بقية القرون بالسبقية فكل قرن أفضل من الذى بعده إلى يوم القيامة لحديث « مامن يوم إلا والذى بعده شر منه وإنما يسرع بخياركم » لكن قد ورد « مثل هذه الأمة مثل المطر لايدرى أوله خير أو آخره » والعيان قاض بذلك (كان) أى الحال والشأن (يبدو) أى يظهر (منهم) أى الصحابة رضوان الله عليهم (شىء من المزاح فنزل قوله تعالى ألم يأن) يحن (للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم) أى تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن (لذكر الله) وفى الخازن : قيل نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم قالوا لسلمان الفارسى ذات يوم : حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزل « نحن نقص عليك أحسن القصص » فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره فكفوا عن سؤال سلمان ماشاء الله ثم عادوا فسألوه مثل ذلك فنزل « الله نزل أحسن الحديث » الآية فكفوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فسألوه فنزلت هذه الآية ، فعلى هذا القول يكون تأويل قوله « ألم يأن للذين آمنوا » يعنى فى العلانية باللسان ولم يؤمنوا بالقلب . وقيل نزلت فى المؤمنين وذلك أنهم لما قدموا

الآيَة ثُمَّ وَضَعَ فِى هٰذِهِ الْأُمَّةِ مَعَ كَوْنِهَا مَرْحُومَةَ الْحُدُودِ وَالسِّيَاسَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالْآدَابِ ، حَتَّى كَانَ يُونُسُ بْنِ عُبَيْدٍ يَقُولُ : لَا تَأْمَنْ مَنْ قَطَعَ فِى خَمْسَةِ دَرَاهِمَ خَيْرَ عُضْوٍ مِنْكَ أَنْ يَكُونُ غَدًا عَذَابَهُ هٰكَذَا ، نَسْأَلُ اللّٰهَ تَعَالَى الرَّحِيمَ الْكَرِيمَ سُبْحَانَهُ ، أَنْ لَا يُعَامِلَنَا إِلَّا بِمَحْضِ كَرَمِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ؛ وَأَمَّا مِنْ جَانِبِ الرَّجَاءِ : فَحَدِّثْ عَنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ الْوَاسِعَةِ وَلَا حَرَجَ ، وَمَنِ الَّذِى يَعْرِفُ غَايَتَهَا أَوْ يَعْرِفَ وَصْفَهَا وَنِهَايَتَهَا ، فَإِنَّهُ الَّذِى يَهَبُ كُفْرَ سَبْعِينَ سَنَةٍ بِإِيمَانِ سَاعَةٍ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) .

المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزل فى ذلك « ألم يأن للذين آمنوا » الآية . قال ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين أخرجه مسلم . وقال ابن عباس: إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، فقال « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » أى لمواعظ الله (الآية) أى اقرأ آخرها وهو قوله تعالى « وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتو الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (ثم وضع) الله تعالى (فى هذه الأمة مع كونها مرحومة الحدود والسياسات العظيمة والآداب حتى كان يونس ابن عبيد)التابعى الجليل اتفقوا على جلالته وتوثيقه ، توفى سنة تسع وثلاثين ومائة (يقول:لاتأمن من قطع) أى الله سبحانه وتعالى (فى خمسة دراهم خير عضو منك أن يكون غدا) أي فى الا خرة (عذابه هكذا نسأل الله تعالى الرحيم الكريم سبحانه أن لا يعاملنا إلا بمحض كرمه إنه أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (وأما) ذكر أفعاله تعالى (من جانب الرجاء فحدث عن رحمة الله الواسعة ولا حرج) أى لا ضيق (ومن الذى يعرف غايتها) أى لا أحد يعرف غاية الرحمة (أو يعرف وصفها ونهايتها فإنه) تعالى (الذى يهب كفر سبعين سنة بإيمان ساعات . قال الله تعالى قل) يا محمد (للذين كفروا إن ينتهوا) عن الشرك (يغفر لهم ما قد سلف) يعنى ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الإسلام، تمام الآية « وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » يعنى فى إهلاك أعدائه ونصر أوليائه ، ومعنى الآية أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن الكفر ودخلوا فى دين الإسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وشركهم ، وإن عادوا إلى الكفر وأصروا عليه فقد مضت سنة الأولين بإهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه . وأجمع العلماء على أن الإسلام يجب ما قبله ؟ وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شىء من قضاء العبادات البدنية والمالية وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمه ، يعنى بذلك أنه ليس عليه ذنب . قال يحى بن معاذ الرازى : التوحيد لم يعجز عن

أَمَا تَرَى فِى أَمْرِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ الذِينَ جَاءُوا لِحَرْبِهِ ، وَحَلَفُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ عَدُوِّهِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ رَأَوْا آيَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعَرَفُوا الْحَقَّ فَقَالُوا : (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

هدم ما قبله من كفر فارجعوا أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب (أما ترى فى أمر سحرة فرعون الذين جاءوا لحربه) أى حرب حبيبه موسى عليه الصلاة والسلام (وحلفوا) أى السحرة (بعزة فرعون عدوه). واختلفوا فى عدد السحرة الذين جمعهم فرعون ؟ فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بنى إسرائيل . وقال الكلبى كانوا سبعين غير رئيسهم . وقال كعب الأحبار : كانوا اثنى عشر ألفا . وقال محمد بن إسحاق : كانوا خمسة عشر ألفا . وقال عكرمة كانوا سبعين ألفا . وقال محمد بن المنكدر : كانوا ثمانين ألفا وقال السدى: كانوا بضعا وثمانين؛ ويقال رئيس القوم شمعون. وقيل يوحنا (فما كان إلا أن رأوا) أى أولئك السحرة (آية موسى عليه السلام) وهى عصاه المنقلبة حية . قال المفسرون : أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن لا تخف وألق عصاك فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق. قال ابن زيد : كان اجتماعهم بالإسكندرية ، فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فإذا هى تلقف : يعنى تبتلع كل شىء أتوا به من السحر ، فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات من ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ، ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت فى يده عصا كما كانت أول مرة ، فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه من أمر السماء وليس بسحر وعرفوا أن ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم (فعرفوا الحق) الذى جاء به موسى عليه السلام (فقالوا آمنا برب العالمين) فقال فرعون : إياى تعنون ، فقالوا بل رب موسى وهرون . قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة تؤمن بى إن غلبتك ، فقال لآتين بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتنى لأومنن بك . وقيل إن الحبال والعصى التى كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها قال بعضهم لبعض : هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو إلا من أمر السماء فآمنوا به وصدقوه. فإن قلت كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الإيمان فى قوله تعالى « وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين » . قلت لما قذف الله عز وجل فى قلوبهم الإيمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على هدايتهم إليه وعلى ما ألهمهم من الإيمان بالله وتصديق رسوله ، ثم أظهروا بعد ذلك إيمانهم ، وقيل لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه فى أمر العصا وأنه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر وزالت كل شبهة كانت فى قلوبهم بادروا إلى السجود لله تعظيما لشأنه لما رأوا من عظيم قدرته ، ثم أظهروا الإيمان باللسان . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر فخروا سجدا

وَلَمْ يُذْكَرْ أَنَّهُمْ زَادُوا عَلَيْهَا عَمَلاً ؛ ثُمَّ انْظُرْ كَمْ كَرَّرَ ذِكْرَهُمْ فِى مَعْنَى الْمَدْحِ فِى كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : وَكَمْ كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ غَفَرَهَا لَهُمْ بِإِيمَانِ سَاعَةٍ بَلْ لَحْظَةٍ ، فَمَا قَالُوا إِلاَّ أَنْ (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) عَنْ صِدْقِ الْقُلُوبِ كَيْفَ قَبِلَهُمْ وَوَهَبَ لَهُمْ جَمِيعَ مَا سَلَفَ، ثُمَّ كَيْفَ جَعَلَهُمْ رُءُوسَ الشُّهَدَاءِ فِى الْجَنَّةِ أَبَدَ الآبِدِينَ ،

وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون (ولم يذكر أنهم) أى السحرة (زادوا عليها) أى على هذه الكلمة (عملا ثم انظركم كرر) سبحانه وتعالى (ذكرهم فى معنى المدح فى كتابه العزيز ، وكم كبائر وصغائر) من ذنوبهم (غفرها) تعالى (لهم بإيمان ساعة بل لحظة ، فما قالوا إلا أن آمنا برب العالمين) رب موسى وهارون (عن صدق القلوب كيف قبلهم ووهب لهم جميع ما سلف ، ثم كيف جعلهم رءوس الشهداء فى الجنة أبد الآبدين) أى زمن الأشخاص الذى لا نهاية له . قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء . قال الكلبى إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم ، وقال غيره إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى « لا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .

قصـــــة

قال ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحق دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا : لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين ، وهو القحط ونقص الثمرات ، وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال : يارب إن عبدك فرعون علا فى الأرض وبغى وعتا وإن قومه قد نقضوا العهد ، رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة ، فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء فأرسل الله عليهم المطر من السماء وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط مختلطة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء إلى تراقيهم . ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء فى بيوت بنى إسرائيل شىء وركد الماء على أرضهم فلم يقدروا على التحرك ولم يعملوا شيئا ، ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت . وقال مجاهد وعطاء : الطوفان الموت . وقال وهب : الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن . وقال أبو قلابة : الطوفان الجدرى ، وهم أول من عذبوا به ثم بقى فى الأرض . وقال مقاتل : الطوفان الماء طفا فوق حروثهم ، وفي رواية ابن عباس رضى الله عنهما : أن الطوفان أمر من الله عز وجل طاف بهم ، فعند ذلك قالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا المطر نؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه

فرفع عنهم الطوفان وأنبت الله لهم تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم فقالوا : ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وورق الشجر وأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة وأكل مسامير الحديد التى فى الأبواب وغيرها وابتلى الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بنى إسرائيل من ذلك شىء فعجوا وضجوا وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه بذلك فدعا موسى ربه عز وجل فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت .

وفى الخبر « مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم » . ويقال إن موسى عليه الصلاة والسلام خرج إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد من حيث جاء ، وكان قد بقى من زروعهم وثمارهم بقية فقالوا قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركى ديننا فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وعادوا إلى أعمالهم الخبيثة فأقاموا شهرا فى عافية ، ثم بعث الله عز وجل عليهم القمل . واختلفوا فيه؛ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن القمل هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، وقال مجاهد وقتادة والسدى والكلبى القمل الدبى وهو صغار الجراد الذى لا أجنحة له . وقال أبو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من الجراد . وقال عطاء الخراسانى: هو القمل نفسه. وكان الحسن يقرأ بفتح القاف وسكون الميم. قال أصحاب الأخبار: أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام أن يمشى إلى كثيب رمل أعفر بقرية من قرى مصر تسمى عين شمس فمشى إلى ذلك الكثيب فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع مابقى من حروثهم وزروعهم وثمارهم فأكلها كلها ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه فإذا أكل أحدهم طعاما امتلأ قملا . قال سعيد بن المسيب : القمل السوس الذى يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذت أشعارهم وأبصارهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ولزم جلودهم كأنه الجدرى عليهم ومنعهم النوم والقرار ، فصرخوا بموسى إنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذ البلاء فدعا موسى ربه فرفع الله عنهم القمل بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا بعد ذلك ورجعوا إلى أخبث ما كانوا عليه من الأعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دواب ، فدعا موسى عليهم بعد ما أقاموا شهرا فى عافية فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد إناء ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل منهم يجلس فى الضفادع فتبلغ إلى حلقه ، فإذا أراد أن يتكلم يثب الضفدع فيدخل فى فيه ، وكانت تثب فى قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفئ نيرانهم ، وكان أحدهم إذا اضطجع ركبته الضفادع حتى تكون عليه ركاما فلا يستطيع أن ينقلب إلى شقه الآخر، وإذا أراد أن يأكل سبقه الضفدع إلى فيه ولا يعجن أحدهم عجينا إلا امتلأت ضفادع ولا يفتح قدرا إلا امتلأت ضفادع

فَهٰذَا حَالُ مَنْ عَرَفَهُ وَوَحَّدَهُ سَاعَةً بَعْدَ كُلِّ ذٰلِكَ السِّحْرِ وَالْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ فِى تَوْحِيدِهِ ، وَلَا يَرَى لِذٰلِكَ أَهْلاً فِى الدَّارَيْنِ غَيْرَهُ . أَمَا تَرَى أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ طُولَ أَعْمَارِهِمْ ،

فلقوا من ذلك بلاء شديدا . وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله عز وجل على آل فرعون وسمعت وأطاعت وجعلت تقذف بأنفسها فى القدور وهى تغلى على النار وفى التنانير وهى تفور أثابها الله عز وجل بحسن طاعتها بردها إلى الماء ، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام ما يلقونه من الضفادع وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود، فأخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله عز وجل فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقامت عليهم سبعا من السبت إلى السبت فأقاموا شهرا فى عافية ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فأرسل الله عز وجل عليهم الدم فسال النيل عليهم دما عبيطا وصارت مياههم كلها دما وكل ما يستقون من الآبار والأنهار يجدونه دما عبيطا فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا ليس لنا شراب إلا الدم فقال سحركم ، فقالوا من أين يسحرنا ونحن لانجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا دما عبيطا؟ فكان فرعون يجمع بين القبطى والإسرائيلى على إناء واحد فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما ويفرغان الجرة فيها الماء فيخرج للقبطى دما وللاسرائيلى ماء حتى إن المرأة من آل فرعون تأتى إلى المرأة من بنى إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول لها اسقينى من مائك فتصب لها فى قربتها فيصير فى الإناء دما حتى كانت تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فمى فتفعل ذلك فيصير دما ، ثم إن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا على ذلك سبعة أيام لايشربون إلا الدم . وقال زيد بن أسلم إن الدم الذى سلط الله عز وجل عليهم كان الرعاف فأتوا موسى عليه الصلاة والسلام وشكوا إليه مايلقون وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا ، فذلك قوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » (فهذا) أى الحال المذكور (حال من عرفه) تعالى (ووحده ساعة بعد كل ذلك السحر والكفر والضلال والفساد فكيف حال من أفنى عمره فى توحيده ولا يرى لذلك) التوحيد (أهلا فى الدارين) أى الدنيا والآخرة (غيره ؟ أما ترى أصحاب الكهف) والكهف: الغار الواسع فى الجبل (وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم) وقد ذكر العلامة الخازن قصتهم الطويلة وأحببت إيرادها فى هذا المقام لتتميم الفائدة . قال محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار : مرج أمر أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده ، وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الأصنام

وذبح للطواغيت وقتل من خالفه ، وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحدا إلا فتنه عن دينه حتي يعبد الأصنام أو يقتله ، فلما نزل مدينة أصحاب الكهف واسمها أفسوس استخفى منه أهل الإيمان وهربوا فى كل وجه ، فاتخذ شرطا من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم فجعل أولئك الشرط يتبعون أهل الإيمان فى أماكنهم ويخرجونهم إلى دقيانوس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأصنام ، فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبي أن يعبد غير الله فيقتل ؛ فلما رأى ذلك أهل الشدة فى الإيمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ويجعل ما قطع من أجسادهم على أسوار المدينة وأبوابها ، فلما عظمت الفتنة وكثرت ورأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء وكانوا من أشرف الروم وهم ثمانية نفر وبكوا وتضرعوا إلى الله عز وجل وجعلوا يقولون « ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا » اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلاهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجودا يبكون ويتضرعون إلى الله عز وجل ، فقال لهم الشرط ما خلفكم عن أمر الملك ثم انطلقوا إلى الملك فأخبروه خبر الفتية فبعث إليهم ، فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التى نعبد فى الأرض وتجعلوا أنفسكم أسوة أهل مدينتكم اختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا وإما أن أقتلكم ، فقال مكسلمينا وهو أكبرهم إن لنا إلها ملء السموات والأرض عظمته لن ندعو من دونه إلها أبدا له الحمد والتكبير من أنفسنا خالصا أبدا إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير ، فأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع بنا ما بدالك . وقال أصحابه مثل ذلك ، فلما سمع الملك كلامهم أمر بنزع ثيابهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة وما يمنعنى أن أعجل ذلك لكم إلا أنى أراكم شبابا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه فترجعون إلى عقولكم ، ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس إلى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره ، فلما رأى الفتية خروجه بادروا وخافوا إذا قدم أن يذكرهم فأتمروا بينهم واتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له ينجلوس فيمكثوا فيه ويعبدوا الله إذا جاء دقيانوس أتوه فيصنع بهم ما يشاء ، فلما اتفقوا على ذلك عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقى معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فمكثوا فيه . وقال كعب الأحبار : مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا ، فقال الكلب ما تريدون منى لا تخشوا منى أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم . وقال ابن عباس : هربوا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعهم الكلب فخرجوا من البلد إلى الكهف . قال ابن عباس : فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء لوجه الله عز وجل وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم إسمه تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من

المدينة سرا ، وكان من أجملهم وأجلدهم وكان إذا دخل المدينة لبس ثيابا رثة كثياب المساكين ثم يأخذ ورقه فينطلق إلى المدينة فيشترى لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشىء ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك ما شاء الله أن يلبثوا ، ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشترى لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل فأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوذون من الفتنة ، فقال لهم تمليخا يا إخوتاه ارفعو رؤوسكم وأطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض من الدمع ، وذلك عند غروب الشمس ، ثم جلسوا يتحدثون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله عز وجل على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رءوسهم ، فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم ، فقال لبعض عظماء المدينة لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبو لقد ظنوا أن بى غضبا عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمرى ما كنت لأجهل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتى ، فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا فى ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا ، فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا وأرسل إلى آبائهم فأتى بهم ، فقال أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى فقالوا أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة إنهم ذهبوا بأموالنا وأهلكوها فى أسواق المدينة ، ثم انطلقوا إلى جبل يدعى ينجلوس. فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل مايدرى ما يصنع بالفتية فألقى الله سبحانه وتعالى فى نفسه أن يأمر بسد باب الكهف عليهم وأراد الله عز وجل أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور، فأمر دقيانوس بالكهف فسد عليهم وقال دعوهم كما هم فى كهفهم يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون مايصنع بهم وقد توفى الله عز وجل أرواحهم وفاة نوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم إن رجلين مؤمنين فى بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما بيدروس واسم الآخر روناس اهتما أن يكتبا شأن هؤلاء الفتية وأسماءهم وأنسابهم وأخبارهم فى لوحين من رصاص ويجعلاهما فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان وقالا لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقى دقيانوس ما بقى ، ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك . وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها ، وكان معهم كلب صيد لهم ، وكان أحدهم وزير الملك فقذف الله سبحانه وتعالى الإيمان فى قلوبهم فآمنوا وأخفى كل واحد إيمانه وقال فى نفسه أخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنى عقاب بجرمهم فخرج

شاب منهم حتي انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره وجلس إليه من غير أن يظهر على أمره ، ثم خرج آخر فخرجوا جميعا فاجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ماجمعكم وكل واحد يكتم إيمانه من صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ويفشى كل واحد سره إلى صاحبه ففعلوا ذلك فاذا هم جميعا على الإيمان وإذا الكهف في جبل عظيم قريب منهم ، فقال بعضهم لبعض « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته » فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيد فناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فكتبوا أسماءهم وأنسابهم فى لوح : فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم فى شهر كذا فى سنة كذا فى مملكة فلان بن فلان الملك ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا ليكون لهؤلاء شأن ، ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن . قال محمد بن إسحاق : ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح ، يقال له بيدروس فلما ملك بقي ملكه ثمانيا وستين سنة فتحزب الناس فى ملكه فكانوا أحزابا : منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ، ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع إلى الله وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون : لا حياة إلا الحياة الدنيا ، وإنما تبعث الأرواح دون الأجساد وجعل بيدروس الملك يرسل إلى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين ؟ فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبكى ويقول : رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بطلان ما هم عليه .

ثم إن الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذى يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ويستجيب لعبده الصالح بيدروس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين . فألقى الله سبحانه وتعالى فى نفس رجل من أهل ذلك البلد الذى فيه ذلك الكهف . وكان اسمه أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف ويبنى به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ماكان على باب الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله تعالى عن الناس بالرعب . فلما فتح باب الكهف أذن الله سبحانه وتعالى ذو القدرة والسلطان محي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرانى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون لايرى فى وجوههم ولا ألوانهم شىء يكرهونه وأنهم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن دقيانوس فى طلبهم ، فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم : أنبئنا بما قال الناس فى شأننا أمس عند هذا الجبار وهم يظنون أنهم قد رقدوا كبعض ماكانوا يرقدون ، وقد خيل إليهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم ، فقال بعضهم لبعض « كم لبثتم » نياما « قالوا لبثنا

يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم » وكل ذلك فى أنفسهم يسير ، فقال لهم تمليخا : قد التمستم فى المدينة ، وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل ، فقال لهم مكسلمينا يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذ دعاكم عدو الله ، ثم قالوا لتمليخا : انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذى يذكر فينا عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتغ لنا طعاما فأتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التى كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس ، وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا ، فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق تخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس وأهله هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة . فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة كانت لأهل الايمان إذا كان أمر الايمان ظاهرا فيها . فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها يمينا وشمالا ثم ترك ذلك الباب ومضى إلى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل إليه أن المدينة ليست بالتى كان يعرف ورأى أشخاصاً كثيرة محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشى ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران ، ثم رجع إلى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول : ياليت شعرى ما هذا ؟ أما عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة فى هذه المدينة ويستخفون بها واليوم ظاهرة لعلى نائم حالم ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشى فى أسواقها فسمع ناسا يحلفون باسم عيسى ابن مريم فزاده ذلك تعجبا ورأى أنه حيران فقام مسندا ظهره إلى جدران المدينة وهو يقول فى نفسه : والله ما أدرى ماهذا . أما عشية أمس فليس كان على الأرض من يذكر عيسى بن مريم إلا قتل وأما اليوم فاسمع كل إنسان يذكر عيسى ابن مريم لا يخاف ، ثم قال فى نفسه : لعل هذه ليست بالمدينة التى أعرف والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يافتى فقال اسمها أفسوس فقال فى نفسه : لعل بى مسا أو أمرا أذهب عقلي والله يحق لى أن أسرع الخروج قبل أن يصيبنى فيها شر فأهلك فمضى إلى الذين يبتاعون الطعام فأخرج لهم الورق التي كانت معه وأعطاها رجلا منهم وقال له : بعنى بهذه الورق طعاما فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورق ونقشها فعجب منها فناولها رجلا آخر من أصحابه فنظر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل ويتعجبون منها ويتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض : إن هذا أصاب كنزا خبيئا فى الأرض منذ زمان طويل فلما رآهم تمليخا يتحدثوا فيه فرق فرقا شديدا وخاف وجعل يرعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس وجعل أناس يأتونه ويتعرفونه فلا يعرفونه ، فقال لهم وهو شديد الخوف منهم أفضلوا على قد أخذتم ورقى فأمسكوها . وأما طعامكم فلا حاجة لى به ، فقالوا له يا فتى : من أنت وما شأنك ، والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت ، وإنك إن لم تفعل

نحملك إلى السلطان فنسلمك إليه فيقتلك ، فلما سمع قولهم قال : والله قد وقعت فى كل شىء أحذر منه ، فقالوا له : يافتى إنك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت وجعل تمليخا ما يدرى ما يقول لهم وخاف حتى لم يجر على لسانه إليهم شىء ، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه فى عنقه وجعلوا يسحبونه فى سكك المدينة حتى سمع به من فيها . وقيل قد أخذ رجل معه كنز فاجتمع عليه أهل المدينة وجعلوا ينظرون إليه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه ، وجعل تمليخا لا يدرى ما يقول لهم ، وكان متيقنا أن أباه وإخوته بالمدينة وأنه من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به ، فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متي يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم إذ اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيس المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس واسم الآخر طنطيوس فلما انطلقوا به إليهما ظن تمليخا أنه إنما ينطلق به إلى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وهو يبكى والناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ علي اليوم صبرا وأولج معى روحا منك تؤيدنى به عند هذا الجبار ، وجعل يقول فى نفسه : فرقوا بينى وبين إخوتى ، ياليتهم يعلمون ما لقيت وياليتهم يأتوننى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار ، فانا قد كنا تواثقنا على الإيمان بالله ، وأن لا نشرك به أحدا أبدا ، ولا نفترق فى حياة ولا موت ، فلما انتهى إلى الرجلين الصالحين أريوس ، وطنطيوس ورأى أنه لم يذهب إلي دقيانوس أفاق وذهب عنه البكاء ، وأخذ أريوس وطنطيوس الورق ونظرا إليها وعجبا منها وقالا : أين الكنز الذى وجدت يافتى؟ فقال تمليخا: ماوجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائى ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدرى ما شأنى وما أقول لكم . فقال له أحدهما ممن أنت فقال تمليخا : أما أنا فكنت أرى أنى من أهل هذه المدينة ، فقيل له ومن أبوك ومن يعرفك بها ؟ فأخبرهم باسم أبيه فلم يوجد من يعرفه ولا أباه . فقال له أحدهما : أنت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض من حوله : هذا رجل مجنون ، وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكى ينفلت منكم ، فقال له أحدهما ونظر إليه نظرا شديدا . أتظن أنا نرسلك ونصدقك بان هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها ولهذه الورق أكثر من ثلاثمائة سنة وأنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه المدينة بأيدينا ، وليس عندنا من هذه الضرب درهم ولا دينار ؛ وإني لأظننى سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذى وجدته فقال لهم تمليخا : أخبرونى عما أسألكم عنه ، فان أنتم فعلتم صدقتكم عما عندى ، فقالوا له سل لا نكتمك شيئا ، فقال : فما فعل الملك دقيانوس ؟ فقالا : ما نعرف على وجه الأرض من اسمه دقيانوس ولم يكن إلا ملك هلك فى الزمان الأول وله دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة فقال تمليخا إنى إذا لحيران وما

وما يصدقنى من الناس فيما أقول لقد كنا فتية على دين واحد وإن الملك أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت فهربنا عنه عشية أمس فأتينا إلى الكهف الذى فى جبل ينجلوس فنمنافيه فلما انتبهنا خرجت لأشترى لأصحابى طعاما أتجسس الأخبار فاذا أنا معكم كما ترون فانطلقوا معى إلى الكهف أريكم أصحابى ، فلما سمع أريوس قول تمليخا قال : يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله عز وجل لكم على يدى هذا الفتى فانطلقوا بنا معه حتى يرينا أصحابه ، فانطلق أريوس وطنطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم ، فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذى كان يأتى فيه ظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس ، فبينماهم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث بهم إليهم ليؤتى بهم فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا فانه الآن بين يدى الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينماهم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة إذ هم بأريوس وأصحابه وقوفا على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكى ، فلما رأوه يبكى بكوا معه ، ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمن الطويل وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا أن الساعة لا ريب فيها ، ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من علماء أهل المدينة وأمر بفتح التابوت بحضرتهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما : مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس ويبرونس وديموس وبطيوس وقالوس والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف ، فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر بهم ، فلما قرءوه عجبوا وحمدوا الله تعالى سبحانه الذى أراهم آية تدلهم على البعث ، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ، ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أريوس وأصحابه سجودا لله وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذى أراهم آية من آياته ، ثم كلم بعضهم بعضا وأخبرهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس ، ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا بريدا إلى ملكهم الصالح بيدروس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك للناس آية لتكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث وذلك أن فتية بعثهم الله ، وقد كان توفاهم منذ ثلاثمائة سنة وأكثر ، فلما أتى الملك الخبر رجع عقله إليه وذهب همه ، وقال أحمدك اللهم رب السموات والأرض وأعبدك وأسبح لك تطولت على ورحمتنى ولم تطفىء الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح بيدروس ، ثم أخبر بذلك أهل مدينته فركب وركبوا معه حتى أتو مدينة أفسوس فتلقاهم أهلها وسارعوا معه نحو الكهف ، فلما صعد الجبل ورأى الفتية بيدروس فرح بهم

(إِذْ قَامُوا فَقَالُوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا) وَالْتَجَأُوا إِلَيْهِ ، كَيْفَ قَبِلَهُمْ وَوَهَبَ لَهُمْ ثُمَّ أَعَزَّهُمْ وَأَكْرَمَهُمْ فَقَالَ : (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) وَكَيْفَ أَعْظَمَ لَهُمُ الْحُرْمَةَ ، وَأَلْبَسَهُمُ الْمَهَابَةَ وَالْخَشْيَةَ ، حَتَّى يَقُولُ

وخر ساجدا على وجهه وقام بيدروس الملك قدامهم ، ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه ، ثم قال الفتية لبيدروس الملك نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الإنس والجن ، فبينما الملك قائم إذا هم رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم ، فقام الملك إليهم وجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من ذهب ، فلما أمسى ونام أتوه فى منامه فقالوا له إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه ، فأمر الله عند ذلك بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب ولم يقدر أحد أن يدخل عليهم ، وأمر الملك أن يتخذوا على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة ؛ وقيل إن تمليخا حمل إلى الملك الصالح ، فقال له الملك من أنت ؟ قال : أنا رجل من أهل هذه المدينة ، وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام ، وذكر منزله وأتوا مالم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أن فتية قد فقدوا فى الزمان الأول وأن أسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانة فدعا باللوح ونظر فى أسمائهم فإذا اسمه مكتوب ، وذكر أسماء الآخرين فقال : تمليخا هم أصحابى فلما سمع الملك ركب ومن معه من القوم ، فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى أدخل على أصحابى فأبشرهم فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم ، فدخل تمليخا فبشرهم فقبض الله روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدو إليهم فذلك قوله عز وجل « إذ أوى الفتية إلى الكهف » : أى صاروا إلى الكهف واسمه خيرم « فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة » : أى هداية في الدين « وهيء لنا » : أى يسر لنا « من أمرنا رشدا » : أى ما نلتمس منه رضاك وما فيه رشدنا . وقال ابن عباس : أى مخرجا من الغار فى سلامة (إذ قاموا يعنى بين يدى دقيانوس الجبار حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام (فقالوا) أى الفتية (ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه) لن نعبد من دون الله (إلها) ربنا ، إنما قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأصنام (والتجأوا) أى أصحاب الكهف (إليه) تعالى (كيف قبلهم ووهب لهم ، ثم أعزهم وأكرمهم) بأنواع الكرامات (فقال) تعالى (ونقلبهم) فى رقدتهم (ذات اليمين وذات الشمال) . قال ابن عباس : كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم ، قيل كانوا يقلبون فى يوم عاشوراء ؛ وقيل كان لهم فى السنة تقليبتان (وكيف أعظم) الله تعالى (لهم الحرمة وألبسهم المهابة والخشية حتى يقول)

لِأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَيْهِ : (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) بَلْ كَيْفَ أَكْرَمَ كَلْبًا تَبِعَهُمْ حَتَّى ذَكَرَهُ فِى كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ جَعَلَهُ مَعَهُمْ فِى الدُّنْيَا مَحْجُورًا وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ فِى الْآخِرَةِ مُكَرَّمًا؛ فَهَذَا فَضْلُهُ مَعَ كَلْبٍ خَطَا خُطُوَاتٍ مَعَ قَوْمٍ عَرَفُوهُ وَوَحَّدُوهُ أَيَّامًا مَعْدُودَةً مِنْ غَيْرِ عِبَادَةٍ أَوْ خِدْمَةٍ ، فَكَيْفَ فَضْلُهُ مَعَ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِى خَدَمَهُ وَوَحَّدَهُ وَعَبَدَهُ سَبْعِينَ سَنَةً ؟ وَكَيْفَ لَوْ عَاشَ سَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لَكَانَ قَاصِدًا لِلْعُبُودِيَّةِ .

أَمَا تَرَى كَيْفَ عَاتَبَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِى دُعَائِهِ عَلَى الْمُجْرِمِينَ بِالْهَلَاكِ ؟

سبحانه وتعالى (لأكرم الخلق) صلى الله عليه وسلم (عليه) أى عنده تعالى (لو اطلعت عليهم) يا محمد فى تلك الحال (لوليت منهم فرارا) لهربت منهم ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله من رقدتهم (ولملئت منهم رعبا) أى خوفا من وحشة المكان ، وقيل لأن أعينهم منفتحة كالمتيقظ الذى يريد أن يتكلم وهم نيام ، وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حس ولا إشعار ، وقيل إن الله سبحانه وتعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد . قال ابن عباس : غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف ، فقال معاوية : لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : قد منع ذلك من هو خير منك ، فقيل له « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا » فبعث معاوية ناسا فقال : اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم (بل كيف أكرم كلبا تبعهم) قال ابن عباس : كان كلبا أنمر ، وعنه أنه كان فوق القلطى ودون الكرزي والقلطى كلب صينى ، وقيل إنه كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة يضرب إلى حمرة ، وقال ابن عباس : كان اسمه قطمير ، وقيل ريان ، وقيل صهبان ، قيل ليس فى الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم (حتى ذكره) أى ذلك الكلب (فى كتابه العزيز مرات ، ثم جعله معهم فى الدنيا محجورا ويدخله الجنة فى الآخرة مكرما فهذا) أى الإكرام والإدخال (فضله) تعالى (مع كلب خطا خطوات مع قوم) وهم أصحاب الكهف (عرفوه) تعالى (ووحدوه أياما معدودة من غير عبادة أو خدمة فكيف فضله) تعالى (مع عبده المؤمن الذى خدمه) وأطاعه (ووحده وعبده سبعين سنة وكيف لو عاش) أى المؤمن (سبعين ألف سنة لكان قاصدا للعبودية ، أما ترى كيف عاتب) الله تعالى خليله (إبراهيم عليه السلام فى دعائه على) القوم (المجرمين بالهلاك) أى بهلاكهم وذلك كما روى عن قسامة بن زهير رضى الله عنه أنه قال : « بلغنى أن إبراهيم عليه السلام حدث نفسه أنه أرحم الخلق قال فرفعه الله تعالى حتى أشرف

وَكَيْفَ عَاتَبَ مُوسَى فى أَمْرِ قارُونَ ، فَقَالَ اُسْتَغَاثَ بِكَ قَارُونُ فَلَمْ تُغِثْهُ فَوَعِزَّتِى لَوِ اُسْتَغَاثَ بِى لَأَغَثْتُهُ وَعَفَوْتُ عَنْهُ .

على أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون فقال يارب دمرهم فقال الله تعالى «أنا أرحم بعبادى منك يا إبراهيم اهبط فلعلهم يتوبون ويرجعون» ، وعن علىّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لما أرى الله إبراهيم ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل بمعصية من معاصى الله عز وجل فدعا الله عليه فهلك ، وكذلك على آخر وآخر فهلكوا فأوحى الله إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعون على عبادى فإنهم منى على ثلاث خصال : إما أن يتوب العبد منهم فأتوب عليه ، وإما أن أخرج منه نسمة تسبح لى ، وإما أن يبعث إلى فان شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته » . وقيل إن سبب أمر الله له بذبح ولده هو هذا المعنى الذى ظهر منه من غلظته على العصاة وقلة رحمته لهم ، وقد ذكر في بعض التفاسير أنه عليه السلام كان يعرج به كل ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » فعرج به ذات ليلة فاطلع على مذنب على فاحشة فقال : اللهم أهلكه يأكل رزقك ويمشى على أرضك ويخالف أمرك فأهلكه الله تعالى ، فأطلع على آخر فقال : اللهم أهلكه فنودى كف عن عبادى رويدا رويدا فانى طالما رأيتهم عاصين فلما هبط أرى فى المنام ما ذكر الله تعالي حيث يقول : « إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى » فلما تشمر وأخذ السكين بيده قال : اللهم هذا ولدى وثمرة فؤادى وأحب الناس إلى فسمع قائلا يقول : أما تذكر الليلة التي سألت فيها إهلاك عبدى أو ما تعلم أنى رحيم بعبادى كما أنت شفيق بولدك فاذا سألتنى إهلاك عبدى أسألك ذبح ولدك واحد بواحد والبادى أظلم كذا ذكره العلامة الرندى (وكيف عاتب) سبحانه وتعالى نبيه (موسي) عليه السلام (فى أمر قارون) قيل كان ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث . وقيل كان عم موسى ، ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ منه للتوراة ، ولكنه نافق كما نافق السامرى (فقال) تعالى (استغاث بك قارون فلم تغثه فوعزتى) وجلالى (لو استغاث) قارون (بى لأغثته وعفوت عنه) ذنبه .

ذكر قصة قارون

قال أهل العلم بالأخبار والسير : كان قارون أعلم بنى إسرائيل بعد موسى وهارون وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا فى أرديتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكرونني به إذا نظروا إلى السماء ويعلمون أنى منزل منها كلامى ، فقال موسى يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا فان بنى إسرائيل تستصغر هذه الخيوط ، فقال له ربه : يا موسى إن

الصغير من أمرى ليس بصغير ، فاذا لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير فدعاهم موسى فقال إن الله يأمركم أن تعلقوا فى أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لكى تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعل بنو إسرائيل ماأمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه ، وقال إنما فعل هذا الأرباب بعبيدهم لكى يتميزوا عن غيرهم فكان هذا بدء عصيانه وبغيه ، فلما قطع موسى ببنى إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون وهى رياسة المذبح فكان بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون فيضعها على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك فى نفسه فأتى إلى موسى ، فقال له : ياموسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست فى شىء من ذلك وأنا أقرأ التوراة لا صبر لى على هذا ، فقال أما أنا ما جعلتها لهارون بل الله جعلها فقال له قارون والله لا أصدقك حتى ترينى بيانه فجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل ، فقال هاتوا عصيكم فحزمها وألقاها فى قبته التى يتعبد فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى : يا قارون ترى هذا ؟ فقال له قارون والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر واعتزل قارون موسى بأتباعه ، وجعل موسى يداريه للقرابة بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد إلا عتوا وتجبرا ومعاداة لموسى حتى بنى دارا وجعل لها بابا من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان الملأ من بنى إسرائيل يغدون إليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه . قال ابن عباس : فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه على كل ألف دينار عنها دينار وعلى كل ألف درهم عنها درهم ، وكل ألف شاة عنها شاة ، وكذلك سائر الأشياء ، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده شيئا كثيرا فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بنى إسرائيل وقال لهم إن موسى قد أمركم بكل شىء فأطعمتوه وهو يريد أخذ أموالكم ، فقالوا أنت كبيرنا فمرنا بما شئت قال آمركم أن تجيئوا فلانة البغى وتجعلوا عليكم لها جعلا على أن تقذف موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل فرفضوه فدعوها فجعل لها قارون ألف دينار وألف درهم وقيل طستا من ذهب وقيل قال لها قارون أنزلك وأخلطك بنسائى على أن تقذفى موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو إسرائيل فلما كان من الغد جمع قارون بنى إسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بنى إسرائيل ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم فخرج إليهم موسى وهم فى مرج من الأرض فقام فيهم فقال : يابنى إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة ومن زنى وله امرأة رجمناه إلى أن يموت ، فقال قارون وإن كنت أنت قال وإن كنت أنا قال : فان بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة البغى . قال ادعوها : فلما جاءت قال لها موسى بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله بالتوفيق ، فقالت فى نفسها أحدث توبة أفضل من أن أوذى رسول الله فقالت لا والله ، ولكن قارون جعل لى جعلا على أن أقذفك بنفسى فخر موسى ساجدا يبكى ويقول اللهم إن كنت رسولك فاغضب لى فأوحى الله إليه إنى أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت » فقال موسى يابنى إسرائيل إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه ، ومن كان معى فليعتزل ، فاعتزلوا فلم يبق مع قارون إلا رجلان ، ثم

وَكَيْفَ عَاتَبَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِى شَأْنِ قَوْمِهِ : بِأَنَّكَ تَحْزَنُ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ يَقْطِينٍ أَنْبَتُّهَا فِى سَاعَةٍ وَأَيْبَسْتُهَا فِى سَاعَةٍ ، وَلَا تَحْزَنُ عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ؛

قال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم بأقدامهم ، وقيل كان على سريره وفرشه فأخذته الأرض حتى غيبت سريره ، ثم قال يا أرض خذيهم فاخذتهم إلى الركب ثم قال يا أرض خذيهم فاخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وأصحابه فى ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشده قارون الله والرحم حتى قيل أنه ناشده أربعين مرة وقيل سبعين مرة وموسى فى ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه ثم قال يا أرض خذيهم فأطبقت عليهم الأرض فأوحى الله إلى موسى ما أغلظ قلبك يستغيث بك قارون سبعين مرة فلم تغثه أما وعزتى وجلالى لو استغاث بى مرة لأغثته ، وفى بعض الآثار لا أجعل الأرض بعدك طوعا لأحد . قال قتادة : خسف به الأرض فهو يتجلجل فى الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قرارها إلى يوم القيامة وأصبح بنو إسرائيل يقولون فيما بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض فذلك قوله تعالى « فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » (وكيف عاتب) الله تعالى نبيه (يونس عليه السلام فى شأن قومه بأنك تحزن على شجرة من يقطين) أى من شجر ينبسط على وجه الأرض ولا يقوم على ساقه كالقرع والقثاء والبطيخ ونحوه والأكثر على أنها كانت الدباء غطته بأوراقها عن الذباب لئلا يقع عليه وفى أخبار الدول وآثار الأول كان حين خرج من بطن الحوت كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش وهو قطعة لحم لم ينقص من خلقه شىء فأنبت الله عليه شجرة اليقطين وكان يوم خروجه من بطن الحوت سابع المحرم ، ثم أمر الله تعالى ظبية فأقبلت إليه ووقفت بين يدى يونس وكلمته باذن الله تعالى وأمرته أن يمص من لبنها ليقوى به فلما مص وشرب قوى فلم يزل على ذلك أربعين يوما فنام ثم انتبه فرأى اليقطينة قد يبست والظبية غابت عنه فجلس حزينا مغموما يبكى لفقدهما فأوحى الله تعالى إليه يا يونس إنك تبكى على ظبية لم ترزقها وعلى يقطينة لم تزرعها ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون من أولاد إبراهيم عليه السلام فعند ذلك هبط عليه ملك وأتاه بحلتين فلبسهما ، وقال له قم يا يونس إلى قومك فانهم يتمنون أن يروك فسار يونس عليه السلام (أنبتها) أى تلك الشجرة (فى ساعة وأيبستها فى ساعة) قيل أنبتها الله له لم تكن قبل ذلك وكانت معروشة ليحصل له الظل (ولا تحزن على مائة ألف) هم قومه الذين هرب عنهم وهم أهل نينوى (أو يزيدون) قال ابن عباس ويزيدون وقيل معناه بل يزيدون وقيل أو على أصلها . والمعنى أو يزيدون فى تقدير الرائى إذا رآهم قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على ذلك فالشك على تقدير المخلوقين والأصح هو قول ابن عباس الأول ، وأما الزيادة فقال ابن عباس كانوا عشرين ألفا ، ويعضده ما روى عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى « وأرسلناه إلى مائة ألف

ثُمَّ كَيْفَ قَبِلَ عُذْرَهُمْ ، وَصَرَفَ عَذَابَهُ الْعَظِيمَ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا أَضَلَّهُمْ ؟

ثُمَّ كَيْفَ عَاتَبَ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ صلى اللهُ عليه وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ ، فِيمَا رُوِىَ أَنَّهُ دَخَلَ مِنْ بَابِ بَنِى شَيْبَةَ فَرَأَى قَوْمًا يَضْحَكُونَ ، فَقَالَ لِمَ تَضْحَكُونَ ؟ لَا أَرَاكُمْ تَضْحَكُونَ ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ رَجَعَ إِلَيْهِمُ القَهْقَرَى وَقَالَ جَاءَنِى جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لَكَ : لِمَ تُقَنِّطُ عِبَادِى مِنْ رَحْمَتِى : (نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وَهٰذَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « للهُ أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا » وَفِى الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ عَنِ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليه وسلم :

أويزيدون » قال يزيدون عشرين ألفا أخرجه الترمذى وقال حديث حسن وقيل يزيدون بضعا وثلاثين ألفا وقيل سبعين ألفا (ثم كيف قبل) سبحانه وتعالى (عذرهم) أى قوم يونس عليه السلام (وصرف عذابه العظيم عنهم بعد ما أضلهم . ثم كيف عاتب) الله تعالى (سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله أجمعين فيما روى أنه دخل من باب بنى شيبة) ويقال له باب السلام وباب بنى عبد شمس بن عبد مناف وبه كان يعزف فى الجاهلية والإسلام (فرأى قوما يضحكون فقال) صلى الله عليه وسلم (لم) أى لأى شىء (تضحكون لا أراكم تضحكون حتي إذا كان) عليه الصلاة والسلام (عند الحجر الأسود رجع إليهم القهقرى) فى المختار: القهقرى الرجوع إلى خلف ورجع القهقرى : أى رجع الرجوع المعروف بهذا الاسم لأن القهقرى ضرب من الرجوع (وقال) عليه الصلاة والسلام (جاءنى جبريل فقال يا محمد إن الله تعالى يقول لك لم) أى لأى شىء (تقنط) أى تؤيس . فى المختار: القنوط اليأس وبابه جلس ودخل وطرب وسلم فهو قنط وقنوط وقانط (عبادى من رحمتى نبىء) أي أخبر (عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) ولفظ القشيرى فى الرسالة : وفى بعض التفاسير « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أصحابه من باب بنى شيبة فرآهم يضحكون فقال : تضحكون لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ثم مر ورجع القهقرى وقال نزل على جبريل وأتى بقوله : نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » ولفظ المصنف فى الإحياء ، ولما قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادى فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم » . قال العراقي : رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة وأوله متفق عليه من حديث أنس (وهذا رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول لله أرحم بالعبد المؤمن من الوالدة الشفيقة) أى المشفقة (بولدها) قال العراقي : متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب (وفى الخبر المشهور عن النبى صلي الله عليه وسلم

« إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ : فَوَاحِدَةٌ مِنْهَا قَسَّمَهَا بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ ؛ وَأُدَّخِرَ مِنْهَا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ لِنَفْسِهِ ، لِيَرْحَمَ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

«إن لله تعالى مائة رحمة) قال العزيزى حصره فى مائة على سبيل التمثيل وتسهيلا للفهم وتقليلا لما عند الخلق وتكثيرا لما عند الله سبحانه وتعالى . وأما مناسبة هذا العدد الخاص فقال ابن أبى جمرة : ثبت أن نار الآخرة تفضل نار الدنيا بتسعة وتسعين جزءا فإذا قوبل كل جزء برحمة زادت الرحمات ثلاثين جزءا، فالرحمة فى الآخرة أكثر من النقمة فيها ، ويؤيده قوله تعالى فى الحديث القدسى « غلبت رحمتى غضبى » انتهى . ويحتمل أن تكون مناسبة هذا الخاص لكونه مثل عدد درج الجنة والجنة هى محل الرحمة فكانت كل رحمة بازاء درجة . وقد ثبت أنه لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى فمن نالته منها رحمة واحدة كان أدنى أهل الجنة منزلة وأعلاهم من حصلت له جميع أنواع الرحمة ، وهذه الرحمات كلها للمؤمنين بدليل قوله تعالى « وكان بالمؤمنين رحيما » وأما الكفار فلا يبقى لهم حظ فى الرحمة لا من جنس رحمات الدنيا ولا غيرها (فواحدة) وهذه الرحمة الواحدة تعم كل موجود (منها) أى من المائة (قسمها) أى الواحدة (بين الجن والإنس والبهائم فبها) أى الرحمة الواحدة (يتعاطفون وبها يتراحمون، وادخر) أى أمسك (منها) أى من المائة (تسعة وتسعين) رحمة (لنفسه) جل وعز (ليرحم بها) أى بالتسعة والتسعين (عباده يوم القيامة») قال القرطبي : مقتضى هذا الحديث أن الله علم أنواع النعم التي ينعم بها على خلقه مائة نوع ، فأنعم عليهم فى هذه الدنيا بنوع واحد انتظمت به مصالحهم وحصلت به منافعهم . فإذا كان يوم القيامة أكمل لعباده المؤمنين ما بقي فبلغت مائة رحمة ، فالرحمة التي فى الدنيا يتراحمون بها أيضا يوم القيامة ويعطف بعضهم على بعض بها . وقال المهلب : الرحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها فى نفوسهم فى الدنيا هى التى يتقاضون بها يوم القيامة التبعات بينهم ، وفى الحديث بشارة للمسلمين لأنه إذا حصل للانسان من رحمة واحدة فى هذه الدار المبنية على الأكدار الإسلام والقرآن والصلاة والرحمة فى قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به فكيف الظن بمائة رحمة فى الآخرة وهى دار القرار ودار الجزاء . قال العراقى : رواه مسلم من حديث أبى هريرة وسلمان وكذلك رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه بعد قوله يتراحمون «وبها تعطف الوحش على ولدها» ، ورواه البيهقى من حديث أبى هريرة بلفظ « إن لله تعالى مائة رحمة قسم منها رحمة فى دار الدنيا فمن ثم يعطف الرجل على ولده والطير على فراخه فإذا كان يوم القيامة صيرها مائة رحمة فعاد بها على الخلق » ورواه الحاكم بلفظ « إن لله تعالى مائة رحمة قسم منها رحمة بين أهل الدنيا فوسعتهم إلى آجالهم وأخر تسعا وتسعين رحمة لأوليائه وإن الله قابض تلك الرحمة التى قسمها بين أهل الدنيا إلى التسع والتسعين فيكملها مائة رحمة لأوليائه يوم القيامة» وروى مسدد فى مسنده من حديث سلمان بلفظ «إن لله تعالى مائة رحمة منها رحمة تتراحم

وَإِذْ قَدْ أَعْطَاكَ مِنَ الرَّحْمَةِ الْوَاحِدَةِ كُلَّ هٰذِهِ الْعَطَايَا الْكَرِيمَةِ الْعَزِيزَةِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ ، وَالْكَوْنِ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ ، مَعَ مَعْرِفَةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، إِلَى سَائِرِ مَا لَدَيْكَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، فَمَرْجُوٌّ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ أَنْ يُتِمَّ ذٰلِكَ ، فَإِنَّ مَنْ بَدَأَ بِالْإِحْسَانِ فَعَلَيْهِ الْإِتْمَامُ ، وَيَجْعَلُ مِنْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً لَكَ الْحَظَّ الْوَافِرَ ، فَنَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يُخَيِّبَ

بها الخلق وتسعة وتسعين ليوم القيامة » ورواته ثقات . وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحيم ابن سليمان عن داود عن أبي عثمان عن سلمان قال : « خلق الله مائة رحمة فجعل منها رحمة بين الخلائق كل رحمة أعظم مما بين السماء والأرض ، فبها تعطف الوالدة علي ولدها وبها يشرب الطير والوحش الماء فإذا كان يوم القيامة قبضها الله من الخلائق فجعلها والتسع والتسعين للمتقين ، فذلك قوله : ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون » هكذا رواه موقوفا ، ورواه الحاكم بنحوه من حديث أبي هريرة ، ورواه الشيخان من حديث أبي هريرة « خلق الله مائة رحمة فوضع رحمة واحدة بين خلقه يتراحمون بها وخبأ عنده مائة إلا واحدة » . وقال ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة فجعل فى الأرض منها رحمة فبها تعطف الوالدة علي ولدها والبهائم بعضها على بعض وأخر تسعا وتسعين إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة رحمة » ومن هذا الوجه رواه أحمد وابن ماجه والضياء ورواه أحمد ومسلم وابن حبان من حديث أبي هريرة بزيادة كل رحمة « طباق ما بين السماء والأرض والباقى سواء » وروى الشيخان من حديث أبى هريرة « إن الله عز وجل خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة أرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بالذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار » وروى الطبرانى من حديث ابن عباس « إن الله تعالى خلق مائة رحمة منها واحدة قسمها بين الخلائق وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » . وروى تمام فى فوائده وابن عساكر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رفعه : « إن الله خلق مائة رحمة فبث بين خلقه رحمة واحدة فهم يتراحمون بها وادخر عنده لأوليائه تسعة وتسعين » ورواه الطبراني بنحوه (وإذ قد أعطاك) الله تعالى (من الرحمة الواحدة كل هذه العطايا الكريمة العزيزة من معرفته سبحانه والكون) أى كونك (من هذه الأمة المرحومة مع معرفة السنة والجماعة إلى سائر ما لديك) أى عندك (من النعم الظاهرة والباطنة فمرجو من فضله العظيم أن يتم) سبحانه وتعالى (ذلك) أى النعم (فإن من بدأ بالإحسان فعليه الإتمام ويجعل من تسع وتسعين رحمة لك الحظ الوافر) أى النصيب الكامل (فنسأل الله سبحانه أن لا يخيب

آمَالَنا مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ بِفَضْلِهِ ، إِنَّهُ السَّيِّدُ الْكَرِيمُ ، الْجَوَادُ الرَّحِيمُ .

﴿ وأَمَّا الأَصْلُ الثَّالِثُ ﴾ : فى ذِكرِ مَا وَعَدَ وَأَوْعَدَ فى المَعَادِ ، فَلْنَذْكُرْ فى ذَلِكَ الأَحْوَالَ الْخَمْسَةَ : المَوْتَ ، وَالْقَبْرَ ، وَالْقِيَامَةَ ، وَالْجَنَّةَ ،

آمالنا من فضله العظيم بفضله إنه السيد الكريم الجواد الرحيم . وأما الأصل الثالث فى ذكر ماوعد) من الثواب (و) ذكر (ماأوعد) من العقاب (فى المعاد) أى فى الآخرة لأنها معاد الخلق كلهم (فلنذكر فى ذلك أى الأصل الثالث (الأحوال الخمسة) الحالة الأولى (الموت) هو عند أهل السنة صفة وجودية قائمة بالميت يمكن رؤيتها تمنع اتصافه بالإدراك وعلى هذا فالتقابل بين الحياة والموت من تقابل الضدين ، ويدل لما قاله أهل السنة قوله تعالى « الذى خلق الموت والحياة » والخلق إنما يتعلق بالوجودى ، وقيل إن الموت عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيا وعلى هذا فالتقابل بين الموت والحياة من تقابل العدم والملكة ، وأجابوا عن الآية بأن المراد بالخلق التقدير وهو يتعلق بالوجودى والعدمي ، أو فى الكلام حذف مضاف : أى خالق أسباب الموت ، وقيل إن الموت عدم الحياة مطلقا فالجماد يوصف بالموت على هذا القول دون القولين الأولين ، وعلى هذا القول فالتقابل بين الموت والحياة تقابل النقيضين (و) الحالة الثانية (القبر) وهو إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران كما ورد فى الخبر (و) الحالة الثالثة (القيامة) أى يومها ، وأوله من وقت الحشر إلى مالا يتناهى على الصحيح ، وقيل إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وسمى بيوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم وقيامهم بين يدى خالقهم وقيام الحجة لهم وعليهم ، وله ثلثمائة اسم وعلاماته كثيرة ، فمنها ما قد وقع ومنها مالا يقع . وعلاماته الكبرى عشرة : أولها ظهور المهدى ثم خروج الدجال ثم نزول عيسى ابن مريم ثم خروج يأجوج ومأجوج وخروج الدابة التى تكتب بين عينى المؤمن مؤمنا فيضىء وجهه وبين عينى الكافر كافرا فيسود وجهه وطلوع الشمس من مغربها وظهور الدخان يمكث فى الأرض أربعين يوما يخرج من أنف الكافر وعينيه وأذنيه ودبره حتى يصير كالسكران ويصيب المؤمن منه كهيئة الزكام ، وخراب الكعبة على أيدى الحبشة بعد موت عيسى ورفع القرآن من المصاحف والصدور ورجوع أهل الأرض كلهم كفارا (و) الحالة الرابعة (الجنة) وهى دار الثواب .

واختلف فى الجنة هل هى سبع جنات متجاورة أفضلها وأوسطها الفردوس ، وهى أعلاها والمجاورة لا تنافى العلو وفوقها عرش الرحمن . ومنها تنفجر أنهار الجنة ، ويليها فى الأفضلية جنة عدن ثم جنة الخلد ثم جنة النعيم وجنة المأوى ودار السلام ودار الجلال ، والجنان كلها متصلة بمقام الوسيلة ليتنعم أهل الجنة بمشاهدته صلى الله عليه وسلم لظهوره صلى الله عليه وسلم لهم منها ، لأنها تشرق على أهل الجنة كما أن الشمس تشرق على أهل الدنيا ، وهذا ما ذهب إليه ابن عباس ، أو أربع ورجحه جماعة لقوله تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » جنة النعيم وجنة المأوى ، ثم قال « ومن دونهما جنتان » جنة عدن وجنة الفردوس كما قال بعض المفسرين ، وهذا ما ذهب إليه الجمهور ، أو جنة

وَالنَّارُ وَمَا فِى كُلِّ مَقَامٍ مِنهَا مِنَ الْخَطَرِ العَظِيمِ ، لِلمُطِيعِينَ ، وَالعَاصِينَ ، وَالْمُقَصِّرِينَ ، وَالْمُجْتَهِدِينَ .

أَمَّا الْمَوْتُ فَأَذْكُرُ فِيهِ حَالَ رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَا رُوِىَ عَنِ ابْنِ شُبْرُمَةَ أَنَّهُ قَالَ : دَخَلْتُ مَعَ الشَّعْبِيِّ عَلَى مَرِيضٍ نَعُودُهُ وَهُوَ بِمَا بِهِ ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ آخَرُ يُلَقِّنُهُ : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ : اُرْفُقْ بِهِ ، فَتَكَلَّمَ الْمَرِيضُ فَقَالَ : إِنْ تُلَقِّنِّى أَوْ لَمْ تُلَقِّنِّى فَإِنِّى لَا أَدَعُهَا ! ثُمَّ قَرَأَ :

واحدة ، وهذه الأسماء كلها جارية عليها لتحقق معانيها فيها إذ يصدق على الجميع جنة عدن : أى إقامة وجنة المأوى : أى مأوى المؤمنين وجنة الخلد ودار السلام ، لأن جميعها للخلود والسلامة من كل خوف وحزن ، وجنة النعيم لأنها كلها مشحونة بأصنافه (و) الحالة الخامسة (النار) وهى دار العذاب ، وطبقات النار سبع أعلاها جهنم وهى لمن يعذب على قدر ذنبه من المؤمنين وتصير خرابا بخروجهم منها وتحتها لظى وهي لليهود ثم الحطمة وهى للنصارى ثم السعير وهى للصابئين وهم فرقة من اليهود ثم سقر وهى للمجوس ثم الجحيم وهى لعبدة الأصنام ثم الهاوية وهى للمنافقين ، والأكثرون على أن الجنة فوق السموات السبع وتحت العرش ، وأن النار تحت الأرضين السبع ، والحق تفويض علم ذلك إلى اللطيف الخبير ، وذكر ابن العربى أن هـذه النار التى فى الدنيا ما أخرجها الله إلى الناس من جهنم حتي غمست فى البحر مرتين ولولا ذلك لم ينتفع بها أحد من حرها وكفى بها زاجرا ، وبعد أخذ نار الدنيا منها أوقد عليها ألف سنة حتي ابيضت ثم ألف سنة حتي احمرت ثم ألف سنة حتي اسودت فهى سوداء مظلمة وحرها هواء محرق ولا جمر لها سوى بنى آدم والأحجار المتقدة آلهة من دون الله . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » (و) نذكر (ما فى كل مقام منها) أى من الأحوال الخمسة (من الخطر العظيم للمطيعين والعاصين والمقصرين والمجتهدين . أما الموت فأذكر فيه حال رجلين) وهما سعيد وشقي (أحدهما) وهو السعيد (ماروى عن ابن شبرمة أنه قال دخلت مع الشعبي) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل وهو كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم ، والشعبي بفتح الشين المعجمة وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان . وقال ابن الأثير من حمير . وقال مكحول : ما رأيت أفقه منه ، مات بعد المائة وله نحو من ثمانين أخرج حديثه الجماعة (على مريض نعوده وهو) أى المريض (بمـا به) من المرض (وعنده) أى عنـد المريض (رجل آخر يلقنه) ى المريض (لا إله إلا الله وحـده لا شريك له فقال له) أى للرجل الملقن (الشعبى ارفق) وتلطف (به) أى بهـذا المريض (فتكلم المريض فقال إن تلقنى) هذه الـكلمة (أو لم تلقنى فإنى لا أدعها) أى لا أتركها (ثم قرأ) المريض « فأنزل الله

(وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّى صَاحِبَنَا.

وَالْآخَرُ مَا حُكِيَ أَنَّ تِلْمِيذًا لِلْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْفُضَيْلُ وَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ وَقَرَأَ سُورَةَ (يس)

سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» (وألزمهم كلمة التقوى) قال ابن عباس: كلمة التقوى لا إله إلا الله أخرجه الترمذى وقال حديث غريب. وقال على وابن عمر كلمة التقوى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. وقال عطاء الخراسانى: هى لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقال الزهرى: بسم الله الرحمن الرحيم، والإضافة إلى التقوى باعتبار أنها سبب التقوى وأساسها وقيل كلمة أهل التقوى (وكانوا) أى المؤمنون (أحق بها) من غيرهم (وأهلها) أى كانوا أهلها فى علم الله لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أهل الخير والصلاح (فقال الشعبى: الحمد لله الذى نجى صاحبنا. و) الرجل (الآخر) وهو الشقى (ما حكى أن تلميذا) قال العلامه عبد الحق: التلميذ والتلميذة المتعلم أو طالب العلم والتابع ومن قام فى مدرسة بقصد التعلم (للفضيل بن عياض) بن مسعود الزاهد وتقدمت ترجمته رحمه الله (حضرته الوفاة فدخل عليه) أى التلميذ (الفضيل وجلس عند رأسه وقرأ) الفضيل (سورة يس) وذلك لما روى عن معقل ابن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اقرءوا يس على موتاكم» وذكر الآجرى من حديث أم الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال «ما من ميت يقرأ عليه يس إلا هون الله عليه».

ولنذكر فضيلة هذه السورة تتميما للفائدة، فقد ذكر فى مسند الدارمى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له فى تلك الليلة» أخرجه أبو نعيم الحافظ، وروى الترمذى عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل شىء قلبا وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بها قراءة القرآن عشر مرات» وعن عائشة رضى الله عنها قالت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن فى القرآن لسورة تشفع لقارئها وتغفر لمستمعها ألا وهي سورة يس تدعى فى التوراة المعمة، قيل يارسول الله وما المعمة؟ قال تعم صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهوال الآخرة، وتدعى أيضا الدافعة والقاضية، قيل يارسول الله وكيف ذلك؟ قال تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كل حاجة» وفى حديث الدارمي عن شهر بن حوشب قال: قال ابن عباس «من قرأ يس حين يصبح أعطى يسر يومه حتى يمسى، ومن قرأها فى صدر يومه أعطى يسر ليلته حتى يصبح» وروى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرءون شيئا سوى طه ويس» وعن أبى جعفر قال: من وجد فى قلبه قسوة فليكتب سورة يس فى جام: أى إناء

فَقَالَ : يَا أُسْتَاذُ لَا تَقْرَأْ هٰذَا ، فَسَكَتَ ثُمَّ لَقَّنَهُ فَقَالَ لَهُ قُلْ : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ فَقَالَ لَا أَقُولُهَا لِأَنِّي مِنْهَا بَرِيءٌ ، وَمَاتَ عَلَى ذٰلِكَ ، فَدَخَلَ الْفُضَيْلُ مَنْزِلَهِ وَجَعَلَ يَبْكِي أَرْبَعِينَ يَوْماً لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْبَيْتِ ، ثُمَّ رَآهُ فِي النَّوْمِ وَهُوَ يُسْحَبُ إِلَى جَهَنَّمَ ، فَقَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ نَزَعَ اللهُ الْمَعْرِفَةَ مِنْكَ وَكُنْتَ أَعْلَمَ تَلَامِذَتِي ؟ فَقَالَ :

بزعفران ثم يشربه ، وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفورا له » وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من دخل المقبرة فقرأ سورة يس خفف العذاب عن أهلها ذلك اليوم وكان له بعدد من فيها حسنات » وقال يحي بن أبي كثير : بلغني أن من قرأ سورة يس ليلا لم يزل في فرح حتى يصبح ومن قرأها حين يصبح لم يزل فى فرح حتي يمسى ، وقد حدثني بهذا من جربها ، ذكره الثعلبي وابن عطية وقال ابن عطية يصدق ذلك التجربة . وفى البيضاوى : وعن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن عشر مرات ، وأيما مسلم قرىء عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه ، وأيما مسلم قرأ سورة يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة فيشربها ، وهو على فراشه فيقبض روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان » (فقال) التلميذ (يا أستاذ لا تقرأ هذا) أى ما قرأته من سورة يس (فسكت) الفضيل عن القراءة (ثم لقنه) أى التلميذ (فقال) الفضيل (له) أى لذلك التلميذ (قل لا إله إلا الله) وذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فانها تهدم الذنوب هدما ، قالوا يا رسول الله فان قالها فى حياته ؟ قال هى أهدم وأهدم » وعنه صلى الله عليه وسلم « من لقن عند الموت لا إله إلا الله دخل الجنة » وعنه عليه الصلاة والسلام « من دخل القبر بلا إله إلا الله خلصه الله من النار » يعنى من مات وكان آخر كلامه من الدنيا قول لا إله إلا الله خلصه الله من النار إلي غير ذلك من الأخبار (فقال) التلميذ (لا أقولها لأنى منها) أى من هذه الكلمة (برىء ومات على ذلك) الحال من عدم النطق بهذه الكلمة (فدخل الفضيل منزله وجعل يبكى) حزينا لما رآه من حال تلميذه (أربعين يوما لم يخرج من البيت ثم رآه) أى رأى الفضيل تلميذه (فى النوم وهو) أى ذلك التلميذ (يسحب) أى يجر (إلى جهنم فقال) الفضيل (بأى شيء نزع الله المعرفة منك و) الحال أنك قد (كنت أعلم تلاميذى ، فقال) التلميذ

بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَوَّلُهَا : بِالنَّمِيمَةِ فَإِنِّي قُلْتُ لِأَصْحَابِي بِخِلَافِ مَا قُلْتُ لَكَ، وَالثَّانِي بِالْحَسَدِ : حَسَدْتُ أَصْحَابِي ، وَالثَّالِثُ : كَانَ بِي عِلَّةٌ فَجِئْتُ إِلَى الطَّبِيبِ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا فَقَالَ : تَشْرَبُ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَدَحًا مِنْ خَمْرٍ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ تَبْقَى بِكَ الْعِلَّةُ ؛ فَكُنْتُ أَشْرَبُهُ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ .

ذلك (بثلاثة أشياء أولها بالنميمة ، فانى قلت لأصحابي بخلاف ماقلت لك والثانى بالحسد حسدت أصحابى والثالث كان بى علة) باطنة (فجئت إلى الطبيب فسألته عنها) أى عن دوائها : أى العلة (فقال) الطبيب (تشرب فى كل سنة قدحا من خمر فان لم تفعل) شربه (تبقى بك العلة فكنت أشربه) أى قدحا فى كل سنة (نعوذ بالله من سخطه الذى لا طاقة لنـا به) وأكثر ما يمكر عند الموت بأرباب البدع وأصحاب الآفات الباطنة والظلمة والمجاهرين بالمعاصى ، فمن كان فى ظاهره الصلاح ومكر به فلا فات باطنية كما ذكر من حال التلميذ المذكور ، ولذا قال سهل بن عبد الله : خوف الصديقين خوف سوء الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة ، وكان سفيان الثورى كثير البكاء والجزع فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو على ذنوبى أبكى لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأمثال الجبال من الخطايا .

﴿ مهمة ﴾ المكلفون على أربعة أقسام : القسم الأول قوم خلقهم الله تعالى لخدمته ولجنته وهم الأنبياء والأولياء والمؤمنون والصالحون . والقسم الثانى : قوم خلقهم الله تعالى لجنته دون خدمته وهم الذين عاشوا كفارا ثم ختم لهم بالإيمان ، أو فرطوا مدة حياتهم وانهمكوا فى العصيان ثم تاب الله عليهم عند الخاتمة فماتوا على حسن الخاتمة والتوبة والإحسان كسحرة فرعون . والقسم الثالث قوم خلقهم لا لخدمته ولا لجنته وهم الكفار الذين يموتون على الكفر حرموا فى الدنيا نعيم الايمان وفى الآخرة يعذبون بالعذاب والهوان . والقسم الرابع : قوم خلقهم الله تعالى لخدمته دون جنته وهم الذين كانوا عاملين بطاعة الله ثم مكر بهم فطردوا عن باب الله تعالى وماتوا على الكفر ، كما حكى أن برصيصا العابد كان له ستون ألفا من التلامذة وكانوا يمشون فى الهواء ببركته فمات كافرا نعوذ بالله من ذلك وكان يعبد الله تعالى حتى تعجبت الملائكة من عبادته فقال الله تعالى لهم لماذا تعجبون منه إنى أعلم ما لا تعلمون فى علمى أنه يكفر ويدخل النار أبد الآبدين فسمع ذلك إبليس وعلم أن هلاكه على يده ، فجاء إلى صومعته على شبه عابد قد لبس المسوح فناداه فقال برصيصا من أنت وما تريد فقال أنا عابد أكون عونا لك على عبادة الله تعالى فقال له برصيصا من أراد عبادة الله تعالى فان الله يكفيه صاحبا فقام إبليس لعنه الله يعبد الله ثلاثة أيام لم ينم ولم يأكل ولم يشرب ، فقال برصيصا : أنا أفطر وأنام وآكل وأشرب وأنت لا تأكل وإنى عبدت الله تعالى مائتين وعشرين سنة ولا أقدر على ترك الأكل والشرب فما حيلتى حتى أصير مثلك ؟ قال اذهب فاعص الله تعالى ثم تب فانه رحيم حتى تجد حلاوة الطاعة قال كيف أعصيه بعد أن عبدته كذا وكذا سنة . فقال إبليس

ثُمَّ أَذْكُرُ حَالَ رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ : أَحَدُهُمَا مَا حُكِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، أَنَّهُ لَمَّا احْتُضِرَ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَضَحِكَ وَقَالَ : (لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) .

وَسَمِعْتُ إِمَامَ الْحَرَمَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَحْكِي عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ لِي صَاحِبٌ أَيَّامَ التَّعْلِيمِ ، وَكَانَ مُبْتَدِئًا كَثِيرَ الْجُهْدِ فِي التَّعَلُّمِ ، تَقِيًّا مُتَعَبِّدًا ، وَكَانَ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَعَ الْاجْتِهَادِ إِلَّا الْقَلِيلُ ، فَكُنَّا نَتَعَجَّبُ مِنْ حَالِهِ ، فَمَرِضَ فَلَزِمَ مَكَانَهُ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ فِي الرِّبَاطِ ، وَلَمْ يَدْخُلْ إِلَى بَيْتِ الْمَرْضَى ،

الإنسان إذا أذنب يحتاج إلى المعذرة والمغفرة ، فقال بأى ذنب تشير على؟ قال الزنا قال لا أفعل قال تقتل مؤمنا قال لا أفعل . قال تشرب مسكرا فانه أهون وخصمك الله وحده . قال أين أجده قال اذهب إلى قرية كذا فذهب فرأى امرأة جميلة فاشترى منها الخمر فشرب وسكر وزني بها فدخل عليه زوجها فقتله ، ثم إن إبليس تمثل فى صورة إنسان وسعي به إلى السلطان فأخذه وجلده للخمر ثمانين جلدة وللزنا مائة جلدة وأمر بصلبه لأجل الدم فلما صلب جاء إليه إبليس فى تلك الصورة ، فقال كيف ترى حالك ؟ قال من أطاع قرين السوء فحاله كذا فقال ابليس كنت فى عبادتك مائتين وعشرين حتى صلبتك فلو أردت أنزلتك قال أريد وأعطيك ماتريد . قال اسجد لى سجدة فقال كيف أسجد على الخشب قال بالإيماء فأومأ برأسه ساجدا فكفر ، نعوذ بالله من ذلك فلما كفر قال الشيطان إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . اللهم اجعل الإيمان لنا سراجا ولا تجعله استدراجا آمين آمين والحمد لله رب العالمين (ثم أذكر حال رجلين آخرين أحدهما) وهو السعيد (ماحكى عن عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى) وهو من تابعى التابعين (أنه لما احتضر) أى حضر وقت موته (نظر إلى السماء فضحك وقال لمثل هذا) أى الذى رأيته من النعيم (فليعمل العاملون) أى فيبادر المبادرون فى العمل الصالح ، ويقال فليباذل الباذلون بالنفقة فى سبيل الله ويقال فليجتهد المجتهدون بالعلم والعبادة (وسمعت) شيخى (إمام الحرمين) أبا المعالى عبد الملك ابن الشيخ أبى محمد أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، مولده سنة تسع عشرة وأربعمائة وتوفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة (رضى الله عنه يحكى عن الأستاذ أبي بكر رحمه الله) هو محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الاصبهاني توفى سنة ست وأربعمائة وفورك بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء وبعدها كاف وهو اسم علم (أنه قال كان لى صاحب أيام التعليم وكان) صاحبى (مبتدئا) فى العلم (كثير الجهد فى التعلم تقيا متعبدا وكان لا يحصل له) أى لصاحبي (مع الاجتهاد إلا) العلم (القليل فكنا نتعجب من حاله فمرض فلزم مكانه بين الأولياء فى الرباط ولم يدخل إلى بيت المرضى) وهو المسمى بالمارستان

وَكَانَ يَجْتَهِدُ مَعَ مَرَضِهِ فَاشْتَدَّ بِهِ الْحَالُ وَأَنَا إِلَى جَانِبِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ شَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ لِي : يَا ابْنَ فُورَكَ : (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) وَتُوُفِّيَ عِنْدَ ذَلِكَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ .

وَأَمَّا الْآخَرُ فَنَحْوُ مَا رُوِيَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى جَارٍ لَهُ احْتُضِرَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا مَالِكُ : جَبَلَانِ مِنْ نَارٍ بَيْنَ يَدَيَّ أُكَلَّفُ الصُّعُودَ عَلَيْهِمَا ، قَالَ فَسَأَلْتُ أَهْلَهُ فَقَالُوا : كَانَ لَهُ مِكْيَالَانِ يَكِيلُ بِأَحَدِهِمَا وَيَكْتَالُ بِالْآخَرِ فَدَعَوْتُ بِهِمَا ، فَضَرَبْتُ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ حَتَّى كَسَرْتُهُمَا ، ثُمَّ سَأَلْتُ الرَّجُلَ فَقَالَ : مَا يَزْدَادُ الْأَمْرُ عَلَيَّ إِلَّا عِظَمًا .

وَأَمَّا الْقَبْرُ وَالْحَالُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَأَذْكُرُ فِيهِ حَالَ رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُمَا مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ قَالَ : رَأَيْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، فَقُلْتُ :

(وكان يجتهد) فى تحصيل العلم (مع مرضه فاشتد به الحال) وهو مرضه (وأنا إلى جنبه فبينما هو كذلك) أى شدة المرض (إذ شخص) أى ارتفع (ببصره إلى السماء ثم قال لى يا ابن فورك لمثل هـذا فليعمل العاملون) أى لنيل مثل هذا النعيم يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام (وتوفى عند ذلك) أى قوله ما ذكر (رحمة الله عليه. وأما) الرجل (الآخر) وهو الشقى (فنحو ما روى عن مالك بن دينار) أبى يحيى البصرى كان عالما زاهـدا كثير الورع لا يأكل إلا من كسبه وكان يكتب المصاحف بالأجرة توفى سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة قبل الطاعون بيسير (رحمه الله أنه دخـل على جار له احتضر) أى حضر وقت موت الجار (فقال) الجار (له يا مالك جبلان من نار بين يدى أكلف) بالبناء للمفعول (الصعود عليهما قال) مالك (فسألت أهله) أى أهل هذا المحتضر عن حاله أيام صحته (فقالوا كان له) أى لهذا المحتضر (مكيالان يكيل) متاع الناس (بأحـدهما ويكتال بالآخرة فدعوت) أى طلبت (بهما) أى بالمكيالين (فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ثم سألت الرجـل) الذى حضره الموت (فقال مايزداد الأمر على إلا عظما. وأما القبر والحال بعد الموت فأذكر فيه حال رجلين: أحدهما) وهو من جملة السعداء (ما ذكر عن بعض الصالحين) وهو أبو قبيصة كما يأتى فى عبارة البستان (قال رأيت) أبا عبد الله (سفيان) بن سعيد (الثورى) وهو من تابعى التابعين ، ولد سنة سبع وتسعين وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة رضى الله تعالى عنه (فى النوم بعد مماته فقلت:

كَيفَ حَالُكَ يَا أَبَا عَبْدَ اللهِ ؟ فَأَعْرَضَ عَنِّي وَقَالَ : لَيْسَ هٰذَا زَمَانَ الْكُنَى ! فَقُلْتُ : كَيفَ حَالُكَ يَا سُفْيَانُ ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

نَظَرْتُ إِلَى رَبِّي عَيَانًا فَقَالَ لِي   هَنِيئًا رِضَائِي عَنْكَ يَا ابْنَ سَعِيدِ
لَقَدْ كُنْتَ قَوَّامًا إِذَا اللَّيْلُ قَدْ دَجَا   بِعَبْرَةِ مُشْتَاقٍ وَقَلْبٍ عَمِيدِ
فَدُونَكَ فَاخْتَرْ أَيَّ قَصْرٍ تُرِيدُهُ   وَزُرْنِي فَإِنِّي عَنْكَ غَيْرُ بَعِيدِ

كيف حالك يا أبا عبدالله ؟ فأعرض) سفيان (عنى وقال ليس هذا) الزمان (زمان الكنى) الكنية مصدر واسم يعلق على الشخص للتعظيم نحو أبي حفص وأبي الحسن أو علامة عليه ، وعند النحاة قسم من العلم وهو ما يكون مصدرا بلفظ الأب أو الابن أو الأم أو البنت والجمع كنى بالضم والكسر لغة (فقلت كيف حالك يا سفيان فأنشأ يقول) من بحر الطويل (نظرت إلي ربى عيانا) العيان مصدر عاين ولقيه عيانا : أى معاينة لم يشك فى رؤيته إياه (فقال) عز وجل (لى . هنيئا) أي سهلا طيبا (رضائى عنك يا ابن سعيد . لقد كنت) فى الدنيا (قواما) أى كثير القيام للصلاة ونحوها (إذا الليل قد دجا .) أى أظلم (بعبرة) أى بديعة (مشتاق وقلب عميد) أى محب صادق الحب لله : قال أهل اللغة : العميد القلب الذى هزه العشق (فدونك) أى فاقترب منى (فاختر أى قصر) من قصور الجنان (تريده . وزرنى فإنى عنك غير بعيد) بل هو قريب قربا معنويا وقد ذكر النووى : نحو ذلك فى بستانه ، فقال أخبرنا شيخنا الإمام الحافظ أبو البقاء بقراءتى عليه قال : أخبرنا الحافظ عبد الغنى إجازة أخبرنا أبو طاهر السلفى أخبرنا أبو محمد عبدالرحمن بن محمد الدونى قال : سمعت أبا الحسن على بن محمد الأسدابادى أخبرنا على بن الحسين بن على أخبرنا أبو منصور يحي بن أحمد المروزى قال : سمعت أبا العباس أحمد بن منصور قال : سمعت أبا طاهر محمد بن الحسين بن ميمون يقول : سمعت أبا موسى هارون بن موسى يقول : قال أبو حاتم محمد ابن إدريس سمعت أبا قبيصة يقول : رأيت سفيان الثورى فى المنام ، فقلت ما فعل الله تعالي بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى   هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما إذا أظلم الدجا   بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته   وزرنى فإني منك غير بعيد

ثم بين ما ذكره بقوله قلت: السلفي بكسر السين المهملة وفتح اللام منسوب إلى جده يقال له سلفة كان هذا الجد مشقوق الشفة ، فقلب بالفارسية سيه لفة بكسر السين وفتح اللام أى ذو ثلاث شفاه ثم عربت فقيل سلفة وكان أبوطاهر السلفي أحد حفاظ عصره وأما الدونى بضم الدال واسكان الواو فمنسوب إلى الدون قرية بخراسان من أعمال الدينور ، وأما الأسدابادى فمنسوب لأسداباد بليدة على مرحلة من همدان إذا توجهت إلى العراق ، وأما الثورى فمنسوب إلى بنى ثور

وَالرَّجُلُ الثانِي : مَا ذُكِرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ رُؤِىَ فى النَّوْمِ شَاحِبَ اللَّوْنِ ، مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا فعلَ اللهُ بِكَ ؟ فَأَنْشَدَ يَقُولُ :

تَوَلَّى زَمَانٌ لَعِبْنَا بِهِ ‏ ‏ ‏ وَهٰذَا زَمَانٌ بِنَا يَلْعَبُ

وَحَالَ رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ : أَحَدُهُمَا مَا رُوِىَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ لِى ابْنٌ اُسْتُشْهِدَ ، وَلَمْ أَرَهُ فى المَنَامِ إِلَى لَيْلَةٍ تُوُفِّىَ فِيهَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ،

ابن عبد مناف بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وأما قوله نظرت إلى ربى كفاحا فهو بكسر الكاف ومعناها معاينة من غير حجاب ولا رسول (والرجل الثانى) وهو من جملة الأشقياء (ما ذكر أن بعضهم) أى بعض الناس (رؤى) أى رآه غيره (فى النوم شاحب) أى متغير (اللون مغلولة) أى مقيدة (يداه إلى عنقه فقيل له) أى لذلك البعض (مافعل الله بك ؟ فأنشد يقول من بحر المتقارب (تولى) أى أعرض (زمان لعبنا به .) أى بذلك الزمان فى الدنيا (وهذا) أى هذا الزمان الحاضر (زمان بنا يلعب . و) أذكر أيضا (حال رجلين آخرين أحدهما ما روى عن بعض الصالحين) رحمه الله (أنه قال كان لى ابن استشهد) بالبناء للمفعول أى قتل شهيدا (ولم أره) بعد ذلك (فى المنام إلى ليلة توفى فيها) أى فى تلك الليلة (عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه) وهو الخليفة الراشد والامام العادل أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى التابعى بإحسان ، سمع أنس ابن مالك والسائب بن يزيد ويوسف بن عبدالله بن سلام واستوهب من سهل بن سعد قدحا شرب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبه له . وروى عن خولة بنت حكيم وسمع جماعات من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب وعروة وأبو بكر بن عبد الرحمن والربيع بن سبرة وعبد الله ابن إبراهيم وعامر بن سعد والزهرى ، روى عنه خلائق من التابعين منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ومحمد بن المنكدر والزهرى ويحيى الأنصارى وحميد الطويل وآخرون ، وأجمعوا على جلالته ووفور علمه وصلاحه وزهده وورعه وعدله وشفقته على المسلمين وحسن سيرته فيهم وبذل وسعه فى الاجتهاد فى طاعة الله وحرصه على اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بسنته وسنة الخلفاء الراشدين ، وهو أحد الخلفاء الراشدين ، ومناقبه أكثر من أن تحصر .

وقد جمع ابن عبد الحكم فى مناقب عمر بن عبد العزيز مجلدا مشتملا على جميل سيرته وحسن طريقته ، وفيه من النفائس ما لايستغنى عن معرفته والتأدب به . وذكر ابن سعد وغيره من المتقدمين أيضا له أشياء نفيسة . وأجمعوا أن أمه أم عاصم حفصة بنت عاصم بن عمر بن الخطاب واسمها ليلى سكنت بدمشق ، ولى الخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك ، وبويع عمر بن عبد العزيز

بالخلافة حين مات سليمان بن عبد الملك . ومات سليمان لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين ، وكانت خلافة عمر بن عبد العزيز سنتين وخمسة أشهر نحو خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنهما فملأ الأرض قسطا وعدلا وسن السنن الحسنة وأمات الطريق السيئة وصلى أنس بن مالك خلفه قبل خلافته ثم قال : ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى . وقال أيوب السختيانى : ولا أعلم أحدا ممن أدركنا كان أحذى بنبي الله صلى الله عليه وسلم منه ، وقال سفيان الثورى الخلفاء خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز. وقال مالك بن دينار لما ولى عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاء فى رؤوس الجبال من هذا الخليفة الصالح الذى قام على الناس؟ فقيل لهم وما علمكم بذلك؟ فقالوا إنه إذا قام خليفة صالح كفت الذئاب والأسد عن شيائنا . وقال رجاء بن حيوة كان عمر بن عبد العزيز قبل خلافته من أعطر الناس وألبسهم ، فلما استخلف قوّموا ثيابه باثنى عشر درهما . وقال حميد بن زنجويه قال أحمد بن حنبل يروى فى الحديث «يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها» فنظرنا فى المائة الأولى فاذا هو عمر بن عبد العزيز وهذا الحديث الذى ذكره أحمد رواه أبو داود فى سننه من رواية أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمله العلماء فى المائة الأولى على عمر بن عبد العزيز والثانية على الشافعى والثالثة على أبى العباس بن سريج . قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر عندى أنه يحمل على أبي الحسن الأشعرى ، والأشهر أنه بن سريج رواه الحاكم أبو عبد الله وأنشدوا فيه شعرا . وفى الرابعة قيل أبو سهل الصعلوكى . وقيل أبو حامد الاسفراينى . وفى الخامسة أبو حامد الغزالي رحمه الله .

وتوفى عمر بن عبد العزيز بدير سمعان قرية قريبة من حمص وقبره هناك مشهور ويزار ويتبرك به .

ولد عمر بمصر سنة إحدى وستين وتوفى يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رجب سنة إحدى ومائة وعمره تسع وثلاثون سنة وستة أشهر . وكان عمر أشج ، يقال له أشج بنى أمية ضربته دابة فى وجهه . وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول: من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا . وقال ابن قتيبة كان لعمر بن عبد العزيز أربعة عشر ابنا منهم عبد الملك الولد الصالح ابن الصالح كان من أعبد الناس . توفى فى خلافة أبيه وهو ابن سبع عشرة سنة وستة أشهر . وكان أحد المشيرين على عمر بمصالح الرعية والمعينين له فى الاهتمام بمصالح الناس ، وكان وزيرا صالحا وبطانة خير رحمه الله ، وكان أبر أهل عصره بوالده أو من أبرهم وله مناقب مشهورة . قال البخارى فى تاريخه. أصل عمر بن عبد العزيز مدنى . وفى الطبقات لمحمد بن سعد قال: قالوا ولد عمر بن عبد العزيز سنة ثلاث وستين ، وباسناده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ليت شعرى من ذو الشين من ولدى الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وأراد بالشين الشجة التى كانت فى وجهه ، وبإسناده المتفق على صحته عن عمرو بن دينار عن ابن عمر قال: إنا كنا نتحدث أن هذا الأمر لاينقضى حتى يلى هذه الأمة رجل من ولد عمر يسير فيها سيرة عمر بوجهه شامة . وقال وكنا نقول : هو هلال بن عبد الله بن عمر ، وكانت بوجهه شامة حتي جاء الله بعمر بن عبد العزيز ، وباسناده عن ابن شوذب قال لما أراد

عبدالعزيز بن مروان أن يتزوج أم عمر بن عبدالعزيز قال لقيمه: اجمع لى أربعمائة دينار من طيب مالى فانى أريد أن أتزوج أهل بيت لهم صلاح فتزوج أم عمر ، وبإسناده عن حجاج الصواف قال أمرنى عمر وهو وال على المدينة أن أشترى له ثيابا فكان ثوب بأربعمائة فقطعه قميصا ثم لمسه بيده فقال ما أخشنه وأغلظه ثم أمر بشراء ثوب له وهو خليفة فاشتراه بأربعة عشر درهما فلمسه بيده فقال سبحان الله ما ألينه وأرقه ، وباسناده أن سليمان بن عبد الملك عهد الخلافة لعمر بن عبد العزيز . فلما توفى سليمان وانصرف عمر من قبره إذا دواب سليمان قد عرضت له فأشار إلى بغلة شهباء فأتى بها فركبها وانصرف وإذا فرش فقال لقد عجلتم ثم تناول وسادة أرمينية فطرحها بينه وبين الأرض، ثم قال : أما والله لولا أنى فى حوائج المسلمين ما جلست عليك . وعن عبد الحميد بن سهيل قال : لقد رأيت عمر بن عبد العزيز بدأ بأهل بيته فرد ما كان بأيديهم من المظالم ثم فعل ذلك بالناس بعد ، فقال عمر بن الوليد : جئتم برجل من ولد عمر بن الخطاب فوليتموه عليكم ففعل هذا بكم . وعن أبى الزناد كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق فى رد المظالم إلى أهلها بغير البينة فى بيت المال بالعراق حتى حمل إلينا المال من الشام ، قال أبو الزناد وكان عمر يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة وكان يكتفى بأسر ذلك إذا عرف وجها من مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما كان يعرف من غشم الولاة . أى ظلمهم قبله. وعن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال ما كان يقدم على أبي بكر بن محمد كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قسم أو تقدير عطاء أو خير حتى خرج من الدنيا . وعن أبى بكر بن محمد قال كتب إلى عمر أن استبرئ الدواوين فأنظر إلى كل جور جاره من قبلى فى حق مسلم أو معاهد فرده عليه فان كان أهل المظلمة ماتوا فأذيعه إلى ورثتهم به. وعن أبى موسى بن عبيدة قال سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر ابن محمد : وإياك والجلوس فى بيتك اخرج إلى الناس آسى بينهم فى المجلس والمنظر ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين فان أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم اليوم سواء ، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم ، وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلى فيه. وعن حازم بن أبي حازم قال قال عمر فى كلام له : فلو كان بكل بدعة يميتها الله علي يدى وبكل سنة ينعشها الله على يدى بضعة من لحمى حتي يأتى آخر ذلك على نفسى كان فى الله يسيرا. وعن حماد بن أبى سليمان قال: قام عمر بن عبد العزيز فى جامع دمشق فقال بأعلى صوته : لا طاقة لنا فى معصية الله . وعن عبد الله بن واقد قال آخر خطبة خطبها عمر ابن عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أيها الناس والله لولا أن أنعش سنة أو أصبر بحق ما أحببت أن أعيش فواقا ، الفواق : ما بين الحلبتين ، وعن سالم بن عبد الله وخارجة بن زيد قالا: إنا لنرجو لسليمان بن عبد الملك باستخلافه عمر بن عبد العزيز، وباسناده أن عمر بن عبدالعزيز لما استخلف باع كل ما كان يملكه من الفضول من عبيد ولبوس وعطر وكل ما يستغنى عنه فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار فجعله فى السبيل ، وباسناده عن خادم عمر بن عبد العزيز أنه لم يمتلئ من طعام من يوم ولى حتى مات ، وأنه وضع المكس من كل أرض ، وأنه أمر بعمل

الخانات بطريق خراسان ، وأنه كتب إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : وكان يأتيه أن أفرض للناس : يعنى العطاء إلا لتاجر ، وأنه كتب إلى الناس : أن ارفعوا الينا كل منفوس نفرض له يعنى المولود فإنما هو مالكم نرده عليكم ، وأن أبا بكر بن محمد كان يعمل بالليل كعمله بالنهار لاستحثاث عمر إياه . وعن محمد بن قيس قال رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى العشاء دعا بشمعة فيكتب فى أمر المسلمين فى رد المظالم فاذا أصبح جلس فى رد المظالم وأمر بالصدقات أن تقسم لأهلها ، فلقد رأيت من يتصدق عليه له فى العام القابل إبل فيها صدقة . وعن مهاجر بن يزيد قال بعثنا عمر بن عبد العزيز فقسمنا الصدقة فلقد رأيتنا وإنا لنأخذ الزكاة فى العام القابل ممن يتصدق عليه فى العام الماضى ، ولقد كنت أراه يغسل ثيابه فيخرج إلينا ماله غيرها ، وما أحدث بناء ، ولقد رأيت دارا له خربت فتكلم فى إصلاحها ، ثم قال : يا مزاحم هل لك فى تركها؟ فنخرج من الدنيا ولم نحدث شيئا ، قال وحرم الطلاء فى كل أرض ، والطلاء نوع من الأنبذة كان أهل العراق يستبيحونه. وعن عاصم بن كليب قال فدا عمر بن عبد العزيز رجلا من العدو ورده بمائة ألف درهم ، وباسناده أن سيف عمر كان محلا بفضة فنزعها وحلاه بحديد ، وباسناد ضعيف أنه كان له ثلاثة عشر مؤذنا ، وباسناد ضعيف أنه كان يمسح وجهه إذا توضأ ، وكان يتوضأ من مس الذكر ، ومن أكل ما مست النار حتى من السكر ويقنع رأسه إذا دخل الخلاء ويقول الشفق البياض بعد الحمرة وباسناده أن عمر بن عبد العزيز عزل كاتبا له كتب : بسم الله ، ولم يجعل السين ، وأنه كان يأمر الناس إذا بدأ المؤذن فى الإقامة أن يستقبلوا القبلة . وعن ميمون بن مهران قال : كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء . وعن روح بن عبادة قال : أخرج مسك من الخزائن ، فلما وضع بين يدى عمر أمسك بأنفه مخافة أن يجد رائحته فقيل له فى ذلك ، فقال وهل يبتغى من هذا إلا ريحه . وعن نعيم بن عبد الله قال قال عمر إنى لأدع كثيرا من الكلام مخافة المباهاة ، وبإسناده أن عمر كتب إلى المحبوسين : لا يقيد أحد بقيد يمنع من تمام الصلاة ، وأنه قال لا ينبغى أن يكون قاضيا إلا من هو عفيف حليم عالم بما كان قبله يستشير ذوى الرأى لا يخاف ملامة الناس ، وأن محمد ابن كعب القرظى دخل على عمر وكان عمر قبل الخلافة حسن الجسم فجعل ينظر إليه لا يطرف . فقال مالك يا أمير المؤمنين عهدى بك حسن الجسم وأراك قد اصفر لونك ونحل جسمك وذهب شعرك ، فقال كيف لو رأيتنى فى قبرى بعد ثلاث وقد ابتدرت الحدقتان على وجنتى وسال منخراى وفمى صديدا ودودا لكنت أشد لى نكرة ، وبإسناده أن عمر خطب فقال : أيها الناس اتقوا الله فان فى تقوى الله خلفا من كل شىء وليس لتقوى الله خلف ، وأنه قال معونة المؤمن الصبر . وبإسناده الصحيح أن رجلا سأل عمر عن شىء من الأهواء فقال الزم دين الصبى والأعرابى واله عما سوى ذلك . وبإسناده الصحيح عن عمرو بن ميمون قال كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة ، وباسناده أن رجلا نال من عمر فقيل له ما يمنعك منه فقال إن المتقى ملجم ، وإن عمر كتب إلى الأمراء لا تركبوا فى الغزو إلا أضعف دابة فى الجيش سيرا ، وأنه قال : إقامة الحدود عندى كإقامة الصلاة ، وأنه كتب إلى عامله باليمن : أما بعد فانى أكتب اليك : أن ترد على المسلمين مظالمهم

إِذْ رَأَيْتُهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ

ولا تراجعنى ، ولا تعلم بعد المسافة بينى وبينك ولا تعرف حدث الموت حتى لو كتبت إليك برد شاة رجل كتبت أردها عفراء أم سوداء فرد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى ، وإن رجلا قال له أبقاك الله فقال هذا قد فرغ منه ادع لى بالصلاح وأنه كان ينهى بناته أن ينمن مستلقيات . وقال لا يزال الشيطان مطلا علي إحداكن إذا استلقت يطمع فيها ، وأنه سئل عن الجمل وصفين وما كان فيهما فقال تلك دماء كف الله يدى عنها ، وأنا أكره أن أغمس لسانى فيها ، وأن رجلا قال : لو تفرغت لنا. قال وأين الفراغ ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله، وأنه قيل له أن يتحفظ فى طعامه وشرابه من السم وفى خروجه بحرس كعادة من قبله فقال وأين هم ؟ فلما أكثر عليه . قال اللهم : إن كنت تعلم أنى أخاف يوما دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفى. وعن مجاهد قال : أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرى أنه سيحتاج الينا فما خرجنا من عنده حتى احتجنا إليه . وباسناده أن عمر كان إذا سهر فى أمر العامة أسرج من بيت المال ، وإذا سهر فى أمر نفسه أسرج من مال نفسه فبينما هو ذات ليلة إذ تغير السراج فقام فأصلحه فقلنا إنا نكفيك فقال أنا عمر حين قمت وأنا عمر حين جلست، وأنه قال ما كذبت منذ علمت أن الكذب شين وأنه أحبس غلاما له يحتطب له فقال له الغلام : الناس كلهم بخير غيرى وغيرك فقال اذهب فأنت حر وأنه قال والله لوددت لو عدلت يوما واحدا وأن الله تعالى قبضنى . وعن ميمون بن مهران قال أقمت عند عمر ستة أشهر ما رأيت غير ردائه إلا أنه كان يغسله من الجمعة إلى الجمعة . وعن سعيد بن سويد أن عمر صلى بهم الجمعة وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه . فلما فرغ جلس وجلسنا معه قال فقال له رجل من القوم : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست وتصدقت فنكس مليا حتي عرفنا أن ذلك قد ساءه ثم رفع رأسه فقال إن أفضل القصد عند الحدة وأفضل العفو عند القدرة . وأحوال عمر بن عبد العزيز وفضائله غير منحصرة وفيما أشرنا اليه كفاية . وكان مرضه الذى توفى فيه عشرين يوما . وقيل له من يوصى بأهلك فقال : إن ولي فيهم الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وأوصى أن يدفن معه شيء كان عنده من شعر النبى صلي الله عليه وسلم وأظفار من أظفاره . وقال إذا مت فاجعلوه فى كفنى ففعلوا ذلك . وعن يوسف بن ماهك قال : بينما نحن نسوى التراب على قبر عمر ابن عبد العزيز سقط علينا رق من السماء فيه مكتوب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار كذا فى تهذيب الأسماء ، وفى تاريخ الخلفاء للجلال السيوطى رحمه الله ، كانت وفاته بالسم لأن بنى أمية قد تبرموا به لكونه شدد عليهم وانتزع من أيديهم كثيرا مما غصبوه ، وكان قد أهمل التحرز فسقوه السم . قال مجاهد قال لى عمر بن عبد العزيز ما يقول الناس فى . قلت يقولون مسحور ، قال ما أنا بمسحور وإني لأعلم الساعة التى سقيت فيها . ثم دعا غلاما فقال ويحك ما حملك على أن تسقينى السم قال ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق ، قال هاتها ، قال فجاء بها فألقاها فى بيت المال وقال اذهب حيث لا يراك أحد . قال بعض الصالحين (إذ رأيته) أى ابني الذى مات شهيدا (تلك الليلة) التى توفى

فَقلتُ يَا بُنَىَّ أَلَمْ تَـكُنْ مَيِّتاً ؟ فَقَالَ لاَ ، وَلَـكِنِّى اُسْتُشْهِدْتُ ، وَأَنَا حَىٌّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أُرْزَقُ ،

فيها عمر بن عبد العزيز (فقلت يابنى ألم تـكن ميتا فقال لا ولـكنى استشهدت) بالبناء للمفعول أى قتلت شهيدا (وأنا حى عند الله أرزق) من ثمار الجنة ، ومصداق ذلك قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عندربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » الآية . روى مسلم عن مسروق رضى الله عنه قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » فقال أما أنا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ، فقال هل تشتهون شيئا فقالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

ذكر ما يتعلق بهذا الحديث

قول مسروق سألنا عبد الله كذا جاء عبد الله غير منسوب . وقد نسبه بعض الناس فقال عبد الله بن عمر ، وقد ذكره أبو مسعود الدمشقى والحميدى فى مسنده عن عبد الله بن مسعود وهو الصحيح . وهذا الحديث مرفوع لقوله : أما أنا قد سألنا عن ذلك . فقال يعنى النبى صلى الله عليه وسلم . وفى الحديث دليل على أن الجنة مخلوقة الآن خلافا للمعتزلة لقوله صلى الله عليه وسلم « تسرح من الجنة حيث شاءت » وهو مذهب أهل السنة . وفيه دليل على أن الأرواح باقية لا تفنى بفناء الجسد وأن المحسن ينعم ويجازى بالثواب ، وأن المسىء يعذب ويجازى بالعقاب قبل يوم القيامة وهو مذهب أهل السنة أيضا . قوله : أرواحهم فى جوف طير خضر : أى يجعل الله أرواح الشهداء فى جوف طير خضر وهذا ليس ببعيد لا سيما مع القول بأن الأرواح أجسام لطيفة . وقيل إن المنعم والمعذب من الأرواح والأجساد جزء من الجسد تبقى فيه الروح وهو الذى يتلذذ بالنعيم ويتألم بالعذاب فغير مستحيل أن يصور الله تعالى ذلك الجزء طائرا ويجعل فى جوف طير فتسرح فى الجنة وتأوى إلى تلك القناديل . وقد تعلق بهذا الحديث من يقول بالتناسخ من المبتدعة ويقول بانتقال الأرواح وتنعيمها فى الصور الحسان المرفهة وتعذيبها فى الصور القبيحة المسخرة ويزعمون أن هذا هو الثواب والعقاب ، وهذا ضلال بين وقول سخيف وبدعة باطلة لما فى هذا القول من إبطال ما جاءت به الشرائع من الحشر والنشر والمعاد والجنة والنار ، وقد جاء فى بعض روايات هذا الحديث ما يرد عليهم ، وهو قوله حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه يعنى يحيى جميع جسده يوم

يبعثه وهو يوم القيامة والله أعلم ، وظاهر الآية المذكورة يدل على كون من قتل فى سبيل الله حيا ، فإما أن يكون المراد أنهم سيصبرون أحياء فى الآخرة أو يكون المراد أنهم أحياء فى الحال ، وعلى تقدير أنهم أحياء فى الحال هل يكون المراد إثبات الحياة الروحانية أو إثبات الحياة الجسمانية ، فهذه ثلاثة أوجه فى معنى احتمال الحياة ، فمن قال بالوجه الأول وهو سيصيرون أحياء فى الآخرة قال معنى الآية بل هم أحياء فى الذكر وأنهم يذكرون بخير أعمالهم وأنهم استشهدوا فى سبيل الله ، وقيل بل هم أحياء فى الدين وهذا القول ليس بصواب لأن الله تعالى أثبت لهم الحياة فى الحال بقوله: بل أحياء يعنى فى حال مايقتلون فإنهم يحيون وهو الاحتمال الثانى . واختلفوا فى معنى هذه الحياة هل هي للروح أو للجسم والروح معا فمن أثبت الحياة للروح دون الجسم قال يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أرواح الشهداء في حواصل طير خضر » فخص الأرواح دون الأجساد ، وقال بعض المفسرين : إن أرواح الشهداء تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة ، ومن أثبت الحياة للروح والجسم معا قال يدل عليه سياق الآية وهو قوله «عند ربهم يرزقون» فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون كالأحياء ، وقيل إن الشهيد لا يبلي فى قبره ولا تأكله الأرض كغيره ، وروى أنه لما أراد معاوية أن يجرى الماء على قبور الشهداء أمر أن ينادى من كان له قتيل فليخرجه وليحوله من هذا الموضع . قال جابر فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان فأصابت المسحاة أصبع رجل منهم فانبعث دما ، و ذكر البغوى بغير سند عن عبيد الله بن عمير . قال : « مر رسول الله صلي الله عليه وسلم حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير ، وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه » .

ولنذكر فى هذا المقام فضيلة الشهادة فى سبيل الله لتتميم الفائدة، روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهادا فى سبيلى وإيمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة وأرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده مامن كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين يكلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل» هذا لفظ مسلم ، وروى الشيخان عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها» ورويا أيضا عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما عليها » وروى عن فضالة بن عبيد

فَقُلْتُ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ نُودِىَ فِى أَهْلِ السَّمَاءِ : أَلاَ لاَيَبْقَى نَبِىٌّ وَلاَ صِدِّيقٌ وَلاَ شَهِيدٌ إِلاَّ وَحَضَرَ الصَّلاَةَ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَجِئْتُ لِأَشْهَدَ الصَّلاَةَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ جِئْتُكُمْ لِأُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ .

وَالآخَرُ : مَا رُوِىَ عَنْ هِشَامٍ

أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فى سبيل الله فانه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر » أخرجه أبو داود والترمذى ، وروى عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة ، ومن سأل الله القتل فى سبيل الله صادقا من نفسه ثم مات أو قتل كان له أجر شهيد ؛ ومن جرح جرحا فى سبيل الله أو نكب نكبة فانها تجىء يوم القيامة كأغزر ماكانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك ، ومن خرج به خراج فى سبيل الله فان عليه طابع الشهداء » أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الترمذى مفرقا فى موضعين . وروى الشيخان عن أبى سعيد رضى الله عنه قال « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى الناس أفضل؟ قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قال ثم من ؟ قال رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله ، وفى رواية : يتقى الله ويدع الناس من شره » وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من احتبس فرسا فى سبيل الله إيمانا واحتسابا وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات » وروى الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال ما أحد يدخل الجنة فيحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد تمني أن يرجع إلي الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة ، وفى رواية لما يرى من فضل الشهادة» ، وروى مسلم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين » وعن أبى هريرة رضى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة» أخرجه الترمذى، وللنسائى نحوه ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته » أخرجه أبو داود .

ولنرجع إلى ذكر قصة بعض الصالحين . قال (فقلت ما جاء بك) يابني (قال) ابنه (نودى فى أهل السماء ألا لا يبقي نبي ولا صديق ولا شهيد إلاوحضر الصلاة على) جنازة (عمر بن عبد العزيز) قال ابنه (فجئت لأشهد) أى لأحضر (الصلاة عليه) أى عمر بن عبد العزيز (ثم جئتكم) بعد الفراغ من الصلاة (لأسلم عليكم . و) الرجل (الآخر ما روى عن هشام

ابْنِ حَسَّانَ أَنَّهُ قال : مَاتَ لِيَ ابْنٌ حَدَثٌ فَرَأَيْتُهُ فِي النَّوْمِ ، فَإِذَا هُوَ أَشْيَبُ ، فَقُلْتُ يَا بُنَيَّ مَاهٰذَا الشَّيْبُ ؟ قالَ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْنَا فُلَانٌ زَفَرَتْ جَهَنَّمُ لِقُدُومِهِ زَفْرَةً لَمْ يَبْقَ مِنَّا أَحَدٌ إلاَّ شَابَ . نَعُوذُ بِاللهِ الرَّحِيمِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ .

ابن حسان أنه قال مات لى ابن حدث) فى السن أى شاب (فرأيته فى النوم فاذا هو أشيب فقلت يا بنى ما هذا الشيب ؟ قال) ابنه (لما قدم علينا فلان زفرت) أى صاحت (جهنم لقدومه زفرة لم يبق منا أحد إلا شاب) رأسه من هول ذلك اليوم وشدته ، وذلك لأن الهموم والأحزان إذا تعاقبت على الإنسان أسرع فيه الشيب ، قال المتنبي :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

(نعوذ بالله الرحيم من العذاب الأليم) أى المؤلم . اعلم أن الأخبار الواردة فى مقر الروح بعد الموت كثيرة وفيها اختلاف فمنها فى أرواح المؤمنين عامة ومنها فى الشهداء منهم خاصة ومنها فى ولدان المؤمنين وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحنث ومنها فى أرواح الكفار فالوارد فى أرواح المؤمنين عامة هذا القول عن عبد الله بن عمر وإنها فى حواصل طير بيض فى ظل العرش ، وقول مالك إنها مرسلة تذهب حيث ساءت ونحو قول ابن عمرو مارواه ابن منده والطبراني وأبو الشيخ عن ضمرة بن حبيب مرسلا قال « سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أرواح المؤمنين ، فقال فى طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت قال يارسول الله وأرواح الكفارة قال فى سجين » ، وروى البيهقي فى البعث والطبرانى وأبو نعيم عن عبدالله بن عمرو قال : الجنة ملوية فى قرون الشمس تنشر فى كل عام مرتين وأرواح المؤمنين فى طير كالزرازير تأكل من ثمر الجنة . وأخرجه ابن منده عنه مرفوعا وأخرجه الخلال عنه موقوفا بلفظ «أرواح المؤمنين فى أجواف طير خضر كالزرازير يتعارفون فيها ويرزقون من ثمرها » وروى ابن منده عن أم كبشة بنت المعرور قالت «دخل علنا النبى صلى الله عليه وسلم فسألناه عن هذه الروح فوصفها صفة لكنه أبكى أهل البيت ، فقال إن أرواح المؤمنين فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة وتأكل من ثمارها وتشرب من مياهها وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون ربنا ألحق بنا أخواننا وآتنا ما وعدتنا ، وإن أرواح الكفار فى حواصل طير سود تأكل من النار وتشرب من النار وتأوى إلي جحر فى النار يقولون ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ماوعدتنا» . ويقرب من ذلك مارواه مالك فى الموطأ وأحمد والنسائى بسند صحيح عن كعب بن مالك رفعه « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعث» . وروى أحمد والطبرانى بسند حسن عن أم هانىء : أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضا فقال صلى الله عليه وسلم «تكون النسم طيرا تعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس فى جسدها » . وروى ابن سعد من طريق محمود بن لبيد

عن أم بشر بنت البراء أنها قالت: «يا رسول الله هل يتعارف الموتى ؟ قال تربت يداك النفس الطيبة طير خضر فى الجنة ، فان كان الطير يتعارفون فى رؤوس الشجرة فانهم يتعارفون » وروى ابن عساكر من طريق ابن لهيعة عن أبى الأسود عن أم فروة بنت معاذ السلمية عن أم بشر امرأة أبي معروف قالت: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتزاور يا رسول الله إذا متنا يزور بعضنا بعضا ؟ فقال تكون النسم طيرا تعلق شجرا حتى إذا كان يوم القيامة دخلت فى جثتها» وروى ابن ماجه والطبرانى والبيهقى فى البعث بسند حسن عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك . قال : لما حضرت كعبا الوفاة أتته أم بشر بنت البراء ، فقالت يا أبا عبد الرحمن إن لقيت فلانا فأقرئه منى السلام ، فقال يغفر الله لك يا أم بشر نحن أشغل من ذلك فقالت أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ونسمة الكافر فى سجين قال بلى قالت فذاك» . ومنها مارواه البيهقى فى الدلائل وابن مردويه فى تفسيريهما من حديث أبى سعيد الخدرى « أتيت بالمعراج التى تعرج عليه أرواح بنى آدم فلم ير الخلائق أحسن من المعراج أما رأيت الميت يشق بصره طامحا إلى السماء ، فان ذلك عجبه بالمعراج فصعدت أنا وجبريل فاستفتح باب السماء فاذا أنا بآدم تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ، فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين » وروى أبو نعيم بسند ضعيف من حديث أبي هريرة « إن أرواح المؤمنين فى السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم فى الجنة » وروى أبو نعيم أيضا عن وهب بن منبه قال : إن لله فى السماء السابعة دارا يقال لها البيضاء تجتمع فيها أرواح المؤمنين ، فإذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح يسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم عليهم ، ومن ذلك ما قاله ابن عمر لأسماء حين عزاها فى ابنها عبد الله بن الزبير «لا تحزنى فان الأرواح عند الله فى السماء » رواه سعيد بن منصور فى سننه . وقيل إنها بين السماء والأرض ، روى سعيد بن منصور فى سننه وابن جرير فى كتاب الأدب له عن المغيرة بن عبد الرحمن قال : لقى سلمان الفارسى عبد الله بن سلام فقال له إن مت قبلى فأخبرنى بما تلقى وإن مت قبلك أخبرتك قال: وكيف وقد مت قال: إن الروح إذا خرج من الجسد كانت بين السماء والأرض حتى يرجع إلى جسده فقضى أن سلمان مات فرآه فى المنام فقال: أخبرنى أى شيء وجدته أفضل؟ قال: رأيت التوكل شيئا عجيبا، وروى ابن المبارك فى الزهد والحكيم فى النوادر وابن أبى الدنيا وابن منده عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال : «إن أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت ونفس الكافر فى سجين » . قال ابن القيم : البرزخ هو الحاجز بين الشيئين فكأنه أراد فى الأرض بين الدنيا والآخرة ، وروى الحكيم عن سلمان قال «أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردها الله إلى جسدها » ومنها ما رواه المروزى فى كتاب الجنائز عن العباس بن عبد المطلب قال « ترفع أرواح المؤمنين إلى جبريل فيقال : أنت ولي هذه إلى يوم القيامة » وروى ابن أبى الدنيا عن وهب بن منبه قال : أرواح المؤمنين إذا قبضت ترفع إلى ملك يقال له رومايل وهو خازن أرواح المؤمنين ، وروى عن أبان بن تغلب

عن رجل من أهل الكتاب قال : الملك الذى على أرواح الكفار يقال له دومة ، وروى ابن منده من طريق سفيان عن أبان بن تغلب عن رجل قال : بت ليلة بوادى برهوت فكأنما حشرت فيه أصوات الناس وهم يقولون : يا دومة يا دومة وحدثنا رجال من أهل الكتاب أن دومة هو الملك الموكل بأرواح الكفار ، ومنها مارواه المروزى فى كتاب الجنائز وابن منده وابن عساكر عن عبدالله بن عمرو قال : « أرواح الكفار تجمع ببرهوت سبخة بحضرموت ، وأرواح المؤمنين تجمع بالجابية برهوت باليمن والجابية بالشام » وروى ابن عساكر عن عروة بن رويم قال « الجابية تجى إليها كل روح طيبة » وروى أبو بكر بن النجار فى جزئه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: « خير وادى الناس وادى مكة وشر وادى الناس وادى الأحقاف واد بحضرموت وفيه أرواح الكفار » وروى ابن منده وابن أبى الدنيا عن على قال « أبغض بقعة فى الأرض إلى الله واد بحضرموت يقال له برهوت فيه أرواح الكفار » وروى ابن أبي الدنيا عن على قال : « أرواح المؤمنين فى بئر زمزم » وروى الحاكم فى المستدرك عن الأخنس بن خليفة الضبى « أن كعب الأحبار أرسل إلى عبد الله بن عمرو يسأله عن أرواح المسلمين أين تجتمع ، وأرواح أهل الشرك أين تجتمع ؟ فقال عبد الله : أما أرواح المسلمين فتجتمع بأريحاء ، وأما أرواح أهل الشرك فتجتمع بصنعاء فرجع رسول كعب إليه فأخبره بالذى قال ، فقال صدق .

فصـــل

وأما أرواح الشهداء ، فروى مسلم من حديث ابن مسعود : « أرواح الشهداء عند الله فى حواصل طير خضر تسرح فى أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش » وروى أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لما أصيب أصحابكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش » وروى سعيد بن منصور عن ابن عباس قال : « أرواح الشهداء تجول فى أجواف طير خضر تعلق فى ثمر الجنة » وروى عن أبى سعيد الخدرى رفعه « الشهداء يغدون ويروحون ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش فيقول الرب تعالى : هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتكموها فيقولون لا ، غير أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا إلى أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل فى سبيلك » وروى هناد فى الزهد وابن منده من حديث أبى سعيد « أن أرواح الشهداء فى طير خضر ترعى فى رياض الجنة ، ثم يكون مأواها إلى قناديل معلقة بالعرش فيقول الرب » وذكر نحوه ، وروى أبو الشيخ من حديث أنس « يبعث الله الشهداء من حواصل طير بيض كانوا فى قناديل معلقة بالعرش » وروى ابن منده عن سعيد ابن سويد أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين قال : « بلغنى أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو ثم تروح إلى رياض الجنة تأتى ربها سبحانه وتعالى تسلم عليه » وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال « إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر فى قناديل تحت العرش

تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلى قناديلها» وروى عن أبى الدرداء «أنه سئل عن أرواح الشهداء فقال : هى طيور خضر فى قناديل معلقة تحت العرش تسرح فى رياض الجنة حيث شاءت » وروى أحمد وعبد بن حميد وابن أبى شيبة والطبرانى والبيهقى بسند حسن من حدث ابن عباس « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشية » وروى هناد فى الزهد وابن أبى شيبة عن أبى بن كعب قال « الشهداء فى قباب فى رياض بفناء الجنة يبعث إليهم ثور وحوت فيعتركان فيلهون بهما فإذا احتاجوا إلى شىء عقر أحدهما صاحبه فيأكلون منه فيجدون فيه طعم كل شىء فى الجنة » وروى البخارى عن أنس قال « لما قتل حارثة قالت أمه يا رسول الله قد علمت منزلة حارثة منى فإن يكن فى الجنة فأصبر وإن يكن غير ذلك ترى ما أصنع فقال رسول الله : إنها جنان كثيرة وإنه فى الفردوس الأعلى » وروى ابن أبى شيبة والبيهقى عن ابن عباس عن كعب قال : « جنة المأوى فيها طير خضر ترتقى فيها أرواح الشهداء تسرح فى الجنة ، وأرواح آل فرعون فى طير سود تغدو على النار وتروح » وروى هناد فى الزهد عن هزيل قال : « إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ، وأرواح آل فرعون فى أجواف طير سود تروح وتغدو على النار فذلك عرضها » وروى الترمذى من حديث كعب بن مالك «إن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة» . قوله تعلق بضم اللام : أى تأكل العلقة وهى ما يتبلغ به من العيش . وروى ابن أبى شيبة عن عكرمة قال « أرواح الشهداء طير بيض فقاقيع فى الجنة » وروى عبد الرزاق عن قتادة قال : «بلغنا أن أرواح الشهداء فى صور طير بيض تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش» .

فصل

وأما أرواح أطفال المسلمين ، فروى ابن أبي حاتم فى التفسير عن أبى الدرداء قال «إن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت » وروى أحمد والحاكم وصححه والبيهقى وابن أبى الدنيا فى البعث وابن أبى الدنيا أيضاً فى كتاب العزاء بطرق من حديث أبى هريرة « أولاد المؤمنين فى جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يردوهم إلى آبائهم يوم القيامة » وروى ابن أبى الدنيا أيضا فى كتاب العزاء من حديث بن عمر « كل مولود يولد فى الاسلام فهو فى الجنة شبعان ريان يقول يارب أورد على أبوى» وأخرج فيه أيضا عن خالد بن معدان قال «إن فى الجنة لشجرة يقال لها طوبى كلها ضروع ، فمن مات من الصبيان الذين يرضعون يرضع من طوبى وحاضنهم إبراهيم عليه السلام » وروى أيضاً عن عبيد بن عمير قال « إن فى الجنة لشجرة لها ضروع كضروع البقر يغذى بها ولدان أهل الجنة » وروى سعيد بن منصور من مرسل مكحول « إن ذرارى المسلمين أرواحهم فى عصافير خضر فى شجر فى الجنة يكفلهم أبوهم إبراهيم عليه السلام » وروى ابن أبى حاتم عن خالد بن معدان « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى كلها ضروع ترضع صبيان

أهل الجنة ، وإن سقط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة » وروى ابن أبى شيبة عن ابن عباس عن كعب قال : « إن أطفال المسلمين فى عصافير فى الجنة » وروى هناد فى الزهد عن هزيل قال « أولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحنث عصافير من عصافير الجنة ترعى وتسرح » .

تتمة

قال ابن القيم فى كتاب الروض مسئلة : الروح بعد الموت عظيمة لا تتلقى إلا من السمع ، فقيل إن أرواح المؤمنين كلهم فى الجنة الشهداء وغيرهم إذا لم تحبسهم كبيرة لظاهر حديث كعب وأم هانىء وأم بشر وأبى سعيد وضمرة ونحوها ولقوله تعالى « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » قسم الأرواح عقب خروجها من البدن إلى ثلاثة : مقربين ، وأخبر أنها فى جنة نعيم ؛ وأصحاب يمين وحكم بالسلام وهو يتضمن سلامتها من العذاب . ومكذبة ضالة وأخبر أن لها نزلا من حميم وتصلية جحيم وقال « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك » . الآية وقال جماعة من الصحابة والتابعين إنه يقال لها ذلك عند خروجها من الدنيا على لسان الملك بشارة ، ويؤيده قوله تعالى فى مؤمن آل يس « قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » وقيل الأحاديث مخصوصة بالشهداء كما صرح به فى رواية أخرى ، ولقوله فى غيرهم « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى » الحديث ولحديث أبى هريرة السابق « إنهم فى السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم فى الجنة » وقال ابن حزم فى طائفة مستقرها حيث كانت قبل أجسادها : أى عن يمين آدم وشماله ، وقال هذا مادل عليه الكتاب والسنة قال الله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم » الآية ، وقال تعالى « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » الآية ، فصح أن الله تعالى خلق الأرواح جملة ، وكذلك أخبر صلى الله عليه وسلم « إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وأخذ الله عهدها وميثاقها وشهادتها بالربوبية ، وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن تؤمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها في الأجساد والأجساد يومئذ تراب وماء ثم أقرها حيث شاء وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت ، ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتوالدة من المنى . قال فصح أن الأرواح أجسام حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر وأنها عارفة مميزة فيبوئهم الله فى الدنيا كما يشاء ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى سماء الدنيا أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عند منقطع العناصر : الماء والهواء والتراب والنار تحت السماء ، ولا يدل ذلك على تعادلهم بل هؤلاء عن يمينه فى العلو والسعة وهؤلاء عن يساره فى السفل والسجن وتعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة . قال وقد ذكر محمد بن نصر المروزى عن إسحاق بن راهويه أنه ذكر هذا الذى قلناه بعينه ، وقال على هذا أجمع أهل العلم . وقال ابن حزم وهو قول جميع أهل

الإسلام وهو قول الله تعالى « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم » وقوله « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان » الآية ، فلا تزال الأرواح هناك حتى يتم عددها بنفخها فى الأجسام ثم برجوعها إلى البرزخ فتقوم الساعة فيعيدها عز وجل إلى الأجساد وهي الحياة الثانية وهذا كله كلام ابن حزم وقيل هى على أفنية قبورها . قال ابن عبد البر وهذا أصح ماقيل . قال وأحاديث السؤال وعرض المقعد وعذاب القبر ونعيمه وزيارة القبور والسلام عليها ومخاطبتهم مخاطبة الحاضر العاقل دالة على ذلك . قال ابن القيم هذا القول إن أريد به أنها ملازمة للقبور لا تفارقها فهو خطأ يرده الكتاب والسنة .

﴿ تنبيه ﴾ عرض المقعد لا يدل على أن الأرواح فى القبر ولا على فنائه بل على أنها اتصالا به يصح أن يعرض عليها مقعدها ، فان للروح شأنا آخر فتكون فى الرفيق الأعلى وهى متصلة بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على صاحبها رد عليه السلام وهى في مكانها هناك ، وإنما يأتى الغلط هنا من قاس الغائب على الشاهد فيعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا أشغلت مكانا لم يمكن أن يكون فى غيره وهذا غلط محض ، وقد رأى النبي صلي الله عليه وسلم ليلة الاسراء موسى عليه السلام قائما يصلى في قبره ورآه فى السماء السادسة فالروح كانت هناك فى مثل البدن ولها اتصال فى البدن بحيث يصلى فى قبره ويرد على من يسلم عليه وهو في الرفيق الأعلى ، ولا تنافى بين الأمرين فان شأن الأرواح غير شأن الأبدان ، وقد مثل ذلك بعضهم بالشمس فى السماء وشعاعها فى الأرض وإن كان غير تام المطابقة من حيث إن الشعاع هو عرض للشمس . وأما الروح فهي نفسها تنزل ، وكذلك رؤية النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليلة الإسراء فى السموات ، الصحيح أنه رأى فيها الأرواح فى مثال الأجساد مع ورود أنهم أحياء فى قبورهم يصلون، فلا منافاة بين كون الروح فى عليين أو الجنة أو السماء وأن لها بالبدن اتصالا بحيث تدرك وتسمع وتصلى وتقرأ ، وإنما يستغرب هذا لكون الشاهد الدنيوى لأنه ليس فيه ما يشابه هذا وأمور البرزخ والآخرة على نمط غير المألوف فى الدنيا هذا كله كلام ابن القيم ، وحكى فى موضع آخر للروح من سرعة الحركة والانتقال الذى كلمح البصر ما يقتضى عروجها من القبر إلى السماء فى أدنى لحظة وشاهد ذلك روح النائم ، فقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخرق السبع الطباق وتسجد لله بين يدى العرش ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان ؛ ثم قال ابن القيم بعد أن أورد بقية الأقوال فى مستقر الأرواح : ولا نحكم على قول من هذه الأقوال بعينه بالصحة ولا غيره بالبطلان ، بل الصحيح أن الأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت ولا تعارض بين الأدلة فإن كلا منها وارد على فريق من الناس بحسب درجاتهم فى السعادة والشقاوة فمنها أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى وهم متفاوتون فى منازلهم كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ، ومنها أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم ، فإن منهم من يحبس عن دخول الجنة لدين أو غيره كما فى حديث محمد

ابن عبد الله بن جحش عند أحمد ، ومنهم من يكون على باب الجنة كما فى حديث ابن عباس ، ومنهم من يكون محبوسا فى قبره كحديث صاحب الشملة «إنها لتشتعل عليه نارا فى قبره» ومنهم من يكون محبوسا فى الأرض لم تصل روحه إلى الملأ الأعلى لأنها كانت روحا سفلية أرضية ، فإن الأنفس الأرضية لاتجامع الأنفس السمائية ، كما أنها لا تجامعها فى الدنيا ، فإن الروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأصحاب عملها فالمرء مع من أحب ، ومنها أرواح تكون فى تنور الزانيات وأرواح فى نهر الدم إلى غير ذلك ، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقرا واحدا وكلها على اختلاف محالها وتباين مقارها لها اتصال بأجسادها فى قبورها ليحصل له من النعيم أو العذاب ما كتب له انتهى كلام ابن القيم . وقال القرطبي : الأحاديث دالة على أن أرواح الشهداء خاصة فى الجنة دون غيرهم ، وحديث كعب ونحوه محمول على الشهداء ، وأما غيرهم فتارة يكون فى السماء لا فى الجنة وتارة على أفنية القبور ، وقد قيل إنها تزور قبورها كل جمعة على الدوام . وقال ابن العربى : بحديث الجريدة يستدل على أن الأرواح فى القبور تنعم أو تعذب . ثم قال القرطبي وبعض الشهداء أرواحهم خارج الجنة أيضا كما فى حديث ابن عباس على بارق نهر بباب الجنة وذلك إذا حبسهم عنها دين أو شىء من حقوق الآدميين . قال : وذهب بعض العلماء إلى أن أرواح المؤمنين كلهم فى جنة المأوى ولذلك سميت جنة المأوى لأنها تأوى إليها الأرواح تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب نسيمها . قال والأول أصح . وقال الحافظ ابن حجر فى فتاويه : أرواح المؤمنين فى عليين وأرواح الكفار فى سجين ولكل روح بجسدها اتصال معنوي لا يشبه الاتصال فى الحياة الدنيا بل أشبه شىء به حال النائم وإن كان هو أشد من حال النائم اتصالا قال وبهذا يجمع بين ما ورد أن مقرها فى عليين أوسجين وبين مانقله ابن عبد البرعن الجمهور أنها عند أفنية قبورها . قال ومع ذلك فهى مأذون لها فى التصرف وتأوى إلى محلها من عليين أو سجين قال : وإذا نقل الميت من قبره فالاتصال المذكور مستمر ، وكذا لو تفرقت الأجزاء . وقال القرطبي فى حديثه كعب : «نسمة المؤمن طائر» وهو يدل على أن نفسها تكون طائرا : أى على صورته لا أنها تكون فيها ويكون الطائر ظرفا لها ، وكذا فى رواية عن ابن مسعود عند ابن ماجه «أرواح الشهداء عند الله كطير خضر» وقال فى لفظ عن ابن عباس «تجول فى طير خضر» ولفظ ابن عمرو «فى صورة طير بيض» وفى لفظ عن كعب : «الشهداء طير خضر» . قال وهذا كله أصح من رواية فى جوف طير . وقال القابسى : أنكر العلماء رواية : في حواصل طير خضر ، لأنها حينئذ تكون محصورة مضيقا عليها ؟ ورد بأن الرواية ثابتة والتأويل محتمل بأن يجعل «فى» بمعنى على ، وجائز أن يسمى الطير جوفا إذ هو محيط به ويشتمل عليه قاله عبد الحق . وقال غيره : لا مانع من أن تكون فى الأجواف حقيقة ويوسعها الله تعالي لها حتى تكون أوسع من الفضاء . وقال العز بن عبد السلام فى أماليه فى قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء » فإن قيل : الأموات كلهم كذلك فكيف خصص هؤلاء ؟ فالجواب أن الكل ليس كذلك ، فالمجاهد تنقل روحه إلى طير أخضر فقد انتقل من جسد إلى آخر بخلاف غيره فإنها تنفي من الأجساد قال : وأما حديث كعب

نسمة المؤمن الخ ، فهذا العموم محمول على المجاهدين ، فقد ورد «إن الروح فى القبر يعرض عليها مقعدها من الجنة والنار» ولأنا أمرنا بالسلام على القبور، ولولا أن الأرواح تدرك لما كان فيه فائدة انتهى . قال السيوطى : فأختار فى أرواح الشهداء أنها كائنة فى طير لا أنها نفسها طير ، ويؤيده ما روى عن ابن عمرو : أنها تركب فى جسد آخر ، وهو وإن كان موقوفا فله حكم المرفوع لأن مثله لا يقال من قبل الرأى . وقال صاحب الإفصاح : التنعم على جهات مختلفة : منها ما هو طائر فى شجر الجنة ، ومنها ماهو فى حواصل طير خضر ، ومنها ما يأوى فى قناديل تحت العرش ومنها ماهو فى حواصل طير بيض ، ومنها ما هو فى حواصل طير كالزرازير ، ومنها ما هو فى أشخاص صور من صور الجنة ، ومنها ما هو فى صورة تخلق لهم من ثواب أعمالهم ، ومنها ما تسرح وتتردد إلى جثتها تزورها ، وممن سوى ذلك ما هو فى كفالة آدم ، ومنها ما هو فى كفالة إبراهيم . قال القرطبى : وهذا قول حسن يجمع الأخبار حتى لا تتدافع . وقال الحكيم فى النوادر : الأرواح تجول فى البرزخ فتبصر أحوال الدنيا ، والملائكة تتحدث فى السماء عن أحوال الآدميين ، وأرواح تحت العرش . وأرواح طيارة إلى الجنان إلى حيث شاءت على أقدارهم من السعي إلي الله أيام حياتهم فى الدنيا . وقال ابن القيم : لامنافاة بين حديث أنه طائر يعلق فى شجر الجنة وبين حديث عرض المقعد بل ترد روحه أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ويعرض عليه مقعده لأنه لايدخله إلا يوم الجزاء ، فدخول الجنة التام إنما يكون للانسان التام روحا وبدنا ودخول الروح فقط أمر دون ذلك ، وفى بحر الكلام : الأرواح على أربعة أوجه : أرواح الأنبياء تخرج من جسدها وتصير مثل صورتها مثل المسك والكافور وتكون فى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم وتأوى بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش ، وأرواح الشهداء تخرج من جسدها وتكون فى أجواف طير خضر فى الجنة تأكل وتتنعم وتأوى بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش ، وأرواح المطيعين من المؤمنين بربض الجنة لاتأكل ولا تتنعم ولكن تنظر فى الجنة ، وأرواح العصاة من المؤمنين تكون بين السماء والأرض فى الهواء . وأما أرواح الكفار فهي فى سجين فى جوف طير سود تحت الأرض السابعة وهى متصلة بأجسادها فتعذب الأرواح وتتألم الأجساد منه كالشمس فى السماء ونورها فى الأرض انتهى .

وقال الحافظ ابن رجب فى كتاب أهوال القبور : الباب التاسع فى ذكر أحوال الموتى فى البرزخ : أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا شك أن أرواحهم عند الله فى أعلى عليين . وأما الشهداء فأكثر العلماء على أنهم فى الجنة ، وروى عن مجاهد أنه قال : ليس الشهداء في الجنة ولكن يرزقون منها . وروى آدم بن أبي إياس عنه قال : يرزقون من ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها . وأما حديث ابن عباس « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة » فلعله فى عموم الشهداء والذين فى القناديل حول العرش خواصهم ، أو المراد بالشهداء هنا غير قتيل المعركة كالمطعون والمبطون والغريق وغيرهم ممن ورد بالنص أنه شهيد أو سائر المؤمنين ، فقد يطلق الشهيد على من حقق الإيمان كما دل عليه قوله تعالى « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون

والشهداء عند ربهم » وحكم بقية المؤمنين سوى الشهداء فأهل التكليف وغيرهم فأطفال المؤمنين الجمهور على أنهم فى الجنة . وأما المكلفون من المؤمنين سوى الشهداء فاختلف العلماء فيهم قديما وحديثا ، فنص الإمام أحمد على أن أرواح المؤمنين فى الجنة وأرواح الكفار فى النار . واستدل بحديث كعب بن مالك وأم هانئ وأبى هريرة وأم بشر وعبد الله بن عمر ونحوها . وروى عن هلال ابن يساف أن ابن عباس سأل كعبا عن عليين وسجين فقال كعب: أما عليون فالسماء السابعة ففيها أرواح المؤمنين. وأما سجين فالأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار تحت خد إبليس. وقد ثبت بالأدلة أن الجنة فوق السماء السابعة وأن النار تحت الأرض السابعة . وقالت طائفة : الأرواح فى الأرض . ثم اختلفوا، فقالت فرقة: الأرواح تستقر على أفنية القبور قاله ابن وضاح وحكاه ابن حزم عن عامة أصحاب الحديث ، ورجح ابن عبد البر أن أرواح الشهداء فى الجنة وأرواح غيرهم على أفنية القبور فتسرح حيث شاءت ، واستدلوا بحديث السلام عليهم وعرض المقعد ، ولا دليل فى ذلك على أن الأرواح ليست فى الجنة فان العرض على الجثة وللروح بها اتصال والروح وحدها فى الجنة ، وكذا السلام على أهل القبور لا يدل على استقرار أرواحهم على أفنية قبورهم فانه يسلم على قبور الأنبياء والشهداء وأرواحهم فى أعلى عليين . ولكن لها مع ذلك اتصال سريع بالجسد لا يعلم كنه ذلك وكيفيته على الحقيقة إلا الله تعالى ويشهد لذلك الأحاديث المروية فى أن النائم يعرج بروحه إلى العرش هذا مع تعلقها ببدنه وسرعة عودها إليه عند استيقاظه فأرواح الموتى المجردة عن أبدانهم أولى بعروجها إلى السماء وعودها إلى القبر فى مثل تلك السرعة . وقالت فرقة : تجمع الأرواح بموضع من الأرض ، فأرواح المؤمنين تجمع بالجابية وقيل ببئر زمزم وأرواح الكفار تجمع ببئر برهوت . ورجحه القاضى أبو على من الحنابلة فى كتاب المعتمد وهو مخالف لنص أحمد أن أرواح الكفار فى النار ، ولعل لبئر برهوت اتصالا بجهنم فى قعرها كما روى فى البحر أن تحته جهنم . وروى صفوان بن عمر قال «سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال: يقال إن الأرض التى يقول الله : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » هى الأرض التى تجتمع فيها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث . أخرجه ابن منده وهذا غريب جدا ، وتفسير الآية به أغرب ، وروى ابن منده عن شهر بن حوشب قال : كتب عبد الله بن عمرو إلى أبى بن كعب يسأله أين تلتقى أرواح أهل الجنة وأرواح أهل النار ؟ فقال أما أرواح أهل الجنة فبالجابية وأما أرواح الكفار فبحضرموت ، وقالت طائفة من الصحابة الأرواح عند الله صح ذلك عن ابن عمر ، وروى ابن منده من طريق الشعبى عن حذيفة قال: «إن الأرواح موقوفة عند الرحمن تنتظر موعدها حتى ينفخ فيها» وهذا لا ينافى ما وردت به الأخبار من محل الأرواح على ما سبق ، وقالت طائفة: أرواح بنى آدم عند أبيهم آدم عن يمينه وشماله لما ثبت فى قصة المعراج فى الصحيحين فلما فتح علونا السماء فاذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقلت لجبريل من هذا ؟ قال آدم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار الحديث ، فظاهر هذا اللفظ يقتضى أن أرواح الكفار فى السماء . وهو مخالف

وَأَمَّا الْقِيَامَةُ فَتَأَمَّلْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا)

للقرآن والحديث أن السماء لا تفتح لروح الكافر . وقد ورد فى بعض طرق الحديث ما يزيل الإشكال ولفظه « وإذا هو يعرض عليه أرواح ذريته فاذا كان روح المؤمن قال روح طيبة اجعلوها فى عليين وإذا كان روح الكافر قال روح خبيثة اجعلوها فى سجين » الحديث ، ففى هذا أنه تعرض عليه أرواح ذريته من السماء الدنيا وأنه يأمر بجعل الأرواح فى مستقرها فدل على أن الأرواح على استقرارها فى السماء الدنيا . وزعم ابن حزم أن الله تعالى خلق الأرواح جملة قبل الأجساد وأنه جعل فى برزخ عند منقطع العناصر حيث لا ماء ولا هواء ولا تراب ولا نار إلى آخر ماقال حسبما أسلفناه . وهذا قول لم يقله أحد من المسلمين ولا هو من جنس كلامهم وإنما هو من جنس كلام المتفلسفة . قال والفرق بين حياة الشهداء وغيرهم من المؤمنين الذين أرواحهم فى الجنة من وجهين : أحدهما أن أرواح الشهداء تخلق لها أجساد وهى الطير التى تكون فى حواصلها ليكمل بذلك نعيمها ويكون أكمل من نعيم الأرواح المجردة عن الأجساد ، فان الشهداء بذلوا أجسادهم للقتل فى سبيل الله فعوضوا عنها بهذه الأجساد فى البرزخ . والثانى أنهم يرزقون من الجنة وغيرهم لم يثبت فى حقه مثل ذلك، وإن جاء أنهم يعلقون فى شجر الجنة فقيل معناه التعلق وقيل الأكل من الشجرة فلا يلزم مساواتهم للشهداء فى كمال تنعيمهم فى الأكل والله أعلم انتهى كلام الحافظ ابن رجب رحمه الله وهو غاية فى بابه لا مزيد عليه . ولنرجع إلى شرح كلام المصنف قال رحمه الله تعالى (وأما القيامة فتأمل) أيها الرجل (قول الله تعالى « يوم نحشر المتقين) نجمعهم (إلى الرحمن) إلى ربهم الذى غمرهم برحمته ولاختيار هذا الاسم فى هذه السورة شأن ولعله لأن مساق الكلام فيها التعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها (وفدا) وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم . قال ابن عباس : وفدا : أى ركبانا . قال أبو هريرة : على الإبل وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها من الذهب ونجائب سروجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) أى الكافرين كما تساق البهائم (إلى جهنم وردا») أي مشاة عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد إلا بعد العطش ، وقيل يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طرائق : راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسى معهم حيث أمسوا » . قوله تقيل معهم حيث قالوا: من القيلولة وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامه ثلاثة أصناف : صنفا مشاة

فَوَاحِدٌ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ ، فَإِذَا الْبُرَاقُ عَلَى رَأْسِ الْقَبْرِ وَالتَّاجُ وَالْحُلَلُ ، فَيَلْبَسُ وَيَرْكَبُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، لَا يُخَلَّى مِنْ عِزَّتِهِ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى الْجَنَّةِ بِرِجْلَيْهِ ، وَآخَرُ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ ، فَإِذَا الزَّبَانِيَةُ وَالْأَغْلَالُ وَالْأَنْكَالُ لَا يُخَلُّونَ الشَّقِيَّ يَمْشِي إِلَى النَّارِ بِرِجْلَيْهِ ، بَلْ يُسْحَبُ بِهِ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ عَلَى وَجْهِهِ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ .

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَرْوِي عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ قُبُورِهِمْ لَهُمْ نُجُبٌ يَرْكَبُونَهَا ، لَهَا أَجْنِحَةٌ خُضْرٌ ، فَتَطِيرُ بِهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى حِيطَانِ الْجَنَّةِ ، فَإِذَا رَأَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَنْ هٰؤُلَاءِ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا نَدْرِي ، لَعَلَّهُمْ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم فَيَأْتِيهِمْ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ فَيَقُولُ :

وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم . قيل يارسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك » أخرجه الترمذى (فواحد) من السعداء (يخرج من قبره فإذا البراق على رأس القبر والتاج والحلل) وقد ذكر العلامة عبد الرحيم بن أحمد القاضى صفة البراق فقال : وهو يعنى البراق ذو جناحين يطير بين السماء والأرض ووجهه كوجه الإنسان ولسانه كلسان العرب واضح الحاجبين ضخم القرنين رقيق الأذنين وهما من زبرجدة خضراء أسود العينين ، ويقال كالكوكب الدرى وناصيته من ياقوتة حمراء ذنبه كذنب البقر مكلل بالذهب الأحمر ، ويقال هو فى الحسن كالطاوس فوق الحمار ودون البغل ، وإنما سمى البراق براقا لأن سيره وسرعته كالبرق (فيلبس) ذلك التاج والحلل (ويركب) البراق (إلى جنات النعيم لايخلى من عزته أن يمشى إلى الجنة برجليه وآخر) من الأشقياء (يخرج من قبره فاذا الزبانية) أى الملائكة الغلاظ الشداد (والأغلال) جمع غل بالضم : طوق من حديد يجمع فى العنق (والأنكال) أى القيود ، فى المختار النكل بوزن الطفل القيد ، وجمعه أنكال (لايخلون الشقى يمشى إلى النار برجليه بل يسحب) أى يجر (به إلى سواء) أى وسط (الجحيم على وجهه نعوذ بالله من سخطه) وغضبه (ولقد سمعت بعض العلماء) رحمه الله تعالى (يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إذا كان يوم القيامة يخرج قوم من قبورهم لهم نجب) بضمتين جمع نجيب من الإبل كما فى المختار (يركبونها لها أجنحة خضر فتطير) أى تلك النجب (بهم فى عرصات القيامة حتى إذا أتوا على حيطان الجنة فاذا رأتهم) أى هؤلاء القوم الذين يركبون النجب (الملائكة قال بعضهم) أى الملائكة (لبعض من هؤلاء ؟) القوم (فيقولون) أى الملائكة (ماندرى لعلهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيأتيهم بعض الملائكة فيقول)

مَنْ أَنْتُمْ ؟ وَمِنْ أَيِّ الْأُمَمِ أَنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَحْنُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ : هَلْ حُوسِبْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : لَا ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : هَلْ وُزِنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: لَا ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : هَلْ قَرَأْتُمْ كُتُبَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : لَا ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : ارْجِعُوا فَكُلُّ ذَلِكَ وَرَاءَكُمْ ، فَيَقُولُونَ : هَلْ أَعْطَيْتُمُونَا شَيْئاً فَنُحَاسَبَ عَلَيْهِ ؟. وَفِي خَبَرٍ آخَرَ: مَا مَلَكْنَا شَيْئاً فَنَعْدِلَ أَوْ نَجُورَ، وَلَكِنْ عَبَدْنَا رَبَّنَا حَتَّى دَعَانَا فَأَجَبْنَاهُ ،فَيُنَادِي مُنَادٍ :صَدَقَ عِبَادِي مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ؟ فَأَعْظِمْ بِرَجُلٍ يُشَاهِدُ تِلْكَ الْأَهْوَالَ وَالزَّلَازِلَ وَالْوَقَائِعَ ، وَهُوَ آمِنٌ لَا يَدْخُلُ قَلْبَهُ فَزَعٌ وَلَا يَكُونُ عَلَى قَلْبِهِ ثِقَلٌ . نَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ ، أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أُولَئِكَ السُّعَدَاءِ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِعَزِيزٍ .

البعض (من أنتم ومن أى الأمم أنتم ؟ فيقولون) أى هؤلاء القوم (نحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فتقول لهم الملائكة هل حوسبتم فيقولون لا) نحاسب (فتقول الملائكة هل وزنتم ؟ فيقولون لا ، فتقول الملائكة هل قرأتم كتبكم) أى كتب أعمالكم (فيقولون لافتقول الملائكة ارجعوا فكل ذلك) الذى ذكرناه من الحساب والوزن وقراءة الكتاب (وراءكم فيقولون هل أعطيتمونا شيئا فنحاسب عليه» . وفى خبر آخر «ماملكنا شيئا فنعدل أو نجور ولكن عبدنا ربنا حتى دعانا) ربنا الكريم (فأجبناه) سبحانه وتعالى (فينادى مناد) من قبل الرب (صدق عبادى) فى قولهم ماذكر فلا تأمروهم بالرجوع إلى ورائهم بل اتركوهم (ماعلي المحسنين من سبيل) أى ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل . قال بعض المفسرين :ويستنبط من قوله « ماعلى المحسنين من سبيل » أن كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله مخلصا من قلبه ليس عليه سبيل فى نفسه وماله إلا ما أباحه الشرع بدليل منفصل (والله غفور) متجاوز لمن تاب (رحيم) يعنى أنه تعالى رحيم بجميع عباده (أما تسمع قوله تعالى « أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا) من العذاب (يوم القيامة») قابل الإلقاء فى النار بالإتيان آمنا مبالغة فى إحماد المؤمنين كذا قاله القاضى (فأعظم) بوزن أفعل بكسر العين صيغة تعجب (برجل) من المؤمنين (يشاهد تلك الأهوال والزلازل والوقائع وهو آمن) منها (لايدخل قلبه فزع) أى خوف (ولا يكون على قلبه ثقل) أى شدة (نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من أولئك السعداء) المقبولين (وما ذلك) أى ليس الجعل المذكور (علي الله جل جلاله بعزيز) أى بمتعذر أو متعسر

وَأَمَّا الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَتَأَمَّلْ فِيهِمَا آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى : إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا) وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ آخَرِينَ : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ، فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) .

(وأما الجنة) التى هى دار الثواب (والنار) التى هى دار العقاب (فتأمل) أيها الرجل(فيهما آيتين من كتاب الله تعالى : إحداهما) أى الآيتين (قوله تعالى وسقاهم) أى أهل الجنة (ربهم) أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص ، وقيل إن الملائكة يعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم ويقولون لقد طال أخذنا من الوسائط فاذاهم بكاسات تلاقى أفواههم بغير أكف من غيب إلى عبد كذا ذكره النسفى (شرابا طهورا) يعنى طاهرا من الأقذار والأدران لم تمسه الأيدى ولم تدنسه الأرجل كخمر الدنيا ، وقيل إنه لا يستحيل بولا ولكنه يستحيل رشحا فى أبدانهم كرشح المسك . وذلك أنهم يؤتون بالطعام ثم من بعده يؤتون بالشراب الطهور فيشربون منه فتطهر بطونهم ويصيرما أكلوا رشحا يخرج من جلودهم أطيب من المسك الأذفر وتضمر بطونهم وتعود شهواتهم وقيل الشراب الطهور هو عين ماء علي باب الجنة من شرب منه نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد . قاله الخازن («إن هذا) النعيم (كان لكم جزاء) أى يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها « إن هذا كان لكم جزاء » قد أعده الله لكم إلى هذا الوقت فهو لكم بأعمالكم ، وقيل هو إخبار من الله تعالى لعباده المؤمنين أنه قد أعده لهم فى الآخرة (وكان سعيكم مشكورا ») أى شكرتكم عليه وآتيتكم أفضل منه وهو الثواب ، وقيل شكر الله لعباده هو رضاه منهم بالقليل من الطاعة وإعطاؤه إياهم الكثير من الخيرات (و) الآية الثانية (قال تعالى حكاية عن آخرين) وهم الكفار («ربنا أخرجنا منها) من النار (فان عدنا) إلى الكفر والتكذيب (فاناظالمون) لأنفسنا(قال) الله لهم(اخسئوا فيها)أى فى النار : يعنى اسكتوا اسكوت هوان فانها ليست مقام سؤال من خسأت الكلب إذا زجرته خسأ (ولا تكلمون) فى رفع العذاب أولا تكلمون رأسا، قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فيجابون حق القول منى فيقولون ألفا ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم فيقولون ألفا يامالك ليقض علينا ربك فيجابون إنكم ماكثون فيقولون ألفا ربنا أخرنا إلى أجل قريب فيجابون أولم تكونوا أقسمتم من قبل فيقولون ألفا ربنا أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فيقولون ألفا رب ارجعون فيجابون اخسئوا فيها ثم لايكون لهم فيها إلا زفير وشهيق وعواء كعواء الكلاب قاله القاضى ، وروى عن عبد الله بن عمرو أن أهل جهنم يدعون مالكا خازن جهنم أربعين عاما يامالك ليقض علينا ربك فلايجيبهم ثم يقول إنكم ماكثون ، ثم ينادون ربهم ربنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسئوا

وَرُوِىَ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ عِنْدَ ذَٰلِكَ كِلَابًا يَتَعَاوَوْنَ فى النارِ . نَعُوذُ بِاللهِ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِى رَحِمَهُ اللهُ : لَا نَدْرِى أَىُّ الْمُصِيبَتَيْنِ أَعْظَمُ : فَوْتُ الْجِنَانِ ، أَمْ دُخُولُ النِّيرَانِ ؟ أَمَّا الْجَنَّةُ : فَلَا صَبْرَ عَنْهَا ، وَأَمَّا النَّارُ : فَلَا صَبْرَ عَلَيْهَا ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَفَوْتُ النَّعِيمِ أَيْسَرُ مِنْ مُقَاسَاةِ الْجَحِيمِ ، ثُمَّ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى هِىَ الْخُلُودُ ، إِذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مُنْقَطِعًا لَكَانَ هَيِّنًا ، وَلَكِنِ الشَّأْنُ فى أَبَدٍ بِلَا آخِرٍ ، فَأَىُّ قَلْبٍ يَحْتَمِلُ ذَٰلِكَ ! وَأَىُّ نَفْسٍ تَصْبِرُ عَلَى ذَٰلِكَ ؟ وَلِذَٰلِكَ قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « ذِكْرُ خُلُودِ الْخَالِدِينَ ، يَقْطَعُ قُلُوبَ الْخَائِفِينَ » .

وَذُكِرَ عِنْدَ الْحَسَنِ

فيها ولا تكلمون فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلا الزفير والشهيق . ذكره البغوى بغير سند وأخرجه الترمذى بمعناه عن أبى الدرداء . قوله فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة . أى سكتوا ولم يتكلموا بكلمة ، وقيل إذا قال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم (وروى أنهم) أى أهل النار (يصيرون عند ذلك) أى عند الجواب بقوله تعالى اخسئوا فيها (كلابا يتعاوون فى النار) أى يصيحون فيها . فى المختار عوى الكلب والذئب وابن آوى يعوى بالكسر عواء بالضم والمد : أى صاح (نعوذ بالله الرءوف الرحيم من عذابه الأليم فان الأمر كما قال يحيى بن معاذ) الواعظ أحد رجال الطريقة . ذكره أبو القاسم القشيرى فى الرسالة وعده من جملة المشايخ . وقال فيه نسيج وحده فى وقته له لسان فى الرجاء خصوصا وكلام فى المعرفة خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين (الرازى) بالزاى نسبة إلى الرى من بلاد الديلم (رحمه الله : لا ندرى أى المصيبتين أعظم فوت) دخول (الجنان أم دخول النيران ، أما الجنة فلا صبر عنها) أى عن اجتنابها (وأما النار فلا صبر عليها) أى على دخولها (وعلى كل حال ففوت النعيم أيسر من مقاساة الجحيم ، ثم الطامة) أن الداهية التى تطم : أى تعلو على سائر الدواهى (الكبرى) التى هى أكبر الطامات (والمصيبة العظمى هى الخلود) فى النار (إذ لو كان الأمر على كل حال منقطعا لكان) ذلك الأمر (هينا) سهلا (ولكن الشأن فى أبد بلا آخر ، فأى قلب يحتمل ذلك) الأبد (وأى نفس تصبر على ذلك ولذلك) أى لأجل أن الشأن فى أبد بلا آخر (قال عيسى عليه السلام : ذكر خلود الخالدين) فى النار (يقطع قلوب الخائفين . وذكر عند الحسن)

أَنَّ آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَى النَّارِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ هَنَّادٌ ، عُذِّبَ أَلْفَ عَامٍ يُنَادِي يَاحَنَّانُ يَامَنَّانُ ، فَبَكَى الْحَسَنُ وَقَالَ : يَالَيْتَنِي كُنْتُ هَنادًا ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ فَقَالَ وَيْحَكُمْ ، أَلَيْسَ يَوْماً يَخْرُجُ ؟.

قُلْتُ : فَرَجَعَ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِذَنْ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَهِيَ النُّكْتَةُ الَّتِي تَقْصِمُ الظُّهُورَ ، وَتُصَفِّرُ الْوُجُوهَ ، وَتُذِيبُ الْأَكْبَادَ ، وَتَقْطَعُ الْقُلُوبَ ، وَتُدْمِي الْعُيُونَ مِنَ الْعِبَادِ ، وَهِيَ خَوْفُ نَزْعِ الْمَعْرِفَةِ ، فَهَذِهِ الْغَايَةُ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا خَوْفُ الْخَائِفِينَ ، وَتَبْكِي عَلَيْهَا أَعْيُنُ الْبَاكِينَ ، وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْغُمُومَ ثَلَاثَةٌ : غَمُّ الطَّاعَةِ أَنْ لَا تُقْبَلَ ،

البصري رحمه الله (أن آخر من يخرج من النار رجل يقال له هناد عذب ألف عام ينادى يا حنان) معناه الرحيم أو الذى يقبل على من أعرض عنه (يامنان) معناه المعطى ابتداء (فبكى الحسن وقال : يا ليتنى كنت هنادا) يشير إلي ما رواه أحمد وابن خزيمة والبيهقى من حديث أنس « إن عبدا فى جهنم ينادى ألف سنة يا حنان يامنان فيقول الله لجبريل اذهب فائتنى بعبدى هـذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره فيقول : ائتنى به فإنه في مكان كذا وكذا فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول له يا عبدى كيف وجـدت مكانك ومقيلك فيقول يا رب شر مكان وشر مقيل فيقول ردوا عبدى فيقول يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتنى منها أن تعيدنى فيها فيقول دعوا عبدى » وهذا يدل على أن رجاءه كان سبب نجاته من النار كما قاله المصنف فى غير هـذا الـكتاب (فتعجبوا) أى الحاضرون عنده (منه) رحمه الله (فقـال) الحسن (ويحكم أليس يوما يخرج) ذلك الرجل (قلت فرجع الأمر كله إذن) أي حين إذ عرفت قول الحسن وغيره (إلى أصل واحد وهى) أي ذلك الأصل وأنث الضمير مراعاة للخبر (النـكتة التى تقصم الظهور) أو تـكسرها وبابه ضرب ، قال العلامة الدسوقى : والقصم بالقاف الـكسر سواء كان منه إبانة أولا ، وقيل الـكسر مع الإبانة قصم بالقاف وبدون إبانة فصم بالفاء وهذا كناية عن شدة هـذه النـكتة ، وكذا قوله (وتصفر الوجوه) أى تجعلها صفرة وهى لون دون الحمرة كما فى المصباح (وتذيب) أى تفتت تلك النـكتة (الأكباد) جمع كبـد من الأمعاء معروفة وهى أنثى ، وقال الفراء تذكر وتؤنث (وتقطع القـلوب وتدمي العيون) أى تجعل دمعها دما بسبب كثرة البـكاء حتى انقطعت الدموع ، ثم تسيل كذلك (من العباد وهى) أى النـكتة المذكورة (خوف نزع المعرفة فهـذه) هى (الغاية التى ينتهى إليها) أى إلى تلك الغاية (خوف الخائفين) من السلف الصالحين (وتبكى عليها) أى لأجل تلك الغاية (أعين البا كين ، ولقد قال بعضهم إن الغموم ثلاثة : غم الطاعة) لأجل (أن لا تقبل ،

وَغَمُّ الْمَعْصِيَةِ أَنْ لَا تغفر ، وَغَمُّ الْمَعْرِفَةِ أَنْ تُسْلَبَ ، وَقَالَ الْمُخْلِصُونَ : بَلِ الْغَمُّ كُلُّهُ وَاحِدٌ بِالْحَقِيقَةِ ، وَهُوَ غَمُّ سَلْبِ الْمَعْرِفَةِ ، وَكُلُّ غَمٍّ دُونَهُ جَلَلٌ إِذْ لَهُ انْقِضَاءٌ .

وَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ يُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى سُفْيَانَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، فَبَكَى لَيْلَهُ أَجْمَعَ ، فَقُلْتُ : بُكَاؤُكَ هٰذَا عَلَى الذُّنُوبِ ؟ قَالَ فَحَمَلَ تِبْنًا وَقَالَ : الذُّنُوبُ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هٰذَا ، إِنَّمَا أَخْشَى أَنْ يَسْلُبَنِي اللهُ الْإِسْلَامَ ؛ نَسْأَلُ اللهَ رَبَّنَا الْمَنَّانَ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يَبْتَلِينَا بِمَعْصِيَةٍ ، وَأَنْ يُتِمَّ عَلَيْنَا بِفَضْلِهِ كَثِيرَ نِعْمَتِهِ ، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَبَبَ سُوءِ الْخَاتِمَةِ وَمَعْنَاهَا

وغم المعصية أن لا تغفر ، وغم المعرفة أن تسلب ، وقال المخلصون بل الغم كله واحد بالحقيقة ، وهو غم سلب المعرفة وكل غم دونه) أى غير غم سلب المعرفة (جلل) أى هين يسير ، والجلل أيضا الأمر العظيم وهو من الأضداد . والمراد هنا الأول (إذ) حرف تعليل (له) أى لكل الغم غير غم السلب (انقضاء) وإن طال الزمن (ولقد بلغنا عن يوسف بن أسباط) الشيباني (رحمه الله تعالى) توفى سنة نيف وتسعين ومائة (أنه قال : دخلت على سفيان) الثورى وهو من تابعي التابعين (رحمه الله تعالي فبكى) سفيان (ليله أجمع فقلت بكاؤك هذا على الذنوب ؟ قال) ابن أسباط (فحمل) سفيان بيده (تبنا) قال العلامة عبد الحق : التبن عصيفة الزرع من بر ونحوه الواحدة تبنة (وقال) سفيان (الذنوب أهون على الله من هذا) التبن (إنما أخشى أن يسلبنى الله الاسلام) أخرجه أبو نعيم فى الحلية يقول هذا وهو إمام العلماء وذلك لخوفه الشديد من الخلود فى الأبدية وسوء الخاتمة . قال صاحب القوت : ولقد كان سفيان أحد الخائفين كان يبول الدم من شدة الخوف وكان يمرض المرضة من المخافة وعرض بوله علي بعض أطباء الكتابيين فقال هذا بول راهب من الرهبان ، وروى أبو نعيم فى الحلية من طريق علي بن غنام قال : مرض سفيان الثورى بالكوفة فبعث بمائه إلى متطبب بالكوفة فلما نظر إليه قال : ويلك بول من هذا ؟ فقالوا ما نسأل انظر ماترى فيه قال : أرى بول رجل قد أحرق الحزن والخوف جوفه . وقال القشيرى فى الرسالة ، وقيل مرض سفيان مرضة فعرض دليله : أى ما يستدل به على مرضه وهى القارورة على طبيب ذمي فقال : صاحب هذا رجل قطع الخوف كبده ، ثم جاء إليه وجس نبضه ثم قال : ما علمت أن فى الملة الحنيفية مثله فى كمال خوفه (نسأل الله ربنا المنان سبحانه أن لا يبتلينا بمعصية وأن يتم علينا بفضله كثير نعمته وأن يتوفانا على ملة الاسلام إنه أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (وقد ذكرنا سبب سوء الخاتمة ومعناها

فِى كِتَابِ : [إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ] فَتَأَمَّلْهُ هُنَاكَ ، فَإِنَّ الْخَوْضَ فِيهِ هٰهُنَا خُرُوجٌ إِلَى الْإِكْثَارِ ، فَتَأَمَّلْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ رَاشِدًا ، فَإِنَّ التَّفْصِيلَ أَكْثَرُ مِمَّا يَأْتِى عَلَيْهِ الْوَهْمُ وَالذِّكْرُ لَعَلَّكَ تُفْلِحُ بِعَوْنِ اللهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَأَىُّ الطَّرِيقَيْنِ أَسْلُكُ: طَرِيقَ الْخَوْفِ ، أَوْ طَرِيقَ الرَّجَاءِ ؟

يُقَالُ لَكَ : بَلِ الْمُرَكَّبَ بَيْنَهُمَا ، فَلَقَدْ قِيلَ : مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ صَارَ مُرْجِئًا بِهِ رُبَّمَا يُخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَصِيرَ خُرْمِيًّا ، وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ صَارَ حَرُورِيًّا ؛ وَالْمُرَادُ أَنْ لَا يَنْفَرِدَ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ ، فَإِنَّ بِالْحَقِيقَةِ الرَّجَاءَ الْحَقِيقِىَّ لَا يَنْفَكُّ

فى كتاب) الخوف من جملة كتب (إحياء علوم الدين فتأمله) أى سبب سوء الخاتمة ومعناها (هناك) أى فى كتاب الإحياء (فإن الخوض) أى الدخول (فيه) أى المذكور من السبب والمعنى (هاهنا أى فى هذا المختصر (خروج إلى الإكثار) أى بسط الكلام لأن غرضنا فى هذا الكتاب الاختصار ولذا تركنا الخوض فى ذلك ، وقد لخصنا مافى الإحياء من سبب سوء الخاتمة ومعناها فى عقبة العلم فانظر هناك (فتأمل هذه الجملة) التى ذكرناها (راشدا فإن التفصيل أكثر مما يأتى عليه الوهم والذكر لعلك تفلح بعون الله وحسن توفيقه ، فإن قلت فأى الطريقين أسلك) أى أدخل (طريق الخوف أو طريق الرجاء ؟ يقال لك بل) اسلك (المركب بينهما) أى الخوف والرجاء (فلقد قيل : من غلب عليه الرجاء صار مرجئا) فى شرح المواقف المرجئة لقبوا به لأنهم يرجئون العمل عن النية : أى يؤخرونه فى الرتبة عنها ، وعن الاعتقاد من أرجاه أى أخره ، ومنه « أرجه وأخاه » أى أمهله وأخره أو لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة فهم يعطون الرجاء وعلى هذا ينبغى أن لا يهمز لفظ المرجئة ، وفى المصباح المرجئة طائفة يرجئون الأعمال : أى يؤخرونها فلا يرتبون عليها ثوابا ولا عقابا بل يقولون المؤمن يستحق الجنة بالايمان دون بقية الطاعات ، والكافر يستحق النار بالكفر دون بقية المعاصى (بل ربما يخاف عليه) أى على من غلب رجاؤه على خوفه (أن يصير خرميا) بضم الخاء وتشديد الراء الخرميه أصحاب التاريخ والإباحة ، قاله العلامة عبد الحق (ومن غلب عليه الخوف صار حروريا) فى المغرب : الحروية فرقة من الخوارج منسوبة إلى حروراء قرية بالكوفة كان بها أول تحكيمهم واجتماعهم عن الأزهرى وقول عائشة رضى الله عنها لامرأة أحرورية أنت ؟ المراد أنها فى التعمق فى سؤالها كأنها خارجية لأنهم تعمقوا فى أمر الدين حتى خرجوا منه (والمراد) بالقول الذى ذكرناه (أن لاينفرد) العبد (بأحدهما) أى الخوف والرجاء (دون الآخر فإن بالحقيقة الرجاء الحقيقى لاينفك

عَنِ الْخَوْفِ الْحَقِيقِيِّ ، وَالْخَوْفُ الْحَقِيقِيُّ ، لاَ يَنْفَكُّ عَنِ الرَّجَاءِ الْحَقِيقِيِّ ، وَلِذَٰلِكَ قِيلَ الرَّجَاءُ كُلُّهُ لِأَهْلِ الْخَوْفِ لاَ الْأَمْنِ ، وَالْخَوْفُ كُلُّهُ لِأَهْلِ الرَّجَاءِ لاَ الْيَأْسِ .

عن الخوف الحقيق ، والخوف الحقيقى لاينفك عن الرجاء الحقيقى ولذلك) أى لأجل عدم انفكاك أحدهما عن الآخر (قيل: الرجاء كله لأهل الخوف لا) لأهل (الأمن) من مكر الله والاغترار به (والخوف كله لأهل الرجاء لا) لأهل (اليأس) والقنوط من رحمة الله . والحاصل أن الخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه أو مظنون إذا المعلوم لايرجى ولا يخاف ، فاذا المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة ، فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب وهوالخوف والتقديران يتقابلان لامحالة إذاكان الأمر المنتظر مشكوكا فيه ، نعم أحد طرفى الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه وكذا بالعكس ، فهذا معنى غلبة أحدهما على الآخر ولو استويا فى التعلق بالأسباب ، وعلى كل حال فهما وصفان متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر ، ولذلك قال تعالى « يدعوننا رغبا ورهبا » وقال عز وجل « يدعون ربهم خوفا وطمعا » ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء وسموه به فقال تعالى على هذه اللغة « مالكم لاترجون لله وقارا » أى لاتخافون لله عظمة ، وكثيرا ماورد فى القرآن الرجاء بمعنى الخوف، كما فى قوله تعالى « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله » أى يخافون عقوبات الله ، وكذا قوله تعالى « وترجون من الله مالا يرجون » أى تخافون منه مالا يخافون وذلك لتلازمهما، ولولا أنهما كشىء واحد لما فسر أحدهما بالآخر ، إذ عادة العرب التعبيرعن الشىء بما يلازمه ، ومثل أحدهما من الآخر مثل اليوم من الليلة لما لم ينفك أحدهما عن الآخر جاز أن يعبر عن المدة بأحدهما فيقال ثلاثة أيام ويقال ثلاث ليال ، ومنه قوله تعالى مخبرا عن قصة واحدة « قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاث ليال سويا » ثم قال « ثلاثة أيام إلا رمزا » فلما لم يكن اليوم ينفك عن ليلته والليلة لاتنفك عن يومها أخبر عن أحدهما بالآخر لأن أحدهما متصل بصاحبه فصار كشىء واحد فكيف وأن الليل والنهار لبسة والآخر مندرج فيه لايظهر إلا أحدهما بحكمة الله تعالى وقدرته لتفاوت أحكامه فيهما وافتراق إنعامه بهما ، فإذا ظهر النهار اندرج الليل فيه بقدرة الله تعالى وإذا ظهر الليل استتر النهار لحكمة الله تعالى وهو حقيقة إيلاجه أحدهما فى الآخر وتحقيق تكويره أحدهما على صاحبه ، فكذلك حقيقة الرجاء من الخوف فى معانى الملكوت إذا ظهر الخوف كان العبد خائفا وظهرت عليه أحكام الخوف من مشاهدة التجلي بوصف الخوف فسمى العبد خائفا لغلبته عليه ويظهر الرجاء

فَإِنْ قُلْتَ : فَهَلْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا أَرْجَحَ مِنَ الآخَرِ أَوْ أَكْثَرَ ذِكْرًا بِحَالٍ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ صَحِيحاً قَوِيًّا فَالْخَوْفُ أَوْلَى بِهِ ، وَإِذَا مَرِضَ وَضَعُفَ لَاسِيَّمَا إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الآخِرَةِ ، فَالرَّجَاءُ أَوْلَى ، كَذَا سَمِعْتُ الْعُلَمَاءَ يَقُولُونَ .

من خوفه ، وإذا ظهر الرجاء كان العبد خائفا راجيا وظهرت منه أحكام الرجاء من مشاهدة تجلى الربوبية بوصف مرجو فوصف العبد به لأنه الأغلب عليه وبأن الخوف فى رجائه . ولذا قال صاحب القوت : ومن علامة صحة الرجاء فى العبد كون الخوف باطنا فى رجائه ، لأنه لما تحقق برجاء شىء خاف فوته لعظم المرجو فى قلبه وشدة اغتباطه به فهو لاينفك فى حال رجائه من الخوف لفوت الرجاء (فان قلت فهل يكون أحدهما) أى الخوف والرجاء (أرجح من الآخر أو أكثر ذكرا بحال) من الأحوال (فاعلم) هداك الله تعالى (أن العبد إذا كان صحيحا قويا فالخوف أولى به) من الرجاء (وإذا مرض وضعف لاسيما إذا أشرف على الآخرة) بأن يقرب أجله (فالرجاء أولى) به من الخوف (كذا) أى مثل الجواب المذكور (سمعت العلماء) رحمهم الله (يقولون) وأما قول القائل الخوف أفضل أم الرجاء فهو سؤال فاسد فان أعمال المقامات إذا اتحدت فلا يصح التفاضل فيها إلا بأسبابها وأحوالها التى هى حواث على الأعمال ، بل يضاهى قول القائل الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان ، فان اجتمعا نظر إلى الأغلب ، فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان ، وهذا لأن مايراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دوءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى فالرجاء أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ، ويجوز أن يقال مطلق الخوف الذى يراد لذاته هو أفضل مطلقا على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين ، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكنجبين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب فالخوف يربط به زمام ابتهاج المحبين وانبساطهم عن الافراط إلى الاعتدال ، فان نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب وشتان بينهما ، لأن من لاحظ من صفات الله تعالى مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وموجبات الرحمة فى الوجود أكثر من موجبات الغضب وليس وراء المحبة مقام ، لأنها من الغايات . وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء ، وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصى وكثرة الاغترار

قُلْتُ: وَذٰلِكَ لَمَّا رُوِيَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَخَافَتِي» فَيَصِيرُ رَجَاؤُهُ أَوْلَى فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ لِانْكِسَارِ قَلْبِهِ وَخَوْفِهِ الْمُتَقَدِّمِ زَمَانَ الصِّحَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالْإِمْكَانِ ، وَلِذٰلِكَ يُقَالُ لَهُمْ : (لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا) .

فَإِنْ قُلْتَ : أَلَيْسَ قَدْ جَاءَتِ

فأما التقى الذى ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ، وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يعظه : يا بنى خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك وارجه رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ، وكما أوصى لقمان لابنه فقال : يا بنى خف الله خوفا لاتيأس فيه من رحمته وارجه رجاء لاتأمن من مكره ، وفى لفظ آخر : وارجه رجاء أشد من خوفك ، فقال وكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد ؟ . قال أما علمت أن المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر . وفى القوت : وكان على رضى الله عنه يقول : عليكم بالنمط الأوسط يرجع إليه العالى ويرتفع عنه الدانى . وهذا قول فصل غير شطط ولا هزل ، وهو طريق أهل السنة ومذهب أولى المعرفة فصدق الرجاء واعتدال الخوف به من حقيقة العلم بالله ، والمؤمن حقا هو المعتدل بين الرجاء والخوف ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : لو نودى ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . رواه أبو نعيم فى الحلية وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يستوى خوفه ورجاؤه . فأما العاصى إذا ظن أنه الرجل الذى استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان دليلا على اغتراره (قلت وذلك) أى ماذكر من أولوية الرجاء (لما روى أن الله سبحانه وتعالى يقول) فى الحديث القدسى (أنا عند المنكسرة قلوبهم) أى أنا مع الخاشعين بالتوفيق (من مخافتى) أى لأجلها . قال العلامة عبد الرءوف المناوى رواه الغزالي بدون لفظ من مخافتى (فيصير رجاؤه أولى في ذلك الوقت) أى وقت الموت سواء عرف نفسه بالإساءة أم لا . وقال القشيرى : ومن عرف نفسه بالإساءة فينبغى أن يكون خوفه غالبا على رجائه انتهى ، وهذا غير مقيد وقت الموت . وفى القوت : ولولا أن الرجاء وحسن الظن من فواضل المقامات ما طلبه العلماء فى آخر الأوقات عند فراق العمر ولقاء المولى لتكون الخاتمة به وهم يسألون الله حسن الخاتمة لطول الحياة ، وكذلك قيل إن الخوف أفضل ما دام حيا فان حضر الموت فالرجاء أفضل (لانكسار قلبه وخوفه المتقدم زمان الصحة والقوة والإمكان ولذلك) أى لأجل أن انكسار قلوبهم خوفهم لربهم (يقال لهم) أى للمنكسرة قلوبهم (لا تخافوا) ما تقدمون عليه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم (فان قلت أليس) أى الحال والشأن (قد جاءت

الْأَخْبَارُ الْكَثِيرَةُ فِى حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَالتَّرْغِيبُ فِى ذَلِكَ ؟

الأخبار الكثيرة فى حسن الظن بالله والترغيب فى ذلك) أى حسن الظن به تعالى كما روى فى أخبار يعقوب عليه السلام: إن الله تعالى أوحى اليه أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف هذه المدة ؟ قال لا، قال لأنك قلت لاخوته « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » لم خفت الذئب عليه ولم ترجنى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له . نقله صاحب القوت زاد فى رواية عن الله تعالى أنه أوحى إليه : من سبق عنايتى بك أن جعلت نفسى عندك أرحم الراحمين فرجوتنى ولولا ذلك لكنت أجعل نفسى عندك أبخل الباخلين . وقال صلى الله عليه وسلم « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » رواه مسلم من حديث جابر ، وروى ابن جميع فى معجمه والخطيب وابن عساكر من حديث أنس : «لا يموتن أحدكم حتي يحسن الظن بالله تعالى فان حسن الظن بالله ثمن الجنة» . وقال صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء» رواه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع ، وروى الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية وابن عساكر أن الله عز وجل يقول : « أنا عند ظن عبدى بى إن خيرا فخير وإن شرا فشر » ورواه كذلك الشيرازى فى الألقاب من حديث أنس ودخل النبى صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع : أى حالة نزع الروح منه فقال « كيف تجدك فقال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى، فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وآمنه مما يخاف» رواه الترمذى وقال غريب . وقال النووى إسناده جيد . وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك كذا في القوت ؛ ورواه الشريف الموسوى فى نهج البلاغة . قال صاحب القوت صدق رضى الله عنه لأن اليأس من روح الله الذى يستريح إليه المكروب من الذنوب والقنوط من رحمة الله التى يرجوها بالغيوب أعظم من ذنوبه وهو أشد من جميع عيوبه لأنه قطع بهواه على صفات الله المرجوة وحكم على كرم الله بصفاته المذمومة وكان ذلك من أكبر الكبائر وإن كان ذنوبه كبائر؛ وفى الخبر الصحيح «أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر فلقى الله ولم يعمل خيرا قط . فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات » . رواه مسلم من حديث أبي مسعود ، وفى الخبر أن الله أوحى إلى داود عليه السلام « يا داود أحبنى وأحب من يحبنى وحببنى إلى خلقى ، فقال يارب كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى وإحسانى وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون منى إلا الجميل » كذا فى القوت . ورؤى أبان بن أبى عياش البصرى فى النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء والرخص فقال له الرائى ما فعل الله بك ؟ فقال أوقفنى الله تعالى بين يديه فقال ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت يارب أحببت أن أحببك إلى خلقك فقال قد غفرت لك أورده صاحب القوت . ورؤى القاضى يحيى بن أكثم بعد موته فى النوم فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال أوقفنى بين يديه وقال يا شيخ السوء فعلت

وفعلت ، قال فأخذنى من الرعب والفزع ما يعلم الله ، ثم قلت يارب ما هكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عنى فقلت حدثنى عبدالرزاق بن همام عن معمر بن راشد عن الزهرى عن أنس عن نبيك صلي الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت تباركت وتعاليت «أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء وقد كنت أظن بك أن لا تعذبنى فقال الله عزوجل صدق نبيي وصدق أنس وصدق الزهرى وصدق معمر وصدق عبدالرزاق وصدقت أنت . قال فألبست من خلع الجنة ومشى بين يدى الولدان إلى الجنة فقلت يا لها من فرحة» هكذا أورده صاحب القوت . وروى ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن مسعود قال « والله الذى لا إله غيره لا يحسن أحد الظن بالله إلا أعطاه الله ظنه » وروى ابن المبارك وأحمد والطبرانى من حديث معاذ «إن شئتم أنبأتكم ما أول مايقول الله للمؤمنين يوم القيامة وماأول مايقولون له ؟ قلنا نعم يا رسول الله . قال فإن الله يقول للمؤمنين : هل أحببتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم ؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد وجبت لكم مغفرتى » وروى ابن أبى الدنيا فى حسن الظن والبيهقى فى الشعب وابن عساكر عن أبى غالب صاحب أبى أمامة قال : كنت بالشام فنزلت على رجل من قيس من خيار الناس وله ابن أخ مخالف له يأمره وينهاه ويضربه فلا يطيعه فمرض الفتى فبعث إلى عمه فأبى أن يأتيه فأتيته أنا به حتى أدخلته عليه فأقبل عليه يشتمه ويقول أى عدو الله ألم تفعل كذا ؟ قال : أرأيت أي عم لو أن الله دفعنى إلى والدتى ما كانت صانعة بى ؟ قال كانت والله تدخلك الجنة ، قال فوالله لله أرحم بى من والدتى فقبض الفتى ودفنه عمه ، فلما سوى اللبن سقطت منه لبنة فوثب عمه فتأخر . قلت ما شأنك ؟ قال ملىء قبره نورا وفسح له مد البصر ، وروى ابن أبى الدنيا فيه والبيهقي في الشعب عن حميد قال : كان لى ابن أخت مراهق فمرض فأرسلت إلى أمه فأتيتها فاذا هى عند رأسه تبكى فقال يا خال ما يبكيها ؟ قلت مانعلم منك . قال أليس إنما ترحمنى قلت بلى ، قال فان الله أرحم بى منها ، فلما مات أنزلته القبر مع غيرى فذهبت أسوى لبنة فاطلعت فى اللحد فاذا هو مد بصرى ، فقلت لصاحبى وأنت ما رأيت ؟ قال نعم فليهنك ذاك قال فظننت أنه بالكلمة التى قالها ! وقال ثابت بن أسلم البنانى : كان شاب به حدة أى نشاط إلى اللهو واللعب ، وكانت له أم تعظه كثيرا وتقول له يابنى إن لك يوما فاذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له يابنى قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما فقال ياأمه إن لى ربا كثير المعروف وإنى لأرحو أن لايعدمنى اليوم بعض معروفه . قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه. رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله ، وقال جابر بن وداعة: كان شاب به رهق: أى نشاط فاحتضر ، فقالت له أمه يابنى توصى بشىء ؟ قال نعم خاتمى لاتسلبينيه فان فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمنى فلما دفن رؤى فى المنام فقال أخبروا أمى أن الكلمة قد نفعتنى وأن الله قد غفر لى رواه ابن أبى الدنيا فى الكتاب المذكور ، وقال المعتمر بن سليمان قال أبى لما حضرته الوفاة يامعتمر حدثنى بالرخص لعلى ألقي الله عز وجل وأنا حسن الظن به رواه أبو نعيم فى الحلية وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكى يحسن ظنه بربه

فَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى الْحَذَرَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وَالْخَوْفَ مِنْ عِقَابِهِ، وَالِاجْتِهَادَ فِي خِدْمَتِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا أَصْلاً أَصِيلاً وَنُكْتَةً عَزِيزَةً يَغْلَطُ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْأُمْنِيَّةِ، أَنَّ الرَّجَاءَ يَكُونُ عَلَى أَصْلٍ، وَالتَّمَنِّي لَا يَكُونُ عَلَى أَصْلٍ؛ مِثَالُهُ: مَنْ زَرَعَ زَرْعًا وَاجْتَهَدَ وَجَمَعَ بَيْدَرًا ثُمَّ يَقُولُ أَرْجُو أَنْ يَحْصُلَ لِي مِنْهُ مِائَةُ قَفِيزٍ، فَذٰلِكَ مِنْهُ رَجَاءٌ، وَآخَرُ لَا يَزْرَعُ زَرْعًا، وَمَا يَعْمَلُ يَوْمًا عَمَلاً فَذَهَبَ وَنَامَ وَأَغْفَلَ سَنَتَهُ، فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ الْبَيَادِرِ يَقُولُ:

(اعلم أن من حسن الظن بالله تعالى الحذر) بالنصب اسم إن مؤخرا (من معصيته والخوف) بالنصب عطف على اسم إن (من عقابه والاجتهاد) بالنصب كما فى سابقه (فى خدمته) أى طاعة (وأعلم أن هاهنا) أى فى باب الرجاء (أصلا أصيلا ونكتة عزيزة يغلط) بفتح اللام من باب طرب كما فى المختار (فيها الكثير من الناس وهو) أى الأصل الأصيل (أن الفرق بين الرجاء والأمنية) بضم الهمزة وسكون الميم وكسر النون وتشديد الياء مايتمنى ويقدر (أن الرجاء يكون على أصل والتمنى لايكون على أصل مثاله) أى ماذكر من الرجاء والتمنى (من زرع زرعا واجتهد) بتعهده وتربيته (وجمع بيلارا) أى موضعا يداس فيه الطعام (ثم يقول أرجو أن يحصل لى منه) أى من الزرع (مائة قفيز) قال العلامة الحضرى: مقدار القفيز من الأرض مائة وأربعة وأربعون ذراعا ومن الكيل وهو المراد هنا ثمانية مكاكيك والمكوك صاع كما فى الصبان . وفى السجاعى صاعان ونصف وفى الصحاح المكوك ثلاث كيلجات والكيلجة منا وسبعة أثمان منا والمنا كعصا أفصح من المن بالتشديد رطلان وتثنيته منوان وجمعه أمناء انتهي ، فالقفيز مقدار مساحى وكيلى وقال العلامة عبد الحق فى سيراجه : القفيز المكيال ثمانية مكاكيك والمكاكيك جمع المكوك وهو مكيال يسع صاعا ونصفا أو نصف رطل إلى ثمان أواقى أو نصف الويبة والويبة اثنان وعشرون أو أربع وعشرون مدا بمد النبى صلى الله عليه وسلم أو ثلاث كيلجات والكيلجة منا وسبعة أثمان منا والمنا رطلان والرطل اثنتا عشرة أوقية والأوقية أستار وثلثا أستار والأستار أربعة مثاقيل ونصف والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوج والطسوج حبتان والحبة سدس ثمن درهم وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءا من درهم (فذلك) أى المذكور من الفعل والقول (منه) أى من الزارع (رجاء) إذ هو تعلق القلب بمرغوب فى حصوله فى المستقبل مع الأخذ فى أسباب الحصول ، فإن لم يأخذ فى الأسباب فهو طمع ولذا قال ابن الجوزى : إن مثل الراجى مع الإصرار على المعصية كمثل من رجا حصادا وما زرع أو ولدا وما نكح ، وأشار المصنف إلى ذلك بقوله (و) شخص (آخر لا يزرع زرعا وما يعمل يوما) من الأيام (عملا) من الأعمال (فذهب ونام وأغفل سنته فاذا جاء وقت البيادر يقول

أَرْجُو أَنْ يَحْصُلَ لِي مِنْهُ مِائَةُ قَفِيزٍ ، فَيُقَالُ لَهُ : مِنْ أَيْنَ لَكَ هٰذَا الرَّجَاءُ ؟ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ أُمْنِيَّةٌ بِلَا أَصْلٍ ، فَكَذٰلِكَ الْعَبْدُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَانْتَهَى عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى يَقُولُ : أَرْجُو أَنْ يَتَقَبَّلَ اللهُ مِنِّي هٰذَا الْيَسِيرَ ، وَيُتِمَّ هٰذَا التَّقْصِيرَ ، وَيُعَظِّمَ هٰذَا الثَّوَابَ ، وَيَعْفُوَ عَنِ الزَّلَلِ ، وَأَحْسَنَ الظَّنَّ ، فَهٰذَا مِنْهُ رَجَاءٌ .

وَأَمَّا إِذَا غَفَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَتَرَكَ الطَّاعَاتِ وَارْتَكَبَ الْمَعَاصِيَ ، وَلَمْ يُبَالِ بِسَخَطِ اللهِ تَعَالَى وَلَا رِضَاهُ وَلَا وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَقُولُ : أَرْجُو مِنَ اللهِ الْجَنَّةَ ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ ، فَذٰلِكَ مِنْهُ أُمْنِيَّةٌ لَا حَاصِلَ تَحْتَهَا ، سَمَّاهَا رَجَاءً وَحُسْنَ ظَنٍّ ، وَذٰلِكَ مِنْهُ خَطَأٌ وَضَلَالٌ ، وَقَدْ نَظَمَ الْمَعْنَى الْقَائِلُ :

أرجو أن يحصل لى منه) أى من الزرع (مائة قفيز فيقال له) أى للقائل المذكور (من أين لك هذا الرجاء) وقد لا تزرع زرعا ولاتعمل عملا (وإنما ذلك) القول المذكور مع عدم أخذ الأسباب (أمنية بلا أصل فكذلك) أى مثل الزرع المذكور (العبد إذا اجتهد فى عبادة الله وانتهى عن معصية الله تعالى يقول أرجو أن يتقبل الله منى هذا اليسير) من العمل (و) أرجو أن (يتم) سبحانه وتعالى (هذا التقصير و) أن يعظم (هذا الثواب) أى ثواب العمل القليل (و) أن (يعفو عن الزلل) والخطايا (وأحسن) العبد (الظن فهذا) أى المذكور من الاجتهاد والقول (منه) أى من العبد (رجاء وأما إذا غفل) العبد (عن ذلك) أى الاجتهاد فى العبادة والانتهاء عن المعصية (وترك الطاعات وارتكب المعاصى ولم يبال بسخط الله تعالى) وغضبه (ولا رضاه ولا وعده) بالثواب (و) لا (وعيده) بالعقاب (ثم أخذ يقول أرجو من الله الجنة و) أرجو (النجاة من النار فذلك) القول الذى صدر (منه) أى من الغافل المذكور (أمنية لا حاصل تحتها سماها) أى الأمنية (رجاء وحسن ظن) بالله تعالى (وذلك) أى التسمية بما ذكر (منه) أي من الغافل (خطأ وضلال) ولذلك قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصى وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط فى أمل ، وقيل الغرة بالله أن يعمل الرجل بمعصية الله ويتمنى مغفرته ورجاؤه كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية وإصلاح (وقد نظم) هذا (المعنى) المذكور (القائل) وهو عبد الله بن المبارك كما قاله ابن المدابغى من بحر البسيط :

ما بال دينك ترضى أن تدنسه   وثوبك الدهر مغسول من الدنس

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا   إِنَّ السَّفِينَةَ لَاتَجْرِى عَلَى الْيَبَسِ

(ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجرى على اليبس)

فى المختار: اليبس بفتحتين المكان رطبا ثم يبس ، فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك لامحالة تفقد الأرض والتعب فى تعهدها والرجاء محمود لأنه باعث على العمل حاث عليه كالخوف واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل ، والخوف ليس بضد للرجاء كما يتبادر إلى الأذهان بل هو رفيق له ، بل هو أى الخوف باعث آخر بطريق آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة لأن السبب الموجب للخوف هو بعينه سبب الرجاء لأن الصفات القديمة تعلقت بكل موجود فى الوجود ومتعلقاتها لا تنقضى سرمدا فهي التى يصدرُ عنها كل ما ساء وسر ونفع وضر فقد قهر وجبر وأعطى ومنع كل ذلك على أتم أنواع الكمال ، فمن عرف ذلك من صفاته تعالى خافه ورجاه ، وهذا هو الرجاء لذاته الذى يتوقع بحسنة ولا يندفع بسيئة إنما ينشأ من فضل الله الذى هو فضله لمن اختصه فى أزله من عباده كما أن الخوف ينشأ عن عدل الله الذى هو عدله لمن أبعده عن حضرته فى أزله ، وينتفع بهذا الرجاء من أخرجه خوف الذنوب والعيوب إلى اليأس والقنوط ، وينتفع بالخوف الذى يراد لذاته من أخرجه رؤية كثرة الأعمال إلى الإدلال والأمن والاغترار ، فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ؛ ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له عند الدعاء والسؤال ، فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالي ؟ فإن كان لايظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى فليستأنف التوبة والاقبال على العمل بالجد والاجتهاد حتى تظهر عليه تلك الأحوال ، فهذا هو البيان المفصح لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه العمل ، ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل الطائى رضى الله عنه إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ؟ فقال كيف أصبحت ؟ قال أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شىء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه ، وإذا فاتنى منه شىء حزنت عليه وحننت إليه ؟ فقال هذه علامة الله فيمن يريد ، ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالى فى أى أوديتها هلكت » قال العراقى رواه الطبرانى فى الكبير من حديث بن مسعود ، فقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة من

قُلْتُ : وَمِمَّا يُبَيِّنُ هٰذَا الْأَصْلَ مَارَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنِ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمَانِيَّ » وَفِى ذٰلِكَ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : إِنَّ أَقْوَامًا أَلْهَمَهُمْ أَمَانِيَّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا مَفَالِيسَ وَلَيْسَتْ لَهُمْ حَسَنَةٌ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ : إِنِّى أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّى ، كَذَبَ

أريد به الخير ، فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور فى وادى الملامات (قلت : ومما يبين هذا الأصل) فى الرجاء والتمنى (مارويناعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الكيس) على وزن سيد : أى الظريف المتبصر فى الأمور الناظر في العواقب (من دان نفسه) أى أذلها واستعبدها : يعنى جعل نفسه مطيعة منقادة لأوامر ربها (وعمل لما بعد الموت) من أنواع الطاعات قبل نزوله ليصير على نور من ربه فالموت عاقبة أمر الدنيا ، فالكيس من أبصر العاقبة (والعاجز) المقصر فى الأمور ، وفى رواية الأحمق ، وفى أخرى بلفظ الفاجر بالفاء (من أتبع نفسه هواها) أى ميلها فلم يكفها عن الشهوات ولم يمنعها عن مقارفة المنكرات فقوله نفسه مفعول أول وهواها مفعول ثان (وتمنى على الله عز وجل الأمانى) بتشديد الياء جمع أمنية : أى فهو مع تقصيره فى طاعة ربه واتباع شهوات نفسه لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنى على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والإستغفار . قال الطيبي : قوبل الكيس بالعاجز والمقابل الحقيقى للكيس السفيه الرأى ، وللعاجز القادر إيذانا بأن الكيس هوالقادر وأن العاجز هو السفيه . قال العراقي : رواه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس انتهى. وقال الزبيدى : وكذلك رواه أحمد والحاكم فى الايمان والعسكرى والقضاعى كلهم من حديث ابن المبارك عن أبى بكر بن أبى مريم الغسانى عن ضمرة بن حبيب عن شداد . قال الحاكم صحيح على شرط البخارى . قال الذهبي : لا والله أبو بكر واه انتهى . وقال ابن طاهر : مدار الحديث عليه وهو ضعيف جدا . قال العسكرى : هذا الحديث فيه رد على المرجئة وإثبات للوعيد . وقال سعيد بن جبير : الاغترار بالله المقام على الذنب ورجاء المغفرة (وفى ذلك) أى فى تمنى العاجز (قال الحسن البصرى) بفتح الباء وكسرها التابعى الأنصارى (رحمه الله) أدرك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وثلاثين . وروى عنه قال: غزونا غزوة إلى خراسان معنا فيها ثلثمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرجل منهم يصلي بنا ويقرأ الآيات من السورة ثم يركع ومناقبه كثيرة مشهورة توفى سنة عشر ومائة (أن أقواما ألهتهم) أى شغلتهم عن الأعمال (أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس وليست لهم حسنة) واحدة (فيقول أحدهم) قبل خروجهم من الدنيا (إنى أحسن الظن بربى) قال الحسن (كذب) القائل بذلك

لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ لَأَحْسَنَ الْعَمَلَ لَهُ ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً) الآيَة (وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وَعَنْ جَعْفَرٍ الضُّبُعِىِّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ أَبَا مَيْسَرَةَ الْعَابِدَ وَقَدْ بَدَتْ أَضْلَاعُهُ مِنَ الْاِجْتِهَادِ ، قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ وَاسِعَةٌ ، فَغَضِبَ وَقَالَ : هَلْ رَأَيْتَ مِنِّى مَا يَدُلُّ

لأنه (لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل له) جل وعز (ثم تلا) الحسن (قوله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه) أى يخاف المصير إليه ، وقيل يؤمل رؤية ربه (فليعمل عملا صالحا ») أى من حصل له رجاء لقاء الله تعالى والمصير إليه فليستعمل نفسه فى العمل الصالح . قال النسفى : عملا صالحا : أى خالصا لا يريد به إلا وجه ربه ولا يخلط به غيره ، وعن يحي بن معاذ هو مالايستحى منه (الآية) أى ولا يشرك بعبادة ربه أحدا : أى ولا يرائى بعمله ، ولما كان العمل الصالح قد يراد به وجه الله سبحانه وتعالى ، وقد يراد به الرياء والسمعة اعتبر فيه قيدان : أحدهما أن يراد به سبحانه وتعالى . والثانى أن يكون مبرأ من جهات الشرك جميعها . روى الشيخان عن جندب ابن عبد الله البجلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سمع سمع الله به ومن يرائى يرائى الله به » يعنى من عمل عملا مراءاة للناس يشتهر بذلك شهره الله يوم القيامة ، وقيل سمع الله به : أى أسمعه المكروه . وروى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه ، ولغير مسلم فأنا منه برىء هو والذى عمله » وعن سعيد بن أبى فضالة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا جمع الناس ليوم لاريب فيه نادى مناد من كان يشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه منه فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » أخرجه الترمذى . وقال حديث غريب (وذلكم) أى ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (ظنكم) أى قولكم بالظن (الذى ظننتم بربكم) وقلتم على ربكم بالكذب . قال سفيان الثورى : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله ذنبه ، قال لأن الله عير وعاب قوما فقال تعالي «وذلكم ظنكم الذىظننتم بربكم »(أرداكم) أى أهلككم قال ابن عباس طرحكم فى النار (فأصبحتم) صرتم (من الخاسرين) أى من المغبونين بالعقوبة . قال النسفى ، وذلكم مبتدأ وظنكم خبر ، والذى ظننتم بربكم صفته ، وأرداكم خبر ثان أو ظنكم بدل من ذلكم ، وأرداكم الخبر (وعن جعفر الضبعى) بالضم والفتح (رحمه الله أنه قال : رأيت أبا ميسرة العابد) رحمه الله (وقد بدت) أى ظهرت (أضلاعه) جمع ضلع بكسر الضاد . وأما اللام فتفتح فى لغة الحجاز وتسكن في لغة تميم ، وهى عظام الجنبين (من الاجتهاد) فى العبادة (قلت : يرحمك الله إن رحمة الله واسعة ، فغضب) أبو ميسرة (وقال هل رأيت منى ما يدل

عَلَى الْقُنُوطِ ؟ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالَ جَعْفَرٌ فَأَبْكَانِي قَوْلُهُ . فَإِذَا كَانَ كُلُّ الرُّسُلِ وَالأَبْدَالِ وَالأَوْلِيَاءِ مَعَ كُلِّ هٰذَا الاِجْتِهَادِ فِي الطَّاعَةِ وَالْحَذَرِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ مُرْتَبِطِينَ فَأَيْشُ تَقُولُ ، أَمَا كَانَ لَهُمْ حُسْنُ ظَنٍّ بِاللهِ ؟ بَلَى فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَأَحْسَنَ ظَنًّا بِجُودِهِ ، وَلٰكِنْ عَلِمُوا أَنَّ ذٰلِكَ دُونَ الاِجْتِهَادِ أُمْنِيَةٌ وَغُرُورٌ ، فَاعْتَبِرْ بِهٰذِهِ النُّكْتَةِ وَتَأَمَّلْ حَالَهُمْ وَانْتَبِهْ مِنْ رَقْدَتِكَ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

على القنوط) واليأس من رحمة الله (إن رحمة الله) أصل الرحمة : رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، وتستعمل تارة فى الرقة المجردة عن الإحسان ، وتارة الإحسان المجرد عن الرقة وإذا وصف بها البارى جل وعز فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة ، فرحمة الله عز وجل عبارة عن الإفضال والإنعام على عباده وإيصال الخير لهم ، وقيل هى إرادة إيصال الخير والنعمة إلى عباده ، فعلى القول الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال ؛ وعلى القول الثانى تكون من صفات الذات (قريب من المحسنين) أى من المؤمنين المحسنين بالقول والفعل .

قال سعيد بن جبير : الرحمة هاهنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ . وقيل إن تانيث الرحمة ليس بحقيقى ، وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وكون الرحمة قريبة من المحسنين . لأن الإنسان فى كل ساعة من الساعات فى إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة ، وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة وليس بينه وبين رحمة الله التى هى الثواب في الآخرة إلا الموت وهو قريب من الإنسان كذا ذكره الخازن (قال جعفر فأبكاني قوله) أى قول أبى ميسرة ذلك (فاذا كان كل الرسل) والأنبياء عليهم الصلاة والسلام (والأبدال والأولياء) رضوان الله عليهم (مع كل هذا الاجتهاد فى الطاعة والحذر عن المعصية مرتبطين) أى ملازمين لذلك (فأيش) تحريف أى شىء (تقول أما كان لهم) أى لهؤلاء الرسل والأنبياء والأبدال والأولياء (حسن ظن بالله بلى) كان لهم ذلك (فانهم كانوا أعلم) منك (بسعة رحمته) تعالى (وأحسن ظنا بجوده) وكرمه (منك ولكن علموا) أى هؤلاء المذكورون (أن ذلك) أى حسن الظن بالله (دون الاجتهاد) فى الطاعة (أمنة وغرور . فاعتبر بهذه النكتة) التى ذكرناها (وتأمل حالهم) أى هؤلاء (وانتبه) أى استيقظ (من رقدتك) أى نومتك : يعنى غفلتك (والله تعالى ولى التوفيق) والعصمة .

﴿ فصل ﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا تَذَكَّرْتَ سَعَةَ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي سَبَقَتْ غَضَبَهُ وَوَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِنْ كُنْتَ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، ثُمَّ غَايَةَ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ ، وَكَمَالَ جُودِهِ الْكَرِيمِ ، وَجَعَلَ عُنْوَانَ كِتَابِهِ إِلَيْكَ : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

فصـــل

(وجملة الأمر) أى حاصله (أنك إذا تذكرت سعة رحمة الله تعالى التى سبقت غضبه) كما ورد فى الخبر وهو « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » رواه البخارى ، وفى صحيح مسلم « كتب فى كتابه على نفسه : إن رحمتى تغلب غضبى » . وروى الدار قطنى بلفظ لما « خلق الله الخلق كتب بيده على نفسه إن رحمتى تغلب غضبى » وفى المقاصد للسخاوى « إن رحمتى تغلب غضبي » متفق عليه من حديث المغيرة بن عبد الرحمن الحرابي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه قال : « لما قضى » ولفظ آخر لمسلم : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى » ولفظ مسلم « تغلب غضبى » وهو عند البخارى فقط من حديث مالك عن أبى الزناد بلفظ « إن رحمتى سبقت غضبى » وعند مسلم من حديث ابن عيينة عن أبى الزناد بلفظ « قال الله : سبقت رحمتى غضبي » وممن رواه عن أبى هريرة أبو صالح وعطاء ابن مينا (ووسعت) رحمته تعالى (كل شيء) كما قال جل من قائل « ورحمتي وسعت كل شيء » يعنى أن رحمته تعالى عمت خلقه كلهم . وقال بعضهم هذا من العام أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر فى الدنيا ؛ وهى للمؤمنين خاصة فى الآخرة . وقيل هى للمؤمنين خاصة فى الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله له فاذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة (ثم) تذكرت (إن) مخففة من الثقيلة : أى أنك (كنت من هذه الأمة المرحومة الكريمة على الله تعالى) أى عنده (ثم) تذكرت (غاية فضله العظيم وكمال جوده الكريم وجعل عنوان) أى ابتداء (كتابه) العزيز (إليك : بسم الله الرحمن الرحيم) وقد وردت فى فضيلتها أخبار وآثار . روى عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال : لما نزل بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى المشرق وسكنت الرياح وهاج البحر وأصغت البهائم بآذانها ورجمت الشياطين من السماء وحلف الله عز وجل بعزته لا يسمى اسمه على سقم إلا شفاه ولا يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه » ومن قرأ بسم الله الرحمن الرحيم دخل الجنة ذكره سيدى الشيخ عبد القادر الجيلانى . وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يقول بسم الله الرحمن الرحيم إلا ذاب الشيطان كما يذوب الرصاص على النار » ذكره السيوطى فى اللباب . وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يقول بسم الله الرحمن الرحيم إلا أمر الله تعالى الكرام الكاتبين أن يكتبوا فى ديوانه أربعمائة حسنة » ذكره أيضا

ثُمَّ كَثْرَةَ أَيَادِيهِ

في اللباب . وذكر أن بشرا الحافى رأى رقعة فيها «بسم الله الرحمن الرحيم» وكان معه ثلاثة دراهم فأخذ بها طيبا وطيبها فنودى فى سره كما طيبت اسمنا لنطيبن اسمك . وقال صلى الله عليه وسلم « من كتب بسم الله فجود تعظيما لله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمد الرحمن » أى حروفه بأن يمد اللام والميم ويجوف النون ويتأنق : أى يحسن فى ذلك رواه الخطيب والديلمى عن أنس بن مالك . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وتعالي زين السماء بالكواكب وزين الملائكة بجبريل وزين الأيام بيوم الجمعة وزين الليالى بليلة القدر وزين الشهور بشهر رمضان وزين المساجد بالكعبة وزين الجنة بالحور والقصور وزين الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وزين الكتب بالقرآن وزين القرآن ببسم الله الرحمن الرحيم » . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال بسم الله الرحمن الرحيم كتب اسمه من الأبرار وبرىء من الكفر والنفاق » كذا فى اللباب . وعن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال « من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسع عشرة فليقل بسم الله الرحمن الرحيم فانها تسعة عشر حرفا ليجعل الله تعالى كل حرف منها جنة : أى سترة ووقاية من واحد منهم » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا قمتم : أى من المجلس أى مجلس كان فقولوا بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم فان الناس إذا اغتابوكم يمنعهم الملك عن ذلك » . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا جلستم مجلسا فقولوا بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، فان من فعل ذلك وكل الله به ملكا يمنعهم من الغيبة حتى لا يغتابوكم » ذكره السيوطى فى لبابه ، وقد نظم بعض أهل العلم رضى الله عنه المسائل التي تسن التسمية فيها ، فقال من بحر الطويل :

وتسمية الرحمن جل جلاله ... لنا شرعت فاحرص عليها وأوصل
كذى الأكل والشرب اللذين تجملا ... وغسل بها حال الطهور لغاسل
وعند ركوب جاز فى الشرع فعله ... على البر أو فى البحر ثم لداخل
إلى مسجد أو بيته وللبسه ... ونزع وإغلاق لباب المنازل
وإطفاء مصباح ووطء حليلة ... له وصعود منبر خير حامل
وتغميض ميت ثم فى اللحد جعله ... خروج من المرحاض ثم لداخل
وعند ابتداء للطواف بكعبة ... لها شرف الرحمن تشريف عادل
وعند وضوء ثم عند تيمم ... ونحر فواظب كالحبيب المواصل
وبعد صلاة الله ثم سلامه ... على المصطفى المختار خير الأفاضل

ولنرجع إلى شرح كلام المصنف قال رحمه الله تعالى (ثم) تذكرت (كثرة أياديه) أى نعمه تعالى

إِلَيْكَ وَنِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، مِنْ غَيْرِ شَفِيعٍ أَوْ قَدَمٍ سَابِقَةٍ لَكَ ، وَتَذَكَّرْتَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ كَمَالَ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَعِظَمَ سُلْطَانِهِ وَهَيْبَتَهُ ، ثُمَّ شِدَّةَ غَضَبِهِ الَّذِي لَا تَقُومُ لَهُ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ، ثُمَّ غَايَةَ غَفْلَتِكَ وَكَثْرَةَ ذُنُوبِكَ وَجَفَوَاتِكَ مَعَ دِقَّةِ أَمْرِهِ وَخَطَرِ مُعَامَلَتِهِ فِي إِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ بِالْعُيُوبِ وَالْغُيُوبِ ، ثُمَّ حُسْنَ وَعْدِهِ وَثَوَابِهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ كُنْهَهُ الْأَوْهَامُ وَشِدَّةَ وَعِيدِهِ وَأَلِيمَ عِقَابِهِ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ ذِكْرَهُ الْقُلُوبُ ، تَارَةً تَنْظُرُ إِلَى فَضْلِهِ ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلَى عَذَابِهِ ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلَى رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلَى نَفْسِكَ فِي جَفَوَاتِهَا وَجِنَايَاتِهَا ، فَإِذَا فَعَلْتَ أَدَّى بِكَ جَمِيعُ ذَلِكَ إِلَى الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَكُنْتَ قَدْ سَلَكْتَ السَّبِيلَ الشَّارِعَ الْقَصْدَ وَعَدَلْتَ عَنِ الْجَانِبَيْنِ الْمُهْلِكَيْنِ : الْأَمْنُ ، وَالْيَأْسُ ؛ وَلَا تَتِيهُ فِيهِمَا مَعَ التَّائِهِينَ

(إليك ونعمته عليك ظاهرة) كتناسب الأعضاء (وباطنة) كالعلم وغيره (من غير شفيع أو قدم سابقة لك وتذكرت) معطوف على قوله تذكرت سعة رحمة الله تعالى (من جانب آخر كمال جلاله) تعالى (وعظمته وعظم سلطانه وهيبته ثم) تذكرت (شدة غضبه) سبحانه وتعالى (الذى لاتقوم له) أى لغضبه (السموات والأرض ثم) تذكرت (غاية غفلتك وكثرة ذنوبك وجفوتك) أى قسوتك (مع دقة أمره وخطر معاملته فى إحاطة علمه وبصره) جل وعز (بالعيوب والغيوب) وبين هذين اللفظين جناس المصحف وبعضهم يسميه جناس الخط ، وهو اختلاف الحروف فى النقط كما فى حديث الطبرانى «إذا ظهر الزنا والربا فى قرية أذن الله فى هلاكها» وقول على رضى الله عنه : قصر ثوبك فانه أتقى وأنقى وأبقى ، وهو فى نوع أو نوعين مختلفين ليس هذا محل بسطه (ثم) تذكرت (حسن وعده) الكريم (وثوابه) العظيم (الذى لا يبلغ كنهه) أى حقيقته (الأوهام و) تذكرت (شدة وعيده وأليم عقابه الذى لا يحتمل ذكره) أى أليم العقاب (القلوب) أصلا (تارة تنظر) جواب إذا تذكرت كما أفاده العلامة عبد الحق (إلى فضله) تعالى وكمال جوده(وتارة تنظر إلى عذابه وتارة تنظر إلى رأفته ورحمته وتارة تنظر إلى نفسك) الأمارة بالسوء (فى جفواتها وجناياتها) أى النفس (فإذا فعلت) النظر إلى ما ذكر (أدي بك جميع ذلك) أى ما فعلته من النظر إلى ذلك المذكور (الخوف والرجاء وكنت قد سلكت السبيل الشارع) أى الطريق الأعظم (القصد) أى الوسط (وعدلت عن الجانبين المهلكين) وهما (الأمن) من مكر الله (واليأس) من رحمته (ولا تتيه) أى لا تتحير (فيهما) أى فى المهلكين (مع التائهين) أى

وَلاَ تَهْلِكُ مَعَ الْهَالِكِينَ ، وَشَرِبْتَ الشَّرَابَ الْمَزُوجَ الْعَدْلَ ، فَلاَ تَهْلِكُ بِبُرُودَةِ الرَّجَاءِ الصِّرْفِ ، وَلاَ بِحَرَارَةِ الْخَوْفِ الصِّرْفِ ، وَكَأَنِّى بِكَ قَدْ وَصَلْتَ إِلَى الْمَقْصُودِ غَانِماً وَشُفِيتَ مِنَ الْعِلَّتَيْنِ سَالِماً ، وَوَجَدْتَ النَّفْسَ قَدِ انْبَعَثَتْ لِلطَّاعَةِ ، وَدَانَتْ فِى الْخِدْمَةِ لَيْلاً وَنَهَاراً مِنْ غَيْرِ فَتْرَةٍ وَلاَ غَفْلَةٍ ، وَاجْتَنَبَتِ الْمَعَاصِىَ وَالْمَخَازِىَ وَهَجَرَتْهَا بِمَرَّةٍ .

كَمَا قَالَ نَوْفٌ الْبِكَالِىُّ : إِنَّ نَوْفاً إِذَا ذَكَرَ الْجَنَّةَ طَالَ شَوْقُهُ ، وَإِذَا ذَكَرَ النَّارَ طَارَ نَوْمُهُ ، وَصِرْتَ حِينَئِذٍ مِنَ الْأَصْفِيَاءِ الْخَوَاصِّ الْعَابِدِينَ ، الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) وَكُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْخَطِيرَةَ وَرَاءَكَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى

المتحيرين (ولا تهلك مع الهالكين وشربت الشراب المزوج) أى المخلوط (العدل فلا تهلك ببرودة الرجاء الصرف) أى الخالص (ولا بحرارة الخوف الصرف وكأنى بك) أى أظن بك (قد وصلت إلى المقصود غانما) ورابحا (وشفيت من العلتين) الأمن واليأس (سالما ووجدت النفس قد انبعثت) وقامت (للطاعة ودانت) أى أطاعت (فى الخدمة) أى العبادة لربها (ليلا ونهارا من غير فترة) أى انكسار وضعف (ولا غفلة واجتنبت) النفس (المعاصى والمخازى وهجرتها) أى تركتها (بمرة كما قال نوف البكالى) بالكسر والتخفيف ولام نسبة إلى بنى بكال ككتاب بطن من حمير وهو نوف بن فضالة الشامي التابعى إمام أهل دمشق مات فى الغزو شهيدا بعد التسعين رحمه الله تعالى وهو ابن امرأة كعب الأحبار (إن نوفا) يعنى نفسه (إذا ذكر الجنة) وما فيها من النعيم المقيم (طال شوقه) إلى ذلك (وإذا ذكر النار) وما فيها من الأغلال والسلاسل وأنواع العذاب الأليم (طار نومه) عن عينيه (وصرت حينئذ) أى حين إذ فعلت الخوف والرجاء وسلكت الطريق العدل بينهما (من الأصفياء الخواص العابدين) وهم (الذين وصفهم الله تعالى بقوله) جل من قائل (إنهم) يعنى الأنبياء وقيل زكريا وأهل بيته (كانوا يسارعون فى الخيرات) يبادرون إلى الطاعات والمسارعة فى الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء لأنها تدل على حرص عظيم فى طاعة الله عز وجل (ويدعوننا رغبا ورهبا) يعني أنهم ضموا إلى فعل الطاعة أمرين : أحدهما الفزع إلى الله لمكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه والثانى الخشوع وهو قوله تعالى (وكانوا لنا خاشعين) متواضعين خائفين . قال العلامة الخازن : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب فيكون الخاشع هو الحذر الذى لا ينبسط فى الأمور خوفا من الوقوع فى الإثم (وكنت قد خلفت هذه العقبة) الخامسة التى هى عقبة البواعث (الخطيرة) أى العظيمة (وراءك) أى خلفك (بإذن الله تعالى)

وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، فَكَمْ لَكَ مِنْ حَلَاوَةٍ وَصَفْوَةٍ فِى الدُّنْيَا ، وَكَمْ لَكَ مِنْ ذُخْرٍ كَرِيمٍ وَأَجْرٍ عَظِيمٍ فِى الْعُقْبَى ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَسْئُولٌ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

﴿ البابُ السَّادسِ : فى العقبة السَّادسة ، وهى عقبة القوادح ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِى أَيَّدَكَ اللهُ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، بَعْدَ مَا اسْتَبَانَ لَكَ السَّبِيلُ ، وَاسْتَقَامَ لَكَ الْمَسِيرُ ، بِتَمْيِيزِ سَعْيِكَ وَصِيَانَتِهِ عَمَّا يُفْسِدُهُ وَيُضَيِّعُهُ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا لَزِمَكَ ذَلِكَ بِإِقَامَةِ الْإِخْلَاصِ وَذِكْرِ الْمِنَّةِ ، وَالِاجْتِنَابِ عَنْ ضِدِّهِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِمَا فِى فِعْلِهِ مِنَ الْفَائِدَةِ ، وَهِىَ حُسْنُ الْقَبُولِ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَفَوْزُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ ، وَإِلَّا فَتَكُونُ مَرْدُودًا ذَاهِبَ الثَّوَابِ كُلًّا أَوْ بَعْضًا ، عَلَى مَا رُوِىَ فِى الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ عَنِ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليه وسلم « إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ : أَنَا أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا فَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِى فَنَصِيبِى لَهُ » ،

وإرادته (وحسن توفيقه فكم لك من حلاوة وصفوة فى الدنيا وكم لك من ذخر كريم وأجر عظيم فى العقبى؟) أى فى الآخرة (والله سبحانه وتعالى مسئول أن يمدك) أى يعينك (وإيانا بحسن توفيقه وتسديده) أى تصويبه . فى المختار : التسديد التوفيق للسداد بالفتح وهو الصواب والقصد من القول والعمل (إنه أرحم الراحمين وأجود الأجودين ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم) والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب السادس : فى العقبة السادسة ، وهى عقبة القوادح

أى ما يقدح الأعمال ويعيبها (ثم عليك) أى الزم (يا أخى) فى الدين (أيدك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد ما استبان) أى تبين وظهر (لك السبيل) أى طريق الصواب (واستقام لك المسير) أى السير إلى الله تعالى (بتمييز سعيك) أى عملك وصيانته عما يفسده و) ما (يضيعه عليك وإنما لزمك ذلك) أى ما ذكر من التمييز والصيانة (بإقامة الإخلاص وذكر المنة والاجتناب عن ضده أى الإخلاص وهو الرياء (لأمرين : أحدهما لما فعله) أى فى فعل الإخلاص (من الفائدة وهى حسن القبول من الله تعالى وفوز الثواب عليه) أى الإخلاص (وإلا) أى وإن لم تفعل بالإخلاص (فتكون مردودا) ذاهب الثواب كلا أو بعضا على ما روى فى الحديث المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله سبحانه وتعالى يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملا فأشرك فيه) أى فى عمله (غيرى فنصيبي له ») أى لغيرى ، ومعناه أنا أغنى عن المشاركة وغيرها فمن

فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ إِلَّا مَا كَانَ لِي خَالِصًا » .

وَقِيلَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِعَبْدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا الْتَمَسَ ثَوَابَ عَمَلِهِ : « أَلَمْ يُوَسَّعْ لَكَ فِي الْمَجَالِسِ؟ أَلَمْ تَكُنِ الْمَرْآسَ فِي الدُّنْيَا ؟ أَلَمْ يَرْخُصْ بَيْعُكَ وَشِرَاؤُكَ ؟ أَلَمْ تُكَرَّمْ ؟ هٰذَا وَأَشْبَاهُهُ مِنَ الْخَطَرِ وَالضَّرَرِ .

عمل شيئا لى ولغيرى لم أقبله بل أتركه لذلك الغير والمراد أن عمل المرائى باطل لاثواب فيه ويأثم كما نقله العزيزى عن النووى (فإنى لا أقبل إلا ما كان لى خالصا) قال العراقى رواه مالك فى الموطأ بلفظ « فهو له كله » قال الزبيدى : وروى نحوه من حديث الضحاك بن قيس إن الله تعالى يقول « أنا خير شريك فمن أشرك معى شيئا فهو لشريكى » رواه الدارقطني وابن عساكر والضياء ، ورواه الخطيب فى المتفق والمفترق بزيادة « يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله فان الله لا يقبل من الأعمال إلا ماخلص له» وروى من حديث شداد بن أوس بلفظ «إن الله عز وجل يقول: أناخير قسيم لمن أشرك بى ، من أشرك بى شيئا فان عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به بى أنا عنه غنى » رواه الطيالسى وأحمد وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية وإسناده ضعيف . وروى مسلم وابن خزيمة من حديث أبى هريرة بلفظ «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك» . قال الفقيه نصر بن محمد السمرقندى : في هذا الخبر دليل على أن الله تعالى لايقبل من العمل شيئا إلا ما كان خالصا لوجهه فاذا لم يكن خالصا فلا يقبل منه ولاثواب له فى الآخرة ومصيره إلى جهنم (وقيل) أى قال عبد الله بن حنيف الأنطاكى كما ذكره أبو الليث (إن الله تعالى يقول لعبده يوم القيامة إذا التمس) أى طلب العبد (ثواب عمله ألم يوسع لك فى المجالس) يوم حياتك فى الدنيا (ألم تكن المرآس) أى الذى يرأس فى تقدمه وسبقه (فى الدنيا ألم يرخص بيعك وشراؤك ألم تكرم) وألم تعظم (هذا) أى افهم هذا الذى ذكرناه (وأشباهه) أى أمثاله (من الخطر والضرر) كما روى عن عبد الله بن سلام «يقول الله للعبد يوم القيامة ألم تدعنى لمرض كذا وكذا فعافيتك ، ألم تدعنى أن أزوجك كريمة قومها فزوجتك ، ألم ألم » ورواه كذلك أبو الشيخ، وروى البيهقى فى البعث بلفظ «يقول الله لعبده يوم القيامة: ياابن آدم ألم أحملك على الخيل والإبل وأزوجك النساء وأجعلك تربع وترأس ؟ فيقول بلى أى رب ، فيقول أين شكر ذلك ؟ » وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « إنهم قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب ؟ قالوا لا قال فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا لا . قال فو الذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول العبد بلى . فيقول أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول لا . فيقول

قلْتُ : وَمِنْ خطَرِ الرِّيَاءِ فَضِيحَتَانِ وَمُصِيبَتَانِ ؛ أَمَّا الْفَضِيحَتَانِ : فَإِحْدَاهُمَا فَضِيحَةُ السِّرِّ ، وَهِيَ اللَّوْمُ عَلَى رُءُوسِ الْمَلَائِكَةِ ، وَذَلِكَ لِمَا رُوِيَ « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَصْعَدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهِجِينَ بِهِ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : رُدُّوهُ إِلَى سِجِّينٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهِ » ، فَيَفْتَضِحُ ذَلِكَ الْعَمَلُ وَالْعَبْدُ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَالثَّانِيَةُ : فَضِيحَةُ الْعَلَانِيَةِ وَهِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ،

فإنى أنساك كما نسيتنى » (قلت : ومن خطر الرياء فضيحتان ومصيبتان : أما الفضيحتان فإحداهما فضيحة السر وهى اللوم) ، والتعبير (على رءوس الملائكة ، وذلك) أى اللوم على رءوسهم (لما روى « إن الملائكة تصعد) بفتح العين من باب تعب (بعمل العبد مبتهجين) أى حال كونهم فرحين (به) أى بذلك العمل (فيقول الله تعالى) لهؤلاء الحفظة (ردوه إلى سجين) وهى دركة من دركات جهنم . قال مجاهد : هى تحت الأرض السفلى فيها أرواح الكفار وأعمالهم أعمال السوء (فإنه) أى العبد (لم يردنى به) أى بعمله . قال العراقى : رواه ابن المبارك فى الزهد، ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى الاخلاص، وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من رواية ضمرة بن حبيب مرسلا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات انتهى . قال الزبيدى رواه ابن المبارك عن أبى بكر ابن أبى مريم عن ضمرة بن أبى حبيب قال : قال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة يرفعون عمل عبد من عباد الله فيستكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به إلى حيث يشاء الله من سلطانه ، فيوحى الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدى وأنا رقيب على مافى نفسه إن عبدى هذا لم يخلص لى عمله فاكتبوه فى سجين ، ويصعدون بعمل عبد فيستقلونه ويحتقرونه حتى ينتهوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه ، فيوحى الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدى وأنا رقيب على مافى نفسه إن عبدى هذا قد أخلص لى عمله فاكتبوه فى عليين » . وأخرج ابن مردويه فى التفسير من حديث جابر بن عبد الله قال : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الملك يرفع العمل للعبد يرى أن فى يديه منه سرورا حتى ينتهى إلى الميقات الذى وضعه الله فيضع العمل فيه ، فيناديه الجبار من فوقه ارم بما معك فى سجين ، فيقول الملك ما رجعت إليك إلا حقا ، فيقول صدقت ارم بما معكَ فى سجين » . وأخرج البزار والبيهقي من حديث أنس رفعه قال « تعرض أعمال بنى آدم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة فى صحف مختمة ، فيقول الله عز وجل ألقوا هذا واقبلوا هذا ، وتقول الملائكة يارب والله ما رأيناه إلا خيرا ، فيقول إن عمله كان لغير وجهى ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى » . قال المصنف رحمه الله (فيفتضح ذلك العمل والعبد عند الملائكة . والثانية) من الفضيحتين (فضيحة العلانية ، وهى يوم القيامة على رءوس الخلائق) وذلك

رُوِىَ عَنِ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : « إِنَّ الْمُرَائِىَ يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ : يَا كَافِرُ ، يَافَاجِرُ ، يَاغَادِرُ ، يَاخَاسِرُ ، ضَلَّ سَعْيُكَ ، وَبَطَلَ أَجْرُكَ ، فَلاَ خَلاَقَ لَكَ ، الْيَوْمَ الْتَمِسِ الْأَجْرَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ يَا مُخَادِعُ » وَرُوِى « إِنَّهُ يُنَادِى مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْمِعُ الْخَلاَئِقَ : أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ النَّاسَ ؟ قُومُوا خُذُوا أُجُورَكُمْ مِمَّنْ عَمِلْتُمْ لَهُ ، فَإِنِّى لاَ أَقْبَلُ عَمَلاً خَالَطَهُ شَىْءٌ »

لما (روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء يا كافر يا فاجر يا غادر) الغدر ترك الوفاء (ياخاسر ضل سعيك) أى عملك (وبطل أجرك فلا خلاق) أى نصيب (لك اليوم التمس الأجر) أى اطلبه (ممن كنت تعمل له) أى لأجله (يا مخادع) قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا من رواية جبلة اليحصبى عن صحابى لم يسم وإسناده ضعيف . قال الزبيدى : هو فى الحديث الطويل الذى أورده أبو الليث السمرقندى باسناده إلى جبلة اليحصبى قال : كنا فى غزوة مع عبد الملك بن مروان فصحبنا رجل مسهار لاينام من الليل إلا أقله فمكثنا أياما لا نعرفه ثم عرفناه ، فإذا هو رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيما حدثنا « إن قائلا من المسلمين قال : يارسول الله فيم النجاة غدا ؟ قال : أن لاتخادع الله . قال وكيف نخادع الله ؟ قال أن تعمل بما أمرك الله وتريد به غير وجه الله ، واتقوا الرياء فإنه الشرك بالله ، وإن المرائى ينادى يوم القيامة على رءوس الخلائق بأربعة أسماء يا كافر يافاجر ياغادر ياخاسر ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع ، قال فقلت له بالله الذى لا إله إلا هو أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال والله الذى لا إله إلا هو إنى لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن أكون أخطأت شيئا لم أكن أتعمده ، ثم قرأ « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » (وروى « إنه ينادى مناد يوم القيامة يسمع الخلائق : أين الذين كانوا يعبدون الناس) وغيرهم من الأصنام والكواكب والشيطان (قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فإنى لا أقبل عملا خالطه شىء ») قال الشعرانى : روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يجمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ثم يطلع عليهم رب العالمين ، فيقول ألا ليتبع كل إنسان ماكان يعبد فيتمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون » وذكر الحديث بطوله ، وفى رواية لمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل إذا جمع الناس يوم القيامة من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، ومن كان يعبد المسيح شيطان المسيح ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فى صورة غير صورته

وَأَمَّا الْمُصِيبَتَانِ فَإِحْدَاهُمَا : فَوْتُ الْجَنَّةِ ، وَذَلِكَ مَارُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْجَنَّةَ تَكَلَّمَتْ وَقَالَتْ : أَنَا حَرَامٌ عَلَى كُلِّ بَخِيلٍ وَمُرَاءٍ » وَالْخَبَرُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا : أَنَّ هَذَا الْبَخِيلَ مَنْ يَبْخَلُ بِأَحْسَنِ قَوْلٍ ، وَهُوَ قَوْلُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ وَهَذَا الْمُرَائِي مَنْ يُرَائِي بِأَقْبَحِ رِيَاءٍ ، وَهُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي يُرَائِي بِإِيمَانِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَفِي هَذَا الْقَوْلِ تَرْجِيَةٌ . وَالْمَعْنَى الثَّانِي : أَنَّ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْبُخْلِ وَالرِّيَاءِ وَلَمْ يُرَاعِ نَفْسَهُ فَفِيهِ خَطَرَانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَلْحَقَهُ شُؤْمُ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي الْكُفْرِ فَتَفُوتُهُ الْجَنَّةُ رَأْسًا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ؛ وَالْآخَرُ سَلْبُ الْإِيمَانِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِهِ النَّارَ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُخْطِهِ وَشَدِيدِ غَضَبِهِ .

وَالْمُصِيبَةُ الثَّانِيَةُ : دُخُولُ النَّارِ ، وَذَلِكَ

التي يعرفون فيقول أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم فى صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجوز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان ؟ قالوا نعم يا رسول الله . قال فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله ؛ ومنهم المجازى وينجو » قال الامام القرطبى رحمه الله : وقوله وتبقي هذه الأمة فيها منافقوها : الأشبه أن يكون المراد بالمنافقين هنا المرائين بأعمالهم بقرينة الرواية الأخرى. وهى قوله « فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ، ولا يبقى إلا من كان يسجد رياء واتقاء فيجعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه » الحديث (وأما المصيبتان : فإحداهما فوت الجنة ، وذلك ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الجنة تكلمت وقالت: أنا حرام على كل بخيل ومراء ») قال المصنف فى تأويل هذا الخبر (والخبر يحتمل معنيين : أحدهما أن هذا البخيل من يبخل بأحسن قول ، وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله صلي الله عليه وسلم . و) أن (هـذا المرائى من يرائى بأقبح رياء وهو المنافق الذى يرائى بإيمانه وتوحيده ، وفى هذا القول) الأول (ترجية . والمعنى الثانى أن من لم ينته عن البخل والرياء ولم يراع) أى لم يحفظ (نفسه) عنهما (ففيه) أى فيمن لم يراع ذلك (خطران : أحدهما أن يلحقه شؤم ذلك) أى البخل والرياء (فيقع فى الكفر فتفوته الجنة رأسا والعياذ بالله) من ذلك (و) الخطر (الآخر سلب الإيمان الذى يستحق به) أى بسبب السلب (النار نعوذ بالله من سخطه وشديد غضبه . والمصيبة الثانية) من المصيبتين المذكورتين (دخول النار وذلك

لِمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلم أَنَّهُ قالَ: « أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ ، وَرَجُلٌ قَدْ قاتَلَ فى سَبِيلِ اللهِ ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْقَارِئِ : أَلَمْ أُعَلِّمْكَ ما أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي ؟ فَيَقُولُ : بَلَى يا رَبِّ ، فَيَقُولُ مَاذَا عَمِلْتَ فِيما عَلِمْتَ؟ فَيَقُولُ يارَبِّ قُمْتُ بِهِ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ المَلَائِكَةُ كَذَبْتَ ، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ : بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ قارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ فَيَقُولُ : أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلى أَحَدٍ ؟ فَيَقُولُ بَلَى يا رَبِّ ، فَيَقُولُ : فَمَا عَمِلْتَ فِيما آتَيْتُكَ ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ ، فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ المَلَائِكَةُ كَذَبْتَ ، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ إِنَّكَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ ، وَيُؤْتَى بِالَّذِى قُتِلَ فى سَبِيلِ اللهِ فَيَقُولُ اللهُ مَا فَعَلْتَ ؟ فَيَقُولُ : أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فى سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ المَلَائِكَةُ كَذَبْتَ ، وَيَقُولُ اللهُ : بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَرِيءٌ »

لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول من يدعى يوم القيامة) ثلاثة (رجل قد جمع القرآن، ورجل قد قاتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارئ ألم أعلمك ماأنزلت) من القرآن (على رسولى فيقول بلى) علمتنى ما أنزلت على رسولك (يا رب فيقول) الله عز وجل (ماذا عملت فيما علمت فيقول) الرجل (يا رب قمت به) أى بالقرآن وقرأت فيك (آناء الليل) أى أجزاءه (وأطراف النهار فيقول الله كذبت) فى قولك (وتقول الملائكة كذبت ، فيقول الله سبحانه بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك) أى فلان قارئ لك وذلك المقول لك أجرك (ويؤتى بصاحب المال فيقول) الله سبحانه (له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد) من الناس (فيقول) صاحب المال (بلى يا رب فيقول) الله تعالى (فما) ذا (عملت فيما آتيتك) من المال (فيقول كنت أصل) به (الرحم وأتصدق) به (فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله سبحانه بل أردت أن يقال إنك جواد) أى سخى كريم (فقد قيل) أى فى الدنيا (ذلك) وذلك أجرك (ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله) له (مافعلت ؟ فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت) العدو (حتى قتلت) بالبناء للمفعول : أى قتلني العدو (فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال) لك (فلان جرىء) فعيل من الجراءة مهموز وقد يدغم :

وَشُجَاعٌ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ ، قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِيَدِهِ عَلَى رُكْبَتِي وَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ : أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ يُسْعَرُ بِهِمْ نَارُ جَهَنَّمَ » .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ

أى شجاع (وشجاع) مثلث الشين ، الجرىء الشديد القلب عند البأس (فقد قيل ذلك . قال) أبو هريرة رضى الله عنه (ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده) الشريفة (على ركبتى وقال : يا أبا هريرة . أولئك) الثلاثة (أول خلق الله) تعالى (يسعر) أى يوقد (بهم نار جهنم) يوم القيامة . قال أبو هريرة : فبلغ ذلك الخبر إلى معاوية رضي الله عنه وهو إذ ذاك أمير الشام ، فبكى بكاءا شديدا ثم قال صدق الله إذ قال « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » رواه أحمد ومسلم والنسائى من حديث أبى هريرة بلفظ « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى أستشهد . قال كذبت ولكنك قاتلت ليقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ . قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال كذبت ولكنك فعلت ذلك ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار » قال العلامة الزبيدى أخبرناه عمر بن أحمد بن عقيل ، قال أخبرناه عبد الله بن سالم أخبرناه محمد بن العلاء الحافظ أخبرنا علي بن يحيي أخبرنا يوسف بن عبد الله أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الحافظ أخبرنا أبو الفضل أحمد بن على الحافظ أخبرنا أبو الخير أحمد بن الخليل العلائى أخبرنا والدى محمد بن مشرق أخبرنا على بن المنير عن الفضل بن سهل عن أحمد بن على الحافظ أخبرنا على بن أحمد المقرى حدثنا محمد ابن العباس بن الفضل ، حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا جعفر بن عون وعبد الوهاب : يعنى ابن عطاء قالا أخبرنا عبد الملك بن جريج ، أخبرنى يونس بن يوسف عن سليمان بن يسار قال : تفرق الناس عن أبى هريرة رضى الله عنه فقال له ناتل أخو أهل الشام ياأباهريرة حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أول الناس يقضى فيه يوم القيامة رجل » فذكره ، وقد رواه الترمذى أطول من هذا من رواية شفى الأصبحى عن أبى هريرة (و) روى (عن) ترجمان القرآن عبد الله (بن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله

صلى اللهُ عليهِ وسلم يَقولُ : « إنَّ النَّارَ وَأَهْلَهَا يَعُجُّونَ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاءِ ، قِيلَ : يارَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَعُجُّ النَّارُ ؟ قالَ مِنْ حَرِّ النَّارِ الَّتِي يُعَذَّبُونَ بِهَا » وَفِى هٰذِهِ الْفَضَائِحِ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَبْصَارِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

فإنْ قُلْتَ : فَأَخْبِرْنَا عَنْ حَقِيقَةِ الْإِخْلَاصِ وَالرِّيَاءِ وَحُكْمِهِمَا وَتَأْثِيرِهِمَا فى الْعَمَلِ ، فَاعْلَمْ أَنّ الْإِخْلَاصَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا إِخْلَاصَانِ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ ، وَإِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ .

فَأَمَّا إِخْلَاصُ الْعَمَلِ ، فَهُوَ إِرَادَةُ التَّقَرُّبِ إِلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعْظِيمُ أَمْرِهِ وَإِجَابَةُ دَعْوَتِهِ ،

صلى الله عليه وسلم يقول : « إن النار وأهلها يعجون) أى يصيحون بالاستعاذة (من أهل الرياء . قيل يا رسول الله وكيف تعج) أى تصيح (النار ؟ قال) صلى الله عليه وسلم (من حر النار التى يعذبون بها » . وفى هذه الفضائح عبرة لأولى الأبصار) أى أصحاب البصائر (والله سبحانه ولى الهداية بفضله . فإن قلت فأخبرنا عن حقيقة الإخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما فى العمل فاعلم أن الإخلاص عند علمائنا) معاشر الصوفية رضوان الله عليهم (إخلاصان) : أحدهما (إخلاص العمل و) الثاني (إخلاص طلب الأجر ، فأما إخلاص العمل) الـكامل (فهو إرادة التقرب إلى الله عز وجل وتعظيم أمره وإجابة دعوته) دون إرادة شىء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح منهم أو معنى من سائر المعانى سوى التقرب إليه تعالى كأن يريد بعبادته ثواب الآخرة أو إكرامه فى الدنيا وسلامته من آفاتها أو استعانته على أمور دينه كمن يراه والده ليدعو له بالخير أو شيخه ليعينه على مقاصده الدينية فليس ذلك من الاخلاص الـكامل ولا مطلقه إلا فيما يريد به ثواب الآخرة أو الاكرام فى الدنيا والسلامة من آفاتها فلا يخرج عن حد الإخلاص ومراتبه ثلاث : عليا ؛ وهى أن يعمل لله وحده امتثالا لأمره وقياما بحق عبوديته . ووسطى، وهى أن يعمل لثواب الآخرة . ودنيا ، وهى أن يعمل للاكرام في الدنيا والسلامة من آفاتها وما عدا ذلك رياء وإن تفاوتت أفراده ، ويصح أن يقال الاخـلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين بأن لا يلتفت إلى مدحهم وذمهم وما فى أيديهم ، أو يقال هو التوقى عن ملاحظة الأشخاص ، وهو قريب مما قبله ، وورد أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن جبريل عنه تعـالى : «الاخلاص سر من سرى استودعته من أحببت من عبادى » ولا يحصل ذلك إلا لمن بعد عن الأغيار فى معاملة الجبار ليحصل بينه وبينه السر : أى المعاملة الخفية . وقد قيل : من لم يكن بينه وبين الله سر فهو مصر : أى على شغل قلبه بغير ربه فلم يتب عنه . وسبب الإخلاص علم العبد باحتياجه إليه فى العمل النافع له فى دينه ودنياه ، وثمرته السلامة من العقاب والعتاب ونيل عالى

الدرجات فى المآب وهو ممدوح مطلوب وكم من آيات وأخبار وردت فيه . قال تعالى « ألا لله الدين الخالص » . وقال تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » . وقال « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله » وقال تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لايغلّ عليهن قلب رجل مسلم أخلص العمل لله» الحديث رواه الترمذى . وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : «ظن أبى أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلي الله عليه وسلم؟ إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم» رواه النسائى. وقال ذو النون المصرى : الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه والصبر عليه ، والصدق لايتم إلا بالإخلاص والمداومة عليه فمن أخلص فى مقام وصدق فى سلوكه وصبر عليه حتى أحكمه نقله الله تعالى إلى ما هو فوقه. وقال السوسى: متي شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم لإخلاص فحق المخلص أن لا يرى إخلاصه ولا يسكن إليه فان خالف لم يكمل إخلاصه بل سماه بعضهم رياء . وقال ذو النون : ثلاث من علامات الاخلاص استواء المدح والذم من العامة ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال بأن لا تنظر لنفعها وضرها لتنسى مدح الخلق وذمهم عليها، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة. بأن لا يخطر لك جزاء على عملك دنيوى وأخروى ، وقيل رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين : أى لأن غاية المبتدى أن يخلص عمله من الرياء المبطل له فيكون مخلصا ثم يدخله العجب لكونه أضافه لنفسه وقد سلم عمله من الرياء والعجب وتسكن إليه نفسه وتعتمد عليه فيكون نقصا ، والعارف يرى نفسه محلا لجريان طاعته بشروط كمالها ويكون مشغولا بإفراد ربه بعمله الشريف عن سكون نفسه لعمله فاذا سكنت نفسه لعمله عده رياء لكونه خطر بباله فى عمله غيره تعالى فاذا كان هذا رياء العارف فأين هو من إخلاص المريد الذي تخلصت أعماله من الرياء المحرم خاصة وبينه وبين ما عده العارفون رياء درجات ، وقال الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء : أى من حيث يتوهم أنهم ينسبونه بعمله للرياء فيكره هذه النسبة ويحب دوام نظرهم إليه بالإخلاص فيكون مرائيا بتركه ليحبه لدوام نسبته للاخلاص لا للرياء والعمل من أجلهم شرك لكونه أشرك فيه غيره ، والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وعن مكحول : ما أخلص عبد أى فى جميع أفعاله قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه فلا ينطق إلا بما حققه قلبه وأحكمه ، وهذا معنى الحكمة وهو وضع الشىء فى موضعه فاذا وزن حوائجه بالعلم وأوقعها لله وحده كان مخلصا فى جميع أعماله فاذا داوم على ذلك أربعين يوما كان على أتم الوجوه وأحسنها ؛ وقيل أعز شىء فى الدنيا الإخلاص لأنه على خلاف ما تهواه النفس وإذا أخلص العبد فى عمله انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء لبعد القلب بالإخلاص عن ذلك ، وأقل الصدق استواء السر والعلانية ، والصادق من صدق فى أقواله ، والصديق من صدق فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله . قال الجنيد قدس سره : وحقيقة الصدق أن تصدق فى موطن لا ينجيك فيه إلا الكذب .

وَالْبَاعِثُ عَلَيْهِ الِاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ . وَضِدُّ هٰذَا الإِخْلَاصِ النِّفَاقُ، وَهُوَ التَّقَرُّبُ إِلَى مَادُونَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَقَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : النِّفَاقُ هُوَ الِاعْتِقَادُ الْفَاسِدُ الَّذِى هُوَ لِلْمُنَافِقِ فِى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْإِرَادَاتِ لِعِلَّةٍ ذَكَرْنَاهَا فِى مَوْضِعِهَا .

تتمة

قال ابن حجر فى الزواجر : هذه آيات وأحاديث دالة على مدح الاخلاص وثواب المخلصين وما أعدلهم أردنا ذكرها لتكون باعثة للخلق على تحرى الاخلاص ومباعدة الرياء إذ الأشياء لا تعرف كمالا وضده إلا بأضدادها، فمن ذلك قوله تعالى «وما أمروا إلا ليعبدوا الله الآية» ، وقوله « إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » أخرج الطبرانى « نية المؤمن خير من عمله وعمل المنافق خير من نيته وكل يعمل على نيته فاذا عمل المؤمن عملا نار في قلبه نور» والترمذى «أفضل العمل النية الصادقة» وابن أبى الدنيا والحاكم «أخلص دينك يكفك القليل من العمل» والدارقطنى « أخلصوا أعمالكم لله فان الله لايقبل إلا ما خلص له » وابن عدى والديلمى «اعمل لوجه واحد : أى لله وحده يكفك الوجوه كلها» والنسائى « إن الله تعالى لايقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه » وابن المبارك « طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء » وابن جرير «والذى نفس محمد بيده ماعمل أحدقط سرا إلا ألبسه الله رداء عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر » وسئل بعض الأئمة من المخلص ؟ فقال الذى يكتم حسناته كما يكتم سيئاته (والباعث عليه) أى على إخلاص العمل (الاعتقاد الصحيح وضد هذا الإخلاص النفاق وهو) أى النفاق (التقرب إلى مادون الله) أى غيره (سبحانه) فالإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية ، والشرك منه خفي وجلى وكذا الإخلاص وضده يتواردان على القلب فهو محلهما وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات فانها ترجع إلى إجابة البواعث . فمهما كان الباعث واحدا سمى الفعل الصادر منه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوى فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص بهذا الاعتبار، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص أيضا بهذا الاعتبار، فإطلاق لفظ الإخلاص على كل منهما جائز ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك (وقال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : النفاق هو الاعتقاد الفاسد الذى هو للمنافق فى) دين (الله عزوجل وليس هو) أى الاعتقاد الفاسد (من قبيل الإرادات لعلة ذكرنا فى موضعها) ومعنى الإرادة حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل : العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه ؛ وأيضا الارادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة ، وصفة المنافق أن يعترف بلسانه بالإيمان ويقربه وينكره

وأَمَّا الْإِخْلَاصُ فِى طَلَبِ الْأَجْرِ فَهُوَ إِرَادَةُ نَفْعِ الآخِرَةِ بِعَمَلِ الْخَيْرِ ، وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : إِنَّهُ إِرَادَةُ نَفْعِ الآخِرَةِ بِخَيْرٍ لَمْ يُرَدَّ رَدًّا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ خَيْرُهُ بِحَيْثُ تُرْجَى بِهِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةُ وَقَدْ شَرَحْنَا هٰذِهِ الشَّرَائِطَ ، وَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا الْخَالِصُ مِنَ الْأَعْمَالِ ؟ قَالَ الَّذِى يَعْمَلُ لِلهِ لَا يُحِبُّ أَنْ يَحْمَدَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهٰذَا تَعَرُّضٌ لِتَرْكِ الرِّيَاءِ ، وَإِنَّمَا خَصَّهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْمُشَوِّشَةِ لِلْإِخْلَاصِ ، وَقَالَ الْجُنَيْدُ : الْإِخْلَاصُ تَصْفِيَةُ الْأَعْمَالِ مِنَ الْمُكَدِّرَاتِ . وَقَالَ الْفُضَيْلُ : الْإِخْلَاصُ دَوَامُ الْمُرَاقَبَةِ وَنِسْيَانُ الْحُظُوظِ كُلِّهَا ، وَهٰذَا هُوَ الْبَيَانُ الْكَامِلُ ،

بقلبه ويصبح على حال ويمسى على غيرها (وأما الاخلاص فى طلب الأجر فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير ، وكان شيخنا رحمه الله يقول : إنه) أى الإخلاص فى طلب الأجر (إرادة نفع الآخرة بخير لم يرد ردا يتعذر عليه) أى على المخلص (خيره بحيث ترجي به تلك المنفعة) متعلق بخير (وقد شرحنا هذه الشرائط . وقال الحواريون) قال العلامة عبد الحق : حواري الرجل خالصته، من الحور وهو البياض الخالص ، سمى به أصحاب عيسى عليه السلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم، وقيل كانوا ملوكا يلبسون البيض استنصر بهم عيسى من اليهود ، وقيل قصارون يحورون الثياب : أى يبيضونها (لعيسى ابن مريم عليه السلام : ما الخالص من الأعمال) ولفظ القوت قالوا: ياروح الله ما الاخلاص لله عز وجل (قال الذى يعمل لله لا يحب أن يحمده عليه) أى علي ذلك العمل (أحد) من الناس وتمامه عند صاحب القوت قالوا : فمن الناصح لله عز وجل ؟ قال الذى يبدأ بحق الله عز وجل قبل حق الناس ، وإذا عرض له أمران: أحدهما للدنيا والآخر للآخرة بدأ بأمر الله تعالى قبل أمر الدنيا انتهى . وروى فى الخبر : «لكل حق حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن لايحمد على كل شئ من عمل الله عز وجل» (وهذا) أى قول عيسى عليه السلام (تعرض لترك الرياء وإنما خصه) أى الرياء (بالذكر) دون غيره من الآفات(لأنه أقوى الأسباب المشوشة للاخلاص) ففى الخبر « أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية» قيل حب الدنيا، وقيل العمل لأجل أن يؤجر العبد ويحمد (وقال الجنيد) بن محمد الزاهد المشهور قدس سره (الإخلاص تصفية الأعمال من المكدرات) ولا يتم ذلك إلا إذا ملك شيئين أحدهما عنده أولى به من الآخر صحة القصد لوجه الله ثم إخراج الآفات والحذر عليه من دخولها عليه إلى فراغه منه فبذلك يتم إخلاصه ويصفو من كدورات الهوى ويخلص من الشهوة الخفية فيكون خالصا من الرياء بالإخلاص صافيا من الشهوة بتفقد دخول الآفة (وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله (الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها ، وهذا هو) أى قول الفضيل(البيان الكامل)

وَالْأَقَاوِيلُ فِى هٰذَا كَثِيرَةٌ ، فَلَا فَائِدَةَ فِى تَكْثِيرِ النَّقْلِ بَعْدَ انْكِشَافِ الْحَقَائِقِ ، وَقَدْ قَالَ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ صلى الله عليه وسلم إِذْ سُئِلَ عَنِ الْإِخْلَاصِ فَقَالَ : « تَقُولُ رَبِّىَ اللهُ تَعَالَى ثُمَّ تَسْتَقِيمُ كَمَا أُمِرْتَ » أَىْ لَا تَعْبُدْ هَوَاكَ وَنَفْسَكَ وَلَا تَعْبُدْ إِلَّا رَبَّكَ وَتَسْتَقِيمُ فِى عِبَادَتِهِ كَمَا أُمِرْتَ ، وَهٰذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَطْعِ كُلِّ مَاسِوَى اللهِ عَنْ مَجْرَى النَّظَرِ ، وَهُوَ الْإِخْلَاصُ حَقًّا ،

فإن دوام المراقبة يستدعى الاستغراق فى العبودية والمستغرق فيها لايلتفت فى سائر أحواله إلا إلى الله تعالى ونسيان الحظوظ يستدعى عدم الرؤية فى إخلاصه فصار بذلك جامعا لمعانى الإخلاص كلها (والأقاويل فى هذا) أى فى الاخلاص (كثيرة) فمن ذلك قولهم الاخلاص استواء المدح والذم من العامة ونسيان رؤية الأعمال ونسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة . وهذا نقله القشيرى : عن ذى النون وهى من علامات الإخلاص . وقال سهل : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة . وفى معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى ، وقيل نقصان كل مخلص فى إخلاصه رؤية إخلاصه فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه فيكون مخلصا لامخلصا نقله القشيرى عن أبى بكر الدقاق . وقال حذيفة المرعشى : الإخلاص أن تستوى أفعال العبد فى الظاهر والباطن ، وقيل الإخلاص ماأريد به الحق وقصد به الصدق ، وقيل الإخلاص الإغماض عن رؤية الأعمال . وقال السرى : من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله . وقال يوسف بن الحسين . أعز شىء فى الدنيا الإخلاص (فلا فائدة في تكثير النقل) أى نقل الأقاويل (بعد انكشاف الحقائق و) إنما البيان الشافى ما (قد قال سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم، إذ سئل عن الاخلاص فقال « تقول ربى الله تعالى ثم تستقيم كما أمرت ») قال العراقى لم أره بهذا اللفظ. وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى «قلت يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به قال : قل ربي الله ثم استقم » وهو عند مسلم بلفظ « قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعد قال : قل آمنت بالله ثم استقم » قال الزبيدى ذكر الحافظ فى ترجمة سفيان هذا فى الإصابة الحديث المذكور باللفظ الأول . وقال أخرج حديثه مسلم والترمذى والنسائى : أى فذكر النسائى بدل ابن ماجه ، والله أعلم . ووجدت فى القوت مايشبه هذا السياق وقال فأحسن: تفسير النية ما فسره به رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإحسان فقال « تعبد الله كأنك تراه » فهذه شهادة العارفين ومعرفة الموقنين فهم مخلص المخلصين انتهى (أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت وهذه) لا يطيقها إلا الأكابر ، إذ هي (إشارة إلى قطع كل ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا) وذكروا فى الاستقامة أنها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم

وضدُّ الْإِخْلَاصِ الرِّيَاءُ ، وَهُوَ إِرَادَةُ نَفْعِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ . ثُمَّ الرِّيَاءُ ضَرْبَانِ : رِيَاءٌ مَحْضٌ ، وَرِيَاءُ تَخْلِيطٍ ؛ فَالْمَحْضُ : أَنْ تُرِيدَ بِهِ نَفْعَ الدُّنْيَا لَا غَيْرُ ، وَالتَّخْلِيطُ : أَنْ تُرِيدَهُمَا جَمِيعاً نَفْعَ الدُّنْيَا وَنَفْعَ الآخِرَةِ ، هٰذَا حَدُّهُمَا ؛ وَأَمَّا تَأْثِيرُهُمَا : فَإِنَّ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ أَنْ تَجْعَلَ الْفِعْلَ قُرْبَةً ، وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ فَأَنْ تَجْعَلَهُ مَقْبُولاً وَافِرَ الْأَجْرِ وَالتَّعْظِيمِ . وَالنِّفَاقُ يُحْبِطُ الْعَمَلَ وَيُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ قُرْبَةً مُسْتَحَقًّا عَلَيْهِ الثَّوَابُ بِالْوَعْدِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ؛ فَالرِّيَاءُ الْمَحْضُ لَا يَكُونُ مِنَ الْعَارِفِ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أَبْطَلَ نِصْفَ الثَّوَابِ ، وَعِنْدَ آخَرِينَ قَدْ يَكُونُ الرِّيَاءُ

والعادات والقيام بين يدى الله على حقيقة الصدق (وضد الاخلاص الرياء ، وهو إرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة . ثم الرياء ضربان) أى نوعان (رياء محض) أى خالص عن شوائب الآخرة (ورياء تخليط ، فالمحض أن تريد به نفع الدنيا لا غير والتخليط أن تريدهما جميعا) أى (نفع الدنيا ونفع الآخرة ، هذا) أى الذى ذكرناه (حدهما) أى الاخلاص والرياء (وأما تأثيرهما) أى الاخلاص والرياء فى العمل (فإن إخلاص العمل أن تجعل الفعل قربة .وأما إخلاص طلب الأجر) فهو (أن تجعله) أى الفعل (مقبولا وافر الأجر والتعظيم . و) أما (النفاق) الذى هو ضد إخلاص العمل فهو (يحبط العمل ويخرجه) أى العمل (عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد من الله تعالى) بل هو سبب المقت والعقاب كما دلت بذلك الأخبار : منها حديث أبى هريرة الذى أوله « أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة » الحديث ، ومنها حديث ابن عمر « من تعلم علما لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » رواه الترمذى والنسائى ، ومن حديث أبى هريرة « من تعلم علما يبتغى به غير وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » يعنى ريحها ، رواه أبو داود والحاكم وصححه ، ومنها حديث كعب بن مالك « من طلب العلم ليجارى به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » رواه الترمذى وقال غريب ، ومنها حديث أبى هريرة « إن فى جهنم واديا يقال له جب الحزن تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة يسكنه القراء المراءون بأعمالهم » رواه الترمذى ،وقال غريب ، فهذه الأخبار إنما تدل كلها على حبوط العمل وبطلانه لتمحضه للرياء وهذا لاخلاف فيه بين العلماء وأن كل ما كان بهذه المثابة فهو على المرء لا له ولا ينجو منه كفافا بل هو على خطر العقاب إلا أن يتوب من ذلك توبة يقبلها الله منه ويعفو عنه بكرمه كرما وفضلا (فالرياء المحض لا يكون من العارف) بالله (عند بعض العلماء ، وإن كان أبطل نصف الثواب وعند آخرين قد يكون الرياء

المحضُ مِنَ الْعَارِفِ ، وَأَنَّهُ يَذْهَبُ بِنِصْفِ الْأَضْعَافِ ، وَالتَّخْلِيطُ يَذْهَبُ بِرُبُعِ الْأَضْعَافِ ، وَالصَّحِيحُ عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الرِّيَاءَ الْمَحْضَ لَا يَكُونُ مِنَ الْعَارِفِ عِنْدَ تَذَكُّرِ الْآخِرَةِ ، وَيَكُونُ مَعَ السَّهْوِ ، وَالْمُخْتَارُ أَنَّ مِنْ تَأْثِيرِ الرِّيَاءِ رَفْعُ الْقَبُولِ وَالنُّقْصَانِ فِي الثَّوَابِ ، وَلَا تَقْدِيرَ لَهُ بِنِصْفٍ وَلَا رُبْعٍ ، وَشَرْحُ هٰذِهِ الْمَسَائِلِ يَطُولُ، وَقَدْ

المحض من العارف وأنه) أى الرياء المحض من العارف(يذهب بنصف الأضعاف) أى أضعاف الثواب (والتخليط يذهب بربع الأضعاف . والصحيح عند شيخنا رحمه الله أن الرياء المحض لا يكون من العارف عند تذكر الآخرة ويكون) ذلك منه (مع السهو ، والمختار أن من تأثير الرياء)فى العمل (رفع القبول والنقصان فى الثواب ولاتقدير له)أى للنقصان(بنصف ولاربع) ولنبين مايحبط العمل من الرياء وما لايحبطه على ما قاله مصنفنا أبوحامد الغزالى وغيره فنقول :إذا عقدالعبد العبادةمن الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ منه ، فان ورد عليه بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار منه فهذا لايحبط العمل إذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما عن ثواب الرياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لاينعطف عليه أثره هكذا ذهب إليه جماعة من العارفين لاسيما إذا لم يتكلف هوإظهاره والتحدث به للناس ولم يتمن إظهاره وذكره بين الناس ولكن اتفق ظهوره باظهار الله إياه ولم يكن منه إلامادخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة فى الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف . وفى الأخبار والآثار بظواهرهما ما يدل على أنه محبط لذلك العمل ، فقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول : قرأت البارحة سورة البقرة،فقال ذلك حظك منها، وروىعن رسول اللهصلى الله عليهوسلم «أنه قال لرجل قال له صمت الدهر فقال له« ما صمت ولا أفطرت» فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره ، وقيل هو إشارة إلى كراهية صوم الدهروكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا القول ، ومن ابن مسعود فى قوله السابق استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عنعقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعدالعمل مبطلا لثواب العمل فالأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذى قد مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعدالفراغ منها، بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا،فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد فى أثنائها وارد الرياء فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر فى العمل وإما أن يكون رياء باعثا على العمل ؛ فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره لأنه قد تخلل عقد ما أثر فيه فهو أحرى أن يوصف بالانحلال (وشرح هذه المسائل) أى مسائل الإخلاص والرياء (يطول ، وقد

شَرَحْنَاهَا فى كِتَابِ : [إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ] شَرْحًا مُسْتَقْصِيًا ، وَأَشْبَعْنَا الْقَوْلَ فِي أَسْرَارِ مُعَامَلاَتِ الدِّينِ .

شرحناها) أى تلك المسائل (فى) تصنيفنا (كتاب إحياء علوم الدين شرحا مستقصيا وأشبعنا القول) على المسائل المذكورة (فى أسرار معاملات الدين) وبعضه مسطور فى أثناء شرح هذا الباب وبعضه نذكره الآن مع بعض شرحه ملخصا فنقول : اعلم وفقك الله تعالى أن الاخلاص شرط فى سائر العبادات ، وهو معنى قوله «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين» وقوله « إياك نعبد » وقد قلنا إن رؤية المنة لله تعالى واجبة للنعمة وليس لها حقيقة إلا التبرى من الحول والقوة والرجوع إلى الله تعالى بالفقر والفاقة وطلب الاستعانة وهو معنى ماأمرنا به بقوله «وإياك نستعين» ولا نعمة لله على عبده أفضل من الإيمان به والعمل لأجله فهذا وجه وجوب الإخلاص فى سائر العبادات . وأما استحبابها فى سائر التقلبات فإن العبد البار لا يتحرك إلا لسيده لأن القوة التى يتحرك بها مكتسبة من تغذية نعمة سيده لأن حقيقة العبد أن لايملك من نفسه ولا لنفسه شيئا إذ هو خالقه ورازقه وعليه توليه إن أحسن لحكمة الكرم وله أن يعاقبه إن أساء ، فما أوضح هذا وما أعزه فى القلوب علما وحالا وعملا ولأجل عزته أوجب الله تعالى تكريره على ألسنتنا وقلوبنا فى اليوم والليلة سبع عشرة مرة لتخلص لنا أعمالنا ونعتمد عليه فى جميع أحوالنا، فإذا كان الإخلاص هو الإيمان والطاعات وبه تمامهما ونماؤهما وجب شرح حقيقته وتفصيل درجاته ليظهر بذلك الواجب من المستحب، فاعلم أن كل شىء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا لخلوصه عن الشوب ، وسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا ، قال الله تعالى « من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » وإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص وهو تجرد الباعث الواحد يضاده الإشراك وهو أن يشترك باعثان فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات ، وقد تقدم أن الإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية والشرك منه خفى وجلى وكذا الإخلاص ، والإخلاص وضده يتواردان على القلب فهو محلهما بالاتفاق منهم . ونتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ، ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أويحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتعلم العلم ليسهل عليه بذلك طلب مايكفيه من المال أو يكون عزيزا بين العشيرة بذلك أوليكون عقاره وماله محروسا بعز العلم عن الأطماع فلا تمتد إليه ، إلى غير ذلك من الشوائب النفسانية فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك . وقد قال تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشركة » رواه ابن ماجه

والبزار من حديث أبى هريرة ؛ والخالص هو الذى لاباعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى ولم يشبه شئ من هذه الحظوظ . قال القشيرى: سمعت أبا عبدالرحمن السلمى يقول سمعت أبا عبدالرحمن المغربى يقول : الاخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال وهذا إخلاص العوام وإخلاص الخواص ما يجرى عليهم لا بهم فتبدوا منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليها رؤية ولابها اعتداد انتهى . وكأنه يشير إلى كمال الاخلاص ولا يقدر عليه إلا بعد استغراق الحب قلبه فرجع جميع المباحات عنده كالأدوية لا يتناول منها إلا لضرورة ولأجل كمال الاخلاص بأصله شق على الناس علمه وعمله فصار حديث الاخلاص عند المتفقهة كالمستغرب وهو شرط فى صحة أعمالهم ، والكمال هو أن لا يلتفت فى سائر أحواله إلا إلى الله تعالى عبادة أو عادة وأن يكون وجود الناس عنده كعدمهم لأن وجودهم مجازى لا حقيقة إذ لا قوام لهم بنفوسهم إنما الموجود الثابت الحقيقى هو الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم الذى قامت ذاته بذاته وكل شىء سواه قائم به ومستند إلى قدرته ، فان عجز عن هذا المقام فليكن وجودهم عنده كوجود البهائم، بمعنى أنها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولا عطاء ولا منعا ولا مدحا ولا ذما ، فمتى ما فرق فى مشاهدة الخلق بين أن يشهده رئيس أو بهيمة فى عبادة من عباداته فلا يخلو إصلاحه عن نقصان بحسب قوة النظر فى وجهة قلبه عن الله تعالى أو ضعفها ، ولهذا كان المخلصون على خطر عظيم وكانت أعمالهم أعمال المقربين فمن رزق هذه الحالة فنقصانها بالنظر إليها والاعتماد عليها . هذا ما يتعلق بكمال الإخلاص ، فالباعث على الفعل إما أن يكون روحانيا فقط وهو الإخلاص، أو شيطانيا فقط وهو الرياء، أو مركبا وهو ثلاثة أقسام: لأنه لايخلو إما أن يكونا سواء أو الروحانى أقوى أو الشيطانى أقوى ، فاذا كان الباعث روحانيا فقط وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لايحب الأكل والشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه فى قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى أنه لو كفى شر الجوع حتى لايحتاج إلى الأكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى ، فمثل هذا الشخص لو أكل وشرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ، وإذا كان الباعث شيطانيا فقط ولا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا مستغرق الهم بها حيث لم يبق لحب الله فى قلبه مقر فتكتسب أفعاله تلك الصفة فلا يسلم له شىء من عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا ، وإذا استوى الباعثان يتعارضان ويتناقضان فيصير العمل لا له ولا عليه . وأما من غلب أحد الطرفين فيه فينحط منه ما يساوى الآخر وتبقى الزيادة موجبة أثرها اللائق بها . وسيأتى تحقيق ذلك والخالص لوجه الله هو سبب الثواب كما دلت بذلك الأخبار ، وإنما النظر فى العمل المشوب وهو أن يكون الباعث على طلب عمل من أعمال الطاعات مجموع القصدين : قصد وجه الله تعالى والقصد الدنيوى . وقد اختلف الأئمة فيه : فمنهم قال لا يقتضى هذا العمل ثوابا ولا

عقابا ، ومنهم من قال يثاب على ما فيه من الإخلاص ، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له أوأنه مقتض للعقاب وأن ما وقع فيه من الرياء أحبط العمل بالكلية . وهذا القول اختاره الحارث المحاسبي وكثير من الأئمة قالوا : إن العمل لا يترتب عليه الثواب حتى يكون جميعه خالصا وحده من غير شوب عرض دنيوى ، وأنه متى خالطه قصد غير التقرب إلي الله أبطله وكان حكمه حكم مالو تمحض ذلك القصد الدنيوى ، وهذا هو الذى اختاره الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى . قال الصلاح العلائى وهو الذى تقتضيه الأحاديث الصحيحة وليس تخلو الأخبار عن تعارض فى ذلك ، وهى ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال « يا رسول الله رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من عرض الدنيا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا أجر له فأعظم الناس ذلك وقالوا للرجل عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلك لم تفهمه فقال يا رسول الله رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من أعراض الدنيا ، فقال لا أجر له . فقالوا للرجل عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له الثالثة ، فقال لا أجر له » وإسناده حسن وأخرجه الحاكم وصححه . وما روى عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله صلي الله عليه وسلم لا شيء له . ثم قال إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه » وإسناده صحيح وقد أخرجه الحاكم وصححه أيضا ، فهذان الخبران يبينان صحة ما ذهب إليه المحاسبي واختاره ابن عبد السلام وهما صريحان فى المدعي . وأما مايعارض ذلك فحديث عبادة بن الصامت «من غزا فى سبيل الله ولم ينو إلا عقالا فله مانواه» رواه النسائى . قال العراقى فى شرح التقريب : فإتيانه بصيغة الحصر يقتضى أنه إذا نوى مع القتال شيئا آخر كان له ما نواه انتهى . وقال السمعانى فى أماليه : قوله صلى الله عليه وسلم « وإنما لكل امرىء ما نوى » فيه دلالة على أن الأعمال الخارجة عن العبادة قد تفيد الثواب إذا نوى بها فاعلها القربة كالأكل والشرب إذا نوى القوة بهما على العبادة والطاعة ، والنوم إذا قصد به ترويح البدن للعبادة ، والوطء إذا أريد به التعفف عن الفاحشة . واختار المصنف رحمه الله التفصيل فى ذلك فقال : والذى ينقدح لنا فيه والعلم عند الله تعالى أن ينظر إلى قدر قوة البواعث ، فإن كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومقتض للعقاب ، نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ولم تمتزج به شائبة التقرب ، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى ، وهذا لقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ولقوله تعالى « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها » فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة . وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَوْضِعُ الْإِخْلَاصِ ، وَفِى أَىِّ طَاعَةٍ يَقَعُ وَيَجِبُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَقَعُ فِيهِ الْإِخْلَاصَانِ

عن هذا أن الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج ، فاذا كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تنال من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما فهذا معنى تقومهما ، وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر لا محالة ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفعك عن تأثير فى إنارة القلب أو تسويده وفى تقريبه من الله أو إبعاده ، فاذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه ، فان كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر ؛ وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه فاذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ، ويشهد لهذا التفصيل إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . وقال تعالى « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » وأنها نزلت لما تحرجوا من التجارة فى الحج . نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلى وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب . قال الصلاح العلائى فى مقدمة الأربعين : وقد يقال إن الآية محمولة على ما إذا عرضت التجارة فى موسم الحج من غير قصد لها بدليل الأحاديث السابقة ، ولو كان إنشاء السفر للحج والتجارة جميعا فنقول إنه لا يثاب على ذلك السفر كما دلت عليه الأحاديث . وأما أفعال الحج من الإحرام وما بعده فإذا وقعت خالصة أثيب عليها ولا تنافيها التجارة فيكون هو الذى دلت عليه الآية قالوا ويشهد لهذا التفصيل أيضا قوله صلى الله عليه وسلم « إن من خير معاش الناس الجهاد » فجعل الجهاد مما يصح أن يتخذ للمعاش ومن ضرورة ذلك أن يكون مقصودا . قال الصلاح : لم أره هكذا مسندا وبتقدير صحته فإنما سماه معاشا لما يعرض فيه غالبا من المغانم ، ولا يلزم من ذلك أن يكون مقصودا (فان قلت : فما موضع الإخلاص وفى أى طاعة يقع ويجب) ذلك الإخلاص (فاعلم) أرشدك الله (أن الأعمال عند بعض العلماء ثلاثة أقسام : قسم يقع فيه الاخلاصان) أى إخلاص

جَمِيعًا وَهُوَ الْعِبَادَةُ الظَّاهِرَةُ الْأَصْلِيَّةُ ، وَقِسْمٌ لَا يَقَعُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُمَا ، وَهُوَ الْعِبَادَةُ الْبَاطِنَةُ الْأَصْلِيَّةُ ، وَقِسْمٌ يَقَعُ فِيهِ إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ دُونَ إِخْلَاصِ الْعَمَلِ ، وَهُوَ الْمُبَاحَاتُ الْمَأْخُوذَةُ لِلْعُدَّةِ . قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَحْتَمِلُ الصَّرْفَ إِلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْعِبَادَاتِ الْأَصْلِيَّةِ يَقَعُ فِيهِ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ ، فَالْعِبَادَاتُ الْبَاطِنَةُ أَكْثَرُهَا يَقَعُ فِيهَا إِخْلَاصُ الْعَمَلِ .

وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ : قَالَ مَشَايِخُ الْكَرَّامِيَّةِ : لَا يَقَعُ فِي الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ ، إِذْ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ فَامْتَنَعَ فِيهَا دَوَاعِي الرِّيَاءِ ، فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى إِخْلَاصِ طَلَبِ الْأَجْرِ ، وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : إِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ الْمُتَقَرِّبُ مِنَ اللهِ بِالْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ نَفْعَ الدُّنْيَا فَهُوَ أَيْضًا رِيَاءٌ .

قُلْتُ أَنَا : وَلَا يَبْعُدُ إِذَنْ أَنْ يَقَعَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ الْإِخْلَاصَانِ ، وَكَذَلِكَ النَّوَافِلُ يَجِبُ فِيهَا الْإِخْلَاصَانِ جَمِيعاً عِنْدَ الشُّرُوعِ ، وَأَمَّا الْمُبَاحَاتُ الْمَأْخُوذَةُ

العمل وإخلاص طلب الأجر (جميعا ، وهو) أى القسم الذى يقع فيه الإخلاصان (العبادة الظاهرة الأصلية) كالصلاة ونحوها (وقسم لا يقع فيه شىء منهما) أى من الإخلاصين (وهو) أى هذا القسم (العبادة الباطنة الأصلية) كالإيمان والتوكل والتفويض (وقسم يقع فيه إخلاص طلب الأجر دون إخلاص العمل وهو) أى القسم الذى يقع فيه إخلاص الطلب دون غيره (المباحات المأخوذة للعدة) بضم العين . أى الاستعداد والتأهب للعبادة (قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : إن كل عمل يحتمل الصرف إلى غير الله تعالى من العبادات الأصلية يقع فيه) أى فى العمل المذكور (إخلاص العمل فالعبادات الباطنة أكثرها يقع فيها) أى فى العبادات الباطنة أي أكثرها (إخلاص العمل . وأما إخلاص طلب الأجر) فقد (قال مشايخ الكرامية) فرقة من المشبهة أصحاب عبد الله محمد بن كرام (لا يقع) أى إخلاص طلب الأجر (فى العبادات الباطنة إذ لا يطلع عليها أحد إلا الله سبحانه فامتنع فيها) أى فى العبادات الباطنة (دواعى) أى أسباب (الرياء فلم يحتج) بالبناء للمفعول (إلى إخلاص طلب الأجر . وكان شيخنا رحمه الله يقول : إذا أراد العبد المتقرب من الله بالعبادات الباطنة نفع الدنيا فهو) أى طلب نفع الدنيا بالعبادات الباطنة (أيضا) أى كطلبه بالعبادات الظاهرة (رياء . قلت : أنا ولا يبعد إذا) أى حين وجد الرياء فى العبادات الباطنة (أن يقع فى كثير من العبادات الباطنة الإخلاصان وكذلك) أى وقوع الإخلاصين (النوافل يجب فيها) أى فى تلك النوافل (الإخلاصان جميعاً عند الشروع) فيها (وأما المباحات المأخوذة

لِلْعُدَّةِ ، فَإِنَّمَا يَقَعُ فِيهَا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ دُونَ إِخْلَاصِ الْعَمَلِ ، إِذْ هِيَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ بِنَفْسِهَا قُرْبَةً بَلْ هِيَ عُدَّةٌ عَلَى الْقُرْبَةِ .

فَإِنْ قُلْتَ : هٰذَا مَوْضِعُهُمَا فَبَيِّنْ لَنَا وَقْتَهُمَا مِنَ الْعَمَلِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ مَعَ الْفِعْلِ يُقَارِنُهُ لَا مَحَالَةَ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ فَرُبَّمَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، وَعِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ يَعْتَبِرُونَ فِيهِ وَقْتَ الْفَرَاغِ مِنَ الْعَمَلِ ، فَإِذَا فَرَغَ عَلَى إِخْلَاصٍ أَوْ رِيَاءٍ فَقَدِ انْقَضَى الْأَمْرُ ، وَلَا يُمْكِنُهُ اسْتِدْرَاكُهُ بَعْدُ ، وَعِنْدَ غَيْرِنَا مِنْ مَشَايِخِ الْكَرَّامِيَّةِ مَالَمْ يَنَلِ الْمَنْفَعَةَ الْمَطْلُوبَةَ بِالرِّيَاءِ يُمْكِنُهُ إِقَامَةُ الْإِخْلَاصِ فِي ذٰلِكَ الْعَمَلِ ، فَإِذَا نَالَ الْمَطْلُوبَ فَقَدْ فَاتَ ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّ الْفَرِيضَةَ يُمْكِنُ إِقَامَةُ الْإِخْلَاصِ فِيهَا إِلَى الْمَوْتِ .

وَأَمَّا النَّوَافِلُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى ذٰلِكَ ، قَالَ : وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ اللّٰهَ تَعَالَى أَدْخَلَ الْعَبْدَ فِي الْفَرِيضَةِ ، فَمَأْمُولٌ مِنْهُ التَّفَضُّلُ وَالتَّيْسِيرُ فِيهَا ، وَأَمَّا النَّفْلُ فَالْعَبْدُ الَّذِي أَدْخَلَ نَفْسَهُ فِيهِ وَتَكَلَّفَهُ ،

للعدة) على القربة (فانما يقع فيها إخلاص طلب الأجر دون إخلاص العمل إذ هي) أي تلك المباحات (لا تصلح أن تكون بنفسها قربة بل هي عدة على القربة . فان قلت : هذا) أي المذكور من العبادات الظاهرة وأكثر العبادات الباطنة والنوافل (موضعهما) أي الإخلاصين المذكورين (فبين لنا وقتهما من العمل فاعلم أن إخلاص العمل مع الفعل يقارنه) أي الفعل (لا محالة ولا يتأخر) أي الاخلاص (عنه) أي عن الفعل (وأما إخلاص طلب الأجر ربما يتأخر عنه) أي الفعل (وعند بعض العلماء يعتبرون فيه) أي في الاخلاص (وقت الفراغ من العمل فاذا فرغ) العبد من العمل (على إخلاص أو رياء فقد انقضى الأمر) أي أمر العمل (ولا يمكنه) أي العبد (استدراكه) أي العمل بالاخلاص أو الرياء (بعد) بالضم أي بعد الفراغ (وعند غيرنا) معاشر أهل السنة (من مشايخ الكرامية مالم ينل) العبد (المنفعة المطلوبة بالرياء يمكنه) أي العبد (إقامة الاخلاص في ذلك العمل فاذا نال المطلوب) بالرياء (فقد فات) أي ما ذكر من إقامة الاخلاص (وقال بعض العلماء) رحمه الله تعالى (إن الفريضة يمكن إقامة الإخلاص فيها) أي في الفريضة (إلى الموت . وأما النوافل فلا سبيل إلى ذلك) أي إقامة إخلاص إلى الموت بل عند الشروع كما سبق (قال) البعض (والفرق بينهما) أي بين الفريضة والنوافل (أن الله تعالى أدخل العبد في الفريضة فمأمول) أي مرجو (منه) تعالى (التفضل والتيسير فيها) أي تلك الفريضة (وأما النفل فالعبد) هو (الذي أدخل نفسه فيه) أي في النفل (وتكلفه) أي النفل

فَطُوبَى بِحَقٍّ مَا تَكَلَّفَ .

قُلْتُ أَنَا : وَفِى الْمَسْئَلَةِ فَائِدَة ، وَهِيَ أَنَّ مَنْ سَبَقَ مِنْهُ الرِّيَاءُ أَوْ تَرْكُ الإِخْلَاصِ فِى عَمَلٍ فَيُمْكِنُهُ اسْتِدْرَاكُ ذٰلِكَ وَتَلَافِيهِ عَلَى أَحَدِ الْوُجُوهِ الَّتِى ذَكَرْنَاهَا قَبْلُ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ نَقْلِ مَذَاهِبِ النَّاسِ فِى هٰذِهِ الدَّقَائِقِ عِلْمُنَا الآنَ بِقِلَّةِ الْعَامِلِينَ وَقِلَّةِ الرَّغَبَةِ فِى سُلُوكِ هٰذِهِ الطَّرِيقِ وَالتَّقْرِيبُ عَلَى الْمُبْتَدِى فِى الْعِبَادَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ لِعِلَّتِهِ دَوَاءً فِى هٰذَا الْقَوْلِ وَجَدَهُ فِى الآخَرِ لِاخْتِلَافِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَغْرَاضِ وَعِلَلِ الْأَعْمَالِ وَآفَاتِهَا ، فَافْهَمْ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قُلْتَ : أَكُلُّ عَمَلٍ يَحْتَاجُ إِلَى إِخْلَاصٍ مُفْرَدٍ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِى ذٰلِكَ فَقِيلَ إِنَّهُ يَجِبُ لِكُلِّ عَمَلٍ إِخْلَاصٌ مُفْرَدٌ ، وَقِيلَ إِنَّهُ يَجُوزُ تَنَاوُلُ إِخْلَاصٍ وَاحِدٍ بِجُمْلَةٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ ، أَمَّا الْعَمَلُ ذُو الْأَرْكَانِ كَالصَّلَاةِ وَالْوُضُوءِ فَيَكْفِيهِمَا إِخْلَاصٌ وَاحِدٌ ، لِأَنَّ بَعْضَهَا

(فطوبى بحق ما تكلف) من النفل (قلت أنا: وفى المسئلة) أى الخلاف فى وقت الاخلاص (فائدة وهي أن من سبق منه الرياء أو ترك الاخلاص فى عمل) من الأعمال (فيمكنه) أى المرائى أو تارك الاخلاص (استدراك ذلك) أى الاخلاص (وتلافيه) أي تلافى ذلك الاخلاص واستلحاقه (على أحد الوجوه) أى الأقوال (التى ذكرناها) قريبا (قبل) بالضم : أى قبل هذه الفائدة (والمقصود من نقل مذاهب الناس) منهم مشايخ الكرامية (فى هذه الدقائق) وهى موضع الإخلاصين ووقتهما من العمل (علمنا الآن) يعنى فى زمانه رحمه الله (بقلة العاملين وقلة الرغبة) محركة جمع راغب (فى سلوك هذا الطريق) أى طريق الاخلاص فى العبادة (و) المقصود أيضا (التقريب) أى التسهيل (على المبتدى فى العبادة ، فان لم يجد) العبد (لعلته دواء فى هذا القول) أى الذى ذكرناه من أن إخلاص العمل مع الفعل يقارنه (وجده) أى دواء (فى) القول (الآخر) وهو قول بعضهم يعتبرون فى الاخلاص الفراغ من العمل أو قول مشايخ الكرامية (لاختلاف الأمراض والأغراض وعلل الأعمال وآفاتها فافهم) ما ذكرناه لك (راشدا إن شاء الله تعالى . فان قلت أكل عمل يحتاج إلى إخلاص مفرد فاعلم أنه) أى الحال والشأن (قد اختلفوا) أى علماؤنا رضوان الله عليهم (فى ذلك) أى فى احتياج كل عمل إلى إخلاص مفرد (فقيل إنه يجب لكل عمل إخلاص مفرد ، وقيل إنه يجوز تناول إخلاص واحد بجملة من العبادات . أما العمل ذو الأركان كالصلاة والوضوء فيكفيهما) أى الصلاة والوضوء (إخلاص واحد لأن بعضها) أى الأعمال ذوى الأركان

مُتَعَلِّقٌ بِبَعْضٍ صَلَاحًا وَفَسَادًا فَصَارَتْ كَشَىْءٍ وَاحِدٍ .

فَإِنْ قُلْتَ : إِنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الْخَيْرَ نَفعًا مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَلَا يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ شَيْئًا مِنْ مِدْحَةٍ أَوْ سُمْعَةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ أَيَكُونُ ذٰلِكَ رِيَاءً ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ مَحْضُ الرِّيَاءِ ، قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحِمَهُمُ اللهُ : الِاعْتِبَارُ فِى الرِّيَاءِ بِالْمُرَادِ ، لَا بِالَّذِى يُرِيدُ مِنْهُ ، فَإِنْ كَانَ مُرَادُكَ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ نَفْعًا دُنْيَوِيًّا فَإِنَّهُ رِيَاءٌ ، سَوَاءٌ أَرَدْتَهُ مِنَ اللهِ أَوْ مِنَ النَّاسِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) وَلَيْسَ الِاعْتِبَارُ بِلَفْظَةِ الرِّيَاءِ وَاشْتِقَاقِهَا مِنْ مَعْنَى الرُّؤْيَةِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ هٰذِهِ الْإِرَادَةُ الْفَاسِدَةُ بِهٰذَا الِاسْمِ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ مَا تَقَعُ ، وَتَكُونُ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ وَرُؤْيَتِهِمْ ، فَافْهَمْ .

(متعلق ببعض صلاحا وفسادا فصارت) أى تلك الأعمال المذكورة (كشىء واحد . فإن قلت إن أراد) العبد (بعمله الخير نفعا) دنيويا (من الله تعالى ولا يريد) بعمله (من الناس شيئا من مدحة) بكسر الميم (أو سمعة أو منفعة أيكون ذلك) أى قصد النفع الدنيوى بعمل الخير (رياء) أم لا؟ (فاعلم) هداك الله (أن ذلك) أى القصد المذكور (محض الرياء) أى خالصة (قال علماؤنا رحمهم الله : الاعتبار فى الرياء بالمراد لا بالذى يريد) العبد (منه ، فان كان مرادك من عمل الخير نفعاً دنيويا فانه رياء أردته) أى النفع الدنيوى (من الله) تعالى (أو) أردته (من الناس . قال الله تعالى من كان يريد) بعمله لله (حرث الآخرة) أى ثوابها شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ولذلك قيل . الدنيا مزرعة الآخرة ، والحرث فى الأصل إلقاء البذر فى الأرض ويقال للزرع الحاصل منه (نزد له فى حرثه)) أى بالتضعيف الواحدة إلى عشرة إلي ما يشاء الله من الزيادة وقيل أنا نزيد فى توفيقه وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات اليه (ومن كان يريد حرث الدنيا) يعنى يريد بعمله الدنيا مؤثرا لها على الآخرة (نؤته منها) أي ما قدر وقسم له من الدنيا (وماله فى الآخرة من نصيب) من ثواب لأنه عمل لغير الله . روى عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والتمكين فى الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب» ذكره فى جامع الأصول ولم يعزه إلى أحد من الكتب الستة وأخرجه البغوى باسناده (وليس الاعتبار بلفظة الرياء) بالكسر ممدودا (واشتقاقها معنى الرؤية) وهى النظر بحاسة البصر ، وقد رأي الشخص رؤية (وإنما سميت هذه الإرادة الفاسدة) التى هي إرادة نفع الدنيا (بهذا الإسم) أى الرياء (لأنها) أى الإرادة الفاسدة (أكثر ما تقع وتكون من قبل الناس) أى جهتهم (ورؤيتهم فافهم) راشدا إن شاء الله تعالى :

فَإِنْ قُلْتَ : إِذَا كَانَ الْقَصْدُ مِنَ الدُّنْيَا الَّتِي يُرِيدُهَا مِنَ اللهِ التَّعَفُّفَ عَنِ النَّاسِ وَالْعُدَّةَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ يَكُونُ ذَلِكَ رِيَاءً ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ التَّعَفُّفَ لَيْسَ فِى كَثْرَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْحُطَامِ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِى الْقَنَاعَةِ وَالثِّقَةِ بِكِفَايَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ .

وَأَمَّا الْعُدَّةُ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعالى ، فَإِذَا كَانَ مُرَادُهُ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ رِيَاءً ، وَذَلِكَ مَايَتَّصِلُ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ وَأَسْبَابِهَا ، وَيَصِيرُ قَصْدُهُ قَطْعاً لِذَلِكَ ، فَإِنْ أُرِيدَ بِعَمَلِ الْخَيْرِ هَذَا النَّوْعُ لَا تَكُونُ تِلْكَ الْإِرَادَةُ رِيَاءً ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَصِيرُ بِتِلْكَ النِّيَّةِ خَيْرًا أَوْ تَصِيرُ فِى حُكْمِ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُ إِرَادَةُ الْخَيْرِ رِيَاءً ، وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ تَعْظِيمٌ عِنْدَ النَّاسِ ،

(فان قلت: إذا كان القصد من الدنيا التى يريدها من الله التعفف) أى طلب العفة والامتناع (عن الناس ، و) كان القصد منها أيضا (العدة على عبادة الله يكون ذلك) أى القصد والعدة (رياء) أم لا ؟ (فاعلم أن التعفف ليس فى كثرة المال والجاه والحطام) أى حطام الدنيا ومتاعها الذى يصير آخره فانيا (وإنما هو) أى التعفف (فى القناعة) أى الرضا باليسير من العطاء ، وفى شرح رسالة القشيرى أنها الاكتفاء بما تندفع به الحاجة من مأكل وملبس .

واعلم أنه لا شىء أعز من القناعة . قال عليه الصلاة والسلام « القناعة كنز لا يفني » ، وقد فسر بعض المفسرين الحياة الطيبة فى قوله تعالى « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة » بها ، وقال عليه الصلاة والسلام : « عز من قنع وذل من طمع » ، ولابن حجر العسقلانى :

أمتُّ مطامعى ولزمت بيتى   فطاب الأنس لى ونما السرور
وأدبنى الزمان فما أبالى   أسار الجيش أم ركب الأمير
وأنسى والمجالس لى كتابى   فريدا لا أزار ولا أزور

وكم ورد فى فضل القناعة من آيات وأخبار وآثار ليس هذا محل بسطها (و) فى (الثقة بكفاية الله سبحانه) فى شأن الرزق وغيره (وأما العدة على عبادة الله تعالى فاذا كان مراده) أى العبد (ذلك العدة) أى العدة (فلا يكون) قصده من الدنيا التى يريدها من الله بعمله (رياء وذلك) أى العدة (ما يتصل بأمر الآخرة وأسبابها ويصير قصده) أي العبد (قطعا) أى جزما (لذلك) العدة (فان أريد بعمل الخير هذا النوع) أى العدة (لا تكون تلك الإرادة رياء ، لأن هذه الأمور تصير بتلك النية) أى نية العدة للعبادة (خيرا أو تصير فى حكم أعمال الآخرة ولا تكون إرادة الخير رياء وكذلك) أى الصيرورة فى حكم أعمال الآخرة (إن أردت أن يكون لك تعظيم عند الناس

أَوْ مَحَبَّةٌ عِنْدَ الْمَشَايِخِ وَالْأَئِمَّةِ ، وَيَكُونُ قَصْدُكَ مِنْ ذٰلِكَ التَّمَكُّنَ مِنْ تَأْيِيدِ مَذْهَبِ أَهْلِ الْحَقِّ أَوِ الرَّدَّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَعِ أَوِ النَّشْرَ لِلْعِلْمِ أَوْ حَضَّ النَّاسِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَنَحْوَ ذٰلِكَ دُونَ أَنْ تَقْصِدَ بِذٰلِكَ شَرَفَ نَفْسِكَ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَوْ دُنْيَا تَنَالُهَا ، فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِرَادَةٌ سَدِيدَةٌ وَنِيَّاتٌ مَحْمُودَةٌ لَا يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنْهَا فِى بَابِ الرِّيَاءِ ، إِذِ الْمَقْصُودُ مِنْهَا أَمْرُ الْآخِرَةِ بِالْحَقِيقَةِ .

وَاعْلَمْ أَنِّى سَأَلْتُ بَعْضَ مَشَايِخِنَا عَمَّا يَعْتَادُهُ أَوْلِيَاؤُنَا مِنْ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ فِى أَيَّامِ الْعُسْرَةِ ، أَلَيْسَ الْمُرَادُ بِذٰلِكَ أَنْ يَدْفَعَ اللّٰهُ تِلْكَ الشِّدَّةَ عَنْهُمْ ، وَيُوَسِّعَ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ ، فَكَيْفَ تَصِحُّ إِرَادَةُ مَتَاعِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ؟ .

فَقَالَ فِى جَوَابِهِ رَحِمَهُ اللّٰهُ كَلَامًا مَعْنَاهُ : أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُمْ أَنْ يَرْزُقَهُمُ اللّٰهُ قَنَاعَةً أَوْ قُوتًا يَكُونُ لَهُمْ عُدَّةً عَلَى عِبَادَةِ اللّٰهِ وَقُوَّةً عَلَى دَرْسِ الْعِلْمِ ، وَهٰذِهِ مِنْ جُمْلَةِ إِرَادَاتِ الْخَيْرِ دُونَ الدُّنْيَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ السِّيرَةَ ،

أو محبة عند المشايخ والأئمة ويكون قصدك من ذلك) أى التعظيم أو المحبة (التمكن من تأييد) أى تقوية (مذهب أهل الحق ، أو) يكون قصدك من ذلك (الرد على أهل البدع أو النشر للعلم أو حض الناس على العبادة ونحو ذلك) من المقاصد الخيرات (دون أن تقصد بذلك) أى التعظيم أو المحبة (شرف نفسك من حيث هى، أو) تقصد (دنيا تنالها فان هذه) المذكورات من قصد التمكن من تأييد مذهب أهل الحق وما بعده (كلها إرادة سديدة) أى مستقيمة (ونيات محمودة لا يدخل شىء منها) أى من الإرادات المذكورة (فى باب الرياء إذ المقصود منها أمر الآخرة بالحقيقة . واعلم أنى سألت بعض مشايخنا) رحمه الله (عما يعتاده أولياؤنا من قراءة سورة الواقعة فى أيام العسرة) أى فى زمان الشدة (أليس المراد بذلك) أى بقراءتها (أن يدفع الله تلك الشدة عنهم) أى عن أوليائنا (و) أن (يوسع عليهم شيئا من الدنيا على ما جرت به العادة فكيف تصح إرادة متاع الدنيا بعمل الآخرة ؟ فقال) بعض مشايخنا (فى جوابه رحمه الله كلاما معناه أن المراد منهم) أى من الأولياء الذين يقرءون سورة الواقعة حالة الشدة (أن يرزقهم الله قناعة أو قوتا يكون) ذلك القوت (لهم عدة على عبادة الله وقوة على درس العلم ، وهـذه) الإرادة (من جملة إرادات الخير دون) جملة إرادات (الدنيا . واعـلم أن هذه السيرة) بكسر

أَعْنِي قِرَاءَةَ هٰذِهِ السُّورَةِ عِنْدَ الشِّدَّةِ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَالْخَصَاصَةِ ، إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ الْمَأْثُورَةُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَعَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، حَتَّى أَنَّ أَبِي مَسْعُودٍ حِينَ عُوتِبَ فِي أَمْرِ وَلَدِهِ ، إِذْ لَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا ، قَالَ لَقَدْ خَلَّفْتُ لَهُمْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ ، وَمِنْ ذٰلِكَ الْأَصْلِ فِي السَّنَةِ جَرَتْ هٰذِهِ الْخَصْلَةُ فِي سِيَرِ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ ، وَإِلَّا فَلَا مُبَالَاةَ لَهُمْ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى بِشِدَّةٍ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا أَوْ سَعَةٍ ، وَهُمْ

السين وسكون الياء : أى الطريقة والحالة (أعنى قراءة هذه السورة) أى سورة الواقعة (عند الشدة) والعسرة (فى أمر الرزق والخصاصة) أى الحاجة (إنما هو) أى المذكور من السيرة (شىء وردت به الأخبار المأثورة) أى المنقولة (عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين) منها ما رواه البغوى بسنده عن أبى ظبية عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » وكان أبو ظبية لا يدعها أبدا ، وأخرجه ابن الأثير فى كتابه جامع الأصول ولم يعزه (حتى إن) عبد الله (بن مسعود) الصحابى ، روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثا اتفق البخارى ومسلم منها على أربعة وستين وانفرد البخارى بأحد وعشرين ومسلم بخمسة وثلاثين (حين عوتب فى أمر ولده إذ لم يترك لهم) أى الأولاد (من الدنيا شيئا قال) ابن مسعود (لقد خلفت) أى تركت (لهم سورة الواقعة) وذكر أبو عمر بن عبد البر فى التمهيد والتعليق والثعلبى أيضا أن عثمان بن عفان دخل على ابن مسعود يعوده فى مرضه الذى مات منه فقال ما تشتكي ؟ قال ذنوبى . قال فما تشتهى ؟ قال رحمة ربى . قال أفلا ندعو لك طبيبا ؟ قال الطبيب أمرضنى . قال أفلا نأمر لك بعطائك ؟ قال لا حاجة لى فيه ، حبسته عنى فى حياتى وتدفعه لى عند مماتى . قال يكون لبناتك من بعدك . قال : أتخشى على بناتى الفاقة من بعدى إنى أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة فانى سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » . قال العلامة عبد الحق : وكان لابن مسعود ثلاثة بنين وهم عبد الرحمن وبه كان يكنى وعتبة وأبو عبيدة ، واسم أبى عبيدة عامر ، وقيل اسمه كنيته واتفقوا على أن أبا عبيدة لم يسمع أباه ورواياته عنه كثيرة وكلها منقطعة ، وأما عبد الرحمن فقال على بن المدينى والأكثرون سمع أباه ، وقال أحمد بن حنبل توفى ابن مسعود ولابنه عبد الرحمن ست سنين ، وقال يحي بن معين : لم يسمع أباه (ومن ذلك الأصل) من الأخبار (فى السنة) أى القحط (جرت هذه الخصلة) وهى قراءة سورة الواقعة عند العسرة (فى سير علمائنا) أي طريقتهم فالسير بكسر السين وفتح الياء جمع سيرة بسكون الياء بمعنى الطريقة والحالة والهيئة (رحمهم الله وإلا) يكن الأصل فى السنة (فلا مبالاة لهم بحمد الله بشدة) أى بعسرة (فى أمر الدنيا أو سعة ، وهم) أى علماؤنا

الذينَ يَغْتَنِمُونَ ضِيقَ الدُّنْيا وَعُسْرَهَا ، وَيَتَغَالَونَ فى ذٰلِكَ فِيما بَيْنَهُمْ ، وَيَعُدُّونَهُ مِنَ اللهِ تَعالى مِنَّةً عَظِيمَةً ، وَيَخافُونَ إِذَا بَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ سَعَةٌ مِنَ الدُّنْيَا الَّتِى لا يَعُدُّهَا أَكْثَرُ النَّاسِ إلاَّ الْإِحْسَانَ وَالنِّعْمَةَ ، أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ اُسْتِدْرَاجًا مِنَ اللهِ تَعَالى وَمُصِيبَةً ؛ كَيْفَ وَبِطَانَتُهُمُ الْأَسْفَارُ وَالطَّىُّ فى عُمُومِ الْأَحْوَالِ ، وَمُقَدَّمُوهُمْ يَقُولُونَ : الْجُوعُ رَأْسُ مَالِنَا ، فَهٰذَا وَضْعُ مَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَهُوَ مَذْهَبِى وَمَذْهَبُ أَشْيَاخِى ، وَبِذٰلِكَ جَرَتْ سِيرَةُ سَلَفِنَا . وَأَمَّا تَقْصِيرُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ فَلاَ يُعْتَبَرُ بِهِ . وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هٰذَا الْفَصْلَ لِئَلاَّ يَغْمِزَ فِيهِمْ مُخَالِفٌ جَهْلاً مِنْهُ بِمَقَاصِدِ الْقَوْمِ ،

(الذين يغتنمون ضيق الدنيا وعسرها ويتغالون) أى يشددون حتى يتجاوزوا الحد (فى ذلك) أى ضيق الدنيا وعسرها (فيما بينهم ويعدونه) أى الضيق والعسر (من الله تعالى منة عظيمة ويخافون) أى هؤلاء السلف (إذا بدا) أى ظهر (لهم من الله : سعة من الدنيا التى لا يعدّها أكثر الناس إلا الإحسان والنعمة أن يكون ذلك) أى بدو السعة من الدنيا وظهورها (استدراجا) هو ترك المعاجلة ، وأصله النقل من حال إلى حال . قال تعالى «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» أى سنأخذهم بعظمتنا على التدريج لا على غرة فى عذاب لا شك فيه : قال الحسن البصرى : كم مستدرج بالإحسان إليه وكم مفتون بالثناء عليه وكم مغرور بالستر عليه (من الله تعالى ومصيبة كيف وبطانتهم) أى محبوبهم (الأسفار والطىّ) أى الجوع (فى عموم الأحوال ، ومقدموهم يقولون الجوع رأس مالنا ، فهذا) الذى ذكرناه (وضع) أى أصل (مذهب أهل التصوف وهو مذهبى ومذهب أشياخى ، وبذلك) المذهب (جرت سيرة سلفنا) قال المحاسبي: ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته من الله تعالى وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شىء أصبح كئيبا حزينا وإذا لم يكن عندهم شىء أصبح فرحا مسرورا فقيل له إن الناس إذا لم يكن عندهم شىء حزنوا وإذا كان عندهم شىء فرحوا وأنت لست كذلك . قال إنى إذا أصبحت وليس عند عيالى شىء فرحت إذ كان لى برسول الله ﷺ أسوة وإذا كان عند عيالى شىء اغتممت إذ لم يكن لى بآل محمد أسوة وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا: الآن تعاهدنا ربنا : أى نظر إلينا بالرضى فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا (وأما تقصير بعض المتأخرين فلا يعتبر به ، وإنما ذكرنا هذا الفصل لئلا يغمز) أي يعيب (فيهم) أى فى هؤلاء السلف (مخالف جهلا منه) أى من المخالف (بمقاصد القوم

فى أُمُورِهِمْ أَوْ يَغْلَطُ فِيهِمْ مُبْتَدِئٌ سَلِيمُ الصَّدْرِ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْعِلْمِ حَقَّهُ .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَلِيقُ هٰذَا بِحَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّجَرُّدِ وَالزُّهْدِ وَأَرْبَابِ الصَّبْرِ وَالرِّيَاضَةِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا الشَّىْءَ مَأْخُوذٌ مِنَ السُّنَّةِ ثُمَّ الْمَقْصُودُ حُصُولُ الْقَنَاعَةِ وَالْعُدَّةِ لَا اتِّبَاعُ الشَّرَهِ وَالشَّهْوَةِ وَالضَّعْفِ عَنِ احْتِمَالِ الْعُسْرَةِ وَالشِّدَّةِ، وَأَكْثَرُ مَاتَرَى فِى عَقِبِ ذٰلِكَ قَنَاعَةُ الْقَلْبِ وَفَقْدُ كَلَبِ الْجُوعِ وَضَعْفُهُ وَسُلُوُّهُ عَنِ الطَّعَامِ وَنَهْمَتِهِ ، وَقَدْ عَلِمَ ذٰلِكَ مَنِ امْتَحَنَهُ فَاعْلَمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

الْقَادِحُ الثَّانِى الْعُجْبُ

فى أمورهم ، أو) لئلا (يغلط فيهم مبتدىء سليم الصدر لم يأخذ من العلم حقه . فان قيل كيف يليق هذا) أى جريان الخصلة المذكورة وهى قراءة سورة الواقعة فى أيام العسرة والشدة (بحال أهل العلم والتجرد) للعبادة (والزهد وأرباب) أى أصحاب (الصبر والرياضة فاعلم أن هذا) أى المذكور من القراءة فى الأوقات المذكورة (شىء مأخوذ من السنة) أى الطريقة النبوية (ثم المقصود) من القراءة (حصول القناعة والعدة) على عبادة الله والقوة على درس العلم (لا اتباع الشره) أى غلبة الحرص كما فى المختار (والشهوة والضعف عن احتمال العسرة والشدة وأكثر ما ترى فى عقب ذلك) أى قراءة سورة الواقعة (قناعة القلب وفقد كلب الجوع وضعفه وسلوه) أى إبعاده وصبره (عن الطعام و) فقد (نهمته) أي حرصه (وقد علم ذلك) المذكور من القناعة وما بعدها (من امتحنه) وجربه (فاعلم هذه الجملة) التى ذكرناها (موفقا إن شاء الله تعالى . القادح الثانى العجب) بطاعة الله سبحانه وتعالى من صلاة وغيرها ، وهو شهود العبادة صادرة من النفس حال كون المطيع غائبا عن المنة التى منّ الله تعالى عليه بها حتى تقوى لها فاعتقد كمال نفسه وفرح بذلك الكمال ونسى الكبير المتعال وماخاف عليها من الزوال ، وفى الزواجر أنه استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى الله تعالى فان انضم لذلك توقعه جزاء عليها لاعتقاده أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان سمى مدلا ، فالإدلال أخص من العجب وأنه من الكبائر المهلكات كما صرح به القرطبى وغيره لقوله عليه الصلاة والسلام « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب وان العجب يحبط عمل سبعين سنة ولو كان العجب رجلا لكان رجل سوء » وبينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه مرجل : أى ممشط رأسه مختال فى مشيه إذ خسف الله به فهو يتجلجل : أى يغوص فى الأرض إلى يوم القيامة . وقد ذمه الله سبحانه وتعالى بقوله « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم » وبقوله « أنهم يحسنون صنعا » فقد يعجب الانسان بعمله وهو مصيب فيه أو مخطىء . وعن ابن عباس « الهلاك فى اثنتين : القنوط والعجب » أى لأن القانط آيس من نفع الأعمال ومن لازمه تركها ،

وَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ اجْتِنَابُهُ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَحْجُبُ عَنِ التَّوْفِيقِ وَالتَّأْيِيدِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ الْمُعْجِبَ مَخْذُولٌ ، فَإِذَا انْقَطَعَ عَنِ الْعَبْدِ التَّأْيِيدُ وَالتَّوْفِيقُ مِنَ اللهِ تَعَالَى فَمَا أَسْرَعَ مَا يَهْلِكُ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم : « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ ،

والمعجب يرى أنه ظفر بمراده فلا يحتاج إليها ، ولذا قال تعالى « فلا تزكوا أنفسكم » ومن تزكيتها اعتقاد أنها بارة وهو معنى العجب ، وعن مطرف رحمه الله : لأن أبيت نائما وأصبح نادما ، أحب إلى من أن أبيت قائما وأصبح معجبا .

واعلم أن له آفات كثيرة كتولد الكبر منه فآفات الكبر آفات له ، وكظنه أنه لا يؤاخذ بالذنوب فلا يتدارك فرطتها واستعظام عبادته ، ومنه على الله بها فيعمى عن تفقد آفاتها فيضيع سعيه أو أكثره إذ العمل ما لم يتنق لا ينفع ، وإنما يحمل على تنقيته منها الخوف ، والمعجب غرته نفسه وأعجب برأيه وعقله وعمله حتى استبد بذلك ولم تطمئن نفسه أن يرجع لغيره فى علم أو عمل فلا يسمع نصحا ولا وعظاً لنظره غيره بعين الاحتقار فعلم أنه إنما يكون بوصف كمال فى حد ذاته لكن مادام صاحبه خائفا من سلبه فهو غير معجب به ، وكذا لو فرح به من حيث إنه نعمة من الله بخلافه من حيث إنه كمال متصف به مع قطعه النظر عن نسبته إلى الله فإنه العجب .

واعلم أن الفرق بينه وبين الكبر : إما باطن وهو خلق فى النفس ، واسم الكبر بذا أحق ، وإما ظاهر وهو أعمال تصدر من الجوارح ، وهى ثمرات ذلك الخلق وعند ظهورها يقال تكبر وعند عدمها يقال فى نفسه كبر ، فالأصل هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فهو يستدعى متكبرا عليه ومتكبرا به ، والعجب لا يستدعى غير المعجب به حتى لو فرض انفراده دائما أمكن أن يقع منه، ومجرد استعظام الشيء لا يقتضى التكبر إلا إن كان ثم من يرى أنه فوقه (وإنما يلزمك اجتنابه) أى العجب (لأمرين : أحدهما أنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى فإن المعجب) بنفسه أو برأيه (مخذول فإذا انقطع عن العبد التأييد والتوفيق من الله تعالى فما أسرع) صيغة تعجب (ما يهلك ، ولذلك) أى لأجل سرعة الهلاك عند انقطاع ما ذكر (قال النبى صلى الله عليه وسلم) فيما رواه أبو بكر البزار فى مسنده وأبو نعيم فى الحلية من رواية زائدة بن أبى الرقاد عن زياد النميرى عن أنس بن مالك رفعه : ثلاث كفارات وثلاث درجات وثلاث منجيات (وثلاث مهلكات) أى موقعات فى الهلاك لفاعلها ، أما المكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة وإسباغ الوضوء فى البردات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات . وأما الدرجات فإطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام . وأما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضى والقصد فى الفقر والغنى وخشية الله فى السر والعلانية . وأما المهلكات ف(شح مطاع) أى بخل يطيعه الانسان فلا يؤدى ما عليه من حق الحق وحق الخلق . قال الراغب : خص المطاع لينبه أن الشح فى النفس ليس

وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ» وَالثَّانِي أَنَّهُ يُفْسِدُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ كَمْ مِنْ سِرَاجٍ قَدْ أَطْفَأَتْهُ الرِّيحُ، وَكَمْ مِنْ عَابِدٍ قَدْ أَفْسَدَهُ الْعُجْبُ. وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ وَالْفَائِدَةُ الْعِبَادَةَ، وَهَذِهِ الْخَصْلَةُ تَحْرِمُ الْعَبْدَ حَتَّى لَا يَحْصُلَ لَهُ خَيْرٌ فَإِنْ حَصَلَ لَهُ خَيْرٌ فَقَلِيلٌ مِنْ ذَلِكَ يُفْسِدُهُ، حَتَّى لَا يَبْقَى

مما يستحق به ذم إذ ليس هو من فعله وإنما يذم بالانقياد له (وهوى) بالقصر (متبع) بأن يتبع ما يأمره به هواه (وإعجاب المرء بنفسه) أى ملاحظته إياها بعين الكمال مع نسيان نعمة ذي الجلال والجمال . قال العلامة الزبيدى : وقد أخرج هذا الحديث بتلك الزيادة أيضا أبو الشيخ فى التوبيخ وقد روى مقتصرا على ذكر المهلكات كما هو للمصنف رحمه الله من رواية أيوب بن عتبة عن الفضل بن بكر عن قتادة عن أنس وهكذا رواه البيهقى فى شعب الإيمان وكلا الإسنادين ضعيف ، ورواه ابن حبان فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط من رواية حميد بن الحكم عن الحسن عن أنس ؛ ويروى أيضا عن ابن عمر أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية ابن لهيعة عن عطاء ابن دينار عن سعيد بن جبير عنه . وأخرج ابن حبان فى الضعفاء من رواية محمد بن عون الخراسانى عن محمد بن زيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه « المهلكات ثلاث : إعجاب المرء بنفسه وشح مطاع ، وهوى متبع » ورواه ابن عدى من هذا الوجه ، ومن رواية عيسى بن ميمون عن محمد بن كعب عن ابن عباس ، وفى الباب عن أبى هريرة وابن أبى أوفى وأبي ثعلبة (والثانى) من الأمرين (أنه) أى العجب (يفسد العمل الصالح ؛ ولذلك) أى لأجل أن العجب يفسد العمل الصالح (قال المسيح) عيسى ابن مريم (عليه الصلاة والسلام : يا معشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته) أى سكنته وأخمدته (الريح) وهى الهواء المسخر بين السماء والأرض ، وأصلها الواو بدليل تصغيرها على رويحة لكن قلبت ياء لانكسار ما قبلها ، والجمع أرواح ورياح ، وبعضهم يقول : أرياح بالياء على لفظ الواحد، وغلطه أبو حاتم ، والريح مؤنثة على الأكثر فيقال هى الريح وقد تذكر على معنى الهواء فيقال هو الريح وهب الريح ، نقله أبو زيد . وقال ابن الأنبارى : الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر ، والريح أربع : الشمال وتأتى من ناحية الشام وهى حارة فى الصيف بارح ، والجنوب تقابلها وهى الريح اليمانية . والثالثة الصبا وتأتى من مطلع الشمس وهى القبول . والرابع الدبور وتأتى من ناحية المغرب (وكم من عابد قد أفسده العجب) بعبادته (وإذا كان المقصود والفائدة) هي (العبادة) الخالصة (وهذه الخصلة) أى العجب (تحرم العبد) أى تمنعه عن التأييد والتوفيق (حتى لا يحصل له) أى للعبد (خير فإن حصل له خير فقليل من ذلك) العجب (يفسده) أى الخير (حتى لا يبقى

بِيَدِهِ شيءٌ فَحَقِيقٌ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَيَتَحَفَّظَ ، وَاللّٰهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا حَقِيقَةُ الْعُجْبِ وَمَا مَعْنَاهُ وَمَا تَأْثِيرُهُ وَمَا حُكْمُهُ فَبَيِّنْ لَنَا ذٰلِكَ ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ حَقِيقَةَ الْعُجْبِ اسْتِعْظَامُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَتَفْصِيلُهُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللّٰهُ ذِكْرُ الْعَبْدِ حُصُولَ شَرَفِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ بِشَيْءٍ دُونَ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوِ النَّاسِ أَوِ النَّفْسِ قَالُوا : وَقَدْ يَكُونُ الْعُجْبُ مُثَلَّثاً بِأَنْ يَذْكُرَ ذٰلِكَ مِنْ هٰذِهِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعاً النَّفْسُ وَالْخَلْقُ وَالشَّيْءُ ، وَمُثَنًّى بِأَنْ يَذْكُرَهُ مِنِ اثْنَيْنِ ، وَمُوَحَّداً بِأَنْ يَذْكُرَهُ مِنْ وَاحِدٍ . وَضِدُّ الْعُجْبِ ذِكْرُ الْمِنَّةِ ، وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ أَنَّهُ

يده) أى العبد (شىء فحقيق أن) أى بأن (يحذر من ذلك) العجب (ويتحفظ ، والله تعالى ولى التوفيق والعصمة . فإن قيل : فما حقيقة العجب ، وما معناه وما تأثيره) ؟ فى العمل (وحكمه فبين لنا ذلك) المذكور من حقيقة العجب ومعناه وتأثيره وحكمه (فاعلم) هداك الله تعالى (أن حقيقة العجب استعظام العمل الصالح) والركون إليه مع نسيان إضافته إلى الله تعالى ، فإن انضاف إلى ذلك توقع الجزاء بعمله لاعتقاده أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان رفيع ، سمى هذا إدلالا بالعمل كما تقدم فكأنه يرى لنفسه على الله دالة . وقال قتادة بن دعامة رحمه الله فى قوله تعالى « ولا تمنن تستكثر » أى ولا تدل بعملك ؛ وروى عبد بن حميد عن ابن عباس قال : معناه أن تستكثر عملك . وعن مجاهد قال : لا تعظم عملك فى عينك أن تستكثر الخير ، ورواه كذلك ابن المنذر ، وفى الخبر : «إن صلاة المدل لاترفع فوق رأسه ، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك » والإدلال وراء العجب فلا مدل إلا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ؛ والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء ، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ، ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه فإنه إذا وجد ذلك ترشح منه وصف الكبر (وتفصيله) أى العجب (عند علمائنا رحمهم الله : ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشىء دون الله) أى غيره (عز وجل أو الناس أو النفس ؛ قالوا) رحمهم الله (وقد يكون العجب مثلثا بأن يذكر) العبد (ذلك) أى حصول الشرف (من هذه الثلاثة جميعا) وهى (النفس والخلق والشىء و) قد يكون العجب (مثنى بأن يذكره) أى يذكر العبد حصول ذلك الشرف (من اثنين) من الثلاثة (و) قد يكون (موحدا بأن يذكره من واحد) منها (وضد العجب ذكر المنة ، وهو) أى ذكر المنة (أن يذكر) العبد (أنه) أى حصول شرف العمل

بِتَوْفِيقِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَأَنَّهُ الَّذِي شَرَّفَهُ وَعَظَّمَ ثَوَابَهُ وَقَدْرَهُ ، وَهٰذَا الذِّكْرُ فَرْضٌ عِنْدَ دَوَاعِي الْعُجْبِ نَفْلٌ فِى سَائِرِ الْأَوْقَاتِ .

(بتوفيق الله سبحانه وأنه) تعالى هو (الذى شرفه) أى العمل (وعظم) سبحانه (ثوابه وقدره وهذا الذكر) أى ذكر المنة (فرض عند دواعى العجب) أى أسبابه (نفل فى سائر الأوقات).

واعلم أن كل علة علاجها إنما يكون بضدها ، وعلة العجب الجهل المحض وشفاؤها المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط ؛ وهو النظر إلى ما لا ينكره أحد ، وهو أنه تعالى هو المقدر لك على نحو العلم والعمل والمنعم عليك بالتوفيق لحيازته ويجعلك ذا نسب أو مال أو جاه . وكيف يعجب الشخص بما ليس إليه ولا منه وكونه محلا له لا يجديه شيئا لأن المحل لا مدخل له فى الإيجاد والتحصيل ، وكونه سببا فيه نزول ملاحظته له إذا تأمل أن الأسباب لا تأثير لها وإنما التأثير لموجدها ، فينبغى أن لا يكون إعجابه إلا بما أسداه إليه الحق وأجراه عليه وآثره به دون غيره من مزايا جوده وكرمه مع عدم سابقة استحقاق منه لذلك . فان قال لولا ما علم فيّ من صفات محمودة ما آثرنى بذلك ، قيل له. وتلك الصفات أيضا من خلقه . قال السمرقندى : ومن أراد أن يكسر العجب فعليه بأن يرى التوفيق من الله تعالى فيشتغل حينئذ بالشكر ولا يعجب بنفسه ، وأن ينظر لنعمائه عليه فيشتغل بالشكر عليها ويستقل عمله فلا يعجب به ، وأن يخاف عدم قبوله فيشتغل به ولا يعجب بنفسه ،وأن ينظر فى ذنوبه ويخاف أن ترجح سيئاته بحسناته . وكيف يعجب المرء بعمله ولا يدرى ما يخرج من كتابه يوم القيامة . قال ابن حجر فى الزواجر : وكيف يسوغ لمن انطوى عنه علم خاتمته أن يعجب بأي نوع من أنواعه ، فلا أعبد من إبليس وبلعام ولا أقرب ولا أشفق من أبى طالب على نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولاأشرف من الجنة ومكة ، وقد علمت ماوقع لأولئك من خاتمة السوء والعياذ بالله تعالى وماوقع لآدم فى الجنة ولكفار مكة فيها ، فاحذر العجب والغرور بنسب أو علم أو محل أوغير ذلك .

هذا كله إن كنت تعجب بحق فكيف وكثيرا ما يقع بباطل ، قال تعالى « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » الآية، وقدأخبر صلى الله عليه وسلم «إن هذا يغلب على آخر هذه الأمة» إذ جميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم الفاسدة وبذلك هلكت الأمم السابقة لما افترقوا فرقا وأعجب كل برأيه «كل حزب بما لديهم فرحون ـ فذرهم فى غمرتهم حين أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون » أى أن ذلك كان مقتا واستدراجا « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » قال فى روح البيان فى سورة الحج: وفى الخبر «إن الله تعالى قال للنبى صلى الله عليه وسلم «قل للقوى لاتعجبنك قوتك فان أعجبتك قوتك فادفع الموت عن نفسك وقل للعالم لا يعجبنك علمك فأخبرنى متى أجلك؟ وقل للغنى لا يعجبنك مالك وغناك فان أعجبك فأطعم خلقى غداء واحدا » فالإنسان عاجز والله على كل شيء قدير ومنه النعمة إلى الصغير والكبير

وَأَمَّا تَأْثِيرُ الْعُجْبِ فِى الْعَمَلِ ، قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : الْمُعْجَبُ يَنْتَظِرُ الْإِحْبَاطَ فَإِنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ سَلِمَ وَإِلَّا أُحْبِطَ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُحَمَّدُ بْنُ صَابِرٍ مِنْ شُيُوخِ الْكَرَّامِيَّةِ ، وَالْإِحْبَاطُ عِنْدَهُ أَنْ يَذْهَبَ عَنِ الْعَمَلِ جَمِيعُ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَةِ حَتَّى لَا يَسْتَحِقَّ بِذَلِكَ ثَوَابًا وَلَا مِدْحَةً أَلْبَتَّةَ ، وَفِى قَوْلِ غَيْرِهِ : هُوَ ذَهَابُ الْإِضْعَافِ لَا غَيْرُ .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ يَلْتَبِسُ عَلَى الْعَبْدِ الْعَارِفِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِى وَفَّقَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَعَظَّمَ قَدْرَهُ وَأَكْثَرَ ثَوَابَهُ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا نُكْتَةً لَطِيفَةً وَذَخِيرَةً شَرِيفَةً ، وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ فِى الْعُجْبِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ هُمُ الْمُعْجَبُونَ بِكُلِّ حَالٍ ، وَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْقَدَرِيَّةُ ،

تأثير العجب فى العمل) فقد (قال بعض علمائنا : المعجب) بعمله (ينتظر الإحباط ، فان تاب قبل موته) أى المعجب (سلم) من الإحباط (وإلا) أى وإن لم يتب قبل موته بأن مات مصرا على ذلك الإعجاب (أحبط) عمله (واليه) أى إلى هذا القول (ذهب محمد بن صابر من شيوخ الكرامية ، والإحباط عنده) أى عند ابن صابر (أن يذهب عن العمل جميع الأسماء الحسنة حتى لا يستحق) العبد (بذلك) العمل الذى أحبط (ثوابا ولا مدحة) بكسر الميم (ألبتة) أى قطعا (وفى قول غيره) أى ابن صابر من الأئمة (هو) أى الاحباط (ذهاب الإضعاف لا غير) ذلك (فان قلت كيف يلتبس) أى يشتبه ويختلط (على العبد العارف) بربه جل وعز (أن الله تعالى هو الذى وفق للعمل الصالح وعظم قدره وأكثر ثوابه) أى ذلك العمل (بفضله) تعالى (ومنه) وكرمه (فاعلم أن ههنا) أى فى مسئلة العجب (نكتة لطيفة وذخيرة شريفة ، وهو) أى ما ذكر من النكتة اللطيفة (أن الناس فى العجب ثلاثة أصناف : صنف هم المعجبون بكل حال وهم المعتزلة) قال السعد التفتازانى : المعتزلة أول فرقة أسسوا قواعد الخلاف لما ورد به ظواهر السنة ، وجرى عليه جماعة الصحابة فى باب العقائد . وذلك أن رئيسهم واصل بن عطاء اعتزل عن مجلس الحسن البصرى يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت المنزلة بين المنزلتين . قال الحسن البصرى : قد اعتزل عنا فسموا المعتزلة وهم سموا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب إثابة المطيع وعقاب العاصى على الله تعالى ونفى الصفات القديمة عنه إلى آخر ما أطال به (والقدرية) قال العلامة عبد الحق : هم قوم جاحدو القدر ويقولون إن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصى . وقال بعضهم : هى لقب المعتزلة ففى المواقف للعضد ويلقبون : أى المعتزلة بالقدرية لاسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم ، قالوا إن من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى أولى باسم القدرية منا . قال الإمام : هذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهتة وتواقع فان أهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى ويضيفون القدرة والأفعال إلى الله

الذينَ لا يَرَوْنَ للهِ عَلَيْهِمْ مِنةً فى أَفْعَالِهِمْ ، وَيُنْكِرُونَ الْعَوْنَ وَالتَّوْفيقَ الخَاصَّ وَاللُّطْفَ وَذٰلِكَ لِشُبْهَةٍ اُسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ . وَصِنفٌ هُمُ الذَّاكِرُونَ للهِ المِنَّةَ بِكُلِّ حَالٍ ، وَهُمُ الْمُسْتَقِيمُونَ لاَ يَعْجَبونَ بِشَىْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَذٰلِكَ لبَصِيرَةٍ أُكْرِمُوا بِهَا وَتَأْيِيدٍ خُصُّوا بِهِ . وَالثَّالِثُ وَهُمُ الْمُخْلِطُونَ ، وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، تَارَةً يَنْتَبِهُونَ فَيذْكُرُونَ مِنَّةَ اللهِ ، وَتَارَةً يَغْفُلونَ فَيَعْجَبُونَ بِذٰلِكَ لِمَكَانِ الْغَفْلَةِ العَارِضَةِ وَالْفَتْرَةِ فى الِاجْتِهَادِ ، وَالنَّقْصِ فى الْبَصِيرَةِ .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ حَالُ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ فِى أَفْعَالِهِمْ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ فى ذٰلِكَ اُخْتِلَافَاتٍ

تعالى وهؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم ومدعى الشيء لنفسه ومضيفه اليها أولى بأن ينسب اليه ممن يعتقده لغيره وينفيه عن نفسه ، وفى الحديث «القدرية مجوس هذه الأمة» ، رواه أبو داود والحاكم وصححه على شرط الشيخين شبهم لتقسيمهم الخير والشر فى حكم الإرادة كما قسمت المجوس فصرفت الخير إلى يزدان والشر إلى أهرمن ، ولا خفاء فى اختصاص هذا الحديث بالقدرية هذا كلام الإمام وهناك أوجه أخر فى وجه التشبيه (الذين لا يرون) أي لايعتقدون (لله عليهم منة فى أفعالهم وينكرون العون والتوفيق الخاص واللطف وذلك) أى عدم اعتقادهم وإنكارهم ماذكر (لشبهة استولت) أى غلبت (عليهم) ومن جملة شبهاتهم قولهم : إن الخير من الله والشر من العبد مستدلين بقوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » والجواب عنه أن التقدير من فعل نفسك لئلا يضيف الشر إلى الله عند الانفراد مراعاة للأدب وإن كان ذلك بتخليق الله وتسميته شرا بالنسبة إلى تعلقه بنا وضرره لنا لا بالنسبة إلى صدوره منه سبحانه ، وهذا أحد معانى حديث « والشر ليس إليك » وذلك لأن الاضافة على نوعين إضافة تحقيق وإضافة إكرام . فأما إضافة التحقيق فمثل قوله تعالى « ولله ملك السموات والأرض » وأما إضافة الاكرام فمثل قوله تعالى « ناقة الله ــ ورسول الله » ثم الطاعة مكرمة مرضية فجاز أن تضاف إلى الله عند الانفراد فيقال الخير من الله والمعصية ليست بمحل الإكرام حتى تضاف إلى الله عند الانفراد بل عند الجملة كما قال « قل كل من عند الله » فانه لا يقال يا خالق الخنزير والعقارب والحيات مراعاة للأدب ، بل يقال يا خالق كل شىء كذا أفاده بعض المحققين (وصنف هم الذاكرون لله المنة بكل حال وهم المستقيمون) على عبادة ربهم (لا يعجبون بشىء من الأعمال ، وذلك) أى ذكرهم المنة لله واستقامتهم على العبادة (لبصيرة) أى علم وخبرة فى قلوبهم (أكرموا بها وتأييد) وتوفيق (خصوا به) أى بالتأييد (والثالث وهم المخلطون) أعمالهم (وهم عامة أهل السنة) والجماعة : أى أكثرهم (تارة ينتبهون فيذكرون منة الله وتارة يغفلون فيعجبون بذلك) أى بأعمالهم (لمكان) أى لأجل (الغفلة العارضة والفترة فى الاجتهاد والنقص فى البصيرة . فإن قلت : كيف حال القدرية والمعتزلة فى أفعالهم فاعلم أن فى ذلك) أى فى أعمالهم (اختلافات .

فَقِيلَ إِنَّهُ مُحْبِطٌ لِمَكَانِ اعْتِقَادِهِمْ .

وَقِيلَ : لاَ يَحْبَطُ عَمَلٌ بِاعْتِقَادٍ فِى الْجُمْلَةِ مِنْ فِرَقِ الْإِسْلاَمِ حَتَّى يَخُصَّ كُلَّ عَمَلٍ بِإِعْجَابٍ كَمَا أَنَّ اعْتِقَادَ أَهْلِ السُّنَّةِ لاَ يَمْنَعُ الْعُجْبَ فِى كُلِّ عَمَلٍ حَتَّى يَخُصَّهُ بِذِكْرِ الْمِنَّةِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَهَلْ سِوَى الْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ مِنْ قَادِحٍ فِى الْعَمَلِ ؟ قِيلَ لَهُ أَجَلْ : إِنَّ فِيهِ الْقَوَادِحَ سِوَاهُمَا لَكِنَّا خَصَّصْنَاهُمَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا الْأَصْلُ الذِى يَدُورُ عَلَيْهِمَا مُعْظَمُ الْأَبْوَابِ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ إِنَّ حَقَّ الْعَبْدِ أَنْ يَتَحَفَّظَ فِى الْعَمَلِ مِنْ عَشَرَةِ أَشْيَاءَ : النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ وَالتَّخْلِيطِ وَالْمَنِّ

فقيل إنه) أى عملهم (محبط لمكان اعتقادهم) أى القدرية والمعتزلة (وقيل لا يحبط عمل باعتقاد فى الجملة من فرق الاسلام حتى يخص كل عمل بإعجاب كما أن اعتقاد أهل السنة) قال الفاضل العدوى فى حاشيته على الشيخ عبدالسلام : وأهل السنة من اتصف بمزاولتها : أى السنة والعمل بمقتضاها من أشاعرة وماتريدية وهى أقواله صلى الله عليه وسلم وتقريراته وغير ذلك ، وإنما لم يسموا بأهل الكتاب لما فيه من الإبهام إذ أهل الكتاب المراد بهم اليهود والنصارى (لا يمنع العجب فى كل عمل حتى يخصه بذكر المنة) لله عز وجل (فان قيل فهل سوى العجب والرياء) أى غيرهما (من قادح فى العمل) أم لا يكون غير ذلك (قيل له) أى للقائل المذكور (أجل) حرف جواب مثل نعم (إن فيه) أى العمل (القوادح سواهما) أى العجب والرياء (لكنا خصصناهما بالذكر لأنهما الأصل الذى يدور عليهما معظم الأبواب) أى أكثر أبواب القوادح للأعمال (وقد قال بعض المشايخ) رحمه الله (إن حق العبد أن يتحفظ فى العمل من عشرة أشياء) : أحدها (النفاق) وهو التقرب إلى غير الله سبحانه ، وذلك لأنه يحبط العمل ويخرجه عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد الكريم من الله العظيم (و) ثانيها (الرياء) وهو طلب المنزلة فى قلوب الناس بإرائهم خصال الخير ولا يقع غالبا إلا عن غفلة عن الخالق وعماية عنه ، ومطلوبية الحفظ عن هذا الرياء لأنه الشرك الأصغر كما ورد فى الخبر (و) ثالثها (التخليط) أى تخليط العمل بأن يريد به نفع الدنيا ونفع الآخرة ، وهذا يذهب بربع الأضعاف (و) رابعها (المن) وهو أن يمن على غيره بعطائه فيقول قد أعطيتك كذا وكذا فيعدد نعمه عليه والمن فى اللغة الإنعام ، والمنة النعمة الثقيلة ، يقال من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة ويكون ذلك بالقول أيضا ، ومنه قول الشاعر :

فمن علينا بالسلام فإنما ‏ ‏ كلامك ياقوت ودر منظم

ومن المن بالقول ما هو مستقبح بين الناس ، مثل أن يمن على الإنسان بما أعطاه . قال

وَالأَذَى وَالنَّدَامَةِ وَالعُجْبِ وَالحَسْرَةِ وَالتَّهَاوُنِ

عبد الرحمن بن يزيد : كان أبي يقول : إذا أعطيت رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فلا تسلم عليه ، والعرب تمدح بترك المن وكتم النعمة وتذم على إظهارها والمن بها ، قال قائلهم فى المدح بترك المن :

زاد معروفك عندي عظما　　أنه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته　　وهو فى العالم مشهور كبير

وقال قائلهم يذم المنان بالعطاء :

أتيت قليلا ثم أسرعت منة　　فنيلك ممنون لذاك قليل

وإذا عرفت هذا فاعلم أن المن هو إظهار المعروف إلى الناس والمن عليهم به ، وهو مذموم كما علمت . قال الفخر الرازى : وإنما كان المن مذموما لوجوه: الأول أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة غيره معترف باليد العليا للمعطى فاذا أضاف إلى ذلك إظهار ذلك الانعام زاد ذلك فى انكسار قلبه فيكون فى حكم المضرة بعد المنفعة ، وفى حكم المسىء إليه بعد أن أحسن إليه . والثانى إظهار المن يبعدأهل الحاجة عن الرغبة فى صدقته إذا اشتهر من طريقه ذلك والثالث أن المعطى يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله تعالى عليه وأن يعتقد أن لله عليه نعما عظيمة حيث وفقه لهذا العمل، وأن يخاف أنه هل قرن بهذا الانعام مايخرجه عن قبول الله إياه ومتى كان الأمر كذلك امتنع أن يجعله منة على الغير . والرابع وهو السر الأصلى أنه إن علم أن ذلك إعطاء إنما تيسر لأن الله تعالى هيأ له أسباب الاعطاء وأزال أسباب المنع ، ومتى كان الأمر كذلك كان المعطي هو الله فى الحقيقة لا العبد فالعبد إذا كان في هذه الدرجة كان قلبه مستنيرا بنور الله تعالى وإذا لم يكن كذلك بل كان مشغولا بالأسباب الجسمانية الظاهرة ، وكان محروما عن مطالعة الأسباب الربانية فكان فى درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول وعن الآثار إلى المؤثر (و) خامسها (الأذى) وهو ما يصل إلى الانسان من ضرر بقول أو فعل كأن يعيره فيقول كم تسأل وأنت فقير أبدا وقد بليت بك وأراحنى الله منك وأمثال ذلك ، وهو مذموم (و) سادسها (الندامة) وذلك بأن لا يفعل مايندم عليه من الأقوال والأفعال فى العاقبة (و) سابعها (العجب) أى تحسين المرء فعل نفسه على غيره وإن كان قبيحا وهو فتنة العلماء فأعظم بها من فتنة وهو من المهلكات كما ورد فى الخبر الذى تقدم ذكره (و) ثامنها (الحسرة) والندم على فوت الأعمال الصالحة وعدم الإخلاص فى فعلها والمطلوب ضد تلك الحسرة وذلك بأن يغتنم الخيرات فى جميع الأوقات (و) تاسعها (التهاون) بما عظم الله سبحانه من طاعة ، وورد فى الحديث « إن الله أخفى أربعا فى أربع أخفى رضاه فى طاعته فلا تهاون فى شىء منها فلعل فيه رضاه وأخفى غضبه فى معصيته فلا تحقرن شيئا منها فلعل فيه سخطه وأخفي سره فى خلقه فلا تحقرن منهم أحدا فلعل السر فيه وأخفى الموت فى وقته فاستعدله فلعله يأتى فيه » . قال العلامة بابصيل رحمه الله تعالى : فانظر إلى إبليس لما أمر بالسجود كيف أبعده الله من

وَخَوْفِ مَلَامَةِ النَّاسِ ثُمَّ ذَكَرَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ ضِدَّ كُلِّ خَصْلَةٍ مِنْهَا وَإِضْرَارَهَا بِالعَمَلِ فَضِدُّ النِّفَاقِ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ وَضِدُّ الرِّيَاءِ إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ وَضِدُّ التَّخْلِيطِ التَّفْرِيدُ وَضِدُّ الْمَنِّ تَسْلِيمُ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ ، وَضِدُّ الْأَذَى تَحْصِينُ الْعَمَلِ وَضِدُّ النَّدَامَةِ تَثْبِيتُ النَّفْسِ، وَضِدُّ الْعُجْبِ ذِكْرُ الْمِنَّةِ وَضِدُّ الْحَسْرَةِ اغْتِنَامُ الْخَيْرِ وَضِدُّ التَّهَاوُنِ تَعْظِيمُ التَّوْفِيقِ وَضِدُّ خَوْفِ الْمَلَامَةِ الْخَشْيَةُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ النِّفَاقَ يُحْبِطُ الْعَمَلَ وَالرِّيَاءَ يُوجِبُ رَدَّهُ وَالْمَنَّ وَالْأَذَى يُحْبِطَانِ الصَّدَقَةَ أَصْلاً فِى الْوَقْتِ

رحمته لاستصغاره ما عظم الله حيث قال « أأسجد لمن خلقت طينا » وقال « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » وقد قال الله تعالى منوها بتعظيم ما عظمه « ومن يعظم حرمات الله » «ومن يعظم شعائر الله» (و) عاشرها (خوف ملامة الناس) وذمهم في دين الله تعالى، وقد بين الله تعالى فى قوله عز وجل « ولا يخافون لومة لائم » أن من كان قويا فى الدين فإنه لا يخاف فى نصره لدين الله بيده أو بلسانه لومة لائم وهذه صفة المؤمنين المخلصين إيمانهم لله تعالى .روى الشيخان عن عبادة بن الصامت قال « بايعت رسول الله صلي الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » (ثم ذكر شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله ضد كل خصلة منها) أى من تلك العشرة(وإضرارهابالعمل) فقال (فضد النفاق إخلاص العمل وضدالرياء إخلاص طلب الأجر وضد التخليط التفريد) أى إفراد العمل لنفع الآخرة (وضد المن تسليم العمل إلى الله) عز وجل (وضد الأذى تحصين العمل) أى حفظه عما يحبطه (وضد الندامة تثبيت النفس) على الأفعال المحمودة (وضد العجب ذكر المنة) لله تعالى (وضد الحسرة اغتنام الخير وضد التهاون تعظيم التوفيق وضد خوف الملامة الخشية) من الله تعالى (واعلم أن النفاق يحبط العمل والرياء يوجب رده) أى ذلك العمل (والمن والأذى يحبطان الصدقة) أى ثوابها (أصلا فى الوقت) أى فى الحال . قال العلامة بابصيل رحمه الله وإنما كان المن مما يحبط الصدقة ويبطل ثوابها لقوله عز وجل من قائل « ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله » الآية . وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم « إياكم والمن بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر ثم تلا ـ ياأيها الذين آمنوا » فيشترط لنيل الثواب الذى أعده سبحانه وتعالى للمنفقين أن يسلم إنفاقه من المن كما بينه سبحانه وتعالي بقوله « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله » الآية . قال البلقيني : وقد يكون هذا الشرط ـ يعنى عدم المن والأذى معتبر أيضا فيمن ينفق على نفسه

كمن ينفق علي نفسه فى الجهاد مع النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولا يؤذى أحدا من المؤمنين مثل أن يقول لو لم أحضر لما تم هذا الأمر ويقول لغيره أنت ضعيف لامنفعة بك فى الجهاد انتهي ، والأذى فى الآية المراد به التعيير أو الشتم ، وقيل المن ذكر الصدقة والأذى إظهارها وقيل المن أن يتكبر على المتصدق عليه والأذى أن يوبخه بالمسئلة ويقهره . قال مصنفنا الغزالى وعندى أن للمن أصلا فى القلب ويتفرع منه على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إلى الفقير ومنعما عليه وحقه العكس بأن يرى الفقير منعما عليه بقبوله حق الله منه . واعلم أن المن من الكبائر كما فى الزواجر لقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم وقرأها ثلاثا فقيل له خابوا وخسروا من هم ؟ فقال المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » وفى رواية : « المنان لا يعطى شيئا إلا منه » ، وفى الحديث « أربعة لا ينظر الله تعالى إليهم يوم القيامة : عاق ومنان ومدمن خمر ومكذب بقدر ولا يدخل الجنة منان » وفى رواية « ثلاثة لا يحجبون عن النار عاق ومنان ومدمن الخمر » قال فيها وهو ظاهر من هذه الأحاديث للوعيد الشديد المذكور فيها .

﴿ تنبيه ﴾ إنما كان المن من صفاته تعالى العلية ومن صفاتنا المذمومة لأنه منه تعالى إفضال وتذكير بما يجب على الخلق من أداء واجب شكره ، ومنا تعيير وتكدير ، إذ آخذ الصدقة مثلا منكسر القلب لأجل حاجته إلى غيره معترف له باليد العليا ، فإذا أضاف المعطى إلى ذلك إظهار إنعامه تعديدا عليه أو ترفعا أو طلبا لمقابلته عليه بخدمة أو شكر زاد ذلك فى مضرة الآخذ وانكسار قلبه وإلحاق العار به والنقص به وهذه قبائح عظيمة على أن فيه أيضا النظر إلى أن له ملكا وفضلا وغفلة عن أنه تعالى هو الملك الحقيقى وهو الذى يسر الاعطاء وأقدر عليه فوجب النظر إلى جناب الحق والقيام بشكره على ذلك والإعراض عما يؤدى إلى منازعة الحق فى فضله وجوده إذ لا يمن إلا من غفل عن أن الله تعالى هو المعطى والمتفضل ، وعن عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم أنه كان أبوه يقول : إذا أعطيت رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه : أى لكونه يتكلف لك قياما ونحوه لأجل إحسانك إليه فكف سلامك عنه وتقدم هذا ، وسمع ابن سيرين رجلا يقول لآخر أحسنت إليك وفعلت فقال له اسكت فلا خير فى المعروف إذا أحصى ، ومما أنشد للامام الشافعى رحمه الله تعالى :

لا تحملن من الأنا ⁂ م عليك منه
واختر لنفسك حظها ⁂ واصبر فان الصبر جنه
منن الرجال على القلو ⁂ ب أشد من وقع الأسنه

ولبعضهم :

وصاحب سلفت منه إلى يد ⁂ أبطى عليه مكافاتى فعادانى
لما تيقن أن الدهر حاربني ⁂ أبدى الندامة مما كان أولانى
أفسدت بالمن ماقدمت من حسن ⁂ ليس الكريم إذا أعطى بمنان

وَعِنْدَ بَعْضِ المَشَايِخِ رَحِمَهُمُ اللهُ يُبْطِلَانِ أَضْعَافَهَا .

وَأَمَّا النَّدَامَةُ فَإِنَّهَا تُحْبِطُ العَمَلَ فِى قَوْلِهِمْ جَمِيعاً وَالْعُجْبُ يُذْهِبُ أَضْعَافَ الْعَمَلِ وَالْحَسْرَةُ وَالتَّهَاوُنُ وَخَوْفُ المَلَامَةِ تُخَفِّفُ العَمَلَ فَتُذْهِبُ رَزَانَتَهُ .

قُلْتُ : فَالقَبُولُ وَالرَّدُّ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْصِيلِ يَرْجِعَانِ إِلَى ضُرُوبٍ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالِاسْتِخْفَافِ وَالْإِحْبَاطُ إِبْطَالُ مَنَافِعَ تَكُونُ بِالفِعْلِ وَبِسَبَبِهِ . ثُمَّ تَارَةً يَكُونُ بِإِبْطَالِ الثَّوَابِ وَأُخْرَى بِإِبْطَالِ التَّضْعِيفِ وَالثَّوَابُ مَنْفَعَةٌ يَقْتَضِيهَا العَقْلُ بِعَيْنِهِ وَقَرَائِنِهِ وَأَحْوَالِهِ وَالتَّضْعِيفُ زِيَادَةٌ عَلَى هٰذَا وَالرَّزَانَةُ زِيَادَةٌ تَحْصُلُ بِمُقْتَضَى قَرَائِنِ أَحْوَالٍ أُخَرَ كَالْإِحْسَانِ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ ثُمَّ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ثُمَّ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَفِي الشَّيْءِ يَكُونُ رَزَانَةٌ وَلَا يَكُونُ تَضْعِيفٌ فَهٰذَا تَهْذِيبُ مَا تَحَقَّقْتُ فِى هٰذِهِ المَعَانِى فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

(وعند بعض المشايخ رحمهم الله) أن المن والأذى (يبطلان أضعافها) أى الصدقة : أى أضعاف ثوابها (وأما الندامة فانها تحبط العمل فى قولهم) أى المشايخ (جميعا والعجب يذهب أضعاف العمل ، و)أما (الحسرة والتهاون وخوف الملامة) فهذه (تخفف العمل فتذهب) أى هذه الثلاثة (رزانته) أى ثقله (قلت فالقبول والرد عند أهل التحصيل) أى تحصيل العلوم (يرجعان إلى ضروب) أى أنواع (من التعظيم والاستخفاف) فيه لف ونشر مرتب (والإحباط إبطال منافع تكون بالفعل وبسببه) أى الفعل (ثم تارة يكون) الإحباط (بابطال الثواب و) تارة (أخرى بإبطال التضعيف والثواب منفعة يقتضيها) أى يطلبها (الفعل بعينه) أى عين ذلك الفعل (وقرائنه) أى علاماته (وأحواله والتضعيف زيادة علي هذا) الثواب (والرزانة زيادة تحامل بمقتضى قرائن أحوال أخر) وذلك (كالاحسان إلى أحد من أهل الخير) والصلاح . (ثم) الإحسان (إلى الوالدين ثم إلى نبى من الأنبياء) صلوات الله وسلامه عليهم (ففى الشىء يكون رزانة ولا يكون) أى يوجد (تضعيف فهذا) أى الذى ذكرناه (تهذيب) أى تخليص (ماتحققت فى هـذه المعانى فاعلم ذلك) أى ماتحققت فيها من الأقوال (وبالله التوفيق) والعصمة .

﴿ فصل ﴾ فَعَلَيْكَ بِقَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْمَخُوفَةِ ذَاتِ الْمَقَاطِعِ وَالْمَتَالِفِ فِى غَايَةِ التَّحَرُّزِ فَإِنَّ صَاحِبَ بِضَاعَةِ الطَّاعَاتِ قَدْ قَطَعَ كُلَّ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ وَتَحَمَّلَ تِلْكَ الْمَشَقَّاتِ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ بِضَاعَةٌ مِنَ الْعِبَادَةِ عَزِيزَةٌ شَرِيفَةٌ فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ عَلَى بِضَاعَتِهِ تِلْكَ إِلَّا فِى هٰذِهِ الْعَقَبَةِ فَإِنَّ فِيهَا مَقَاطِعَ يَحْذَرُ أَنْ تُسْلَبَ فِيهَا بِضَاعَتُهُ وَمَتَالِفَ يَحْذَرُ أَنْ يَبْدُوَ مِنْهَا آفَاتٌ تُفْسِدُ عَلَيْهِ طَاعَتَهُ ثُمَّ أَعْظَمُهَا خَطَرًا وَأَعَمُّهَا وُقُوعًا هٰذَانِ الْقَاطِعَانِ اللَّذَانِ هُمَا الرِّيَاءُ وَالْعُجْبُ فَلْنَذْكُرْ فِى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أُصُولاً مُقْنِعَةً نُجَرِّدُهَا لَكَ لَعَلَّكَ تُكْفَى مُؤْنَتَهَا بِإِذْنِ اللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ .

أَمَّا الرِّيَاءُ فَأَذْكُرُ فِيهِ أَوَّلاً قَوْلَ اللهِ سُبْحَانَهُ : (اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً) .

فصل

(فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة) وهى العقبة السادسة التى هى عقبة القوادح (ذات المقاطع والمتالف فى غاية التحرز) فى بمعنى مع (فان صاحب بضاعة الطاعات قد قطع) أى جاوز (كل تلك العقبات) المذكورة (وتحمل تلك المشقات) التى فى تلك العقبات (حتى حصلت له بضاعة من العبادة) والبضاعة فى الأصل طائفة من المال تقتطع للتجارة (عزيزة شريفة فإنه) أى صاحب البضاعة (لايخاف على بضاعته تلك) أى بضاعة الطاعات (إلا فى هذه العقبة) أى عقبة القوادح (فان فيها) أى فى هذه العقبة (مقاطع يحذر أن تسلب فيها) أى فى تلك المقاطع (بضاعته و) أن فى هذه العقبة (متالف يحذر أن يبدو) أى يظهر (منها) أى من المتالف (آفات تفسد عليه طاعته ثم أعظمها) أى الآفات المفسدة على الطاعات (خطرا وأعمها) أى الآفات (وقوعا هذان القاطعان اللذان هما الرياء والعجب فلنذكر فى كل واحد منهما) أى الرياء والعجب (أصولا مقنعة) أى كافية (نجردها) أى نظهر تلك الأصول (لك لعلك تكفى مؤنتها) أى ثقلها (باذن الله) أى بإرادته (إن شاء الله) فنقول (أما الرياء فأذكر فيه أولا قول الله سبحانه « الله الذى خلق سبع سموات) مبتدأ وخبر (ومن الأرض مثلهن) أى وخلق مثلهن فى العدد من الأرض ، وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر (يتنزل الأمر بينهن) أى يجرى أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن (لتعلموا أن الله على كل شئ) من أهل السموات والأرضين (قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما ») علة الخلق أو يتنزل أو مضمر يعمهما فان كلا منهما يدل

كأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : إِنِّى خَلَقْتُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فِى كُلِّ هٰذِهِ الصَّنَائِعِ وَالْبَدَائِعِ وَاكْتَفَيْتُ بِنظَرِكَ لِتَعْلَمَ أَنِّى قَادِرٌ عَالِمٌ وَأَنْتَ تُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ مَعَ مَافِيهِمَا مِنَ الْمَعَايِبِ وَالتَّقْصِيرِ فَلَا تَكْتَفِى بِنَظَرِى إِلَيْكَ وَبِعِلْمِى بِكَ وَثَنَائِى عَلَيْكَ وَشُكْرِى لَكَ حَتَّى تُحِبَّ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ لِيَمْدَحُوكَ بِذٰلِكَ أَيَكُونُ ذٰلِكَ وَفَاءً

على كمال قدرته وعلمه ذكره القاضى البيضاوى (كأن الله سبحانه يقول: إنى خلقت السموات والأرض وما بينهما فى كل هذه الصنائع) أى المصنوعات (والبدائع) أى المبدعات من الخلائق (واكتفيت بنظرك لتعلم أنى قادر) على كل الأشياء (وعالم) بجميع المعلومات (وأنت تصلى ركعتين) مثلا (مع مافيهما) أى الركعتين (من المعايب) والمفاسد (والتقصير فلا تكتفى بنظرى إليك وبعلمى بك وثنائى عليك وشكرى لك) بأن نعطيك الثواب الكثير على عملك الحقير (حتى تحب أن يعلم الخلق) وليس بيدهم شىء من النفع والضر (ليمدحوك بذلك) أى بفعلك الركعتين (أيكون ذلك) أى عدم الاكتفاء بنظرى وحب مدح الخلق (وفاء) بصدق العبودية: أى ليست وفاء به ، وذلك لأن الصدق فى العبودية هو طرح الأغيار وعدم الالتفات إليها رأسا فلو كنت صادقا فى عبودية الرب لقنعت بعلمه تعالى بك ولم تحب أن يعلمك غيره فتغار على حالك من رؤية الأغيار له ولهذا فضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا كما ورد فى الخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة العارف؟ فقال: كتمان الطاعة ، هذا فى البداية . وأما إن تحقق العبد فى المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة فيجوز له الإخبار بأعماله والاظهار بمحاسن أحواله بناء منه على نفى الغير وأداء الواجب حق الشكر ، كان بعض السلف يصبح فيقول صليت البارحة كذا وكذا ركعة وتلوت كذا وكذا سورة ، فيقال له أما تخشى الرياء فيقول ويحكم وهل رأيتم من يرائى بفعل غيره ، وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له لم لاتكتم ذلك؟ فيقول ألم يقل الله سبحانه وتعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » وأنتم تقولون لا تحدث فان قصد من هذا حاله إلى هداية عباد الله ودعائهم إلى الله تعالى فأظهر أحواله وأعماله للاقتداء به والاهتداء بهديه فهو خارج عن النمط الأول كله وداخل فى حكم هذا النوع الثانى وعلانية هذا أفضل من سره لأنه سلم من الآفات التى تعرض لها غيره وحصلت منه الفوائد التى تضمنها إظهاره وجهره ، وقد جاء فى الخبر « السر أفضل من العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء » وهذا أرجح الوجوه عند العلماء فى قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي سأله عن فرحه باطلاع الناس على بعض أعماله « لك أجران أجر السر وأجر العلانية » وقد فضل ماذكرناه من إظهار الطاعة جماعة من الصحابة والتابعين منعنا من ذكر وقائعهم خشية الإطالة وكان ذلك منهم لأجل هذا الغرض ، ومقام هذا العبد مقام النصحاء لعباد الله والدعاة لهم إلى الله فلا جرم لهم الدرجات العلا عند الله تعالى لأنه من أئمة المتقين لله ، وقد أخبر الله تعالى بجزائهم وذكرهم عقيب دعائهم بذلك ،

أَيَكُونُ ذٰلِكَ عَقلاً يَرْضَاهُ أَحَدٌ لِنفسِهِ وَيحكَ أَفلاَ تعقِلُ .

الأصلُ الثّانى : أنَّ مَنْ كَانَ لهُ جَوْهَرٌ نفِيسٌ يُمكِنهُ أَنْ يَأْخُذ فى ثمنِهِ أَلْفَ أَلْفَ دِينَارٍ فبَاعَهُ بِفَلْسٍ ، أَلَيْسَ يَكُونُ ذٰلِكَ خُسْرَاناً عَظِيماً وَغُبْناً فَظِيعاً ، وَدَلِيلاً بَيِّناً عَلَى خِسَّةِ الْهِمَّةِ وَقُصُورِ الْعِلْمِ

فقال عز من قائل « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » . ثم قال المصنف رحمه الله (أيكون ذلك) أى عدم الاكتفاء وطلب المدح (عقلا يرضاه أحد لنفسه ويحك أفلا تعقل) أن ذلك نقص وعيب فى العبودية بل غفلة شنيعة . قال سهل ابن عبد الله التسترى رحمه الله : من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو غافل . وقال أبو الخير الأقطع رحمه الله : من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء ، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب . وقال بعضهم لمن استوصاه : لا تحب أن تعرف ولا تحب أن تعرف أنك ممن لا يحب أن يعرف ، فعلى العبد إخفاء حاله جهده وأن يبلغ فى كتمانه أقصى ماعنده . قال الحسن رحمه الله : أدركت أقواما مامن أحد منهم يستطيع أن يسر شيئا من عمله إلا أسره وإن كان الرجل ليجلس مع القوم وإنه لفقيه وما يعلم به حتى يقوم ، ولقد أدركت أقواما يأتى أحدهم الزور فيقوم فيصلى وما يشعر به الزور ، ولقد أدركت أقواما وما من عمل يقدرون أن يعملوه لله سرا فيكون علانية أبدا ، ولقد أدركت أقواما يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره ، ولقد أدركت أقواما يجتهدون فى الدعاء وما يسمعهم أحد ، وقال محمد بن واسع رحمه الله : أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم فى الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذى إلى جنبه ، وفى رواية عنه : إن كان الرجل ليبكى عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم ، فان وقع منه إعلان وإظهار فليشتغل حينئذ بمراقبة قلبه وصونه عن أن يعمل فيه الفرح إطلاع الناس على حاله ولينكر ذلك على نفسه وليكرهه ولا يرضاه منها وليجاهد نفسه فى ذلك أشد المجاهدة فان خالف هذا واستشرف إلى معرفة غير الله بحاله وغفل عن مجاهدة نفسه فى حال ظهور ذلك منه ولو فى لحظة خيف عليه أن يعمل الفرح فى قلبه فيقع عند ذلك فى الفتنة ، فان كان ضعيفا لم يسلم من الوقوع فى الرياء الجلى والخفى ، وإن كان قويا وسالكا سبيل المعرفة لم يسلم من السكون والركون فيفقد حينئذ الغيرة على الحال وينحط بذلك عن ذروة الكمال كما نبه عليه العلامة الزندى (الأصل الثانى : أن من كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ فى ثمنه) أى هذا الجوهر (ألف ألف دينار فباعه بفلس) بفتح الفاء أى جديد وهى قطع من النحاس كانت معروفة (أليس يكون ذلك) البيع (خسرانا عظيما وغبنا فظيعا) أى نقصا شديد القبح (ودليلا بينا على خسة) أى دناءة (الهمة وقصور العلم

وَضَعْفِ الرَّأْىِ وَرِكَّةِ الْعَقْلِ، فَمَا يَنَالُهُ الْعَبْدُ بِعَمَلِهِ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ مِدْحَةٍ وَحُطَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى رِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ وَشُكْرِهِ وَثَنَائِهِ وَثَوَابِهِ ، لَأَقَلُّ مِنْ فَلْسٍ فِى جَنْبِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَضْعَافِ ذٰلِكَ ، بَلْ فِى جَنْبِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَأَكْثَرُ وَأَكْبَرُ ، أَلَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ أَنْ تُفَوِّتَ نَفْسَكَ تِلْكَ الْكَرَامَاتِ الْعَزِيزَةَ الشَّرِيفَةَ بِهٰذِهِ الْأُمُورِ الْحَقِيرَةِ الدَّنِيَّةِ ، ثُمَّ إِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ لَكَ مِنْ هٰذِهِ الْهِمَّةِ الْخَسِيسَةِ فَاقْصِدْ أَنْتَ الْآخِرَةَ تَتْبَعْكَ الدُّنْيَا ، بَلِ اطْلُبِ الرَّبَّ وَحْدَهُ يُعْطِكَ الدَّارَيْنِ ، إِذْ هُوَ مَالِكُهُمَا جَمِيعاً وَذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُعْطِى الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، وَلَا يُعْطِى الْآخِرَةَ

وضعف الرأى وركة العقل) بفتح الراء : أى قلته وضعفه (فما) موصول : أى الذى (يناله العبد بعمله من الخلق من مدحة) بكسر الميم بيان لما (وحطام) أى متاع من الدنيا (بالإضافة) أى بالنسبة (إلى رضا رب العالمين وشكره وثنائه وثوابه لأقل) بلام الابتداء : أى أشد قلة (من فلس فى جنب ألف دينار وأضعاف ذلك) أى أمثال ألف ألف دينار (بل) أقل (فى جنب الدنيا وما فيها وأكثر وأكبر) من الدنيا ومافيها (ألا يكون من الخسران المبين أن تفوت نفسك تلك الكرامات العزيزة الشريفة) التي هى رضوان الله وشكره وثناؤه وثوابه (بهذه الأمور الحقيرة الدنية) أى الخسيسة التى هى المدحة والحطام من الخلق (ثم إن كان) الحال (ولا بد لك من هذه الهمة الخسيسة فاقصد أنت الآخر تتبعك الدنيا بل اطلب الرب) سبحانه وتعالى (وحده) أى منفردا بذاته (يعطك) الرب عز وجل (الدارين) أى الدنيا والآخرة (إذ هو) تعالى (مالكهما) أى الدارين (جميعا وذلك) أى دليل ما قلناه من أنك إذا طلبت الرب وحده يعطك الدارين لأنه مالكهما وخالقهما (قوله تعالى « من كان يريد ثواب الدنيا) يعنى من كان يريد بعمله عرضا من الدنيا (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) يعنى الذين يطلبون بأعمالهم وجهادهم ثواب الدنيا وما ينالونه من الغنيمة مخطئون فى قصدهم ، لأن الله عنده ثواب الدنيا وثواب الآخرة فلو كانوا عقلاء لطلبوا ثواب الآخرة حتى يحصل لهم ذلك ويحصل لهم ثواب الدنيا على سبيل التبعية ، والمعنى أن من أراد بعمله الدنيا آتاه الله منها ما أراد وصرف عنه من شرها ما أراد وليس له ثواب فى الآخرة يجزى به ، ومن أراد بعمله وجه الله وثواب الآخرة فعند الله ثواب الدنيا والآخرة يؤتيه من الدنيا ما قدر له ويجزيه فى الآخرة خير الجزاء ، هكذا ذكره الخازن (وقال عليه الصلاة والسلام إن الله تعالى ليعطى الدنيا بعمل الآخرة) لأن أعمال الآخرة محبوبة له تعالى فمن اشتغل بأعمال الآخرة سهل عليه حصول رزقه « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (ولا يعطى الآخرة) أى نعيمها

بِعَمَلِ الدُّنْيَا » فَإِذَا أَنْتَ أَخْلَصْتَ النِّيَّةَ وَجَرَّدْتَ الْهِمَّةَ لِلْآخِرَةِ ، حَصَلَتْ لَكَ الْآخِرَةُ وَالدُّنْيَا جَمِيعاً ، وَإِنْ أَنْتَ أَرَدْتَ الدُّنْيَا ذَهَبَتْ عَنْكَ الْآخِرَةُ فِى الْوَقْتِ وَرُبَّمَا لَا تَنَالُ فِى الدُّنْيَا كَمَا تُرِيدُ ، وَإِنْ نِلْتَهَا فَلَا تَبْقَى لَكَ فَتَكُونُ قَدْ خَسِرْتَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ .

الأَصلُ الثَّالثُ : أَنَّ الْمَخْلُوقَ الَّذِى لِأَجْلِهِ تَعْمَلُ وَرِضَاهُ تَطْلُبُ لَوْ عَلِمَ أَنَّكَ تَعْمَلُ لِأَجْلِهِ لَأَبْغَضَكَ وَلَسَخِطَ عَلَيْكَ وَاسْتَهَانَ بِكَ وَاسْتَخَفَّ بِكَ ، فَكَيْفَ يَعْمَلُ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ الْعَمَلَ لِأَجْلِ مَنْ لَوْ عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ يَطْلُبُ رِضَاهُ لَسَخِطَ عَلَيْهِ وَأَهَانَهُ ؟ فَاعْمَلْ يَا مِسْكِينُ لِأَجْلِ مَنْ إِذَا عَمِلْتَ لِأَجْلِهِ وَقَصَدْتَهُ بِسَعْيِكَ وَطَلَبْتَ رِضَاهُ بِذٰلِكَ أَحَبَّكَ وَأَعْطَاكَ وَأَكْرَمَكَ حَتَّى أَرْضَاكَ وَأَغْنَاكَ عَنِ الْكُلِّ وَكَفَاكَ فَهٰذِهِ هٰذِهِ ، فَافْطُنْ لَهَا إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ .

(بعمل الدنيا) رواه ابن المبارك عن أنس ورواه أيضاً الديلمى باسناد ضعيف بلفظ « إن الله تعالى يعطى الدنيا على نية الآخرة وأبى أن يعطى الآخرة على نية الدنيا » (فاذا أنت أخلصت النية وجردت الهمة للآخرة حصلت لك الآخرة والدنيا جميعا ، وإن أنت أردت الدنيا ذهبت عنك الآخرة في الوقت وربما لا تنال فى الدنيا) أى متاعها (كما تريد ، وإن نلتها) أى حصلت لك كما تريد (فلا تبقي) الدنيا (لك) إما ذهبت عنك أو ذهبت عنها (فتكون قد خسرت) وهلكت (الدنيا والآخرة ، فتأمل أيها العاقل . الأصل الثالث أن المخلوق الذى لأجله تعمل ورضاه تطلب لو علم) أى هذا المخلوق (أنك تعمل لأجله لأبغضك ولسخط) وبابه طرب (عليك واستهان بك واستخف بك ، فكيف يعمل الرجل العاقل العمل لأجل من) أى الشخص (لو علم به) أى الرجل العاقل (أنه يطلب رضاه) أى الشخص (لسخط) أى هذا الشخص (عليه) أى الرجل (وأهانه ، فاعمل يا مسكين) أى يا من قل علمه (لأجل من) جل وعز (إذا عملت لأجله وقصدته بسعيك) أى بعملك (وطلبت رضاه بذلك) أى بسعيك (أحبك وأعطاك وأكرمك) بأنواع الكرامات (حتي أرضاك وأغناك عن الكل) أى كل المخلوقات (وكفاك) عن ذلك (فهذه) الجملة (هذه) أى الموصوفة بالعظمة والكمال (فافطن لها) أى فافهم لهذه الجملة (إن كنت تعقل) فى سراج السالكين فطن به وإليه وله يفطن وفطن يفطن فطنا مثلثة وفطنا وفطنة وفطونة وفطانة وفطانة وفطانية وفطانية حذق به وفهم وأدرك

الأصلُ الرَّابع : أن مَنْ حَصَلَ لَهُ سَعْىٌ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكْتَسِبَ بِهِ رِضَا أَعْظَمِ مَلِكٍ فِى الدُّنْيَا ، فَطَلَبَ بِهِ رِضَا كَنَّاسٍ خَسِيسٍ بَيْنَ النَّاسِ ، فَيَكُونَ ذٰلِكَ دَلِيلاً عَلَى السَّفَهِ وَرَدَاءَةِ الرَّأْىِ مِنْهُ وَسُوءِ الْحَظِّ لَهُ ، وَيُقَالُ مَاحَاجَتُكَ إِلَى رِضَا هٰذَا الْكَنَّاسِ مَعَ إِمْكَانِكَ مِنْ رِضَا الْمَلِكِ ، فَكَيْفَ وَقَدْ سَخِطَ الْكَنَّاسُ عَلَيْكَ بِسَبَبِ سَخَطِ الْمَلِكِ ؟ فَفَاتَكَ الْكُلُّ ، فَهٰذَا حَالُ الْمُرَائِى ، فَأَىُّ حَاجَةٍ إِلَى إِرْضَاءِ مَخْلُوقٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَهِينٍ ، وَأَنْتَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ تَحْصِيلِ رِضْوَانِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الْكَافِى عَنِ الْكُلِّ ، فَإِنْ ضَعُفَتِ الْهِمَّةُ ، وَكَلَّتِ الْبَصِيرَةُ ، حَتَّى طَلَبْتَ رِضَا مَخْلُوقٍ لاَ مَحَالَةَ ، فَسَبِيلُكَ أَنْ تُجَرِّدَ إِرَادَتَكَ وَتُخَلِّصَ سَعْيَكَ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ وَالنَّوَاصِىَ بِيَدِهِ ، فَهُوَ يُمِيلُ إِلَيْكَ الْقُلُوبَ وَيَجْمَعُ لَكَ النُّفُوسَ وَيَشْحَنُ مِنْ حُبِّكَ الصُّدُورَ ، فَتَنَالُ مِنْ ذٰلِكَ مَالاَ تَنَالُ بِجَهْدِكَ وَقَصْدِكَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ وَقَصَدْتَ بِعَمَلِكَ رِضَا الْمَخْلُوقِينَ دُونَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

(الأصل الرابع أن من حصل له سعى ما يمكن أن يكتسب به رضا أعظم ملك فى الدنيا فطلب به رضا كناس) بفتح الكاف صيغة نسب : أى من يزيل الكناسة بالضم وهى الزبالة والسباطة (خسيس بين الناس فيكون ذلك) أى طلب رضا الكناس (دليلا على السفه) بفتحتين : أى النقص فى العقل (ورداءة الرأى) أى فساده (منه) أى من الطالب المذكور (وسوء الحظ) أى النصيب (له) أى لذلك الطالب (ويقال له ما حاجتك إلى رضا هذا الكناس مع إمكانك من رضا الملك الأعظم (فكيف وقد سخط الكناس عليك بسبب سخط الملك ففاتك الكل) أى كل رضا الملك ورضا الكناس (فهذا) أي حال الطالب لرضا الكناس مع إمكانه من رضا الملك (حال المرائى) بعمله (فأى حاجة إلى إرضاء مخلوق حقير ضعيف مهين) أى ذليل (وأنت متمكن من تحصيل رضوان الله رب العالمين الكافى عن الكل ، فان ضعفت الهمة وكلت البصيرة) أى عميت (حتى طلبت رضا مخلوق لا محالة) أى لا بد (فسبيلك أن تجرد إرادتك وتخلص سعيك لله سبحانه فان القلوب والنواصى) جمع ناصية : وهو مقدم الرأس (بيده) أى بقدرته جل وعز (فهو) تعالى (يميل إليك القلوب) أى قلوب الناس (ويجمع لك النفوس ويشحن) أى يملأ وبابه قطع (من حبك الصدور) أى القلوب (فتنال من ذلك) أى من تجريد إرادتك وتخليص سعيك لله تعالى (مالاتنال بجهدك وقصدك (فان لم تفعل) ذلك المذكور (وقصدت بعملك رضا المخلوقين) الذين هم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا (دونه) أى دون قصد رضاه (سبحانه وتعالى

فَإِنَّهُ يَصْرِفُ عَنْكَ الْقُلُوبَ ، وَيُنْفِرُ عَنْكَ النُّفُوسَ ، وَيُسْخِطُ عَلَيْكَ الْخَلْقَ ، فَيَحْصُلُ لَكَ بِهَذَا الْأَمْرِ سَخَطُ اللهِ وَسَخَطُ النَّاسِ جَمِيعاً ، فَيَالَهُ مِنْ خُسْرَانٍ وَحِرْمَانٍ .

وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ رَجُلٌ يَقُولُ : وَاللهِ لَأَعْبُدَنَّ اللهَ عِبَادَةً أُذْكَرُ بِهَا ، وَكَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ فِي الْمَسْجِدِ وَآخِرَ خَارِجٍ مِنْهُ ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ حِينَ الصَّلَاةِ إِلَّا قَائِماً يُصَلِّي وَصَائِماً لَا يُفْطِرُ ، وَيَجْلِسُ إِلَى حِلَقِ الذِّكْرِ ، فَلَبِثَ كَذَا سَبْعَةَ أَشْهُرٍ ، فَكَانَ لَا يَمُرُّ بِقَوْمٍ إِلَّا قَالُوا فَعَلَ اللهُ بِهَذَا الْمُرَائِي وَصَنَعَ فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ بِاللَّوْمِ ، وَقَالَ لَهَا : إِنِّي أَرَانِي فِي غَيْرِ شَيْءٍ لَأَجْعَلَنَّ عَمَلِي كُلَّهُ لِلَّهِ ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى عَمَلِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ قَبْلَ ذَلِكَ شَيْئاً إِلَّا أَنَّهُ تَغَيَّرَتْ نِيَّتُهُ إِلَى الْخَيْرِ ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ

فانه يصرف عنك القلوب وينفر) من باب ضرب فى اللغة العالية : أى يعرض ويصد (عنك النفوس ويسخط) بضم الياء مع كسر الخاء من أسخط : أى يغضب (عليك الخلق فيحصل لك بهذا الأمر) أى القصد الفاسد ؛ وهو قصدك بعملك رضا المخلوقين (سخط الله وسخط الناس جميعا فياله من خسران وحرمان) عن مطلوبه . روى الطبرانى من حديث ابن عباس « من أسخط الله فى رضا الناس سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه ، ومن أرضى الله من سخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أسخط فى رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينه » وروى أبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة « من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله » وروى الخليلى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « من أرضى الله بسخط المخلوقين كفاه الله مؤنة المخلوقين ومن أرضى المخلوقين بسخط الله سلط الله عليه المخلوقين » (ولقد ذكر عن الحسن) البصرى رحمه الله (أنه قال : كان رجل يقول والله لأعبدن الله عبادة أذكر) بالبناء للمفعول (بها) أى بتلك العبادة بين الناس (وكان) الرجل (أول داخل المسجد وآخر خارج منه) أى المسجد (لا يراه أحد حين الصلاة إلا قائما يصلى وصائما لا يفطر ويجلس إلى حلق الذكر) بكسر الحاء المهملة وفتح اللام أو بفتحهما على غير قياس جمع حلقة بفتح الحاء وسكون اللام : أى حلق القوم الذين يجتمعون مستديرين لذكر الله (فلبث) أى مكث الرجل (كذا سبعة أشهر فكان لا يمر بقوم إلا قالوا فعل الله بهذا المرائى وصنع فأقبل) الرجل لما سمع ذم القوم له (على نفسه باللوم وقال لها) أى لنفسه (إنى أرانى) أى أرى نفسى (فى غير شىء) نافع والله (لأجعلن عملى كله لله فلم يزد) أى الرجل (على عمله الذى كان يعمل قبل ذلك) أى جعل كل العمل لله سبحانه (شيئا إلا أنه تغيرت نيته) من طلب ذكر الناس (إلى الخير) وهو قصده بعمله وجه الله عز وجل (فكان بعد ذلك)

يَمُرُّ بِالنَّاسِ فَيَقُولُونَ : رَحِمَ اللهُ فُلَانًا ، الْآنَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَى الْخَيْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ الْحَسَنُ : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) قَالَ يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ ،

أى تغيير النية (يمر بالناس فيقولون رحم الله فلانا) العابد (الآن قد أقبل على الخير) ويطلقون ألسنتهم بالمدح والثناء عليه مع أنه لا كمال فى مدحهم ولا نقصان فى ذمهم كما قال شاعر بنى تميم :

إن مدحى زين   وإن ذمى شين

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « كذبت ذاك الله الذى لا إله إلا الله » رواه أحمد من حديث الأقرع بن حابس كما ذكره العراقى ؛ وذلك إذ لا زين إلا فى مدحه تعالى ، ولا شين إلا فى ذمه ، فأى خير لك فى مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ، وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود فى زمرة المقربين ، فمن أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والغمومات والمنغصات التى لا تكاد تفارق الأحوال واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذمومة الرياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطفت من إخلاصه أنوار تشرق عليه ينشرح بها صدره وينفتح له من لطائف المكاشفات الإلهية ما يزيد به أنسه بالله ووحشته للخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة وسقط محل الخلق عن قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص (ثم قرأ الحسن) البصرى رحمه الله تعالى قوله عز وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها . قاله القاضى (قال) الحسن (يحبهم) الله تعالى (ويحببهم إلى) عباده (المؤمنين) هكذا نقله أبو طاهر الفيروز فى تفسيره وفى الحديث « يعطى المؤمن مقة فى قلوب الأبرار ومهابة فى قلوب الفجار » نقله النسفى ، وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله سبحانه وتعالى عبدا دعا جبريل عليه السلام إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادى جبريل فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى أهل الأرض » ، وفي رواية لمسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام فيقول إنى أبغض فلانا فابغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض » . قال هرم ابن حيان : ماأقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم . وقال كعب مكتوب فى التوراة : لامحبة لأحد فى الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله عز وجل

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

يَا مُبْتَغِى الْحَمْدَ وَالثَّوَابَا　　فِى عَمَلٍ تَبْتَغِى مُحَالَا
قَدْ خَيَّبَ اللَّهُ ذَا رِيَاءٍ　　وَأَبْطَلَ السَّعْىَ وَالْكَلَالَا
مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبٍّ　　أَخْلَصَ مِنْ خَوْفِهِ الْفِعَالَا
أَلْخُلْدُ وَالنَّارُ فِى يَدَيْهِ　　فَرَائِهِ يُعْطِكَ النَّوَالَا
وَالنَّاسُ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا　　فَكَيْفَ رَاءَيْتَهُمْ ضَلَالَا

أَمَّا الْعُجْبُ فَلْنَذْكُرْ فِيهِ أُصُولاً : أَحَدُهَا أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ إِنَّمَا صَارَتْ لَهُ قِيمَةٌ لِمَا وَقَعَ مِنَ اللَّهِ مَوْقِعَ الرِّضَا وَالْقَبُولِ ، وَإِلَّا فَتَرَى الْأَجِيرَ يَعْمَلُ طُولَ النَّهَارِ بِدِرْهَمَيْنِ ، وَالْحَارِسُ يَسْهَرُ طُولَ اللَّيْلِ

ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض ، وتصديق ذلك فى القرآن « سيجعل لهم الرحمن ودا » (ولقد صدق القائل) من مجزو البسيط مع دخول علة القطع فيه (يامبتغى الحمد) أى طالب حمد الناس وثناءهم (والثواب) أى ثواب الآخرة (فى عمل تبتغى) أى تطلب (محالا) بضم الميم : أى باطلا غير الممكن الوقوع لأن الله لايقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه عز وجل كما ورد فى الخبر (قد خيب الله) بتشديد الياء (ذارياء) أى جعله خائبا لم يظفر بمطلوبه وفى المثل : الهيبة خيبة أى الهيبة من الناس سبب فى الخيبة وهى عدم الفوز بالمطلوب (وأبطل) تعالى (السعى والكلالا) بألف الإطلاق : أى التعب فى المصباح وكل يكل من باب ضرب كلالة تعب وأعيا (من كان يرجو لقاء رب) أى من كان يأمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول (أخلص من خوفه الفعالا) قال الله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » (الخلد) أى الجنة (والنار فى يديه) جل وعز (فرائه) أعمالك (يعطيك النوالا) بفتح النون بمعنى العطاء (والناس لايملكون) لأنفسهم (شيئا) من الضر والنفع (فكيف رأيتهم) بأعمالك (ضلالا) وجهلا منك ، ومع ذلك أنهم لو علموا مافى باطنك من قصد الرياء لمقتوك وأبغضوك ، وسيكشف الله عن سرك وما فى باطنك حتى يبغضك إلى الناس ويعرفهم أنك مراء وممقوت عند الله ، ولو أخلصت لله لكشف الله لهم إخلاصك وحببك إليهم وسخرهم لك وكفاك المؤنة (وأما العجب فلنذكر فيه أصولا : أحدها أن فعل العبد إنما صارت له قيمة لما وقع من الله موقع الرضا والقبول وإلا) يقع موقعهما (فترى الأجير) أى من يعمل بالأجرة (يعمل طول النهار بدرهمين و) ترى (الحارس) أى الحافظ (يسهر) بفتح الياء وبابه ضرب : أى لاينام (طول الليل

بِدَانِقَيْنِ ، وَكَذٰلِكَ أَصْحَابُ الصِّنَاعَاتِ وَالْحِرَفِ كُلُّ وَاحِدٍ يَعْمَلُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فَيَكُونُ قِيمَةُ ذٰلِكَ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً ، فَإِنْ صَرَفْتَ الْفِعْلَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَصُمْتَ لِلّٰهِ تَعَالَى يَوْمًا ، فَيَكُونُ صَوْمُكَ ذٰلِكَ الْيَوْمَ لَا قِيمَةَ لَهُ إِذَا رَضِيَهُ وَتَقَبَّلَهُ قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وَفِي الْخَبَرِ : « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّائِمِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » فَهٰذَا يَوْمُكَ الَّذِي قِيمَتُهُ دِرْهَمَانِ ، مَعَ احْتِمَالِكَ التَّعَبَ الْعَظِيمَ صَارَ لَهُ كُلُّ هٰذِهِ الْقِيمَةِ بِتَأْخِيرِ غَذَاءٍ إِلَى عَشَاءٍ ، وَلَوْ قُمْتَ لَيْلَةً لِلّٰهِ تَعَالَى وَأَخْلَصْتَهَا

بدانقين) تثنية دانق وهو سدس الدرهم معرب دانك بالفارسية قاله العلامة عبد الحق (وكذلك) أى مثل حال الأجير والحارس (أصحاب الصناعات) جمع صناعة (والحرف) بكسر الحاء المهملة جمع حرفة بمعنى الكسب (كل واحد) منهم (يعمل فى الليل والنهار فيكون قيمة ذلك) أى عمل كل واحد (دراهم معدودة ، فان صرفت) أيها الرجل (الفعل إلى الله تعالى) أى إلى طاعته (فصمت لله تعالى يوما) أو صليت ركعة (فيكون صومك) أو صلاتك (ذلك اليوم لاقيمة له) أى لصومك أو صلاتك لكثرة ثوابهما (إذا رضيه) الله (وتقبله . قال الله تعالى « إنما يوفى الصابرون) على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لها (أجرهم بغير حساب») أجرا لايهتدى إليه حساب الحساب . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : كل مطيع يكال له كيلا ويوزن له وزنا إلا الصابرون فانه يحثى لهم حثيا . وروى : « إنه يؤتي بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صبا بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا لو أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما يذهب به أهل البلاء من الفضل » . (وفى الخبر) الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تبارك وتعالى (أعددت لعبادى الصائمين) وفى رواية الصالحين (ما) أى شيئا أو الذى (لاعين رأت) فى الدنيا برفع عين لأن «لا» أخت ليس وحذف العائد المنصوب المتصل برأت ، وجملة لاعين رأت صفة ما أوصلتها كما ذكره الفاسى (ولا أذن سمعت) فيها وهذه جملة معطوفة على الجملة قبلها والكلام فيها كالتى قبلها (ولا خطر على قلب بشر) أى آدمى لأنه كثير الخواطر والتصوير والتشكيل للأشياء وأمور الآخرة خارجة عن طور هذا العقل الحسى ونطاقه وعالمه ذكره الفاسى (فهذا يومك الذى قيمته درهمان مع احتمالك التعب العظيم صار له) أى ليومك المذكور (كل هذه القيمة) العظيمة (بتأخير غداء) بالمد : مايؤكل أول النهار (إلى عشاء) بالكسر والمد : أى أول ظلام الليل ، والمراد بعد غروب الشمس الذى هو وقت فطر الصائم (ولو قمت ليلة لله تعالى وأخلصتها) أى الليلة

لَهُ كَانَ قِيَامُكَ لَاقِيمَةَ لَهُ فِى الشَّرَفِ وَالنَّفَاسَةِ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فَهٰذَا الَّذِى قِيمَتُهُ دَانِقَانِ أَوْ دِرْهَمَانِ صَارَ لَهُ كُلُّ هٰذِهِ الْقِيمَةِ وَالْقَدْرِ ، بَلْ لَوْ جَعَلْتَ لِلّٰهِ سَاعَةً تُصَلِّى فِيهَا رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ بَلْ نَفَسًا قُلْتَ فِيهِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ .

بقيامك فيها (له) تعالى (كان قيامك) فيها (لاقيمة له فى الشرف والنفاسة . قال الله تعالى « فلا تعلم نفس ماأخفى لهم) لاملك مقرب ولا نبى مرسل (من قرة أعين) مما تقربه عيونهم وعنه عليه الصلاة والسلام « يقول الله : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ماأطلعتهم عليه اقرءوا إن شئتم : فلاتعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين » وقرأ حمزة ويعقوب أخفي على أنه مضارع أخفيت ؛ وقرىء نخفى وأخفى والفاعل للكل هو الله تعالى ، وقرأت أعين لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة أو استفهامية معلق عنها العمل ذكره القاضى فى تفسيره (جزاء بما كانوا يعملون ») أى من الطاعات فى دار الدنيا . قال القاضى : أى جزوا جزاء أو أخفى للجزاء فان إخفاءه لعلو شأنه ، وقيل هذا القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم (فهذا) ليلك (الذى قيمته دانقان أودرهمان صار له) أى ليلك الذى قيمته ذلك (كل هذه القيمة والقدر) والمنزلة (بل) صار لك كل هذه القيمة العظيمة (لو جعلت لله ساعة تصلي فيها ركعتين خفيفتين بل) صار لك كل ذلك لو جعلت لله (نفسا) بفتح الفاء ، فهو جزء من الهواء يخرج من باطن البدن في جزء من الزمن (قلت فيه) أى فى ذلك النفس (لا إله إلا الله) وقدورد أن « من قال لاإله إلا الله ومدهاهدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر . قالوا يارسول الله فان لم يكن له شيء من الكبائر؟ قال يغفر لأهله ولجيرانه »رواه البخارى .وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : لاإله إلا الله كلامي وأنا هو من قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عقابى » أخرجه الشيرازى عن على . وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا قال الله تعالى صدق عبدى أنا الله الذى لا إله إلا أنا أشهدكم ياملائكتى قد غفرت له ماتقدم من ذنبه وما تأخر » وأخرج الحكيم عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « من قال لاإله إلا الله مخلصا دخل الجنة ، قيل يارسول الله وماإخلاصها ؟ قال أن تحجزه عن المحارم » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان أول كلامه لاإله إلاالله وآخر كلامه لاإله إلا الله وعمل ألف سيئة إن عاش ألف سنة لايسأله الله عن ذنب » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لاإله إلا الله من غير عجب طاربها طائر تحت العرش يسبح مع المسبحين إلى يوم القيامة ويكتب له ثوابه » وقال صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة غفر له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » كذا ذكره السيوطى فى لبابه ، والأدلة فى فضيلة هذه الكلمة أكثر

قالَ اللهُ تَعالى : (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) فَهَذَا نَفسٌ مِنْ أَنفَاسِكَ الَّتِي لاَقِيمَةَ لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلاَ عِنْدَكَ ، فَكَمْ تُضِيعُ أَمْثَالَ ذَلِكَ فِي لاَشَيْءٍ ، وَكَمْ يَمُرُّ عَلَيْكَ مِنَ الزَّمَانِ بِلاَ فَائِدَةٍ ، وَصَارَ لَهُ كُلُّ هَذَا الْقَدْرِ الْعَظِيمِ ، لِمَا أَنَّهُ وَقَعَ مَرْضِيًّا لِلهِ تَعَالَى فَعَظُمَ قَدْرُهُ وَكَثُرَتْ قِيمَتُهُ بِفَضْلِهِ ، فَحَقَّ لِلْعَاقِلِ إِذَنْ أَنْ يَرَى حَقَارَةَ عَمَلِهِ وَقِلَّةَ قَدْرِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، وَأَنْ لاَيَرَى إِلاَّ مِنَّةَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ فِيمَا شَرَّفَ مِنْ قَدْرِ عَمَلِهِ وَأَعْظَمَ مِنْ جَزَائِهِ ، وَأَنْ يَحْذَرَ عَلَى فِعْلِهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ عَلَى وَجْهٍ لاَيَصْلُحُ لِلهِ ، وَلاَيَقَعُ مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضَا فَتَذْهَبَ عَنْهُ الْقِيمَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ ، وَيَعُودُ إِلَى مَا كَانَ فِي الْأَصْلِ مِنَ الثَّمَنِ الْحَقِيرِ مِنْ دَرَاهِمَ أَوْ دَوَانِقَ وَأَحْقَرَ وَأَخَسَّ مِنْ ذَلِكَ .

من أن تحصى وفيما ذكرناه كفاية للعاقل (قال الله تعالى ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثي وهو مؤمن) أى ومع ذلك مؤمن مخلص بإيمانه (فأولئك يدخلون الجنة يرزقون) يطعمون (فيها) فى الجنة (بغير حساب) بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة فضلا منه ورحمة ، ولعل تقسيم العمال وجعل الجزاء جملة اسمية مصدرة باسم الإشارة وتفضيل الثواب لتغليب الرحمة وجعل العمدة عمدة ، والإيمان للدلالة على أنه شرط فى اعتبار العمل وأن ثوابه أعلى من ذلك قاله القاضى (فهذا) المذكور (نفس) بفتح الفاء (من أنفاسك التى لا قيمة لها عند أهل الدنيا ولا عندك فكم تضيع أمثال ذلك) النفس (فى لاشىء وكم يمر عليك من الزمان بلا فائدة وصار له) أى لذلك النفس (كل هـذا القدر العظيم) وذلك (لما أنه) أى النفس (وقع مرضيا) مقبولا (لله تعالى فعظم قدره وكثرت قيمته بفضله) تعالى (فحق للعاقل إذن) أى حين إذ صار كل هذا القدر العظيم للعمل بسبب وقوعه فى مرضاة الله (أن يرى حقارة عمله وقلة قدره) أى العمل (من حيث هو) أى ذلك العمل (وأن لا يرى) أى العاقل (إلا منة الله تعالى عليه فيما شرف) الله سبحانه (من قدر عمله و) فيما (أعظم) تعالى (من جزائه) وثوابه (وأن يحذر على فعله) أى العاقل (من أن يقع) أى فعله (على وجه لا يصلح لله و) أن (لا يقع) فعله (منه) تعالى (موقع الرضى) والقبول (فتذهب عنه) أى عن ذلك الفعل (القيمة التى حصلت له) أى لما فعله من الأعمال (ويعود إلى ما كان فى الأصل من الثمن الحقير من دراهم أو دوانق) بل (وأحقر وأخس من ذلك) أى المذكور من الدراهم أو الدوانق

وَمِثَالُهُ أَنَّ الْعُنْقُودَ مِنَ الْعِنَبِ وَالإِضْبَارَةَ مِنَ الرَّيْحَانِ ، يَكُونُ قِيمَتُهُ فِى السُّوقِ دَانِقاً ، فَإِنْ أَهْدَاهُ وَاحِدٌ إِلَى مَلِكٍ مَعَ خِسَّتِهِ فَوَقَعَ مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضَا ، يَهَبُ لَهُ عَلَى ذٰلِكَ أَلْفَ دِينَارٍ ، لِمَا وَقَعَ مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضَا ، فَصَارَ مَاقِيمَتُهُ حَبَّةً بِأَلْفِ دِينَارٍ ، فَإِذَا لَمْ يَرْضَهُ الْمَلِكُ وَرَدَّهُ إِلَيْهِ رَجَعَ إِلَى قِيمَتِهِ الْخَسِيسَةِ مِنْ حَبَّةٍ أَوْ دَانِقٍ ، فَكَذٰلِكَ مَانَحْنُ فِيهِ ، فَتَنَبَّهْ وَأَبْصِرْ مِنَّةَ اللهِ وَصُنْ فِعْلَكَ عَمَّا يَشِينُهُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَالأَصْلُ الثَّانِى : مَا تَعْلَمُ أَنَّ الْمَلِكَ فِى الدُّنْيَا إِذَا أَجْرَى عَلَى أَحَدٍ جِرَايَةً مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ دَرَاهِمَ أَوْ دَنَانِيرَ مَعْدُودَةٍ فَانِيَةٍ ، فَإِنَّهُ يَسْتَخْدِمُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، مَعَ مَافِى ذٰلِكَ مِنَ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ ، وَيَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ حَتَّى تَخَدَّرَ رِجْلاَهُ وَيَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا رَكِبَ ، وَرُبَّمَا يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ

(ومثاله) أى مثال وقوع العمل فى مرضاة الله وعدم وقوعه فى ذلك (أن العنقود من العنب) أى ماتعقد وتراكم من حبه فى عرق واحد (والأضبارة) بفتح الألف وكسرها: الحزمة (من الريحان يكون قيمته فى السوق دانقا)أو درهما(فإن أهداه واحد إلى ملك) من الملوك (مع خسته) أى ما أهداه من العنقود والأضبارة (فوقع) أى ما أهداه من ذلك (منه) أى من الملك (موقع الرضا يهب) الملك(له) أى للمهدى ما ذكر (على ذلك) أى لأجل هديته (ألف دينار) وذلك الجزاء الكثير (لما وقع منه) أى من الملك(موقع الرضا فصار ما) أى من العنقود والأضبارة (قيمته حبة) من دانق أو درهم (بألف دينار فإذا لم يرضه) أى ما أهداه (ورده) أى رد الملك ماذكر (إليه) أى إلى المهدى (رجع) ما أهدى إلى الملك (إلى قيمته) الأصلية (الخسيسة من حبة أو دانق فكذلك) أى مثل ما أهداه الرجل إلى الملك (ما نحن فيه) من الأعمال (فتنبه) أيها العاقل (وأبصر منة الله وصن) أى احفظ (فعلك عما يشينه) أى فعلك، فى المختار : الشين: ضد الزين وقد شانه من باب باع (عند الله عز وجل.
والأصل الثاني: ما تعلم أن الملك فى الدنيا إذا أجرى على أحد جراية) قال العلامة عبدالحق : الجراية الجارى من الوظائف أو ما يناله الجندى من الطعام كل يوم (من طعام أو شراب أو كسوة أودراهم أو دنانير معدودة فانية فإنه) أى الملك (يستخدمه) أى الذى أعطاه الجراية (آناء الليل) أى ساعاته (و) أطراف (النهار مع ما فى ذلك) الاستخدام (من الذل والصغار) بمعنى واحد (ويقوم) أى الذى أعطي ما ذكر (على رأسه) أى بين يدى الملك (حتى تخدر رجلاه) أى حتى أصابهما الخدر ، وهو تشنج يعترى العضو لاحتباس الروح النفسانى عن النفوذ فيه فلا يطيق الحركة (ويسعى بين يديه) أى الملك (إذا ركب) خيلا أو غيره (وربما يحتاج أن يكون) الرجل

عَلَى بَابِهِ طُولَ اللَّيْلِ حَارِسًا ، وَرُبَّمَا يَبْدُو لَهُ عَدُوٌّ فَيَحْتَاجُ أَنْ يُقَاتِلَ عَدُوَّهُ فَيَبْذُلَ رُوحَهُ الَّتِي لَا خَلَفَ عَنْهَا لِأَجْلِهِ ، وَيَحْتَمِلُ كُلَّ هٰذِهِ الْخِدْمَةِ وَالْكُلْفَةِ وَالْخَطَرِ وَالضَّرَرِ لِأَجْلِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةِ النَّكِدَةِ الْحَقِيرَةِ ، مَعَ أَنَّهَا بِالْحَقِيقَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ سَبَبٍ فِى ذٰلِكَ ، فَرَبُّكَ الَّذِى خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ، ثُمَّ رَبَّاكَ فَأَحْسَنَ إِلَيْكَ التَّرْبِيَةَ ، ثُمَّ أَنْعَمَ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فِى دِينِكَ وَنَفْسِكَ وَدُنْيَاكَ مَالَا يَبْلُغُ كُنْهَهَا فَهْمُكَ وَوَهْمُكَ ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) الآية ، ثُمَّ إِنَّكَ تُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَعَايِبِ وَالْآفَاتِ ، وَمَعَ مَا وَعَدَ عَلَيْهِمَا فِى الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ وَضُرُوبِ الْكَرَامَاتِ حَتَّى تَسْتَعْظِمَ ذٰلِكَ وَتَعْجَبَ بِهِ ، فَلَيْسَ ذٰلِكَ

(على بابه) أى الملك (طول الليل حارسا) أى حافظا (وربما يبدو له) أى يظهر للملك (عدو فيحتاج أن يقاتل) الرجل (عدوه) أى الملك (فيبذل) ذلك الرجل (روحه التى لا خلف عنها) أى لا عوض عن الروح إن فاتت (لأجله) أى لأجل الملك (ويحتمل) أى الرجل (كل هذه الخدمة والكلفة) أى المشقة (والخطر والضرر لأجل تلك المنفعة النكدة) أى القليلة (الحقيرة) وهى الجراية المذكورة (مع أنها) أى تلك المنفعة (بالحقيقة) أى الالتفات لما فى نفس الأمر وقطع النظر عن كل شىء (من الله تعالى وإنما هو) أى الملك (بمنزلة سبب فى ذلك) أى فى إيصال تلك المنفعة (فربك الذي خلقك) أى أوجدك من العدم إلى الوجود (ولم تك شيئا) مذكورا لا يذكر ولايعرف ولايدرى ما اسمه ما وما يراد به إلاالله وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح كان شيئا ولم يكن شيئا يذكر (ثم رباك) أى قام بتدبيرك (فأحسن) جل وعز (إليك التربية) فجعلك سويا سالم الأعضاء تسمع وتبصر ، وعدل خلقك فى مناسبة الأعضاء فلم يجعل بعضها أطول من بعض (ثم أنعم) سبحانه وتعالى (عليك من النعم الظاهرة) كصحة البدن (والباطنة) كالعلم والحكمة (فى دينك ونفسك ودنياك مالا يبلغ كنهها) أى نهاية النعم . فى المختار : كنه الشىء نهايته (فهمك ووهمك . قال عز من قائل « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ») لا تحصروها ولاتطيقوا عد أنواعها فضلا عن أفرادها فانها غير متناهية ، وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق (الآية) أى اقرأ بقيتها وهى « إن الإنسان لظلوم كفار » (ثم إنك تصلي ركعتين مع ما فيهما من المعايب والآفات ومع ما وعد عليهما فى المستقبل) أى فى الآخرة (من حسن الثواب وضروب) أى أنواع (الكرامات حتى تستعظم ذلك) أى فعل الركعتين (وتعجب به) أى بذلك الفعل (فليس ذلك)

مِنْ شَأْنِ عَاقِلٍ إِذَا نَظَرْتَ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ : أَنَّ الْمَلِكَ الَّذِى مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَخْدُمَهُ الْمُلُوكُ وَالْأُمَرَاءُ ، وَتَقُومَ عَلَى رَأْسِهِ السَّادَاتُ وَالْعُظَمَاءُ وَيَتَوَلَّى خِدْمَتَهُ الْأَلِبَّاءُ وَالْحُكَمَاءُ ، وَيَطْلُبُ مِدْحَتَهُ الْعُقَلَاءُ وَالْعُلَمَاءُ ، وَيَمْشِى بَيْنَ يَدَيْهِ الْأَكَابِرُ وَالرُّؤَسَاءُ ، إِذَا أَذِنَ لِسُوقِيٍّ أَوْ قُرَوِيٍّ بِمُقْتَضَى رَأْفَةٍ وَعِنَايَةٍ لَهُ فِى بَابِهِ حَتَّى زَاحَمَ أُولٰئِكَ الْمُلُوكَ وَالسَّادَاتِ وَالْأَكَابِرَ وَالْأَفَاضِلَ فِى خِدْمَتِهِ وَمِدْحَتِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ مَقَامًا مِنْ حَضْرَتِهِ مَعْلُومًا ، وَنَظَرَ إِلَى خِدَمِهِ بِعَيْنِ الرِّضَا وَإِنْ كَانَتْ مُشَوَّشَةً مَعِيبَةً ، أَلَيْسَ يُقَالُ لَهُ : لَقَدْ كَبُرَتْ عَلَى هٰذَا الْحَقِيرِ الْمِنَّةُ مِنَ الْمَلِكِ وَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُ بِهِ ، فَإِنْ أَخَذَ هٰذَا الْحَقِيرُ يَمُنُّ عَلَى الْمَلِكِ بِتِلْكَ الْخِدْمَةِ الْمَعِيبَةِ وَيَسْتَعْظِمُ ذٰلِكَ وَيَعْجَبُ بِهِ ،

الاستعظام والعجب (من شأن عاقل إذا نظرت) وتأملت (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة. (والأصل الثالث أن الملك) أى ملك الملوك (الذى من شأنه أن يخدمه الملوك والأمراء) والسلاطين (وتقوم على رأسه) أى قدام الملك (السادات والعظماء ويتولى خدمته الألباء) أى العقلاء جمع لبيب بمعنى عاقل (والحكماء ويطلب مدحته) بكسر الميم : أى مدحة ذلك الملك وثناءه (العقلاء والعلماء ويمشى بين يديه الأكابر والرؤساء إذا أذن) أى أذن الملك الأعظم ، والجملة خبر أن (لسوقى أو قروى) أى ساكن القرية وهى الضيعة ، وفى كفاية المتحفظ : القرية كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قرارا وتقع على المدن وغيرها ، والجمع قرى على غير قياس . قال بعضهم : لأن ما كان على فعلة من المعتل فبابه أن يجمع على فعال بالكسر ، مثل ظبية وظباء وركوة وركاء ، والنسبة إليها قروى بفتح الراء على غير قياس ، قاله الفيومى في المصباح (بمقتضى رأفة) ورحمة (وعناية له) أى للسوقى أو القروى (فى بابه) أى الملك الأعظم (حتى زاحم) السوقى أو القروى (أولئك الملوك والسادات والأكابر والأفاضل فى خدمته) أى الملك (ومدحته) أى طلب مدحته (وجعل) الملك (له) أى لهذا السوقى أو القروى (مقاما من حضرته معلوما ونظر) الملك (إلى خدمته) أى خدمة كل واحد منهما (بعين الرضا) والقبول (وإن كانت) تلك الخدمة (مشوشة) مكدرة (معيبة أليس) الحال (يقال له) أى لكل واحد منهما (لقد كبرت) أى عظمت (على هذا الحقير) أى الذى هو السوقي أو القروى (المنة) والنعمة (من الملك) الأعظم (وعظمت عنايته) أى الملك (به) أى بهذا الحقير (فان أخذ هذا الحقير) أى شرع (يمن) أى يعدد (على الملك بتلك الخدمة المعيبة ويستعظم) هذا الحقير (ذلك) المذكور من خدمته (ويعجب به) أى بذلك

أَلاَ يُقَالُ إِنَّ ذٰلِكَ لَسَفِيهٌ جِدًّا أَوْ مَجْنُونٌ لاَ يَعْقِلُ شَيْئاً، وَلَمَّا تَقَرَّرَ هٰذَا فَإِنَّ إِلٰهَنَا سُبْحَانَهُ هُوَ الْمَلِكُ الَّذِى يُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَعْبُودُ الَّذِى يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ؛

الخدمة (ألا يقال إن ذلك) الحقير الذى فعل ما فعل من الامتنان والاستعظام والإعجاب (لسفيه جدا أو مجنون لا يعقل شيئا ، ولما تقرر هذا) أي الأصل الثالث (فان إلهنا سبحانه هو الملك الذى تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) أى الملائكة والإنس والجن (وإن) أى ما (من شىء إلا يسبح بحمده) قال ابن عباس : وإن من شىء حى إلا يسبح بحمده . وقيل جميع الحيوانات والنباتات . قيل: إن الشجرة تسبح والأسطوانة لاتسبح . وقيل: إن التراب يسبح مالم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح ، وإن الخرزة تسبح مالم ترفع عن موضعها فاذا رفعت تركت التسبيح ، وإن الورقة تسبح مادامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح ، وإن الماء يسبح مادام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح ، وأن الثوب يسبح ما دام جديدا فاذا اتسخ ترك التسبيح ، وإن الوحش والطير لتسبح إذا صاحت فاذا سكتت تركت التسبيح . وقيل وإن من شىء جماد أوحى إلا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف . وقيل : كل الأشياء لله حيوانا كان أوجمادا وتسبيحها : سبحان الله وبحمده ، ويدل على ذلك ما روى عن ابن مسعود قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء فقال اطلبوا فضلة من ماء فجاء ونا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده صلى الله عليه وسلم فى الإناء ثم قال حى على الطهور المبارك والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . أخرجه البخارى ، وروى مسلم عن جابر بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن بمكة حجرا يسلم على ليالى بعثت وإني لا أعرفه الآن » وروى البخارى عن ابن عمر قال « كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح بيده الشريفة عليه» . وفى رواية : « فنزل فاحتضنه وساره بشيء» ففى هذه الأحاديث دليل على أن الجماد يتكلم وأنه يسبح . وقال بعض أهل المعانى : تسبيح السموات والأرض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال بحيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح ، والقول الأول أصح لما دلت عليه الأحاديث وأنه منقول عن السلف . واعلم أن لله تعالى علما فى الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغى أن نكل علمه إليه ، كذ قاله الخازن (و) هو تعالى (المعبود الذى يسجد له من فى السموات) من الملائكة (و) من فى (الأرض) من المؤمنين (طوعا) لأهل السماء لأن عبادتهم بغير مشقة (وكرها) لأهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة ، ويقال طوعا لأهل الاخلاص وكرها لأهل النفاق ، ويقال طوعا لمن ولد فى الاسلام جبرا ونص الكتاب العزيز « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها » قال بعض المفسرين فى معنى هذا

فَمِنَ الْخَدَمِ عَلَى بَابِهِ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ

السجود قولان : أحدهما أن المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الأرض ثم على هذا القول ففى معنى الآية وجهان : أحدهما أن اللفظ وإن كان عاما إلا أن المراد منه الخصوص فقوله « ولله يسجد من فى السموات » يعنى من المؤمنين من يسجد طوعا وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة ، وكرها : يعني المنافقين الداخلين فى المؤمنين وليسوا منهم ، فان سجودهم لله على كره منهم لا يرجون على سجودهم ثوابا ولا يخافون على تركه عقابا ، بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين . الوجه الثانى : هو حمل اللفظ علي العموم ، وعلى هذا ففى اللفظ إشكال وهو أن جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والإنس يسجدون لله طوعا ومنهم من يسجد له كرها كما تقدم . وأما الكفار من الجن والانس فلا يسجدون لله ألبتة ، فهذا وجه الإشكال . والجواب عنه أن المعنى أنه يجب على كل من فى السموات ومن فى الأرض أن يسجد لله فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول . وجواب آخر : وهو أن يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من فى السموات من ملك ومن فى الأرض من إنس وجن فانهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالي « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » والقول الثانى فى معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع ، فكل من فى السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى وهذا الاعتبار لأن قدرته ومشيئته نافذة فى الكل فهم خاضعون منقادون له (فمن الخدم على بابه) أي باب رحمة الله تعالى (جبريل الأمين) أى المأمون على وحى الله تعالى إلى أنبيائه .

﴿ تنبيه ﴾ قال بعضهم : إن جبريل اسم ملك وهو أعجمى فلذلك لم ينصرف : وقول من قال إنه مشتق من جبروت الله بعيد ، لأن الاشتقاق لا يكون فى الأسماء الأعجمية ، وكذا قول من قال إنه مركب تركيب الإضافة ، وإن جبر معناه عبد وإيل اسم من أسماء الله تعالى فهو بمنزلة عبد الله لأنه كان ينبغى أن يجرى الأول بوجوه الاعراب وأن ينصرف الثانى . وكذا قول المهدوى إنه تركب تركيب مزج نحو حضرموت لأنه كان ينبغي أن يبنى الأول على الفتح ليس إلا ، وقد تصرفت فيه العرب على عادتها فى الأسماء الأعجمية فيه بثلاث عشرة لغة أشهرها وأفصحها بزنة قنديل ، وهى قراءة أبى عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم وهى لغة الحجاز . والثانية كذلك إلا أنها بفتح الجيم ، وهى قراءة ابن كثير والحسن . الثالثة جبرئيل كسلسبيل ، وهى لغة قريش وتميم وبها قرأ حمزة والكسائى . الرابعة كذلك إلا أنه لا ياء بعد الهمزة ، وتروى عن عاصم ويحيى بن يعمر . الخامسة كذلك إلا أن اللام مشددة ، وتروى أيضاً عن عاصم ويحيى بن يعمر أيضا قالوا : وإل بالتشديد اسم من أسماء الله تعالى ، وفى بعض التفاسير « لا يرقبون فى مؤمن إلا » قيل معناه الله . السادسة جبرائل بألف بعد الراء وهمزة مكسورة بعد الألف ، وبها قرأ عكرمة . السابعة مثلها إلا أنها بياء بعد الهمزة . الثامنة جبرايل بياءين بعد الألف من غير همز وبها قرأ الأعمش ويحيى أيضا . التاسعة جبرال . العاشرة جبريل بالياء والقصر ، وهى قراءة

وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ

طلحة بن مصرف . الحادية عشرة جبرين بفتح الجيم والنون . الثانية عشرة كذلك إلا أنها بكسر الجيم . الثالثة عشرة جبرائين . قال العلامة عبد الرحيم بن أحمد : إن جبريل خلقه الله تعالى بعد ميكائيل عليه السلام بخمسمائة عام وله ألف وستمائة جناح ومن رأسه إلى قدمه شعور من زعفران والشمس بين عينيه وعلى كل شعرة مثل القمر والكواكب وكل يوم يدخل في بحر النور ثلثمائة وسبعين مرة ، فإذا خرج سقط من كل جناح ألف ألف قطرة فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا واحدا على صورة جبريل عليه السلام يسبحون الله إلى يوم القيامة وهم الروحانيون (وميكائيل) اسم أعجمي والكلام فيه كالكلام في جبريل في كونه مشتقا من ملكوت الله ، أو أن ميك بمعنى عبد وإيل الله ، وأن تركيبه تركيب إضافة أو تركيب مزج ، وفيه سبع لغات : ميكال بوزن مفعال ، وهى لغة أهل الحجاز وبها قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم . الثانية كذلك إلا أن بعد الألف همزة وبها قرأ نافع . الثالثة كذلك إلا أنه بزيادة ياء بعد الهمزة وهى قراءة الباقين . الرابعة ميكئيل مثل ميكعيل وبها قرأ ابن محيصن . الخامسة كذلك إلا أنه لا ياء بعد الهمزة ، فهو مثل ميكعل وقرئ بها . السادسة ميكاييل بياءين بعد الألف وبها قرأ الأعمش . السابعة ميكاءل بهمزة مفتوحة بعد الألف كما يقال إسراءل . وحكى الماوردى عن ابن عباس أن جبر بمعنى عبد وميكا بمعنى عبيد بالتصغير فمعنى جبريل . عبد الله ومعنى ميكائيل . عبيد الله قال : ولا نعلم لابن عباس في هذا مخالفا . قال العلامة عبد الرحيم بن أحمد : إن ميكائيل خلقه الله بعد إسرافيل عليه السلام بخمسمائة عام ومن رأسه إلى قدميه شعور من زعفران وأجنحته من زبرجد أخضر وعلى كل شعرة ألف ألف وجه ، وفى كل وجه ألف ألف عين ويبكى بكل عين رحمة للمذنبين من المؤمنين وفى كل وجه ألف ألف فم ، وفى كل فم ألف ألف لسان كل لسان ينطق بألف ألف لغة وكل لسان يستغفر الله للمؤمنين والمذنبين ويقطر من كل عين سبعون ألف قطرة فيخلق الله تعالي من كل قطرة ملكا واحدا على صورة ميكائيل عليه السلام يسبحون الله تعالى إلى يوم القيامة ، وأسماؤهم كروبيون وهم أعوان لميكائيل عليه السلام موكلون على المطر والنباتات والأرزاق والثمار فما من شىء فى البحار والأثمار على الأشجار والنباتات على الأرض إلا وعليه ملك موكل به (وإسرافيل) عليه السلام صاحب القرن : أى الصور . قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن إسرافيل عليه السلام سأل الله تعالى أن يعطيه قوة سبع سموات فأعطاه وقوة سبع أرضين فأعطاه وقوة الرياح فأعطاه وقوة الجبال فأعطاه وقوة الثقلين فأعطاه وقوة السباع فأعطاه ومن تحت قدميه إلى رأسه شعور وأفواه وألسن مغطاة بالحجب يسبح الله تعالى بكل لسان بألف لغة ويخلق الله تعالى من نفسه ألف ألف ملك يسبحون الله إلى يوم القيامة وهم المقربون عند الله تعالى وحملة العرش والكرام الكاتبون وهم على صورة إسرافيل وينظر إسرافيل كل يوم وليلة ثلاث مرات إلى جهنم ويتضرع فيبكى ويذوب ويصير كوتر القوس ويبكى بكاءا شديدا ولولا أن الله تعالى يمنع دموع بكائه لامتلأت الأرض بدموعه فصارت

وَعِزْرَائِيلُ ، وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ وَالْكَرُوبِيُّونَ وَالرُّوحَانِيُّونَ ، وَسَائِرُ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ الَّذِينَ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، فِي مَنَازِلِهِمُ الرَّفِيعَةِ وَأَنْفُسِهِمُ الطَّاهِرَةِ وَعِبَادَاتِهِمُ الْعَظِيمَةِ ،

كطوفان نوح عليه السلام ، ومن عظمه أنه لو صبت جميع مياه البحار والأنهار على رأسه ما وقع منها قطرة على الأرض (وعزرائيل) بفتح العين كما جزم به بعضهم ، ومعناه عبد الجبار ، وهو موكل بقبض أرواح الخلائق : أي باخراج كل من له روح من مقرها ولو قملة أو بعوضة أو برغوثا كما ذهب إليه أهل الحق خلافا للمعتزلة حيث ذهبوا إلى أنه لا يقبض أرواح أهل الثقلين من الملائكة والطيور وغيرهم ، وخلافا للمبتدعة حيث ذهبوا إلى أنه لا يقبض أرواح البهائم بل يقبضها أعوانه ، وهو ملك عظيم هائل المنظر رأسه فى السماء العليا ورجله فى تخوم الأرض السفلى : أى منتهاها ووجهه مقابل اللوح المحفوظ والخلق بين عينيه وله أعوان بعدد من يموت ، يترفق بالمؤمن ويأتيه فى صورة حسنة دون غيره كذا ذكره بعضهم ، ويقال إن ملك الموت له أربعة أوجه : وجه من أمامه ووجه من على رأسه ووجه خلف ظهره ووجه تحت قدميه ، فيأخذ أرواح الأنبياء والملائكة بالوجه الذى على رأسه وأرواح المؤمنين من الوجه الذى أمامه وأرواح الكفار من الوجه الذى خلف ظهره وأرواح الجن من الوجه الذى تحت قدميه ، ويقال إن ملك الموت يقلب الدنيا بين يديه كما يقلب الآدمى درهمه ، وله فى جسده عيون بعدد الخلائق فاذا مات مخلوق فى الدنيا ذهب عين من جسده كذا قاله السيوطي (وحملة العرش) وهم أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجودا وهم فى الدنيا أربعة وفى القيامة ثمانية . قال الله تعالى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، وهم على صورة الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاما للطائر المسرع . وأما صفة العرش فقيل إنه جوهرة خضراء وهو من أعظم المخلوقات خلقا ، ويكسى كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى والأشياء كلها فى العرش كحلقة فى فلاة ، وقيل إن العرش قبلة أهل السماء كما أن الكعبة قبلة أهل الأرض (والكروبيون) بفتح الكاف وتخفيف الراء هم سادات الملائكة وهم الذين حول العرش الطائفون به ، لقبوا بذلك لأنهم متصدون للدعاء برفع الكرب عن الأمة ، وقيل غير ذلك (والروحانيون) جمع الروحانى بضم الراء نسبة إلى الملائكة ، قيل هم فى أرض بيضاء كالرخام عرضها مسيرة الشمس أربعين يوما طولها لا يعلمه إلا الله ولهم زجل بالتسبيح والتهليل لو كشف عن صوت أحدهم لهلك أهل الأرض من هول صوته منتهاهم إلى حملة العرش (وسائر الملائكة المقربين) إلى الله عز وجل (الذين لا يحصى عددهم إلا الله رب العالمين فى منازلهم الرفيعة وأنفسهم الطاهرة وعباداتهم العظيمة) لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهم مكرمون بالعصمة من الزلل لا يسبقون إذنه تعالى بالقول وهم بأمره تعالى إذا أمرهم يعملون لأنهم فى غاية المراقبة له تعالى فجمعوا فى الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية

ثُمَّ مِنَ الَّذِينَ هُمْ خَدَمَةٌ عَلَى بَابِهِ ، آدَمُ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ

الطاعة (ثم من الذين هم خدمة على بابه) سبحانه وتعالى (آدم) أبو البشر عليه السلام ، وآدم اسم أعجمى لا اشتقاق له ولا ينصرف ، ولذا قال السمين بعد كلام طويل : والحاصل أن ادعاء الاشتقاق فيه بعيد ، لأن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاق ولا تصريف ، وعاش عليه السلام من العمر تسعمائة سنة وستين قاله السيوطى فى التحبير فى علم التفسير ونقله بعضهم (ونوح) عليه الصلاة والسلام وهو ابن لامك بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام . قال الكسائى : كان اسمه عبد الغفار أو يشكر ، وسبب تسميته نوحا ما قيل إنه رأى كلبا له أربعة أعين فقال نوح إن هذا الكلب شنيع فقال له الكلب يا عبد الغفار أتعيب النقش أم النقاش ؟ فان كان العيب على النقش فان الأمر لو كان إلى لما اخترت أن أكون كلبا ، وإن كان العيب على النقاش فهو لا يلحقه عيب لأنه يفعل ما يشاء ، فكان عليه السلام كلما ذكر ذلك ينوح ويبكى على خطيئته وذنبه فلكثرة نوحه سمى نوحا . رواه السدى . قال وهب بن منبه : إن نوحا عاش بعد الطوفان مائتى سنة وحج بعد خروجه من السفينة وبعث إلى قومه وهو ابن مائتين وخمسين سنة ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما كما أخبر الله فى القرآن العظيم فلما استوفى نوح العمر الذى كتبه الله له جاء إليه ملك الموت وقال السلام عليك يانبى الله ، فقال وعليك السلام من أنت فقد أرعدت قلبى بسلامك ؟ فقال أنا ملك الموت ماهذا الجزع يانوح ألم تشبع من الدنيا ياأطول الناس عمرا ؟ فقال نوح : إنما وجدت الدنيا دارا لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . ثم إن ملك الموت ناوله كأسا من شراب الجنة وقال له اشرب من هذا الشراب حتى يسكن روعك فتناوله فشربه فلما شربه خر ميتا صلوات الله وسلامه عليه . فلما مات شرع أولاده فى تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى قرية الكرك . ويقال إن عند قبره عين ماء تجرى . وقد قال القائل :

نح على نفسك يامسكين إن كنت تنوح   لتموتن ولو عمرت ما عمر نوح

كذا ذكره صاحب البدائع وقصته مشهورة ليس هذا محل بسطها (وإبراهيم) الخليل عليه السلام وإبراهيم اسم أعجمى . ومعناه أب رحيم وهو إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور ابن شاروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام ، وكان مولد إبراهيم بالسوس من أرض الأهواز . وقيل ببابل . وقيل بكوثى وهى قرية من سواد الكوفة . وقيل بحران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل وهى أرض نمروذ الجبار ، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام تعترف بفضله جميع الطوائف قديما وحديثا . فأما اليهود والنصارى فانهم مقرون بفضله ويتشرفون بالنسبة إليه وأنهم من أولاده . وأما العرب فى الجاهلية فانهم أيضا يعترفون بفضله ويتشرفون على غيرهم به لأنهم من أولاده ومن ساكنى حرمه وخدام بيته ، ولما جاء الإسلام زاده الله شرفا وفضلا فحكى الله تعالى عن إبراهيم أمورا توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد صلى الله عليه وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لأن ما أوجبه الله على إبراهيم

وَمُوسَىٰ ،

عليه السلام هو من خصائص دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركى العرب فى وجوب الانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم والايمان به وتصديقه كذا ذكره الخازن. وأما وفاته فقد قال كعب الأحبار: خرج إبراهيم عليه السلام فى طلب الأضياف فمر به ملك الموت فى صورة شيخ كبير فسلم عليه فرد عليه السلام وقال له من أنت ؟ قال أنا عابر سبيل فأخذه بيده وأتى به إلى منزله وأتى بشىء من العنب فجعل الشيخ يأخذ من العنب ويمج ويرمي جلد العنب وماؤه يسيل على لحيته فتعجب منه إبراهيم ، فقال إبراهيم يا أيها الشيخ كم لك من العمر ؟ قال كذا وكذا سنة فاذا هو قدر عمر إبراهيم فعند ذلك قال إبراهيم: اللهم اقبضنى إليك حتى لا أصير إلى الهرم فكان إبراهيم أول من تمنى الموت ، فلما دنا منه ملك الموت قال يا نبى الله على أى حالة تحب أقبض روحك ؟ فقال إبراهيم وأنا ساجد .

وقد اختلف جماعة من العلماء فى مدة حياة إبراهيم ، فمنهم من قال عاش مائتى سنة . قال السدى: إن سارة زوجته توفيت قبل إبراهيم بمدة طويلة وجاوزت من العمر مائة وسبعة وعشرين سنة فلما ماتت اشترى لها مغارة ودفنها ، وهى بقرية حبرون من أرض كنعان ، ولما مات إبراهيم دفن فى تلك المغارة (وموسى) بن عمران عليه السلام . وموسى اسم أعجمى غير منصرف وهو فى الأصل مركب والأصل موشى بالشين لأن الماء بالعبرانية يقال له مو والشجر يقال له شا فعربته العرب وقالوا موسى . قالوا وقد أخذه فرعون من الماء بين الأشجار لما وضعته أمه فى الصندوق كما ذكر فى القرآن العزيز فى سورة القصص . واختلافهم فى موسى هل هو مشتق من أوسيت رأسه إذا حلقته فهو موسى كأعطيته فهو معطى أو هو فعلى مشتق من ماس يميس : أى تبختر فى مشيته وتحرك فقلبت الياء واوا لانضمام ما قبلها كموقن من اليقين إنما هو فى موسى الحديد التى هى آلة الحلق ، لأنها تتحرك وتضطرب عند الحلق بها ، وليس لموسى اسم النبى عليه السلام اشتقاق لأنه أعجمى . وعاش موسى عليه السلام مائة وعشرين سنة . روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاء ملك الموت إلى موسى فقال له أجب أمر ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها . فقال ملك الموت يا رب إنك أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت وقد فقأ عينى . قال فرد الله تعالى عينه وقال ارجع إلى عبدى فقل له : الحياة تريد ؟ فان كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فانك تعيش بعدده سنين ، قال ثم ماذا ؟ قال ثم تموت قال الآن من قريب . قال رب أدننى من الأرض المقدسة رمية حجر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أنى عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » . قال وهب : خرج موسى ليقضى حاجة فمر برهط من الملائكة يحفرون قبرا لم ير شيئا أحسن منه ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة

وَعِيسَى ،

والبهجة فقال لهم : ياملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا لعبد كريم على ربه ، فقال إن هذا العبد لمن الله بمنزلة مارأيت كاليوم أحسن منه مضجعا ، فقالت الملائكة ياصفي الله أتحب أن يكون لك ؟ قال وددت قالوا فانزل اضطجع فيه وتوجه إلى ربك قال فاضطجع فيه وتوجه إلى ربه ثم تنفس أسهل نفس فقبض الله تعالى روحه ثم سوت عليه الملائكة ، وقيل إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض الله تعالى روحه (وعيسى) بن مريم عليه السلام، ولقب بالمسيح . قال تعالى « اسمه المسيح عيسى بن مريم » واختلفوا لم سمي عيسى عليه الصلاة والسلام مسيحا وهل هو اسم مشتق أو موضوع ؟ فقيل إنه موضوع وأصله بالعبرانية مشيخا فغيرته العرب ، وأصل عيسى أيشوع كما قالوا موسى وأصله موشى أو ميشى ، وقال الأكثرون : إنه اسم مشتق ثم ذكروا فيه وجوها، قال ابن عباس رضي الله عنهما : سمي عيسى مسيحا لأنه مامسح ذا عاهة إلا برأ منها وقيل لأنه مسح بالبركة، وقيل لأنه مسح من الأقذار وطهر من الذنوب ، وقيل إنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن ، وقيل لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه حتى لايكون للشيطان فيه سبيل ، وقيل: لأنه كان يسيح فى الأرض ولا يقيم بمكان فكأنه يمسح الأرض : أى يقطعها مساحة ، فعلى هذا القول تكون الميم زائدة ، وقيل سمي مسيحا لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص له ، وسمى الدجال مسيحا لأنه ممسوح إحدى العينين ، وقيل المسيح هو الصديق ، وبه سمى عيسى عليه السلام ، وقد يكون المسيح بمعنى الكذاب وبه سمى الدجال فعلى هذا تكون هذه الكلمة من الأضداد . قال أهل التاريخ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض أورى شلم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل ، وأوحي الله إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين ، وقد ثبت فى الحديث أن عيسى سينزل ويقتل الدجال كما سيأتى ، وقيل لبعضهم هل تجد نزول عيسى إلى الأرض فى القرآن ؟ قال نعم قوله تعالي « وكهلا » وذلك لأنه لم يكتهل فى الدنيا ، وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء . روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتي لايقبله أحد » زاد فى رواية «حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وفى رواية « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ، وفى رواية : فأمكم منكم » . قال ابن أبى ذؤيب تدرى ما أمكم منكم . قلت فأخبرنى قال فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وبسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وفى أفراد مسلم من حديث النواس بن سمعان « فبينما هما كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق »

وَمُحَمَّدٌ خَيْرُ الْعَالَمِينَ ، مَعَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فِى مَرَاتِبِهِمُ الْمُنِيفَةِ وَمَنَاقِبِهِمُ الْعَزِيزَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَمَقَامَاتِهِمُ الْكَرِيمَةِ ، وَعَادَاتِهِمُ الْجَلِيلَةِ الْخَطِيرَةِ ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ الْأَئِمَّةُ الْأَبْرَارُ وَالزُّهَّادُ فِى مَرَاتِبِهِمُ الْعَظِيمَةِ الْفَاخِرَةِ ، وَأَبْدَانِهِمُ النَّقِيَّةِ الطَّاهِرَةِ ، وَعِبَادَاتِهِمُ الْكَثِيرَةِ الْخَالِصَةِ الْمُتَظَاهِرَةِ ، وَأَذَلُّ الْخَدَمِ عَلَى بَابِهِ مُلُوكُ الدُّنْيَا وَجَبَابِرَتُهَا يَخِرُّونَ لَهُ عَلَى الْأَذْقَانِ سَاجِدِينَ صَاغِرِينَ ، وَيُعَفِّرُونَ الْوُجُوهَ فِى التُّرَابِ خَاضِعِينَ ، وَيَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْهِ بَاكِينَ بَاهِلِينَ ضَارِعِينَ وَيَعْتَرِفُونَ

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « ليس بينى وبينه يعنى عيسى نبى وإنه نازل فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله الملل فى زمانه كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ثم يمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » أخرجه أبو داود . ونقل بعضهم أن عيسى عليه الصلاة والسلام يدفن فى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبيين محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام (و) نبينا (محمد) صلى الله عليه وسلم وهو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان من أولاد سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام (خير العالمين) وأفضل المخلوقات على العموم الشامل للعلوية والسفلية من البشر والجن والملك فى الدنيا والآخرة فى سائر خصال الخير وأوصاف الكمال (مع سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فى مراتبهم المنيفة) أى المرتفعة (ومناقبهم) أى فضائلهم (العزيزة الشريفة ومقاماتهم الكريمة وعاداتهم الجليلة الخطيرة) أى العظيمة (ثم) من الذين هم خدمة على بابه جل وعز (العلماء الأئمة الأبرار والزهاد فى مراتبهم العظيمة الفاخرة وأبدانهم النقية) أى الخالصة عن شوائب الأقذار (الطاهرة) من النجاسة والأكدار (وعباداتهم الكثيرة الخالصة المتظاهرة وأذل الخدم) وأهونهم (على بابه) تعالى (ملوك الدنيا وجبابرتها يخرون) أى يسقطون (له) أى لله تعالى (على الأذقان) أى على الوجوه (ساجدين) وإنما خص الذقن لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن ، يقال خر على وجهه سقط عليه (صاغرين) أى ذليلين (ويعفرون) أى يدلكون (الوجوه فى التراب خاضعين ويرفعون حوائجهم إليه) تعالى (باكين باهلين ضارعين) إلى الله وهما بمعنى واحد ، فى المصباح وابتهل إلى الله : ضرع إليه (ويعترفون

لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَلأَنْفُسِهِمْ بِالنَّقْصِ ، سَاجِدِينَ صَاغِرِينَ ، حَتَّى رُبَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً وَيَقْضِى لَهُمْ بِفَضْلِهِ حَاجَةً أَوْ يَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ بِكَرَمِهِ زَلَّةً ، وَأَنَّهُ مَعَ هٰـذِهِ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ وَالْمُلْكِ وَالْـكَمَالِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِى حَقَارَتِكَ وَعُيُوبِكَ وَقَذَارَتِكَ ، وَأَنْتَ الَّذِى لَوِ اسْتَأْذَنْتَ عَلَى رَئِيسِ بَلَدِكَ فَرُبَّمَا لَا يَأْذَنُ لَكَ ، وَإِنْ كَلَّمْتَ أَمِيرَ نَاحِيَتِكَ فَرُبَّمَا لَا يُـكَلِّمُكَ وَإِنْ سَجَدْتَ لِسُلْطَانِ بَلَدِكَ بِالْأَرْضِ فَرُبَّمَا لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْكَ ، وَقَدْ أَذِنَ لَكَ جَلَّ جَلَالُهُ حَتَّى تَعْبُدَهُ وَتُثْنِىَ عَلَيْهِ وَتُخَاطِبَهُ ، بَلْ تُدِلُّ عَلَيْهِ بِالْمَسْئَلَةِ وَتُبَاسِطُهُ فَتَسْتَقْضِيَهُ حَاجَتَكَ وَتَسْتَـكْفِيَهُ مُهِمَّاتِكَ ، ثُمَّ إِنَّهُ يَرْضَى رَكْعَتَيْكَ فِى مَعَايِبِهِمَا بَلْ يُعِدُّ لَكَ عَلَيْهِمَا مِنَ الثَّوَابِ مَا لَا يَخْطُرُ بِقَلْبِ بَشَرٍ ، وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَعْجَبُ بِهَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ وَتَسْتَـكْثِرُ ذٰلِكَ وَتَسْتَعْظِمُهُ ، وَلَا تَرَى مِنَّةَ اللهِ عَلَيْكَ فِى ذٰلِكَ ، فَمَا أَسْوَأَكَ مِنْ عَبْدٍ وَمَا أَجْهَلَكَ مِنْ إِنْسَانٍ وَاللهُ تَعَالَى الْمُسْتَعَانُ ، وَإِلَيْهِ الْمُشْتَـكَى مِنْ هٰذِهِ

له) سـبحانه وتعالى (بالعبودية ولأنفسهم بالنقص ساجـدين صاغرين حتى ربما ينظر) الله (إليهم نظرة ويقضى لهم بفضله) تعالى وكرمه (حاجة أو يتجاوز عنهم بكرمه) وجوده (زلة) بفتح الزاى : أى خطأ (وأنه) تعالى (مع هـذه العظمة والجلال والملك والـكمال قد أذن) عز وجل (لك فى حقارتك) فى بمعنى مع كما ذكره العلامة عبد الحق (وعيوبك وقذارتك) بفتح القاف (وأنت الذى لو استأذنت على رئيس بلدك) أو قريتك (فربما لا يأذن) ذلك الرئيس (لك وإن كلمت أمير ناحيتك فربما لا يكلمك) الأمير استصغارا بك (وإن سجدت لسلطان بلدك بالأرض فربما لا يلتفت) السلطان (إليك وقد أذن) الله (لك جل جلاله حتى تعبده وتثنى عليه) تعالى وتحمده (وتخاطبه بل تدل) بكسر الدال من الإدلال (عليه) تعالى (بالمسئلة وتباسطه) يعنى تطلب منه تعالى البسطة : أى السعة (فتستقضيه حاجاتك) أى تطلب منه جل وعز قضاءها (وتستكفيه مهماتك) أى تطلب منه تعالى كفاية ما يهمك من أمور دنياك ودينك (ثم إنه) تعالى (يرضى ركعتيك فى معايبهما بل يعد) بضم الياء : أى يهيء الله (لك عليهما) أى الركعتين (من الثواب مالا يخطر بقلب بشر) أى آدمى (وأنت مع ذلك) المذكور من اذنه تعالى ورضاه لتلك الركعتين (تعجب بهاتين الركعتين) المعيبتين (وتستـكثر ذلك) أى تعد ما فعلته من الركعتين كثيرا (وتستعظمه) أى تعده عظيما (ولا ترى منة الله عليك فى ذلك) أى فى إذنه تعالى ورضاه (فما أسوأك) فعل تعجب (من عبد وما أجهلك) صيغة تعجب أيضا (من إنسان، والله تعالى المستعان ، وإليه) تعالى (المشتـكى) أى الشكوى (من هذه

النَّفْسِ الْجَاهِلَةِ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ ، فَهَذِهِ هٰذِهِ .

﴿ فصل ﴾ وَعَلَى وَجْهٍ آخَرَ إِنَّ الْمَلِكَ الْعَظِيمَ إِذَا أَذِنَ فِي إِدْخَالِ الْهَدَايَا إِلَيْهِ فَتَدْخُلُ بِحَضْرَتِهِ الْأُمَرَاءُ وَالْكُبَرَاءُ وَالرُّؤَسَاءُ وَالنُّبَلَاءُ وَالْأَغْنِيَاءُ بِأَنْوَاعِ الْهَدَايَا مِنَ الْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ وَالذَّخَائِرِ النَّفِيسَةِ وَالْأَمْوَالِ الْجَلِيلَةِ ، فَإِنْ جَاءَ بَقَّالٌ بِبَاقَةِ بَقْلٍ أَوْ قَرَوِيٌّ بِسَلَّةِ عِنَبٍ تُسَاوِي دَانِقاً أَوْ حَبَّةً فَيَدْخُلُ فِي حَضْرَتِهِ وَيُزَاحِمُ أُولٰئِكَ الْأَكَابِرَ وَالْأَغْنِيَاءَ بِهَدَايَاهُمُ الْكَثِيرَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَهٰذَا الْمَلِكُ يَقْبَلُ مِنْ هٰذَا الْفَقِيرِ هَدِيَّتَهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ بِنَظَرِ الْقَبُولِ وَالرِّضَا ، وَيَأْمُرُ لَهُ بِأَنْفَسِ خِلْعَةٍ

النفس الجاهلة) الأمارة بالسوء (وعليه) سبحانه (التكلان) أى التوكل (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة .

فصــــل

(وعلى وجه آخر إن الملك العظيم إذا أذن فى إدخال الهدايا) جمع هدية (إليه فتدخل بحضرته) أى الملك العظيم (الأمراء والكبراء والرؤساء والنبلاء) أى الأذكياء : يقال نبل الرجل ينبل نبالة كان ذا نبل : أى ذكاء ونجابة وفضل كذا فى سراج السالكين (والأغنياء بأنواع الهدايا من الجواهر الثمينة) أى رفيعة الثمن (والذخائر النفيسة والأموال الجليلة ، فإن جاء بقال) بوزن فعال صيغة نسب : أى من يبيع البقول . قال الحريرى :

وانسب أخا الحرفة كالبقال ومن يضاهيه إلى فعال

(بباقة بقل) الباقة : الحزمة من البقل (أو) جاء (قروى) أى ساكن القرية (بسلة عنب) والسلة : وعاء يحمل فيه الفاكهة والجمع سلات مثل جنة وجنات كذا فى المصباح (تساوى) أى تلك الباقة أو السلة (دانقا) أى سدس الدرهم (أو حبة) وهى مقدار وزن الشعيرتين وقد تطلق على ثلث الطسوج وعلى سدس عشر الدينار . وفى بحر الجواهر : الحبة شعيرتان ، وقيل شعيرة واحدة ، والمشهور فى زماننا أن المراد بها حبة الحنطة (فيدخل) أى البقال أو القروى (فى حضرته) أى الملك العظيم (ويزاحم) أى كل منهما (أولئك الأكابر) والأمراء والرؤساء والنبلاء (والأغنياء بهداياهم الكثيرة الشريفة وهذا الملك) العظيم (يقبل من هذا الفقير) وهو البقال أو القروى (هديته) التى هى الباقة أو السلة (وينظر) أى الملك (إليه) أى إلى الفقير (بنظر القبول والرضا ويأمر) الملك (له) أى للفقير (بأنفس خلعة) بكسر الخاء المعجمة : أى ثياب ، فى المصباح : والخلعة مايعطيه الإنسان غيره من الثياب منحة ، والجمع خلع مثل

وَكَرَامَةٍ ، أَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ غَايَةَ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ ، فَإِنْ أَخَذَ هَذَا الْفَقِيرُ يَمُنُّ بِذَلِكَ عَلَى الْمَلِكِ وَيَعْجَبُ بِهِ وَيَسْتَعْظِمُهُ وَيَنْسَى ذِكْرَ مِنَّةِ الْمَلِكِ ، أَلَا يُقَالُ إِنَّ هَذَا مَجْنُونٌ مُضْطَرِبُ الْعَقْلِ أَوْ سَفِيهٌ سَيِّئُ الْأَدَبِ عَظِيمُ الْجَهْلِ ، فَالْآنَ يَجِبُ أَنَّكَ إِذَا قُمْتَ لِلَّهِ لَيْلَةً وَصَلَّيْتَ لَهُ رَكْعَتَيْنِ ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَتَفَكَّرْ كَمْ قَامَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ الْخَدَمِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ بَرِّهَا وَبَحْرِهَا وَجِبَالِهَا وَبِلَادِهَا مِنْ أَصْنَافِ الْمُسْتَقِيمِينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالْخَائِفِينَ وَالْمُشْتَاقِينَ وَالْمُجْتَهِدِينَ وَالْمُتَضَرِّعِينَ ، وَكَمْ حَضَرَتْ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ بِبَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ عِبَادَةٍ صَافِيَةٍ وَخِدْمَةٍ خَالِصَةٍ عَنْ أَنْفُسٍ خَاشِعَةٍ وَأَلْسُنٍ طَاهِرَةٍ ، وَعُيُونٍ بَاكِيَةٍ

سدرة وسدر (وكرامة ألا يكون ذلك) أى القبول وإعطاء الخلعة والكرامة (منه) أى من الملك (غاية الفضل والكرم ، فان أخذ) أى شرع (هذا الفقير) المهدى بشىء حقير من الباقة أو السلة (يمن) أي يعد منة (بذلك) أى بما أهداه من الشىء الحقير (على الملك) العظيم (ويعجب) أى الفقير (به) أى بما أهداه (ويستعظمه) أى يعده عظيما (وينسى) الفقير (ذكر منة الملك ألا يقال إن هذا) الفقير الذى يمن بما ذكر على الملك (مجنون مضطرب العقل أو) يقال إن هذا (سفيه) أى ذو سفه . والسفه : خفة الحلم أو نقيضه (سيئ الأدب عظيم الجهل ، فالآن) بعد فهمك هذه المثال المذكورة (يجب) عليك أن تتفكر ، وذلك (أنك إذا قمت لله ليلة وصليت له) أى لأجله تعالى (ركعتين فاذا فرغت) من صلاتك (فتفكر) بضم التاء وفتحها وسكون الفاء وكسر الكاف مضارع أفكر بالهمزة وفكر من باب ضرب كما فى المصباح وغيره (كم قام لله سبحانه فى هذه الليلة من الخدم) جمع خادم (فى أقطار الأرض) أى أطرافها (برها) أى الأرض بفتح الباء : وهو خلاف البحر والبرية نسبة إليه هى الصحراء (وبحرها) والبحر معروف وجمعه بحور وأبحر وبحار ، سمى بذلك لاتساعه ومنه قيل فرس بحر إذا كان واسع الجرى (وجبالها) جمع جبل وهو معروف ، وقد يجمع على أجبل على قلة . قال بعضهم : ولا يكون جبلا إلا إذا كان مستطيلا (وبلادها) بكسر الباء الموحدة جمع بلدة مثل كلبة وكلاب ، وتطلق على كل موضع من الأرض عامرا كان أو خلاء كما فى المصباح (من أصناف المستقيمين) على طاعة ربهم (والصديقين) جمع صديق بكسر الصاد وتشديد الدال : وهو المبالغ فى الصدق (والخائفين) والخاشعين (والمشتاقين والمجتهدين والمتضرعين وكم حضرت) أي العبادة المفسرة بقوله الآتى من عبادة (فى هذه الساعة) أى الليلة (بباب الله سبحانه من عبادة صافية) من الآفات المهلكات (وخدمة) أى طاعة (خالصة) لله تعالى (عن أنفس خاشعة وألسن) جمع لسان (طاهرة) عن أنواع المعصية (وعيون باكية) من خشية الله تعالى

وَقُلوبٍ عَامِرَةٍ وَصُدُورٍ نَقِيَّةٍ ، وَأَرْكَانٍ تَقِيَّةٍ ، وَصَلَوَاتُكَ إِنْ كُنتَ بَذَلْتَ المَجْهُودَ فِى تَحْسِينِهَا وَأَحْكَامِهَا وَإِخْلَاصِهَا فَلَا تَكَادُ تَصْلُحُ لِحَضْرَةِ هٰذَا المَلِكِ العَظِيمِ ، وَلَا تَتَبَيَّنُ فِى جَنْبِ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ الَّتِى تُعْرَضُ هُنَاكَ ؛ كَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ مِنْكَ عَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ مُخْتَلِطٍ بِأَنْوَاعِ الْعُيُوبِ ، وَبَدَنٍ نَجِسٍ بِأَقْذَارِ الذُّنُوبِ ، وَلِسَانٍ مُتَلَطِّخٍ بِأَنْوَاعِ المَعْصِيَةِ وَالْفُضُولِ ، فَكَيْفَ يَصْلُحُ هٰذَا أَنْ يُحْمَلَ إِلَى تِلْكَ الْحَضْرَةِ ، وَكَيْفَ يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُهْدَى إِلَى رَبِّ الْعِزَّةِ ؛ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : اُنْظُرْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ ، هَلْ وَجَّهْتَ قَطُّ صَلَاةً مِنْ صَلَوَاتِكَ إِلَى السَّمَاءِ كَمَائِدَةٍ بَعَثْتَهَا إِلَى بُيُوتِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ

(وقلوب عامرة) أى خائفة وممتلئة بالتقوى (وصدور نقية) من المشوشات والمكدرات (وأركان) أى جوارح (تقية) عن الفواحش . (و) أما (صلواتك) فإنك (إن كنت بذلت المجهود فى تحسينها) أى تلك الصلوات (وإحكامها) بكسر الهمزة : أى إتقانها (وإخلاصها فلا تكاد) أى تقرب (تصلح) أى الصلوات (لحضرة هذا الملك العظيم ولا تتبين فى جنب تلك العبادات التى تعرض هناك) أى فى حضرة الملك العظيم (كيف) تكاد تصلح الصلوات تلك الحضرة ، (و) الحال أنها (قد كانت) أى الصلوات (منك) صادرة (عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب و) عن (بدن نجس بأقذار الذنوب و) عن (لسان متلطخ) أى متلوث (بأنواع المعصية والفضول) أى مالا نفع فيه (فكيف يصلح هذا) أى مافعلته من الصلوات التى صدرت عما ذكر من القلب الغافل وما بعده (أن يحمل) أى هذا الذى فعلته منها (إلى تلك الحضرة) أى حضرة الملك العظيم (وكيف يستأهل) أى يصير ماذكر أهلا (أن يهدى) أى يعطى على سبيل الهدية (إلى رب العزة) أى الغلبة والقدرة ، أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل ذى العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه به ، ويجوز أن يراد أنه مامن عزة لأحد إلا وهو ربها ومالكها كقوله « تعز من تشاء » (قال شيخنا رحمه الله : انظر أيها العاقل هل وجهت) أى أرسلت (قط صلاة من صلواتك إلى السماء كمائدة) أى كطعام . قال بعض المفسرين المائدة : الخوان الذى عليه الطعام ولا يسمى مائدة إن لم يكن عليه طعام ، إنما يقال خوان أو طبق وأصلها من ماد يميد إذا تحرك كأنها تميد بما عليها من الطعام (بعثتها) أى أرسلت تلك المائدة (إلى بيوت الأغنياء ، وكان أبو بكر) محمد بن عمر (الوراق) الترمذى ثم البلخى رحمه الله صحب ابن خضرويه وصنف فى الرياضات والمعاملات له ذكر فى الرسالة القشيرية فى آخر باب

يَقُولُ : مَا فَرَغْتُ مِنْ صَلَاةٍ إِلَّا اسْتَحَيْتُ مِنْهَا حِينَ فَرَغْتُ مِنْهَا أَشَدَّ حَيَاءً مِنِ امْرَأَةٍ فَرَغَتْ مِنَ الزِّنَا .

ثُمَّ إِنَّ الرَّبَّ الْكَرِيمَ سُبْحَانَهُ بِمَحْضِ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ عَظَّمَ قَدْرَ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ وَوَعَدَ عَلَيْهِمَا مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ مَا وَعَدَ وَأَنْتَ عَبْدُهُ وَفِي جِرَايَتِهِ ، وَعَمِلْتَ مَا عَمِلْتَ بِتَوْفِيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَعْجَبُ بِذَلِكَ وَتَنْسَى مِنَّةَ اللهِ عَلَيْكَ ، هٰذَا وَاللهِ أَعْجَبُ الْعَجَبِ لَا يَكَادُ يَصْدُرُ مِثْلُهُ إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ لَا فِكْرَةَ لَهُ ، وَغَافِلٍ لَا ذِهْنَ لَهُ أَوْ قَلْبٍ مَيِّتٍ خَاوٍ لَا خَيْرَ فِيهِ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ ، نَسْأَلُ اللهَ حُسْنَ الْكِفَايَةِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

﴿ فصل ﴾ ثُمَّ أَقُولُ بَعْدَ هٰذِهِ الْجُمْلَةِ ، تَيَقَّظْ مِنْ رَقْدَتِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ فِي هٰذِهِ الْعَقَبَةِ وَإِلَّا كُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، فَإِنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ أَشَدُّ وَأَشَقُّ وَأَمَرُّ

الحياء ذكره الزبيدى (يقول : مافرغت من صلاة إلا استحيت) ربى جل وعز (منها حين فرغت منها أشد حياء من) حياء (امرأة فرغت من الزنا . ثم) اعلم (إن الرب الكريم سبحانه بمحض كرمه وفضله) وإحسانه (عظم) جل وعز (قدر هاتين الركعتين ووعد) الرب (عليهما من جزيل الثواب) والأجر (ما وعد وأنت عبده وفى جرايته) أى فى رزقه تعالى والأصل فى الجراية الجارى من الوظائف (وعملت ما عملت بتوفيقه) تعالى (وتيسيره ثم مع ذلك) المذكور من تعظيم الرب قدر تلك الركعتين ووعده عليهما جزيل الثواب وغيرهما (كله) بالجر تأكيد لما قبله (تعجب بذلك) العمل المذكور (وتنسى منة الله عليك هذا) أى ما ذكر من العجب والنسيان (والله) العظيم (أعجب العجب لا يكاد يصدر مثله) أى مثل ماذكر منهما (إلا عن جاهل لا فكرة له) أى للجاهل (و) عن (غافل لا ذهن) ولا فطنة (له) أى للغافل(أو) عن (قلب ميت خاو) أى ساقط عن درجة المعرفة (لا خير فيه، فهذه) الجملة (هذه) أى الموصوفة بالعظمة والكمال (نسأل الله حسن الكفاية بمنه) تعالى (وفضله) .

فصـــــل

(ثم أقول بعد هذه الجملة) التى ذكرناها (تيقظ) أى تنبه (من رقدتك) بفتح الراء أى من نومك : يعنى غفلتك (أيها الرجل) السالك سبيل الخير (فى هذه العقبة) السادسة وهى عقبة القوادح (وإلا) تيقظت وتنبهت (كنت من الخاسرين ، فان هذه العقبة أشد وأشق وأمر) أى أشد

وَأَضَرُّ عَقَبَةٍ أُسْتَقْبَلَتْكَ فِى هٰذِهِ الطَّرِيقِ ، إِذْ إِلَيْهَا تَنْتَهِى ثَمَرَةُ كُلِّ مَا مَضَى مِنَ الْعَقَبَاتِ؛ فَإِنْ سَلِمْتَ غَنِمْتَ وَرَبِحْتَ ، وَإِنْ كَانَتِ الْأُخْرَى فَقَدْ ضَاعَ السَّعْىُ كُلُّهُ ، وَخَابَ الْأَمَلُ ، وَبَطَلَ الْعُمْرُ ، ثُمَّ الشَّأْنُ كُلُّهُ أَنَّهُ قَدِ اجْتَمَعَ فِى هٰذِهِ الْعَقَبَةِ هٰهُنَا ثَلَاثَةُ أُمُورٍ : الْأَوَّلُ مِنْهَا : أَنَّ الْأَمْرَ دَقِيقٌ جِدًّا ، وَالْغَبْنَ شَدِيدٌ ، وَالْخَطَرَ عَظِيمٌ ؛ أَمَّا دِقَّةُ الْأَمْرِ ، فَإِنَّ مَجَارِىَ الرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ فِى الْأَعْمَالِ دَقِيقَةٌ خَفِيَّةٌ بِالْغَايَةِ ، فَلَا يَكَادُ يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا كُلُّ نِحْرِيرٍ فِى أَمْرِ الدِّينِ ، بَصِيرٍ يَقْظَانِ الْقَلْبِ مُتَحَرِّزٍ ، وَأَنَّى يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْجَاهِلُ اللَّغُوبُ ، وَالْغَافِلُ النَّئُومُ

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ بِنَيْسَابُور يَحْكِى أَنَّ عَطَاءَ السُّلَمِىَّ

مرارة فى المذاق (وأضر عقبة استقبلتك) هذه العقبة السادسة (في هذه الطريق ، إذ إليها) أى إلى تلك العقبة (تنتهى ثمرة كل ما مضى من العقبات) المذكورة من العقبة الأولى إلي هنا (فان سلمت) فى هذه العقبة (غنمت وربحت ، وإن كانت) أى وجدت الحالة (الأخرى) وهو عدم سلامتك فى هذه العقبة (فقد ضاع السعى) أى هلك العمل (كله وخاب الأمل) أى المأمول (وبطل العمر) أى فسد نفعه وسقط (ثم الشأن) المعتبر (كله أنه) أى الحال والشأن (قد اجتمع فى هذه العقبة) السادسة (هاهنا) بدل مما قبله (ثلاثة أمور: الأول منها) أى من الثلاثة (أن الأمر دقيق جدا والغبن شديد والخطر عظيم ، أما دقة الأمر) أى دقيقه (فان مجارى الرياء والعجب فى الأعمال دقيقة خفية بالغاية) أى النهاية (فلا يكاد يتنبه لذلك) أى لمجارى الرياء والعجب الدقيقة (إلا كل نحرير) أى حاذق: قال العلامة عبدالحق : النحرير بالكسر الحاذق الماهر العاقل المجرب المتقن الفطن البصير بكل شىء (فى أمر الدين بصير يقظان القلب متحرز) أى متحفظ (وأنى) أى كيف (يطلع عليه) أى على خفى الرياء والعجب (الجاهل اللغوب) بالغين المعجمة : أى الأحمق، كذا فى سراج السالكين وبالعين المهملة : أى الكثير اللعب على نسخة (والغافل النئوم) أى الكثير النوم (ولقد سمعت بعض علمائنا رحمهم الله بنيسابور) قاعدة من قواعد خراسان (يحكى أن عطاء السلمى) كذا فى نسخ الكتاب والصواب السليمى بفتح المهملة وكسر اللام: نسبة إلى سلمة بن مالك، فهم بطن من الأزد زاهد مشهور، ويقال له العبدى أيضا وهو من رجال الحلية . روى عن أنس بن مالك ولم يسند عنه شيئا ولقى الحسن وعبد الله بن غالب الحرانى وجعفر بن زيد العبدى ، وسمع منهم ، وحكى عنهم ، وممن روى عنه بشر بن منصور وحماد بن زيد وصالح المرى وغيرهم ، وكان يسكن البصرة . قاله

رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ ، نَسَجَ ثَوْباً فَأَحْكَمَهُ وَحَسَّنَهُ جِدًّا ، ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى السُّوقِ فَعَرَضَهُ فَاسْتَرْخَصَهُ الْبَزَّازُ فَقَالَ : إِنَّ فِيهِ عُيُوباً كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَأَخَذَهُ عَطَاءٌ وَجَلَسَ يَبْكِي بُكَاءً شَدِيدًا ، فَنَدِمَ الرَّجُلُ عَلَى ذٰلِكَ وَجَعَلَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ وَيَبْذُلُ لَهُ فِى ثَمَنِهِ مَا يُرِيدُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَطَاءٌ : لَيْسَ ذٰلِكَ كَمَا تَظُنُّ ، إِنَّمَا أَنَا عَامِلٌ فِى هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ ، وَقَدِ اجْتَهَدْتُ فِى إِحْكَامِ هٰذَا الثَّوْبِ وَإِصْلَاحِهِ وَتَحْسِينِهِ حَتَّى لَا يُوجَدَ بِهِ عَيْبٌ ، فَلَمَّا عُرِضَ عَلَى الْبَصِيرِ بِعُيُوبِهِ أَظْهَرَ فِيهِ عُيُوباً كُنْتُ عَنْهَا غَافِلاً ، فَكَيْفَ أَعْمَالُنَا هٰذِهِ إِذَا عُرِضَتْ غَدًا عَلَى اللهِ ! كَمْ يَبْدُو فِيهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالنُّقْصَانِ ، الَّذِى نَحْنُ الْيَوْمَ عَنْهَا غَافِلُونَ ؟ .

وَعَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ قَالَ : كُنْتُ لَيْلَةً فِى وَقْتِ السَّحَرِ فِى غُرْفَةٍ

العلامة الزبيدى (رحمة الله عليه ورضوانه) أى عليه (نسج ثوبا فأحكمه) أى أتقنه (و) أصلحه و (حسنه جدا ثم حمله) أى حمل عطاء ذلك الثوب المنسوج (إلى السوق فعرضه) أى أظهر عطاء ذلك الثوب لذوى الرغبة ليشتروه (فاسترخصه) أى فطلبه بالثمن الرخيص: وهو ضد الغلاء (البزاز) أى بائع البز ، والبز بالفتح نوع من الثياب (فقال) البزاز (إن فيه) أى فى هذا الثوب (عيوبا كيت وكيت) بكسر آخرهما : أى كذا وكذا ، قاله العلامة عبدالحق (فأخذه عطاء وجلس يبكى بكاء شديدا فندم) من باب طرب (الرجل) أى ذلك البزاز (على ذلك) أى على طلبه الرخصة (وجعل) البزاز (يعتذر إليه) أى إلى عطاء (ويبذل) أى يعطى البزاز (له) أى لعطاء (فى ثمنه) أى الثوب المذكور (ما يريد) أى ما يريده عطاء من الثمن (فقال له) أى للبزاز (عطاء ليس ذلك) البكاء (كما تظن) من طلبك لهذا الثوب بالثمن الرخيص وقدحك أن فيه عيوبا (إنما) بكائى (أنا عامل فى هذه الصناعة) أى النساجة (وقد اجتهدت فى إحكام هذا الثوب) بكسر الهمزة : أى إتقانه (وإصلاحه وتحسينه حتى لا يوجد به) أى بهذا الثوب (عيب) من العيوب عندنا (فلما عرض) بالبناء للمفعول : أى أظهر الثوب وأبرز (على البصير بعيوبه أظهر) البصير بذلك (فيه) أى فى الثوب (عيوبا كنت) أنا (عنها) أى العيوب (غافلا فكيف أعمالنا هذه) أى الأعمال التى أنا فيها (إذا عرضت) بالبناء للمفعول : أى أظهرت تلك الأعمال (غدا) أى فى الآخرة (على الله كم يبدو) أى يظهر (فيها) أى فى الأعمال (من العيوب والنقصان الذى نحن اليوم) أى فى الدنيا (عنها) أى عن العيوب والنقائص (غافلون . و) روى (عن بعض الصالحين) رحمه الله (قال: كنت ليلة) من الليالى (فى وقت السحر) وهو ما بين الفجرين (فى غرفة) بضم الغين المعجمة : أى فى علية والجمع غرف ، ثم غرفات بفتح الراء جمع الجمع عند

لَدَى شَارِعَةٍ أَقْرَأُ سُورَةَ طٰهٰ ، فَلَمَّا أَنْ خَتَمْتُهَا غَفَوْتُ غَفْوَةً فَرَأَيْتُ شَخْصًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ بِيَدِهِ صَحِيفَةٌ فَنَشَرَهَا بَيْنَ يَدَيَّ ، فَإِذَا فِيهَا سُورَةُ طٰهٰ ، وَإِذَا تَحْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ مُثْبَتَةٍ إِلاَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَكَانَهَا مَحْوًا وَلَمْ أَرَ تَحْتَهَا شَيْئًا، فَقُلْتُ : وَاللهِ لَقَدْ قَرَأْتُ هٰذِهِ الْكَلِمَةَ وَلاَ أَرَى لَهَا ثَوَابًا وَلاَ أَرَاهَا أُثْبِتَتْ ، فَقَالَ الشَّخْصُ صَدَقْتَ ، قَدْ قَرَأْتَهَا وَكَتَبْنَاهَا إِلاَّ أَنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي مِنْ قِبَلِ الْعَرْشِ : أُمْحُوهَا وَأَسْقِطُوا ثَوَابَهَا ، فَمَحَوْنَاهَا ؛ قَالَ فَبَكَيْتُ فِي مَنَامِي وَقُلْتُ : لِمَ فَعَلْتُمْ ذٰلِكَ ؟ قَالَ : مَرَّ رَجُلٌ فَرَفَعْتَ بِهَا صَوْتَكَ لِأَجْلِهِ فَذَهَبَ ثَوَابُهَا ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

قوم، وهو تخفيف عند قوم وتضم الراء للاتباع وتسكن حملا على لفظ الواحد كما هو صريح عبارة المصباح (لدى شارعة) أى عند طريق كبير يسلكه الناس عامة (أقرأ) أنا (سورة طه) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين » ذكره البيضاوى ، وذكر النسفى حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال «لا يقرأ أهل الجنة إلا سورة طه ويس » (فلما أن ختمتها) أى تلك السورة وإن زائدة (غفوت غفوة) أى نمت نومة خفيفة . قال العلامة عبد الحق : الرجل يغفو غفوا وغفوا وأوى نام أونعس . وقيل نام نومة خفيفة . الغفوة: المرة . قال ابن السكيت وغيره: لا يقال غفوت . وقال الأزهرى: كلام العرب أغفيت وقل ما يقال غفوت (فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدى فإذا فيها) أى فى تلك الصحيفة (سورة طه وإذا تحت كل كلمة) من كلماتها (عشر حسنات مثبتة) فى تلك الصحيفة (إلا كلمة واحدة فإنى رأيت مكانها) أى الكلمة الواحدة (محوا) أى مزالا (ولم أر تحتها شيئا) من الثواب (فقلت) للشخص (والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أرى لها ثوابا ولا أراها أثبتت) أى فى تلك الصحيفة (فقال الشخص) المذكور (صدقت قد قرأتها وكتبناها) أى هذه الكلمة (إلا أنا سمعنا مناديا ينادى من قبل العرش) بكسر القاف وفتح الباء : أى من جهته (امحوها) أى أزيلوا تلك الكلمة (وأسقطوا ثوابها فمحوناها) أى أزلناها من الصحيفة (قال) بعض الصالحين (فبكيت فى منامى وقلت لم ؟) أى لأى شىء (فعلتم ذلك) المحو والإسقاط (قال) الذى نزل من السماء (مر رجل) فى هذه الطريق (فرفعت بها) أى بهذه الكلمة (صوتك لأجله) أى الرجل المار (فذهب ثوابها) أى الكلمة المذكورة ، وإنما أتى المصنف رحمه الله بهذه الرؤيا فى هذا الباب مثبتا لمقتضاها لأنها رؤيا حق ليست من أضغاث أحلام ولا من تلاعب الشيطان وتحزينه وتحديثه، ولا من حديث النفس ولا من أحكام الطبائع الأربع ومضمنها فى إحباط العمل بالرياء ثابت معلوم من الأخبار وغيرها كما أفاده الفاسى (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة

وَأَمَّا شِدَّةُ الْغَبْنِ ، فَلِأَنَّ الرِّيَاءَ وَالْعُجْبَ آفَةٌ عَظِيمَةٌ تَقَعُ فِى لَحْظَةٍ ، فَرُبَّمَا تُفْسِدُ عَلَيْكَ عِبَادَةَ سَبْعِينَ سَنَةً .

وَحُكِىَ أَنَّ رَجُلاً أَضَافَ سُفْيَانَ الثَّوْرِىَّ رَحِمَهُ اللهُ وَأَصْحَابَهُ فَقَالَ لِأَهْلِهِ : هَاتُوا الطَّبَقَ لاَ الَّذِى أَتَيْتُ بِهِ فِى الْحَجَّةِ الْأُولى ، بَلِ الَّذِى أَتَيْتُ بِهِ فِى الْحَجَّةِ الثَّانِيَةِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سُفْيَانُ وقالَ : مِسْكِينٌ قَدْ أَفْسَدَ عَلَيْهِ بِهٰذَا حَجَّتَيْهِ .

(وأماشدةالغبن) والنقص (فلأن الرياء والعجب آفة عظيمة تقع فى لحظة فربما تفسد) أى هذه الآفة (عليك عبادة سبعين سنة . وحكى أن رجلا أضاف) أى أطعم على سبيل الضيافة (سفيان الثورى) وتقدمت ترجمته (رحمه الله وأصحابه فقال) الرجل (لأهله هاتوا) أى أعطوا (الطبق) وهو إناء يحمل فيه الطعام . فى المصباح : الطبق من أمتعة البيت والجمع أطباق مثل سبب وأسباب ، وطباق أيضاً مثل جبل وجبال (لا) الطبق (الذى أتيت) أنا (به) أى بالطبق (فى الحجة الأولى) إلى مكة المكرمة (بل هاتوا الطبق (الذى أتيت) أنا (به فى الحجة الثانية) لأنى حججت مرتين (فنظر إليه) أى إلى الرجل (سفيان) الثورى (وقال) هذا (مسكين قد أفسد عليه) أى على نفسه (بهذا) الذى قاله (حجتيه) وذلك لأن هذا المسكين يقول ما ذكر فرحا وسرورا باطلاع سفيان وأصحابه على حجته ومعرفتهم بذلك ، وهذا السرور يدل على رياء خفى منه ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند معرفة الناس واطلاعهم فلقد كان الرياء مستكنا فى القلب استكنان النار فى الحجر فأظهر منه اطلاع الخلق أثر السرور ، كما صرح به الغزالى رحمه الله .

فإن قلت : فما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته ؟ فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم . فنقول أولا كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم فالمحمود أربعة أقسام :

الأول : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله تعالى منها ، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم عليه وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله تعالى به ونظره إليه وألطافه به فإنه يستر الطاعة والمعصية ، ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة فلا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل ، فيكون فرحه بجميل نظر الله وحسن عنايته به ورعايته له لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم ، وقد قال تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به ، ولكن ليس لكل أحد لم يختبر نفسه وعلم دسائسها أن يقول إنه مقبول عند الله ففيه خطر عظيم زلت بسببه أقدام خلق كثير .

الثانى : أن يستدل باظهار الله تعالى الجميل وستره القبيح عليه فى الدنيا أنه كذلك يفعله فى الآخرة إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ستر الله على عبد ذنبا فى الدنيا إلا ستره عليه فى الآخرة

وَوَجْهٌ آخَرُ فى الْغَبْنِ ، أَنَّ أَقَلَّ طَاعَةٍ سَلِمَتْ عَنْ هٰذَا الرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ يَكُونُ لَهَا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْقِيمَةِ مَالاَ نِهَايَةَ لَهُ ، وَأَكْثَرُ طَاعَةٍ إِذَا أَصَابَتْهَا هٰذِهِ الآفَةُ بَقِيَتْ لاَقِيمَةَ لَهَا إِلاَّ أَنْ يَتَدَارَكَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مَارُوِىَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : لاَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَقْبُولٌ أَلْبَتَّةَ ، وَكَيْفَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَقْبُولٌ ؟

فلا يفضحه به على رءوس الأشهاد » رواه مسلم من حديث أبى هريرة فيكون الأول فرحا بالقبول فى الحال من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا الثانى التفات إلى المستقبل ، وقد يجتمعان معا فى مؤمن فيكون سببا لمزيد فرحه ولكن بشرط أنه إذا صدر منه القبيح فرطا من غير تصميم العزم عليه ثم ستره الله تعالى عليه ندم وأحسن توبته فهذا الذى يرجى له الستر فى الآخرة . وأما من ستر الله عليه ذلك وهو مصمم على الوقوع فيه أو العود إليه فليس له فى الآخرة نصيب، وربما يفضحه الله فى جوف بيته فليحذر السالك من ذلك .

الثالث : أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به فى الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا وأجر السر بما قصده أولا ، ومن اقتدى به فى طاعة ناله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شىء كما ورد فى الخبر ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لامحالة .

الرابع : أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله فى مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة ، ويغتنم ذلك منهم ويسره ذلك إذ كم من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته بقلبه أو يحسده على ما أوتيه أو يذمه ويهزأ به ويسبه فى المجالس ، أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه ، فهذا الرابع فرح بحسن إيمان عباد الله . ولكن للشيطان فى هذا الاسم تغريرات وتلبيسات لذلك قلما يوجد معه الاخلاص وعلامة الاخلاص فى هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه ، ومهما رأى نفسه تستثقل حمدهم غيره في مجلسه فاعلم أنه لا إخلاص حينئذ . وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام فى مصادره حين يصدر وموارده حين يرد فهذا مكروه مذموم ، كذا ذكره الغزالى وغيره (ووجه آخر فى الغبن أن أقل طاعة سلمت عن هذا الرياء والعجب يكون لها من الله عز وجل من القيمة مالا نهاية له وأكثر طاعة إذا أصابتها هذه الآفة) التى هى الرياء والعجب (بقيت) أى الطاعة التى كثرت (لا قيمة لها إلا أن يتداركها الله تعالى على ما روى عن على) بن أبى طالب (رضى الله عنه أنه قال : لا يقل عمل مقبول ألبتة) أى قطعا (وكيف يقل عمل مقبول) ولفظ القوت : قال على كرم الله وجهه : كونوا بقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل فإنه لا يقل عمل مع تقوى ، وكيف يقل عمل يتقبل

وَسُئِلَ النَّخَعِيُّ، عَنْ عَمَلِ كَذَا وَكَذَا: مَا ثَوَابُهُ ؟ قَالَ : إِذَا قُبِلَ لَا يُحْصَى ثَوَابُهُ .

وَعَنْ وَهْبٍ قَالَ : كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ عَبَدَ اللهَ سَبْعِينَ عَاماً صَائِماً يُفْطِرُ مِنْ سَبْتٍ إِلَى سَبْتٍ فَطَلَبَ إِلَى اللهِ حَاجَةً فَلَمْ تُقْضَ لَهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُومُهَا وَقَالَ : مِنْ قِبَلِكِ أُتِيتُ ، لَوْ كَانَ عِنْدَكِ خَيْرٌ لَقُضِيَتْ حَاجَتُكِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى مَلَكاً فَقَالَ : يَا ابْنَ آدَمَ سَاعَتُكَ الَّتِي أَزْدَرَيْتَ فِيهَا نَفْسَكَ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَتِكَ الَّتِي مَضَتْ .

قُلْتُ : فَلْيَنْظُرُ الْعَاقِلُ إِلَى هٰذَا الْكَلَامِ ، أَلَيْسَ مِنَ الْغَبْنِ أَنَّ وَاحِداً يَكْدَحُ وَيَتْعَبُ سَبْعِينَ سَنَةً ،

(وسئل النخعي) رحمه الله هو أبو عمران وأبو عمار إبراهيم بن يزيد بن الأسود أحد الأئمة المشاهير تابعي توفي سنة ست ، وقيل خمس وتسعين من الهجرة وله تسع وأربعون سنة ، ونسبته إلى النخع بفتح النون والخاء المعجمة وبعدها عين مهملة ، وهي قبيلة كبيرة من مذحج ، باليمن ، كذا في سراج السالكين (عن عمل كذا وكذا) عملا من أعمال الصالحات (ما ثوابه) أي العمل (قال) النخعي (إذا قبل) ذلك العمل (لا يحصى ثوابه . و) روى (عن وهب) بن منبه بن كامل اليماني الذماري أبو عبد الله الأنباري تابعي ثقة عالم زاهد ، وكان على قضاء صنعاء ، مكث أربعين سنة لم يرقد على فراش ، روى له البخاري حديثا واحدا والباقون إلا ابن ماجه مات سنة ١١٦ ذكره العلامة الزبيدي . وقال عبد الحق : إن وهب بن منبه تابعي جليل من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية ، سمع جابر بن عبد الله وابن عباس وابن عمرو بن العاص وأبا سعيد الخدري وأبا هريرة وأنسا والنعمان بن بشير . روى عنه عمرو بن دينار وعوف الأعرابي والمغيرة بن حكيم وآخرون واتفقوا على توثيقه ، توفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة . وقال أبو سعيد : سنة عشر ومائة (قال كان فيمن كان قبلكم رجل عبد الله سبعين عاما صائما يفطر من سبت إلى سبت) ثم بدت له إلى الله حاجة فقام سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة (فطلب) العبد (إلى الله حاجة فلم تقض) أي الحاجة (له) أي للعابد (فأقبل) العابد (على نفسه يلومها) أي النفس (وقال من قبلك) بكسر القاف والكاف : أي أكانت الحاجة من جهتك (أوتيت) أي تلك الحاجة هيهات (لو كان عندك خير لقضيت حاجتك فأنزل الله تعالى) إليه (ملكا فقال) الملك (يا ابن آدم ساعتك التي ازدريت) أي حقرت (فيها) أي في تلك الساعة (نفسك خير من عبادتك التي مضت) سبعين سنة وقد قضى الله حاجتك . رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (قلت : فلينظر العاقل إلى هذا الكلام) المروي عن ابن وهب وغيره (أليس من الفتن أن واحدا) من سالكي طريق الآخرة (يكدح) من باب قطع : أي يعمل ويسعى (ويتعب سبعين سنة

وَآخَرَ يَتَفَكَّرُ سَاعَةً وَاحِدَةً ، فَتَكُونُ فِكْرَةُ سَاعَةٍ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً ، أَلَيْسَ هٰذَا مِنَ الْغَبْنِ الْعَظِيمِ أَنَّكَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً ، وَتَتْرُكُ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ، بَلَى وَاللهِ إِنَّهُ لَأَعْظَمُ الْغَبْنِ ، وَإِنَّ إِغْفَالَهُ لَأَشَدُّ خُسْرَانًا ، وَإِنَّ الْخَصْلَةَ الَّتِي لَهَا هٰذِهِ الْقِيمَةُ وَالْخَطَرُ ، يَجِبُ أَنْ تُحْذَرَ وَتُجْتَنَبَ ، وَلِمِثْلِ هٰذَا الْمَعْنَى إِنَّمَا وَقَعَ نَظَرُ أُولِي الْأَبْصَارِ مِنَ الْعُبَّادِ

وآخر) منهم (يتفكر ساعة واحدة فتكون فكرة ساعة أفضل عند الله من عبادة سبعين سنة) بل وردت السنة بأن تفكر ساعة خير من عبادة ثمانين سنة . رواه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس . قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رحمه الله : التفكر نعت كل طالب وثمرته الوصول بشرط العلم ، فإذا سلم الفكر من الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق . ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زهدا فيها ، وفكر العابدين فى جميل الثواب فيزدادون نشاطا عليه ورغبة فيه ، وفكر العارفين فى الآلاء والنعماء فيزدادون محبة للخالق سبحانه . وقال الجنيد قدس سره : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ، وخرج بما ذكر التفكر فى ذات الله فإنه منهى عنه . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصر قوما فقال: مالكم ؟ فقالوا نتفكر فى الخالق ، قال تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فى الخالق فانكم لاتقدرون قدره » وقد ذكر المصنف فضيلة التفكر وحقيقته وثمرته وغير ذلك فى الاحياء فانظر هناك (أليس هذا) الكدح المذكور (من الغبن العظيم) وذلك الغبن (أنك متمكن من ساعة) أى إلى ساعة (خير من سبعين سنة وتترك ذلك) أى تحصيل التفكر فى الساعة الواحدة الذي هو خير من سبعين سنة (من غير حاجة بلى والله إنه) أى الترك لذلك التحصيل والاشتغال بالكدح (لأعظم الغبن) والنقص .

﴿ تنبيه ﴾ اعلم أن بلى حرف إيجاب ، فاذا قيل ما قام زيد وقلت فى الجواب بلى ، فمعناه إثبات القيام ، وإذا قيل: أليس كان كذا وقلت بلى فمعناه التقرير والاثبات ولا تكون إلا بعد نفى إما فى أول الكلام كما تقدم وإما فى أثنائه كقوله تعالى « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى » والتقدير بلى نجمعها . وقد يكون مع النفي استفهام وقد لايكون كما تقدم ، فهو أبدا يرفع حكم النفى ويوجب نقيضه وهو الاثبات ذكره الفيومي فى مصباحه (وإن إغفاله) أى الترك المذكور (لأشد خسرانا ، وأن الخصلة التى لها هذه القيمة والخطر يجب أن تحذر) من الفوات (وتجتنب) منه (ولمثل هذا المعنى إنما وقع نظر أولى الأبصار) أى أصحاب البصائر (من العباد) بضم العين جمع

فى مِثْلِ هٰذِهِ الدَّقائِقِ ، فَاهْتَمُّوا لِمِثْلِ هٰذِهِ الْأَسْرارِ بِمَعْرِفَتِها أَوَّلاً ، ثُمَّ رِعايَتِها وَالتَّحَفُّظِ عَنْها ثانِياً ، وَلَمْ تَغُرَّهُمْ كَثْرَةُ الْأَعْمالِ بِالظّاهِرِ وَقالُوا الشَّأْنُ فى الصَّفْوَةِ لا فى الْكَثْرَةِ ، وَقالُوا جَوْهَرَةٌ وَاحِدَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ خَرَزَةٍ ، وَأَمَّا الَّذِينَ قَلَّ عِلْمُهُمْ وَ كَلَّ فى هٰذَا الْبابِ نَظَرُهُمْ ، فَجَهِلُوا الْمَعانِيَ ، وَأَغْفَلُوا ما فى الْقُلُوبِ مِنْ عُيُوبٍ ، وَاشْتَغَلُوا بِإِتْعابِ النُّفُوسِ فى الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْإِمْساكِ عَنِ الطَّعامِ وَالشَّرابِ وَنَحْوِهِ ، فَغَرَّهُمُ الْعَدَدُ وَالْكَثْرَةُ وَلَمْ يَنْظُرُوا ما فِيها مِنَ الْمِنَحِ وَالصَّفْوَةِ ، وَما يُغْنِى عَدَدُ الْجَوْزِ

عابد (فى مثل هذه الدقائق فاهتموا لمثل هذه الأسرار بمعرفتها) أى الأسرار (أولا ثم رعايتها والتحفظ عنها ثانيا ولم تغرهم) أى أصحاب البصائر (كثرة الأعمال بالظاهر وقالوا الشأن) المحمود (فى الصفوة) أى صفوة القلوب وتزكيتها عما يكدرها من الصفات المذمومة (لا فى الكثرة) أى كثرة الأعمال بالظاهر (وقالوا) أي أصحاب البصائر فى المثل (جوهرة واحدة خير من ألف خرزة) قال العلامة عبد الحق : الخرزة واحدة الخرز . فى [محيط المحيط] : الخرز الجوهر كالماس والياقوت ونحوهما وما ينظم فى السلك من الجزع والودع . وعند المولدين يختص بالحب المثقوب من الزجاج ونحوه تنظم منه المسابح والقلائد ونحوها انتهى ؛ وأيضا فيه : الجزع الخرز اليمانى فيه سواد وبياض تشبه به الأعين اه ، وأيضا فيه: الودع خرز أبيض تخرج من البحر تتفاوت فى الصغر والكبر شقها كشق النواة تعلق لدفع العين الواحدة ودعة والجمع ودعات (وأما الذين قل علمهم وكل) أى عمى (فى هذا الباب) أى فى مثل هذه الدقائق (نظرهم فجهلوا المعانى) والأسرار (وأغفلوا) أى تركوا وأهملوا ، فى المصباح : وأغفلت الشىء إغفالا تركته إهمالا من غير نسيان (ما فى القلوب من عيوب واشتغلوا بإتعاب النفوس فى الركوع والسجود والامساك عن الطعام والشراب ونحوه) أى ما ذكر من الركوع وغيره (فغرهم) أى خدعهم (العدد والكثرة) فى الأعمال الظاهرة وأصل الغرور : الغفلة وسكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع (ولم ينظروا ما فيها) أى فى القلوب (من المنح) بكسر الميم : أى العطايا (والصفوة) حتى إن طائفة منهم اغتروا بالصوم الكثير ، وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الكذب والغيبة ، وخواطرهم عن الرياء وحب المحمدة ، وبطونهم عن أكل الحرام أو الشبهة عند الافطار وفى السحور ، وألسنتهم من الهذيان واللغو بأنواع الفضول طول النهار ، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير فيهملوا الفرض ويطلبوا النفل ثم لا يقوموا بحقه وذلك غاية الغرور . وقد بسط الكلام على أنواع مداخل الغرور ومجاريه مصنفنا أبو حامد الغزالى فى كتاب [ذم الغرور] من كتب إحياء علوم الدين فانظره تجد ما ينشرح به صدرك (وما يغنى) أى لا يكفى (عدد الجوز)

وَلاَ لبَّ فِيهِ ، وَمَا يَنْفَعُ رَفْعُ السقُوفِ ، وَلَمْ تحكم مَبَانِيهَا ، وَمَا يَعْقِلُ هٰذِهِ الْحَقَائِقَ إِلاَّ الْعَالِمُونَ بِاللهِ الْمُكَاشِفُونَ ،

والجوز المأكول معرب وأصله كوز بالكاف (ولا لب فيه) أى فى ذلك الجوز ، ولب الجوز واللوز ونحوهما ما فى جوفهما والجمع لبوب (وما) أى ليس (ينفع رفع السقوف) جمع سقف مثل فلس وفلوس (ولم تحكم) من الإحكام بكسر الهمزة بمعنى الاتقان (مبانيها) أي تلك السقوف (وما يعقل) ولا ينظر (هذه الحقائق إلا العالمون بالله المكاشفون) .

اعلم أن علم المكاشفة : هو العلم بالله عز وجل الدال عليه المراد إليه الشاهد بالتوحيد له من علم الايمان واليقين وعلم المعرفة ، وذلك غاية العلوم كلها وإليه تنتهي همم العارفين لايوجد وراءه مرمى للأنظار ، فقد قال بعض العارفين فيما نقله صاحب القوت : من لم يكن له نصيب من هذا العلم : أى علم الباطن أخاف عليه سوء الخاتمة ولا سبيل إلى معرفته إلا بالذوق الصحيح ، ولا يكاد يلتذ به إذا جاء من غير نبى إلا أصحاب الأذواق السليمة ، وهو فوق طور العقل ولذا ربما مجته العقول الضعيفة التى لم توف النظر والبحث حقه ، ولهذا كان صاحبه إذا أراد أن يفهم منه لأصحاب الظاهر فلا بد له من ضرب الأمثال الكثيرة والمخاطبات الشعرية ، وقد يتسارع إلى الانكار على صاحبه وذلك لأنه فوق طور العقل ، ويحصل من نفث روح القدس يخص به تعالى النبى والولى لا يكون لغيرهما ، وعلوم المجتهدين كلها من هذا الباب . لكنهم أفصحوا فى العبارة ففهمها الناس ولم ينكروها عليهم . وقال القطب الشعرانى رحمه الله تعالى : وكان أخى أفضل الدين يتكلم على الآية من سبعين وجها ويقول : حقيقة العلوم التى تسمى باطنا إنما هيمن علوم الظاهر لأنها ظهرت للقائل بها ، ولو أنها بطنت منه لما اهتدى لفهمها ولا لذكرها . فقلت له صحيح ولكن ذلك خاص بأجل الكمل ، فقال نعم فان الظاهر هو المعقول والمقبول الذى تكون منه العلوم النافعة والأعمال الصالحة . وأما الباطن فإنما هو المعارف الالهية التى هى روح تلك العلوم والمعقولة والمقبولة انتهى . وأدنى النصيب منه إذا لم يمكنه التحلى به التصديق به جزما ، وتسليمه لأهله بعدم الانكار عليهم بقبول ما يرد من جهتهم بانشراح صدر وعدم اختلاج باطن فيكون فى منزلة المحبين لهم ، فإن من ينكر على أولياء الله الوارثين لعلوم أنبياء الله يخاف عليه سوء الخاتمة . وقال بعضهم : من كان فيه خصلتان لم يفتح له شيء من هذا العلم : أى علم الباطن بدعة : وهي الفعلة المخالفة للسنة ، أو كبر بأن يرى نفسه أكبر من غيره . وقال الجنيد قدس سره : أعلى درجات الكبر أن ترى نفسك ، وأدناها أن تخطر ببالك : يعنى نفسك ، وقيل من كان محبا للدنيا، أو مصرا على هوى لم يتحقق به : أى بعلم الباطن ولا يكون له منه نصيب ، وقد يتحقق بسائر العلوم الظاهرة ، وأقل عقوبة من ينكره أن لايرزق منه شيئا أبدا ، هكذا عن أبى محمد سهل التسترى . وقال أبو تراب النخشبى : إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة فى أولياء الله : أى لأنه أدبر عن النور

وَاللهُ تعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

﴿ وأمّا عظم الخطر فمن وجوه ﴾ أَحَدُهَا : أَنّ المَعْبُودَ مَلِكٌ لاَ نِهَايَةَ لِجَلاَلِهِ وَعَظَمَتِهِ وَلَهُ عَلَيْكَ نِعَمٌ لاَ تُعَدُّ وَلاَ تُحْصَى ، وَلَكَ بَدَنٌ مَعِيبٌ بِعُيُوبٍ خَفِيَّةٍ ، مَئُوفٌ بِآفَاتٍ كَثِيرَةٍ وَأَمْرٍ مَخُوفٍ إِنْ وَقَعَ لَكَ زَلَلٌ مَعَ تَسَارُعِ النَّفْسِ إِلَيْهِ ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ عَمَلاً صَافِيًا سَالِمًا مِنْ بَدَنٍ مَعِيبٍ وَنَفْسٍ مَيَّالَةٍ إِلَى الشَّرِّ ، أَمَّارَةٍ بِالسُّوءِ عَلَى وَجْهٍ يَصْلُحُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فِى جَلاَلِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكَثْرَةِ أَيَادِيهِ وَمِنَّتِهِ ، وَيَقَعُ مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضَا وَالْقَبُولِ ، وَإِلاَّ فَيَفُوتُكَ الرِّبْحُ الْعَظِيمُ الَّذِى لاَ تَسْمَحُ النَّفْسُ بِفَوْتِهِ ، بَلْ رُبَّمَا يُصِيبُكَ فِيهِ

وأقبل على الظلام فقاس حال أهل الله على حال نفسه . وفى القوت : من لم يكن له مشاهدة من هذا العلم لم يعر عن شك أو نفاق لأنه عار عن علم اليقين ومن عرى عن علم اليقين وجد فيه دقائق الشك ، انتهى . ونقل الشعرانى عن القطب أبى الحسن الشاذلى قدس سره : من لم يتغلغل فى علوم القوم مات على غير سنة فيخشى عليه سوء الخاتمة . وفى كتاب القصد والسداد لبعض السادة من أهل اليمن ، قال القطب السيد عبد الله بن أبى بكر العيدروس قدس الله سره : عليك بحسن الظن بالصالحين ومحب محبهم فهو من أعلى المراتب وأجل المواهب ولصاحبه سابقة وعناية وتخصيص وهداية وسوء الظن مذموم مطلقا . وقال آخر : عليك بحسن الظن فإنه دليل على نور البصيرة وصلاح السريرة ، وكفى به سببا لحصول السعادة ونيل الدرجات . ومن فوائده فائدة يندرج فيها كل فائدة ، وهى أنه يورث حسن الخاتمة وثمرته قد لا تظهر إلا عند خروج الروح فيفضى بصاحبه إلى السعادة المتضمنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (والله تعالى ولى الهداية بفضله . وأما عظم الخطر فمن وجوه : أحدها أن المعبود) سبحانه وتعالى (ملك لا نهاية لجلاله وعظمته ، وله) أى المعبود (عليك نعم) جمع نعمة (لا تعد ولا تحصى) قال عز وجل « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (ولك بدن) ضعيف (معيب بعيوب خفية مئوف) أى مصاب بالآفة . قال العلامة عبد الحق : أيف يوأف بالبناء للمجهول آفا : أصابته الآفة فهو مئوف ومئيف (بآفات كثيرة ، وأمر مخوف إن وقع لك زلل) أى خطأ (مع تسارع النفس إليه) أى إلى الزلل (فيحتاج أن يستخرج عملا صافيا سالما من بدن معيب و) من (نفس ميالة إلى الشر ، أمارة بالسوء على وجه يصلح لرب العالمين فى جلاله وعظمته وكثرة أياديه) أى نعمه (ومنته ويقع منه) عز وجل (موقع الرضا والقبول ، وإلا) يستخرج عملا صافيا سالما عن الآفات (فيفوتك الربح العظيم الذى لا تسمح النفس بفوته) أى الربح (بل ربما يصيبك فيه) أى فى فوت ذلك الربح

مُصِيبَةٌ لَا طَاقَةَ لَكَ بِهَا ، وَهٰذَا وَٱللهِ شَأْنٌ عَظِيمٌ وَخَطْبٌ جَسِيمٌ . وَأَمَّا جَلَالُ ٱلْمَلِكِ وَعَظَمَتُهُ بِحَيْثُ إِنَّ ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٱلْأَبْرَارَ قَائِمُونَ لَهُ بِٱلْخِدْمَةِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُنْذُ خَلَقَهُ ٱللهُ تَعَالَى فِى قِيَامٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِى رُكُوعٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِى سُجُودٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِى تَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ ، فَلَا يُتِمُّ ٱلْقَائِمُ قِيَامَهُ ، وَلَا ٱلرَّاكِعُ رُكُوعَهُ ، وَلَا ٱلسَّاجِدُ سُجُودَهُ ، وَلَا ٱلْمُسَبِّحُ تَسْبِيحَهُ ، وَلَا ٱلْمُهَلِّلُ تَهْلِيلَهُ ، مَادًّا بِهِ صَوْتَهُ إِلَى نَفْخِ ٱلصُّورِ ؛ ثُمَّ لَمَّا فَرَغُوا مِنْ هٰذِهِ ٱلْخِدْمَةِ ٱلْعَظِيمَةِ ، نَادَوْا بِأَجْمَعِهِمْ : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ،

(مصيبة لا طاقة لك بها) أى بالمصيبة (وهذا) المذكور من إصابة المصيبة (والله شأن عظيم وخطب) أى هول (جسيم) أى عظيم (وأما جلال الملك وعظمته بحيث إن الملائكة المقرّبين الأبرار قائمون له) أى للملك (بالخدمة) أى الطاعة (آناء الليل) أى ساعاته (و) أطراف (النهار حتى إن منهم) أى الملائكة (من هو مذ خلقه الله تعالى فى قيام ، ومنهم) أى من الملائكة (من هو فى ركوع ، ومنهم من هو فى سجود ، ومنهم من هو فى تسبيح وتهليل ، فلا يتم القائم قيامه ولا الراكع ركوعه ولا الساجد سجوده ولا المسبح تسبيحه ولا المهلل) أى من يقول لا إله إلا الله (تهليله مادا به) أى بما ذكر من التسبيح وغيره (صوته) أى صوت من ذكر من الملائكة (إلى نفخ الصور) قال مقاتل بن سليمان : الصور هو القرن وصاحب الصور : إسرافيل عليه السلام وهو واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى ، فاذا نفخ صعق من فى السموات والأرض : أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله (ثم لما فرغوا) أى هؤلاء الملائكة (من هـذه الخدمة العظيمة نادوا بأجمعهم سبحانك ما عبدناك حق عبادتك) وقد روى أبو الشيخ فى العظمة والبيهقى والخطيب وابن عساكر من حديث رجل من الصحابة « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته ، ما منهم ملك تقطر من عينه دمعة إلا وقعت ملكا قائما يسبح ، وملائكة سجودا منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة وصفوفا لم ينصرفوا عن مصافهم ولا ينصرفون إلى يوم القيامة تجلى لهم ربهم فنظروا إليه وقالوا سبحانك ما عبدناك كما ينبغى لك » وروى الديلمى من حديث ابن عمر « إن لله ملائكة فى السماء الدنيا خشوعا منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون سبحان ذى الملكوت فاذا كان يوم القيامة يقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك . ولله ملائكة فى السماء الثانية ركوعا منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة فاذا كان يوم القيامة يقولون سبحانك

وهٰذَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَخَيْرُ الْعَالَمِينَ ، أَعْلَمُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُهُمْ ، مُحَمَّدٌ صلى اللهُ عليه وسلم وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ يَقُولُ : « لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » يَقُولُ : أَنَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أُثْنِيَ عَلَيْكَ ثَنَاءً أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ أَعْبُدَكَ كَمَا أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ ،

ماعبدناك حق عبادتك ، ولله ملائكة فى السماء السادسة سجودا منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » (وهذا) أي نبينا (سيد المرسلين وخير العالمين أعلم الخلق وأفضلهم) على الاطلاق (محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين يقول : لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) قال العراقى : أخرجه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها . وأخرجه الإمام أحمد عن أبى أسامة .

قال المصنف فى معنى هذا الحديث (يقول) صلى الله عليه وسلم (أنا لا أقدر أن أثنى عليك ثناء أنت له أهل فضلا) أى زائدا (عن أن أعبدك) حق عبادتك . اعلم أن فضلا يستعمل فى موضع يستبعد فيه الأدنى ويراد به استحالة ما فوقه ، ولهذا يقع بين كلامين متغايرى المعنى وأكثر استعماله أن يجيء بعد نفى كما هنا ، قاله الفيومى عن قطب الدين الشيرازى فى شرح المفتاح (كما أنت له أهل) .

قال المصنف فى المقصد الأسنى ولم يرد به أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه فى العبارة عنه ، بل معناه أني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك وأنت المحيط بها وحدك فإذا لا يحيط مخلوق من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة ، وأما اتساع المعرفة فإنما يكون فى معرفة أسمائه وصفاته ولذلك قال أبو القاسم الجنيد رحمه الله : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى بعض خطبه على المنبر : الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، ويروى عنه أيضا : العجز عن درك الإدراك إدراك قال المصنف فى كتابه المذكور نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هى أنهم لا يعرفونه وأنهم لا يمكنهم ألبتة معرفته وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالى فاذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا فقد عرفوه : أى بلغوا المنتهى الذى يمكن فى حق الخلق من معرفته ؛ ثم قال وللمعرفة سبيلان . أحدهما السبيل الحقيقى وذلك مسدود إلا فى حق الله تعالى فلا يهتم أحد من الخلق لنيله وإدراكه إلا ردته سبحات الجلال إلى الحيرة ولا يشرئب أحد لملاحظته إلا غطى الدهش طرفه . وأما السبيل الثانى وهو معرفة الصفات والأسماء فذلك مفتوح للخلق وفيه تتفاوت مراتبهم فليس من يعلم أنه عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته فى ملكوت السموات والأرض وخلق الأرواح والأجساد واطلع على بدائع المملكة وغرائب الصنعة

ممعنا فى التفصيل ومستغرقا فى دقائق الحكمة ومستوفيا لطائف التدبير ومتصفا بجميع الصفات الملكية المقربة من الله تعالى نائلا تلك الصفات نيل اتصاف بها ، بل بينهما البون البعيد ما لا يكاد يحصى، وفى تفاصيل ذلك ومقاديره تتفاوت الأنبياء والأولياء ولن يصل ذلك إلى فهمك إلا بمثال ولله المثل الأعلى ، ولكنك تعلم أن العالم التقى الكامل مثلا مثل الشافعى رضى الله عنه يعرفه بواب داره ويعرفه المزنى تلميذه والبواب يعرفه أنه عالم بالشرع ومصنف فيه ومرشد خلق الله تعالى إليه على الجملة، والمزنى يعرفه لا كمعرفة البواب بل يعرفه معرفة محيطة بتفاصيل صفاته ومعلوماته ، بل العالم الذى يحسن عشرة أنواع من العلوم لا يعرفه بالحقيقة تلميذه الذي لم يحصل إلا نوعا واحدا فضلا عن خادمه الذى لم يحصل شيئا من علومه بل الذى حصل علما واحدا فإنما عرف على التحقيق عشره إذا ساواه فى ذلك العلم حتى لم يقصر عنه فان قصر عنه فليس يعرف بالحقيقة ما قصر عنه إلا بالاسم وإيهام الجملة وهو أنه يعرف أنه يعلم شيئا سوي ماعلمه ، وكذلك فافهم تفاوت الخلق فى معرفة الله تعالى فبقدر ما انكشف له من معلومات الله تعالى وعجائب مقدوراته وبدائع آياته فى الدنيا والآخرة والملك والملكوت تزداد معرفتهم بالله تعالى وتقرب معرفتهم من معرفته الحقيقية . فإن قلت فاذا لم يعرفوا حقيقة الذات واستحال معرفتها فهل عرفوا الأسماء والصفات معرفة تامة حقيقية ؟ قلنا هيهات ذلك لا يعرفه بالكمال فى الحقيقة إلا الله تعالى، لأنا إذا علمنا ذاتا عالمة فقد علمنا شيئا مبهما لا ندرى حقيقته لكن ندرى أن له صفة العلم ؛ فإن كانت صفة العلم معلومة لنا حقيقة كان علمنا بأنه عالم أيضا علما تاما بحقيقة هذه الصفة وإلا فلا ، ولا يعرف أحد حقيقة علم الله تعالى إلا من له مثل علمه وليس ذلك إلا لإله فلا يعرفه سواه تعالى وإنما يعرفه غيره بالتشبيه بعلم نفسه وعلم الله تعالى لا يشبهه علم الخلق ألبتة فلا يكون معرفته به معرفة تامة حقيقية أصلا بل إيهامية تشبيهية انتهى . وفى كتاب الأسماء والصفات لأبى منصور التميمى أنه صلى الله عليه وسلم وصف ربه عزوجل فقال حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شىء أدركته ، وفى رواية : دون الله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة انتهى . وقال العراقى : أخرج الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة « بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابا من نور» وإسناده ضعيف، وفيه أيضا من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل «هل ترى ربك ؟ قال إن بينى وبينه لسبعين حجابا من نور » ولمسلم من حديث أبى موسى « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » ولابن ماجه « كل شىء أدركه بصره » قال أبو منصور التميمى فى كتابه المذكور : كل خبر ذكر فيه الحجاب فإنه يرجع معناه إلى الخلق لأنهم هم المحجوبون عن رؤية الله عز وجل وليس الخالق محجوبا عنهم لأنه يراهم ولا يجوز أن يكون مستورا بحجاب لأن ما ستره غيره فساتره أكبر منه وليس لله عز وجل حد ولا نهاية فلا يصح أن يكون بغيره مستورا ، ودليله قوله عز وجل « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » ولم يقل إنه محجوب عنهم . ويؤيد ذلك ما رواه ابن أبى ليلى عن على رضى الله عنه أنه مر بقصاب فسمعه يقول فى يمينه : لا والذى احتجب سبعة أطباق فعلاه بالدرة وقال له : يا لكع إن الله

لا يحتجب عن خلقه بشىء ، ولكنه حجب خلقه عنه ، فقال له القصاب أو لا أكفر عن يمينى يا أمير المؤمنين ؟ فقال لا ، إنك حلفت بغير الله ، فأما قوله لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه فقد تأوله أبو عبيد على أن المراد به لو كشف الرحمة عن النار لأحرقت من على الأرض ، وكذلك قوله دون الله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة ، معناه أنها أجمع حجاب لغيره لأنه غير محصور فى شىء ، وقيل معناه أن لله عز وجل علامات ودلالات على وحدانيته لو شاهدها الخلق لقامت مقام العيان فى الدلالة عليه غير أنه خلق دون تلك الدلائل سبعين ألف حجاب من نور وظلمة ليتوصل الخلق إلى معرفته بالأدلة النظرية دون المعارف الضرورية انتهى ، وفصل الخطاب فى هذا المقام ما قاله المصنف فى مشكاة الأنوار فى تفسير هذا الحديث ما نصه : إن الله متجلى فى ذاته بذاته لذاته ويكون الحجاب بالإضافة إلى محجوب لا محالة . وإن المحجوبين من الخلق ثلاثة أقسام : منهم من يحجب بمجرد الظلمة ، ومنهم من يحجب بالنور المحض ، ومنهم من يحجب بنور مقرون بظلمة وأصناف هذه الأقسام كثيرة ، ويمكنى أن أتكلف حصرها لكنى لا أثق بما يلوح من تحديد وحصر ، إذ لا أدرى أنه المراد بالحديث أم لا ؟ أما الحصر إلى السبعمائة أو سبعين ألفا فتلك لا يستقل بها إلا القوة النبوية مع أن ظاهر ظنى أن هذه الأعداد مذكورة للتكثير لا للتحديد ، وقد تجرى العادة بذكر أعداد ولا يراد به الحصر بل التكثير والله أعلم بتحقيق ذلك ، وذلك خارج عن الوسع وإنما الذى يمكننى الآن أن أعرفك هذه الأقسام وبعض أصناف كل قسم .

القسم الأول : المحجوبون بمحض الظلمة وهؤلاء صنفان ، والصنف الثانى منهما ينقسم أربعة فرق ؛ وأصناف الفرقة الرابعة لا يحصون ، وكلهم محجوبون عن الله بمحض الظلمة وهى نفوسهم المظلمة .

والقسم الثانى : طائفة حجبوا بنور مقرون بظلمة ، وهم ثلاثة أصناف : صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم عن مقايسات عقلية فاسدة ، وفى الصنف الأول طوائف ستة لا يخلو واحد منهم عن مجاوزة الالتفات إلى نفسه والتشوق إلى معرفة ربه ، وفى الصنف الثانى أيضا طوائف وأحسنهم رتبة المجسمة ثم الكرامية ، وفى الثالث أيضا فرق فهؤلاء كلهم أصناف القسم الثانى الذين حجبوا بنور مقرون بظلمة .

والقسم الثالث : هم المحجوبون بمحض الأنوار وهم أربعة أصناف : الواصلون منهم . الصنف الرابع : وهم الذين تجلى لهم أن الرب المطاع موصوف بصفة لا تتناهى فى الوحدانية المحضة والكمال البالغ وأن نسبة هذا المطاع إلى الموجودات الحسية نسبة الشمس فى الأنوار المحسوسة منه فتوجهوا من الذى يحرك السموات ومن الذى أمر بتحريكها إلى الذى فطر السموات وفطر الأرض بتحريكها ؟ فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم ، إذ وجودهم من قبله فأحرقت سبحات وجهه وجه الأول الأعلى جميع ما أدركه الناظرون وبصيرتهم إذ وجدوه مقدسا منزها ، ثم هؤلاء انقسموا ، فمنهم من أحرق منه جميع ما أدركه بصره وامحق وتلاشى ولكن بقى هو ملاحظا للجمال والقدس وملاحظا ذاته فى جماله الذى ناله بالوصول إلى الحضرة

وَهُوَ الَّذِى يَقُولُ : « لَيْسَ أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ ، قَالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: وَلاَ أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِرَحْمَتِهِ » .

﴿ وأمّا النِّعمُ والأيادِى ﴾ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا) وَعَلَى مَا رُوِىَ إِنَّهُ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلاَثَةِ دَوَاوِينَ : دِيوَانِ الْحَسَنَاتِ، وَدِيوَانِ السَّيِّئَاتِ ، وَدِيوَانِ النِّعَمِ ، فَتُقَابَلُ الْحَسَنَاتُ بِالنِّعَمِ ،

الإلهية وانمحقت منه المبصرات دون المبصر ، وجاوز هؤلاء طائفة منهم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه وغشيهم سلطان الجلال وامحقوا وتلاشوا فى ذاته ولم يبق لهم لحاظ إلى أنفسهم بفنائهم عن أنفسهم ولم يبق إلا الواحد الحق، وصار معنى قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه » لهم ذوقا وحالا فهذه نهاية الواصلين ، ومنهم من لم يتدرج فى الترقى والعروج عن التفصيل الذى ذكرناه ولم يطل عليه العروج فسبقوا فى أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه فغلب عليهم أولا ما غلب على الآخرين آخرا وهجم عليهم التجلى دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسى أو بصيرة عقلية ، ويشبه أن يكون الأول طريق الخليل عليه السلام ، والثانى طريق الحبيب صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما، فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين ، ولا يبعد أن يبلغ عددهم إذا فصلت المقامات وتتبع حجب السالكين سبعين ألفا ، وإذا فتشت لاتجد منهم خارجا عن الأقسام التى حصرناها ، فانهم إنما يحجبون بصفاتهم البشرية ، أو بالحس أو بالخيال أو بمقايسة العقل أو بالنور المحض كما سبق انتهى . ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى شرح كلام المصنف .

قال رحمه الله (وهو) صلى الله عليه وسلم (الذى يقول « ليس أحد يدخل الجنة بعمله ») وفى رواية « مامنكم من أحد ينجيه عمله » (قالوا) أى الصحابة (ولا أنت يا رسول الله قال) صلى الله عليه وسلم (ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته) أى غمره وعمه بها متفق عليه من حديث أبى هريرة كما قاله العراقى. قال الزبيدى: ورواه ابن حبان أيضا بزيادة « ولكن سددوا » وروى من حديث شريك ابن طارق وأبى موسى .

(وأما النعم والأيادى) بمعنى واحد (فكما قال تعالى : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يعنى أن نعم الله كثيرة على عباده فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها (وعلى ماروى « إنه يحشر الناس على ثلاثة دواوين) جمع ديوان بالكسر وقد تفتح فارسى معرب . قال فى المغرب : هو الجريدة من دون الكتب إذا جمعها لأنها قطعة من دون القراطيس مجموعة . قال الطيبى : والمراد هنا صحائف الأعمال (ديوان الحسنات وديوان السيئات وديوان النعم فتقابل الحسنات بالنعم

فَلَا يُؤْتَى بِحَسَنَةٍ إِلَّا أُتِيَ بِنِعْمَةٍ ، حَتَّى تَغْمُرَ الْحَسَنَاتِ النِّعَمُ ، وَتَبْقَى السَّيِّئَاتُ وَالذُّنُوبُ ؛ فَلِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا الْمَشِيئَةُ .

وَأَمَّا عُيُوبُ النَّفْسِ وَآفَاتُهَا فَقَدْ قَدَّمْنَاهَا فِي بَابِهَا ؛ وَالْأَمْرُ الْمَخُوفُ أَنَّ الْعَبْدَ يَكْدَحُ فِي الْعِبَادَةِ وَيَدْأَبُ سَبْعِينَ سَنَةً غَافِلًا عَنْ عُيُوبِهِ وَآفَاتِهِ ، فَرُبَّمَا لَا يَكُونُ وَاحِدٌ مِنْهَا مَقْبُولًا ، وَرُبَّمَا يَتْعَبُ أَعْوَامًا فَتُفْسِدُهُ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَأَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ ذَٰلِكَ كُلِّهِ أَنَّهُ رُبَّمَا يَنْظُرُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْعَبْدِ وَهُوَ يُرَائِي النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ وَخِدْمَتِهِ ، حَيْثُ جَعَلَ ظَاهِرَهُ لِلَّهِ وَبَاطِنَهُ لِلْخَلْقِ فَيَطْرُدُهُ طَرْدًا لَا مَرَدَّ لَهُ ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ .

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَحْكِي عَنِ

فلا يؤتى بحسنة إلا أتى بنعمة حتى تغمر) أى تعلو وتغطى وبابه نصر (الحسنات النعم وتبقى السيئات والذنوب فلله تعالى فيها) أى فى تلك السيئات والذنوب (المشيئة) أى إن شاء عذب وإن شاء غفر ، وفى خبر آخر « الدواوين يوم القيامة ثلاثة : فديوان لا يغفر الله منه شيئا وديوان لا يعبأ الله به شيئا وديوان لا يترك الله منه شيئا ، فأما الديوان الذى لا يغفر الله منه شيئا فالاشراك بالله . قال الله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها فان الله يغفر ذلك إن شاء أن يتجاوز ، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فمظالم العباد بينهم القصاص لا محالة» رواه أحمد والحاكم وصححه من طريق صدقة بن موسى عن عمران الجونى عن يزيد بن بابنوس عن عائشة ، وقد رد الذهبى على الحاكم تصحيحه وقال صدقة بن موسى ضعفه الجمهور ويزيد ابن بابنوس فيه جهالة (وأما عيوب النفس وآفاتها فقد قدمناها فى بابها) فى العائق الرابع من عوائق العبادة الأربعة وموانعها (والأمر المخوف أن العبد يكدح) من باب قطع أى يعمل ويسعى كما فى المختار (فى العبادة ويدأب) أى يتعب فى المختار ، دأب فى عمله جد وتعب وبابه قطع وخضع فهو دائب بالألف لا غير (سبعين سنة غافلا عن عيوبه وآفاته فربما لا يكون واحد منها) أى العبادة (مقبولا وربما يتعب) العبد (أعواما) أى سنين (فتفسده) أى العبد يعني عمله زمانا طويلا (ساعة واحدة . وأعظم خطرا من ذلك) أى المذكور من غفلته عن العيوب والآفات (كله أنه) أى الحال والشأن (ربما ينظر الله تعالى إلى العبد وهو) أى العبد (يرائى الناس بعبادته وخدمته) أى طاعته (حيث جعل) أى ذلك العبد (ظاهره لله و) جعل (باطنه للخلق فيطرده) من باب نصر أى يبعده (طردا لا مرد له ، والعياذ بالله) من ذلك الطرد والإبعاد (ولقد سمعت بعض العلماء يحكى عن

الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ رُؤِيَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ : أَقَامَنِي اللهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ يَا حَسَنُ : أَتَذْكُرُ يَوْمَ كُنْتَ تُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ ، إِذْ رَمَقَكَ النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ فَزِدْتَ حُسْنًا لِصَلَاتِكَ ، فَلَوْلَا أَنَّ أَوَّلَ صَلَاتِكَ كَانَ لِي خَالِصًا لَطَرَدْتُكَ الْيَوْمَ عَنْ بَابِي ، وَلَقَطَعْتُكَ عَنِّي مَرَّةً وَاحِدَةً . وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْجُمْلَةِ مِنَ الدِّقَّةِ وَالصُّعُوبَةِ إِلَى حَدٍّ عَظِيمٍ نَظَرَ أُولُو الْأَبْصَارِ فِيهِ ، فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى جَمِيعِ مَا يُظْهِرُ لِلنَّاسِ عَنْ أَعْمَالِهِ ، حَتَّى حُكِيَ عَنْ رَابِعَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : مَا ظَهَرَ لِي مِنْ أَعْمَالِي لَا أَعُدُّهُ شَيْئًا ، وَقَالَ آخَرُ : اُكْتُمْ حَسَنَاتِكَ كَمَا تَكْتُمُ سَيِّئَاتِكَ ، وَآخَرُ يَقُولُ : إِنْ أَمْكَنَكَ أَنْ تَجْعَلَ لَكَ خَبْئًا مِنَ الْخَيْرِ فَافْعَلْ ، وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قِيلَ لِرَابِعَةَ : بِمَ تَرْتَجِينَ أَكْثَرَ مَا تَرْتَجِينَ ؟ قَالَتْ بِيَأْسِي مِنْ جُلِّ عَمَلِي .

الحسن البصرى) التابعى (رحمه الله أنه) أى الحسن (رؤى فى المنام بعد موته فسئل) الحسن (عن حاله) أى فقال السائل كيف حالك (فقال) أى الحسن (أقامنى الله بين يديه) عز وجل (وقال) سبحانه (يا حسن أتذكر يوم كنت تصلى فى المسجد إذ رمقك) أى نظرك (الناس بأبصارهم فزدت حسنا لصلاتك) أى لأجل نظرهم (فلولا أن أول صلاتك كان لى خالصا لطردتك) أى أبعدتك (اليوم عن بابى) أى باب رحمتى (ولقطعتك عنى مرة واحدة) .

قال المصنف رحمه الله (ولما كان الأمر) أي أمر العبادة الخالصة (فى الجملة من الدقة والصعوبة إلى حد عظيم نظر أولو الأبصار) أى أصحاب البصائر (فيه) أى فى هذا الأمر (فخافوا على أنفسهم حتى إن منهم من لا يلتفت إلى جميع مايظهر للناس من أعماله ، حتى حكى عن رابعة) بنت إسماعيل العدوية البصرية الصالحة المشهورة كانت من أعيان عصرها وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة وكانت وفاتها فى سنة خمس وثلاثين ومائة ذكره ابن الجوزى فى شذور العقود ، وقال غيره سنة خمس وثمانين ومائة رحمها الله تعالى ، وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور (أنها قالت ما ظهر لى من أعمالى لا أعده شيئا ، وقال آخر) هو أبو يعقوب المكفوف كما فى الإحياء (أكتم) بضم أوله على حد آنصر (حسناتك كما تكتم سيئاتك) وهو يرجع إلى قول من قال إن الإخلاص هو التوقى عن ملاحظة الأشخاص (وآخر يقول إن أمكنك أن تجعل لك خبئا) أى مخبوءا فهو معنى مفعول بلفظ المصدر : يقال خبأ الشىء يخبؤه خبئا ستره الخبء مصدر (من الخير فافعل ، ولقد حكى أنه قيل لرابعة) العدوية رحمها الله (بم) أى بأى شىء (ترتجين أكثر ماترتجين ؟ قالت بيأسى من جل عملي) بضم الجيم : أى معظمه وأكثره

وَحُكِيَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ ، فَقَالَ مَالِكٌ : إِمَّا طَاعَةُ اللهِ أَوِ النَّارُ . فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ : إِمَّا رَحْمَةُ اللهِ أَوِ النَّارُ ، فَقَالَ مَالِكٌ : مَا أَحْوَجَنِي إِلَى مُعَلِّمٍ مِثْلِكَ .

وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ الْبُسْطَامِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : كَابَدْتُ الْعِبَادَةَ ثَلَاثِينَ سَنَةً فَرَأَيْتُ قَائِلاً يَقُولُ لِي : يَا أَبَا يَزِيدَ : خَزَائِنُهُ مَمْلُوءَةٌ مِنَ الْعِبَادَةِ ، فَإِنْ أَرَدْتَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ فَعَلَيْكَ بِالذِّلَّةِ وَالِافْتِقَارِ .

وَسَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ أَبَا الْحَسَنِ ،

(وحكى أنه اجتمع) أبو عبد الله (محمد بن واسع) البصرى العابد ، وكان رحمه الله يقول من زهد فى الدنيا فهو ملك الدنيا والآخرة، وكان يقول من أقبل بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد إليه (ومالك ابن دينار) البصرى الزاهد التابعى توفى سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وقيل سنة تسع وعشرين رحمه الله (فقال مالك : إما طاعة الله أو النار ، فقال محمد بن واسع ، إما رحمة الله أو النار ، فقال مالك ما أحوجنى) فعل تعجب (إلى معلم مثلك ، وعن أبى يزيد) طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى ابن على (البسطامى) الزاهد المشهور كان جده مجوسيا ثم أسلم وكان له أخوان زاهدان عابدان أيضا آدم وعلى ، وكان أبو يزيد أجلهم ، وسئل أبو يزيد بأى شىء وجدت هذه المعرفة ؟ قال يبطن جائع وبدن عار ، وقيل لأبى يزيد ما أشد ما لقيته فى سبيل الله تعالى؟ فقال لا يمكننى وصفه فقيل له ما أهون مالقيت نفسك منك . قال أما هذا فنعم ، دعوتها إلى شىء من الطاعات فلم تجبنى طوعا فمنعتها الماء سنة ، وكان يقول لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة ، وله مقالات كثيرة ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة وكانت وفاته سنة إحدى وستين وقيل أربع وستين ومائتين (رحمه الله) وطيفور بضم الطاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الفاء وبعد الواو الساكنة راء ، والبسطامى بفتح الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم هذه النسبة إلى بسطام وهى بلدة مشهورة من أعمال قومس ، ويقال إنها أول بلاد خراسان من جهة العراق . كذا قال عبد الحق (قال كابدت العبادة) أى تحملت مشقتها (ثلاثين سنة فرأيت قائلا يقول لى يا أبا يزيد خزائنه) أى خزائن الله تعالى (مملوءة من العبادة فان أردت الوصول فعليك) أى الزم (بالذلة والافتقار) إلى مولاك وذلك لأن أعظم وسائل العبد إلى مولاه هو تحققه بما توجبه عبوديته وهو فقره إليه جل وعز فى كل حال من أحواله فلا يرى لنفسه حسنة يقتضى بها ثوابا ولا يدلي بحجة يستدفع بها عن نفسه عقابا ، وسئل أبو حفص رحمه الله بماذا يقدم الفقير على ربه فقال وما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره (وسمعت الأستاذ أبا الحسن

يَحْكِي عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي الْفَضْلِ رَحِمَهُمَا اللّٰهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَا أَعْمَلُهُ مِنَ الطَّاعَاتِ غَيْرُ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللّٰهِ تَعَالَى ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذٰلِكَ ، فَأَجَابَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْفِعْلُ حَتَّى يَكُونَ مَقْبُولاً . وَأَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ أَقُومُ بِذٰلِكَ فَعَلِمْتُ أَنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ ، قِيلَ لَهُ : فَلِمَ تَفْعَلُهَا ؟ قَالَ عَسَى أَنْ يُصْلِحَنِي اللّٰهُ تَعَالَى يَوْمًا فَتَكُونَ النَّفْسُ مُتَعَوِّدَةً لِعَمَلِ الْخَيْرِ : فَلَا أَحْتَاجُ إِلَى أَنْ أُعَوِّدَهَا ذٰلِكَ مِنَ الرَّأْسِ ، فَهٰذِهِ حَالُ هٰؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ ، وَذَوِي الْمُجَاهَدَاتِ وَالْأَخْطَارِ وَالْإِقْدَامِ ، فَكُنْتَ أَنْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ صُحْبَةً مَعْ غَيْرِهِمْ ... وَقَعَ الْإِيَاسُ وَخَابَتِ الْآمَالُ

هَيْهَاتَ تُدْرِكُ بِالتَّوَانِي سَادَةً ... كَدُّوا النُّفُوسَ وَسَاعَدَ الْإِقْبَالُ

ثُمَّ رَأَيْتُ أَنِّي أُثْبِتُ هٰهُنَا الْخَبَرَ الْمَأْثُورَ عَنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ،

يحكى عن الأستاذ أبى الفضل رحمهما الله أنه) أى الأستاذ أبا الفضل (كان يقول إنى أعلم أن ما أعمله من الطاعات غير مقبول عند الله تعالى فقيل له فى ذلك) أى فى علمه بعدم القبول (فأجاب) الأستاذ أبو الفضل (إنى أعلم ما يحتاج إليه الفعل) يعنى من الإخلاص والتقوى (حتى يكون) الفعل مرضيا و (مقبولا وأعلم أني) أى بأنى (لست أقوم بذلك) أى بما يحتاج إليه الفعل (فعلمت أنها) أى تلك الطاعة (غير مقبولة) عند الله (قيل له) أى لأبى الفضل (فلم تفعلها) أى لأى شىء تفعل تلك الطاعة مع علمك بأنها غير مقبولة ؟ (قال) أبو الفضل (عسى أن يصلحنى الله تعالى يوما فتكون النفس متعودة لعمل الخير فلا أحتاج إلى أن أعودها) أى النفس (ذلك) أى عمل الخير (من الرأس) أى من الابتداء (فهذه) أى المذكورة من حال الأستاذ أبى الفضل (حال هؤلاء) الأئمة (الأعلام) جمع علم محركا كبطل وأبطال والعلم الراية ويطلق على الجبل . ولما كان العالم يهتدى بعلمه جعل علمه كالراية أو كالنار على الجبل لأن كلا منهما مما يهتدى به إلى المقصود كذا ذكره الأجهورى فالمناسب تشبيههم بالجبال فى الثبات على الحق وعدم التزلزل (وذوى المجاهدات والأخطار والإقدام فكنت أنت) وفى بعض النسخ فكن أنت (كما قال الشاعر) من بحر الكامل (فاطلب لنفسك صحبة مع غيرهم) أى مع غير الناس : أى فاطلب صحبة مع الله تعالى (وقع الإياس) أى ليقع اليأس من الناس (وخابت) أى خسرت (الآمال . هيهات) أى بعد (تدرك بالتوانى) أى بالتقصير (سادة * كدوا) صفة سادة : أى أتعبوا (النفوس وساعد) أى أعان (الإقبال) إلى الله تعالى (ثم رأيت أنى أثبت هاهنا) أى فى هذا الباب (الخبر المأثور) أى المنقول (عن الصادق) فى خبره (المصدوق)

صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَامُهُ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي غَيْرِ كِتَابٍ وَاحِدٍ .

رُوِيَ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ ، عَنْ رَجُلٍ وَهُوَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاذٍ : حَدِّثْنِي حَدِيثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَحَفِظْتَهُ وَذَكَرْتَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ شِدَّتِهِ وَدِقَّتِهِ ، قَالَ نَعَمْ ، ثُمَّ بَكَى بُكَاءً طَوِيلاً ثُمَّ قَالَ : وَاشَوْقَاهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم وَإِلَى لِقَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، إِذْ رَكِبَ وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ ، ثُمَّ سِرْنَا فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي يَقْضِي فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ . يَامُعَاذُ : قُلْتُ لَبَّيْكَ يَاسَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ ، قَالَ أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ

أى المصدق فيه أو الذى يأتيه غيره بالصدق فهو عليه الصلاة والسلام صادق فى قوله وفيما يأتيه من الوحى مصدوق ، إذ الله صدقه فيما وعده (صلوات الله عليه وعلى آله وسلامه ، وقد ذكرناه) أى هذا الخبر المأثور (فى غير كتاب واحد) بل نذكره في مواضع من كتبنا كالإحيا والبداية والخبر المأثور ما ذكره بقوله (روى عن) القاضي المروزى عبد الله (بن المبارك) المجمع على إمامته وجلالته فى كل شىء الذى تستنزل الرحمة بذكره وترتجى المغفرة بحبه وهو من تابعى التابعين وتقدمت ترجمته (رحمه الله) بإسناده (عن رجل وهو خالد بن معدان) هو أبو عبد الله الكلاعى الشامى ثقة عابد يرسل كثيرا عن معاذ ، وربما كان بينهما اثنان كما ذكره الحافظ ابن حجر فى التهذيب ، قال العراقي هذا الحديث كما قال المصنف رواه ابن المبارك بطوله فى الزهد له ، وفى إسناده كما ذكر ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات وقال ابن عراق ذكر هذا الحديث الحافظ المنذرى فى ترغيبه مخرجا من الزهد لابن المبارك وأشار إلى بعض الطرق المذكورة وغيرها ثم قال وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه فى جميع طرقه وألفاظه ذكره الزبيدى (أنه قال لمعاذ) بن جبل بن عمرو بن أوس ابن عائذ بالمعجمة الأنصارى الخزرجى الجشمى المدنى الفقيه الفاضل الصالح وتقدمت ترجمته رضى الله عنه (حدثنى) يا معاذ (حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظته وذكرته فى كل يوم من شدته ودقته . قال) معاذ (نعم) حدثت لك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خالد بن معدان (ثم بكى) معاذ بكاءا طويلا حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت (ثم قال) معاذ تلهفا وتحسرا (واشوقاه) بهاء السكت (إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى لقائه ثم قال) معاذ (بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ركب) جواب بينا : أى ركب النبى صلى الله عليه وسلم مركوبه (وأردفنى) أى أركبني (خلفه ثم سرنا فرفع) عليه الصلاة والسلام (بصره إلى السماء ثم قال الحمد لله الذى يقضى) ويحكم (فى خلقه ما يشاء) فقال لى (يا معاذ قلت لبيك) بأبى أنت وأمى (يا سيد المرسلين) وفى الإحياء يارسول الله (قال) إنى (أحدثك بحديث) أى واحد جامع

إِنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ ، وَإِنْ ضَيَّعْتَهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ يَا مُعَاذُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلَاكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، لِكُلِّ سَمَاءٍ مَلَكاً بَوَّاباً خَازِناً، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ السَّمٰوَاتِ مَلَكاً بَوَّاباً عَلَى قَدْرِ الْبَابِ وَجَلَالَتِهِ ، فَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ ، وَلَهُ نُورٌ وَشُعَاعٌ كَالشَّمْسِ ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا وَالْحَفَظَةُ تَسْتَكْثِرُ عَمَلَهُ وَتُزَكِّيهِ ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى الْبَابِ قَالَ الْمَلَكُ لِلْحَفَظَةِ : اضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا صَاحِبُ الْغِيبَةِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ؛ ثُمَّ تَصْعَدُ الْحَفَظَةُ مِنَ الْغَدِ مَعَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ لَهُ نُورٌ تَسْتَكْثِرُهُ الْحَفَظَةُ وَتُزَكِّيهِ حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ قَالَ الْمَلَكُ : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، فَإِنَّهُ أَرَادَ بِهِ عَرَضَ الدُّنْيَا ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ،

(إن أنت حفظته نفعك) عند الله (وإن) أنت (ضيعته) أى نسيته ولم تحفظه (انقطعت حجتك عند الله عز وجل) يوم القيامة (يامعاذ إن الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض) ثم خلق السموات فجعل (لكل سماء) من السبعة (ملكا بوابا خازنا وجعل) سبحانه وتعالى (على باب من أبواب السموات ملكا بوابا على قدر الباب) أى حرمته وشرفه (وجلالته) أى ذلك الباب (فتصعد) بفتح العين من باب تعب (الحفظة) وهم الكرام الكاتبون كما قاله الزبيدى (بعمل العبد) من حين أصبح إلى حين أمسى (وله) أى لذلك العمل (نور وشعاع كالشمس حتى إذا بلغ) أى ذلك العمل ، وفى الإحياء والبداية إذا صعدت به (السماء الدنيا) قيل إنها من ذهب ومغاليقها من النور ومفاتيحها اسم الله الأعظم (والحفظة تستكثر عمله) أى تعده كثيرا (وتزكيه) أى تمدحه (فاذا انتهى) أى العمل مع حامله (إلى الباب . قال الملك) الموكل بتلك السماء (للحفظة) الصاعدين بذلك العمل (اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرنى ربى أن لا أدع) أى لا أترك (عمل من يغتاب الناس يتجاوزنى إلى غيرى) من بواب آخر (ثم تصعد الحفظة من الغد معهم) أى الحفظة (عمل صالح) من أعمال العبد (له) أى لذلك العمل (نور تستكثره الحفظة وتزكيه حتى إذا انتهوا به) أى بذلك العمل (إلى السماء الثانية) قيل هى من زمردة بيضاء (قال الملك) الموكل بتلك السماء (قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه فانه) أى صاحب هذا العمل (أراد به) أى بعمله (عرض الدنيا) أى متاعها أنا ملك الفخر (أمرني ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى) إنه كان يفتخر

فَتلعنهُ المَلَائِكَةُ حَتَّى يُمسِيَ ، وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهِجاً بِهِ ، فِيهِ صَدَقَةٌ وَصِيَامٌ وَكَثِيرٌ مِنَ الْبِرِّ ، فَتَسْتَكْثِرُهُ الْحَفَظَةُ وَتُزَكِّيهِ ، فَإِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ . قالَ المَلَكُ البَوَّابُ : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا مَلَكُ صَاحِبِ الْكِبْرِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلى غَيْرِي ، إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ وَهُوَ يَزْهُو كَمَا تَزْهُو النُّجُومُ وَالْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ ، لَهُ دَوِيٌّ وَتَسْبِيحٌ بِصَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ ، فَإِذَا انْتَهَوْا إِلى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ . قالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهَا : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا مَلَكُ صَاحِبِ الْإِعْجَابِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ، إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَدْخَلَ الْعُجْبَ فِيهِ ؛ وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يُزَفُّ كَمَا تُزَفُّ الْعَرُوسُ إِلَى أَهْلِهَا ، حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ بِذٰلِكَ الْعَمَلِ الْحَسَنِ مِنْ جِهَادٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ لَهُ ضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ

على الناس فى مجالسهم (فتلعنه الملائكة حتى يمسى ، وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجا) أى مضيئا (به) أى بذلك العمل (فيه صدقة وصيام) وصلاة و (كثير من البر فتستكثره الحفظة وتزكيه فاذا انتهوا به) أى بالعمل المذكور (إلى السماء الثالثة) قيل من حديد : أى من صافى الحديد (قال الملك البواب) للحفظة (قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا ملك صاحب الكبر أمرنى ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى إنه) أى صاحب هذا العمل (كان يتكبر على الناس فى مجالسهم ، وتصعد الحفظة بعمل العبد وهو) أى العمل (يزهو) أى يضىء (كما تزهو النجوم والكوكب الدرى) بضم الدال وكسرها : أى المضىء (له) أى لذلك العمل (دوى) أى حفيف كحفيف النحل وحفيف جناح الطائر وحفيف الريح ، فى المختار ودوى الريح ، حفيفها وكذا دوى النحل والطائر (وتسبيح بصوم وصلاة وحج وعمرة فاذا انتهوا) أى الحفظة الصاعدون بذلك العمل (إلى السماء الرابعة) قيل من نحاس وقيل من فضة (قال) لهم (الملك الموكل بها) أى بتلك السماء (قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه) اضربوا ظهره وبطنه (أنا ملك صاحب الإعجاب أمرنى ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلي غيرى إنه) أى صاحب هذا العمل (كان إذا عمل عملا أدخل العجب فيه) أى فى ذلك العمل (وتصعد الحفظة بعمل العبد) من جهاد وحج وعمرة له ضوء كضوء الشمس (يزف كما تزف العروس إلى أهلها) أى زوجها (حتى إذا انتهوا إلى السماء الخامسة) قيل إنها من فضة وقيل من ذهب (بذلك العمل الحسن من جهاد وحج وعمرة له) أى لذلك العمل (ضوء كضوء الشمس

فَيَقُولُ المَلَكُ : أَنَا مَلَكُ صَاحِبُ الحَسَدِ ، إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ النَاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ سَخِطَ مَا أَرْضَى اللهَ ، أَمَرَنِى رَبِّى أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِى إِلَى غَيْرِى ، وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ بِوُضُوءٍ تَامٍّ ، وَصَلَاةٍ كَثِيرَةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يَتَجَاوَزُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، فَيَقُولُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِالبَابِ : أَنَا صَاحِبُ الرَّحْمَةِ ، اُضْرِبُوا بِهٰذَا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، إِنَّهُ كَانَ لَمْ يَرْحَمْ قَطُّ إِنْسَانًا ، وَإِنْ أُصِيبَ عَبْدٌ شَمِتَ بِهِ ، أَمَرَنِى رَبِّى أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِى إِلَى غَيْرِى ، وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ ، بِنَفَقَةٍ كَثِيرَةٍ وَصَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَجِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ صَوْتٌ كَصَوْتِ الرَّعْدِ وَضَوْءٌ كَضَوْءِ البَرْقِ ، فَإِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِالسَّمَاءِ :

(فيقول) لهم (الملك) الموكل بالسماء الخامسة قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه (أنا ملك صاحب الحسد إنه) أى صاحب هذا العمل الحسن (كان يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد سخط ما أرضى الله) وفى الإحياء أنه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم ويقع (أمرنى ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى ، وتصعد الحفظة بعمل العبد بوضوء تام وصلاة كثيرة وصيام وحج وعمرة) وزكاة وجهاد (حتى يتجاوزوا به) أى بذلك العمل (إلى السماء السادسة) قيل إنها من ذهب وقيل من جوهر (فيقول الملك الموكل بالباب) أى باب السماء السادسة (أنا) ملك (صاحب الرحمة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لم يرحم قط إنسانا) من عباد الله (وإن أصيب عبد) أى أصابه بلاء أو ضر (شمت به) أى فرح بمصيبة نزلت بذلك العبد (أمرني ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى . وتصعد الحفظة بعمل العبد بنفقة كثيرة وصوم وصلاة وجهاد) فى سبيل الله (وورع) أى اجتناب من الحرام والشبهة (له) أى لذلك العمل (صوت كصوت الرعد) أى الذى يسمع من السحاب (وضوء كضوء البرق) يعنى النار التي تخرج من السحاب . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الرعد اسم ملك يسوق السحاب ، والبرق لمعان سوط من نور يزجر به السحاب ، وقيل اسم ملك يزجر السحاب إذا تبددت جمعها وضمها فاذا اشتد غضبه يخرج من فيه النار فهي البرق والصواعق ، وقيل : الرعد تسبيح الملك ، وقيل اسمه ، والمشهور كما قاله القاضى أن سبب الرعد اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا حدثها الريح من الارتعاد (فاذا انتهوا به) أى بالعمل المذكور ومعه ثلاث آلاف ملك (إلى السماء السابعة) قيل إنها من ياقوتة حمراء (فيقول) لهم (الملك الموكل بالسماء) السابعة قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا

أَنَا صَاحِبُ الذِّكْرِ ، يَعْنِي السُّمْعَةَ وَالصِّيتِ فِي النَّاسِ ، إِنَّ صَاحِبَ هٰذَا الْعَمَلِ أَرَادَ بِهِ الذِّكْرَ فِي الْمَجَالِسِ وَالرِّفْعَةَ عِنْدَ الْقُرَنَاءِ ، وَالْجَاهَ عِنْدَ الْكُبَرَاءِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ تَعَالَى خَالِصًا فَهُوَ رِيَاءٌ ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلَ الْمُرَائِي . وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتُشَيِّعُهُ مَلَائِكَةُ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ حَتَّى تَقْطَعَ الْحُجُبُ كُلَّهَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ، وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُخْلِصِ لِلَّهِ تَعَالَى ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « أَنْتُمُ الْحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ ، إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهٰذَا الْعَمَلِ ، وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِي ، وَلَا أَخْلَصَهُ لِي ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ مِنْ عَمَلِهِ ، عَلَيْهِ لَعْنَتِي ، غَرَّ الْآدَمِيِّينَ وَغَرَّكُمْ وَلَمْ يَغُرَّنِي وَأَنَا عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ ، لَا تَخْفَى عَلَيَّ خَافِيَةٌ وَلَا تَعْزُبُ عَنِّي عَازِبَةٌ ، عِلْمِي بِمَا كَانَ كَعِلْمِي

به جوارحه واقفلوا به على قلبه (أنا) ملك (صاحب الذكر : يعنى السمعة) بضم السين (والصيت) أى الشهرة (فى الناس) فإنى أحجب عن ربى كل عمل لم يرد به وجه ربى (إن صاحب هذا العمل أراد به) أى بعمله (الذكر) بالجميل (فى المجالس ، و) أراد (الرفعة) أى ارتفاع القدر والمنزلة (عند القرناء و) أراد (الجاه عند الكبراء) والعلماء (وأمرنى ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى وكل عمل لم يكن لله تعالى خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عز وجل عمل المرائى، وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق) بضمتين (حسن وصمت) أى سكوت عما لا ينفع فى الدنيا والآخرة (وذكر الله تعالى وتشيعه) أى تتبعه (ملائكة السموات السبع حتى تقطع الحجب) بالبناء للمفعول : أى يقطعوا بالعمل المذكور الحجب (كلها إلى الله سبحانه) أى إلى محل رحمته وسلطانه ، وليس المراد أنهم يرتفعون للرب جل جلاله لأنه ليس فى محل (فيقفون بين يدى الرب جل جلاله ويشهدون له) أى للعبد (بالعمل الصالح المخلص لله تعالى) بحسب علمهم (فيقول الله تعالى) لهم (أنتم الحفظة على عمل عبدى ، وأنا الرقيب) أى الحافظ (على ما فى نفسه) أى فى قلبه (إنه) أى العبد (لم يردنى بهذا العمل وأراد به) أى بعمله (غيرى ولا أخلصه) ذلك العبد (لى) أى لأجلى (وأنا أعلم بما أراد من عمله، عليه) أى على ذلك العبد (لعنتى غر) أى خدع صاحب هذا العمل (الآدميين وغركم) أيها الملائكة (ولم يغرنى وأنا علام الغيوب المطلع على ما فى القلوب لا تخفى على خافية ولا تعزب) أى لا تغيب (عنى عازبة) أى غائبة (علمى بما كان كعلمى

بِمَا يَــكُونُ ، وَعِلْمِي بِمَا مَضَى كَعِلْمِي بِمَا بَقِيَ ، وَعِلْمِي بِالْأَوَّلِينَ كَعِلْمِي بِالْآخِرِينَ ، أَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، فَــكَيْفَ يَغُرُّنِي عَبْدِي بِعَمَلِهِ ؟ إِنَّمَا يَغُرُّ الْمَخْلُوقِينَ الَّذِينَ لَا يَعْــلَمُونَ ، وَأَنَا عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، عَلَيْهِ لَعْنَــتِي ، وَتَقُولُ الْمَلَائِــكَةُ السَّبْعَةُ وَالثَّلَاثَةُ الْآلَافُ الْمُشَيِّعُونَ : يَا رَبَّنَا عَلَيْهِ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا ، فَتَقُولُ أَهْلُ السَّمٰوَاتِ : عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ » ثُمَّ بَــكَى مُعَاذٌ رَحِمَهُ اللّٰهُ ، وَانْتَحَبَ انْتِحَابًا شَدِيدًا وَقَالَ يَا رَسُولَ اللّٰهِ : كَيْفَ النَّجَاةُ مِمَّا ذَكَرْتَ ؟ قَالَ : يَا مُعَاذُ اقْتَدِ بِنَبِيِّكَ فِي الْيَقِينِ ، قُلْتُ : أَنْتَ رَسُولُ اللّٰهِ ، وَأَنَا مُعَاذُ ابْنُ جَبَلٍ ، كَيْفَ لِي بِالنَّجَاةِ وَالْخَلَاصِ ؟ قَالَ نَعَمْ يَا مُعَاذُ إِنْ كَانَ فِي عَمَلِكَ تَقْصِيرٌ فَاقْطَعْ لِسَانَكَ عَنِ الْوَقِيعَةِ فِي النَّاسِ ، وَعَنْ إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ خَاصَّةً ، وَلْيَرُدَّكَ عَنِ الْوَقِيعَةِ فِي النَّاسِ مَا تَعْــلَمُهُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِكَ ، وَلَا تُزَكِّ نَفْسَكَ بِذَمِّ إِخْوَانِكَ وَلَا تَرْفَعْ نَفْسَكَ بِوَضْعِ إِخْوَانِكَ ،

بما يكون، وعلمى بما مضى كعلمى بما بقى، وعلمى بالأولين كعلمى بالآخرين أعلم السروأخفى) قال ابن عباس رضى الله عنهما: السر ماتسره فى نفسك، وأخفى من السر هو مايلقيه الله تعالى فى قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لأنك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا (فــكيف يغرنى) أى يخدعنى (عبدى بعمله إنما يغر المخلوقين الذين لايعلمون، وأنا علام الغيوب، عليه) أى العبد (لعنتى وتقول الملائــكة السبعة) أي سبعة سموات (والثلاثة الآلاف المشيعون يا ربنا عليه) أى على العبد صاحب هذا العمل (لعنتك ولعنتنا فتقول أهل السموات) كلهم حتى تقول السموات كلها (عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين، ثم بكى معاذ رحمه الله وانتحب) أى رفع صوته بالبــكاء (انتحابا شديدا وقال يارسول الله كيف النجاة) والخلاص لى(مما ذكرت) من الغيبة والفخر والــكبر والعجب والحسد والسمعة والرياء (قال) صلى الله عليه وسلم (يامعاذ اقتد بنبيك) يعنى نفسه عليه الصلاة والسلام (فى اليقين . قلت : أنت رسول الله) أى أنت معصوم من الذنوب (وأنا معاذ بن جبل) أى لست بمعصوم منها (كيف لى النجاة والخلاص ؟ قال نعم يا معاذ إن كان فى عملك تقصير فاقطع لسانك عن الوقيعة فى الناس) أى الغيبة والسب والثلب فيهم . فى المصباح: وقع فلان فى فلان وقوعا ووقيعة : سبه وثلبه ، انتهى، وأيضا فيه ثلبه ثلبا من باب ضرب : عابه وتنقصه (وعن إخوانك من حملة القرآن خاصة) وفى الناس عامة (وليردوك عن الوقيعة فى الناس ما تعلمه من عيب نفسك ولا تزك) أى لا تمدح (نفسك) متلبسا (بذم إخوانك ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك) على سبيل

وَلَا تُرَاءِ بِعَمَلِكَ كَيْ تُعْرَفَ فِي النَّاسِ ، وَلَا تَدْخُلْ فى الدُّنْيَا دُخُولاً يُنْسِيكَ أَمْرَ الآخِرَةِ ، وَلَا تُنَاجِ رَجُلاً وَعِنْدَكَ آخَرُ ، وَلَا تَتَعَظَّمْ عَلَى النَّاسِ فَتَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرَاتُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَلَا تَفْحُشْ فِي مَجْلِسِكَ حَتَّى يَحْذَرُوكَ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ ، وَلَا تَمُنَّ عَلَى النَّاسِ ، وَلَا تُمَزِّقِ النَّاسَ بِلِسَانِكَ فَتُمَزِّقَكَ كِلَابُ جَهَنَّمَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا) يَقُولُ : تَنْزِعُ اللَّحْمَ عَنِ الْعِظَامِ ، قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ وَمَنْ يُطِيقُ هٰذِهِ الْخِصَالَ ؟ قَالَ : يَامُعَاذُ إِنَّ الَّذِى وَصَفْتُ لَكَ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، إِنَّمَا يَكْفِيكَ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ ؛ فَإِذَنْ أَنْتَ قَدْ سَلِمْتَ وَنَجَوْتَ . قَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ : وَكَانَ مُعَاذٌ لَا يُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ كَمَا يُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَةِ هٰذَا الْحَدِيثِ وَذِكْرِهِ فِى مَجْلِسِهِ ، فَلَمَّا سَمِعْتَ

التكبر (ولا تراء بعملك كى تعرف فى الناس) بل أره ليقتدى بك غيرك (ولا تدخل فى الدنيا دخولا ينسيك أمر الآخرة ولا تناج رجلا وعندك) رجل (آخر) لأنه مشوس له (ولا تتعظم على الناس فتنقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة) من نحو العلم والمال وذلك لتجنبهم عنك ولعدم تواضعك (ولا تفحش) بالقول والفعل (فى مجلسك حتى يحذروك من سوء خلقك ولا تمن على الناس ولا تمزق الناس) أى لا تشققهم بالغيبة والشتم (بلسانك فتمزقك) أى تشققك (كلاب جهنم) يوم القيامة (وهو) أى التمزيق المذكور يدل عليه (قوله تعالى « والناشطات نشطا) أتدرى ما هن يا معاذ ؟ قلت ما هن بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ قال عليه الصلاة والسلام (يقول) سبحانه وتعالى : هن كلاب النار تنشط و (تنزع اللحم عن العظام . قلت) بأبى أنت وأمى (يا رسول الله ومن يطيق) أى يقوى على (هذه الخصال) ومن ينجو منها (قال) صلى الله عليه وسلم (يا معاذ إن الذى وصفت لك) من الأمور المذكورة (ليسير) أى لهين غير عسير (على من يسره الله تعالى عليه إنما يكفيك من ذلك) المذكور من الذى وصفت لك (أن تحب للناس) أى المسلمين من الخير (ما) أى مثل ما (تحب لنفسك) فتكون معهم كالنفس الواحدة (وتكره لهم ما تكره لنفسك) من الشر (فإذن) أى حين إذ فعلت ما ذكر (أنت قد سلمت ونجوت) مما تخاف من المهالك (قال خالد بن معدان) رحمه الله (وكان معاذ) بن جبل رضى الله عنه (لا يكثر من تلاوة القرآن كما يكثر من) أجل (تلاوة هذا الحديث) حذرا مما فيه (وذكره فى مجلسه) وفى الإحياء فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما فى هذا الحديث . قال المصنف رحمه الله (فلما سمعت

أَيُّهَا الرَّجُلُ وَكُلُّكُمْ ذٰلِكَ الرَّجُلُ بِهٰذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ نَبَؤُهُ ، الْكَبِيرِ خَطَرُهُ الْأَلِيمِ أَثَرُهُ ، الَّذِى تَطِيرُ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَحِيرُ لَهُ الْعُقُولُ ، وَتَضِيقُ عَنْ حَمْلِهِ الصُّدُورُ ، وَتَجْزَعُ لِهَوْلِهِ النُّفُوسُ ، فَاعْتَصِمْ بِمَوْلَاكَ إِلٰهِ الْعَالَمِينَ ، وَالْزَمِ الْبَابَ بِالتَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ وَالْبُكَاءِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ مَعَ الْمُتَضَرِّعِينَ الْمُبْتَهِلِينَ ، فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِرَحْمَتِهِ وَلَا سَلَامَةَ مِنْ هٰذَا الْبَحْرِ إِلَّا بِنَظَرِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَعِنَايَتِهِ ، فَتَنَبَّهْ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ ، وَأَعْطِ الْأَمْرَ حَقَّهُ وَجَاهِدْ نَفْسَكَ فِى هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْمَخُوفَةِ لَعَلَّكَ لَا تَهْلِكَ مَعَ الْهَالِكِينَ ، وَالْمُسْتَعَانُ بِاللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّهُ خَيْرُ مُعِينٍ ، وَهُوَ تَعَالَى أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

﴿ فصل ﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا أَحْسَنْتَ النَّظَرَ ، فَرَأَيْتَ قَدْرَ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَرَأَيْتَ عَجْزَ الْخَلْقِ وَضَعْفَهُمْ وَجَهْلَهُمْ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ بِقَلْبِكَ وَكُنْ زَاهِدًا فِى ثَنَائِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمُ الَّذِى لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ ،

أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل بهذا الحديث العظيم نبؤه) أى خبره (الكبير خطره الأليم أثره الذى تطير له) أى لأجل هذا الحديث (القلوب وتحير) وتدهش (له العقول وتضيق عن حمله الصدور وتجزع لهوله النفوس فاعتصم) جواب لما سمعت (بمولاك إله العالمين والزم الباب) أى باب مولاك (بالتضرع والابتهال والبكاء آناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين المبتهلين فإنه) أى الحال والشأن (لا نجاة من هذا الأمر) المذكور فى الحديث (إلا برحمته) جل وعز (ولا سلامة من هذا البحر) العظيم (إلا بنظره) سبحانه (وتوفيقه وعنايته فتنبه) أى تيقظ (من رقدة) بفتح الراء (الغافلين وأعط الأمر حقه وجاهد نفسك فى هذه العقبة المخوفة لعلك لا تهلك مع الهالكين ، والمستعان بالله على كل حال فإنه) سبحانه (خير معين ، وهو تعالى أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) .

﴿ فصـــل ﴾

(وجملة الأمر) أى حاصله (أنك إذا أحسنت النظر فرأيت قدر طاعة الله تعالى) أى منزلتها (ورأيت عجز الخلق وضعفهم وجهلهم فلا تلتفت إليهم بقلبك وكن زاهدا فى ثنائهم ومدحهم وتعظيمهم الذى لا فائدة) ولا نفع (تحته) أى المذكور من تعظيمهم وغيره ، وذلك لأن الاغترار

فَلَا تُرِدْ بِطَاعَتِكَ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ ، وَإِذَا رَأَيْتَ خِسَّةَ الدُّنْيَا وَحَقَارَتَهَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا ، فَلَا تُرِدْهَا أَيْضاً بِطَاعَتِكَ مِنَ اللهِ ، وَقُلْ : يَا نَفْسُ ثَنَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَشُكْرُهُ خَيْرٌ مِنْ ثَنَاءِ الْمَخْلُوقِينَ الْعَاجِزِينَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ قَدْرَ عَمَلِكَ بِالْحَقِيقَةِ وَمَا تَحَمَّلْتَ فِيهِ ، وَمَا يَبْلُغُونَ حَقَّكَ فِيمَا عَمِلْتَ وَتَحَمَّلْتَ ، بَلْ رُبَّمَا يُفَضِّلُونَ عَلَيْكَ مَنْ هُوَ أَدْوَنُ مِنْكَ حَالاً بِالْأَلْفِ دَرَجَةٍ ، وَيُضَيِّعُونَكَ فِى أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ وَيَنْسَوْنَكَ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذٰلِكَ

بمدح الناس وثنائهم غاية فى الجهل والغباوة ، وذلك من علامات المقت ؛ لأن المغتر بذلك ترك يقين ما عنده من العيوب لظن ما عند الناس من الصلاح ، وهو على كل حال أعلم بعيوب نفسه وتقصيره مع ربه ، وقد شبه الحارث المحاسبي رحمه الله الراضى بالمدح بالباطل بمن يهزأ به ويقال له إن العذرة التى تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك ، وهو يفرح بذلك ويرضى بالسخرية به انتهى ، ولا شك أن الذنوب والعيوب التى يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التى تخرج من جوفه ، ولا فرق بين الحالين إلا أنه فى حال المدح يعلم أن المادح لم يشاركه فى معرفة ذنوبه وعيوبه مشاركة ذلك المستهزىء للمستهزأ به فى معرفة حال ما يخرج من جوفه فهو بجهله وغباوته قد رضى بأن يكون له فى قلوب الجاهلين قدر وجاه من غير مبالاة بسقوطه من عين مولاه الذى يعلم من حاله ما لا يعلمه هو ولا غيره من حيث رضى بالمدحة وفرح بها ولم يقابل بالإباء والكراهية . هذا إذا كان المادح من أهل العلم والدين . وأما إن كان جاهلا أو فاسقا فلا غباوة أعظم من الرضا بمدحهم والفرح به . قال يحى بن معاذ الرازى رحمه الله : تزكية الأشرار هجنة بك وحبهم لك عيب عليك ، وقيل لبعض الحكماء إن العامة يثنون عليك فأظهر الوحشة من ذلك وقال لعلهم رأوا منى شيئا أعجبهم ولا خير فى شىء يسرهم ويعجبهم كذا ذكره بعض المحققين (فلا ترد) أى لا تقصد (بطاعتك شيئا من ذلك) أى المذكور من التفاتهم إليك وثنائهم ومدحهم وتعظيمهم الذى لا فائدة تحته ، وإن ترد ذلك دخل عليك الشرك الخفى . هذا ، وأما إذا أطاق الله تعالى ألسنة الناس بالثناء عليك ولا أهلية فيك لذلك ، فينبغى أن تعرف الحق لأهله فتستعمل نفسك بالثناء على الله تعالى بما هو أهله ليكون ذلك شكرا لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليك من غير استحقاق لذلك ولا لثبوت أهلية (وإذا رأيت خسة الدنيا وحقارتها وسرعة زوالها) وأنها لا يفى مرجوها بمخوفها بل مكروهها أكثر (فلا تردها) أى الدنيا الخسيسة (أيضا) أى كما أنك لا تقصد بطاعتك التفاتهم إليك وثناءهم عليك (بطاعتك من الله وقل يا نفس ثناء رب العالمين) ومدحه (وشكره خير من ثناء المخلوقين العاجزين الجاهلين الذين لا يعرفون قدر عملك بالحقيقة و) لا يعرفون (ما تحملت فيه ومايبلغون حقك فيما عملت وتحملت ، بل ربما يفضلون عليك من هوأدون) أى أحقر (منك حالا بألف درجة ويضيعونك فى أحوج الأوقات وينسونك وإن لم يفعلوا ذلك) الثناء والمدح

فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بِأَيْدِيهِمْ وَإِلَى مَاذَا تَبْلُغُ قُدْرَتُهُمْ ، ثُمَّ هُمْ فِى قَبْضَةِ اللهِ تَعَالَى يُصَرِّفُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَإِلَى مَا يَشَاءُ ، فَاعْقِلِى أَيَّتُهَا النَّفْسُ ، فَلَا تُضَيِّعِى طَاعَتَكِ الْعَزِيزَةَ بِهِمْ ، وَلَا يَفُوتُكِ ثَنَاءُ مَنْ ثَنَاؤُهُ كُلُّ فَخْرٍ وَعَطَاءُ مَنْ عَطَاؤُهُ كُلُّ ذُخْرٍ ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

سَهَرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلٌ ... وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعُ

وَقُلْ : يَانَفْسُ أَجَنَّةُ الْخُلْدِ خَيْرٌ أَمْ لَطْخَةٌ مِنْ حَرَامِ الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا النَّكِدِ الْفَانِى ، وَأَنْتِ مُتَمَكِّنَةٌ مِنْ أَنْ يَحْصُلَ لَكِ بِطَاعَتِكِ هٰذَا النَّعِيمُ الْمُقِيمُ ، فَلَا تَكُونِى خَسِيسَةَ الْهِمَّةِ رَدِيئَةَ الْإِرَادَةِ ، دَنِيئَةَ الْأَفْعَالِ ، أَمَا تَرَيْنَ الْحَمَامَ إِذَا كَانَ سَمَاوِيًّا ؟

(فماذا عسى أن يكون بأيديهم وإلى ماذا تبلغ قدرتهم ؟ ثم هم فى قبضة الله تعالى) وقدرته (يصرفهم) الله (كيف يشاء وإلى ما يشاء فاعقلى أيتها النفس فلا تضيعى طاعتك العزيزة بهم) أى بالمخلوقين (ولا يفوتك ثناء من) جل وعز (ثناؤه كل فخر ، و) لا يفوتك (عطاء من) سبحانه وتعالى (عطاؤه كل ذخر ، ولقد صدق القائل) حيث قال من بحر الكامل (سهر العيون) أى تيقظها (لغير وجهك) أى لغير ذاتك : أى طلب مرضاتك (باطل . وبكاؤهن) أى العيون (لغير فقدك ضائع) ولهذا قال بعضهم : رؤى الشبلي رحمه الله فى المنام بعد وفاته فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال لم يطالبنى بالبراهين على الدعاوى إلا على شىء واحد . قلت يوما لا خسارة أعظم من خسارة الجنة ودخول النار ، فقال سبحانه وأى خسارة أعظم من خسران لقائى ؟ وقال بعضهم كان عندنا رجل مكث عندنا ثلاث عشرة سنة يصلى كل يوم وليلة ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فاذا صلى العصر احتبى واستقبل القبلة ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا ؟ بل عجبت للخليقة كيف استأنست بسواك ثم يسكت إلى المغرب (وقل : يانفس أجنة الخلد خير أم لطخة) فى محيط المحيط : لطخه بالمداد وغيره يلطخه لطخا : لوثه انتهى ، وأيضاً فيه : اللطخ مصدر . واليسير والقليل من كل شىء ، يقال فى السماء لطخ من السحاب : أى قليل منه ، وسمعت لطخا من خبر : أى يسيرا (من حرام الدنيا وحطامها النكد) أى القليل (الفانى وأنت) يا نفس (متمكنة من أن يحصل لك بطاعتك هذا النعيم المقيم) أى الدائم (فلا تكونى خسيسة الهمة رديئة الإرادة دنيئة الأفعال أما ترين الحمام) بكسر الحاء كما قاله الحريرى ، وهي عند العرب : ذوات الأطواق نحو الفواخت والقمارى الواحدة حمامة يقع على الذكر والأنثى والهاء للافراد لا للتأنيث كما هو مذكور فى المختار وغيره (إذا كان سماوياً) يعنى

كَيْفَ تَعْلُو قِيمَتُهُ وَيَزْدَادُ قَدْرُهُ ، فَارْفَعِي هِمَّتَكِ كُلَّهَا إلى السَّمَاءِ ، وَجَرِّدِي قَلْبَكِ لِلَّهِ تَعَالَى الْوَاحِدِ الَّذِي بِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَلَا تُضَيِّعِي مَا ظَفِرْتِ بِهِ مِنْ طَاعَتِكِ بِلَا شَيْءٍ وَكَذَلِكِ إِذَا أَحْسَنْتِ التَّأَمُّلَ فَرَأَيْتِ أَيَادِيَ اللهِ تَعَالَى وَمِنَنَهُ الْعِظَامَ عَلَيْكِ فِي هَذِهِ الطَّاعَةِ بِأَنْ أَمْكَنَكِ مِنْهَا وَأَعْطَاكِ الْآلَةَ أَوَّلاً ، ثُمَّ أَزَاحَ عَنْكِ الْعَوَائِقَ حَتَّى تَفَرَّغْتِ لِهَذِهِ الطَّاعَةِ ثَانِياً ، ثُمَّ خَصَّكِ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّأْيِيدِ وَيَسَّرَهَا عَلَيْكِ وَزَيَّنَهَا فِي قَلْبِكِ حَتَّى عَمِلْتِهَا ثَالِثاً ، ثُمَّ مَعَ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْكِ وَعَنْ طَاعَتِكِ وَكَثْرَةِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكِ أَعَدَّ لَكِ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْيَسِيرِ ،

مرتفعا فى الطيران وسريعا فيه (كيف تعلو) وفى نسخة تغلو بالغين المعجمة (قيمته) أى الحمام السماوى (ويزداد قدره) أى رتبته على غيره (فارفعى) يانفس (همتك كلها إلى السماء) لكى تكوني من جملة السعداء . قال بعض المحققين . والهمة حالة للقلب وهى قوة إرادة وغلبة انبعاث إلى نيل مقصود ما ، وتكون عالية إن تعلقت بمعالى الأمور وسافلة إن تعلقت بأدانيها . قال الشاعر وأجاد :

وقائلة لم علتك الهموم ... وأمرك ممتثل فى الأمم

فقلت ذرينى على حالتى ... فان الهموم بقدر الهمم

وقال الآخر :

إذا أعطشتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعا وريا

فكن رجلا رجله فى الثرى ... وهامة همته فى الثريا

فإن إراقة ماء الحيا ... ة دون إراقة ماء المحيا

(وجردى قلبك لله تعالى الواحد الذى بيده) أى بقدرته (الأمر كله ولا تضيعى ما ظفرت به من طاعتك بلا شىء وكذلك) أى مثل إحسانك النظر فيما ذكر من قدر طاعة الله وعجز الخلق وضعفهم وجهلهم (إذا أحسنت التأمل فرأيت أيادى) أى نعم (الله تعالى ومننه العظام عليك فى هذه الطاعة) وذلك (بأن أمكنك) الله (ومنها) أى من الطاعة (وأعطاك الآلة) أى آلة الطاعة (أولا ثم أزاح) أى أبعد سبحانه وتعالى (عنك العوائق) أى الموانع (حتى تفرغت لهذه الطاعة ثانيا ثم خصك بالتوفيق والتأييد ويسرها) أى سهلها (عليك وزينها) أى زين الله تعالى هذه الطاعة (فى قلبك حتى عملتها ثالثا ثم مع جلاله) تعالى (وعظمته واستغنائه عنك وعن طاعتك وكثرة نعمته) سبحانه (عليك أعد) أى هيأ سبحانه وتعالى (لك على هذا العمل اليسير

الثَّناء الْجَزيلَ وَالثَّوابَ الْعَظِيمَ الذى لاتَسْتَحِقِّينَهُ رَابِعاً ، ثُمَّ شَكَرَكِ عَلَى ذٰلِكِ وَأَثْنى عَلَيْكِ عَلَى هٰذا الْعَمَلِ الْيَسِيرِ الثَّناءَ الْجَزيلَ وَأَحَبَّكِ بِذٰلِكَ خَامِسًا ، فَهٰذِهِ كُلُّهَا بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ لاَ غَيْرُ ، وَإِلاَّ فَبِأَىِّ اسْتِحْقَاقٍ لَكِ ، وَأَىِّ قَدْرٍ لِعَمَلِكِ الْحَقِيرِ الْمَعِيبِ ، فَاذْكُرِى أَيَّتُهَا النَّفْسُ مِنَّةَ رَبِّكِ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَهُ فِيما أَحْسَنَ إِلَيْكِ فى هٰذِهِ الطَّاعَةِ ، وَاسْتَحْيِى مِنْ أَنْ تَلْتَفِتِى إِلى عَمَلٍ ، بَلِ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ لِلّٰهِ تَعالى عَلَيْنَا بِكُلِّ حَالٍ ، وَلاَ يَكُونُ لَكِ شَغْلٌ بَعْدَ حُصُولِ هٰذِهِ الطَّاعَةِ إِلاَّ التَّضَرُّعَ وَالاِبْتِهَالَ إِلى اللّٰهِ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يَتَقَبَّلَهَا ، أَمَا تَسْمَعِينَ قَوْلَ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَمَّا فَرَغَ مِنْ خِدْمَتِهِ فى بِنَاءِ بَيْتِهِ ،

الثناء الجزيل و) أعد (الثواب العظيم الذى تستحقينه رابعا، ثم شكرك على ذلك) العمل. قال العزيزى: والشكر فى حقه تعالى هو إعطاء عباده الثواب الجزيل على العمل القليل والثناء على عباده المطيعين أو جزاء عباده على شكره (وأثنى) تعالى (عليك على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل وأحبك بذلك) أى العمل (خامسا ، فهذه) أى الأمور الخمسة (كلها بفضله العظيم لاغير ، وإلا) تكن هذه بفضله تعالى العظيم (فبأى استحقاق لك وأى قدر) أى رتبة (لعملك الحقير المعيب فاذكرى أيتها النفس منة ربك الكريم الرحيم سبحانه وتعالى فيما أحسن) عز وجل (إليك فى هذه الطاعة واستحيى من أن تلتفتى إلى عمل) من أعمالك (بل الفضل والمنة لله تعالى علينا بكل حال ولا يكون لك شغل بعد حصول الطاعة إلا التضرع والابتهال إلى الله سبحانه بأن يتقبلها) أى الطاعة (أما تسمعين) يا نفس (قول خليله إبراهيم عليه) الصلاة و (السلام لما فرغ) الخليل عليه السلام (من خدمته فى بناء بيته) تعالى وهى الكعبة المعظمة . وكانت قصة بناء البيت على ماذكر العلماء وأصحاب السير. أن الله تعالى خلق موضع البيت قبل أن يخلق الأرض بألفى عام فكانت زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحتها فلما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى فأنزل البيت المعمور ، وهو من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقى وباب غربى فوضعه على موضع البيت وقال يا آدم : «إنى أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى »وأنزل الله عليه الحجر الأسود وكان أبيض فاسود من مس الحيض فى الجاهلية فتوجه آدم عليه الصلاة والسلام من الهند ماشيا إلى مكة وأرسل الله إليه ملكا يدله على البيت فحج آدم البيت وأقام المناسك فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. قال ابن عباس رضى الله عنهما: حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله إلى السماء الرابعة وهو البيت المعمور يدخله

كَيْفَ أُبْتَهَلَ إِلى اللهِ فى أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِالْقُبُولِ ، فَقَالَ : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ قَالَ : (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء) فَلَئِنْ مَنَّ عَلَيْكِ بِقَبُولِ هٰذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُزْجَاةِ ، فَلَقَدْ أَكْمَلَ النِّعْمَةَ وَأَعْظَمَ الْمِنَّةَ ، فَيَالَهَا

كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه وبعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه ويعبد فسأل الله أن يبين له موضعه فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت ، وهى ريح خجوج لها رأسان تشبه الحية ، والخجوج من الرياح وهى الشديدة السريعة الهبوب ، وقيل هى المتلوية فى هبوبها وأمر إبراهيم أن يبنى حتى تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه كتطويق الحجفة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بعث الله سبحانه وتعالى سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وقفت على موضع البيت ونودى منها: يا إبراهيم ابن على قدر ظلها لا تزد ولا تنقص ، وقيل إن الريح كنست له ما حول الكعبة حتى ظهر له أساس البيت الأول فذلك قوله تعالى « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » فبنى إبراهيم وإسمعيل البيت فكان إبراهيم يبنيه وإسمعيل يناوله الحجارة ، فذلك قوله تعالى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » جمع قاعدة ، وهى أس البيت وقيل جدرة من البيت . قال ابن عباس رضى الله عنهما : بنى إبراهيم البيت من خمسة أجبل : من طور سيناء ، وطور زيتاء ، ولبنان جبل بالشام ، والجودى جبل بالجزيرة ، وبنى قواعده من حراء جبل بمكة ، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود . قال لإسماعيل ائتنى بحجر حسن يكون للناس علما فأتاه بحجر ، فقال ائتنى بأحسن منه فمضى إسمعيل ليطلب حجرا أحسن منه فصاح أبو قبيس يا إبراهيم إن لك عندى وديعة فخذها فقذف بالحجر الأسود فأخذه إبراهيم فوضعه مكانه ، وقيل إن الله تعالى أمد إبراهيم وإسمعيل بسبعة أملاك يعينونهما فى بناء البيت ، فلما فرغ من بنائه (كيف ابتهل) إبراهيم مع ابنه عليهما الصلاة والسلام وتضرع (إلى الله فى أن يفضل عليه) أى على إبراهيم وابنه (بالقبول فقال) إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام (ربنا) أى يقولان وهذا الفعل فى محل النصب على الحال ، وقد أظهره عبد الله فى قراءته ومعناه يرفعانها قائلين ربنا كما ذكره النسفي (تقبل منا) تقربنا إليك ببناء هذا البيت (إنك أنت السميع) لدعائنا (العليم) بضمائرنا ونياتنا (ولما فرغ من دعائه) عليه السلام ، ومن جملة دعائه ما ذكر فى القرآن العزيز فى سورة إبراهيم (قال ربنا) أى يا ربنا (وتقبل دعاء) بالياء فى الوصل والوقف مكي وافقه أبو عمرو وحمزة فى الوصل الباقون بلا ياء : أى استجب دعائى أو عبادتى ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله (فلئن من) أى أنعم الله (عليك) يا نفس (بقبول هذه البضاعة) وهى الطاعة (المزجاة) أى الرديئة أو القليلة . والأصل فى البضاعة بالكسر قطعة من المال تعد للتجارة ، والمراد هنا ما ذكر (فلقد أكمل) سبحانه وتعالى (النعمة وأعظم المنة فيالها)

مِنْ سَعَادَةٍ وَدَوْلَةٍ وَعِزٍّ وَرِفْعَةٍ ، وَكَمْ تَزَيَّنَ إِذْ ذَاكَ لَكَ مِنْ خِلْعَةٍ وَنِعْمَةٍ وَذُخْرٍ وَكَرَامَةٍ ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَيَالَهُ مِنْ خُسْرَانٍ وَغَبْنٍ وَحِرْمَانٍ ، فَاهْتَمِّي وَاشْتَغِلِي بِهَذَا الشَّأْنِ ، فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَكَرَّرْتَهُ عَلَى قَلْبِكَ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْ طَاعَتِكَ ، وَاسْتَعَنْتَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ صَرَفَكَ عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْخَلْقِ وَالنَّفْسِ وَشَغَلَكَ عَنْ مُرَآةٍ وَإِعْجَابٍ وَبَعَثَكَ عَلَى مَحْضِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الطَّاعَاتِ وَالتَّمَسُّكِ بِذِكْرِ مِنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ ، وَيَحْصُلُ لَكَ أَرْجَى طَاعَاتٍ طَاهِرَةٍ لَا عَيْبَ فِيهَا ، وَخَيْرَاتٍ خَالِصَةٍ لَا شَوْبَ فِيهَا ، وَعِبَادَاتٍ مَقْبُولَةٍ لَا نَقْصَ فِيهَا ، بَلْ مِثْلُ هَذِهِ الطَّاعَةِ ، وَإِنْ حَصَلَتْ فِي الْعُمُرِ مَثَلًا مَرَّةً وَاحِدَةً لَا غَيْرُ ، فَإِنَّهَا بِالْحَقِيقَةِ لَكَثِيرَةٌ وَلَعَمْرِي إِنَّهَا وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهَا لَقَدْ كَثُرَ مَعْنَاهَا وَعَظُمَ قَدْرُهَا ،

أى ما أعظمها (من سعادة) بيان للضمير ، واللام فى يا لها للتعجب مثلها فى قوله :

فيالك من خد أسيل ومنطق رخيم ومن وجه تعلل عاذبه

(ودولة) أى غلبة (وعز ورفعة وكم تزين) أى زين الله تعالى (إذ ذاك) أى عند إكمال النعمة وإعظامها (لك من خلعة) بكسر الخاء المعجمة : أى عطية (ونعمة وذخر وكرامة وإن تكن) أى وجدت (الأخرى) أى الطريقة الأخرى ، وهى عدم امتنانه تعالى وإنعامه بقبول تلك البضاعة المزجاة (فياله) أى ما أعظمه (من خسران وغبن وحرمان) عن النعمة العظيمة (فاهتمى) يا نفس (واشتغلى بهذا الشأن) القويم والطريق المستقيم وهو ذكر منة ربك الكريم الرحيم فيما أحسن إليك فى هذه الطاعة وغير ذلك (فإذا واظبت) أيها الرجل (على مثل ذلك) الشأن (وكررته) أى ذلك الشأن (على قلبك عند الفراغ من طاعتك واستعنت بالله عز وجل صرفك) الله (عن الالتفات إلى الخلق والنفس وشغلك عن مراءاة) للناس (وإعجاب) بعملك (وبعثك) أى حملك الله تعالى بسبب تلك المواظبة لما ذكر (على محض الإخلاص لله تعالى فى الطاعات و) على (التمسك بذكر الله تعالى فى جميع الحالات ، ويحصل لك أرجى طاعات طاهرة لا عيب فيها) أى فى تلك الطاعات (وخيرات خالصة لا شوب) أى لا خلط (فيها) أي فى تلك الخيرات (وعبادات مقبولة لا نقص فيها) أى فى هذه العبادات (بل مثل هذه الطاعة) الطاهرة المقبولة (وإن حصلت فى العمر مثلا مرة واحده لا غير) أى غير المرة الواحدة (فإنها) أى تلك الطاعة (بالحقيقة لكثيرة) فى الثواب والأجر (ولعمرى) أى لواهب عمرى (إنها) أى تلك الطاعة (وإن قل عددها لقد كثر معناها وعظم قدرها) أى

وَكَثُر نفعُها وَطَابَتْ عُقْبَاهَا ، وَإِنَّ التَّوْفِيقَ لِمِثْلِهَا لَعَزِيزٌ، وَالْفَضْلَ بِهِ لِلهِ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ لَكَثِيرٌ ، فَأَىُّ هَدِيَّةٍ أَجَلُّ مِنْ هَدِيَّةٍ يَقْبَلُهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَأَىُّ سَعْىٍ أَكْرَمُ مِنْ سَعْىٍ يَشْكُرُهُ مُجِيبُ الْمُضْطَرِّينَ وَيُثْنِى عَلَيْهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَأَىُّ بِضَاعَةٍ أَعَزُّ مِنْ بِضَاعَةٍ اخْتَارَهَا وَرَضِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؛ فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَغْبُونِينَ، وَإِذَا جَرَى الْأَمْرُ عَلَى هٰذِهِ الْجُمْلَةِ كُنْتَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لِلهِ سُبْحَانَهُ الْخَائِفِينَ الذَّاكِرِينَ لِمِنَنِهِ الْمَرْضِيِّينَ ، وَكُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْمَخُوفَةَ وَرَاءَكَ وَسَلِمْتَ مِنْ آفَاتِهَا ، وَسَبَقْتَ بِخَيْرَاتِهَا وَثَمَرَاتِهَا فَائِزًا عَلَى الْأَبَدِ بِكَرَامَاتِهَا وَسَعَادَاتِهَا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

﴿العقبةُ السَّابعة : وهى عقبةُ الحمد والشكر﴾

رتبتها (وكثر نفعها وطابت) أى حسنت (عقباها) أى عاقبتها (وإن التوفيق لمثلها لعزيز والفضل به) أى بالتوفيق لمثل الطاعة المذكورة (لله تعالى على العبد لكثير فأى هدية أجل) أى أعظم (من هدية يقبلها رب العالمين وأى سعى) أى عمل (أكرم من سعى يشكره مجيب المضطرين) سبحانه وتعالى (ويثنى عليه) أى على السعى (رب العالمين وأى بضاعة أعز من بضاعة اختارها ورضيها رب العالمين ، فتأمل أيها المسكين وإياك) أى احذر (أن تكون من المغبونين)والخاسرين (وإذا جرى الأمر على هذه الجملة) المذكورة (كنت من) العاملين (المخلصين لله سبحانه الخائفين) من عذابه (الذاكرين لمننه المرضيين وكنت قد خلفت هذه العقبة المخوفة) وهى عقبة القوادح (وراءك وسلمت من آفاتها) أى العقبة (وسبقت بخيراتها وثمراتها) حال كونك (فائزا على الأمل بكراماتها وسعاداتها) أى تلك العقبة (والله سبحانه ولى التوفيق والعصمة بمنه وكرمه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) والله أعلم .

﴿العقبة السابعة﴾ وهذه آخر العقبات (وهى عقبة الحمد والشكر) .

اعلم أن الفرق بين الحمد والشكر أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخص من جهة متعلقاته ، والحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب ، ومعنى هذا أن الشكر يكون بالقلب خضوعا واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافا ، وبالجوارح طاعة وانقيادا ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية فلا يقال شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود بها كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكون على الإحسان والنعم ، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد باللسان .

ثُمَّ عَلَيْكَ وَفَّقَكَ اللهُ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ بَعْدَ قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ وَالظَّفَرِ بِالْمَقْصُودِ مِنْ هٰذِهِ الْعِبَادَةِ السَّالِمَةِ مِنَ الآفَاتِ بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ عَلَى هٰذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْمِنَّةِ الْكَرِيمَةِ ،

واعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه العزيز وأمر به مع أنه تعالى عظم الذكر حيث قال « ولذكر الله أكبر » فقال تعالى « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » فصار الشكر أكبر لاقترانه به ورضى بالشكر مجازاة من عباده لفرط كرمه لأن قوله « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى » خرج فى لفظ المجازاة لتحقق الأمر وتعظيم الشكر ، لأن الفاء للشرط والجزاء والكاف المقدمة للتمثيل ، فقوله تعالى « فاذكرونى » متصل بقوله « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ، فاذكرونى ، واشكروا لى » والمعنى كمثل ما أرسلت فيكم رسولا منكم فاشكروا ، وهم يكتفون عن مثل بالكاف كما يكتفون عن سوف بالسين ، وهذا تفصيل للشكر عظيم لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى ، وقال تعالى « وسنجزى الشاكرين » وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » قيل هو طريق الشكر هذا أحد الوجوه فى الآية نقله صاحب القوت ؛ فلولا أن الشكر طريق قريب يوصل إلى الله تعالى لما عمل العدو فى قطعه ، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين فى الخلق . فقال « ولا تجد أكثرهم شاكرين » فلولا أن الشاكر حبيب رب العالمين ما قال ذلك ، وكذلك قال تعالى « وقليل من عبادى الشكور » كما قال تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين » وفى الآية تنبيه على أن توفية شكر الله صعب ، ولذلك لم يثن بالشكر من أوليائه ، إلا على اثنين . قال فى وصف إبراهيم عليه السلام « شاكرا لأنعمه » . وقال فى نوح عليه السلام « إنه كان عبدا شكورا » ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمادون ؟ قال الذين يشكرون الله على السراء والضراء » ولما نزل فى الكنوز ما نزل قال عمر رضى الله عنه: أى المال نتخذ ؟ فقال عليه السلام « ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال ، وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان ، والآيات والأخبار فى فضيلة الشكر كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب (ثم عليك وفقك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد قطع هذه العقبات و) بعد (الظفر بالمقصود من هذه العبادة السالمة من الآفات) المهلكات (بالحمد والشكر) متعلق بعليك (لله سبحانه على هذه النعمة العظيمة والمنة الكريمة) وهى العبادة السالمة من الآفات ، وهما أعنى الحمد والشكر عبادة الأولين والآخرين وعبادة الملائكة وعبادة الأنبياء عليهم السلام وعبادة أهل الأرض وعبادة أهل الجنة فأما عبادة الأنبياء عليهم السلام فهو أن آدم عليه السلام لما عطس قال الحمد لله وأن نوحا عليه الصلاة والسلام لما أغرق الله

وَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ ذَٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لِدَوَامِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَالثَّانِى : لِحُصُولِ الزِّيَادَةِ ، فَأَمَّا دَوَامُ النِّعْمَةِ فَلِأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ النِّعَمِ ، بِهِ تَدُومُ وَتَبْقَى ، وَبِتَرْكِهِ تَزُولُ وَتَحُولُ ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)
وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (فَكَفَرَتْ

قومه وأنجاه ومن معه من المؤمنين وأمره الله تعالى بأن يحمده ، فقال له «فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين » وقال إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام «الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسمعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء» وقال داود وسليمان عليهما السلام «الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين» وإن أهل الجنة يحمدون الله تعالى فى ستة مواضع : أحدها عند قوله تعالى « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » فاذا امتازوا يقولون : «الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين» والثانى حين جاوزوا الصراط قالوا «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » والثالث لما اغتسلوا بماء الحياة نظروا إلى الجنة ، فقالوا «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » والرابع حين دخلوها قالوا «الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض » والخامس حين استقروا في منازلهم قالوا «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله» الآية . والسادس حين فرغوا من الطعام قالوا «الحمد لله رب العالمين » وقال بعض الحكماء اشتغلت بشكر أربعة أشياء : أولها أن الله تعالى خلق ألف صنف من الخلق ورأيت بنى آدم أكرم الخلق فجعلنى من بنى آدم ؛ والثانى فضل الرجال على النساء فجعلنى من الرجال ، والثالث رأيت الإسلام أفضل الأديان وأحبها إلى الله تعالى فجعلنى مسلما ، والرابع رأيت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم فجعلنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .(وإنما يلزمك ذلك) أى الحمد والشكر (لأمرين :أحدهما لدوام النعمة العظيمة ، والثانى لحصول الزيادة ، فأما دوام النعمة فلأن الشكر قيد النعم ، به) أى بسبب الشكر (تدوم) تلك النعم (وتبقى وبتركه) أى الشكر (تزول) النعم وتحول . قال سبحانه « إن الله لا يغير ما بقوم » من العافية والنعمة التى أنعم بها عليهم (حتى يغيروا ما بأنفسهم) يعنى من الحالة الجميلة بالحالة القبيحة فيعصون ربهم ويجحدون نعمه عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم ، وهو قوله تعالى « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال » . قال العلامة الزبيدي معنى الآية قيل لا يغير نعمه عليهم حتى يغيروها بتضييع الشكر فيعاقبهم بالتغير ، والوجه الآخر لا يغير ما بهم من عقوبة حتى يغيروا معاصيهم بالتوبة فذكر ذلك السبب الأول من حكمه ، ثم ذكر السبب الثانى من حكمته وهو مسبب الأسباب بمشيئته وحكمته (وقال عز من قائل) «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان (فكفرت) يعنى هذه القرية ، والمراد أهلها . قال الإمام فخر الدين الرازى بعد كلام : فهذه

بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ

القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئا مفروضا ، ويحتمل أن تكون قرية معينة وعلى التقدير الثانى فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها والأكثرون من المفسرين على أنها مكة ، والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة (بأنعم الله) جمع نعمة ، والمراد بها سائر النعم التى أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا نعم الله التي أنعم بها عليهم بالجحود والكفر لا جرم أن الله تعالى انتقم منهم فقال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)وذلك أن الله تعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين قطع عنهم المطر وقطعت عنهم العرب الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجيف ، والكلاب الميتة والعهن وهو الوبر يعالج بالدم ويخلط به حتى يؤكل حتى كان أحدهم ينظر إلي السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وقالوا ماهذا ، هبك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فى حمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون والخوف يعنى خوف بعوث النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه التى كان يبعثها للاغارة فكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب، فكان أهل مكة يخافونهم . فان قلت الإذاقة واللباس استعارتان ، فما وجه صحتهما والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟ وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس ، فيقال كساهم الله لباس الجوع ، أو يقال فأذاقهم الله طعم الجوع . قلت قال صاحب الكشاف : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقول ذاق فلان البؤس والضرّ وأذاقه العذاب . شبه ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع ، وأما اللباس فقد شبه به لإشتماله على اللابس ما غشى الانسان والتلبس به من بعض الحوادث ، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عما يغشي منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف ، ثم ذكر بعده من علم المعانى والبيان ما يشهد لصحة ما قال . وقال الامام فخر الدين الرازى : جوابه من وجوه : الأول أن الأحوال التى حصلت لهم عند الجوع نوعان . أحدهما أن المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع . والثانى أن ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس . والحاصل أنه حصل لهم فى ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال «فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . الوجه الثانى أن التقدير أن الله عرفها أثر لباس الجوع والخوف إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة ، وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول : ناظر فلانا وذق ما عنده قال الشاعر :

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها وسيق إلينا عذبها وعذابها

بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) . وَقَالَ سُبْحَانَهُ : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) وَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ لِلنِّعَمِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ ، فَقَيِّدُوهَا بِالشُّكْرِ » وَأَمَّا حُصُولُ الزِّيَادَةِ ، فَلَمَّا كَانَ الشُّكْرُ هُوَ قَيْدَ النِّعْمَةِ فَهُوَ يُثْمِرُ الزِّيَادَةَ وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ —

ولباس الجوع والخوف ما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال كما تقول تعرفت سوء أثر الجوع والخوف على فلان كذلك يجوز أن تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان . الوجه الثالث أن يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف (بما كانوا يصنعون) أى فعلنا بهم مافعلنا بسبب ما كانوا يصنعون (وقال سبحانه) وتعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) هذا استفهام تقرير معناه أنه تعالى لا يعذب الشاكر المؤمن فإن تعذيبه لا يزيد فى ملكه وتركه عقوبته لا ينقص من سلطانه لأنه الغنى الذى لا يحتاج إلى شىء من ذلك فإن عاقب أحدا فإنما يعاقبه لأمر أوجبه العدل والحكمة فان قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أنقذتم أنفسكم من عذابه . قال أهل المعانى فيه تقديم وتأخير تقديره إن آمنتم وشكرتم ، لأن الإيمان مقدم على سائر الطاعات ولأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان ، ولأن الواو لاتوجب الترتيب ، وقيل هو على أصله ، والمعنى أن العاقل ينظر بعين بصيرته أولا إلى ما عليه من النعمة العظيمة فى إيجاده وخلقه فيشكر على ذلك شكرا عظيما مبهما ثم إذا تم النظر ثانيا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم عليه فآمن به ثم شكره شكرا مفصلا فكان ذلك المبهم مقدما على الإيمان فلذلك قدم الشكر على الإيمان فى الذكر كذا ذكره العلامة الخازن (وقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن للنعم أوابد كأوابد الوحش) جمع أبدة وهي التى توحشت ونفرت (فقيدوها) أى تلك النعم (بالشكر) لأن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ؛ ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدوها بالشكر . وفى الخبر : ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال كذا في الاحياء (وأما حصول الزيادة) أى زيادة النعمة (فلما كان الشكر هو قيد النعمة فهو) أى ذلك الشكر (يثمر الزيادة . وقال الله سبحانه « لئن شكرتم ») يابنى إسرائيل ما أنعمت عليكم من الإنجاء وغيره من النعم بالإيمان والعمل الصالح (لأزيدنكم) يعنى نعمة إلى نعمة ولأضاعفن لكم ما آتيتكم ، قيل شكر الموجود صيد المفقود ، وقيل « لئن شكرتم » بالطاعة « لأزيدنكم » فى الثواب ، وفى عيون المجالس للحدادى معنى الآية : لئن شكرتم نعمتى عليكم بالتوحيد والرزق وصحة الجسم لأزيدنكم سائر النعم « ولئن كفرتم » نعمائى « إن

— وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى — وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) فَالسَّيِّدُ الْحَكِيمُ إِذَا رَأَى الْعَبْدَ قَدْ قَامَ بِحَقِّ نِعْمَةٍ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِأُخْرَى وَيَرَاهُ أَهْلاً لَهَا ، وَإِلاَّ فَيَقْطَعُ ذَلِكَ عَنْهُ ، ثُمَّ النِّعَمُ قِسْمَانِ : دُنْيَوِيَّةٌ ، وَدِينِيَّةٌ ؛ فَالدُّنْيَوِيَّةُ ضَرْبَانِ : نِعْمَةُ نَفْعٍ ، وَنِعْمَةُ دَفْعٍ ، فَنِعْمَةُ النَّفْعِ أَنْ أَعْطَاكَ الْمَصَالِحَ وَالْمَنَافِعَ ، فَالْمَنَافِعُ ضَرْبَانِ : الْخِلْقَةُ السَّوِيَّةُ فِى سَلَامَتِهَا وَعَافِيَتِهَا ، وَالْمَلَاذُّ الشَّهِيَّةُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَنْكَحِ وَغَيْرِهَا مِنْ فَوَائِدِهَا ،

عذابى لشديد » فى الآخرة ، أو لئن شكرتم نعيم الدنيا لأزيدنكم نعيم العقبى ، أو لئن شكرتم التصديق لأزيدنكم التوفيق ، أو لئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم المغفرة : أو لئن شكرتم البداية لأزيدنكم النهاية ، أو لئن شكرتم نعمة الطاعة إنها منتى لأزيدنكم من طاعتى وخدمتى ، كذا قاله العلامة باصيل رحمه الله . وقال تعالى (والذين اهتدوا) بالإيمان (زادهم هدى) يعنى أنهم كلما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما جاء به عن الله عز وجل آمنوا بما سمعوا منه وصدقوه فيزيدهم ذلك هدى مع هدايتهم وإيمانا مع إيمانهم ، وقال عز من قائل (والذين جاهدوا فينا) فى حقنا ، فإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة بأنواعه (لنهدينهم سبلنا) سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا ، أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسلوكها لقوله « والذين اهتدوا زادهم هدى » ، وفى الحديث « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » ، كذا ذكره القاضى ، وقيل لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة ، وهى التى توصل إلى رضى الله تعالى . قال سفيان بن عيينة : إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فإن الله تعالى يقول « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات ومخالفة الهوى ، وقال الفضيل بن عياض : والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به . وقال سهل بن عبدا لله « والذين جاهدوا فينا » بإقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة . وقال ابن عباس : والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا (فالسيد الحكيم إذا رأى العبد قد قام بحق نعمة يمن) أى السيد الحكيم (عليه) أى على العبد (بأخرى) أى نعمة أخرى (ويراه) أى يرى السيد الحكيم ذلك العبد (أهلا لها) أى لتلك النعمة (وإلا) يقم العبد بحق تلك النعمة (فيقطع) السيد الحكيم (ذلك) أى ما أنعم السيد عليه (عنه) أى عن العبد الذي لا يقوم بحقه (ثم النعم قسمان دنيوية ودينية ، فالدنيوية ضربان) أى نوعان (نعمة نفع ونعمة دفع ، فنعمة النفع أن) أى بأن (أعطاك) الله (المصالح والمنافع ، فالمنافع ضربان) : الضرب الأول (الخلقة السوية) الكاملة (فى سلامتها) أى تلك الخلقة (وعافيتها ، و) الضرب الثانى (الملاذ الشهية من : المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها من فوائدها) أى المذكورات من المطعم والمشرب والملبس والمنكح . قال حجة الإسلام وغيره : فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الآباء

هل هو من النعم أم لا ؟ . فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم عليه السلام : الأرومة بالضم الأصل . وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، فقيل وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء » فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل ومن الناس من لا يعد شرف الأصل فضيلة ، وقال يعد المرء بنفسه لا بأبيه ، واستدل بقول على رضى الله عنه : الناس أبناء ما يحسنون ، وقيمة كل امرئ ما يحسنه . وقول الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا　　يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا　　ليس الفتى من يقول كان أبي

وقول الآخر :

بجد كل جد لا بمجد　　وهل جد بلا جد بمجد

وقول الحكيم : الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية وليس كما ظن لأن كرم الأعمام والأخوال مخيلة لكرم المرء ومظنة له ، والفرع وإن كان قد يفسد أحيانا فمعلوم أن أصله قد يورثه الفضيلة والرذيلة وأنه لا يكون من النخل الحنظل ولا من الحنظل النخل ، ولذلك قال الشاعر :

ومايك من خير أتوه فإنما　　توارثه آباء آبائهم قبل *
وهل ينبت الخطي إلا وشيجة　　وتغرس إلا فى منابتها النخل

وقيل : إن السرى إذا سرى فبنفسه　　وابن السرى إذا سرى إسراهما

وما ذكر من نحو قول على رضى الله عنه : الناس أبناء مايحسنون وقيمة كل امرئ مايحسنه فحث للناس على اقتباس العلم ونهي عن الاقتصار على مآثر الآباء ، فإن المآثر الموروثة قليلة الغناء مالم يضامها فضيلة النفس لأن ذلك إنما يحمد لكي يوجد الفرع مثله ، ومتى اختلف الفرع وتخلف فإنه يخبر بأحد شيئين : إما بتكذيب من يدعى الشرف لعنصره أو بتكذيبه فى انتسابه إلى ذلك العنصر وما فيهما حظ لمختار ، فالمحمود أن يكون الأصل فى الفضل راسخا والفرع به شامخا كما قال الشاعر :

زانوا قديمهم بحسن حديثهم　　وكريم أخلاق وحسن خصال

ومن لم يجتمع له الأمران فلأن يكون المرء شريف النفس دنىء الأصل أولى من أن يكون دنىء النفس شريف الأصل . قال الشاعر :

فما الشرف الموروث لا درّ دره　　بمحتسب إلا بآخر مكتسب
إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبة　　من المثمرات اعتده الناس فى الحطب

وَنِعْمَةُ الدَّفْعِ : أَنْ صَرَفَ عَنْكَ المَفَاسِدَ وَالمَضَارَّ، وَهِيَ ضَرْبَانِ ، أَحَدُهَا : فِي النَّفْسِ بِأَنْ سَلَّمَكَ مِنْ زَمَانَتِهَا وَسَائِرِ آفَاتِهَا وَعِلَلِهَا . وَالثَّانِي : دَفْعُ مَا يَلْحَقُكَ بِهِ ضُرٌّ مِنْ أَنْوَاعِ العَوَائِقِ أَوْ يَقْصِدُكَ بِهِ بَشَرٌ مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ وَسِبَاعٍ وَهَوَامٍّ أَوْ نَحْوِهَا .

وَأَمَّا النِّعَمُ الدِّينِيَّةُ فَضَرْبَانِ : نِعْمَةُ التَّوْفِيقِ ، وَنِعْمَةُ العِصْمَةِ ؛ فَنِعْمَةُ التَّوْفِيقِ : أَنْ وَفَّقَكَ اللهُ أَوَّلاً لِلْإِسْلَامِ ، ثُمَّ لِلسُّنَّةِ ، ثُمَّ لِلطَّاعَةِ ، وَنِعْمَةُ العِصْمَةِ أَنْ عَصَمَكَ أَوَّلاً عَنِ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ ، ثُمَّ عَنِ البِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ ، ثُمَّ عَنْ سَائِرِ المَعَاصِي ،

ومتى كان عنصره فى الحقيقة سنيا وهو فى نفسه دنيا ، فذلك آت إمامن إهماله نفسه وشؤمها وإما لتعوده عادات قبيحة وصحبة أشرار وغير ذلك من العوارض المفسدة للعناصر الكريمة ، فليس سبب الرذيلة شيئا واحدا (ونعمة الدفع أن) أى بأن (صرف) الله تعالى (عنك المفاسد والمضار وهى) أى نعمة الدفع (ضربان : أحدهما فى النفس بأن سلمك) الله (من زمانتها) أي عاهتها قال العلامة عبد الحق : الزمانة العاهة وعدم بعض الأعضاء وتعطيل القوى ؛ والأطباء يخصونها بالشلل وهو يبس فى اليد (وسائر آفاتها وعللها) أى النفس (والثانى دفع ما يلحقك به ضرر من أنواع العوائق) والموانع (أو) دفع ما (يقصد بشر) من أنواع المهالك (من إنس أو جن أو سباع) جمع سبع ، وهو المفترس من الحيوان مطلقا والعامة تخصه بالأسد (أوهوام) جمع الهامة ماله سم يقتل كالحية مثل دابة ودواب ، قاله الأزهرى . وقد تطلق الهوام على ما يقتل كالحشرات ، ومنه حديث كعب بن عجرة وقد قال عليه الصلاة والسلام « أيؤذيك هوام رأسك » والمراد القمل على الاستعارة بجامع الأذى (أو نحوها) أى المذكورة من الإنس والجن والسباع والهوام (وأما النعم الدينية فضربان : نعمة التوفيق ونعمة العصمة . فنعمة التوفيق أن وفقك الله أولا للاسلام ثم للسنة) أى الطريقة النبوية (ثم للطاعة ، ونعمة العصمة أن عصمك) أى حفظك (أولا عن الكفر والشرك ، ثم عن البدعة والضلالة ، ثم عن سائر المعاصى) قال حجة الإسلام وغيره : فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية ؟ وهى الراجعة إلى أربعة أشياء الهداية والرشد والتأييد والتسديد ، فاعلم أن التوفيق لايستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وفعله وبين قضاء الله وقدره . ولكن هذا يشمل الخير والشر جميعا وما هو سعادة وما هو شقاوة فيقال اتفاق جيد واتفاق ردىء ، فالتوفيق وإن كان فى الأصل موضوعا على وجه يصلح استعماله فيهما جميعا ، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة فقط من جملة قضاء الله وقدره كما أن الإلحاد فى الأصل عبارة عن الميل ومنه اللحد فى القبر ، فخصص بمن يميل إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد وأشباهها ، ولاخفاء بالحاجة إلى التوفيق كما قال الحكيم الذى

لا يستغنى الإنسان عنه في كل حال التوفيق ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

وأما الهداية: فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها ويجب على كل إنسان أن يعلم ذلك لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الإرادة فلا فائدة فى الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية فهى مبدأ الخيرات ومنتهاها كما قال تعالى «ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» وقال تعالى «ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء» وقال صلى الله عليه وسلم «ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله: أى بهدايته، فقيل ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا» وللهداية ثلاث منازل: الأولى معرفة طريق الخير والشر المشار إليهما بقوله تعالى «وهديناه النجدين» هذا هو المشهور فى التفسير، وقيل طريق الثواب والعقاب وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده المكلفين بعضه بالعقل والفطنة والمعارف الضرورية وبعضه على لسان الرسل، ولذلك قال تعالي «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى» فأسباب الهدى هى الكتب والرسل وبصائر العقول التى هى مبدأ الهداية وهى مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا، والأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، ومن جملة المعميات الإلف والعادة بالشىء وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» وكذا قوله صلى الله عليه وسلم «حبك للشىء يعمى ويصم» وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» وقوله تعالى «أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر» فكل ذلك منشؤه التكبر على المؤمنين والتحاسد على ما أعطاهم الله تعالى فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء وأشدها حب الدنيا فانه رأس كل خطيئة. والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة التى هى الأولى وهى التى يمد الله بها العبد حالا بعد حال بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح وهى ثمرة المجاهدة. قال تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا» وهو المراد بقوله تعالى «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم» وقوله تعالى «ومن يؤمن بالله يهد قلبه»، والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بها إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم به وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات والذى شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى «قل إن هدى الله هو الهدى» وهو المسمى حياة فى قوله تعالى «أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس» والمعنى بقوله تعالى «أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه».

وأما الرشد فنعنى به العناية الإلهية التى تعين الإنسان فى أموره عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره أى تكسله عما فيه فساده وأكثر ما يكون ذلك من الباطن

وَتَفْصِيلُ ذَٰلِكَ لاَ يُحْصِيهِ إِلاَّ السَّيِّدُ الْعَالِمُ الَّذِى أَنْعَمَ عَلَيْكَ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلاَ :

كما قال تعالى «ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين» ، فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها ، فالصبى إذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر فيه تبذيرا ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدا ، لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميز بها عن الجاهل الذى لا يدرى أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهى نعمة عظيمة من النعم التوفيقية .

وأما التسديد : فهو توجيه حركات العبد إلى صوب الغرض المطلوب وتيسيرها عليه بأن تقوم إرادته وحركته نحوه ليشتد فى صوب الصواب ويهجم عليه فى أسرع وقت يمكن الوصول اليه فيه وهو المراد بقوله تعالى «اهدنا الصراط المستقيم» فى أحد الوجوه قال الهداية بمجردها لا تكفى بل لا بد من هداية محركة للداعية وهى الرشد ، والرشد لا يكفى بل لا بد من تيسير الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه ، فالهداية محض التعريف والدلالة بلطف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء فى صوب السداد والنصرة من الله تعالى معونة للأنبياء والأولياء وصالحى العباد بما يؤدى إلى صلاحهم عاجلا وآجلا . وذلك تارة يكون من خارج بمن يقيضه الله تعالى فيعينه ، وتارة من داخل بأن يقوى قلوب الأولياء أو يلقى رعبا فى قلوب الأعداء ، وعلى ذلك قوله تعالى «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا» الآية وقوله تعالى «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون» .

وأما التأييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج ، وهو المراد بقوله عز وجل «إذ أيدتك بروح القدس» وتقرب منه العصمة وهى عبارة عن جود إلهى يسنح فى الباطن : أى يعرض فيه يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه غير محسوس ، وإياه عنى بقوله تعالى «ولقد همت به وهم بها لولا أن رآى برهان ربه» وقد روى أن يوسف عليه السلام رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو عاض على إبهاميه فأحجم ، وليس ذلك بمانع ينافى التكليف كما توهمه بعض المتكلمين فان ذلك كان تصورا منه وتذكرا لما كان قد حذره منه ، وعلى هذا قال «لنصرف عنه السوء والفحشاء» الآية . ومن عصمته تعالى أن يكرر الوعيد على من يريد عصمته لئلا يغفل ساعة عن مراعاة نفسه ، كقوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم «ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين» فهذه المذكورة هى مجامع النعم (وتفصيل ذلك) أى المذكور من النعم سواء كانت دنيوية أو دينية (لا يحصيه) أى التفصيل (إلا السيد العالم) جل جلاله (الذى أنعم عليك كما قال جل وعلا

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا) وَإِنَّ دَوَامَ هٰذِهِ النِّعَمِ كُلِّهَا بَعْدَ أَنْ مَنَّ عَلَيْكَ بِهَا ، وَالزِّيَادَةَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْهَا مِمَّا لاَ تُحْصِيهِ وَلاَ يَبْلُغُهُ وَهْمُكَ ، وَكُلُّهَا تَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ الشُّكْرُ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ ، وَإِنَّ خَصْلَةً تَكُونُ لَهَا هٰذِهِ الْقِيمَةُ ، وَتَكُونُ فِيهَا كُلُّ هٰذِهِ الْفَائِدَةِ ، لَحَقِيقٌ بِأَنْ يُتَمَسَّكَ بِهَا مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ بِحَالٍ فَإِنَّهُ جَوْهَرٌ ثَمِينٌ وَكِيمْيَاءُ عَزِيزَةٌ ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) قال النسفي: لا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها. هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال ، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا الله ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » قال : إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان أن لينت أصلها وأن طمست رأسها ، وكذا ورد فى الأثر : إن من لم يعرف نعم الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه . نقله صاحب القوت وهو فى الحلية من قول أبى الدرداء كما ذكره الزبيدى . قال صاحب القوت : ويقال إن فى باطن الجسم من النعم سبعة أضعاف النعم التى فى ظاهره ، وأن فى القلب من النعم أضعاف ما فى الجسم كله من النعم ، وإن نعم الإيمان بالله والعلم واليقين أضعاف نعم الأجسام والقلوب ، فهذه كلها نعم مضاعفة على نعم مترادفة لا يحصيها إلا من أنعم بها ولا يعلمها إلا من خلقها « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » سوى نعم المطعم والمشرب والملبس والمنكح من دخول ذلك وخروجه وكثرة تكرره وتزايده بأن أدخل مهناه وأخرج أذاه وبقى فى الجسم قواه ، وبأن طيب مدخله ويسر مخرجه وبقى منفعته ، وما أحال من صورته وغير من صفته للتزهيد والذم والاعتبار والتذكرة وتلك أيضاً نعم .

(و) اعلم (أن دوام هذه النعم كلها بعد أن من) الله تعالى (عليك بها) أى النعم (و) أن (الزيادة عليها من كل باب منها) أى من تلك النعم (مما لا تحصيه ولا يبلغه وهمك وكلها) أى النعم (تتعلق بشىء واحد وهو الشكر والحمد لله ، وأن خصلة) وهو الشكر والحمد (تكون لها) لتلك الخصلة (هذه القيمة وتكون فيها) أى فى الخصلة (كل هذه الفائدة لحقيق) وجدير (بأن يتمسك بها) أى بتلك الخصلة (من غير إغفال بحال) من الأحوال (فانه) أى ما ذكر من الخصلة (جوهر ثمين) أى رفيع الثمن (وكمياء) أى ذهب أو فضة (عزيزة) قال بعضهم : الكيمياء بكسر الكاف وسكون الياء وكسر الميم وبعدها ياء : هى الذهب أو الفضة الناشىء من وضع أجزاء معلومة عندهم على شىء من المعادن كنحاس أو رصاص أو قزدير لينقلب ذهبا أو فضة ، وشبهت تلك الخصلة بالكيمياء بجامع الرغبة فى كل وصح تشبيهها بالكيمياء وإن كانت أعظم من الكيمياء من حيث أن الكيمياء أمر محسوس فتكون الكيمياء أقوى بهذا الاعتبار (والله ولى التوفيق

بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا حَقِيقَةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَمَا مَعْنَاهُمَا وَحُكْمُهُمَا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ فَرَّقُوا بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عِنْدَ التَّحْصِيلِ بِأَنَّ الْحَمْدَ مِنْ أَشْكَالِ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ ، فَيَكُونُ مِنَ الْمَسَاعِي الظَّاهِرَةِ ، وَالشُّكْرُ مِنْ أَشْكَالِ الصَّبْرِ وَالتَّفْوِيضِ ، فَيَكُونُ مِنَ الْمَسَاعِي الْبَاطِنَةِ ، لِأَنَّ الشُّكْرَ يُقَابِلُ الْكُفْرَ ، وَالْحَمْدَ يُقَابِلُ اللَّوْمَ ، وَلِأَنَّ الْحَمْدَ أَعَمُّ وَأَكْثَرُ وَالشُّكْرُ أَقَلُّ وَأَخَصُّ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) فَثَبَتَ أَنَّهُمَا مَعْنَيَانِ مُتَمَيِّزَانِ ، ثُمَّ الْحَمْدُ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى أَحَدٍ بِالْفِعْلِ الْحَسَنِ ، هٰذَا مُقْتَضَى كَلَامِ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ . وَأَمَّا الشُّكْرُ فَتَكَلَّمُوا فِي مَعْنَاهُ وَأَكْثَرُوا ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : الشُّكْرُ هُوَ الطَّاعَةُ بِجَمِيعِ الْجَوَارِحِ لِرَبِّ الْخَلَائِقِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَإِلَى نَحْوِهِ ذَهَبَ بَعْضُ مَشَايِخِنَا فَقَالَ :

بفضله ورحمته . فان قيل فما حقيقة الحمد والشكر وما معناهما وحكمهما ؟ فاعلم أن العلماء) رضوان الله عليهم (فرقوا بين الحمد والشكر عند التحصيل) أى عند التفسير (بأن الحمد من أشكال) أى هيآت (التسبيح والتهليل فيكون) أى الحمد (من المساعى) أي الأعمال (الظاهرة ، والشكر من أشكال الصبر والتفويض فيكون) أى الشكر (من المساعى الباطنة لأن الشكر يقابل الكفر و) أن (الحمد يقابل اللوم ولأن الحمد أعم وأكثر) من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب (والشكر) أعم من جهة أنواعه وأسبابه و(أقل وأخص) من جهات متعلقاته فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس فان الشكر يقع بالجوارح والحمد باللسان (قال الله تعالى : وقليل من عبادى الشكور) المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفى حقه لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعى شكراً آخر لا إلى نهاية . ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر كذا ذكره القاضى (فثبت) بهذا (أنهما) أى الحمد والشكر (معنيان متميزان ثم الحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن هذا) أي ما ذكر من أن الحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن (مقتضى كلام شيخنا رحمه الله . وأما الشكر فتكلموا) أى العلماء رضوان الله عليهم (فى معناه) أى معنى الشكر (وأكثروا) الكلام على ذلك (فعن) عبد الله (بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق فى السر والعلانية) وقال الشبلى رحمه الله : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقال بعضهم . الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه (وإلى نحوه) أى نحو قول ابن عباس رضي الله عنهما (ذهب بعض مشايخنا فقال :

الشُّكْرُ هُوَ أَدَاءُ الطَّاعَاتِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَنَّهُ اجْتِنَابُ الْمَعَاصِي ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَقَالَ غَيْرُهُ : الشُّكْرُ الاحْتِرَاسُ عَنِ اخْتِيَارِ مَعَاصِي اللهِ تَحْتَرِسُ عَلَى قَلْبِكَ وَلِسَانِكَ وَأَرْكَانِكَ حَتَّى لَا تَعْصِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ الثَّلَاثَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ وَبَيْنَ قَوْلِ الشَّيْخِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى جَعَلَ الاحْتِرَاسَ مَعْنًى مُثْبَتًا زَائِدًا عَلَى الاجْتِنَابِ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَأَمَّا الاجْتِنَابُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ لَا يَفْعَلَ الْمَعْصِيَةَ عِنْدَ دَوَاعِيهَا وَلَا يَكُونُ فِي نَفْسِهِ مَعْنًى مُحَصَّلًا يَكُونُ الْعَبْدُ بِهِ مُشْتَغِلًا وَعَنِ الْكُفْرَانِ مُعْتَصِمًا ، وَقَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : إِنَّ الشُّكْرَ تَعْظِيمُ الْمُنْعِمِ عَلَى مُقَابَلَةِ نِعْمَتِهِ عَلَى حَدٍّ يَمْنَعُهُ عَنْ جَفَاءِ الْمُنْعِمِ وَكُفْرَانِهِ ، وَلَوْ قُلْتَ : تَعْظِيمُ الْمُحْسِنِ عَلَى مُقَابَلَةِ إِحْسَانِهِ لَصَحَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللهِ الشُّكْرُ لِلْعَبْدِ فَحَسَنٌ ،

الشكر هو أداء الطاعات فى الظاهر والباطن . ثم رجع) أى بعض مشايخنا (إلى أنه) أى الشكر (اجتناب المعاصى ظاهرا وباطنا . وقال غيره) أى غير بعض مشايخنا (الشكر) هو (الاحتراس) أى الحفظ (عن اختيار معاصى الله ، تحترس على قلبك ولسانك وأركانك) أى جوارحك (حتى لا تعصى الله عز وجل بشىء من هذه الثلاثة) التى هى : القلب واللسان والأركان (بوجه من الوجوه ، والفرق بين قوله) أي قول غيره (وبين قول الشيخ الأول) أى بعض مشايخنا (أنه) أى الشيخ الثانى وهو غير بعض مشايخنا (رحمه الله تعالى جعل الاحتراس معنى مثبتا زائدا على الاجتناب عن المعاصى ، وأما الاجتناب عن المعصية ما هو) أى ليس ذلك الاجتناب (إلا أن لا يفعل) العبد (المعصية عند دواعيها ولا يكون فى نفسه) أى العبد (معنى محصلا يكون العبد به) أى بذلك المعنى (مشتغلا ، وعن الكفران) أى الجحود للنعمة (معتصما . وقال شيخنا رحمه الله تعالى : إن الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمته على حد يمنعه عن جفاء المنعم وكفرانه) أى المنعم (ولو قلت) الشكر هو (تعظيم المحسن على مقابلة إحسانه لصح أن يكون من الله الشكر للعبد فحسن) وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بذكر طاعته . قال الزبيدى : ومعنى شكره جل وعز هو أن يوفق عبيده لأن يشكروا وهو الذى ألهم على ألسنتهم وقلوبهم الثناء له ، فبهذا الاعتبار يسمى شاكرا .

ولنذكر فى هذا المقام بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى مختصرا من الاحياء وغيره فانه مهم .

اعلم أنه لعلك يخطر ببالك ويسبق إلى ذهنك أن الشكر إنما يعقل فى حق منعم هو صاحب حظ

فى الشكر ينتفع به ، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم فى القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التى هى إعانة لهم على بعض أغراضهم أو غير ذلك ، وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين :

أحدهما : أنه منزه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والاعانة وغير ذلك فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه يضاهى شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام فى بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لاحظ للملك فيه ولاحظ لله تعالى فى أعمالنا كلها لغناه عنها .

الوجه الثانى : أن كل ما نتعاطاه باختيارنا نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التى هى أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ، ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه وأعطانا مركوبا آخر لم يكن الثانى شكرا للأول منا بل كان الثانى يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول . ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين ، ولسنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فانه قد ثبت كل من تقديس الله تعالى عن الحظوظ والأغراض وتنزيهه عن الاحتياج إلى الإعانة وغيرها فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ، وفى لفظ آخر : وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك . فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى وفى لفظ آخر : إذا عرفت أن النعم منى فقد رضيت منك بذلك شكرا . فاذا قلت فقد فهمت سؤال موسى عليه السلام وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحي إليهم جوابا لسؤالهم فإنى أعلم استحالة الشكر لله تعالى ، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا ، وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وهو غير ظاهر وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى ، والفهم قاصر عن درك السر فيه لدقته وغموضه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم فى نفسه فاعلم أن هذا قرع باب من أبواب المعارف الذوقية وهى أعلى من علوم المعاملة لتعلقها بعالم الغيب ولا يليق كشف أسرارها ، ولكنا نشير إلى ملامح وإشارات . ونقول ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض ، وهذا النظر يعرفك قطعا أنه سبحانه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب كما يشير لذلك قوله تعالى « يحبهم ويحبونه » . وهذا نظر من عرف أنه ليس فى الوجود غيره وأن كل شىء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق فى كل حال أزلا وأبدا لا أنه يصير هالكا فى وقت من الأوقات ، بل هو هالك أزلا وأبدا لايتصور إلا كذلك لأن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، ومثل هذا الغير إن اعتبر فى ذاته من حيث ذاته فلا وجود له بل هو عدم محض ومحال أن يوجد . وإذا اعتبر من الوجه الذى يسرى إليه الوجود من الأول رؤى موجودا لا فى ذاته . لكن من الوجه الذى يلي موجوده فيكون

الموجود وجه الله فقط . ولكل شيء وجهان : وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه ؛ فهو باعتبار وجه نفسه عدم وباعتبار وجه الله موجود فإذن لا موجود إلا الله ووجهه فإذا كل شيء هالك إلا وجهه وبيان ذلك أن الأشياء تنقسم إلى مالا يقوم بنفسه ويفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف فيقال فيهما إنها ليست قائمة بأنفسها وإلى ما لا يحتاج إلى محل فيقال قائم بنفسه كالجوهر إلا أن الجوهر وإن استغنى عن محل يقوم به فليس مستغنيا عن أمور لابد منها لوجوده ويكون شرطا فى وجوده فلا يكون قائما بنفسه لأنه محتاج فى قوامه إلى وجود غيره وإن لم يحتج مع ذلك إلى محل، فان كان موجودا يكفي ذاته بذاته ولا قوام له بغيره ، ولا يشترط فى وجوده وجود غيره فهو القائم بنفسه مطلقا فان مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور للأشياء وجود ولا دوام وجود إلا به فهو القيوم لأنه قوامه بذاته وقوام كل شيء به ولا قيوم إلا واحد ، ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذن ليس فى الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد الفرد الأحد جل شأنه . فان نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ، فانك إن نظرت إلى معنى الثناء فثناء كل شيء على فعل غيره والله تعالى إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه لأن أعمالهم من خلقه . قال الله تعالي « والله خلقكم وما تعملون » وإن كان الذى أعطى فأثنى شكورا فالذى أعطى وأثنى على المعطى أحق أن يكون شكورا ، ومن هاهنا نظر حبيب بن أبى حبيب البصرى حيث قرأ قوله تعالى « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » فقال واعجباه أعطى وأثنى ، وهو إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن هاهنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى رحمه الله حيث قرئ بين يديه قوله تعالى « يحبهم ويحبونه » فقال لعمرى يحبهم ودعه يحبهم ودعهم يحبونه ، فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وفى تقديم يحبهم إشارة إلى أنه لولا سبق محبته لنا لما أحببناه ، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن الصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل ما فى الوجود سوي الله تعالى فهو تصنيف الله وصنعته بيد قدرته وبديع حكمته فإن أحبه فما أحب إلا نفسه بهذا الاعتبار فإذن لا يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب ، وهذا كله نظر بعين التوحيد المحض ، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى ، وذلك عند استيلاء أمر الحق سبحانه عليه فيغلب كون الحق على كونه فيسلب عنه اختياره وإرادته فلا يرى للغير وجود إلا بالحق فهذا أحد النظرين المذكورين .

النظر الثانى: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه . وهؤلاء قسمان : قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون المحجوبون بمحض الظلمة وعماهم فى كلتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا ، وهو القيوم المطلق الذى هو قائم بنفسه هو

وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فهو قائم به ، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا دوام لوجودهم بل ولاوجود لهم وإنما وجودهم من حيث أوجدوا من الوجه الذى يلى الموجود لا من حيث وجدوا . وفرق بين الموجود بنفسه وبين الموجد بايجادغيره وليس فى الوجود إلاموجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان ، وإذا كان كل من عليها فان وزائل مضمحل أزلا وأبدا فلا يبقى إلاوجه ربك ذو الجلال والإكرام .

الفريق الثانى: ليس بهم عمى ولكن بهم عور لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذامشرك تحقيقا لأنه أشرك مع الله موجودا آخر كما أن الذى قبله جاحد تحقيقا لأنه جحد ما هو الحق الثابت فان جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتا بين الموجودين فأثبت عبدا وربا وقسم الموجود إلى واجب وممكن فبهذا القدر من إثبات التفاوت بينهما والبعض من الموجود الآخر دخل فى أوائل التوحيد ثم إن كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد فى بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى فان بقى في سلوكه كذلك فلايزال يقضى به النقصان إلى المحو فينمحى عن رؤية ماسوى الله تعالى فلا يرى فى الوجود إلا الله تعالى فيكون بذلك قد بلغ كمال التوحيد ، وحيث أدرك نقصا فى وجود ما سوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فبهذا تتفاوت درجات الموحدين وتختلف مشاربهم وأذواقهم وكتب الله المنزلة على رسله هى الكحل الذى تحصل به أنوار الأبصار والأنبياء هم الكحالون وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول «لا إله إلا الله» الدالة على التوحيد ومعناه فى الحقيقة أن لا يرى إلا الواحد الحق « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون ، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا بهذا الخيال القائم فى أذهانهم ، والمتوسطون هم الأكثرون، وفيهم من تنفتح بصيرته فى بعض الأحوال والأحيان فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف يذهب سريعا ولا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام عزيز كما قيل :

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له « واسجد واقترب » قال فى سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فقوله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ، وهذا قسم من الفناء المطلق وهو أن يتجلى الحق لعبده بطريق الأفعال ويسلب عنه اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق ، ثم اقترب صلى الله عليه وسلم ففنى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال : أعوذ برضاك من سخطك ، وهما : أى الرضا والسخط صفتان من

وَفِيهِ تَفَاصِيلُ قَدْ شَرَحْنَاهَا فِي كِتَابِ : [إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ] وَغَيْرِهِ ،

صفات الله تعالى ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب فرقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال : أعوذ بك منك وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذا ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال : لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : أى إنى لا أطيق بمحامدك وصفات إلهيتك وإنما أنت المحيط بها وحدك فقوله صلى الله عليه وسلم : لا أحصى خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها ، وقوله : أنت كما أثنيت على نفسك بيان أنه المثنى والمثني عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه فكان أول مقامه صلى الله عليه وسلم نهاية مقام الموحدين وهو أن لا يرى فى الوجود إلا الله وأفعاله فيستعيذ بفعل من فعل فانظر إلى ما انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، وهذا المقام غاية ما ينتهى إليه من تم له مقام الفناء المطلق ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا من الله تعالى بالإضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصا فى سلوكه وتقصيرا فى مقامه وهو من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أولها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصا بالإضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك . ولما قالت عائشة رضى الله عنها للنبى صلى الله عليه وسلم « أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وما هذا الجهد الشديد ؟ فقال أفلا أكون عبدا شكورا » أفلا الفاء للسببية من محذوف : أى أأترك تلك الكلفة نظرا إلى تلك المغفرة فلا أكون عبدا شكورا ؟ لا ، بل ألزمها وإن غفر لى لأكون عبدا شكورا ، فالمعنى أن المغفرة سبب ذلك التكلف شكرا فكيف أتركه بل أفعله لأكون مبالغا فى الشكر بحسب الإمكان البشرى ، ومن ثم أتى بلفظ العبودية لأنها أخص أوصافه صلى الله عليه وسلم ، ولذا ذكرها تعالى فى أعلى المقامات وأفضل الأحوال إذ هى مقتضى النسبة المستلزمة للقيام بأعلى الخدمة وهو الشكر ، إذ العبد إذا لاحظ كونه عبدا وأن مالكه مع ذلك أنعم عليه بما لم يكن فى حسابه علم تأكد وجوب الشكر والمبالغة فيه عليه ، أو معناه أفلا أكون طالبا للمزيد فى المقامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال « لئن شكرتم لأزيدنكم » وقيل تقدير الكلام إذا أنعم على بالإنعام الواسع أفلا أكون عبدا شكورا : أى أيصير هذا الانعام سببا لخروجى عن دائرة المبالغين فى الشكر والاستفهام لإنكار سببية مثل هذا الإنعام لعدم كونه عبدا شكورا ولا يخفى تكلفه ، ويصح أن يكون التقدير غفر لى ما تقدم وما تأخر لعلمه بأنى أكون مبالغا فى عبادته فأكون عبدا شكورا فلا أكون كذلك وهذا قريب من الأول والله أعلم ، ولنرجع إلى خدمة كلام المصنف قال رحمه الله تعالى (وفيه) أى فى الشكور (تفاصيل قد شرحناها فى كتاب) الصبر والشكر وهو الكتاب الثانى من ربع المنجيات من كتب (إحياء علوم الدين وغيره) ولنذكر على طريق الاختصار ما ذكره المصنف فى الاحياء من جملة التفاصيل مع زيادة يسيرة من غيره . فنقول : اعلم

أن الشكر ينتظم من حال وعلم وعمل . فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل . فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم . والحال الفرح الحاصل بانعامه . والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر . فان ما قيل فى حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكمال معانيه .

فالأصل الأول العلم: وهو علم بثلاثة أمور بعين النعمة ووجه كونها نعمة فى حقه وبذات المنعم ووجود صفاته التى بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا فى حق غير الله تعالى فأما فى حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى فى معارف الايمان التقديس . وأعنى به تنزيه الرب عن الجسمية وتوابعها ، ثم إذا عرف العبد ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد وهي الرتبة الثانية ، ثم يعلم أن كل ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط وأنه هو الذى أفاض الوجود عليه فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة من رتب الايمان إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل .

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الأفعال فمن عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا فى يد الكاتب وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها فان الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل شاءت أم أبت فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الارادة وهيج عليه الدواعي والبواعث وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة فى أن يعطيك ما أعطاك وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى هو يرجوها فى نفسه . وإنما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك وألقي فى قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا إلى الايصال إليك فان عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته : إلهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكرا فاذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه تعالى فان خالجك ريب وشك فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الأصل .

الأصل الثانى الحال المستمدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة التواضع والخشوع وهو أيضا فى نفسه شكر على تجرده : أي بمفرده كما أن المعرفة شكر بمفردها ، وإنما تكون

تلك الحالة شكرا إذا كان جامعا شروطه : أى الشكر وشروطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا ليتضح لك به فهم المقصود. فنقول: الملك الذى يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه : أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وأنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وأنه جواد نفيس للكر والفر وهذا فرح من لا حظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء مجانا فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح . الوجه الثانى أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لايفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أو لاستحقاره له بالاضافة إلى مطلوبه من نيل المحل والمنزلة فى قلب الملك . الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه فيخرج فى خدمة الملك ويحتمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه ويرتقى إلى درجة الوزارة وهى درجة تتلو درجة الملك من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرساً ويعتنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته وعلى يده ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة نفس الوزارة أيضاً بل يريد مشاهدة الملك فى غالب أحواله والقرب منه فى سائر أحيانه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب منه لاختار القرب على الوزارة فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الإنعام فى المستقبل وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه ، وإنما الشكر التام فى الفرح الثالث وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالي من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام من غير انقطاع ولا انصرام ، فهذا هو الرتبة العليا التي تنتهى الآمال والأمانى إليها وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ومعينة عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة وموافقة لطبعه كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج : أى سريع السير فى الركض ، بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلى رحمه الله : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة أى بأن يكون السابق منهما إلى القلب رؤية المنعم . وهذا كما قال بعضهم : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله : أى الغالب على القلب رؤية الله ومراقبته فأى شيء حدث فيه لا يكون إلا مذكرا له رؤية الله فإنه ذاكر غير غافل عنه ، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس الظاهرة من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب ، فان القلب لا يلتذ فى حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وهى اللذة المعنوية ، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات .

وَلٰكِنِ التَّحْصِيلُ أَنَّ الشُّكْرَ مِنَ الْعَبْدِ تَعْظِيمٌ يَمْنَعُ مِنْ جَفَاءِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَذٰلِكَ بِتَذَكُّرِ إِحْسَانِهِ وَحُسْنِ حَالِ الشَّاكِرِ فِي شُكْرِهِ وَقُبْحِ حَالِ الْكَافِرِ فِي كُفْرَانِهِ .

قُلْتُ : إِنَّ أَقَلَّ مَا يَسْتَوْجِبُهُ الْمُنْعِمُ بِنِعْمَتِهِ أَنْ لَا يُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى مَعْصِيَةٍ ، وَمَا أَقْبَحَ حَالَ مَنْ جَعَلَ نِعْمَةَ الْمُنْعِمِ سِلَاحًا عَلَى عِصْيَانِهِ ، فَعَلَى الْعَبْدِ إِذَنْ مِنْ فَرْضِ الشُّكْرِ فِي حَقِيقَتِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ سُبْحَانَهُ مَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ

الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح . أما بالقلب فقصد الخير والصلاح وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه بأى صيغة كانت . وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته حتى إن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لإظهار الرضى عن الله تعالى وهو مأمور به . فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل « كيف أصبحت ؟ قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال الرجل فى المرة الثالثة بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذى أردت منك » يعنى إظهار الحمد والشكر والثناء . وكان السلف يتساءلون إذا التقوا عن أحوالهم ونيتهم استخراج الشكر لله تعالي ليكون الشاكر مطيعا بشكره والمستنطق له به مطيعا باستخراجه إياه منه فيكون شريكه فى ذلك لأنه سبب ذكره تعالى وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق . وكل عبد سئل عن حاله فهو بين أن يشكر الله أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به ضعف اليقين إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء . ولذا قال يعقوب عليه السلام « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » . وذل العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذل وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح انتهى ما اختصرناه من التفاصيل فاعلم ذلك فانه مهم (ولكن التحصيل أن الشكر من العبد) هو (تعظيم يمنع من جفاء من أحسن) أى المنعم (إليه وذلك) أى التعظيم المذكور (بتذكر إحسانه) أى المنعم (و) تذكر (حسن حال الشاكر فى شكره وقبح حال الكافر فى كفرانه) أى جحده لنعمة المنعم وإحسانه (قلت : إن أقل ما يستوجبه المنعم بنعمته أن لا يتوصل بها) أى بتلك النعمة (إلى معصية وما أقبح) فعل تعجب (حال من جعل نعمة المنعم سلاحا على عصيانه) أى المنعم (فعلى العبد إذن) أى حين إذ كان أقل ما يستوجبه المنعم بنعمته عدم التوصل بتلك النعمة إلى معصيته (من فرض الشكر فى حقيقته) أى الشكر (أن يكون له) أى للعبد (من تعظيم الله سبحانه ما يحول) أى ما يحجز ويمنع (بينه) أى بين العبد (وبين معاصيه) تعالى

عَلَى حَسَبِ تَذَكُّرِ نِعَمِهِ ، فَإِذَا أَتَى بِمَا هُوَ الْأَصْلُ فِيهِ ثُمَّ يُقَابِلُ ذٰلِكَ بِجِدٍّ فِي الطَّاعَةِ وَجُهْدٍ فِي الْقِيَامِ بِالْخِدْمَةِ ، إِذْ هُوَ مِنْ حُقُوقِ النِّعْمَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الِاحْتِرَاسِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَوْضِعُ الشُّكْرِ فَاعْلَمْ أَنَّ مَوْضِعَهُ النِّعَمُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ عَلَى أَقْدَارِهَا . وَأَمَّا الشَّدَائِدُ وَالْمَصَائِبُ فِى الدُّنْيَا فِى نَفْسٍ أَوْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ فَتَكَلَّمُوا فِى ذٰلِكَ هَلْ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا ؟ قَالَ بَعْضُهُمْ : لَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ وَإِنَّمَا يَجِبُ فِيهَا الصَّبْرُ . وَأَمَّا الشُّكْرُ فَهُوَ عَلَى النِّعْمَةِ لَا غَيْرُ ، قَالُوا وَلَا شِدَّةَ إِلَّا وَفِى جَنْبِهَا نِعَمُ اللهِ تَعَالَى ، فَلَزِمَ الشُّكْرُ عَلَى تِلْكَ النِّعَمِ الْمُقْتَرِنَةِ بِهَا دُونَ نَفْسِ الشِّدَّةِ

(على حسب تذكر نعمه) تعالى (فإذا أتى) العبد (بذلك) أى التعظيم الذى يحول بينه وبين المعاصى (فقد أتى) العبد (بما هو الأصل فيه) أى فى الشكر (ثم يقابل ذلك) أى التعظيم المذكور (بجد) بكسر الجيم : أى اجتهاد (فى الطاعة وجهد فى القيام بالخدمة إذ هو) أى الاجتهاد فى الطاعة والجهد فى الخدمة (من حقوق النعمة فلا بد من الاحتراس) أى الحفظ (عن المعصية وبالله التوفيق . فان قلت : فما موضع الشكر ؟ فاعلم أن موضعه النعم الدينية والدنيوية على أقدارها) وقد ذكر المصنف رحمه الله فى غير هذا الكتاب أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه . أما فى الآخرة فكسعادة العبد بالنزول والقرب فى جوار الله تعالى . وأما فى الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما ، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذى يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه آخر ولذا عد من الخيرات المتوسطة (وأما الشدائد والمصائب فى الدنيا فى نفس أو أهل أو مال فتكلموا) أى العلماء (فى ذلك) أى فيما يصيب العبد من الشدائد والمصائب (هل يلزم العبد الشكر عليها) أى على تلك الشدائد والمصائب أم لا يلزمه ذلك (قال بعضهم لا يلزم العبد الشكر عليها من حيث هى وإنما يجب) على العبد (فيها الصبر . وأما الشكر فهو على النعمة لا غير) أى غير النعمة من البلايا (قالوا) أى العلماء (و) فى هذا القول نظر وذلك لأنه (لا شدة) ولا مصيبة (إلا وفى جنبها) أى تلك الشدة والمصيبة (نعم الله تعالى فلزم) العبد (الشكر على تلك النعم المقترنة بها) أى بالشدة (دون) الشكر على (نفس الشدة) بل يلزم العبد الصبر على نفس تلك الشدة فلذلك يتصور أن تجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الانسان حتي يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده وأنصاره ويؤخذ منه ذلك المال والصحة أيضا كذلك ، فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا

وَتِلْكَ النِّعَمُ مَاقَالَهُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : مَا ابْتُلِيتُ بِبَلِيَّةٍ إِلَّا كَانَ لِلهِ تَعَالَى عَلَيَّ فِيهَا أَرْبَعُ نِعَمٍ : إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي ، وَإِذْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَ مِنْهَا ، وَإِذْ لَمْ أُحْرَمِ الرِّضَا بِهَا ، وَإِذْ رَجَوْتُ الثَّوَابَ عَلَيْهَا ،

ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك ما من بلاء من البلايا التى تصيب العبد إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله ، فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى وتجاوز الحدود . قال الله تعالى «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء» وقال تعالى « إن الانسان ليطغي أن رآه استغنى » فجعل الطغيان ثمرة الاستغناء (وتلك النعم) المقترنة بالشدة (ما قاله) عبد الله (بن عمر رضى الله عنهما) وفى الإحياء قال عمر بن الخطاب ، ويحتمل أن ابنه روى عن أبيه (ما ابتليت ببلية إلا كان لله تعالى على فيها) أى فى تلك البلية (أربع نعم) أولها (إذ لم تكن) تلك البلية (فى دينى . و) الثانية (إذ لم تكن أعظم منها . و) الثالثة (إذ لم أحرم الرضى بها . و) الرابعة (إذ رجوت الثواب عليها) وقيل كان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له البعض أى كتب إليه : أشكر الله تعالى ، فضربه السلطان فكتب إليه يخبره فقال اشكر الله تعالى فجيء إليه فى الحبس بمجوسى فحبس عنده وكان المجوسى مبطونا وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى فأرسل الصديق إليه يخبره بخبره ، فقال اشكر الله تعالى فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم بسبب بطنه لبيت الخلاء مرات عديدة بالليل وهو أى هذا الصديق يحتاج أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ثم يرجعا مكانهما ، فكتب إليه بذلك فقال اشكر الله تعالى ، فقال إلى متى تقول هذا ؟ يعنى قولك اشكر الله وأى بلاء أعظم من هذا البلاء ؟ فقال : لو جعل الزنار وهو علامة الشرك الذى فى وسطه على وسطك كما وضع القيد الذى فى رجله فى رجلك ماذا كنت تصنع ؟ نبهه بذلك على أنه ما من بلاء إلا وفوقه ما هو أعظم منه من بلايا الدين والدنيا وعلى أن كل ذلك بقضائه وقدره وقد سلمك الله من بلاء الشرك فاشكر الله تعالى على ذلك . أورده القشيرى فى الرسالة ونقله الزبيدى . وفى القوت وكذلك إذا رأيت مبتلى فى دينه بصفات المنافقين أو مبتلي فى نفسه بأخلاق المتكبرين أو منهمكا فيما عليه من أفعال الفاسقين عددت جميع ذلك نعما عليك من الله تعالى إذ لم يجعلك كذلك لأنك قد كنت أنت ذاك لولا فضل الله عليك ورحمته ، فتحسب كل ما وجه إليك من الشر أو صرف عنك من الخير نعما عليك بمثل ما وجه به من الخير إليك وصرف من الشر عنك لأن النفوس كنفس واحدة فى الأمر بالسوء والمشيئة والقدرة واحدة فقد رحمك بما صرف من السوء عنك فذلك من نعم الله عليك ، ولذلك قال مصنفنا الغزالى وغيره : ما من إنسان قد أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا

وَقَدْ قِيلَ أَيْضاً: مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ أَنَّ تِلْكَ الشِّدَّةَ زَائِلَةٌ غَيْرُ دَائِمَةٍ ، وَأَنَّهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى دُونَ غَيْرِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ بِسَبَبِ مَخْلُوقٍ فَإِنَّهَا لَكَ عَلَيْهِ لَا لَهُ عَلَيْكَ، فَإِذَنْ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ

ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة مثلا فهو مستحق للشكر ، وكذا من استحق عليك أن يقطع يديك جميعا فترك احداهما فهو مستحق ولو ضربك مائة سوط كاملا أو قطع يديك جميعا ماذا كنت تصنع ، ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع فصب على رأسه طست من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر ولم يتغير حاله الذي كان عليه ، فقال له أصحابه الذين شاهدوا ذلك منه ما هذه السجدة فى هذه الحالة ؟ فقال كنت أنتظر أن تصب على النار فالاقتصار على الرماد نعمة . هذا نظر العارفين بالله حيث جعل صب الرماد عليه مصالحة عن النار التى كان يستحقها .

فان قلت : كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار ؟ فاعلم أن الكافر قد خبىء له من العذاب أكثر وإنما أمهل وترك حتى يستكثر من الاثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » وقال تعالى « وأملى لهم إن كيدى متين » وأما العاصى فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ورب خاطر يخطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته ما هو أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ، ولذلك قال الله تعالى فى مثله « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا أحد الوجوه فى الشكر على المصيبة » وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة فيعظم عذابها ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها وأثرها ، ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي عنها بأسباب أخر إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين لانقطاع الأحساب والأنساب ، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا إذ الجمع بين العقوبتين مما يخالف الكرم ، إذ قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث على رضى الله عنه كما ذكره العراقى (وقد قيل أيضاً) أى كما قاله ابن عمر رضى الله عنهما (من تلك النعم أن تلك الشدة زائلة غير دائمة وأنها) أى تلك الشدة (من الله تعالى دون غيره) وكانت مكتوبة عليك فى أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليك وقد وصلت ووقع الفراغ واسترحت من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة إن تأملت فيها (وإن كانت) تلك الشدة (بسبب مخلوق فانها) نافعة (لك) وضرر (عليه) أى على هذا المخلوق (لا) نافعة (له) أى لذلك المخلوق وضرر (عليك فاذن) أى إذ كان الأمر كما ذكر من أن تلك الشدة غير دائمة وأنها من الله تعالى وأنها نافعة لك (يلزم العبد الشكر

عَلَى النِّعَمِ الْمُقْتَرِنَةِ بِالشِّدَّةِ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ الْأَوْلَى عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : إِنَّ شَدَائِدَ الدُّنْيَا مِمَّا يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا ، لِأَنَّ تِلْكَ الشَّدَائِدَ نِعَمٌ بِالْحَقِيقَةِ بِدَلِيلِ أَنَّهَا تُعَرِّضُ الْعَبْدَ لِمَنَافِعَ عَظِيمَةٍ وَمَثُوبَاتٍ جَزِيلَةٍ وَأَعْوَاضٍ كَرِيمَةٍ فِي الْعَاقِبَةِ ، يَتَلَاشَى فِي جَنْبِهَا مَشَقَّةُ هٰذِهِ الشَّدَائِدِ ، وَأَيَّةُ نِعْمَةٍ تَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ هٰذِهِ ، وَمِثَالُ ذٰلِكَ مَنْ يَسْقِيكَ دَوَاءً كَرِيهًا مُرًّا لِدَاءٍ شَدِيدٍ ، أَوْ يَفْصِدُكَ أَوْ يَحْجُمُكَ لِعِلَّةٍ عَظِيمَةٍ مَخُوفَةِ الْخَطَرِ ، فَيُؤَدِّي ذٰلِكَ إِلَى صِحَّةِ النَّفْسِ وَسَلَامَةِ الْبَدَنِ وَصَفْوَةِ الْعَيْشِ ، فَيَكُونُ إِيلَامُهُ إِيَّاكَ بِمَرَارَةِ الدَّوَاءِ ، أَوْ جِرَاحَةِ الْفَصْدِ وَالْحِجَامَةِ نِعْمَةً بَالِغَةً بِالْحَقِيقَةِ وَمِنَّةً ظَاهِرَةً وَأَنْ كَانَ فِي صُورَتِهِ مَكْرُوهًا يَنْفِرُ عَنْهُ الطَّبْعُ ، وَتَسْتَوْحِشُ مِنْهُ النَّفْسُ ، وَأَنْتَ تَحْمَدُ الَّذِي تَوَلَّى مِنْكَ هٰذَا ، بَلْ تُحْسِنُ إِلَيْهِ بِمَا أَمْكَنَكَ ،

على النعم المقترنة بالشدة . وقال آخرون وهو) أى ما قاله هؤلاء الآخرون (الأولى) أى الأفضل (عند شيخنا رحمه الله تعالى أن شدائد الدنيا) ومصائبها (مما يلزم العبد الشكر عليها لأن تلك الشدائد نعم بالحقيقة بدليل أنها) أى تلك الشدائد (تعرض العبد لمنافع عظيمة) لأن المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام كلها نعم من الله تعالى : إما أن تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين ، أو تكون كفارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللأبرار ، أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين ، فتعجيل العقوبة فى الدنيا رحمة ونعمة ومعرفة هذه النعم طريق للشاكرين . كذا نقله الزبيدى عن صاحب القوت (ومثوبات جزيلة) أى عظيمة (وأعواض كريمة فى العاقبة يتلاشى) أى يهلك (فى جنبها) أى تلك المنافع (مشقة هذه الشدائد ، وأية نعمة تكون أكبر من هذه ؟) المنافع المذكورة (ومثال ذلك) أى المذكور من أن الشدائد والمصائب نعم بالحقيقة (من يسقيك دواء كريها مرا لداء شديد أو) من (يفصدك) بالفصد (أو يحجمك) بالحجامة (لعلة عظيمة مخوفة الخطر فيؤدى ذلك) أى سقى الدواء الكريه أو الفصد أو الحجامة (إلى صحة النفس وسلامة البدن وصفوة العيش فيكون إيلامه) أى من يسقيك ما ذكر أو يفصدك أو يحجمك (إياك بمرارة الدواء) الكريه (أو جراحة الفصد والحجامة نعمة بالغة)أى كاملة (بالحقيقة ومنة ظاهرة وأن) بالفتح أى أنه وضميره يرجع إلى الحال والشأن (كان) أى ما يؤدى إلى الصحة والسلامة والصفوة من الدواء المذكور وغيره (فى صورته) أى صورة ما يؤدى ذلك (مكروها ينفر) أى يعرض ويصد (عنه) أى عما يؤدى ذلك مما ذكر (الطبع وتستوحش منه النفس وأنت تحمد الذى تولى منك هذا) الدواء المذكور وغيره (بل تحسن إليه) أى إلى الذى تولى منك (بما أمكنك)

فَكَذٰلِكَ حُكْمُ هٰذِهِ الشَّدَائِدِ ، أَمَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَيْفَ حَمِدَ اللهَ وَشَكَرَهُ عَلَى الشَّدَائِدِ كَشُكْرِهِ عَلَى المَسَارِّ حَيْثُ قَالَ : « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى مَا سَاءَ وَسَرَّ » أَمَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) وَمَا سَمَّاهُ اللهُ خَيْرًا فَهُوَ أَكْثَرُ مِمَّا يَبْلُغُهُ وَهْمُكَ ، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هٰذَا الْقَوْلَ أَنَّ النِّعْمَةَ لَيْسَتْ خَيْرًا عَنِ اللَّذَّةِ وَمَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ بِمُقْتَضَى الطَّبْعِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَا يَزِيدُ فِي رِفْعَةِ الدَّرَجَاتِ ، وَلِذٰلِكَ تُسَمَّى نِعْمَةً بِمَعْنَى الزِّيَادَةِ ، وَإِذَا كَانَتِ الشِّدَّةُ مِمَّا تَصِيرُ سَبَبًا فِي زِيَادَةِ شَرَفِ العَبْدِ وَرِفْعَةِ دَرَجَتِهِ ، فَتَكُونُ نِعَمًا بِالْحَقِيقَةِ وَإِنْ كَانَتْ تُعَدُّ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ بِظَاهِرِهَا ، فَاعْلَمْ بِذٰلِكَ مُوَفَّقًا .

فَإِنْ قُلْتَ : فَالشَّاكِرُ أَفْضَلُ أَمِ الصَّابِرُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قِيلَ : إِنَّ الشَّاكِرَ أَفْضَلُ

من المال وغيره (فكذلك) أى مثل الدواء المذكور (حكم هذه الشدائد . أما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم كيف حمد الله وشكره على الشدائد كشكره) صلى الله عليه وسلم (على المسار) أى ما يسره ويفرح به (حيث قال : الحمد لله) أى كل الحمد له لا يستحقه غيره (على ما ساء) أى أحزن (و) ما (سر) أى أفرح (أما ترى كيف يقول) الله (جل جلاله « وعسى أن تكرهوا شيئا) وهو جميع ما كلفوا به فان الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم (ويجعل الله فيه) أى فى ذلك الشىء (خيرا كثيرا) لفظة عسى توهم الشك مثل لعل وهى من الله يقين ، وقيل إنها كلة مطمعة فهى لاتدل على حصول الشك للقائل وتدل على حصول الشك للمستمع ، وقيل ربما كان الشىء شاقا فى الحال وهو سبب المنافع الجليلة فى المستقبل ومثله شرب الدواء المر فانه ينفر عنه الطبع فى الحال ويكرهه ، لكن يتحمل هذه الكراهة والمشقة لتوقع حصول الصحة فى المستقبل (وما سماه الله خيرا فهو أكثر مما يبلغه وهمك ومما يؤيد هذا القول) أى قول الآخرين (أن النعمة ليست خبرا) أى عبارة كما قاله العلامة عبد الحق (عن اللذة وما تشتهيه النفس بمقتضى الطبع وإنما هو) أى النعمة(ما يزيد فى رفعة الدرجات ولذلك) أى لأجل أن النعمة ما يزيد فى رفعة الدرجات (تسمى نعمة بمعنى الزيادة وإذا كانت الشدة) والمحنة والمصيبة (مما تصير سببا فى زيادة شرف العبد ورفعة درجته فتكون) أى الشدة (نعما بالحقيقة وإن كانت تعد) أى تلك الشدة (فى الشدائد والمحن) بكسر الميم جمع محنة المصائب (بظاهرها) أى ظاهر تلك الشدة (فاعلم ذلك) أن كون تلك الشدة نعما بالحقيقة (موفقا . فإن قلت : فالشاكر أفضل أم الصابر ؟ فاعلم أنه) اختلف العلماء فى ذلك فقد (قيل إن الشاكر أفضل) من الصابر

بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) فَجَعَلَهُمْ أَخَصَّ الْخَوَاصِّ. وَقَالَ فِى مَدْحِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) وَقَالَ فِى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ) وَلِأَنَّهُ فِى مَنْزِلَةِ الْإِنْعَامِ وَالْعَافِيَةِ، وَلِذٰلِكَ

وقد ذهب إليه بعض العارفين ورجحوه بسبع ترجيحات : أحدها أن الله تعالى تسمى بهما جميعا فجاء فى الحديث الذى أخرجه الترمذى الصبور وجاء فى كتاب الله الشكور ، فكما قيل فى الصبور مضمن فى الشكور وزاد عليه بثنائه على نفسه وعلى عباده بكلامه القديم ولا يوجد مثل هذا فى اسمه الصبور . الثانى النظر فى سببهما وسبب الصبر معرفة الآلاء وسبب الشكر معرفة ذى النعماء وشتان بين المعرفتين . الثالث النظر فى حالهما فحال الصبر استدعاء المكابدة والمجاهدة للغلبة وحال الشكر استدعاء الفرح برؤية المنة والخادم الفرح أفضل من المتكلف عند المخدوم . الرابع النظر فى أعمالهما فعمل الصبر محنة وابتلاء وعمل الشكر نعمة مشكور عليها عند الشاكر ، وفرق بين من شهد التكاليف محنة وابتلاء فيصبر عليه ، وبين من يراها نعمة تشوقه إلى جوار الله تعالى فيشكر عليها . الخامس النظر في علاجهما وعلاج الصبر رؤية الجزاء للظفر وعلاج الشكر رؤية المريد لطاعة المجيد . السادس النظر فى استدامتهما فى السلوك فالشكر مستحب للسالك في كل مقام وحال من الأحوال والمقامات لانهاية لها ، فالشكر على ذلك لانهاية له والصبر ينقطع عنه أول مقام من مقامات الرضا بالاجماع من مشايخ السلوك . السابع النظر فى الاستدامة المطلقة إذ لو فرضنا أن الصبر دائم لكان إلى الموت والشكر فى الآخرة من المؤمن والكافر . قال الله تعالى « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » وقال تعالى « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » فهذا يعم المؤمن والكافر ، فهذه سبع ترجيحات كافية للمتأمل ، فهكذا ينبغى أن يكون الترجيح بين شيئين إذا رجح أحدهما عمل فى الارتقاء ، كذا قاله الكمال أبو بكر محمد بن إسحاق الصوفى فى كتابه مقاصد المنجيات ونقله الزبيدى . وبهذا الذى ذكره ظهرت فضيلة الشاكر على الصابر (بدليل قوله تعالى « وقليل من عبادى الشكور ») المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادا واعترافا وكدحا ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما من يشكر على أحواله كلها ، وقيل من يشكر على الشكر ، وقيل من يرى عجزه عن الشكر كذا ذكره النسفى (فجعلهم) أى الشكورين (أخص الخواص . وقال) سبحانه وتعالى (فى مدح نوح عليه السلام « إنه) أى نوحا (كان عبدا شكورا ») يحمد الله تعالى على مجامع حالاته وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره وحث للذرية على الاقتداء به (وقال) عز من قائل (فى) مدح (إبراهيم عليه) الصلاة و (السلام «شاكرا لأنعمه») تعالى ، يعني أنه عليه السلام كان شاكرا لله على أنعمه التى أنعم بها عليه . قال القاضى : ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة (ولأنه) أى الشاكر (فى منزلة الإنعام والعافية ولذلك

قِيلَ : لِأَنْ أُنْعِمَ فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ ، وَقِيلَ : بَلِ الصَّابِرُ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ مَشَقَّةً ، فَيَكُونُ أَعْظَمَ ثَوَاباً وَأَرْفَعَ مَنْزِلَةً ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ) . وَقَالَ تَعَالَى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

وَقَالَ تَعَالَى : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

أى لأجل أن الشاكر فى منزلة الانعام والعافية (قيل لأن أنعم) بنعمة (فأشكر أحب إلي من أن ابتلي) ببلاء (فأصبر ، وقيل بل الصابر أفضل) من الشاكر وظاهر الكتاب والسنة يدلان عليه (لأنه) أى الصابر (أعظم مشقة فيكون أعظم ثوابا وأرفع منزلة) أى رتبة (قال الله تعالى « إنا وجدناه) أى علمناه : أى أيوب عليه السلام (صابرا) على البلاء نعم قد شكا إلى الله ما به واسترحمه . لكن الشكوى إلى الله لاتسمى جزعا . فقد قال يعقوب عليه السلام « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » على أنه عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم أنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان (نعم العبد ») أيوب « إنه أواب » وهذا مدح لأيوب عليه السلام بصبره على البلاء ، وذلك يقتضى تفضيل الصبر على الشكر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله ، فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل ، أما من الكتاب فكقوله تعالى « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » فالشاكر يؤتى أجره مرة فأشبه مقام الصبر مقام الخوف وأشبه مقام الشكر مقام الرجاء ، وقد قال تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » وقد اتفقوا على تفضيل الخوف على الرجاء من حيث اتفق أهل المعرفة على فضل العلم على العمل ، فالصبر من مقامه الخوف وقرب حال الصابر فى الفضل من مقامه ، والشكر حال من مقامات الرجاء كذلك يقرب حال الشاكر من مقامه ، ومن السنة كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أوتى خصلة منها لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار » فقرب الصبر باليقين الذى لاشىء أعز منه ولا أجل وارتفاع الأعمال وعلو العلوم به ؛ وفى الخبر : « يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أما ترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كلا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين » كذا أورده صاحب القوت .

(و) قد يفضل الصبر على الشكر بوجه آخر : وهو أن الصبر حال البلاء والشكر حال النعمة والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق (قال تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ») والشاكر يؤتى أجره بحساب لأنه إنما هو تحقيق الوصف ونفى ما عداه (وقال تعالى « والله يحب الصابرين ») .

والمعنى كما فى الخازن أن من صبر على تحمل الشدائد فى طلب الآخرة ولم يظهر الجزع والعجز فان الله تعالى يحبه ؛ ومحبة الله للعبد عبارة عن إرادة إكرامه وإعزازه وإيصال الثواب له وإدخاله الجنة مع أوليائه وأصفيائه ، وقد رفع على بن أبى طالب رضى الله عنه الصبر على أرفع مقامات اليقين فقال فى حديثه الطويل الذى وصف فيه شعب الايمان : والصبر على أربع دعائم : على الشوق والاشفاق والزهد والترقب ؛ فمن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصائب ، ومن ارتقب الموت سارع فى الخيرات ، فجعل هذه المقامات أركان الصبر لأنها توجد عنه ، ويحتاج إليه فى جميعها وجعل الزهد أحد أركانه .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، فهو دليل على أن الفضيلة فى الصبر ، إذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة فى الشكر ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل » وكقوله صلى الله عليه وسلم « شارب الخمر كعابد الوثن » ودائما المشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة من المشبه وإلا لما حسن وجه التشبيه ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام « الصوم نصف الصبر » فان كل ماينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وإن كان بينهما تفاوت فى الدرجات كما يقال الإيمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الإيمان فلايدل ذلك على أن العلم يساوى العمل ، وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم : « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه ، وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه » وفى خبر آخر « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا » وفى الخبر : « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فانه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام » وكل ما ورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغنى ، فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم ، إذ ليس صرف عن ظواهر الكتاب والسنة . وقال آخرون هما : أى الصبر والشكر سيان فى الدرجة والمقام لا فضيلة لأحدهما على الآخر ، إذ كل منهما مقام وليس يمكن الترجيح بين مقامين لأن فى كل مقام طبقات متفاوتة وهذا مذهب القدماء من العلماء ، إذ سئل بعضهم عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر وأنعم علي الآخر فشكر ، فقال كلاهما سواء لأن الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر والآخر شاكر بثناء واحد فقال فى وصف أيوب عليه السلام « نعم العبد إنه أواب » وقال فى وصف سليمان عليه السلام «نعم العبد إنه أواب» وهذا المذهب مرجوح لأن هذا غفلة عن لطائف الأفهام وذهاب عن حقيقة تدبر الكلام ، إذ بين ثناء الله تعالى علي أيوب عليه السلام فى الفضل على ثنائه على سليمان عليه السلام ثلاثة عشر معني وشرك سليمان عليه السلام بعد ذلك فى وصفين آخرين ، وأفرد أيوب عليه السلام بفضل ثناء ثلاثة عشر : أول ذلك قوله تعالى فى مدحه « واذكر » فهذه كلمة مباهاة باهى

بأيوب عليه السلام وعند رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم وشرفه وفضله بقوله تعالى « واذكر » يا محمد فأمره بذكره والاقتداء به كقوله تعالى « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » قيل هم أهل الشدائد والبلاء منهم أيوب عليه السلام قرضوا بالمقاريض ونشروا بالمناشر وكانوا سبعين نبيا ، وقيل هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهؤلاء آباء الأنبياء وأفاضلهم كقوله تعالى « واذكر فى الكتاب إبراهيم » وكقوله « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار » يعنى أصحاب القوة والتمكين وأهل البصائر واليقين ، ثم رفع أيوب إلى مقامهم فضمه إليهم وجعله سلوة له صلى الله عليه وسلم ثم ذكره إياه وذكر به ثم قال « عبدنا » فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب ولم يدخل بينه وبينه لام تعريف فيقول عبدا لنا فألحقه بنظرائه من أهل البلاء فى قوله « واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب » وهم أهل البلاء الذين باهى بهم الأنبياء وجعل من ذرياتهم الأصفياء فأضاف أيوب إليهم فى حسن الثناء ، وفى لفظ التذكرة به فى الثناء ، ثم قال « نادى ربه » فأفرد بنفسه لنفسه ، وانفرد له فى الخطاب بوصفه وقال « مسنى الضر وأنت أرحم الرحمين » فوصفه بمواجهة التملق له ولطيف المناجاة فظهر له بوصف الرحمة فاستراح إليه فناداه فشكا إليه واستغاث به فأشبه مقامه مقام موسى ويونس عليهما السلام فى قولهما « تبت إليك » وفي قول الآخر « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » وهذا خطاب المشاهدة ونظر المواجهة ، ثم وصفه بالإستجابة له وأهله بكشف الضر عنه وجعل كلامه سببا لتنفيذ قدرته ومكانا لمجارى حكمته ومفتاحا لفتح إجابته ، ثم قال بعد ذلك كله « ووهبنا له أهله » فزاد على سليمان عليه السلام فى الوصف إذ كان بين من وهب لأهله وبين من وهب له أهله فضل فى المدح ، لأنه قال في وصف سليمان « ووهبنا لداود سليمان » فأشبه فضل أيوب فى ذلك على سليمان كفضل موسى على هارون عليهم السلام لأنه قال فى فضل موسى عليه السلام وتفضيله على هارون عليه السلام « ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا » وكذلك قال فى مدح داود « ووهبنا لداود سليمان » فوهب لموسى أخاه كما وهب لدواد ابنه ، وأشبه مقام أيوب فى المباهاة والتذكرة به مقام داود عليه السلام ، لأنه قال أيضا فى وصفه لنبيه صلي الله عليه وسلم « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود » وكذلك قال فى نعت أيوب « واذكر عبدنا أيوب » فقد شبه أيوب بداود وموسى عليهما السلام فى المعنى ورفعه إليهما فى المقام وهما فى نفوسنا أفضل من سليمان عليه السلام فأشبه أن يكون حال أيوب أعلى من حال سليمان عليهما السلام وعلم الله المقدم ولكن هذا ألقى فى قلوبنا والله أعلم ، ثم قال بعد ذلك « رحمة منا » فذكر نفسه ووصفه عند عبده تشريفا له وتعظيما ، ثم قال « وذكرى لأولى الألباب » فجعله إماما للعقلاء وقدوة لأهل الصبر والبلاء وتذكرة وسلوة من الكروب للأصفياء ، ثم قال عز وجل « إنا وجدناه صابرا » فذكر نفسه سبحانه ذكرا ثانيا لعبده ووصل اسمه باسمه حبا له وقربا منه لأن النون والألف فى وجدناه اسمه تعالى ، والهاء اسم عبده أيوب ، ثم قال : صابرا فوصفه بالصبر فأظهره مكانه فى القوة ثم قال فى آخر أوصافه « نعم العبد إنه أواب » فهذا أول وصف سليمان وآخره هاهنا شركه

قُلْتُ أَنَا : الشَّاكِرُ بِالْحَقِيقَةِ لا يَكُونُ إِلاَّ صَابِرًا ، وَالصَّابِرُ بِالْحَقِيقَةِ لَا يَكُونُ إِلاَّ شَاكِرًا ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ فِى دَارِ الْمِحْنَةِ لَا يَخْلُو مِنْ مِحْنَةٍ يَصْبِرُ عَلَيْهَا لَا مَحَالَةَ وَلَا يَجْزَعُ فَإِنَّ الشُّكْرَ تَعْظِيمُ الْمُنْعِمِ عَلَى حَدٍّ يَمْنَعُ مِنْ عِصْيَانِهِ ، وَالْجَزَعُ عِصْيَانٌ ، وَالصَّابِرُ لَا يَخْلُو مِنْ نِعْمَةٍ ، كَمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الشَّدَائِدَ نِعَمٌ بِالْحَقِيقَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُتَقَدِّمِ فَإِنَّهُ شُكْرٌ بِالْحَقِيقَةِ إِذَا صَبَرَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُ حَبَسَ نَفْسَهُ عَنِ الْجَزَعِ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهٰذَا هُوَ الشُّكْرُ بِعَيْنِهِ إِذْ هُوَ تَعْظِيمٌ يَمْنَعُ عَنِ الْعِصْيَانِ ، وَلِأَنَّ الشَّاكِرَ يَمْنَعُ نَفْسَهُ عَنِ الْكُفْرِ إِنْ صَبَرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَحَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى الشُّكْرِ وَصَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ ، فَصَارَ صَابِرًا بِالْحَقِيقَةِ ، وَالصَّابِرُ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى حَتَّى مَنَعَهُ تَعْظِيمُهُ عَنِ الْجَزَعِ فِيمَا أَصَابَهُ وَحَمَلَهُ عَلَى الصَّبْرِ ، فَقَدْ شَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى فَصَارَ شَاكِرًا بِالْحَقِيقَةِ ، وَلِأَنَّ حَبْسَ النَّفْسِ عَنِ الْكُفْرَانِ مَعَ قَصْدِ النَّفْسِ لَهُ

فى الثناء ، وزاد أيوب بما تقدم من المدح والوصف الذى لا يقوم له شىء ، وذلك من قوله تعالى « واذكر عبدنا أيوب » إلى قوله « أواب » وجعل فى أول وصف سليمان بأنه وهبه لأبيه دواد فصار حسنة من حسنات داود ، واشتمل قوله : « نعم العبد إنه أواب » على أول وصفه وأوسطه وهو آخر وصف أيوب عليهم السلام أجمعين كذا حققه العلامة الزبيدى .

(قلت أنا : الشاكر بالحقيقة لا يكون إلا صابرا والصابر بالحقيقة لا يكون إلا شاكرا) ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى فيشكر ، ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله فيصبر . وهما معرفتان متلازمان متساويتان كما أشار إلى ذلك بقوله (لأن الشاكر فى دار المحنة لا يخلو من محنة يصبر) أى الشاكر (عليها) أى تلك المحنة (لا محالة ولا يجزع) أى ذلك الشاكر (فإن الشكر تعظيم المنعم علي حد يمنع من عصيانه ؛ والجزع عصيان والصابر لا يخلو من نعمة كما ذكرنا) وهو (أن الشدائد نعم بالحقيقة على المعنى المتقدم) وهو أنها تعرض العبد لمنافع عظيمة ومثوبات جزيلة وأعواض كريمة فى العاقبة يتلاشى فى جنبها مشقة هذه الشدائد (فانه شكر بالحقيقة إذا صبر عليها) أى الشدائد (لأنه حبس نفسه عن الجزع تعظيما لله تعالى وهذا) أى حبس النفس عن الجزع تعظيما لله تعالى (هو الشكر بعينه إذ هو) أى الشكر (تعظيم يمنع عن العصيان ، ولأن الشاكر يمنع نفسه عن الكفران) والجحود للنعمة (فصبر عن المعصية وحمل نفسه على الشكر وصبر على الطاعة فصار) الشاكر (صابرا بالحقيقة والصابر عظم الله تعالى حتى منعه تعظيمه عن الجزع فيما أصابه) من البلاء (وحمله) تعظيمه (على الصبر فقد شكر الله تعالى فصار) الصابر (شاكرا بالحقيقة ، ولأن حبس النفس عن الكفران مع قصد النفس له)

شِدَّةٌ يَصْبِرُ عَلَيْهَا الشَّاكِرُ ، وَتَوْفِيقُ الصَّابِرِ وَالْعِصْمَةُ نِعْمَةٌ يُشْكَرُ عَلَيْهَا الصَّابِرُ ، فَأَحَدُهُمَا لَا يَنفَكُّ عَنِ الْآخَرِ ، وَلِأَنَّ الْبَصِيرَةَ الْبَاعِثَةَ عَلَيْهِمَا وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ بَصِيرَةُ الْإِسْتِقَامَةِ فِي قَوْلِ بَعْضِ عُلَمَائِنَا ، فَمِنْ هٰذِهِ الْوُجُوهِ قُلْنَا إِنَّ أَحَدَهُمَا لَا يَنفَكُّ عَنِ الْآخَرِ

أى لذلك الكفران (شدة يصبر عليها) أى الشدة (الشاكر وتوفيق الصابر والعصمة نعمة يشكر عليها) أى على تلك النعمة (الصابر فأحدهما) أى الصبر والشكر (لا ينفعك عن الآخر ولأن البصيرة الباعثة) أى الحاملة (عليهما) أى الصبر والشكر (واحدة وهى) أى الباعثة الواحدة (بصيرة الاستقامة فى قول بعض علمائنا) رحمهم الله (فمن هذه الوجوه) التى ذكرناها (قلنا إن أحدهما) أى الصبر والشكر (لا ينفك عن الآخر) بل هما متلازمان. قال صاحب القوت : فأما تفصيل التفضيل فعلى ثلاثة أوجه : أحدها أن المقامات أعلى من الأحوال وقد يكون الصبر والشكر حالين وقد يكونان مقامين فمن كان مقامه الصبر وكان حاله الشكر عليه فهو أفضل لأنه صاحب مقام؛ ومن كان مقامه الشكر وكان حاله الصبر عليه فحاله مزيد لمقامه فقد صار مزيدا للشاكر فى مقامه والوجه من التفضيل المقربون أعلى مقاما من أصحاب اليمين فالصابرون من المقربين أفضل من الشاكرين من أصحاب اليمين ، والشاكرون المقربون أفضل من الصابرين من أصحاب اليمين .

فان قيل : فان كان الشاكر والصابر من المقربين فأيهما أفضل عندك ؟ فقد قلنا إن اثنين لا يتفقان فى مقام من كل وجه لانفراد الوجه بمعاني لطائف اللطيفة بمثل ما انفردت الوجوه بلطيفة الصفة مع تشابه الصفات واشتباه الأدوات وأفضلهما حينئذ أعرفهما لأنه أحبهما إليه تعالى وأقربهما منه وأحسنهما يقينا لأن اليقين أعز ما أنزل الله عز وجل ، ثم قال : وجه آخر من بيان التفضيل .

نقول : إن الصبر عما يوجب الشكر أفضل وإن الشكر على ما يوجب الصبر أفضل ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال ، تفسيره أن الصبر عن حظ النفس وعن التنعم والترفه أفضل إن كان عبدا حاله النعمة فالصبر عن النعيم والغنى مقام فى المعرفة ، وهو أفضل لأن فيه الزهد المجمع على تفضيله ونقول إن الشكر على الفقر والبلاء والمصائب أفضل إن كان عبدا حاله الجهد والبلاء فالشكر عليه مقام له فى المعرفة فهو حينئذ أفضل ، لأن فيه الرضى المتفق على فضله ، وقال فى موضع آخر من كتابه : ومن الناس من يقول إن الصبر أفضل من الشكر وليس يمكن بينهما تفضيل عند أهل التحصيل من قبل أن الشكر مقام لجملة من الموقنين ، والترجيح بين جماعة على جماعة لا يصح من قبل تفاوتهم فى اليقين والمشاهدات لأن بعض الصابرين أفضل من بعض الشاكرين بفضل معرفته وحسن صبره ، وخصوص الشاكرين أفضل من عموم الصابرين لحسن يقينه وعلو شهادته ، ولكن تفصيل ذلك من طريق الأحوال والمقامات ، أنا نقول ، والله أعلم : إن الصبر عن النعيم أفضل لأن فيه الزهد والخوف وهما أعلى المقامات وإن الشكر على المكاره أفضل لأن فيه البلاء والرضى وإن الصبر على الشدائد والضراء أفضل من الشكر على النعم والسراء من قبل أنه أشق على النفس وأن الصبر مع حال الغنى والمقدرة أن يعصى بذلك أفضل من الشكر على النعم من

فَاعْرَفْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ فصل ﴾ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِي قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْيَسِيرَةِ الْمُؤْنَةِ الْكَبِيرَةِ الْجَدْوَى الْعَزِيزَةِ الْعُنْصُرِ الْعَظِيمَةِ الْقَدْرِ ، وَتَأَمَّلْ أَصْلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَنَّ النِّعْمَةَ إِنَّمَا تُعْطَى مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَهَا ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا الشَّاكِرُ .

وَدَلِيلُ مَا قُلْنَاهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ فِي الْحِكَايَةِ عَنِ الْكُفَّارِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ (أَهٰؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟

قبل أن الصبر عن المعاصي بالنعم أفضل من الطاعة لمن جاهد نفسه فيها فإذا شكر على ما يصبر عليه فقد صار البلاء عنده نعمة وهذا أفضل لأنها مشاهدة المقربين ، وإذا صبر عما يشكر عليه من النعم كان أفضل لأنها حال الزاهدين ، وفي الخبر « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل » يعني الأقرب شبها بنا فالأقرب فرفع أهل البلاء إليه ووصف نفسه به وجعلهم الأمثل فالأمثل منه فمن كان به صلى الله عليه وسلم أمثل كان هو الأفضل فقد كان صلى الله عليه وسلم شاكرا علي شدة بلائه وكذلك الشاكر من الصابرين يكون أفضل لشكره على البلاء إذ هو الأمثل والأقرب إلى وصف الأنبياء وكل مقام من مقامات اليقين يحتاج إلى صبر وإلى شكر وأحدهما لا يتم إلا بالآخر لأن الصبر يحتاج إلى شكر عليه ليكمل والشكر يحتاج إلى صبر عليه ليستوجب المزيد ، وقد قرن الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما فقال « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » كذا نقله الزبيدي (فاعرف هذه الجملة) المذكورة راشدا إن شاء الله تعالى (وبالله التوفيق) .

فصــــل

(فعليك أيها الرجل) السالك طريق الآخرة (ببذل المجهود في قطع هذه العقبة) التي هي عقبة الحمد والشكر (اليسيرة) أي القليلة (المؤنة الكبيرة الجدوى) أي المنفعة (العزيزة العنصر) أي الأصل ووزنه فنعل بضم الفاء والعين ، وقد تفتح العين للتخفيف والجمع العناصر كما في المصباح (العظيمة القدر) أي الرتبة .

(وتأمل) أيها الرجل (أصلين : أحدهما أن النعمة إنما تعطى من يعرف قدرها ، وإنما يعرف قدرها) أي تلك النعمة (الشاكر ، ودليل ما قلناه) من الأصل الأول (قوله سبحانه) وتعالى (في الحكاية عن الكفار والرد عليهم « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا) أي أهؤلاء الفقراء والضعفاء بالإسلام ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء وهذا اعتراض من الكفار على

أَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ظَنَّ أُولَٰئِكَ الْجُهَّالُ أَنَّ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْمِنَّةَ الْكَرِيمَةَ ، إِنَّمَا تُعْطَى مَنْ يَكُونُ أَكْثَرَهُمْ مَالاً وَأَشْرَفَهُمْ حَسَباً وَنَسَباً، فَقَالُوا مَا بَالُ هٰؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ بِزَعْمِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْأَحْرَارِ ، أُعْطُوا هٰذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ بِزَعْمِكُمْ دُونَنَا فَقَالُوا عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِكْبَارِ وَمَجْرَى الِاسْتِهْزَاءِ : (أَهٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟) فَأَجَابَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهٰذِهِ النُّكْتَةِ الزَّاهِرَةِ فَقَالَ : (أَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّ السَّيِّدَ الْكَرِيمَ إِنَّمَا يُعْطِى نِعْمَتَهُ مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَهَا ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ وَقَلْبِهِ فَاخْتَارَهَا عَلَى غَيْرِهَا ، وَلَا يَعْبَأُ بِمَا تَحَمَّلَ مِنْ أَعْبَاءِ الْمَؤُنَةِ فِى تَحْصِيلِهَا ، ثُمَّ لَا يَزَالُ قَائِماً بِالْبَابِ يُؤَدِّى شُكْرَهَا ، وَكَانَ فِي عِلْمِنَا السَّابِقِ أَنَّ هٰؤُلَاءِ الضُّعَفَاءَ يَعْرِفُونَ قَدْرَ هٰذِهِ النِّعْمَةِ وَيَقُومُونَ بِشُكْرِهَا فَكَانُوا أَوْلَى بِهٰذِهِ النِّعْمَةِ مِنْكُمْ ، فَلَا اعْتِبَارَ بِغِنَاكُمْ وَثَرْوَتِكُمْ ، وَلَا جَاهِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَحَشَمِكُمْ

الله تعالى فأجابهم بقوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) يعنى أنه تعالى أعلم بخلقه وبأحوالهم وأعلم بالشاكرين من الكافرين : أى بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه ، وبمن لا يقع منه فيخذله (ظن أولئك الجهال) الكفار (أن النعمة العظيمة والمنة الكريمة إنما تعطى) بالبناء للمفعول (من يكون أكثرهم مالا وأشرفهم حسبا) أى شرفا (ونسبا ، فقالوا) أى أولئك الجهال الكفار (ما بال هؤلاء الفقراء بزعمهم من العبيد والأحرار أعطوا) أى هؤلاء الفقراء (هـذه النعمة العظيمة بزعمكم دوننا فقالوا) أى أولئك الجهال (على طريق الاستكبار ومجرى الاستهزاء : أهؤلاء) الفقراء (من الله عليهم من بيننا ؟ فأجابهم) أى أولئك الجهال (الله تعالى بهذه النكتة الزاهرة) أى المضيئة (فقال) تعالى (أليس الله بأعلم بالشاكرين ، تقدير الكلام) وتفسير (أن السيد الكريم) جل وعز (إنما يعطي نعمته من يعرف قـدرها) أى النعمة (وإنما يعرف قدرها من أقبل عليها) أى على تلك النعمة (بنفسه وقلبه فاختارها علي غيرها ولا يعبأ) أى لا يبالى (بمـا تحمل من أعباء) أى أثقال (المؤنة فى تحصيلها) أي تلك النعمة (ثم لا يزال) أي المقبل عليها (قائما بالباب يؤدى شكرها ، وكان فى علمنا السابق) فى الأزل (أن هؤلاء الضعفاء) من أتباع الرسول صلي الله عليه وسلم (يعرفون قدر هذه النعمة ويقومون بشكرها فكانوا) أى هؤلاء الضعفاء (أولى) أى أحق (بهـذه النعمة منكم فلا اعتبار) ولا اعتداد (بغناكم وثروتكم) أى كثرة مالكم (ولا جاهكم فى الدنيا وحشمكم) فى محيط

وَلاَ نَسَبِكُمْ فِي الْأَنْسَابِ، وَلاَ حَسَبِكُمْ ، وَإِنَّمَا تَحْسِبُونَ النِّعْمَةَ كُلَّهَا الدُّنْيَا وَحُطَامَهَا وَالْحَسَبَ وَالنَّسَبَ وَعُلُوَّهُ ، لاَ الدِّينَ ، وَالْعِلْمَ وَالْحَقَّ وَمَعْرِفَتَهُ ، وَإِنَّمَا تُعَظِّمُونَ ذٰلِكَ وَتَتَفَاخَرُونَ بِهِ ، أَمَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ لاَ تَكَادُونَ تَقْبَلُونَ هٰذَا الدِّينَ وَالْعِلْمَ وَالْحَقَّ إِلَّا بِمِنَّةٍ عَلَى مَنْ أَتَاكُمْ بِهِ ، وَذٰلِكَ لِاسْتِحْقَارِكُمْ ذٰلِكَ وَقِلَّةِ مُبَالاَتِكُمْ بِهِ ، وَإِنَّ هٰؤُلاَءِ الضُّعَفَاءَ يَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَيَبْذُلُونَ فِيهِ مُهْجَتَهُمْ وَلاَ يُبَالُونَ بِمَا فَاتَهُمْ وَبِمَنْ عَادَاهُمْ مَعَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا قَدْرَ هٰذِهِ النِّعْمَةِ وَرَسَخَ فِي قُلُوبِهِمْ تَعْظِيمُهَا ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ فَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهَا ، وَطَابَ لَهُمُ احْتِمَالُ كُلِّ شِدَّةٍ فِيهَا ، فَيَسْتَغْرِقُونَ جَمِيعَ الْعُمُرِ فِي شُكْرِهَا ، فَلِذٰلِكَ اسْتَأْهَلُوا هٰذِهِ الْمِنَّةَ الْكَرِيمَةَ وَالنِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ فِي سَابِقِ عِلْمِنَا وَخَصَّصْنَاهُمْ بِهَا ،

المحيط حشم الرجل خاصته الذين يغضبون له أو يغضب هو لهم من أهل وعبيد أو جيرة انتهى . وأيضا فيه الحشم أيضا العيال والقرابة للواحد والجمع (ولا نسبكم فى الأنساب ولا حسبكم وإنما تحسبون النعمة كلها الدنيا وحطامها) أى متاعها ومنفعتها (والحسب والنسب وعلوه) أى النسب (لا الدين والعلم والحق ومعرفته) أى لا تحسبون ذلك نعمة (وإنما تعظمون ذلك) المذكور من الدنيا وما بعدها (وتتفاخرون به) أى بذلك المذكور (أما ترون أنكم لا تكادون) أى تقربون (تقبلون هذا الدين والعلم والحق إلا بمنة على من أتاكم به) أى بما ذكر من الدين والعلم والحق (وذلك) أى عدم إقبالكم ما ذكر من الدين وما بعده (لاستحقاركم ذلك) أى ما ذكر من الدين وما بعده (وقلة مبالاتكم) أى اكتراثكم (به) أى بذلك المذكور . قال العلامة عبد الحق : بالاه وبالى به مبالاة وبلاء وبالا على غير قياس وأصلها بالية وباليا : اهتم به واكترث له (وأن هؤلاء الضعفاء يقتلون أنفسهم على ذلك) أى لأجل الدين والحق (ويبذلون فيه) أى فى ذلك الدين وغيره (مهجتهم) أى روحهم (ولا يبالون) أى هؤلاء الضعفاء (بما فاتهم) من الدنيا وغيرها (و) لا يبالون (بمن عاداهم مع ذلك) الدين وغيره (لتعلموا) أيها الجهال (أنهم) أى هؤلاء الضعفاء (هم الذين عرفوا قدر هذه النعمة ورسخ) أى ثبت (فى قلوبهم تعظيمها) أى النعمة (وهان) أى سهل (عليهم فوت كل شىء دونها) أى غير تلك النعمة (وطاب لهم) أى لهؤلاء الضعفاء (احتمال كل شدة فيها) أى فى تلك النعمة (فيستغرقون جميع العمر فى شكرها فلذلك) أى لأجل استغراقهم عمرهم في شكر النعمة (استأهلوا) أى صاروا أهلا (هذه المنة الكريمة والنعمة العظيمة فى سابق علمنا وخصصناهم بها) أى بهذه المنة الكريمة

دُونَـكُمْ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

ثُمَّ أَقُولُ : وَكَذٰلِكَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ خَصَّهُمُ اللّٰهُ تَعالَى بِنِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ بِالْحَقِيقَةِ أَعْرَفَ النَّاسِ بِقَدْرِهَا وَأَشَدَّهُمْ تَعْظِيماً لَهَا ، وَأَجَدَّهُمْ فِى تَحْصِيلِهَا ، وَأَعْظَمَهُمْ فِى إِكْرَامِهَا ، وَأَقْوَمَهُمْ بِشُكْرِهَا ، وَالَّذِينَ حَرَمَهُمُ اللّٰهُ ذٰلِكَ ، فَلِقِلَّةِ احْتِفَالِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ لِحَقِّهَا بَعْدَ الْقَدَرِ السَّابِقِ ، فَلَوْ كَانَ تَعْظِيمُ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ فِى قُلُوبِ الْعَامَّةِ وَالسُّوقَةِ مِثْلَ مَافِى قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَعَبِّدِينَ ، لَمَا آثَرُوا سُوقَهُمْ عَلَيْهِ ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُ ، أَلَا تَرَى أَنَّ فَقِيهاً إِذَا ظَفِرَ بِتَعْلِيمِ مَسْئَلَةٍ كَانَتْ مُلْتَبِسَةً عَلَيْهِ ، ثُمَّ ظَفِرَ بِهَا ، كَيْفَ يَرْتَاحُ قَلْبُهُ وَيَعْظُمُ سُرُورُهُ ، وَيَجِلُّ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا لَوْ وَجَدَ أَلْفَ دِينَارٍ مَا كَانَ يَعْدِلُ ذٰلِكَ ، وَرُبَّمَا يَهُمُّهُ أَمْرُ مَسْئَلَةٍ فِى بَابِ الدِّينِ فَيَتَفَكَّرُ فِيهَا ،

(دونكم فهذه) الجملة التى ذكرناها (هـذه) أى عظيمة كاملة (ثم أقول وكذلك) أى مثل حال الضعفاء (كل فريق من الناس خصهم الله تعالى بنعمة من نعم الدين من علم أو عمل فإنك تجدهم بالحقيقة أعرف الناس بقدرها) أي النعمة (وأشدهم تعظيما لها وأجدهم) أى أشد اجتهادهم (فى تحصيلها وأعظمهم فى إكرامها وأقومهم) أى أكثر قيامهم (بشكرها ، والذين حرمهم) أى منعهم (الله ذلك) أى ما ذكر من نعم الدين (فلقلة احتفالهم) أى مبالاتهم (وتعظيمهم لحقها بعد القدر السابق) فى علم الله (فلو كان تعظيم العلم والعبادة فى قلوب العامة) أى الجهلة (والسوقة مثل مافى قلوب العلماء والمتعبدين) من تعظيم العلم والعبادة (لما آثروا) أى اختار هؤلاء العامة والسوقة (سوقهم عليه) أى على ذلك التعظيم (وهان) أى سهل كما مر (عليهم تركه) أى السوق (ألا ترى أن فقيها إذا ظفر بتعليم مسئلة كانت) تلك المسئلة (ملتبسة) أى مشكلة (عليه) أى على الفقيه (ثم ظفر) أى الفقيه (بها) أى بالمسئلة الملتبسة (كيف يرتاح) أى يفرح (قلبـه) أى الفقيه (ويعظم سروره ويجل) أى يعظم (موقعها) أى تلك المسئلة (من قلبه حتى إنه) أى الفقيه (ربما لو وجد ألف دينار ماكان) أى ليس ذلك الألف (يعدل) أى يساوى (ذلك) أى ظفر تلك المسئلة ونيلها ، ولهذا كان محمد بن الحسن إذا سهر الليالى وانحلت له المشكلات يقول أين أبناء الملوك من هذه اللذات : يعنى أن أبناء الملوك بمنزل بعيد من اللذات لأنها لذات علمية لا يعرفها الجاهلون ولو كانوا أبناء الملوك لأن لذة العلم تفوق سائر لذات الدنيا (وربما يهمه) أى الفقيه (أمر مسئلة) واحدة (فى باب الدين فيتفـكر فيها)

سَنَةً بَلْ عَشْرًا بَلْ عِشْرِينَ وَأَكْثَرَ لَا يَسْتَكْثِرُ ذٰلِكَ وَلَا يَمَلُّ ، حَتَّى رُبَّمَا رَزَقَهُ اللّٰهُ تَعَالَى فَهْمَ ذٰلِكَ ، فَيَعُدُّهُ أَعْظَمَ مِنَّةٍ وَأَكْبَرَ نِعْمَةٍ ، وَيَرَى نَفْسَهُ بِذٰلِكَ أَغْنَى كُلِّ غَنِيٍّ وَأَشْرَفَ كُلِّ شَرِيفٍ ، بَلْ رُبَّمَا يَتَبَيَّنُ مِثْلَ هٰذِهِ الْمَسْئَلَةِ لِسُوقِيٍّ أَوْ لِمُتَعَلِّمٍ كَسْلَانَ يَرَى مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مِثْلُهُ فِى الرَّغْبَةِ فِى الْعِلْمِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ فَلَا يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ حَقَّهُ ، وَرُبَّمَا إِنْ طَالَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ يَمَلُّ أَوْ يَنَامُ ، وَإِنْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ لَهُ فَلَا يَعُدُّهُ كَبِيرَ أَمْرٍ ، وَكَذٰلِكَ الْمُنِيبُ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَى كَمْ يَجْتَهِدُ وَيَدْأَبُ بِالرِّيَاضَةِ وَصِيَانَةِ النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ وَإِلْجَامِ الْأَرْكَانِ فِى الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، عَسَى أَنْ يُتَمِّمَ اللّٰهُ لَهُ رَكْعَتَيْنِ فِى آدَابٍ وَطَهَارَةٍ ، وَكَمْ يَتَضَرَّعُ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَى عَسَى أَنْ يَرْزُقَهُ سَاعَةَ مُنَاجَاةٍ بِصَفْوَةٍ وَحَلَاوَةٍ ، فَلَئِنْ ظَفِرَ فِى شَهْرٍ مَرَّةً ،

أى فى المسئلة الواحدة (سنة بل عشرا بل عشرين) سنة (وأكثر لا يستكثر) الفقيه (ذلك) أى التفكر فى الزمان الطويل (ولا يمل) أى لا يسأم من الملالة (حتى ربما رزقه الله تعالى فهم ذلك) أى الذى يتفكر فيه من المسئلة (فيعده) أى يعد الفقيه فهم ذلك (أعظم منة وأكبر نعمة ويرى نفسه بذلك) أى فهم المسئلة (أغنى كل غنى وأشرف كل شريف بل ربما يتبين مثل هذه المسئلة) الملتبسة (لسوقي أو لمتعلم كسلان يرى) أى يظن السوقى أو المتعلم المذكور (من نفسه أنه) أى السوقى أو غيره (مثله) أى الفقيه (فى الرغبه فى العلم والمحبة له) أى لذلك العلم (فلا يستمع) السوقى أو المتعلم المذكور (إليه) أى إلى مثل هذه المسئلة (حقه) أى حق الاستماع (وربما إن طال عليه) أى على كل منهما (الكلام) فى هذه المسئلة (يمل) ويسأم (أو ينام وإن تبين ذلك) أى مثل هذه المسئلة (له) أى لكل منهما (فلا يعده) أى لا يعد كل منهما تبين تلك المسئلة وظهورها (كبير أمر) وأعظم نعمة (وكذلك) أى كالفقيه (المنيب إلى الله تعالى كم يجتهد ويدأب) أى يتعب ، فى المختار دأب فى عمله : جد وتعب، وبابه قطع وخضع فهو دائب بالألف لا غير (بالرياضة) أى تبديل الصفات المذمومة بالصفات المحمودة (وصيانة النفس عن الشهوات) أى المشتهيات (و) عن (اللذات وإلجام الأركان) أى الأعضاء (فى الحركات والسكنات عسى أن يتمم الله له) أى لذلك المنيب (ركعتين فى آداب وطهارة وكم يتضرع) المنيب (إلى الله تعالى عسى أن يرزقه ساعة مناجاة بصفوة وحلاوة فلئن ظفر) المنيب (بذلك) إى ما ذكر من الركعتين بالآداب والطهارة وساعة المناجاة بالصفوة والحلاوة (فى شهر مرة

بَلْ فى سَنَةٍ مَرَّةً ، بَلْ فى عُمْرِهِ كُلِّهِ مَرَّةً ، عَدَّ ذٰلِكَ أَكْبَرَ مِنَّةٍ وَأَعْظَمَ نِعْمَةٍ ، وَكَمْ يُسْرٌ ، وَكَمْ يَشْكُرُ اللهَ تَعَالى وَلاَ يَكْتَرِثُ بِمَا قَاسَاهُ مِنَ الْمَشَقَّاتِ وَكَابَدَ مِنَ اللَّيَالِي وَهَجَرَ مِنَ اللَّذَّاتِ فِيهَا ، ثُمَّ تَرَى الَّذِى يَزْعُمُ أَنَّهُ رَاغِبٌ فى الْعِبَادَاتِ يُحِبُّ أَنْ يُحَصِّلَ مِنْهَا شَيْئًا ، لَوِ احْتَاجَ أَحَدُهُمْ تَحْصِيلَ مِثْلِ هٰذِهِ الْعِبَادَةِ الصَّافِيَةِ إِلى نُقْصَانِ لُقْمَةٍ مِنْ عَشَائِهِمْ أَوْ تَرْكِ كَلِمَةٍ لاَ تَعْنِيهِمْ ، أَوْ نَوْمِ سَاعَةٍ مِنْ أَعْيُنِهِمْ فَلاَ تَسْمَحُ أَنْفُسُهُمْ بِذٰلِكَ ، وَلاَ تَطِيبُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنِ اتَّفَقَ لَهُمْ فى النَّادِرِ حُصُولُ عِبَادَةٍ فى صَفْوَةٍ فَلاَ يَعُدُّونَهُ خَطِيرَ أَمْرٍ وَلاَ يُقَدِّمُونَ فِيهِ كَثِيرَ شُكْرٍ ؛ وَإِنَّمَا يَعْظُمُ سُرُورُهُمْ وَيَكْثُرُ بِالظَّاهِرِ حَمْدُهُمْ إِذَا حَصَلَ لَهُمْ دِرْهَمٌ ، أَوِ اسْتَقَامَتْ لَهُمْ كِسْرَةٌ وَطَابَتْ لَهُمْ مَرَقَةٌ ، أَوْ طَالَتْ لَهُمْ فى سَلاَمَةِ الْبَدَنِ رَقْدَةٌ فَيَقُولُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ : الْحَمْدُ لِلّٰهِ هٰذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ ،

بل فى سنة مرة بل فى عمره كله مرة عد ذلك) أى الظفر بما ذكر (أكبر منة وأعظم نعمة وكم يسر) أى يفرح الذى يظفر بما ذكر (وكم يشكر الله تعالى ولا يكترث) أى لا يبالى (بما قاساه من المشقات وكابد) أى تعب (من الليالى وهجر) أى ترك (من اللذات فيها) أى فى الليالى (ثم ترى الذى يزعم أنه راغب فى العبادات يحب أن يحصل) بضم الياء وفتح الحاء المهملة وكسر الصاد المشددة من التحصيل (منها) أى العبادات (شيئا لو احتاج أحدهم) أى الذين يزعمون ذلك (تحصيل مثل هذه العبادة الصافية) من المكدرات (إلى نقصان لقمة من عشائهم) بفتح العين ، وهو الطعام الذى يؤكل فى العشية (أو) إلى (ترك كلمة لا تعنيهم) أى لا تهمهم ولا تنفعهم (أو) إلى (دفع نوم ساعة عن أعينهم فلا تسمح أنفسهم بذلك) أى نقصان اللقمة من العشاء أو ترك الكلمة التى لا تنفع أو دفع النوم فى وقت من الأوقات (ولا تطيب قلوبهم وإن اتفق لهم فى النادر حصول عبادة فى صفوة فلا يعدونه) أى حصول تلك العبادة (خطير) أى عظيم (أمر ولا يقدمون فيه) أى فى حصول ذلك (كثير شكر وإنما يعظم سرورهم ويكثر بالظاهر حمدهم إذا حصل لهم درهم أو استقامت لهم كسرة) أى قطعة من الشىء المكسور ومنه الكسرة من الخبز (أو طابت لهم مرقة) فى محيط المحيط : المرق من الطعام السائل الرخو منه ، والمرقة من الطعام المرق ، وهى أخص منه (أو طالت لهم فى سلامة البدن) وصحته (رقدة) أى نومة (فيقولون عند ذلك) أى عند حصول ما ذكر من الدرهم أو استقامة الكسرة أو طيب المرقة أو طول الرقدة (الحمد لله) الشكر لله (هذا) أى حصول ما ذكر (من فضل الله) ورحمته ، وذلك لأنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها إذ من لم يعرفها كيف

يقوم بشكرها فالشكر فرع المعرفة فاذا جهل النعمة لم يعرفها وإذا لم يعرفها لم يشكر عليها وإذا لم يشكر انقطع مزيده ومن انقطع عنه المزيد فهو فى نقصان ما ادعى ، وأيضا فان لم يشكر النعم لجهله بها كفرها فإن كفرها أدركه العذاب الشديد إن لم تداركه نعمة من ربه ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها مجرد أن يقول بلسانه : الحمد لله الشكر لله من غير فهم معنى ما يقول ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول المعرفتين . الأولى معرفة النعمة ، والثانية معرفة بمعنى الشكر عليها إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على النعم التى فى أعضائهم فى حركاتها وسكناتها لأنها عامة للخلق مبذولة لهم فى جميـع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصا به فلا يعده نعمة ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار ولا منفذ له أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما ، فان ابتلى أحد منهم بشىء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها ، وهذ غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال ، والنعمة فى جميع الأحوال أولى بأن تشكر من النعمة فى بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا إن تعمى عينه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة ، ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم فى جميع الأحوال فلم يعده الجاهلون فغفلوا عن الشكر عليها ، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما لمخالفة سيده فى أوامره ونواهيه حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لايشكرون إلا المال الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الـكثرة والقلة وينسون جميـع نعم الله تعالى عليهم فى سائر أحوالهم ، كما شكا بعضهم فقره لبعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به ، فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا ، فقال أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال : لا . فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا ، فقال أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا .

وحكى أن بعض الفقراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا ، فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا . قال فسورة هود ؟ قال لا . قال فسورة يوسف ؟ قال لا ، فعدد عليه سورا ثم قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ، فأصبح وقد سرى عنه همه : أى انـكشف وزال ، ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء العباسية وبيده كوز ماء يشربه ، فقـال له عظني ، فقال لو لم تعط هـذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشانا فهل كنت تعطيه ؟ قال نعم ، فقال لو لم تعط إلا بملـكك كله فهل

فَأَنَّى يُسَاوِى هٰؤُلَاءِ الْغَافِلُونَ الْعَاجِزُونَ ، مَعَ أُولٰئِكَ السُّعَدَاءِ الْمُجِدِّينَ الْمُجْتَهِدِينَ وَلِذٰلِكَ صَارَ هٰؤُلَاءِ الْمَسَاكِينُ عَنْ هٰذَا الْخَيْرِ مَحْرُومِينَ ، وَأُولٰئِكَ الْمُؤَيَّدُونَ بِهِ ظَافِرِينَ فَائِزِينَ ، وَكَذٰلِكَ قَسَّمَ الْأَمْرَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ الْعَالَمِينَ ، فَهٰذَا تَفْصِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَلَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) فَتَفَهَّمْ وَرَاعِهِ حَقَّهُ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تُحْرَمْ قَطُّ خَيْرًا أَنْتَ تَتَمَنَّاهُ إِلَّا مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ ، فَابْذُلْ مَجْهُودَكَ لِتَعْرِفَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللّٰهِ تَعَالَى ، وَتُعَظِّمَهَا حَقَّ تَعْظِيمِهَا فَتَكُونَ أَهْلًا لَهَا وَلِإِعْطَائِهَا ، ثُمَّ يَمُنُّ عَلَيْكَ بِإِبْقَائِهَا كَمَا مَنَّ عَلَيْكَ بِابْتِدَائِهَا عَلَى مَا نَذْكُرُهُ فِى الْأَصْلِ الثَّانِى ، إِنَّهُ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ .

الْأَصْلُ الثَّانِى : أَنَّ النِّعْمَةَ إِنَّمَا تُسْلَبُ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا ، وَالَّذِى لَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا الْكَفُورُ الَّذِى كَفَرَهَا ، وَلَا يُؤَدِّى شُكْرَهَا .

كنت تتركه؟ قال نعم . قال فلا تفرح بملك لايساوى شربة ماء ، فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، والجاهلون لا يعرفون ذلك (فأنى) أى كيف (يساوى هؤلاء الغافلون العاجزن مع أولئك السعداء المجدين المجتهدين) بمعني واحد (ولذلك) أى لأجل أن عظم سرور هؤلاء الغافلين وكثرة حمدهم بالظاهر إذا حصل لهم درهم أو استقامت لهم كسرة أو غير ذلك (صارهؤلاء المساكين) الغافلون (عن هذا الخير محرومين) أى ممنوعين (و) صار (أولئك المؤيدون) أى الموفقون (به) أى بهذا الخير (ظافرين فائزين وكذلك) المذكور من جعل هؤلاء الغافلين عن هذا الخير محرومين وجعل أولئك المؤيدين به فائزين (قسم الأمر أحكم الحاكمين) أى أقضى القاضين وأعدل العادلين (سبحانه وهو أعلم العالمين ، فهذا) الذى ذكرناه (تفصيل قوله تعالى « أليس الله بأعلم بالشاكرين » فتفهم) التفصيل المذكور (وراعه) أى احفظه (حقه) أى هذا التفصيل (واعلم أنك لم تحرم) أى لم تمنع (قط خيرا أنت تتمناه) وترجوه (إلا من قبل نفسك) أى جهتها (فابذل) أيها الرجل (مجهودك لتعرف قدر نعمة الله تعالى وتعظمها) أى تلك النعمة (حق تعظيمها فتكون أهلا لها ولاعطائها ثم يمن) سبحانه وتعالى (عليك بإبقائها) أى النعمة (كما من) الله (عليك بابتدائها على ما نذكره فى الأصل الثانى إنه الرءوف الرحيم) وبالله التوفيق .

(الأصل الثانى أن النعمة إنما تسلب) بالبناء للمفعول (ممن لا يعرف قدرها) ورتبتها (والذى لا يعرف قدرها الكفور الذى كفرها) أى الجحود الذى جحدها (ولا يؤدى) أى ذلك الكفور (شكرها ،

وَدَلِيلُ ذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) الآيَةَ ؛ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى هٰذَا الْعَبْدِ بِالنِّعَمِ الْعِظَامِ ، وَالْأَيَادِى الْجِسَامِ فِى بَابِ الدِّينِ ، بِمَا مَكَّنَّاهُ فِى ذٰلِكَ مِنْ تَحْصِيلِ الرُّتْبَةِ الْكَبِيرَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ عَلَى بَابِنَا لِيَصِيرَ رَفِيعاً عِنْدَنَا عَظِيمَ الْقَدْرِ كَبِيرَ الْجَاهِ ؛ وَلٰكِنَّهُ جَهِلَ قَدْرَ نِعْمَتِنَا فَمَالَ إِلَى الدُّنْيَا الْخَسِيسَةِ الْحَقِيرَةِ ، وَآثَرَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ الدَّنِيئَةِ الرَّدِيئَةِ ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا

ودليل ذلك) أى الأصل الثاني (قوله تعالى «واتل عليهم) أى اقرأ على اليهودى يا محمد (نبأ) خبر (الذى آتيناه آياتنا) قال ابن عباس ؛ كان يعلم اسم الله الأكبر . وقال ابن زيد : كان لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه . وقال السدى : وكان يعلم اسم الله الأعظم ، وفى رواية أخرى عن ابن عباس أنه أوتى كتابا ، وقيل إن الله آتاه حجة وأدلة وهي الآيات التى أوتيها (فانسلخ منها) أى فخرج من الآيات التى كان الله آتاه إياها كما تنسلخ الحية من جلدها . وقال ابن عباس : نزع منه العلم ؛ وهو بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل ، سئل أن يدعو على موسى وأهدى إليه شيء فدعا فانقلب عليه دعاؤه واندلع : أى خرج لسانه على صدره (فأتبعه الشيطان) أى فلحقه وأدركه وصيره الشيطان تابعا لنفسه فى معصية الله يخالف أمر ربه ويطيع الشيطان وهواه (فكان من الغاوين) أى فصار من الضالين الكافرين بما خالف ربه وأطاع هواه وشيطانه (ولو شئنا لرفعناه) إلى منازل الأبرار من العلماء (بها) بسبب تلك الآيات وملازمتها . وقال ابن عباس : لرفعناه بعمله بها . وقال مجاهد وعطاء معناه : ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات (الآية) أى اقرأ آخرها ، وهو قوله تعالى « ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

قال المصنف رحمه الله (تقدير الكلام) ومعناه (أنا أنعمنا على هذا العبد بالنعم العظام والأيادى الجسام) بمعنى ما قبله (فى باب الدين بما مكناه) أى هذا العبد (فى ذلك) أى النعم العظام فى باب الدين وأمره (من تحصيل الرتبة الكبيرة والمنزلة الرفيعة على بابنا ليصير) هذا العبد (رفيعا عندنا عظيم القدر) أى الرتبة (كبير الجاه ولكنه) أى ذلك العبد (جهل قدر نعمتنا فمال إلى الدنيا الخسيسة) أى الدنيئة (الحقيرة) أى الصغيرة وسكن إليها ورضي بها عوضا عن الآخرة (وآثر) أى اختار (شهوة نفسه الدنيئة الرديئة ولم يعلم) العبد أن الدنيا كلها

لَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ أَدْنَى نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ ، وَلَا تُسَاوِى عِنْدَهُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، فَكَانَ فِى ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ الَّذِى لَا يَعْرِفُ الْإِكْرَامَ وَالرَّاحَةَ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْمَشَقَّةِ ، وَلَا الرِّفْعَةَ وَالشَّرَفَ مِنَ الْحَقَارَةِ وَالْخِسَّةِ ، فَهُوَ فِى الْحَالَتَيْنِ يَلْهَثُ ، وَإِنَّمَا الْكَرَامَةُ كُلُّهَا عِنْدَهُ فِى كِسْرَةٍ يُطْعِمُهَا أَوْ عَرْقِ مَائِدَةٍ يُرْمَى إِلَيْهِ ، سَوَاءٌ تُقْعِدُهُ عَلَى سَرِيرٍ مَعَكَ ، أَوْ تُقِيمُهُ فِى التُّرَابِ وَالْقَذَرِ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَهِمَّتُهُ وَكَرَامَتُهُ وَنِعْمَتُهُ كُلُّهَا فِى ذَلِكَ ، فَهَذَا الْعَبْدُ السُّوءُ إِذَا جَهِلَ قَدْرَ نِعْمَتِنَا وَلَمْ يَعْرِفْ حَقَّ مَا آتَيْنَاهُ مِنْ كَرَامَتِنَا ، فَكَلَّتْ بَصِيرَتُهُ ، وَسَاءَ فِى مَقَامِ الْقُرْبَةِ أَدَبُهُ بِالِالْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِنَا ، وَالِاشْتِغَالِ عَنْ ذِكْرِ نِعْمَتِنَا بِدُنْيَا حَقِيرَةٍ وَلَذَّةٍ خَسِيسَةٍ ، فَنَظَرْنَا إِلَيْهِ نَظَرَ السِّيَاسَةِ ، وَأَحْضَرْنَاهُ مَيْدَانَ الْعَدْلِ ، وَأَمَرْنَا فِيهِ بِحُكْمِ الْجَبَرُوتِ ،

لا تزن عند الله أدنى) أى أقل (نعمة من نعم الدين ولا تساوى) أى الدنيا (عنده) تعالى (جناح بعوضة) كما روى أنه قال صلي الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر جرعة ماء » (فكان) أى العبد (فى ذلك) أى فى ميله إلي الدنيا الخسيسة (بمنزلة الكلب الذى لا يعرف الإكرام والراحة من الإهانة والمشقة ولا) يعرف (الرفعة والشرف من الحقارة) والذلة (والخسة فهو) أى الكلب (فى الحالتين) أى حالة الإكرام وحالة الإهانة والرفعة والحقارة (يلهث) أى يدلع لسانه ، واللهث إدلاع اللسان عن النفس الشديد ، يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الإعياء والتعب (وإنما الكرامة كلها عنده) أى الكلب (فى كسرة) من خبز أو غيره (يطعمها) أى تلك الكسرة (أو عرق مائدة) أى عظامها (يرمى إليه) أى إلى الكلب ، فى محيط المحيط : العرق العظم أكل لحمه أو أخذ عنه اللحم ، والجمع عراق وعراق نادر انتهى، وأيضا فيه : العرق العظم بلحمه فإذا أكل لحمه فعراق أو كلاهما لكليهما . وقال أبو زيد العراق : قطعة من اللحم . قال ابن الأنبارى : قول أبى زيد هو الصواب لأن العرب تقول أكلت العراق ولا تقول أكلت العظم انتهى (سواء تقعده) أى الكلب على سرير معك أو تقيمه فى التراب والقذر بين يديك فهمته) أى همة الكلب (وكرامته ونعمته كلها) بالرفع تأكيد (فى ذلك) أى فى كسرة يطعمها أو عرق مائدة يرمى إليه (فهذا العبد السوء) يعنى بلعم بن باعوراء (إذا جهل قدر نعمتنا ولم يعرف حق ما آتيناه من كرامتنا فكلت) أى عميت (بصيرته وساء فى مقام القربة أدبه بالالتفات) والميل (إلى غيرنا والاشتغال عن ذكر نعمتنا بدنيا حقيرة ولذة خسيسة فنظرنا إليه) أى إلى هذا العبد السوء (نظر السياسة) والتدبير (وأحضرناه) أى العبد السوء (ميدان العدل وأمرنا فيه بحكم الجبروت) أى حكم العظمة

فَسَلَبْنَاهُ جَمِيعَ خِلَعِنَا وَكَرَامَاتِنَا ، وَنَزَعْنَا مِنْ قَلْبِهِ مَعْرِفَتَنَا ، فَانسَلَخَ عَارِيًا مِنْ جَمِيعِ مَا آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِنَا ، فَصَارَ كَلْبًا طَرِيدًا ، وَشَيْطَانًا رَجِيمًا مَرِيدًا ، نَعُوذُ بِاللهِ ثُمَّ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ ، إِنَّهُ بِنَا رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، ثُمَّ أُقْنِعْ بِمِثَالِ مَلِكٍ يُكْرِمُ عَبْدًا لَهُ فَيَخْلَعُ عَلَيْهِ خَاصَّةَ ثِيَابِهِ وَيُقَرِّبُهُ مِنْهُ ، وَيَجْعَلُهُ فَوْقَ سَائِرِ خُدَّامِهِ وَحُجَّابِهِ ، وَأَمَرَهُ بِمُلَازَمَةِ بَابِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُبْنَى لَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ الْقُصُورُ ، وَتُرْفَعَ لَهُ الْأَسِرَّةُ وَتُنْصَبَ لَهُ الْمَوَائِدُ ، وَتُزَيَّنَ لَهُ الْجَوَارِي وَتُقَامَ لَهُ الْغِلْمَانُ ، حَتَّى إِذَا رَجَعَ مِنَ الْخِدْمَةِ أَجْلَسَ هُنَالِكَ مَلِكًا مَخْدُومًا مُكَرَّمًا ، وَمَا بَيْنَ حَالِ خِدْمَتِهِ إِلَى مُلْكِهِ وَوِلَايَتِهِ إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ أَوْ أَقَلُّ ؛ فَإِنْ أَبْصَرَ هَذَا الْعَبْدُ بِجَانِبِ بَابِ هَذَا الْمَلِكِ سَائِسًا لِلدَّوَابِّ يَأْكُلُ رَغِيفًا ،

والجلال والكبرياء والقدرة والسلطنة (فسلبناه جميع خلعنا) بكسر الخاء المعجمة وفتح اللام : أى جميع العطايا منا (وكرامتنا ونزعنا من قلبه) أى العبد السوء (معرفتنا فانسلخ) أى فخرج (عاريا من جميع ما آتيناه من فضلنا فصار) العبد السوء (كلبا) أى بمنزلته (طريدا) أى مطرودا (وشيطانا رجيما) أى مرجوما (مريدا) بفتح الميم : أى عاتيا (نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه إنه) تعالى (بنا رءوف رحيم ، ثم اقنع) أى ارض واكتف (بمثال ملك) من الملوك (يكرم عبدا له فيخلع) أى يعطى الملك (عليه) أى على عبده (خاصة ثيابه) أى أحسن ثياب الملك (ويقربه) أى يقرب الملك ذلك العبد (منه) أى من الملك (ويجعله) أى ذلك العبد (فوق سائرخدامه) أى الملك (وحجابه) جمع حاجب مثل كافر وكفار وهو البواب لأنه يمنع من الدخول (وأمره) أى الملك عبده (بملازمة بابه) أى الملك (ثم أمر أن يبنى له) أى لذلك العبد (فى موضع آخر) غير موضع الملك (القصور) جمع قصر ، وهو كل بيت من حجر كما قاله بعضهم (وترفع له) أى للعبد (الأسرة) جمع سرير (وتنصب له الموائد) جمع مائدة (وتزين له) أى لأجل هذا العبد (الجوارى) جمع جارية ، وهى الفتية من النساء أو الخادمة الفتية منهن عبدة كانت أو حرة ، قيل لها ذلك لخفتها وكثرة جريها بخلاف العجوز والعامة تستعمل الجارية للعبدة من دون اعتبار السن ، وتجمع أيضا جاريات وأكثر استعمال الجارية للصغيرة من النساء فى مقابلة الغلام من الرجال كذا فى محيط المحيط (وتقام له الغلمان) جمع غلام (حتى إذا رجع) العبد(من الخدمة) أى خدمة الملك (أجلس) أى الملك ذلك العبد (هناك) أي فى تلك القصور (ملكا) أى صار ملكا (مخدوما مكرما) بعد أن كان عبدا خادما ذليلا (وما) أى ليس (بين حال خدمته لذلك الملك (إلى ملكه وولايته إلا ساعة من نهار أو أقل فان أبصر هذا العبد) المكرم بما ذكر (بجانب باب هذا الملك) الذى أكرمه (سائسا) ومصلحا (للدواب يأكل) أى السائس (رغيفا

أَوْ كَلْباً يَمْضُغُ عَظْماً فَيَشْتَغِلُ عَنْ خِدْمَةِ الْمَلِكِ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَالَهُ مِنَ الْخِلَعِ وَالْكَرَامَةِ ، فَيَسْعَى إِلَى ذَٰلِكَ السَّائِسِ وَيَمُدُّ يَدَهُ وَيَسْأَلُهُ كِسْرَةً مِنْ رَغِيفٍ ، أَوْ يُزَاحِمُ الْكَلْبَ عَلَى عَظْمَةٍ وَيَغْبِطُهُمَا وَيُعَظِّمُ مَا هُمَا فِيهِ ، أَلَيْسَ الْمَلِكُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ فِي مِثْلِ هَٰذِهِ الْحَالَةِ يَقُولُ : هَٰذَا سَفِيهٌ خَسِيسُ الْهِمَّةِ ، لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ كَرَامَتِنَا ، وَلَمْ يَرَ قَدْرَ إِعْزَازِنَا إِيَّاهُ بِخِلَعِنَا وَالتَّقْرِيبِ إِلَى حَضْرَتِنَا ، مَعَ مَا صَرَفْنَا إِلَيْهِ مِنْ عِنَايَتِنَا ، وَأَمَرْنَا لَهُ مِنَ الذَّخَائِرِ وَضُرُوبِ الْأَيَادِي ، مَا هَٰذَا إِلَّا سَاقِطُ الْهِمَّةِ عَظِيمُ الْجَهْلِ قَلِيلُ التَّمْيِيزِ ، اسْلُبُوهُ الْخِلَعَ وَاطْرُدُوهُ عَنْ بَابِنَا ، فَهَٰذَا حَالُ الْعَالِمِ إِذَا مَالَ إِلَى الدُّنْيَا ، وَالْعَابِدِ إِذَا اتَّبَعَ الْهَوَى بَعْدَ مَا أَكْرَمَهُ اللّٰهُ بِعِبَادَتِهِ وَمَعْرِفَةِ أَيَادِيهِ وَشَرِيعَتِهِ وَأَحْكَامِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ ذَٰلِكَ ، فَيَصِيرُ إِلَى أَحْقَرِ شَيْءٍ عِنْدَ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَهْوَنِهِ عِنْدَهُ ، فَيَرْغَبُ فِيهِ وَيَحْرِصُ عَلَيْهِ ،

أو) أبصر به (كلبا يمضغ عظما فيشتغل) أى هـذا العبد (عن خدمة الملك بنظره) أى العبد (إليه) أى إلى السائس (وإقباله) أى العبد (عليه) أى السائس (ولا يلتفت) العبد (إلى ما) أى الذى (له من الخلع) بكسر المعجمة جمع خلعة بمعنى العطية (والكرامة فيسعى) أى العبد (إلى ذلك السائس ويمد) العبد (يده ويسأله) أى السائس (كسرة من رغيف أو يزاحم) العبد (الكلب على عظمة ويغبطهما) أى يحسد العبد ذلك السائس والكلب (ويعظم) أى يعظم العبد (ما هما) أى السائس والكلب (فيه) من الكسرة والعظمة (أليس الملك إذا نظر إليه) أى إلى العبد (فى مثل هذه الحالة) الرديئة (يقول) أى الملك (هذا) العبد (سفيه) أى جاهل (خسيس الهمة لم يعرف حق كرامتنا ولم ير) هذا العبد (قدر إعزازنا) وإكرامنا (إياه) أى العبد (بخلعنا والتقريب إلى حضرتنا مع ما صرفنا إليه) أى العبد (من عنايتنا وأمرنا له من الذخائر وضروب الأيادى) أى أنواع النعم (ما هذا) أى ليس هذا العبد المذكور (إلا ساقط الهمة) عن الرتبة العالية (عظيم الجهل قليل التميز) والعقل ثم قال الملك لقومه (اسلبوه) أى هذا العبد (هذه الخلع واطردوه) أى أبعدوه (عن بابنا فهذا) المذكور من المثال (حال العالم إذا مال) وركن (إلى الدنيا و) حال (العابد إذا اتبع الهوى بعـد ما أكرمه الله بعبادته ومعرفة أياديه) أى نعمه (وشريعته وأحكامه ثم إنه) أى العالم أو العابد (لم يعرف قدر ذلك) الذى أكرمه الله به من العبادة وغيرها (فيصير) الرجل الذى لم يعرف قدر ذلك (إلى أحقر شىء عند الله عز وجل وأهونه عنده) تعالى (فيرغب) الرجل (فيه) أى فى الشىء الحقير (ويحرص عليه) أى

وَيَكُونَ أَعْظَمَ فِى قَلْبِهِ وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ مَا أُعْطِىَ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ الْعَزِيزَةِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْحِكَمِ وَالْحَقَائِقِ ، وَكَذٰلِكَ مَنْ خَصَّهُ اللّٰهُ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ تَوْفِيقِهِ وَعِصْمَتِهِ ، وَزَيَّنَهُ بِأَنْوَارِ خِدْمَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَيُدِيمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ فِى أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ ، وَيُبَاهِى بِهِ مَلَائِكَتَهُ ، وَأَعْطَاهُ عَلَى بَابِهِ الْقِيَادَةَ وَالْوَجَاهَةَ ، وَأَحَلَّهُ مَحَلَّ الشَّفَاعَةِ ، وَأَنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ الْأَعِزَّةِ ، حَتَّى إِذَا صَارَ بِحَيْثُ لَوْ دَعَاهُ لَأَجَابَهُ وَلَبَّاهُ ، وَلَوْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ وَأَغْنَاهُ ، وَلَوْ شَفَعَ فِى عَالَمٍ لَشَفَّعَهُ فِيهِمْ وَأَرْضَاهُ ، وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ لَأَبَرَّهُ وَأَوْفَاهُ ، وَلَوْ خَطَرَ بِبَالِهِ شَىْءٌ لَأَعْطَاهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ بِلِسَانِهِ ، فَمَنْ كَانَتْ هٰذِهِ حَالَهُ ثُمَّ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ هٰذِهِ النِّعَمِ ، أَوْ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى قَدْرِ هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ فَيَعْدِلَ عَنْ ذٰلِكَ إِلَى شَهْوَةِ نَفْسٍ رَدِيئَةٍ لَا حَيَاءَ لَهَا ، أَوْ لُعْقَةٍ مِنَ الدُّنْيَا الدَّنِيئَةِ الَّتِى لَا بَقَاءَ لَهَا ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى تِلْكَ الْكَرَامَاتِ

على الشىء الحقير (ويكون) أى ذلك الشىء (أعظم) وأكرم (فى قلبه وأحب إليه) أى إلى الرجل (من جميع ما أعطى من تلك النعم العزيزة من العلم والعبادة والحكم) بكسر الحاء جمع حكمة (والحقائق . وكذلك) أى مثل العالم الذى يميل إلى الدنيا والعابد الذى يتبع الهوى (من خصه الله تعالى) واختاره (بأنواع توفيقه وعصمته) وحفظه (وزينه) الله (بأنوار خدمته وعبادته ويديم) الله عز وجل (النظر إليه بالرحمة) والرأفة (فى أكثر أوقاته ويباهى) الله (به) أى بالذى خصه بما ذكر (ملائكته وأعطاه على بابه) أى باب رحمته (القيادة) أى الرياسة ، قاد الأمير الجيش قيادة إذا كان رئيسا عليهم (والوجاهة) أى القدر والشرف (وأحله) أى أنزله (محل الشفاعة وأنزله منزلة الأعزة) جمع عزيز (حتى إذا صار) الرجل (بحيث لو دعاه) تعالى (لأجابه) الله (ولباه) أى أجابه فهو بمعنى ما قبله (ولو سأله أعطاه) أى أعطى مسئوله (وأغناه ، ولو شفع فى عالم) بفتح اللام (لشفعه) أي قبل الله شفاعة (فيهم) أى العالمين (وأرضاه) ولو أقسم الرجل (عليه) تعالى (لأبره) أى أبر قسمه (وأوفاه) أى أوفي الله ما أقسم به الرجل (ولو خطر) بالبناء للفاعل (بباله) أى بقلبه (شىء لأعطاه قبل أن يسأله بلسانه فمن كانت هذه) الحال المذكور (حاله ثم لم يعرف قدر هذه النعم ولم ينظر إلى قدر هذه المنزلة) وعظمها (فيعدل عن ذلك) أى ما ذكر من النعم (إلى شهوة نفس رديئة لاحياء لها) أى لتلك النفس (أو) إلى (لعقة) أى شىء قليل ، واللعقة فى الأصل اسم ما تأخذه فى الملعقة : آلة يلعق بها الطعام وغيره والجمع ملاعق (من الدنيا الدنيئة التى لا بقاء لها ولم ينظر) أى من ذكر (إلى تلك الكرامات

وَالخِلَعِ وَالْهَدَايَا وَالْمِنَنِ وَالْعَطَايَا ، ثُمَّ مَا وُعِدَ وَمَا أُعِدَّ لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ ، وَالنَّعِيمِ السَّابِغِ الْمُقِيمِ ، فَمَا أَحْقَرَهَا إِذَنْ مِنْ نَفْسٍ ، وَمَا أَسْوَأَهُ مِنْ عَبْدٍ ، وَمَا أَعْظَمَ خَطَرِهِ لَوْ عَلِمَ ، وَمَا أَفْحَشَ صُنْعَهُ لَوْ فَهِمَ ، نَسْأَلُ اللهَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ ، أَنْ يُصْلِحَنَا بِعَظِيمِ فَضْلِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ؛ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ حَتَّى تَعْرِفَ قَدْرَ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْكَ ، وَإِذَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِنِعْمَةِ الدِّينِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِضَرْبٍ مِنَ التَّهَاوُنِ بِمَا أَوْلَاكَ رَبُّكَ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ : (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)

والخلع والهدايا) جمع هدية (والمنن) جمع منة (والعطايا) جمع عطية (ثم) لم ينظر إلى (ما وعد وما أعد) أى هيىء له فى الآخرة (من الثواب العظيم والنعيم السابغ) أى المتسع (المقيم) أى الدائم (فما أحقرها) فعل تعجب (إذن) أى حين إذ عدل عن النعم إلى الشهوة الرديئة (من نفس) بيان للضمير فى أحقرها (وما أسوأه) فعل تعجب أيضا (من عبد) بيان للضمير فى أسوأه (وما أعظم خطره لو علم) ما يفعله من الأمور الرديئة (وما أفحش صنعه لو فهم) ما يضعه منها (نسأل الله البر) بفتح الباء : أى المحسن (الرحيم أن يصلحنا بعظيم فضله) وإحسانه (وسعة رحمته إنه) تعالى (أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (فعليك أيها الرجل) العاقل (ببذل المجهود) أى الطاقة (حتى تعرف قدر نعم الله تعالى عليك وإذا أنعم) سبحانه وتعالى (عليك بنعمة الدين فإياك) أى احذر (أن تلتفت) وتميل (إلى الدنيا) الخسيسة (وحطامها فإن ذلك) الالتفات والميل إليها (منك لا يكون) ذلك (إلا بضرب) أى نوع (من التهاون) أى التحقير (بما أولاك) أى أعطاك (ربك من نعم الدين أما تسمع قوله تعالى لسيد) الأنبياء و (المرسلين) صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) قال ابن الجوزى : سبب نزولها أن قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير فى يوم واحد فيها أنواع من البز والطيب والجواهر فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فأنزل الله هذه الآية ، وقال « قد أعطيتكم سبع آيات » هى خير من هذه السبع القوافل ، ويدل على صحة هذا قوله « لا تمدن عينيك » الآية . قال الحسن بن الفضل قلت : وهذا القول ضعيف أولا يصح لأن هذه السورة ، أى سورة الحجر مكية بإجماع أهل التفسير وليس فيها من المدنى شىء ويهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة وكيف يصح

أن يقال إن سبع قوافل جاءت فى يوم واحد فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية وأخبرهم أن هذه السبع آيات هى خير من هذه السبع القوافل ، والله أعلم .

وفى المراد بالسبع المثانى أقوال : أحدها أنها فاتحة الكتاب وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود وفى رواية عنه وابن عباس ، وفى رواية الأكثرين عنه وأبى هريرة والحسن وسعيد بن جبير ، وفى رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة فى آخرين ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى » أخرجه أبو داود والترمذى ، روى الشيخان عن أبى سعيد المعلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » أخرجه البخارى ، وفيه زيادة .

أما السبب فى تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثانى فلأنها سبع آيات بإجماع أهل العلم . واختلفوا فى سبب تسميتها بالمثانى ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة لأنها تثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة ، وقيل لأنها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين ، فنصفها الأول ثناء على الله ونصفها الثاني دعاء ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » الحديث ، وقيل سميت مثانى لأن كلماتها مثناة مثل قوله « الرحمن الرحيم إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين » فكل هذه ألفاظ مثناة ، وقال الحسن بن الفضل لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة معها سبعون ألف ملك ، وقال مجاهد : لأن الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فلم يعطها لغيرهم ، وقال أبو زيد البلخى لأنها تثنى أهل الشر عن الشر ، من قول العرب ثنيت عنانى ، وقال ابن الزجاج : سميت فاتحة الكتاب مثانى لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه ، وإذا ثبت كون الفاتحة هى السبع المثانى دل ذلك على فضلها وشرفها وأنها من أفضل سور القرآن لأن إفرادها بالذكر فى قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » مع أنها جزء من أجزاء القرآن وإحدى سوره لابد وأن يكون لاختصاصها بالشرف والفضيلة .

القول الثانى فى تفسير قوله سبعا من المثانى أنها السبع الطوال ، وهذا قول ابن عمر وابن مسعود ، وفى رواية عنه وابن عباس ، وفى رواية عنه وسعيد بن جبير ، وفى رواية عنه السبع الطوال هى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف . واختلفوا فى السابعة فقيل الأنفال مع براءة ، لأنهما كالسورة الواحدة ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم وقيل السابعة هى سورة يونس ، ويدل على صحة هذا القول ما روى عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله سبحانه وتعالى أعطانى السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المئين مكان الإنجيل وأعطانى مكان الزبور المثانى وفضلنى ربى بالمفصل » أخرجه البغوى بإسناد الثعلبي . قال ابن عباس : إنما سميت السبع الطوال مثانى لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) الآيَةَ ،

والعبر ثنيت فيها . وأورد على هذا القول أن هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها وهى مكية . وأجيب عن هذا الإيراد بأن الله سبحانه وتعالى حكم فى سابق علمه بإنزال هذه السور على النبى صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الأمر كذلك صح أن تفسر هذه الآية بهذه السور .

القول الثالث أن السبع المثانى هى السور التى هى دون الطوال وفوق المفصل وهى المئين وحجة هذا القول الحديث المتقدم « وأعطانى مكان الزبور المثانى » .

القول الرابع أن السبع المثانى هى القرآن كله ، وهذا قول طاوس ، وحجة هذا القول أن الله سبحانه وتعالى قال « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى « وسمى القرآن مثانى لأن الأخبار والقصص والأمثال ثنيت فيه .

فان قلت : كيف يصح عطف القرآن فى قوله «والقرآن العظيم» على قوله سبعا من المثانى» وهل هو إلا عطف الشىء على نفسه ؟ قلت إذا عنى بالسبع المثانى فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لأن القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى إلى قوله « بما أوحينا اليك هذا القرآن » يعنى سورة يوسف عليه السلام وإذا عنى بالسبع المثانى القرآن كله كان المعنى : ولقد آتيناك سبعاً من المثانى وهى القرآن العظيم ، وإنما سمى القرآن عظيما لأنه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم ، كذا ذكره الخازن (لاتمدن عينيك) أى لا تطمح ببصرك طموح راغب (إلى مامتعنا به أزواجا) يعنى أصنافا (منهم) يعنى من الكفار متمنيا لها ، نهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الرغبة فى الدنيا ومزاحمة أهلها عليها ، والمعنى : أنك قد أوتيت القرآن العظيم الذى فيه غنى عن كل شىء فلا تشغل قلبك وسرك بالإلتفات إلى الدنيا والرغبة فيها . روى أن سفيان بن عيينة تأول قول النبى صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » يعنى لم يستغن بالقرآن ، فتأول هذه الآية قيل إنما يكون مادا عينيه إلى الشىء إذا أدام النظر اليه مستحسنا له فيحسن له من ذلك تمنى ذلك الشىء المستحسن ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر إلى شىء من متاع الدنيا ولا يلتفت اليه ولا يستحسنه (الآية) أى أقرأ آخرها ، وهو قوله « ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » يعنى ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم : أى الكفار فى الدنيا ، وقيل : ولا تحزن على إيمانهم إذا لم يؤمنوا ففيه النهى عن الالتفاف إلى أموال الكفار والالتفات إليهم أيضا . وروى البغوى بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى أسفل منه » هذا لفظ البخارى ولمسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم » قال

تَقْدِيرُهُ ، أَنَّ كُلَّ مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ حَقَّ لَهُ أَنْ لَا يَنْظُرَ إِلَى الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ نَظَرًا بِاسْتِحْلَاءٍ وَاسْتِحْسَانٍ قَطُّ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا رَغْبَةٌ ، فَلْيُدِمِ الشُّكْرَ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهَا الْكَرَامَةُ الَّتِي حَرَصَ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، أَنْ يَمُنَّ بِهَا عَلَى أَبِيهِ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَحَرَصَ حَبِيبُهُ الْمُصْطَفَى صلى اللهُ عليه وسلم أَنْ يَمُنَّ بِهَا عَلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَأَمَّا حُطَامُ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ الَّذِي يَصُبُّهُ عَلَى كُلِّ كَافِرٍ وَفِرْعَوْنٍ وَمُلْحِدٍ وَزِنْدِيقٍ وَجَاهِلٍ وَفَاسِقٍ ، الَّذِينَ هُمْ أَهْوَنُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يَغْرَقُوا فِيهِ وَيَصْرِفُهُ عَنْ كُلِّ نَبِيٍّ وَصَفِيٍّ وَصِدِّيقٍ وَعَالِمٍ وَعَابِدٍ ، الَّذِينَ هُمْ أَعَزُّ خَلْقِهِ عَلَيْهِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَكَادُونَ يُصِيبُونَ كِسْرَةً وَخِرْقَةً ، وَيَمُنَّ

عوف بن عبدالله بن عتبة : كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثرهما منى كنت أرى دابة خيرا من دابتى وثوبا خيرا من ثوبى فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت ، ولما نهاه الله سبحانه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين بقوله « واخفض جناحك للمؤمنين » وفسر المصنف هذه الآية بقوله (تقديره أن كل من أوتى القرآن العظيم حق) أى وجب (له أن لا ينظر إلى الدنيا الحقيرة نظرا باستحلاء) أى طلب حلو (واستحسان قط فضلا عن أن يكون له) أى لمن أوتى ما ذكر (فيها) أى فى الدنيا (رغبة) ومحبة (فليدم الشكر لله على ذلك) أى على ما أوتيه من القرآن العظيم (فإنها) أى هذه النعمة العظيمة من نعم الدين التي هى القرآن العظيم (الكرامة التى حرص خليله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يمن) الله تعالى (بها) أى بالكرامة (على أبيه) تارخ بن ناخور ، وأما آزر فقيل عمه (فلم يفعل) سبحانه وتعالى ما يحرصه (وحرص حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يمن) تعالى (بها على عمه) صلى الله عليه وسلم (أبى طالب) شقيق أبيه عبد الله واسمه عبدمناف ، وله من العمر سبع وثمانون سنة (فلم يفعل) سبحانه ماذكر (وأما حطام الدنيا فإنه الذى يصبه) الله تعالى (على كل كافر وفرعون) أى كل متمرد عات (وملحد) أى مائل عن الحق (وزنديق) هو الذي لا يؤمن بيوم القيامة ووحدانية الخالق ، وقيل من يظهر الإسلام ويخفى الكفر (وجاهل وفاسق الذين هم أهون) أى أذل (خلقه) تعالى (عليه) أى عنده جل وعز (حتى يغرقوا) أى هؤلاء الكفار والجاهلون (فيه) أى فى حطام الدنيا (ويصرفه) أى يصرف الله ذلك الحطام ويصده (عن كل نبى وصفى وصديق) بكسر الصاد : أى كثير الصدق (وعالم وعابد الذين هم أعز خلقه عليه) أى عند الله تعالى (حتى إنهم) أى هؤلاء الأعزة (لايكادون يصيبون كسرة) من الخبز (وخرقة) من الثوب (ويمن) الله

عَلَيْهِمْ بِأَنْ لاَ يُلَطِّخَهُمْ بِقَذَرِهَا، حَتَّى قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ لِمُوسَى وَهٰرُونَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ: « وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أُزَيِّنَكُمَا بِزِينَةٍ لِيَعْلَمَ فِرْعَوْنُ حِينَ يَرَاهَا أَنَّ مَقْدِرَتَهُ تَعْجِزُ عَنْهَا لَفَعَلْتُ ، وَلٰكِنِّي أَزْوِي عَنْكُمَا الدُّنْيَا وَأَرْغَبُ بِكُمَا عَنْهَا ، وَ كَذٰلِكَ أَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِي وَ إِنِّي لَأَذُودُهُمْ عَنْ نَعِيمِهَا كَمَا يَذُودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبِلَهُ عَنْ مَبَارِكِ الْعُرَّةِ ، وَ إِنِّي لَأُجَنِّبُهُمْ سُكُونَهَا وَعَيْشَهَا ، وَلَيْسَ ذٰلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ ، وَلٰكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا حَظَّهُمْ مِنْ كَرَامَتِي » . وَقَالَ تَعَالَى: (وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً،

(عليهم بأن لا يلطخهم) أى لا يلوثهم (بقذرها) أى الدنيا (حتى قال عز من قائل لموسى وهرون عليهما السلام) لما بعثهما إلى فرعون : اسمع كلامى ، واسمع وصيتى لا يروعنكما لباسه الذى لبس من الدنيا فإن ناصيته بيدى ليس ينطق بحرف ولا يطرف بلحظ ولا يتنفس إلا بإذنى ولا يعجبنكما ما تمتع به منها ولا تمدا إلى ذلك أعينكما فانما هى زهرة الحياة الدنيا (ولو أشاء أن أزينكما بزينة) من الدنيا (ليعلم فرعون حين يراها) أى الزينة (أن مقدرته) أى فرعون (تعجز عنها) أى عن تلك الزينة (لفعلت) ذلك التزيين (ولكنى أزوى) أى أقبض (عنكما الدنيا وأرغب بكما عنها) أى عن الدنيا (وكذلك) أى أزوى الدنيا (أفعل بأوليائي وإنى لأذودهم) أى أطردهم (عن نعيمها كما يذود) أى يطرد (الراعى الشفيق) أى المشفق (إبله عن مبارك العرة) بالضم وهي الجرب . قال العلامة عبد الحق : ومبارك جمع مبرك موضع بروك البعير وهو كمدخل من دخل يدخل والبروك كالاضطجاع للانسان ، وفى لسان العرب: وفى حديث علقمة « لا تقربهم فإن على أبوابهم فتنا كمبارك الإبل » هو الموضع الذى يبرك فيه أراد أنها تعدى كما أن الإبل الصحاح إذا أنيخت فى مبارك الجربى جربت انتهى ، وأيضا فيه العرة الجرب (وإنى لأجنبهم) أى الأولياء (سكونها) أى الدنيا (وعيشها) يعنى ملاذها (وليس ذلك) أى تجنيبهم وتبعيدهم عن الدنيا (لهوانهم على ولكن ليستكملوا حظهم) أى نصيبهم (من كرامتي) سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم تنقصه .

واعلم يا موسى أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ عندى من الزهد فى الدنيا فإنها زينة الأبرار عندى إنما يتزين لى أوليائى بالذل والخوف والخضوع والتقوى تثبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم فهى ثيابهم التى يلبسون ودثارهم الذي يظهرون وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ورجاؤهم الذى إياه يأملون ومجدهم الذى يفخرون وسيماهم التى بها يعرفون أولئك هم أوليائى حقا فاذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك كذا قاله وهب بن منبه وأورده صاحب الحلية وصاحب القوت (وقال تعالى « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) أى

لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ) الآيتين ، فَانْظُرِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ إِنْ كُنْتَ مُبْصِرًا وَقُلِ : الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى مَنَّ عَلَيْنَا بِمَنّ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ ، وَصَرَفَ عَنَّا فِتْنَةَ أَعْدَائِهِ لِنَحْظَى وَلْنُخَصَّ بِالشُّكْرِ الْأَوْفَرِ ، وَالْحَمْدِ الْأَكْبَرِ ، وَالْمِنَّةِ الْكُبْرَى ، وَالنِّعْمَةِ الْعُظْمَى الَّتِى هِىَ الْإِسْلَامُ فَإِنَّهَا الْأُولَى وَالْأُخْرَى بِأَنْ لَا تَفْتُرَ لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ عَنْ شُكْرِهَا ، فَإِنْ كُنْتَ عَاجِزًا عَنْ عِرْفَانِ قَدْرِهَا ، فَاعْلَمْ بِالْحَقِيقَةِ أَنَّكَ لَوْ خُلِقْتَ مِنْ أَوَّلِ الدُّنْيَا وَأَخَذْتَ فِى شُكْرِ نِعْمَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَوَّلِ الْوَقْتِ إِلَى الْأَبَدِ مَا كُنْتَ تَقُومُ بِذٰلِكَ ، وَلَمَّا قَضَيْتَ بَعْضَ الْحَقِّ لِمَا هُنَالِكَ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

قُلْتُ : وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَوْضِعَ لَا يَحْتَمِلُ ذِكْرَ مَا يَبْلُغُهُ عِلْمِى مِنْ قَدْرِ هٰذِهِ النِّعْمَةِ ، وَلَوْ أَمْلَيْتُ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ وَرَقَةٍ لَكَانَ مَبْلَغُ عِلْمِى فَوْقَ ذٰلِكَ ، مَعَ اعْتِرَافِى بِأَنَّ مَا أَعْلَمُهُ فِى جَنْبِ مَالَا أَعْلَمُهُ ،

على ملة واحدة ملة الكفر : يعنى لولا أن يرغبوا فى الكفر إذا رأوا الكفار فى سعة وتنعم لحبهم الدنيا فيجتمعوا عليه (لجعلنا) لحقارة الدنيا عندنا (لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا) سماء بيوتهم (من فضة» الآيتين) يعنى « ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » (فانظر الفرق بين الأمرين) المذكورين ، وهما انزواء الدنيا وطردها عن الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين وانصبابها على الكافرين والفاجرين والفاسقين (إن كنت مبصرا وقل الحمد لله الذى من علينا بمن أوليائه وأصفيائه وصرف) أى صد سبحانه وتعالى (عنا فتنة أعدائه لنحظى ولنخص بالشكر الأوفر) أى الأكمل (والحمد الأكبر) أى الأعظم (والمنة الكبرى والنعمة العظمى التى هى) أى تلك النعمة (الإسلام فإنها الأولى) أى الأفضل (و) الأمر (الأحرى بأن لاتفتر) أى لاتكسل (ليلك ونهارك عن شكرها) أى تلك النعمة (فان كنت عاجزا عن عرفان قدرها فاعلم بالحقيقة أنك لو خلقت من أول الدنيا وأخذت فى شكر نعمة الإسلام) والإيمان (من أول الوقت إلى الأبد ما كنت) أى لست (تقوم بذلك) أى شكر نعمة الإسلام (ولما) نافية (قضيت بعض الحق لما هنالك) أى نعمة الاسلام (من الفضل العظيم . قلت واعلم أن الموضع) أى هذا الكتاب (لايحتمل ذكر مايبلغه علمى من قدر هذه النعمة ولو أمليت) أى قرأت (فيه) أى فى هذا الموضع (ألف ألف ورقة لكان مبلغ علمى فوق ذلك) أى ماأمليته من ألف ألف ورقة (مع اعترافى) وإقرارى (بأن ماأعلمه) من قدر هذه النعمة (فى جنب مالا أعلمه) من ذلك

كَنفثَةٍ فى بِحَارِ الدُّنيَا بِأَسْرِهَا ؛ أَمَا تَسْمَعُ وَيْحَكَ قَوْلَهُ تعَالى لِسَيِّدِ المُرْسَلِينَ صلى اللهُ عليه وسلم : (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ) إلى أَنْ قالَ لَهُ : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكَ عَظِيمًا) . وَقالَ تَعَالى لِقَوْمٍ : (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ) الآيَة . أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلم، وَقَدْ سَمِعَ

(كنفثة) أى قطرة (فى بحار الدنيا بأسرها) أي بأجمعها (أما تسمع ويحك) كلمة رحمة (قوله تعالي لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) .

اختلف العلماء فى هذه الآية مع اتفاقهم على أن الأنبياء قبل النبوة كانوا مؤمنين ، فقيل معناه ما كنت تدرى قبل الوحى شرائع الإيمان ومعالمه . وقال محمد بن إسحق عن ابن خزيمة : الإيمان في هذا الموضع الصلاة، دليله « وما كان الله ليضيع إيمانكم » يعنى صلاتكم ولم يرد به الإيمان الذى هو الإقرار بالله تعالى لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة يوحد الله تعالى ويحج ويعتمر ويبغض اللات والعزى ولا يأكل ماذبح على النصب وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولم تتبين له شرائع دينه إلا بعد الوحى إليه (إلى أن قال) الله تعالى (له) صلى الله عليه وسلم « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة (وعلمك مالم تكن تعلم) من أحكام الشرع وأمور الدين ، وقيل علمك من علم الغيب مالم تكن تعلم ، وقيل معناه وعلمك من خفيات الأمور وأطلعك علي ضمائر القلوب وعلمك من أحوال المنافقين وكيدهم مالم تكن تعلم (وكان فضل الله عليك عظيما) يعنى ولم يزل فضل الله عليك يا محمد عظيما فاشكره على ماأولاك من إحسانه ومن عليك بنبوته وعلمك ماأنزل عليك من كتابه وحكمته وعصمك ممن حاول إضلالك فإن الله هو الذى تولاك بفضله وشملك بإحسانه وكفاك غائلة من أرادك بسوء ، ففى هذه الآية تنبيه من الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ما حباه من ألطافه وماشمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه (وقال تعالى لقوم) من بنى أسد « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ») أى لله المنة عليكم أن أرشدكم وأمدكم بتوفيقه حيث هداكم للايمان على ما زعمتم وادعيتم ، وهو قوله تعالى (الآية) أى إن كنتم صادقين يعنى فى ادعاء الإيمان ، وجوابه محذوف يدل عليه ماقبله : أى فلله المنة عليكم ، وفى سياق الآية لطائف هى أنهم لما سموا ما صدر عنهم إيمانا ومنوا به نفي أنه إيمان وسماه إسلاما بأن قال يمنون عليك بما هو فى الحقيقة إسلام ، وليس بجدير أن يمن به عليك بل لو صح ادعاؤهم الإيمان فلله المنة عليهم بالهداية له لالهم . قاله القاضى (أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم وقد سمع

رَجُلاً يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى الْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُ : « إِنَّكَ لَتَحْمَدُ اللّٰهَ عَلَى نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ » وَلَمَّا قَدِمَ الْبَشِيرُ عَلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،قَالَ : عَلَى أَيِّ دِينٍ تَرَكْتَهُ ؟ قَالَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ، قَالَ : الْآنَ تَمَّتِ النِّعْمَةُ ، وَقِيلَ : مَا مِنْ كَلِمَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَى وَلَا أَبْلَغَ عِنْدَهُ فِى الشُّكْرِ مِنْ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَنْعَمَ عَلَيْنَا وَهَدَانَا إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْفُلَ الشُّكْرَ لِلْإِسْلَامِ وَتَغْتَرَّ بِمَا أَنْتَ عَلَيْهِ فِى الْحَالِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ ، فَإِنَّ مَعَ ذٰلِكَ لَا مَوْضِعَ لِلْأَمْنِ وَالْغَفْلَةِ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ بِالْعَوَاقِبِ ، وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى يَقُولُ: مَا أَمِنَ أَحَدٌ عَلَى دِينِهِ إِلَّا سُلِبَ ، وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِذَا سَمِعْتَ بِحَالِ الْكُفَّارِ وَخُلُودِهِمْ فِى النَّارِ فَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ فَإِنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْخَطَرِ ، وَلَا تَدْرِى مَاذَا يَكُونُ مِنَ الْعَاقِبَةِ وَمَاذَا سَبَقَ لَكَ فِى حُكْمِ الْغَيْبِ ؟

رجلا يقول الحمد لله على الإسلام ، فقال) صلى الله عليه وسلم (إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة) وهى نعمة الاسلام (ولما قدم البشير) وهو المبشر بخبر يوسف . قال ابن مسعود : جاء البشير بين يدى العير . قال ابن مسعود رضى الله عنه : هو يهوذا . قال السدى : قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب وأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حى فأفرحه كما أحزنته . قال ابن عباس : حمله يهوذا وخرج به حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخا (على يعقوب عليه السلام) سأل البشير كيف يوسف ؟ قال هو ملك مصر (قال) يعقوب ما أصنع بالملك (على أى دين تركته ؟) أى ذلك الملك وهو يوسف عليه السلام (قال) البشير تركناه (على دين الاسلام قال) يعقوب (الآن تمت النعمة) هكذا ذكره النسفي وغيره (وقيل ما من كلمة) أى كلام (أحب إلى الله تعالى ولا أبلغ عنده) سبحانه (فى الشكر من أن يقول العبد الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا إلى دين الإسلام وإياك) أى احذر (أن تغفل) بضم الفاء (الشكر للاسلام و) أن (تغتر) وتنخدع (بما أنت عليه فى الحال من الإسلام والمعرفة والتوفيق والعصمة فإن مع ذلك) أى ما أنت عليه فى الحال (لا موضع للأمن والغفلة فإن الأمور بالعواقب) والأعمال بخواتيمها (وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى يقول : ما أمن أحد على دينه إلا سلب ، وكان شيخنا رحمه الله تعالى يقول : إذا سمعت بحال الكفار وخلودهم فى النار فلا تأمن على نفسك فإن الأمر على الخطر ولا تدرى ماذا يكون من العاقبة وماذا سبق لك فى حكم الغيب) أكنت من السعداء

فَلَا تَغْتَرَّ بِصَفَاءِ الْأَوْقَاتِ ، فَإِنَّ تَحْتَهَا غَوَامِضَ الآفَاتِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ يَامَعْشَرَ الْمُغْتَرِّينَ بِالْعِصَمِ إِنَّ تَحْتَهَا أَنْوَاعَ النِّقَمِ ، زَيَّنَ اللهُ إِبْلِيسَ بِأَنْوَاعِ عِصْمَتِهِ ،وَهُوَ عِنْدَهُ فِى حَقَائِقِ لَعْنَتِهِ ، وَزَيَّنَ بِلْعَامَ بِأَنْوَارِ وِلَايَتِهِ ، وَهُوَ عِنْدَهُ فِى حَقَائِقِ عَدَاوَتِهِ ، وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ، وَقِيلَ لِذِى النُّونِ : مَا أَقْصَى مَا يُخْدَعُ بِهِ الْعَبْدُ ؟ قَالَ بِالْأَلْطَافِ وَالْكَرَامَاتِ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) قَالَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ : نُسْبِغُ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ وَنُنْسِيهِمُ الشُّكْرَ ،

أو كنت من الأشقياء (فلا تغتر بصفاء الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات) والغوامض جمع غامض وهو خلاف الواضح (وقال بعضهم يا معشر المغترين بالعصم) جمع عصمة (إن تحتها) أى العصم (أنواع النقم) جمع نقمة (زين الله إبليس) اللعين (بأنواع عصمته وهو) أى إبليس (عنده) تعالى (فى حقائق لعنته وزين) الله (بلعام) بن باعوراء من علماء بنى إسرائيل (بأنوار ولايته وهو) أى بلعام (عنده) تعالى (فى حقائق عداوته ، و) روى (عن على) بن أبى طالب (رضى الله عنه أنه قال : كم من مستدرج) بصيغة اسم المفعول (بالإحسان إليه) أى إلى المستدرج (وكم من مفتون بحسن القول فيه ، وكم من مغرور بالستر عليه ، وقيل لذى النون) أبى الفيض ثوبان بن إبراهيم المصرى الصالح المشهور أحد رجال الطريقة ، توفى فى ذى القعدة سنة خمس وأربعين ، وقيل ست وأربعين ، وقيل ثمان وأربعين ومائتين بمصر ودفن بالقرافة الصغرى (ما أقصى) أى غاية (ما يخدع به العبد . قال) ذو النون (بالألطاف والكرامات) ولذلك أى ما قاله ذو النون (قال) الله (سبحانه) وتعالى « والذين كذبوا بآياتنا (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ») قال الأزهرى : سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك أن الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون إليه ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون ، وقيل معناه : سنقربهم إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لأنهم كانوا إذا أتوا بجرم أو قدموا على ذنب فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة فى الدنيا فيزدادون بذلك تماديا فى الغى والضلال ويتدرجون فى الذنوب والمعاصى فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه . وقال الضحاك : معناه كلما جددوا معصية جددنا نعمة . وقال الكلبى : نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها ، و (قال أهل المعرفة) منهم سفيان الثورى (نسبغ) أى نكمل (عليهم النعم وننسيهم الشكر) روى أن عمر بن الخطاب لما حمل إليه كنوز كسرى قال : اللهم إنى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فإنى سمعتك تقول «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » قال أهل المعانى : الاستدراج أن يتدرج الشىء إلى الشىء فى خفية قليلا قليلا

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

وَاعْلَمْ أَنَّكَ كُلَّمَا صِرْتَ أَقْرَبَ فَأَمْرُكَ أَخْوَفُ وَأَصْعَبُ ، وَالْمُعَامَلَةُ أَشَدُّ وَأَدَقُّ ، وَالْخَطَرُ عَلَيْكَ أَعْظَمُ ، فَإِنَّ الشَّىْءَ كُلَّمَا كَانَ أَبْلَغَ عُلُوًّا إِذَا انْقَلَبَ كَانَ أَصْعَبَ وُقُوعًا ، كَمَا قِيلَ :

مَا طَارَ طَيْرٌ فَارْتَفَعْ إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعْ

فَإِذَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْأَمْنِ وَإِغْفَالِ الشُّكْرِ وَتَرْكِ الِابْتِهَالِ فِى الْحِفْظِ بِحَالٍ ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ يَقُولُ : كَيْفَ تَأْمَنُ وَإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُ : (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

ومنه درج الصبي : إذا قارب بين خطاه فى المشى ، ومنه درج الكتاب : إذا طواه شيئا بعد شيء (كما قال الشاعر) من بحر البسيط (أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت) أى تلك الأيام (ولم تخف سوء ما يأتى به القدر) أى القضاء الذى يقدره الله تعالى (وسالمتك الليالي فاغتررت بها) أى تلك الليالى (وعند صفو الليالى يحدث) بضم الدال من باب قعد : أى يتجدد (الكدر) ويزول الصفاء (واعلم أنك كلما صرت أقرب) إلى الله تعالى (فأمرك أخوف وأصعب والمعاملة) أى العبادة (أشد وأدق والخطر عليك أعظم فإن الشيء كلما كان أبلغ علواً إذا انقلب) سفلا (كان) ذلك الشيء (أصعب وقوعا كما قيل) من بحر الكامل المضمر المجزوء (ما طار طير فارتفع) بسكون العين للوزن فى طيرانه إلي السماء (إلا كما طار) ذلك الطير (وقع) بسكون العين أيضاً : أى إلي الأرض (فإذن) أى إذا كان الأمر كلما صار أقرب فهو أخوف وأصعب (لا سبيل إلى الأمن وإغفال الشكر وترك الابتهال) والتضرع (فى الحفظ بحال) من الأحوال (وكان ابراهيم بن أدهم) بن منصور رحمة الله عليه ، توفى سنة إحدى وستين ومائة (يقول : كيف تأمن) ولا تخاف (و) نبي الله (ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه يقول) « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ») يعنى أبعدنى وإياهم أن نعبدها . فان قلت : قد توجه على هذه الآية إشكالات وهى من وجوه : الأول أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة آمنة ثم إن جماعة من الجبابرة وغيرهم قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها . الوجه الثانى أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون من عبادة الأصنام وإذا كان كذلك فما الفائدة فى قوله اجنبنى عن عبادتها . الوجه

وَيُوسُفُ الصِّدِّيقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : (تَوَفَّنِي مُسْلِماً)

الثالث أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أيضاً أن يجنب بنيه عن عبادة الأصنام ، وقد وجد كثير من بنيه عبد الأصنام مثل كفار قريش وغيرهم ممن ينسب إلى إبراهيم عليه السلام . قلت : الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه : فالجواب عن الوجه الأول من وجهين : أحدهما أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء ، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة ، وأورد على هذا ما ورد فى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » أخرجاه فى الصحيحين وأجيب عنه بأن قوله « اجعل هذا البلد آمنا » يعنى إلى قرب القيامة وخراب الدنيا ، وقيل : هو عام مخصوص بقصة ذى السويقتين فلا تعارض بين النصين . الوجه الثانى أن يكون المراد اجعل أهل هذا البلد آمنين ، وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن فى بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله « ويتخطف الناس من حولهم » وأهل مكة آمنون من ذلك ، حتي إن من التجأ إلى مكة أمن على نفسه وماله من ذلك ، وحتى إن الوحوش إذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فإذا دخلت الحرم أمنت واستأنست لعلمها أنه لا يهيجها أحد فى الحرم ، وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها . وأما الجواب عن الوجه الثاني فمن وجوه أيضا : الوجه الأول أن دعاء إبراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة والتثبت فهو كقوله « واجعلنا مسلمين لك » . الوجه الثانى أن إبراهيم عليه السلام وإن كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه دعا بهذا الدعاء هضما للنفس وإظهارا للعجز والحاجة والفاقة إلى فضل الله تعالى ورحمته وأن أحداً لا يقدر على نفع نفسه بشىء لم ينفعه الله به ، فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء . وأما دعاؤه لبنيه وهو الوجه الثالث من الإشكالات ، فالجواب عنه من وجوه : الأول أن ابراهيم دعا لبنيه من صلبه ولم يعبد أحد منهم صنما قط . الوجه الثانى : أنه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولاشك أن إبراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم . الوجه الثالث : قال الواحدى : دعا لمن أذن الله أن يدعو له فكأنه قال : وبنى الذين أذنت لى فى الدعاء لهم لأن دعاء الأنبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم ، فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص . الوجه الرابع أن هذا مختص بالمؤمنين من أولاده ، والدليل عليه أنه قال فى آخر الآية « فمن تبعنى فإنه منى » وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه ، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ذكره الخازن (ويوسف الصديق عليه السلام يقول:) «أنت ولي فى الدنيا والآخرة (توفنى مسلما») أى اقبضنى إليك مسلما .
واختلفوا هل هو طلب للوفاة فى الحال أم لا على قولين : أحدهما أنه سأل الله الوفاة فى الحال . قال قتادة : لم يسأل نبى من الأنبياء الموت إلا يوسف . قال أصحاب هذا القول وإنه لم يأت عليه أسبوع حتي توفى ، والقول الثانى أنه سأل الوفاة على الإسلام ولم يتمن الموت فى الحال . قال الحسن : إنه

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَا يَزَالُ يَقُولُ : اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، كَأَنَّهُ فِى سَفِينَةٍ يَخْشَى الْغَرَقَ .

وَبَلَغَنَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : تَأَمَّلْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ لَيْلَةً ، فَبَكَى اللَّيْلَ أَجْمَعَ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَبُكَاؤُكَ هٰذَا عَلَى الذُّنُوبِ ؟ قَالَ فَحَمَلَ تِبْنَةً وَقَالَ : اَلذَّنْبُ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هٰذَا ، وَإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ يَسْلُبَنِى اللهُ الْإِسْلَامَ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ .

وَسَمِعْتُ أَنَا بَعْضَ الْعَارِفِينَ يَقُولُ : إِنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى عَنْ أَمْرِ بَلْعَامَ وَطَرْدِهِ بَعْدَ

عاش بعد هذه سنين كثيرة ، فعلى هذا القول يكون معنى الآية : توفنى إذا توفيتنى على الإسلام فهو طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام وليس فى اللفظ ما يدل على أنه طلب الوفاة فى الحال . قال بعض العلماء : وكلا القولين محتمل لأن اللفظ صالح للأمرين ، ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه أن الدنيا ولذاتها فانية زائلةسريعة الذهاب وأن نعيم الآخرة باق دائم لا نفاد له ولا زوال ، ولايمنع من هذاقوله صلى الله عليه وسلم « لايتمنى أحدكم الموت لضر نزل به » فإن تمنى الموت عند وجود الضرر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولي . قال علماء التاريخ : عاش يوسف مائة وعشرين سنة ، وفى التوراةمائة وعشر سنين ، وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفراشيم وميشا ورحمة امرأة أيوب ، وقيل : عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر ، ولما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه فى النيل فى صندوق من رخام ، وقيل من حجارة المرمر . وذلك أنه لما مات يوسف تشاح الناس فيه فطلب كل أهل محلة أن يدفن فى محلتهم رجاء بركته حتى هموا أن يقتتلوا ، ثم رأوا أن يدفنوه فى النيل بحيث يجرى الماء عليه ويتفرق عنه وتصل بركته إلى جميعهم . وقال عكرمة : إنه دفن فى الجانب الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر ، فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب وأجدب الجانب الأيمن فدفنوه فى وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان ، فبقى إلى أن أخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام فى الأرض المقدسة (وكان سفيان الثورى) رحمه الله (لا يزال يقول اللهم سلم سلم كأنه) أى الثورى (فى سفينة يخشى الفرق) أى الرسوب فى الماء (وبلغنا عن محمد بن يوسف رحمه الله أنه قال : تأملت سفيان الثورى ليلة فبكى) سفيان (الليل أجمع فقلت له أبكاؤك هذا على الذنوب ؟ قال) محمد بن يوسف (فحمل) سفيان (تبنة وقال) سفيان (الذنب أهون على الله من هذا) أى الذى حملته من التبنة (وإنما أخشى أن يسلبنى الله الإسلام والعياذ بالله) من ذلك السلب (وسمعت أنا بعض العارفين) رحمه الله (يقول : إن بعض الأنبياء عليهم) الصلاة و (السلام سأل الله تعالى عن أمر بلعام) بن باعوراء (وطرده) عن رحمته تعالى (بعد) أن

تِلْكَ الآيَاتِ وَالْكَرَامَاتِ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : لَمْ يَشْكُرْنِي يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ عَلَى مَا أَعْطَيْتُهُ ، وَلَوْ شَكَرَنِي عَلَى ذٰلِكَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَمَا سَلَبْتُهُ ، فَتَيَقَّظْ أَيُّهَا الرَّجُلُ وَاحْتَفِظْ بِرُكْنِ الشُّكْرِ جِدًّا ، وَاُحْمَدِ اللهَ عَلَى نِعَمِهِ فِي الدِّينِ ، وَأَعْلَاهَا الْإِسْلَامُ وَالْمَعْرِفَةُ ، وَأَدْنَاهَا مَثَلًا تَوْفِيقُ تَسْبِيحٍ أَوْ عِصْمَةٍ عَنْ كَلِمَةٍ لَا تَعْنِيكَ ، عَسَى أَنْ يُتِمَّ نِعَمَهُ عَلَيْكَ وَلَا يَبْتَلِيكَ بِمَرَارَةِ الزَّوَالِ ، فَإِنَّ أَمَرَّ الْأُمُورِ وَأَصْعَبَهَا الْإِهَانَةُ بَعْدَ الْإِكْرَامِ ، وَالطَّرْدُ بَعْدَ التَّقْرِيبِ ، وَالْفِرَاقُ بَعْدَ الْوِصَالِ ، وَاللهُ تَعَالَى الْمَاجِدُ الْكَرِيمُ ، الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ .

﴿ فصل ﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا أَحْسَنْتَ النَّظَرَ فِي مِنَنِ اللهِ تَعَالَى الْعِظَامِ عَلَيْكَ ، وَأَيَادِيهِ الْجِسَامِ الْكِرَامِ لَدَيْكَ ، الَّتِي لَا يُحْصِيهَا

كان قد أوتى ما أوتيه من (تلك الآيات والكرامات ، فقال الله تعالى) إن بلعام (لم يشكرنى يوما من الأيام على ما أعطيته) من الآيات والكرامات (ولو شكرنى على ذلك) الذى أعطيته منها (مرة واحدة لما سلبته) وطردته (فتيقظ) أى تنبه من نوم الغفلة (أيها الرجل واحتفظ بركن الشكر جدا واحمد الله على نعمه) عز وجل (فى الدين وأعلاها) أى النعم (الإسلام والمعرفة وأدناها مثلا توفيق تسبيح أو عصمة عن كلمة لا تعنيك عسى أن يتم) الله تعالى (نعمه عليك ولايبتليك بمرارة الزوال فإن أمر الأمور) أى أشد مرارتها (وأصعبها) أي الأمور (الإهانة بعد الإكرام والطرد) أى البعد عن رحمة الله (بعد التقريب) منها (والفراق بعد الوصال والله تعالى الماجد) أى الجميل الأفعال والكثير الإفضال ، وقيل : هو العالى المرتفع (الكريم) أى المتفضل الذي يعطى من غير مسئلة ولاوسيلة ، وقيل : المتجاوز الذى لايستقصى فى العقاب (الرءوف) أى ذو الرأفة وهي شدة الرحمة فهو أبلغ من الرحيم والراحم . والفرق بين الرأفة والرحمة أن الرحمة إحسان مبدؤه شفقة المحسن ، والرأفة إحسان مبدؤه فاقة المحسن إليه (الرحيم) أى المنعم بنعم من أجل احتياج المنعم عليه وفاقته .

فصل

(وجملة الأمر) أى حاصله (أنك إذا أحسنت النظر فى منن الله تعالى العظام عليك وأياديه) أى نعمه (الجسام) أى العظام (الكرام لديك) أى عندك (التى لا يحصيها) أى المنن والنعم

قَلْبُكَ وَلاَ يُحِيطُ بِهَا وَهْمُكَ حَتَّى خَلَفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ الصِّعَابَ، فَوَجَدْتَ الْعُلُومَ وَالْبَصَائِرَ، وَتَطَهَّرْتَ مِنَ الْأَوْزَارِ وَالْكَبَائِرِ ، وَسَبَقْتَ الْعَوَائِقَ ، وَدَفَعْتَ الْعَوَارِضَ ، وَظَفِرْتَ بِالْبَوَاعِثِ ، وَسَلِمْتَ مِنَ الْقَوَادِحِ ، فَكَمْ حَصَلَ لَكَ فِيهَا مِنْ خَصْلَةٍ شَرِيفَةٍ ، وَرُتْبَةٍ عَالِيَةٍ مُنِيفَةٍ ، أَوَّلُهَا التَّبْصِيرُ وَالتَّعْرِيفُ وَآخِرُهَا التَّقْرِيبُ وَالتَّشْرِيفُ ، فَتَأَمَّلْتَ فِيهَا بِمِقْدَارِ عَقْلِكَ وَتَوْفِيقِكَ ، وَشَكَرْتَ اللهَ عَلَى قَدْرِ طَوْقِكَ بِأَنْ يَشْغَلَ لِسَانَكَ بِحَمْدِهِ وَثَنَائِهِ ، وَيَمْلَأَ قَلْبَكَ بِعَظَمَتِهِ وَبَهَائِهِ ، وَيُبَلِّغَكَ مَبْلَغاً يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عِصْيَانِهِ ، وَيَبْعَثَكَ عَلَى الْخِدْمَةِ لَهُ بِمَا أَمْكَنَكَ ، أَوْ بِسَعَةِ طَاقَتِكَ ، مُعْتَرِفاً بِالْقُصُورِ عَنْ حَقِّ إِنْعَامِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَكُلَّمَا أَغْفَلْتَ شُكْرَهُ أَوْ فَتَرْتَ أَوْ زَلَلْتَ ، عَاوَدْتَ وَاجْتَهَدْتَ وَتَضَرَّعْتَ إِلَيْهِ وَابْتَهَلْتَ وَتَوَسَّلْتَ وَقُلْتَ : يَا أَللهُ يَامَوْلاَىَ كَمَا بَدَأْتَ بِالْإِحْسَانِ بِفَضْلِكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ فَأَتِمَّهُ بِفَضْلِكَ أَيْضاً مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ وَتُنَادِيهِ بِنِدَاءِ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ وَجَدُوا تَاجَ هِدَايَتِهِ ، وَذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ ،

(قلبك ولا يحيط بها وهمك حتى خلفت هذه العقبات الصعاب فوجدت العلوم والبصائر وتطهرت من الأوزار أى الذنوب (والكبائر ، وسبقت العوائق) أى الموانع التى تمنع عن العبادة (ودفعت العوارض وظفرت بالبواعث وسلمت من القوادح فكم حصل لك فيها) أى فى تلك المنن والنعم (من خصلة شريفة ورتبة عالية منيفة) أى رفيعة (أولها) أى الخصلة (التبصير والتعريف وآخرها) أى تلك الخصلة (التقريب والتشريف فتأملت فيها) أى فى المنن المذكورة (بمقدار عقلك وتوفيقك وشكرت الله على قدر طوقك) أى طاقتك وقوتك ، وذلك (بأن يشغل) الله تعالى (لسانك بحمده) تعالى (وثنائه و) أن (يملأ) سبحانه (قلبك بعظمته وبهائه) أى جلاله تعالى (و) أن (يبلغك) الله (مبلغا يحول بينك وبين عصيانه و) أن (يبعثك) أى يحملك (على الخدمة) أى الطاعة (له) تعالى (بما أمكنك أو بسعة طاقتك) حال كونك (معترفا بالقصور عن حق إنعامه) تعالى (وإحسانه ، وكلما أغفلت شكره أو فترت أوزللت عاودت) أى رجعت (واجتهدت وتضرعت إليه) سبحانه (وابتهلت وتوسلت وقلت يا ألله يامولاى كما بدأت بالإحسان بفضلك من غير استحقاق فأتممه) أي الإحسان (بفضلك أيضا) أى كما بدأت به (من غير استحقاق وتناديه) تعالى (بنداء أوليائه الذين وجدوا تاج هدايته) أى هداية الله التى كالتاج بمعنى الأكليل بجامع الإكرام على لابسه وصاحبه (وذاقوا) أى أولئك الأولياء (حلاوة معرفته)

فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حُرْقَةَ الطَّرْدِ وَالْإِهَانَةِ ، وَوَحْشَةَ الْبُعْدِ وَالضَّلَالَةِ ، وَمَرَارَةَ الْعَزْلِ وَالْإِزَالَةِ ، فَتَضَرَّعُوا بِالْبَابِ مُسْتَغِيثِينَ ، وَمَدُّوا إِلَيْهِ الْأَكُفَّ مُبْتَهِلِينَ ، وَنَادَوْا فِى الْخَلَوَاتِ مُسْتَصْرِخِينَ : (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) .

قُلْتُ أَنَا : تَقْدِيرُهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّا وَجَدْنَا مِنْكَ نِعْمَةً فَطَمِعْنَا فِى أُخْرَى ،

تعالى (فخافوا على أنفسهم حرقة الطرد) أى حرارته (والإهانة ووحشة البعد والضلالة ومرارة العزل) عن مجلس القرب (والإزالة فتضرعوا بالباب) أى باب رحمته (مستغيثين) أى مستغيثين ومستنصرين (ومدوا إليه) تعالى (الأكف مبتهلين) أى متضرعين (ونادوا فى الخلوات مستصرخين ومستغيثين (ربنا لا تزغ قلوبنا) أى لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين فى قلوبهم زيغ (بعد إذ هديتنا) أى وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك وهب لنا من لدنك رحمة أى أعطنا توفيقا وتثبتا للذى نحن عليه من الإيمان والهدى ، وقيل: هب لنا تجاوزاً ومغفرة (إنك أنت الوهاب) الهبة العطية الخالية عن الأعواض والأغراض ، والوهاب فى صفة الله تعالى أنه تعالى يعطى كل أحد على قدر استحقاقه . روى مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » هذا من أحاديث الصفات ، وللعلماء فيه قولان: أحدهما الإيمان به ، وإمراره كما جاء من غير تعرض لتأويل ولا تكييف ولا لمعرفة معناه ، بل نؤمن به كما جاء وأنه حق ونكل علمه إلى مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . هذا القول هو مذهب أهل السنة من سلف الأمة وخلفها من أهل الحديث وغيرهم . والقول الثانى : أنه يتأول بحسب ما يليق به وأن ظاهره غير مراد . قال تعالى « ليس كمثله شىء » فعلى هذا المراد هو المجاز كما يقال فلان فى قبضتى وفى كفى يريد أنه تحت قدرته وفى تصرفه لا أنه حال فى كفه ، فمعنى الحديث أنه سبحانه وتعالى متصرف فى قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شىء ولا يفوته ما أراد كما لا يمتنع على الإنسان ما بين أصبعيه . فخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما يفهمونه ويعلمونه من أنفسهم ، وإنما ثنى لفظ الأصبعين والقدرة واحدة لأنه جرى على المعهود من التمثيل بحسب ما اعتادوه وإن كان غير مقصود به التثنية أو الجمع ، وهذا مذهب جمهور المتكلمين وغيرهم من المتأخرين إنما خص القلوب بالذكر لفائدة ، وهى أن الله تعالى جعل القلوب محلا للخواطر والارادات والنيات وهى مقدمات الأفعال . ثم جعل سائر الجوارح تابعة للقلوب فى الحركات والسكنات (قلت أنا تقديره والله أعلم : إنا وجدنا منك نعمة فطمعنا فى) نعمة (أخرى

فإنكَ أنتَ الجوادُ الوهّابُ، فكما وهبْتَ لنا مزيّةَ الإنعامِ في الابتداءِ، فهبْ لنا رحمةَ الإتمامِ في الانتهاءِ، أما تسمعُ — ويحكَ — أنّ أوّلَ دعاءٍ علّمهُ ربُّ العالمينَ عبادهُ المسلمينَ، الذين اصطفاهم من بين خلقهِ، هذا الدعاءُ: قولهُ تعالى: (اهدِنا الصّراطَ المستقيمَ) أي ثبّتْنا عليهِ وأدمْهُ لنا، هكذا تتضرّعُ إليهِ فإنّ الخطبَ عظيمٌ.

وقيلَ: إنّ الحكماءَ نظروا فردّوا مصائبَ العالمِ ومحنهمْ كلّها إلى خمسٍ المرضِ في الغربةِ، والفقرِ في الشيبِ، والموتِ في الشبابِ، والعمى بعدَ البصرِ، والنكرةِ بعدَ المعرفةِ، وأحسنُ منْ ذلكَ قولُ منْ قالَ:

لكلِّ شيءٍ إذا فارقتهُ عوضٌ　　　وليسَ للهِ إنْ فارقتَ منْ عوضِ

فإنك أنت الجواد الوهاب فكما وهبت لنا مزية الإنعام) أى فضيلته، فى المصباح المزية فعيلة، وهى التمام والفضيلة، ولفلان مزية أى فضيلة يمتاز بها عن غيره قالوا: ولا يبنى منه فعل وهو ذو مزية فى الحسب والشرف أى ذو فضيلة والجمع مزايا مثل عطية وعطايا (فى الابتداء فهب لنا رحمة الاتمام فى الانتهاء أما تسمع ويحك أن أول دعاء عليه رب العالمين عباده المسلمين الذين اصطفاهم) أى اختارهم الله (من بين خلقه هذا الدعاء) وهو (قوله تعالى «اهدنا الصراط المستقيم» أى ثبتنا عليه) أى على هذا الصراط (وأدمه لنا) وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بمعنى سؤال التثبت وطلب مزيد الهداية، لأن الألطاف والهدايات من الله لا تتناهى، وهذا مذهب أهل السنة، والصراط: الطريق. قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط　　إذا اعوج الموارد مستقيم

أى على طريقة حسنة. قال ابن عباس: هو دين الإسلام، وقيل هو القرآن وروى ذلك مرفوعا، وقيل السنة والجماعة، وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة (هكذا) أى مثل تضرعهم (تتضرع) أنت أيها الرجل (إليه) تعالى (فان الخطب) أى الأمر (عظيم. وقيل إن الحكماء) أى الواضعين الشىء فى محله وهم الأولياء الصالحون، وليس المراد بالحكماء هنا الأطباء بل المراد بهم أطباء القلوب (نظروا فردوا مصائب العالم) بفتح اللام (ومحنهم) أى العالمين (كلها إلى خمس) أحدها (المرض فى الغربة) أى محل بعيد عن وطن المريض (و) ثانيها (الفقر فى الشيب) أى ابيضاض الشعر المسود: يعنى فى حال الكبر (و) ثالثها (الموت فى الشباب. و) رابعها (العمي بعد البصر. و) خامسها (النكرة) أى الكفر (بعد المعرفة) أي بعد معرفة الله تعالى وإيمانه (وأحسن من ذلك) أى قول الحكماء (قول من قال) من بحر البسيط (لكل شىء إذا فارقته عوض. وليس لله إن فارقت) دين الله بالنكرة (من عوض) وفى الإشارات عن الله سبحانه وتعالى

وَلِغَيْرِهِ :

إذا أَبقتِ الدُّنْيَا عَلَى المَرْءِ دِينَهُ   فَما فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرِ

وَكَذٰلِكَ فى كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكَ وَتَأْيِيدٍ أَيَّدَكَ بِهِ فِى قَطْعِ عَقَبَةٍ مِنَ الْعَقَبَاتِ لِيُثَبِّتَ عَلَيْكَ مَا أَعْطَى وَيَزِيدَكَ فَوْقَ مَا تُرِيدُ وَتَتَمَنَّى، فَإِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ كُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْخَطِيرَةَ، وكُنْتَ قَدْ ظَفِرْتَ بِالْكَنْزَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا الاُسْتِقَامَةُ وَالاُسْتِزَادَةُ فَتَدُومُ لَكَ النِّعَمُ الْمَوْجُودَةُ الَّتِى أَعْطَاكَهَا فَلَا تَخْشَى زَوَالَهَا وَيَزِيدُكَ مِنَ النِّعَمِ الْمَفْقُودَةِ الَّتِى لَمْ تُعْطَ بَعْدُ مَالَا تُحْسِنُ أَنْ تَسْأَلَهَا وَتَتَمَنَّاهَا، فَلَا تَخْشَ فَوَاتَهَا وكُنْتَ حِينَئِذٍ مِنَ الْعَارِفِينَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ بِالدِّينِ التَّائِبِينَ الطَّاهِرِينَ الزَّاهِدِينَ فِى الدُّنْيَا الْمُتَجَرِّدِينَ لِلْخِدْمَةِ الْقَاهِرِينَ لِلشَّيْطَانِ، الْمُتَّقِينَ حَقَّ التَّقْوَى بِالْقَلْبِ وَالْأَرْكَانِ الْقَاصِرِينَ لِلْأَمَلِ النَّاصِحِينَ ،

لا تركنن إلى شيء دوننا فانه وبال عليك وقاتل لك فان ركنت إلى العلم تتبعناه عليك ، وإن أويت إلى العمل رددناه عليك ، وإن وثقت بالحال وقفناك معه ، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه ، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك اليهم ، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك، فأى حيلة لك وأى قوة معك ؟ فارضنا لك ربا حتى نرضاك لنا عبدا (ولغيره) أى القائل المذكورمن بحر الطويل (إذا أبقت الدنيا على المرء دينه. فما) أى الذى (فاته منها) أى من الدنيا (فليس بضائر) أى يضره (وكذلك) أى تتضرع (فى كل نعمة أنعم) الله تعالى (بها عليك وتأييد أيدك) الله (به فى قطع عقبة من العقبات) السبع (ليثبت) سبحانه وتعالى (عليك ماأعطى) من النعم (ويزيدك) تعالى (فوق ما تريد و) ما (تتمنى، فإذا فعلت ذلك) أى التضرع والابتهال إليه تعالى عن كل نعمة وتأييد (كنت قد خلفت) وراءك (هذه العقبة الخطيرة) أى العظيمة وهى عقبة الحمد والشكر (وكنت قد ظفرت بالكنزين الكريمين العزيزين اللذين هما الاستقامة) على الطاعة (والاستزادة) أى طلب زيادة النعم (فتدوم لك النعم الموجودة التى أعطاكها) الله تعالى (فلا تخشى زوالها) أى تلك النعم (ويزيدك) الله (من النعم المفقودة) بيان مقدم لما فى قوله مالاتحسن (التى لم تعط بعد) أى إلى الآن (مالاتحسن أن تسألها وتتمناها) أى النعم الفقودة (فلا تخش فواتها) أى تلك النعم (وكنت حينئذ) أى حين إذ كنت قد ظفرت بالكنزين الكريمين (من العارفين العلماء العاملين بالدين) القويم (التائبين) من الذنوب (الطاهرين) من العيوب (الزاهدين فى الدنيا المتجردين للخدمة) أى الطاعة (القاهرين للشيطان) اللعين (المتقين حق التقوى بالقلب والأركان) أى الأعضاء (القاصرين للأمل الناصحين)

الْخَاشِعِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ الْمُفَوِّضِينَ الرَّاضِينَ الصَّابِرِينَ الْخَائِفِينَ الرَّاجِينَ الْمُخْلِصِينَ الذَّاكِرِينَ الْمِنَّةَ الشَّاكِرِينَ لِأَنْعُمِ سَيِّدِهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، ثُمَّ تَصِيرُ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنَ الْمُسْتَقِيمِينَ الْمُكَرَّمِينَ الصِّدِّيقِينَ. فَتَأَمَّلْ هَٰذَا الْكَلَامَ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ ، فَإِنْ قُلْتَ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَٰلِكَ ، لَقَدْ قَلَّ مِنَ النَّاسِ الْعَابِدُ لِهَٰذَا الْمَعْبُودِ وَالْوَاصِلُ إِلَى هَٰذَا الْمَقْصُودِ ، وَمَنِ الَّذِي يَقْوَى عَلَى هَٰذِهِ الْمُؤَنِ وَتَحْصِيلِ هَٰذِهِ الشَّرَائِطِ وَالسُّنَنِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ، كَذَٰلِكَ يَقُولُ : وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ لَا يَعْقِلُونَ ، لَا يَعْلَمُونَ ، ثُمَّ إِنَّ ذَٰلِكَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَعَلَى الْعَبْدِ الْاجْتِهَادُ ، وَعَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ الْهِدَايَةُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ يَقُومُ بِمَا عَلَيْهِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالرَّبِّ الْقَدِيرِ الْغَنِيِّ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ .

فَإِنْ قُلْتَ فَالْعُمْرُ قَصِيرٌ ، وَهَٰذِهِ :

أى المريدين للخير (الخاشعين المتواضعين المتوكلين المفوضين) لله تعالى (الراضين) بقضائه تعالى (الصابرين) على بلائه تعالى (الخائفين) عذابه (الراجين) رحمته (المخلصين الذاكرين المنة الشاكرين لأنعم سيدهم رب العالمين . ثم تصير بعد ذلك) أى بعد أن كنت من جملة العارفين (من المستقيمين المكرمين الصديقين فتأمل هذا الكلام) الذى ذكرناه (والله تعالى ولي التوفيق ، فان قلت إذا كان الأمر كذلك) أى الذى وصفته من المعرفة والعمل والتوبة وغير ذلك (لقد قل) وندر (من الناس العابد لهذا المعبود والواصل إلى هذا المقصود ومن الذى يقوى على) حمل (هذه المؤن وتحصيل هذه الشرائط والسنن ، فاعلم أن الله تعالى كذلك) أى مثل القلة والندرة (يقول : وقليل من عبادى الشكور ولكن أكثر الناس لا يشكرون لا يعقلون لا يعلمون ، ثم إن ذلك) أى المذكور من العبادة للمعبود والوصول إلى المقصود (يسير) أى سهل وهين (على من يسره) أى سهله (الله تعالى عليه) أى على ذلك المذكور منهما (وعلى العبد الاجتهاد) فى العبادة (وعلى الله سبحانه) أى تفضلا منه تعالى لا وجوبا (الهداية) لأقوم الطريق (قال الله تعالى : والذين جاهدوا فينا) أى فى حقنا (لنهدينهم سبلنا) أى سبيل السير إلينا والوصول إلى جنابنا أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسلوكها (وإذا كان العبد الضعيف يقوم بما) يجب (عليه) من الاجتهاد فى العبادة (فما ظنك بالرب القدير) أى المتمكن من الفعل بلا معالجة ولا واسطة (الغني) أى المستغنى عن كل شىء لا يفتقر إلي شىء (الكريم الرحيم ؟ فان قلت فالعمر قصير وهذه) العقبات المذكورة

عَقَبَاتٌ طَوِيلَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَكَيْفَ يَبْقَى الْعُمْرُ حَتَّى تَكْمُلَ هٰذِهِ الشَّرَائِطَ ، وَتُقْطَعَ هٰذِهِ الْعَقَبَاتُ . فَلَعُمْرِي إِنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ طَوِيلَةٌ وَالشَّرَائِطُ فِيهَا شَدِيدَةٌ ، وَلٰكِنْ إِذَا أَرَادَ اللّٰهُ تَعَالَى أَنْ يَجْتَبِي عَبْدَهُ قَصَّرَ عَلَيْهِ طَوِيلَهَا وَهَوَّنَ عَلَيْهِ شَدِيدَهَا حَتَّى يَقُولَ بَعْدَ قَطْعِهَا : مَا أَقْرَبَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ وَأَقْصَرَهَا ، وَمَا أَهْوَنَ هٰذَا الْأَمْرَ وَأَيْسَرَهُ .

وَفِي مِثْلِ ذٰلِكَ قُلْتُ أَنَا عِنْدَ وُقُوفِي عَلَى هٰذِهِ الْغَايَةِ :

عَلَمُ الْمَحَجَّةِ وَاضِحٌ لِمُرِيدِهِ ... وَأَرَى الْقُلُوبَ عَنِ الْمَحَجَّةِ فِي عَمَى
وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِهَالِكٍ وَنَجَاتُهُ ... مَوْجُودَةٌ وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ نَجَا

حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ فِي سَبْعِينَ سَنَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا فِي عِشْرِينَ سَنَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا فِي عَشْرِ سِنِينَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْصُلُ لَهُ فِي سَنَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا فِي شَهْرٍ بَلْ فِي جُمُعَةٍ ، بَلْ فِي سَاعَةٍ ، حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَحْصُلُ لَهُ فِي لَحْظَةٍ

(عقبات طويلة شديدة فكيف يبقى العمر حتى تكمل هذه الشرائط وتقطع هذه العقبات فلعمرى إن هذه العقبات طويلة) جداً كما تقول أيها القائل (والشرائط فيها) أى فى هذه العقبات (شديدة ولكن إذا أراد الله تعالى أن يجتبي) أى يصطفي ويختار (عبده قصر) سبحانه (عليه) أى العبد (طويلها) أى تلك العقبات (وهون) أى يسر الله (عليه) أى العبد (شديدها حتى يقول) العبد (بعد قطعها) أى مجاوزتها (ما أقرب) فعل تعجب (هذه الطريق وأقصرها) أى هذه الطريق (وما أهون) فعل تعجب أيضا : أى ما أيسر (هذا الأمر وأيسره) مرادف لما قبله (وفى مثل ذلك) الذى يقوله العبد بعد القطع والمجاوزة (قلت : أنا عند وقوفى على هذه الغاية) من بحر الكامل (علم) بفتحتين وهو شىء منصوب فى الطريق يهتدى به (المحجة) أى جادة الطريق (واضح) ظاهر (لمريده .) أى ذلك العلم (وأرى القلوب عن المحجة فى عمى . ولقد عجبت لهالك ونجاته * موجودة ولقد عجبت لمن نجا) أى وهلا كه موجود (حتى أن منهم) أى السالكين (من يقطع هذه العقبات فى سبعين سنة ، ومنهم من يقطعها فى عشرين سنة ، ومنهم من يقطعها فى عشر سنين ، ومنهم من يحصل) قطعها (له فى سنة ومنهم من يقطعها فى شهر بل فى جمعة) أى أسبوع من الأيام (بل فى ساعة حتى أن منهم من يحصل) القطع (له فى لحظة) أى مدة قليلة

بِتَوْفِيقٍ خَاصٍّ وَعِنَايَةٍ سَابِقَةٍ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ .

أَمَا تَذْكُرُ أَصْحَابَ الْكَهْفِ كَيْفَ كَانَتْ مُدَّتُهُمْ خَطْرَةً حَيْثُ رَأَوُا التَّغَيُّرَ فِى وَجْهِ مَلِكِهِمْ دِقْيَانُوسَ فَقَالُوا : (رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا) الْآيَةَ ، حَصَلَتْ لَهُمُ الْمَعْرِفَةُ وَأَبْصَرُوا مَا فِى هٰذِهِ الطَّرِيقِ مِنَ الْحَقَائِقِ ، وَقَطَعُوا هٰذِهِ الطَّرِيقَ فَصَارُوا مُفَوِّضِينَ مُتَوَكِّلِينَ مُسْتَقِيمِينَ ، إِذْ قَالُوا : (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) الْآيَةَ ، وَكُلُّ ذٰلِكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ فِى مِقْدَارِ سَاعَةٍ أَوْ لَحْظَةٍ .

أَمَا تَذْكُرُ سَحَرَةَ فِرْعَوْنَ مَا كَانَتْ مُدَّتُهُمْ إِلَّا لَحْظَةً حَيْثُ رَأَوْا مُعْجِزَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا : (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهٰرُونَ) فَأَبْصَرُوا الطَّرِيقَ وَقَطَعُوهُ فَصَارُوا مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ ، بَلْ أَقَلَّ

(بتوفيق خاص وعناية سابقة من الله سبحانه . أما تذكر أصحاب الكهف كيف كانت مدتهم خطرة حيث رأوا التغير فى وجه ملكهم دقيانوس) الجبار، وهو ممن عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه ، وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحد إلا فتنه عن دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله (فقالوا) أصحاب الكهف (ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه) لن نعبد من دون الله (إلهـا) ربا ، إنما قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأصنام (الآية) أى اقرأ آخرها وهو « لقد قلنا إذا شططا» (حصلت لهم) أى لأصحاب الكهف (المعرفة) أى معرفة ربهم (وأبصروا مافى هذه الطريق من الحقائق وقطعوا هذه الطريق فصاروا مفوضين متوكلين مستقيمين إذ قالوا «فأووا إلى الكهف») أى صيروا اليه أو اجعلوا الكهف مأواكم (ينشر لكم ربكم) أى يبسط الرزق لكم ويوسع لكم (من رحمته) فى الدارين (الآية) أى «ويهيء لكم من أمركم مرفقا» (وكل ذلك)أى المذكور من المعارف والحقائق(إنما حصل لهم فى مقدار ساعة أو لحظة . أما تذكر سحرة فرعون) أى السحرة التى جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل ساحر حبل وعصا ، وقيل كانوا أربعمائة ، وقيل كانوا إثنى عشر ألفا (ما كانت مدتهم إلا لحظة حيث رأوا) أى السحرة (معجزة موسى عليه السلام) وهى عصاه المنقلبة حية (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) وإنما قالوا رب موسى وهرون لأن فرعون كان يدعى الربوبية فأرادوا عزله ، كذا ذكره الخازن (فأبصروا الطريق وقطعوه) أى الطريق (فصاروا من ساعة إلي ساعة بل أقل) من ساعة

مِنَ الْعَارِفِينَ بِاللهِ تَعَالَى ، الرَّاضِينَ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى ، الصَّابِرِينَ عَلَى بَلَائِهِ ، الشَّاكِرِينَ لِآلَائِهِ ، الْمُشْتَاقِينَ إِلَى لِقَائِهِ ، فَنَادَوْا : (لَاضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) .

وَلَقَدْ حَكَيْنَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ، فَعَدَلَ عَنْ ذَٰلِكَ وَقَصَدَ هَٰذِهِ الطَّرِيقَ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مِقْدَارُ سَيْرِهِ مِنْ بَلْخٍ إِلَى مَرْوَرُوذَ حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ أَشَارَ إِلَى رَجُلٍ سَقَطَ مِنَ الْقَنْطَرَةِ فِى الْمَاءِ الْكَثِيرِ هُنَالِكَ أَنْ قِفْ ، فَوَقَفَ الرَّجُلُ مَكَانَهُ فِى الْهَوَاءِ فَتَخَلَّصَ .

وَأَنَّ رَابِعَةَ الْبَصْرِيَّةَ كَانَتْ أَمَةً كَبِيرَةَ السِّنِّ يُطَافُ بِهَا فِى سُوقِ الْبَصْرَةِ ، لَا يَرْغَبُ فِيهَا أَحَدٌ لِكِبَرِ سِنِّهَا ، فَرَحِمَهَا بَعْضُ التُّجَّارِ فَاشْتَرَاهَا بِنَحْوِ مِائَةِ دِرْهَمٍ وَأَعْتَقَهَا ، فَاخْتَارَتْ هَٰذِهِ الطَّرِيقَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى الْعِبَادَةِ ، فَلَمَّا تَمَّتْ لَهَا سَنَةٌ حَتَّى زَارَهَا زُهَّادُ الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهَا وَعُلَمَاؤُهَا لِعِظَمِ مَنْزِلَتِهَا .

وَأَمَّا الَّذِى لَمْ تَسْبِقْ لَهُ الْعِنَايَةُ وَلَمْ يُعَامَلْ بِالْفَضْلِ وَالْهِدَايَةِ فَيُوكَلُ

(من العارفين بالله تعالى الراضين بقضاء الله تعالى الصابرين على بلائه) تعالى (الشاكرين لآلائه) أى نعمائه ، وهو جمع إلى مقصورة بفتح الهمزة أو كسرها مثل سبب وأسباب لكن أبدلت الهمزة التى هى فاء ألفا استثقالا لاجتماع همزتين (المشتاقين إلى لقائه) جل وعز (فنادوا لا ضير إنا إلى ربنا منقبلون) أى لاضرر علينا فيما ينالنا في الدنيا لأنا ننقلب ونصير إلى ربنا فى الآخرة مؤمنين مؤملين غفرانه وهو قولهم «إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين»(ولقد حكينا أن) أبا إسحاق (إبراهيم بن أدهم رحمه الله كان على ما كان عليه من أمر الدنيا) وكان من أبناء الملوك (فعدل) إبراهيم (عن ذلك) أى عما كان عليه من أمر الدنيا (وقصد هذه الطريق فلم يكن إلا مقدار سيره من) بلده (بلخ إلى مروروذ) بلد بخراسان (حتى صار) إبراهيم (بحيث أشار إلى رجل سقط من القنطرة فى الماء الكثير هنالك) أى فى مروروذ (أن قف فوقف الرجل مكانه فى الهواء فتخلص) أى نجا ذلك الرجل وسلم من السقوط (و) قد حكينا أيضا (أن رابعة البصرية كانت أمة كبيرة السن يطاف بها فى سوق البصرة لايرغب فيها) أى فى تلك الأمة الكبيرة (أحد لكبر سنها فرحمها بعض التجار فاشتراها بنحو مائة درهم وأعتقها) المشترى (فاختارت) رابعة (هذه الطريق وأقبلت على العبادة فما) نافية (تمت لها) أى لرابعة (سنة حتى زارها زهاد البصرة وقراؤها وعلماؤها) أى البصرة (لعظم منزلتها) أى رابعة (وأما) الشخص (الذى لم تسبق له العناية) الإلهية (ولم يعامل) بالبناء للمفعول (بالفضل والهداية فيوكل) بالبناء للمفعول أيضاً

إلى نَفْسِهِ ، فَرُبَّمَا يَبْقَى فى شِعْبٍ مِنْ عَقَبَةٍ وَاحِدَةٍ سَبْعِينَ سَنَةً وَلاَ يَقْطَعُهَا ، وَكَمْ يَصِيحُ وَيَصْرُخُ ، مَا أَظْلَمَ هٰذَا الطَّرِيقَ وَأَشْكَلَهُ ، وَأَعْسَرَ هٰذَا الْأَمْرَ وَأَعْضَلَهُ ، فَإِنَّ الشَّأْنَ كُلَّهُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، الْعَدْلِ الْحَكِيمِ .

فَإِنْ قُلْتَ : لِمَ اخْتُصَّ هٰذَا بِالتَّوْفِيقِ الْخَاصِّ وَحُرِمَ هٰذَا ، وَكِلاَهُمَا مُشْتَرِكَانِ فى رِبْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ ؟ فَعِنْدَ هٰذَا السُّؤَالِ يُنَادَى مِنْ سُرَادِقِ الْجَلاَلِ : أَنِ الْزَمِ الْأَدَبَ وَاعْرِفْ سِرَّ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ : (فَإِنَّهُ لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) .

قُلْتُ أَنَا : وَمِثَالُ هٰذَا الطَّرِيقِ فى الدُّنْيَا الصِّرَاطُ فى الآخِرَةِ ، فى عَقَبَاتِهَا وَمَسَافَاتِهَا وَمَقَاطِعِهَا ، وَاخْتِلاَفِ أَحْوَالِ الْخَلْقِ فِيهَا ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ

(إلى نفسه فربما يبقى فى شعب) بالكسر الطريق وقيل الطريق فى الجبل والجمع شعاب (من عقبة واحدة سبعين سنة ولا يقطعها) أى لا يتجاوزها (وكم يصيح ويصرخ) بمعنى واحد (ما أظلم) فعل تعجب (هذا الطريق وأشكله وأعسر هذا الأمر وأعضله) أى أشكله وأصعبه (فإن الشأن كله إلى أصل واحد وذلك) الأصل (تقدير العزيز) أى الغالب بقدرته على كل مقدور (العليم) أى البالغ فى العدل وهو الذى لا يفعل إلا ماله فعله وهو مصدر نعت به للمبالغة فهو من صفات الأفعال (الحكيم) أى ذى الحكمة المحكم الأشياء على ما هى عليه والاتيان بالأفعال على ما ينبغى. فالحكمة بمعنى الأحكام (فان قلت لم) أى لأى شىء (اختص هذا) إشارة إلى من وفقه الله تعالى (بالتوفيق الخاص وحرم) أى منع (هذا) إشارة إلى من لا يوفقه الله تعالى (وكلاهما) أى هذين الرجلين (مشتركان فى ربقة العبودية) الربقة فى الأصل العروة التى يستوثق بها صغار الضأن وإضافتها لما بعدها للبيان : أى فى ربقة هى العبودية أو من إضافة المشبه به للمشبه : أى فى العبودية الشبيهة بالربقة (فعند هذا السؤال ينادى) بالبناء للمفعول (من سرادق الجلال) أى حجبه (أن ألزم الأدب واعرف سر الربوبية وحقيقة العبودية) وقد قيل : العبودية شهود الربوبية وهو سبب عظيم فى دوام العبودية لأن العبد إذا توالت عليه مراقبته لجلال مولاه ذل فى نفسه بالنظر لما هى عليه من جهة طبعها لا بالنظر لما خصها به ربها من كرامته وقيل : من علامات العبودية ترك التدبير وشهود التقدير ، وقال ذو النون المصرى : العبودية أن تكون عبده فى كل حال كما أنه ربك فى كل حال (فإنه) تعالى (لا يسئل عما يفعل) أى عن حكمة ما يفعل سؤال تعنت ، وأما سؤال استرشاد فلا مانع له (وهم) أى العباد (يسئلون . قلت أنا ومثال هذا الطريق) أى طريق العبادة (فى الدنيا الصراط) وهو جسر ممدود فى متن جهنم (فى الآخرة فى عقباتها) أى هذه الطريق (ومسافاتها ومقاطعها واختلاف أحوال الخلق فيها) أى فى تلك الطريق (فمنهم من يمر عليه)

كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالرِّيحِ الْعَاصِفِ ، وَآخَرُ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ ، وَآخَرُ كَالطَّائِرِ ، وَآخَرُ يَمْشِي ، وَآخَرُ يَزْحَفُ حَتَّى يَصِيرَ فَحْمَةً ، وَآخَرُ يَسْمَعُ حَسِيسَهَا ، وَآخَرُ يُؤْخَذُ بِكَلَالِيبَ فَيُطْرَحَ فِى جَهَنَّمَ ؛ فَكَذَٰلِكَ حَالُ هَٰذَا الطَّرِيقِ مَعَ سَالِكِيهِ فِى الدُّنْيَا ، فَهُمَا صِرَاطَانِ : صِرَاطُ الدُّنْيَا ، وَصِرَاطُ الْآخِرَةِ ؛ فَصِرَاطُ الْآخِرَةِ لِلْأَنْفُسِ يَرَى أَهْوَالَهَا أَهْلُ الْأَبْصَارِ ، وَصِرَاطُ الدُّنْيَا لِلْقُلُوبِ يَرَى أَهْوَالَهَا ذَوُو الْبَصَائِرِ وَالْأَلْبَابِ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتِ الْأَحْوَالُ لِلسَّالِكِينَ فِى الْآخِرَةِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ فِى الدُّنْيَا ، فَتَأَمَّلْ ذَٰلِكَ حَقَّهُ ، فَهَٰذِهِ هَٰذِهِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ فصل ﴾ ثُمَّ اعْلَمْ مَا هُوَ التَّحْقِيقُ فِى هَٰذَا الْبَابِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ هَٰذَا الطَّرِيقُ فِى طُولِهِ وَقِصَرِهِ مِثْلَ الْمَسَافَاتِ الْكَائِنَةِ الَّتِى تَسْلُكُهَا الْأَنْفُسُ فَتَقْطَعُهَا

أى على الصراط (كالبرق الخاطف) أى اللامع (ومنهم من يمر عليه) أى الصراط (كالريح العاصف) أى شديد هبوبها (وآخر) يمر عليه (كالفرس الجواد) أى الذى يتحرك بسرعة (وآخر) يمر عليه (كالطائر وآخر يمشى) برجليه وآخر يحبو حبوا (حتى يصير فحمة) وسوادا (وآخر يسمع حسيسها) أى صوت جهنم وآخر يؤخذ بكلاليب) بلا صرف لكونه على صيغة منتهى الجموع جمع كلاب بالضم أو كلوب بالفتح وبتشديد اللام فيهما وهى حديدة معوجة الرأس يختطف بها أو يعلق عليها اللحم ويرسل فى التنور أو عود فى رأسه حديد فيه اعوجاج يجر به الجمر (فيطرح) أى يرمى (فى جهنم فكذلك) أى مثل صراط الآخرة (حال هذا الطريق مع سالكيه فى الدنيا فهما صراطان: صراط الدنيا وصراط الآخرة فصراط الآخرة للأنفس يرى أهوالها) أى صراط الآخرة (أهل الأبصار وصراط الدنيا للقلوب يرى أهوالها) أى صراط الدنيا (ذوو البصائر) أى أصحابها (والألباب) أى العقول (إنما اختلفت أحوال السالكين فى الآخرة لاختلاف أحوالهم) أى السالكين (في الدنيا فتأمل ذلك) الذى ذكرناه من اختلاف أحوال السالكين (حقه) أى حق ذلك المذكور (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة (وبالله التوفيق) .

فصل

(ثم اعلم ما هو التحقيق فى هذا الباب) أى باب سلوك طريق الآخرة (وهو) أى ما هو التحقيق (أنه) أى الحال والشأن (ليس هذا الطريق) أى طريق الآخرة (فى طوله وقصره) أى الطريق (مثل المسافات) الحسية (الكائنة التي تسلكها الأنفس فتقطعها) أى تلك المسافات

بِالْأَقْدَامِ ، فَيَقَعُ قَطْعُهَا عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الْأَنْفُسِ وَضَعْفِهَا ، إِنَّمَا هُوَ طَرِيقٌ رُوحَانِيٌّ تَسْلُكُهُ الْقُلُوبُ فَتَقْطَعُهُ بِالْأَفْكَارِ عَلَى حَسَبِ الْعَقَائِدِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَصْلُهُ نُورٌ سَمَاوِيٌّ ، وَنَظَرٌ إِلٰهِيٌّ ، يَقَعُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ فَيَنْظُرُ بِهِ نَظْرَةً فَيَرَى بِهَا أَمْرَ الدَّارَيْنِ بِالْحَقِيقَةِ ، ثُمَّ هٰذَا النُّورُ رُبَّمَا يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ مِائَةَ سَنَةٍ فَلَا يَجِدُهُ وَلَا أَثَرًا مِنْهُ ، وَذٰلِكَ لِخَطَئِهِ فِي الطَّلَبِ وَتَقْصِيرِهِ فِي الِاجْتِهَادِ وَجَهْلِهِ بِطَرِيقِ ذٰلِكَ ، وَآخَرُ يَجِدُهُ فِي خَمْسِينَ سَنَةً ، وَآخَرُ يَجِدُهُ فِي عَشْرٍ ، وَآخَرُ فِي يَوْمٍ ، وَآخَرُ فِي سَاعَةٍ وَلَحْظَةٍ بِعِنَايَةِ رَبِّ الْعِزَّةِ ، وَهُوَ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ ، لٰكِنِ الْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِالِاجْتِهَادِ ، فَعَلَيْهِ بِمَا أُمِرَ ، وَالْأَمْرُ مَقْسُومٌ مَقْدُورٌ ، وَالرَّبُّ حَكَمٌ عَدْلٌ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا أَعْظَمَ هٰذَا الْخَطَرَ وَأَشَدَّ هٰذَا الْأَمْرَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ هٰذَا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ ، فَكُلُّ هٰذَا الْعَمَلِ وَالْجُهْدِ وَتَحْصِيلُ هٰذِهِ الشَّرَائِطِ لِمَاذَا ؟

فَأَقُولُ لَعَمْرِي : إِنَّكَ لَصَادِقٌ فِي قَوْلِكَ ، إِنَّ الْأَمْرَ شَدِيدٌ ، وَالْخَطَرَ عَظِيمٌ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ تَعَالَى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)

(بالأقدام فيقع قطعها على حسب قوة النفس وضعفها إنما هو) أى هذا الطريق (طريق روحانى تسلكها القلوب فتقطعه) أى الطريق الروحانى (بالأفكار على حسب العقائد والبصائر وأصله نور سماوى ونظر إلهى يقع) أى ذلك النور (فى قلب العبد فينظر به) أى بذلك النور (نظرة فيرى بها) أى بتلك النظرة (أمر الدارين) أى الدنيا والآخرة (بالحقيقة ثم هذا النور ربما يطلبه العبد مائة سنة فلا يجده) أى النور (ولا) يجد (أثرا منه) أى من ذلك النور (وذلك) أى عدم وجدانه لذلك النور (لخطئه) أى العبد (فى الطلب وتقصيره فى الاجتهاد وجهله بطريق ذلك) الطلب (وآخر يجده) أى النور (فى خمسين سنة وآخر يجده فى عشر) من السنين (وآخر) يجده (فى يوم) واحد (وآخر يجده في ساعة ولحظة بعناية رب العزة وهو تعالى ولى الهداية لكن العبد مأمور بالاجتهاد فعليه) أى العبد (بما أمر) من الاجتهاد (والأمر مقسوم مقدور والرب حكم عدل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فان قلت فما أعظم) فعل تعجب (هذا الخطر وأشد هذا الأمر وما أكثر) فعل تعجب أيضاً (ما يحتاج اليه هذا العبد الضعيف فكل هذا العمل والجهد وتحصيل هذه الشرائط لماذا) أى لأى شيء (فأقول لعمرى) أى لواهب عمرى (إنك لصادق فى قولك إن الأمر شديد والخطر عظيم ولذلك) أى لأجل أن الأمر شديد والخطر عظيم (قال تعالى — لقد خلقنا الانسان) الجنس (فى كبد) قال ابن عباس : فى نصب ، وقيل يكابد مصائب

وَقَالَ تَعَالَى : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ

الدنيا وشدائد الآخرة ، وعنه أيضاً قال فى شدة من حمله وولادته ورضاعه وفطامه وفصاله ومعاشه وحياته وموته ، وأصل الكبد الشدة ، وقيل لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق ، وعن ابن عباس أيضاً قال : الكبد الاستواء والاستقامة فعلى هذا يكون المعنى خلقنا الإنسان منتصبا معتدل القامة وكل شىء من الحيوان يمشى منكبا ، وقيل منتصبا رأسه فى بطن أمه فاذا أذن الله فى خروجه انقلب رأسه إلى أسفل ، وقيل فى كبد : أى فى قوة (وقال تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) قال ابن عباس : أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التى فرضها الله على عباده عرضها على السموات والأرض والجبال على أنهم إذا أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم ، وقال ابن مسعود : الأمانة أداء الصلوات وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل فى المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع وقيل جميع ماأمروا به ونهوا عنه ،وقيل هى الصوم وغسل الجنابة ومايخفى من الشرائع . وقال عبدالله ابن عمرو بن العاص : أول ما خلق الله من الإنسان الفرج وقال هذه الأمانة أستودعكها فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له ، وفى رواية عن ابن عباس : هى أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا فى شىء لا فى قليل ولا كثير فعرض الله تعالى هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف فقال لهن أتحملن هذه الأمانة بما فيها ؟ قلن وما فيها ؟ قال إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن . قلن لا يارب نحن مسخرات لأمرك لانريد ثوابا ولا عقابا وقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لدين الله تعالى أن لا يقوموا بها لا معصية ولا مخالفة لأمره وكان العرض عليهن تخييرا لا إلزاما ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لأمره ساجدة له . قال بعض أهل العلم : ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة حتى عقلن وأجبن بما أجبن ، وقيل المراد من العرض على السموات والأرض هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها ، والقول الأول أصح وهو قول العلماء (فابين أن يحملنها وأشفقن منها) أى خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهن بالعقاب (وحملها الإنسان) يعنى آدم . قال الله تعالى عز وجل لآدم : إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها . قال يارب وما فيها . قال إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فتحملها آدم فقال بين أذنى وعاتقى . قال الله : أما إذا تحملت فسأعينك وأجعل لبصرك حجابا فإذا خشيت أن لا تنظر إلى مالا يحل فأرخ عليه حجابا وأجعل للسانك لحيين وغلاقا فإذا خشيت فأغلقه وأجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه على ما حرمت عليك . قال مجاهد : فما كان بين أن تحملها وبين أن أخرج من الجنة إلا مقدار ما بين الظهر والعصر ، وقيل إن ما كلف الإنسان حمله بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الأجرام وأقواه وأشده أن يحتمله ويستقل به فأبى

إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) وَلِذَلِكَ قال سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ :
« لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً » .

وَمَا رُوِيَ أَنَّ الْمُنَادِي يُنَادِي مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ : « لَيْتَ الْخَلْقَ لَمْ يُخْلَقُوا وَلَيْتَهُمْ إِذْ خُلِقُوا

حمله وأشفق منه وحمله الانسان على ضعفه وضعف قوته (إنه كان ظلوما جهولا») قال ابن عباس : إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه وما تحمل من الأمانة ، وقيل ظلوما حين عصى ربه جهولا أى لايدري ما العقاب فى ترك الأمانة ، وقيل ظلوما جهولا حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ولم يف بضمانها . وقيل فى تفسير الآية أقوال أخر : وهو أن الله تعالى ائتمن السموات والأرض والجبال على كل شيء وائتمن آدم وأولاده على شيء فالأمانة فى حق الأجرام العظام هى الخضوع والطاعة لما خلقن له ، وقوله «فأبين أن يحملنها» : أى أدين الأمانة ولم يخن فيها . وأما الأمانة فى حق بنى آدم فهى ما ذكر من الطاعة والقيام بالفرائض ، وقوله «وحملها الانسان» : أى خان فيها وعلى هذا القول حكى عن الحسن أنه قال الانسان هو الكافر والمنافق حملا الأمانة وخانا فيها ، والقول الأول هو قول السلف ، وهو الأولى (ولذلك) أى لأجل قوله وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا (قال سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم : لو علمتم) كذا فى النسخ الكثيرة وفى بعضها : لو تعلمون وهو نسخة العراقى وهو نص الجماعة المخرجين لهذا الحديث (ما أعلم) أى من انتقام الله من أهل الجرائم وأهوال القيامة (لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا) أى كان ضحككم على القلة ، وقيل معناه لما ضحكتم أصلا ، وهذا لمناسبة السياق لأن لو حرف امتناع لامتناع وفيه من أنواع البديع مقابلة الضحك بالبكاء والقلة بالكثرة ومطابقة كل منهما بالآخر ، قال العراقى أخرجاه من حديث عائشة وأنس . وقال الزبيدى : أخرجه أيضا الامام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه كلهم عن أنس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ماسمعت قط بمثلها ثم ذكره : وأخرج الحاكم فى المستدرك من رواية يوسف بن حبان عن مجاهد عن أبى ذر رفعه «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما ساغ لكم الطعام والشراب» وقال على شرطهما ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبى بأنه منقطع ، ورواه أيضا من طريقه ابن عساكر فى التاريخ بتلك الزيادة وأخرج الحاكم أيضا فى كتاب الرقاق والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء رفعه « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون لا تدرون تنجون أو لا تنجون » وقال الحاكم صحيح وأقره الذهبى . وقال الهيتمى : رواه الطبرانى من طريق ابنة أبى الدرداء عن أبيها ولم أعرفها وبقية رجاله رجال الصحيح . وأخرج الحاكم أيضا فى الأهوال عن أبى هريرة رفعه «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا يظهر النفاق و ترتفع الأمانة وتقبض الرحمة ويتهم الأمين ويؤتمن غير الأمين أناخ بكم الشرف الجون : الفتن كأمثال الليل المظلم » وقال صحيح وأقره الذهبى (وما روى أن المنادى ينادى من قبل السماء) أى من جهتها (ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا

عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا ، وَلَيْتَهُمْ إِذْ عَلِمُوا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا » وَكَذَلِكَ يَقُولُ السَّلَفُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ، فَعَنْ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : وَدِدْتُ أَنِّى كُنْتُ خَضْرَاءَ تَأْكُلُنِى الدَّوَابُّ مَخَافَةَ الْعَذَابِ ، وَعَنْ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ إِنْسَانًا يَقْرَأُ : (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) قَالَ لَيْتَهَا تَمَّتْ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ : وَدِدْتُ أَنِّى كَبْشٌ لِأَهْلِى ، فَيَتَفَرَّقَ لَحْمِى وَيَتَحَسَّى مَرَقِى وَلَمْ أُخْلَقْ ، وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ : خُلِقَ ابْنُ آدَمَ أَحْمَقَ ، وَلَوْلَا حُمْقُهُ مَا هَنَأَهُ عَيْشٌ . وَعَنِ الْفَضْلِ بْنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : إِنِّى لَا أَغْبِطُ

علموا لماذا) أى لأى شىء (خلقوا وليتهم إذ علموا عملوا بما علموا وكذلك) أى لأجل ماروى (يقول السلف رضى الله عنهم ، فعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : وددت أنى كنت خضراء) بمعنى الأخضر (تأكلنى الدواب) وذلك (مخافة العذاب) وقال أبو ذر رضى الله عنه : والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم ولاتقاررتم على فرشكم ، والله لوددت أن الله خلقنى يوم خلقنى شجرة تعضد ويؤكل ثمرها ، وقال طلحة بن عبد الله : وددت أنى لم أخلق ، وقال عثمان رضى الله عنه : وددت أنى إذا مت لم أبعث ، وقالت عائشة رضى الله عنها : وددت أنى كنت نسيا منسيا (وعن عمر) بن الخطاب (رضى الله عنه أنه سمع إنسانا يقرأ) قوله تعالى (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . قال) عمر رضى الله عنه (ليتها) أى الحين (تمت) أى بقيت ولم يكن شيئا مذكورا ، وروى أن عمر أخذ يوما تبنة من الأرض فقال : ياليتنى كنت هذه التبنة ياليتنى لم أك شيئا مذكورا ياليتنى كنت نسيا منسيا ياليتنى لم تلدنى أمى ، وكان رضى الله عنه يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد أياما (وقال أبو عبيدة بن الجراح) الصحابى هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال شهد بدرا ، وقتل أباه يومئذ وشهد ما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توفى أبو عبيدة (رضى الله عنه) سنة ثمان عشرة فى طاعون عمواس وهى قرية بالشام وتوفى وهو ابن ثمان وخمسين سنة وختم الله بالشهادة فانه توفى بالطاعون وهى شهادة لكل مسلم ، وفى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » وفى رواية لمسلم : هذا أمين هذه الأمة (وددت أنى كبش لأهلى فيتفرق لحمى ويتحسى مرقى) أى يشربه (ولم أخلق) بالبناء للمفعول (و) روى (عن وهب بن منبه) تقدمت ترجمته رضى الله عنه (أنه قال : خلق ابن آدم أحمق ولولا حمقه ما هناه) وأطيبه (عيش و) روى (عن الفضيل بن عياض) تقدمت ترجمته (رحمه الله قال : إنى لا أغبط) أى لا أتمنى

ملـكا مُقرَّباً وَلاَ نَبيّاً مُرْسَلاً وَلاَ عَبْداً صَالِحاً ، أَلَيسَ هٰؤُلاَءِ يُعاتَبُونَ يَوْمَ القِيامَةِ ، إِنَّمَا أَغْبِطُ مَنْ لَمْ يُخلَقْ ؛ وَعَنْ عَطَاءِ السُّلَمِيِّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : لَوْ أَنَّ نَارًا أُوقِدَتْ وَقِيلَ مَنْ أَلْقَى نَفْسَهُ فِيهَا صَارَ لاَشَيْءَ لَخَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ مِنَ الْفَرَحِ قَبْلَ أَنْ أَصِلَ النَّارَ، فَالأَمْرُ إِذَنْ أَيُّهَا الرَّجُلُ شَدِيدٌ كَمَا تَقُولُ ، بَلْ هُوَ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا تَظُنُّ وَتَتَوَهَّمُ ، وَلَـكِنَّهُ أَمْرٌ سَبَقَ فِى الْعِلْمِ الْقَدِيمِ ، وَتَدْبِيرٍ أَجْرَاهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ، فَلاَ حِيلَةَ لِلْعَبْدِ إِلاَّ بَذْلِ الْمَجْهُودِ فِى الْعُبُودِيَّةِ وَالاِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ وَالاِبْتِهَالِ دَائِماً إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ ، عَسَى أَنْ يَرْحَمَهُ فَيَسْلَمَ بِفَضْلِهِ ، وَأَمَّا قَوْلُكَ كُلُّ هٰذَا لِمَاذَا ؟ فَهٰذَا كَلاَمٌ يَدُلُّ مِنْكَ عَلَى غَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ ،

(ملـكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاتبون يوم القيامة) وفى النسخ الصحيحة يعاينون : أى يشاهدون أهوالها (إنما أغبط من لم يخلق) قال أبو نعيم فى الحلية حدثنا أبو محمد ابن حيان حدثنا أحمد بن الحسين حدثنا أحمـد بن إبراهيم حدثنى محمد بن عيسى عن فضيل بن عياض قال : ما أغبط ملـكا مقربا ولا نبيا مرسلا يعاين القيامة وأهوالها ما أغبط إلا من لم يكن شيئا نقله الزبيدى (و) روى (عن عطاء السلمى رحمه الله) كذا فى أكثر النسخ والصواب السليمى بفتح المهملة وكسر اللام نسبة إلى سليمة بن مالك بن فهم بطن من الأزد زاهد مشهور ويقال له العبدى أيضا ذكره العلامة الزبيدى وكان من الخائفين المشهورين بالخوف حتى يقال إنه نسى القرآن من الخوف ، وكان إذا رأى تنورا يسجر يسقط مغشيا عليه من الخوف وإذا فرغ من وضوئه ارتعد وبكى شديدا وكان لدموعه حوله أثر البلل كأنه أثر الوضوء ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل العفو قاله صاحب الحلية (أنه قال : لو أن نارا أوقدت ، وقيل من ألقى نفسه فيها) أى فى النار (صار لاشىء لخشيت أن أموت من الفرح) أى لأجله (قبل أن أصل النار فالأمر إذن) أى إذا علمت ماقاله عطاء السلمى وغيره (أيها الرجل شديد كما تقول) فيما تقدم : ماأعظم هذا الخطر وأشـد هـذا الأمر (بل هو) أى الأمر (أشـد وأعظم مما تظن وتتوهم ولـكنه) أى الأمر : أى شدته (أمر سبق فى العلم القديم وتدبير أجراه) الله (العزيز العليم فلا حيلة) ولا تدبير . قال الفيومي : والحيلة الحذق فى تدبير الأمور ، وهو تقليب الفـكر حتى يهتدى إلى المقصود (للعبد إلا بذل المجهود فى العبودية والاعتصام) أى الاستمساك (بحبل الله) يعنى القرآن (والابتهال) أى التضرع (دائما إلى الله سـبحانه عسى أن يرحمه) الله (فيسلم) من العذاب (بفضله) تعالى ورحمته (وأما قولك كل هذا) العمل والجهد وتحصيل هذه الشرائط (لماذا) أي لأى شىء (فهذا) الذى تقوله (كلام يدل منك على غفلة عظيمة

بَلِ الصَّوَابُ أَنْ تَقُولَ كُلَّ هٰذَا فِى جَنْبِ مَا يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ مَاذَا ؟ أَتَدْرِى مَايَطْلُبُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ أَقَلَّ مَايَطْلُبُهُ عَلَى الْجُمْلَةِ شَيْئَانِ ، أَحَدُهُمَا : السَّلَامَةُ فِى الدَّارَيْنِ ، وَالثَّانِى : الْمُلْكُ فِى الدَّارَيْنِ ؛ أَمَّا السَّلَامَةُ فِى الدُّنْيَا فَإِنَّ الدُّنْيَا وَآفَاتِهَا وَفِتْنَتَهَا وَغَوَائِلَهَا بِحَيْثُ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَقَدْ سَمِعْتَ حَدِيثَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ حَتَّى رُوِىَ أَنَّهُ إِذَا عُرِجَ بِرُوحِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ تَقُولُ مَلَائِكَةُ السَّمٰوَاتِ مُتَعَجِّبِينَ : كَيْفَ نَجَا هٰذَا مِنْ دَارٍ فَسَدَ فِيهَا خِيَارُنَا ؟ وَأَنَّ الْآخِرَةَ فِى أَهْوَالِهَا وَشَدَائِدِهَا بِحَيْثُ تَصْرُخُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : نَفْسِى نَفْسِى ، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِى ،

بل الصواب أن تقول كل هذا) العمل وغيره (فى جنب مايطلبه العبد الضعيف ماذا) أى أى شىء (أتدرى مايطلب العبد الضعيف) و (أقل مايطلبه) العبد (على الجملة) من غير تفصيل (شيئآن : أحدهما السلامة فى الدارين) أى الدنيا والآخرة (والثانى الملك فى الدارين ، أما السلامة فى الدنيا فان الدنيا وآفاتها وفتنتها وغوائلها) أى دواهيها . قال العلامة عبد الحق : جمع غائلة وهى الداهية والفساد والشر والمهلكة (بحيث لم يسلم منها) أى من الدنيا يعنى آفاتها (الملائكة المقربون ، وقد سمعت حديث هاروت وماروت) اسمان سريانيان من أصلح الملائكة وأعبدهم وقد بسط الكلام على قصتهما الخازن فى تفسيره (حتى روى أنه) أى الشأن (إذا عرج بروح العبد إلى السماء تقول ملائكة السموات متعجبين كيف نجا هذا) العبد (من دار) أى دار الدنيا (فسد فيها) أى فى تلك الدار (خيارنا) أى هاروت وماروت وابليس (وأن الآخرة فى أهوالها وشدائدها بحيث تصرخ) أى تصيح (فيها) أى فى الآخرة (الأنبياء والرسل عليهم السلام نفسى نفسى لاأسألك اليوم إلا نفسى) روى أبو هريرة رضي الله عنه « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض ألا ترون ماقد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ماقد بلغنا ، فيقول لهم آدم عليه السلام إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول لهم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده

حَتى إِنّهُ رُوِيَ : لَوْ كَانَ لِلرَّجُلِ عَمَلُ سَبْعِينَ نَبِيًّا لَظَنَّ أَنّهُ لَنْ يَنْجُو ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ فِتَنِ هٰذِهِ فَلْيَخْرُجْ مِنْهَا بِالْإِسْلَامِ سَالِمًا لَا تُصِيبُهُ بَلِيَّةٌ ، وَمِنْ أَهْوَالِ هٰذِهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ سَالِمًا لَا تُصِيبُهُ نَكْبَةٌ ، أَيَكُونُ هٰذَا أَمْرًا هَيِّنًا ، وَأَمَّا الْمُلْكُ وَالْكَرَامَةُ ، فَإِنَّ الْمُلْكَ نَفَاذُ التَّصَرُّفِ وَالْمَشِيئَةِ ، وَأَنَّ ذٰلِكَ بِالْحَقِيقَةِ فِى الدُّنْيَا لِأَوْلِيَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَصْفِيَائِهِ الرَّاضِينَ بِقَضَائِهِ ، فَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ وَالْأَرْضُ لَهُمْ قَدَمٌ وَاحِدٌ ، وَالْحَجَرُ وَالْمَدَرُ

مثله وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومي نفسى نفسى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله عليه السلام فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول لهم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثلهولا يغضب بعده مثله وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول إن ربى قد غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام ، فيأتون إلىعيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلىمريم وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول عيسى عليه السلام إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى . ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول أمتى أمتى يا رب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . ثم قال والذى نفسى بيده إن بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى »

(حتى إنه) أى الشأن (روى لو كان للرجل عمل سبعين نبيا لظن أنه لا ينجو فمن أراد أن يسلم من فتن هـذه) أى الدنيا (فليخرج منها) أى من الدنيا (بالإسلام سالما لا تصيبه بلية ، ومن أهوال هذه) أى الآخرة (فليدخل الجنة سالما لا تصيبه نـكبة) بفتح النون : أى مصيبة (أيكون هـذا) أى السلامة من ذلك (أمرا هينا) أى سهلا (وأما الملك والـكرامة ، فإن الملك نفاذ التصرف و) نفاذ (المشيئة وأن ذلك) أى نفاذ التصرف والمشيئة (بالحقيقة فى الدنيا لأولياء الله عز وجل وأصفيائه الراضين بقضائه) تعالى (البر والبحر والأرض لهم) أى للأولياء (قدم واحد والحجر والمدر) جمع مدرة مثل قصب وقصبة وهو التراب المتلبد . قال الأزهرى : المدر

لَهُمْ ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ وَالْبَهَائِمُ وَالطَّيْرُ لَهُمْ مُسَخَّرُونَ لَا يَشَاءُونَ شَيْئًا إِلا وَهُوَ كَائِنٌ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَشَاءُونَ إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ ، وَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ ، وَلَا يَهَابُونَ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ وَيَهَابُهُمْ كُلُّ الْخَلْقِ ، وَلَا يَخْدِمُونَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيَخْدُمُهُمْ كُلُّ مَنْ دُونَ اللهِ ، وَأَيْنَ لِمُلُوكِ الدُّنْيَا بِعُشْرِ مَعَاشِرَ هٰذِهِ الرُّتْبَةِ بَلْ هُمْ أَقَلُّ وَأَذَلُّ ، وَأَمَّا مُلْكُ الآخِرَةِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) وَأَعْظِمْ بِمَا يَقُولُ فِيهِ رَبُّ الْعِزَّةِ : (إِنَّهُ مُلْكٌ كَبِيرٌ) وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا قَلِيلَةٌ ، وَأَنَّ بَقَاءَهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا لَقَلِيلٌ ، وَنَصِيبُ أَحَدِنَا مِنْ هٰذَا الْقَلِيلِ قَلِيلٌ ، ثُمَّ الْوَاحِدُ مِنَّا قَدْ يَبْذُلُ مَالَهُ وَرُوحَهُ ، حَتَّى رُبَّمَا يَظْفَرُ بِقَدْرٍ قَلِيلٍ مِنْ هٰذَا الْقَلِيلِ فِي بَقَاءٍ قَلِيلٍ ،

قطع الطين ، وبعضهم يقول الطين العلك الذي لا يخالطه رمل ، والعرب تسمى القرية مدرة لأن بنيانها غالبا من مدر (لهم) أى للأولياء (ذهب وفضة والجن والإنس والبهائم والطير لهم مسخرون) أى مطيعون (لا يشاءون شيئا إلا وهو) أى ذلك الشىء (كائن لهم لا يشاءون إلا ما شاء وما شاء الله كان) وما لم يشأ لم يكن (ولا يهابون) أى لا يخافون (أحدا من الخلق ويهابهم) أى يخافهم (كل الخلق ولا يخدمون أحدا إلا الله عز وجل ويخدمهم كل من دون الله) أى غيره من الخلق (وأين لملوك الدنيا بعشر معاشر هذه الرتبة) وفى نسخة معشر بدل معاشر : العشر جزء من عشرة ، والعشير والمعشار أيضا جزء من عشرة ، ولا يقال مفعال فى شىء من المكسور إلا فى مرباع ومعشار . وقيل المعشار عشر العشير ، والعشير عشر العشر ، وعلى هذا فيكون المعشار واحدا من ألف لأنه عشر عشر العشر (بل هم) أى ملوك الدنيا (أقل وأذل) وأصغر (وأما ملك الآخرة فيقول الله تعالى) فيه (وإذا رأيت ثم) يعنى فى الجنة (رأيت نعيما) أى لا يوصف عظمه (وملكا كبيرا) أى واسعا ، قيل هو أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وقيل هو أن رسول رب العزة لا يدخل عليه إلا بإذنه وهو استئذان الملائكة عليهم ، وقيل معناه ملكا لا زوال له ولا انتقال (وأعظم بما يقول فيه) فعل تعجب (رب العزة إنه) أى ملك الجنة (ملك كبير وأنت تعلم أن الدنيا بأسرها) أى بأجمعها (قليلة وأن بقاءها) أى الدنيا (من أولها إلى آخرها لقليل ونصيب أحدنا من هذا القليل قليل ثم الواحد منا قد يبذل) أى يعطى ويجود ، فى المختار بذل الشىء أعطاه وجاد به وبابه نصر (ماله وروحه حتى ربما يظفر) من باب طرب (بقدر قليل من هذا القليل فى بقاء قليل

وَإِنْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ فَيَعْذرُ بَلْ يُغْبَطُ ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُ مَا بَذَلَ فِيهِ مِنَ الْمَالِ وَالنَّفْسِ ، نَحْوَ مَا ذُكِرَ عَنِ امْرِئِ الْقَيْسِ حَيْثُ يَقُولُ :

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ   وَأَيْقَنَ أَنَّا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا   نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

فَكَيْفَ حَالُ مَنْ يَطْلُبُ الْمُلْكَ الْكَبِيرَ فِي دَارِ النَّعِيمِ الْخَالِدِ الْمُقِيمِ ، أَيَسْتَكْثِرُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى أَوْ يُنْفِقَ دِرْهَمَيْنِ أَوْ يَسْهَرَ لَيْلَتَيْنِ كَلاَّ ، بَلْ لَوْ كَانَ لَهُ أَلْفُ أَلْفِ نَفْسٍ ، وَأَلْفُ أَلْفِ رُوحٍ ، وَأَلْفُ أَلْفِ عُمْرٍ ، كُلُّ عُمْرٍ مِثْلُ عُمْرِ الدُّنْيَا وَأَكْبَرُ وَأَكْثَرُ ، فَبَذَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي هَذَا الْمَطْلُوبِ الْعَزِيزِ ، لَكَانَ ذَلِكَ قَلِيلاً ، وَلَئِنْ ظَفِرَ بَعْدَهُ بِمَطْلَبٍ لَكَانَ ذَلِكَ غُنْماً عَظِيماً ، وَفَضْلاً

وإن حصل له) أي لذلك الواحد (ذلك) أى الكدر القليل (فيعذر بل يغبط) أى الواحد . قال العلامة عبد الحق : وفى النسخ الصحيحة وإن حصل له فبعذاب بل بغبط (ولا يستكثر ما بذل فيه من المال والنفس) وذلك (نحو ما ذكر عن امرىء القيس) وهو الشاعر المشهور الجاهلى ابن حجر بضم الحاء المهملة والجيم الساكنة ويجوز ضمها ابن الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو ابن معاوية بن الحارث بن يغوث بن ثور بن مرتع بضم الميم وفتح الراء وكسر المثناة فوق المشددة ابن معاوية بن كندة (حيث يقول) من بحر الطويل (بكى صاحبى لما رأى الدرب) أى كل مدخل إلى بلاد الروم كما فى سراج السالكين (دونه *) أى عنده (وأيقن أنا لاحقان بقيصرا) قيصر لقب من ملك الروم (فقلت له) أى لصاحبى (لا تبك عينك إنما * نحاول) أى نريد ونطلب ، حاوله محاولة وحوالا : رامه وأراده ، قيل وطلبه بالحيلة (ملكا أو نموت فنعذرا . فكيف حال من يطلب الملك الكبير فى دار النعيم الخالد المقيم) أى الدائم (أيستكثر) أى طالب ذلك (مع ذلك) أى طلب المطلوب العزيز (أن يصلى) الطالب (ركعتين لله تعالى أو ينفق درهمين أو يسهر) من باب طرب : أى لا ينام (ليلتين كلا) ردع عن الاستكثار المذكور (بل لو كان له) أى للطالب المذكور (ألف ألف نفس وألف ألف روح وألف ألف عمر كل عمر مثل عمر الدنيا) وعمر الدنيا سبعة آلاف سنة كما قاله بعضهم (وأكبر وأكثر) من ذلك (فبذل) الطالب (ذلك) الألوف من النفس والعمر (كله فى هذا المطلوب العزيز) وهو الملك الكبير العظيم فى دار النعيم (لكان ذلك) أى بذله ما ذكر (قليلا ولئن ظفر) الطالب ونال (بعده) أى البذل المذكور (بما طلب) من المطلوب العزيز (لكان ذلك) أى ظفره بالمطلوب (غنما عظيما وفضلا

مِنَ الَّذِى أَعْطَاهُ كَثِيرًا ، فَتَنَبَّهْ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ ، ثُمَّ إِنِّى تَأَمَّلْتُ مَا يُعْطِيهِ اللهُ سُبْحَانَهُ الْعَبْدَ إِذَا أَطَاعَهُ وَلَزِمَ خِدْمَتَهُ وَسَلَكَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ عُمْرَهُ ، فَوَجَدْتُهَا عَلَى الْجُمْلَةِ أَرْبَعِينَ كَرَامَةً وَخِلْعَةً ، عِشْرِينَ مِنْهَا فِى الدُّنْيَا ، وَعِشْرِينَ مِنْهَا فِى الْعُقْبَى ؛ أَمَّا الَّتِى فِى الدُّنْيَا فَالْأُولَى : أَنْ يَذْكُرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَيُثْنِى عَلَيْهِ وَأَكْرِمْ بِعَبْدٍ يَكُونُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، يَمُنُّ عَلَيْهِ فِى ذِكْرِهِ وَثَنَائِهِ ، وَالثَّانِيَةُ : أَنْ يَشْكُرَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَيُعَظِّمُهُ ، وَلَوْ شَكَرَكَ مَخْلُوقٌ ضَعِيفٌ مِثْلُكَ وَعَظَّمَكَ لَشَرُفْتَ بِهِ ، فَكَيْفَ بِإِلٰهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَالثَّالِثَةُ : أَنْ يُحِبَّهُ ، وَلَوْ أَحَبَّكَ رَئِيسُ مَحَلَّةٍ أَوْ أَمِيرُ بَلْدَةٍ لَافْتَخَرْتَ بِذٰلِكَ وَانْتَفَعْتَ بِهِ فِى مَوَاطِنَ عَزِيزَةٍ ، فَكَيْفَ بِمَحَبَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَالرَّابِعَةُ : أَنْ يَكُونَ لَهُ وَكِيلًا يُدَبِّرُ أُمُورَهُ . وَالْخَامِسَةُ : أَنْ يَكُونَ لَهُ بِرِزْقِهِ كَفِيلًا يُوَجِّهُهُ إِلَيْهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ أَوْ وَبَالٍ . وَالسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ

من الذى أعطاه كثيرا فتنبه) أى تيقظ (أيها المسكين من رقدة) أى نومة (الغافلين . ثم إنى تأملت ما يعطيه الله سبحانه العبد إذا أطاعه) وعبده (ولزم) أى العبد (خدمته) أى طاعته (وسلك هذه الطريق عمره فوجدتها) أى العطايا (على الجملة) أى من غير تفصيل (أربعين كرامة وخلعة) بكسر الخاء المعجمة : أى عطية (عشرين منها) أى من الأربعين (فى الدنيا وعشرين منها فى العقبى) أى فى الآخرة (أما) الكرامة (التى فى الدنيا فالأولى أن يذكره) أى العبد (الله سبحانه ويثنى عليه) أى على العبد (و أكرم بعبد) فعل تعجب (يكون الله رب العالمين يمن عليه فى ذكره وثنائه . و) الكرامة (الثانية أن يشكره) الله (جل جلاله و) أن (يعظمه) الله سبحانه (ولو شكرك مخلوق ضعيف مثلك وعظمك) ذلك المخلوق (لشرفت به) أى بسبب شكره (فكيف) ما تشرف (بإله الأولين والآخرين . و) الكرامة (الثالثة أن يحبه) أى يحب الله العبد (ولو أحبك رئيس محلة) وقرية (أو أمير بلدة لا فتخرت بذلك) أى محبة الرئيس أو الأمير (وانتفعت به) أى بذلك المحبة (فى مواطن عزيزة فكيف بمحبة رب العالمين . و) الكرامة (الرابعة أن يكون) الله (له) أى للعبد (وكيلا) أى موكولا إليه (يدبر) سبحانه وتعالى (أموره) أى العبد . (و) الكرامة (الخامسة أن يكون) سبحانه وتعالى (له) أى للعبد (برزقه كفيلا) أى ضامنا (يوجهه) أى يوجه الله الرزق (اليه) أى العبد (من حال إلى حال من غير تعب أو وبال) أى ثقيل . (و) الكرامة (السادسة أن يكون) تعالى

لَهُ نَصِيرًا يَكْفِيهِ كُلَّ عَدُوٍّ ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ كُلَّ قَاصِدٍ بِسُوءٍ ، وَالسَّابِعَةُ : أَنْ يَكُونَ لَهُ أَنِيسًا لَا يَسْتَوْحِشُ بِحَالٍ وَلَا يَخَافُ التَّغْيِيرَ وَالِاسْتِبْدَالَ . وَالثَّامِنَةُ : عِزُّ النَّفْسِ ، فَلَا يَلْحَقُهُ ذُلُّ خِدْمَةِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا ، بَلْ لَا يَرْضَى أَنْ تَخْدُمَهُ مُلُوكُ الدُّنْيَا وَجَبَابِرَتُهَا ، وَالتَّاسِعَةُ : رَفْعُ الْهِمَّةِ ، فَيَتَرَفَّعُ عَنِ التَّلَطُّخِ بِأَقْذَارِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى زَخَارِفِهَا وَمَلَاهِيهَا تَرَفُّعَ الرِّجَالِ الْأَلِبَّاءِ عَنْ مَلَاعِبِ الصِّبْيَانِ وَالنِّسْوَانِ ، وَالْعَاشِرَةُ : غِنَى الْقَلْبِ ، فَيَكُونُ أَغْنَى مِنْ كُلِّ غَنِيٍّ فِى الدُّنْيَا لَا يَزَالُ طَيِّبَ النَّفْسِ ، فَسِيحَ الصَّدْرِ ، لَا يَفْزَعُهُ حَدَثٌ وَلَا يَهُمُّهُ عُدْمٌ ، وَالْإِحْدَى عَشْرَةَ : نُورُ الْقَلْبِ فَيَهْتَدِى بِنُورِ قَلْبِهِ إِلَى عُلُومٍ وَأَسْرَارٍ وَحِكَمٍ لَا يَهْتَدِى إِلَى بَعْضِهَا غَيْرُهُ إِلَّا بِجُهْدٍ جَهِيدٍ ، وَعُمْرٍ مَدِيدٍ . وَالثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : شَرْحُ الصَّدْرِ ، فَلَا يَضِيقُ ذَرْعًا بِشَىْءٍ مِنْ مِحَنِ الدُّنْيَا وَمَصَائِبِهَا وَمُؤَنِ النَّاسِ وَمَكَايِدِهِمْ . وَالثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : الْمَهَابَةُ ، وَالْمَوْقِعُ فِى نُفُوسِ النَّاسِ يَحْتَرِمُهُ الْأَخْيَارُ ، وَالْأَشْرَارُ ، وَيَهَابُهُ كُلُّ فِرْعَوْنَ

(له) أى للعبد (نصيرا يكفيه كل عدو ويدفع) سبحانه (عنه) أى عن العبد (كل قاصد بسوء و) الكرامة (السابعة أن يكون) تعالى (له أنيسا لا يستوحش) العبد (بحال) من أحواله (ولا يخاف التغيير والاستبدال . و) الكرامة (الثامنة عز النفس) وشرفها (فلا يلحقه) أى العبد (ذل خدمة الدنيا وأهلها ، بل لا يرضى أن تخدمه ملوك الدنيا وجبابرتها) أى الدنيا . (و) الكرامة (التاسعة رفع الهمة فيرتفع) العبد (عن التلطخ) والتلوث (بأقذار الدنيا وأهلها ولا يلتفت) بقلبه (إلى زخارف الدنيا وملاهيها ترفع الرجال) أى كترفع الرجال (الألباء) أى العقلاء (عن ملاعب الصبيان والنسوان و) الكرامة (العاشرة غنى القلب فيكون أغنى من كل غنى فى الدنيا لا يزال طيب النفس فسيح) أى واسع (الصدر لا يفزعه حدث) أى أمر حدث كوجود المال عنده (ولا يهمه) أى لا يحزنه (عدم) أى فقد المال مثلا . (و) الكرامة (الاحدى عشرة نور القلب فيهتدى) العبد (بنور قلبه إلى علوم وأسرار وحكم) بالكسرة جمع حكمة (لا يهتدى إلى بعضها) أى تلك العلوم والأسرار والحكم (غيره) أى غير العبد المنور قلبه (إلا بجهد جهيد) أى شديد (وعمر مديد) أى طويل . (و) الكرامة (الثانية عشرة شرح الصدر فلا يضيق) العبد (ذرعا) أى قلبا أو صدرا (بشىء من محن الدنيا ومصائبها و) من (مؤن الناس ومكايدهم) ومكرهم . (و) الكرامة (الثالثة عشرة المهابة) أى المخافة (والموقع فى نفوس الناس) أى قلوبهم (يحترمه) أى العبد (الأخيار والأشرار ويهابه) أى يخافه (كل فرعون) أى كل عات متمرد

وَجَبَّارٍ . وَالرَّابِعَةَ عَشْرَةَ المَحَبَّــةُ فِى الْقُلُوبِ ، يَجْعَلُ لَهُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا ، فَتَرَى الْقُلُوبَ كُلَّهَا مَجْبُولَةً عَلَى حُبِّهِ ، وَالنُّفُوسَ كُلَّهَا بِأَجْمَعِهَا مَطْبُوعَةً عَلَى تَعْظِيمِهِ وَإِكْرَامِهِ . وَالْخَامِسَةَ عَشْرَةَ الْبَرَكَةُ الْعَامَّةُ فِى كُلِّ شَىْءٍ مِنْ كَلَامٍ أَوْ نَفْسٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ ثَوْبٍ أَوْ مَكَانٍ ، حَتَّى يَتَبَرَّكَ بِتُرَابٍ وَطِئَهُ ، وَبِمَكَانٍ جَلَسَ فِيهِ يَوْمًا ، وَبِإِنْسَانٍ صَحِبَهُ وَرَآهُ حِينًا ، وَالسَّادِسَةَ عَشْرَةَ تَسْخِيرُ الْأَرْضِ مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِنْ شَاءَ سَارَ فِى الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ ، أَوْ قَطَعَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِأَقَلَّ مِنْ سَاعَةٍ . وَالسَّابِعَةَ عَشْرَةَ تَسْخِيرُ الْحَيَوَانِ مِنَ السِّبَاعِ وَالْوُحُوشِ ، وَالْهَوَامِّ وَغَيْرِهَا فَتُحِبُّهُ الْوُحُوشُ وَتُبَصْبِصُ لَهُ الْأُسُودُ ، وَالثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِلْكُ مَفَاتِيحِ الْأَرْضِ ، فَحَيْثُمَا يَضْرِبُ بِيَدِهِ فَلَهُ كَنْزَانِ أَرَادَ وَحَيْثُمَا يَضْرِبُ بِرِجْلِهِ فَلَهُ عَيْنُ مَاءٍ إِنِ احْتَاجَ وَأَيْنَمَا نَزَلَ فَلَهُ مَائِدَةٌ تَحْضُرُهُ إِنْ قَصَدَ ، وَالتَّاسِعَةَ عَشْرَةَ الْقِيَادَةُ وَالْوَجَاهَةُ عَلَى بَابِ رَبِّ الْعِزَّةِ فَيَبْتَغِى الْخَلْقُ الْوَسِيلَةَ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَى بِخِدْمَتِهِ ، وَيَسْتَنْجِحُ الْحَاجَاتِ مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى بِوَجَاهَتِهِ وَبَرَكَتِهِ ، وَالْعِشْرُونَ

(وجبار) أى متكبر . (و) الكرامة (الرابعة عشرة المحبة فى القلوب يجعل له الرحمن ودا) أى مودة (فترى القلوب كلها مجبولة) أى مطبوعة (على حبه) أى العبد (و) ترى (النفوس كلها بأجمعها مطبوعة على تعظيمه وإكرامه . و) الكرامة (الخامسة عشرة البركة العامة فى كل شىء من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان حتى يتبرك بتراب وطئه وبمكان جلس) أى العبد (فيه) أى فى ذلك المكان (يوما) من الأيام (وبإنسان صحبه) أى صحب الإنسان ذلك العبد المكرم (ورآه حينا) أى زمانا . (و) الكرامة (السادسة عشرة تسخير الأرض من البر والبحر حتى شاء) العبد (سار فى الهواء أو مشى على الماء أو قطع) أى جاوز (وجه الأرض بأقل من ساعة . و) الكرامة (السابعة عشرة تسخير الحيوان من السباع والوحوش والهوام وغيرها فتحبه) أى العبد (الوحوش وتبصبص له الأسود) أى تحرك ذنبها والأسود جمع أسد . (و) الكرامة (الثامنة عشرة ملك مفاتيح الأرض ، فحيثما يضرب) العبد (بيده فله كنزان أراد) ذلك الكنز (وحيثما يضرب برجله فله عين ماء) أى منبعه (إن احتاج) ذلك (وأينما نزل فله مائدة تحضره إن قصد) إحضارها . (و) الكرامة (التاسعة عشرة القيادة والوجاهة على باب رب العزة) جل جلاله (فيبتغى) أى يطلب (الخلق الوسيلة إلى الله تعالى بخدمته) أى خدمة ذلك العبد المكرم (ويستنجح الحاجات) أى يطلب الخلق نجاح الحاجات وظفرها (من الله تعالى بوجاهته) أى العبد (وبركته . والعشرون) من

إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، فَلَا يَسْأَلِ اللهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ وَلَا يَشْفَعُ لِأَحَدٍ إِلَّا شُفِّعَ ، وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى لَأَبَرَّهُ بِمَا شَاءَ ، حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَشَارَ إِلَى جَبَلٍ لَزَالَ ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى السُّؤَالِ بِاللِّسَانِ ، وَلَوْ خَطَرَ بِبَالِهِ شَيْءٌ لَحَضَرَ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ ، فَهَذِهِ كَرَامَاتٌ فِى الدُّنْيَا ، وَأَمَّا الَّتِي فِي الْعُقْبَى : فَالْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ أَنْ يُهَوِّنَ اللهُ عَلَيْهِ أَوَّلًا سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ، وَهِيَ الَّتِي وَجِلَتْ قُلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فِيهَا حَتَّى سَأَلُوا اللهَ أَنْ يُهَوِّنَهَا عَلَيْهِمْ ، حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ الْمَوْتُ عِنْدَهُ مِثْلَ شُرْبَةِ الْمَاءِ الزُّلَالِ لِلظَّمْآنِ ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ

الكرامات (إجابة الدعوة) مرة من الدعاء (من الله تعالى فلا يسأل الله شيئا إلا أعطاه) أى أعطى الله مسئول ذلك العبد (ولا يشفع لأحد إلا شفع) أى قبلت شفاعته (ولو أقسم على الله تعالى لأبره) أى قسمه (بما شاء حتى إن منهم) أى السالكين (من لو أشار إلى جبل لزال) ذلك الجبل عن مكان قراره (فلا يحتاج إلى السؤال باللسان ولو خطر) بالبناء للمفعول (بباله) أى بقلبه (شيء لحضر) ذلك الشيء (ولا يحتاج إلى الإشارة باليد ، فهذه) العشرون (كرامات فى الدنيا . وأما) الكرامات (التى فى العقبى فالحادية والعشرون) من الكرامات (أن يهون) أى يسهل (الله عليه) أى العبد (أولا سكرة الموت) وشدته (وهى) أي السكرات (التى وجلت) أى خافت (قلوب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيها) أى فى تلك السكرات (حتى سألوا الله أن يهونها) أى يسهلها (عليهم) أى الأنبياء ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم هون على سكرات الموت » ، وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يهون على هذه السكرة : يعنى الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفى من الموت على الموت رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت . وقال القرطبى : لتشديد الموت على الأنبياء عليهم السلام فائدتان : إحداهما تكميل فضائلهم ورفع درجاتهم ، وليس ذلك نقصا ولا عذابا ، بل هو كما جاء « إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » والثانية أن تعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن ، وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقا ، بل يرى سهولة خروج روحه فيظن سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميت فيه فلما ذكر الأنبياء الصادقون فى خبرهم شدة ألمه مع كرامتهم على الله تعالى قطع الخلق بشدة الموت الذى يقاسيه الميت مطلقا لأخبار الصادقين عنه ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما ثبت فى الحديث (حتى إن منهم) أى السالكين (من يكون الموت عنده مثل شربة الماء الزلال) أى العذب (للظمآن) أى للعطشان (قال الله عز وجل) « كذلك يجزى الله المتقين » (الذين تتوفاهم

الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِين) وَالثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : الثَّبَاتُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ وَالْإِيمَانِ ، وَهُوَ الَّذِى مِنْهُ كُلُّ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ ، وَعَلَيْهِ كُلُّ الْبُكَاءِ وَالْجَزَعِ ، قَالَ اللهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :(يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ)

الملائكة طيبين) يعنى ظاهرين من الشرك . قال مجاهد : زاكية أقوالهم وأفعالهم ، وقيل أن قول طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن فيدخل فيه أنهم أتوا بكل ما أمروا به من فعل الخيرات والطاعات واجتنبوا كل ما نهوا عنه من المكروهات مع الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة والمباعدة من الأخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة ، وقيل معناه أن أوقاتهم تكون طيبة سهلة لأنهم يشربون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج فيسهل عليهم قبض أرواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة ،(و) الكرامة (الثانية والعشرون : الثبات على المعرفة والايمان وهو) أي الثبات عليهما (الذى منه كل الخوف والفزع) من أن يزول ذلك (وعليه) أى الثبات : أى زواله (كل البكاء والجزع ، قال الله عز من قائل « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ») وهى الكلمة الطيبة وهى شهادة أن لا إله إلا الله فى قول جمهور المفسرين (فى الحياة الدنيا) يعنى في القبر عند السؤال (وفى الآخرة) يعنى يوم القيامة عند البعث والحساب . وهذا القول واضح ويدل عليه ما روى عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » ، فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » قال نزلت فى عذاب القبر . زاد فى رواية يقال له من ربك ؟ فيقول ربى الله ونبى محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه البخارى ومسلم ، روى عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهت إلى القبر ولما يلحد بعد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير وبيده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم « فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا » زاد فى رواية وقال إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له ياهذا من ربك وما دينك ومن نبيك ، وفى رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول الله ربى فيقولان له ومادينك؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله فيقولان وما يدريك؟ فيقول قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت . زاد فى رواية فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ثم لقناه . قال فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوا له من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفتح له فى قبره مد بصره . وإن كان الكافر فذكر موته . قال فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما هذا الرجل الذى بعث

وَالثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ إِرْسَالُ الرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ وَالْبُشْرَى وَالرِّضْوَانِ وَالْأَمَانِ ، قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فَلَا يَخَافُ مِمَّا يَقْدُمُ عَلَيْهِ فِي الْعُقْبَى ، وَلَا يَحْزَنُ عَلَى مَا خَلَّفَهُ فِي الدُّنْيَا . وَالرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : الْخُلُودُ فِي الْجِنَانِ ، وَمُجَاوَرَةِ الرَّحْمٰنِ . وَالْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ : الْجَلْوَةُ فِي السِّرِّ لِرُوحِهِ ، فَيَعْرُجُ عَلَى مَلَائِكَةِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْإِكْرَامِ وَالْإِلْطَافِ وَالْإِنْعَامِ وَلِبَدَنِهِ فِي الْعَلَانِيَةِ بِتَعْظِيمِ جِنَازَتِهِ وَالْمُزَاحَمَةِ عَلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى تَجْهِيزِهِ ، يَرْجُونَ بِذٰلِكَ أَكْثَرَ ثَوَابٍ ، وَيَعُدُّونَهُ أَعْظَمَ غُنْمٍ .

فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن قد كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه . زاد فى رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبلا لصار ترابا فيضربه بها ضربة يسمعها من بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح » أخرجه أبو داود ، عن عثمان بن عفان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبت فانه الآن يسئل أخرجه أبو داود . (و) الكرامة (الثالثة والعشرون إرسال الروح) أى الاستراحة (والريحان) أى الرزق الطيب (والبشرى) بالجنة (والرضوان والأمان) يدل على ذلك (قوله سبحانه وتعالى) « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة » (أن لا تخافوا) أى من الموت ، وقيل لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة (ولا تحزنوا) أى على ما خلفتم من أهل وولد فإنا نخلفكم فى ذلك كله ، وقيل لا تخافوا من ذنوبكم ولا تحزنوا فأنا أغفرها لكم (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) فى الدنيا على لسان الرسل . وقال محمد بن على الترمذى : تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند مفارقة الأرواح الأبدان أن تخافوا سلب الإيمان ولا تحزنوا على ماكان من العصيان وأبشروا بدخوله الجنان التى كنتم توعدون فى سالف الزمان (فلا يخاف العبد (مما يقدم عليه فى العقبى) أى فى الآخرة (ولا يحزن على ما خلفه) من أهل وولد (فى الدنيا و) الكرامة (الرابعة والعشرون الخلود فى الجنان ومجاورة الرحمن) مجاورة معنوية . (و) الكرامة (الخامسة والعشرون الجلوة فى السر لروحه) يقال جلوت : أى أوضحت وكشفت ، وفى نسخة الحياة فى السر لروحه كما قال العلامة عبد الحق (فيعرج) روحه (على ملائكة السموات والأرض بالإكرام والألطاف والانعام ولبدنه فى العلانية بتعظيم جنازته والمزاحمة على الصلاة عليه) أى على ميته (والمبادرة إلى تجهيزه يرجون) أى الناس (بذلك) أى بتعظيم جنازته وغيره (أكثر ثواب ويعدونه) أى ذلك التعظيم ونحوه (أعظم غنم) أى منفعة ، (و) الكرامة

وَالسَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: الأَمَانُ مِنْ فِتْنَةِ سُؤَالِ الْقَبْرِ وَتَلْقِينِ الصَّوَابِ، فَيَأْمَنُ مِنْ ذَلِكَ الْهَوْلِ، وَالسَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: تَوْسِيعُ الْقَبْرِ وَتَنْوِيرُهُ، فَيَكُونُ فِى رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ: إِينَاسُ رُوحِهِ وَنَسَمَتِهِ وَإِكْرَامِهَا، فَتُجْعَلُ فِى أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ مَعَ الإِخْوَانِ الصَّالِحِينَ، فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَالتَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: الْحَشْرُ فِى الْعِزِّ وَالْكَرَامَةِ، مِنْ حُلَلٍ وَتَاجٍ وَبُرَاقٍ. وَالثَّلاثُونَ: بَيَاضُ الْوَجْهِ وَنُورُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) وَقَالَ (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) وَالْحَادِيَةُ وَالثَّلاثُونَ: الأَمْنُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (أَمْ مَنْ يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(السادسة والعشرون الأمان من فتنة سؤال القبر وتلقين الصواب) للجواب إن كان يسئل (فيأمن من ذلك الهول) أى هول السؤال. (و) الكرامة (السابعة والعشرون توسيع القبر وتنويره فيكون) العبد (فى روضة من رياض الجنة) أى والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من النار كما فى الخبر (إلى يوم القيامة. و) الكرامة (الثامنة والعشرون إيناس روحه) أى العبد (ونسمته) قال العلامة عبد الحق: النسمة نفس الروح (وإكرامها) أى الروح (فتجعل) أى تلك الروح (فى أجواف طير خضر مع الأخوان الصالحين فرحين مستبشرين بما آتاهم الله تعالى من فضله) ورحمته. (و) الكرامة (التاسعة والعشرون الحشر فى العز) والشرف (والكرامة من حلل وتاج) أى إكليل (وبراق) من دواب الجنة. (و) الكرامة (الثلاثون بياض الوجه ونوره. قال الله تعالى: وجوه) هى وجوه المؤمنين (يومئذ) أى يوم القيامة (ناضرة) من النضارة وهى الحسن، وقال ابن عباس: حسنة وقيل مسرورة بالنعيم، وقيل ناعمة. وقيل مسفرة مضيئة، وقيل بيض يعلوها نور وبهاء، وقيل مشرقة بالنعيم إلى (ربها ناظرة) بلا كيفية ولا جهة ولا ثبوت مسافة وحمل النظر على الانتظار لأمر ربها أو لثوابه لا يصح لأنه يقال نظرت فيه: أى تفكرت ونظرته انتظرت ولا يعدى بإلى إلا بمعنى الرؤية مع أنه لايليق الانتظار فى دار القرار كما ذكره النسفى وقال عز وجل (وجوه) أى وجوه المؤمنين المصدقين فى إيمانهم (يومئذ) يوم القيامة (مسفرة) أى مشرقة مضيئة من أسفر الصبح إذا أضاء، وقيل مسفرة من قيام الليل، وقيل من أثر الوضوء وقيل من الغبار فى سبيل الله (ضاحكة) أى عند الفراغ من الحساب (مستبشرة) أى مسرورة بما تنال من كرامة الله ورضوانه. (و) الكرامة (الحادية والثلاثون الأمن من أهوال يوم القيامة قال الله تعالى) « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير (أم من يأتى آمنا يوم القيامة) المعنى الذين يلحدون فى آياتنا يلقون فى النار والذين يؤمنون بآياتنا

وَالثانيةُ وَالثَّلاثونَ : الْكِتَابُ بِالْيَمِينِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَى الْكِتَابَ رَأْسًا . وَالثَّالِثَةُ وَالثَّلاثُونَ : تَيْسِيرُ الْحِسَابِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُحَاسَبُ أَصْلاً . وَالرَّابِعَةُ وَالثَّلاثُونَ : ثِقَلُ الْمِيزَانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُوقَفُ لِلْوَزْنِ أَصْلاً . وَالْخَامِسَةُ وَالثَّلاثُونَ : وُرُودُ الْحَوْضِ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَيَشْرَبُ شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا . وَالسَّادِسَةُ وَالثَّلاثُونَ : جَوَازُ الصِّرَاطِ وَالنَّجَاةُ مِنَ النَّارِ ، حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لاَ يَسْمَعُ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا أُشْتُهِتْ

آمنون يوم القيامة . قيل هو حمزة ، وقيل عثمان ، وقيل عمار بن ياسر . (و) الكرامة (الثانية والثلاثون الكتاب) أى أخذه (باليمين) قال الله تعالى « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أنى ملاق حسابيه » وقال تعالى « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا » (ومنهم) أى من عباد الله الصالحين (من كفى الكتاب رأسا . و) الكرامة (الثالثة والثلاثون تيسير الحساب ، ومنهم من لا يحاسب أصلا) ففي الحديث « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا ليس عليهم حساب فقيل له هلا استزدت ربك ؟ فقال استزدته فزادني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا فقيل له هلا استزدت ربك فقال استزدته فزادنى ثلاث حثيات بيده الكريمة » أو كما ورد والثلاث حثيات ثلاث دفعات من غير عدد فهؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب ، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى الرحمة فيدخل الجنة من غير حساب، كان من الكافرين من يكون أدنى إلى الغضب فيدخل النار من غير حساب فطائفة تدخل الجنة بلا حساب وطائفة تدخل النار بلا حساب وطائفة توقف للحساب فلا تنافى بين النصوص فى مثل ذلك ، كذا قاله العلامة إبراهيم البيجورى . (و) الكرامة (الرابعة والثلاثون : ثقل الميزان) قال الله تعالى « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » (ومنهم من لا يوقف للوزن أصلا) وهم الأنبياء والملائكة ، ومن يدخل الجنة بغير حساب فإنه فرع عن الحساب ولا مانع من وزن سيئات الكفار ليجازوا عليها بالعقاب فقوله تعالى « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » معناه لا نقيم لهم يوم القيامة وزنا نافعاً . (و) الكرامة (الخامسة والثلاثون ورود الحوض على النبى صلى الله عليه وسلم فيشرب شربة لا يظمأ) أي لا يعطش (بعدها) أى بعد الشربة (أبدا) ففى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما : حوضى مسيرة شهر وزواياه سواء ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه أكثر من نجوم السماء من شرب منه فلا يظمأ أبدا . (و) الكرامة (السادسة والثلاثون جواز الصراط) أى مروره (والنجاة من النار) والحكمة فى مرورهم على الصراط ظهور النجاة من النار وأن يتحسر الكفار بفوز المؤمنين بعد اشتراكهم فى المرور (حتى إن منهم) أى من الصالحين (من لا يسمع حسيسها) أى صوتها : أى النار (وهم فيما اشتهت

أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ، وَتَخْمُدُ لَهُمُ النَّارُ . وَالسَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : الشَّفَاعَةُ فِى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ نَحْوًا مِنْ شَفَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ، وَالثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ : مِلْكُ الْأَبَدِ فِى الْجَنَّةِ . وَالتَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : الرِّضْوَانُ الْأَكْبَرُ ، وَالْأَرْبَعُونَ : لِقَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، إِلٰهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، بِلَا كَيْفٍ جَلَّ جَلَالُهُ

ثُمَّ أَقُولُ : وَإِنَّمَا عَدَدْتُ ذٰلِكَ عَلَى حَسَبِ فَهْمِى وَمَبْلَغِ عِلْمِى فِى قُصُورِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ أَجْمَلْتُ وَأَوْجَزْتُ ، وَذَكَرْتُ الْأُصُولَ وَالْجُمَلَ ، وَلَوْ فَصَّلْتُ بَعْضَ ذٰلِكَ لَمَا احْتَمَلَهُ الْكِتَابُ ، أَلَا تَرَى أَنِّى جَعَلْتُ مُلْكَ الْأَبَدِ خِلْعَةً وَاحِدَةً ، وَلَوْ فَصَّلْتُهَا لَارْتَفَعَتْ عَلَى أَرْبَعِينَ خِلْعَةً مِنْ نُورِ الْحُورِ وَالْقُصُورِ وَاللِّبَاسِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ ، ثُمَّ كُلُّ نَوْعٍ يَشْتَمِلُ عَلَى تَفَاصِيلَ لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، الَّذِى هُوَ خَالِقُهَا وَمَالِكُهَا ، وَأَىُّ مَطْمَعٍ لَنَا فِى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ ،

أنفسهم خالدون وتخمد) أى تموت (لهم النار . و) الكرامة (السابعة والثلاثون الشفاعة) وهى لغة الوسيلة والطلب ، وعرفا سؤال الخير من الغير للغير وشفاعة المولى عبارة عن عفوه فإنه تعالى يشفع فيمن قال لا إله إلا الله ، وأثبت الرسالة للرسول الذى أرسل اليه ولم يعمل خيرا قط فيتفضل الله تعالى عليه بعدم دخوله النار بلا شفاعة أحد (فى عرصات القيامة نحوا من شفاعة الأنبياء والرسل) وغيرهم من الملائكة والصحابة والشهداء والعلماء العاملين والأولياء . (و) الكرامة (الثامنة والثلاثون ملك الأبد فى الجنة . و) الكرامة (التاسعة والثلاثون الرضوان الأكبر) من الله تعالى . (و) الكرامة (الأربعون لقاء رب العالمين إله الأولين والآخرين بلا كيف) ولا جهة ولا انحصار بالزمان والمكان (جل جلاله) وبالله التوفيق (ثم أقول وإنما عددت ذلك) أى المذكور من الكرامات (على حسب فهمي ومبلغ علمى فى قصوره) أى فهمى وعلمى (ونقصه ومع ذلك) أى حسب علمي ومبلغ فهمى (فقد أجملت وأوجزت) أى اختصرت (وذكرت الأصول والجمل) بضم الجيم وفتح الميم جمع جملة (ولو فصلت) وبينت (بعض ذلك) أى ما ذكر من الكرامات (لما احتمله) أى التفصيل هذا (الكتاب) لكثرة ذلك التفصيل وطوله (ألا ترى أنى جعلت ملك الأبد خلعة واحدة ولو فصلتها) أى تلك الخلعة الواحدة (لارتفعت على أربعين خلعة من نوع الحور والقصور واللباس وغير ذلك) من النعيم .

(ثم كل نوع يشتمل على تفاصيل) كثيرة (لا يحيط بها) أى تلك التفاصيل (إلا عالم الغيب والشهادة الذى هو خالقها ومالكها ، وأى مطمع) أى طمع (لنا فى معرفة ذلك) المذكور من

وَرَبُّنَا سُبْحَانَهُ يَقُولُ : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « خَلَقَ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » وَإِنَّ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي) إِنَّ هٰذِهِ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي يَقُولُهَا اللهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ بِاللُّطْفِ وَالْإِكْرَامِ وَمَا تَكُونُ حَالُهُ هٰذِهِ ، فَأَنَّى نَبْلُغُ جُزْءًا مِنْ أَلْفِ أَلْفِ جُزْءٍ مِنْهُ وَنَحْنُ بَشَرٌ ، أَوْ كَيْفَ يُحِيطُ بِهِ عِلْمُ مَخْلُوقٍ ، كَلَّا بَلْ تَقَاعَدَتِ الْهِمَمُ ، وَتَقَاصَرَتْ دُونَهُ الْعُقُولُ ، وَحَقٌّ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ ، وَهُوَ عَطَاءُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ عَلَى مُقْتَضَى الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، وَحَسَبِ الْجُودِ الْقَدِيمِ ، أَلَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ، وَلْيَبْذُلِ الْمُجْتَهِدُونَ جُهْدَهُمْ لِهٰذَا الْمَطْلُوبِ الْعَظِيمِ ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ أَقَلُّ قَلِيلٍ فِي جَنْبِ مَا هُمْ إِلَيْهِ مُحْتَاجُونَ ، وَإِيَّاهُ يَطْلُبُونَ ، وَلَهُ يَتَعَرَّضُونَ ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ الْعَبْدَ لَا بُدَّ لَهُ فِي الْجُمْلَةِ

التفاصيل (وربنا سبحانه) وتعالى (يقول « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين») أى مما تقر به أعينهم فلا يلتفتون إلى غيره . قال ابن عباس : هذا مما لا تفسير له ، وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم (ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خلق فيها) أى فى الجنة (مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) رواه الشيخان عن أبى هريرة (وأن المفسرين يقولون فى) تفسير (قوله تعالى لنفد البحر) أى لنفد جنس البحر بأسره لأن كل جنس متناه (قبل أن تنفد كلمات ربى) فانها غير متناهية لا تنفد كعلمه (أن هذه) الكلمات التى لا تنفد (هى الكلمات التى يقولها الله تعالى لأهل الجنة في الجنة باللطف والإكرام وما تكون حاله) من النعيم (هذه)الحال المذكورة من عدم الحصر (فأنى) أى كيف (نبلغ جزأ من ألف ألف جزء منه) أى من النعيم الذى تكون حاله ما ذكر (ونحن بشر) أى آدمى (أو كيف يحيط به علم مخلوق كلا) أى لا نبلغ جزأ مما ذكر ولا يحيط به علم مخلوق (بل تقاعدت الهمم) جمع همة (وتقاصرت دونه) أى عنده (العقول وحق أن يكون ذلك) أى ما تكون حاله ما ذكر (كذلك) أى تقاعدت الهمم وتقاصرت عنده العقول (وهو) أى الذى تكون الحال ما ذكر (عطاء العزيز العليم على مقتضى الفضل العظيم وحسب الجود القديم ، ألا فليعمل العاملون وليبذل المجتهدون جهدهم لهذا المطلوب العظيم وليعلموا) أى العاملون والمجتهدون (أن ذلك) أى عملهم واجتهادهم (كله أقل قليل فى جنب ما هم إليه محتاجون) من أنواع الكرامة (وإياه يطلبون) أى هؤلاء العاملون والمجتهدون (وله يتعرضون وليعلموا أن العبد لا بد له فى الجملة) من غير تفصيل

مِنْ أَرْبَعَةٍ : الْعِلْمُ ، وَالْعَمَلُ ، وَالْإِخْلَاصُ ، وَالْخَوْفُ ، فَيَعْلَمُ أَوَّلاً الطَّرِيقَ ، وَإِلاَّ فَهُوَ أَعْمَى ، ثُمَّ يَعْمَلُ بِالْعِلْمِ وَإِلَّا فَهُوَ مَحْجُوبٌ ، ثُمَّ يُخْلِصُ الْعَمَلَ وَإِلَّا فَهُوَ مَغْبُونٌ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَخَافُ وَيَحْذَرُ مِنَ الْآفَاتِ إِلَى أَنْ يَجِدَ الْأَمَانَ ، وَإِلاَّ فَهُوَ مَغْرُورٌ ، وَلَقَدْ صَدَقَ ذُو النُّونِ حَيْثُ قَالَ : الْخَلْقُ كُلُّهُمْ مَوْتَى إِلَّا الْعُلَمَاءَ ، وَالْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ نِيَامٌ إِلاَّ الْعَامِلِينَ ، وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ مُغْتَرُّونَ إِلاَّ الْمُخْلِصِينَ ، وَالْمُخْلِصُونَ كُلُّهُمْ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ .

قُلْتُ أَنَا : وَالْعَجَبُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ أَرْبَعَةٍ ، أَحَدُهَا : مِنْ عَاقِلٍ غَيْرُ عَالِمٍ ، أَمَا يَهْتَمُّ بِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَمَا يَتَعَرَّفُ مَا هُوَ مُطَّلِعٌ بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي هٰذِهِ الدَّلَائِلِ وَالْعِبَرِ وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى هٰذِهِ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ وَالِانْزِعَاجِ بِهٰذِهِ الْخَوَاطِرِ وَالْهَوَاجِسِ فِي النَّفْسِ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ)

(من أربعة : العلم والعمل والإخلاص والخوف فيعلم) العبد (أولا) أى قبل الشروع فى العمل (الطريق وإلا) يعلم ذلك (فهو أعمى ثم يعمل بالعلم وإلا) يعمل بمقتضى علمه (فهو محجوب) عن مطلوبه (ثم يخلص العمل وإلا) يخلصه (فهو مغبون ثم لا يزال) العبد (يخاف ويحذر من الآفات) المهلكات لعمله (إلى أن يجد الأمان وإلا) يخاف ويحذر منها (فهو مغرور) ومخدوع (ولقد صدق ذو النون) المصرى رحمه الله حيث قال : (الخلق كلهم موتى) جمع ميت (إلا العلماء ، والعلماء كلهم نيام) جمع نائم (إلا العاملين والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصين ، والمخلصون كلهم على خطر عظيم) وكذا قال سهل إن عبد الله رحمه الله : الناس كلهم موتى إلا العلماء ، والعلماء سكارى إلا العاملين ، والعاملون مغرورون إلا المخلصين ، والمخلصون على وجل حتى يعلم بما يختم لهم به هكذا أورده صاحب القوت (قلت أنا والعجب كل العجب من أربعة : أحدها من عاقل غير عالم أما يهتم بمعرفة ما بين يديه) من الأهوال (أما يتعرف) أى يطلب أن يعرف (ما هو مطلع بعد الموت عليه) من الثواب أو العقاب (بالنظر فى هذه الدلائل والعبر) . جمع عبرة (والاستماع إلى هذه الآيات والنذر) أى الأمور المنذرة (والانزعاج) أى، التحريك (بهذه الخواطر) جمع خاطر وهو ما يخطر فى القلب من تدبير أمر (والهواجس) بمعنى ما قبله ، فى المصباح هجس الأمر بالقلب هجسا من باب قتل وقع وخطر فهو هاجس (فى النفس) أى فى القلب (قال الله تعالى (أو لم ينظروا) يعنى أهل مكة نظر اعتبار واستدلال (فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) أى وفيما خلق مما يقع عليه اسم الشىء من أجناس لا يحصرها العدد والمقصود التنبيه

وَقالَ تعالى : (أَلاَ يَظُنُّ أُولٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) وَالثَّانِي مِنْ عَالِمٍ غَيْرِ عَامِلٍ بِالْعِلْمِ ، أَمَا يَتَفَكَّرُ مَا يَعْلَمُ يَقِيناً مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعِظَامِ وَالْعَقَبَاتِ الصِّعَابِ ، وَهٰذَا هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ الَّذِى أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ . وَالثَّالِثُ مِنْ عَامِلٍ غَيْرِ مُخْلِصٍ ، أَمَا يَتَأَمَّلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) . وَالرَّابِعُ مِنْ مُخْلِصٍ غَيْرِ خَائِفٍ ، أَمَا يَنْظُرُ إِلَى مُعَامَلاَتِهِ جَلَّ جَلاَلُهُ مَعَ أَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَخَدَمِهِ الدَّالَّةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، حَتَّى يَقُولُ لِأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَيْهِ : (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ) الْآيَاتِ

على أن الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والأرض ، بل كل شيء خلق الله سبحانه وتعالى وبرأه فيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وآثار قدرته كما قال الشاعر :

وفى كل شيء له آية　　　تدل على أنه واحد

(وقال تعالى « ألا يظن) أى ألا يعلم ويستيقن (أولئك) أى الذين يفعلون هذا الفعل وهم المطففون (أنهم مبعوثون) محيون (ليوم عظيم) وهو يوم القيامة وعظمه لعظم ما يكون فيه (والثانى من عالم غير عامل بالعلم أما يتفكر ما يعلم يقينا مما بين يديه من الأهوال العظام والعقبات الصعاب وهذا) أى الذى يعلمه العالم غير العامل يقينا بعلمه مما ذكر (هو النبأ العظيم) أى الخبر العظيم الشأن (الذى أنتم عنه) أي عن ذلك النبأ (معرضون . والثالث من عامل غير مخلص ، أما يتأمل) ويتفكر (قوله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه) أى يأمل حسن لقائه (فليعمل عملا صالحا) يرتضيه الله (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) بأن يرائيه أو يطلب منه أجرا ، روى أن جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأعمل العمل لله فاذا اطلع عليه سرنى ، فقال عليه الصلاة والسلام « إن الله لا يقبل ما شورك فيه » فنزلت تصديقا له ، وعنه عليه الصلاة والسلام « اتقوا الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر ؟ قال الرياء » والآية جامعة لخلاصتى العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص فى الطاعة . (والرابع من مخلص غير خائف ، أما ينظر إلى معاملاته جل جلاله مع أصفيائه) تعالى (وأوليائه وخدمة الدالة بينه) سبحانه (وبين خلقه حتى يقول لأكرم الخلق) صلى الله عليه وسلم (عليه) أى عنده (ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك) أى من الرسل عليهم السلام (الآيات) أى اقرأ آخرها ، وهو قوله « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله

وَنَحْوِها ، حَتَّى حُكِيَ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : « شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » .

ثُمَّ جُمْلَةُ الْأَمْرِ وَتَفْصِيلُهُ مَا قَالَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) ثُمَّ قَالَ جَلَّ اسْمُهُ : (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ

الله فاعبد وكن من الشاكرين » (ونحوها) أى الآيات المذكورة (حتى حكى أنه عليه) الصلاة و (السلام يقول : شيبتنى هود وأخواتها) رواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر والترمذى فى الشمائل وأبو يعلى والطبرانى من حديث أبى جحيفة : وأخواتها سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون كما فى رواية الترمذى والحاكم من حديث ابن عباس . قال العلماء رضى الله عنهم لعل ذلك لما فى سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى « ألا بعدا لعاد قوم هود ، ألا بعدا لثمود ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود » فهذا هو الذى شيبه صلى الله عليه وسلم مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لوشاء لآتى كل نفس هداها ، وفى سورة الواقعة قوله تعالى « ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة » أى جف القلم بما هو كائن ، وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانو مرفوعين فى الدنيا . وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا ، وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى « وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت » وفى عم يتساءلون « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » الآية وقوله تعالى « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر وتأمل (ثم جملة الأمر وتفصيله ما قاله رب العالمين فى أربع آيات من الكتاب العزيز قوله عز وجل « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ») أى لعبا وباطلا لا لحكمة ، وقيل العبث معناه لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل (وأنكم إلينا لا ترجعون) أى فى دار الآخرة للجزاء روى البغوى بسنده عن الحسن « أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه فى أذنه » أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » حتى ختم السورة فبرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بماذا رقيت فى أذنه ؟ فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال » (ثم قال جل اسمه) « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » (ولتنظر نفس) نكر النفس تقليلا للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة (ما قدمت لغد) أى لينظر أحدكم : أى شىء قدم لنفسه من الأعمال عملا صالحا ينجيه أم سيئا يوبقه ، والمراد بالغد يوم القيامة وقربه على الناس كأن يوم القيامة يأتى غداً وكل ما هو آت فهو قريب واتقوا الله قيل كرر الأمر بالتقوى تأكيدا ، وقيل معنى الأول اتقوا الله فى أداء الواجبات ، ومعنى الثانى واتقوا الله فلا تأتوا

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) ثُمَّ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) ثُمَّ أَجْمَلَ لِلْكُلِّ فَقَالَ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ كُلِّ مَازَلَّ بِهِ الْقَدَمُ أَوْ طَغَا بِهِ الْقَلَمُ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كُلِّ أَقَاوِيلِنَا الَّتِي لَا تُوَافِقُ أَعْمَالَنَا ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كُلِّ مَا ادَّعَيْنَاهُ وَأَظْهَرْنَاهُ مِنَ الْعِلْمِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى ، مَعَ التَّقْصِيرِ فِيهِ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ

المنهيات (إن الله خبير بما تعملون) فيه تحريض على المراقبة لأن من علم وقت فعله أن الله مطلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه (ثم قال جل من قائل « والذين جاهدوا) اطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين (فينا) اى فى حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا (لنهدينهم سبلنا) قال أبو عمرو : أى لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقا ، وعن الدارانى : والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى مالم يعلموا . فقد قيل : من عمل بما علم وفق لما لا يعلم ، وقيل إن الذى نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو لتقصيرنا فيما نعلم ، وعن فضيل : والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به ، وعن سهل : والذين جاهدوا فى إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة ، وعن ابن عطاء جاهدوا فى رضانا لنهدينهم إلى الوصول محل الرضوان ، وعن ابن عباس : جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا ، وعن الجنيد : جاهدوا فى التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص أو جاهدوا فى خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا أو جاهدوا فى طلبنا تحريا لرضانا لنهدينهم سبل الوصول الينا (ثم أجمل) الله تعالى (لكل ، فقال وهو أصدق القائلين ومن جاهد) نفسه بالصبر على طاعة الله أو الشيطان بدفع وساوسه أو الكفار (فإنما يجاهدلنفسه) لأن منفعة ذلك ترجع اليها (إن الله غنى عن العالمين) أى عن أعمالهم وعباداتهم ، وفيه بشارة وتخويف . أما البشارة فلأنه إذا كان غنيا عن الأشياء فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عبيده لا شيء عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء التام ، وأما التخويف فلأن الله إذا كان غنيا عن العالمين فلو أهلكهم بعذابه فلا شيء عليه لاستغنائه عنهم (ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازل به القدم أو طغا) أى جاوز الحد (به القلم) فى كتابنا هذا المسمى بالمنهاج وفى سائر كتبنا (ونستغفره) تعالى (من كل أقاويلنا التى لا توافق أعمالنا ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم) والبصيرة (بدين الله تعالى مع التقصير فيه) أى فيما ادعيناه وأظهرناه (ونستغفره) سبحانه وتعالى من علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير

مِنْ كلِّ خَطِرَةٍ دَعَتْنَا إِلَى تَصنُّعٍ وَتَزَيُّنٍ فى كِتَابٍ سَطَّرْنَاهُ أَوْ كَلَامٍ نَظَّمْنَاهُ أَوْ عِلْمٍ أَفَدْنَاهُ ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ يَامَعْشَرَ الْإِخْوَانِ ، بِمَا عَلِمْنَاهُ عَامِلِينَ ، وَلِوَجْهِهِ بِهِ مُرِيدِينَ ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَهُ وَبَالًا عَلَيْنَا ، وَأَنْ يَضَعَهُ فى مِيزَانِ الصَّالِحَاتِ إِذَا رُدَّتْ أَعْمَالُنَا إِلَيْهِ ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ .

قَالَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَهَذَا مَاأَرَدْنَا أَنْ نَذْكُرَهُ فِي شَرْحِ كَيْفِيَّةِ سُلُوكِ طَرِيقِ الآخِرَةِ ، وَقَدْ وُفِّينَا بِالْمَقْصُودِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى بِنِعْمَتِهِ تُتِمُّ الصَّالِحَاتِ ، وَبِفَضْلِهِ تَنْزِلُ الْبَرَكَاتُ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى خَيْرِ مَوْلُودٍ دَعَا إِلَى أَفْضَلِ مَعْبُودٍ ، مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا ، طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره (من كل خطرة دعتنا إلى تصنع) وتكلف (وتزين) للناس (فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه) أو استفدناه (ونسأله) تعالى (أن يجعلنا وإياكم يا معشر الإخوان بمـا علمناه عاملين ولوجهه) تعالى (به) أى بما علمناه (مريدين وأن لا يجعله) أى ما علمناه (وبالا) أى ثقيلا (علينا وأن يضعه فى ميزان) أعمالنا (الصالحات إذا ردت أعمالنا إلينا إنه) تعالى (جواد كريم . قال الشيخ) الأمام حجة الأسلام أبو حامد الغزالى مؤلف هذا الـكتاب (رضى الله عنه فهذا) الذى ذكرناه (ما أردنا أن نذكره فى شرح كيفية سلوك طريق الآخرة ، وقد وفينا بالمقصود) من الشرح المذكور (والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تنزل البركات ، وصلى الله على خير مولود) وأفضله على جميع العالمين (دعا إلى) طاعة (أفضل معبود) سبحانه وتعالى (محمد النبى وعلى آله) أى أتباعه ولو عصاة لأن العاصى أحوج إلى الدعاء من غيره ، وقد قالوا إن المناسب لمقام الدعاء التعميم ، فالأولى تفسير الآل بمطلق الأتباع ، وأما فى مقام المدح ، فالمناسب تفسيرهم بالأتقياء ، وأما فى مقام الزكاة فيفسرون ببنى هاشم وبني المطلب عندنا معشر الشافعية ، وعند السادة المالـكية يفسرون ببنى هاشم فقط (وسلم تسليما كثيرا) وإنمـا أكد السلام ولم يؤكد الصلاة كما فى الآية الشريفة لأنه اكتفى عن تأكيدها بقول الله وملائـكته لها فى الآية كما قال الله تعالى « إن الله وملائـكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنو صلوا عليه وسلموا تسليما » (طيبا) أى خالصا عن الرياء والسمعة (مباركا فيه) أى كثير الخير الظاهر أنه تأكيد للأول ، وقيل الأول بمعنى الزيادة ، والثانى بمعنى البقاء ، قاله شيخ الإسلام فى تحفة البارى (على كل حال) وبه انتهى الـكتاب .والله سبحانه وتعـالى أعلم .

قال جامعه ومهذبه غفر الله ذنوبه وستر فى الدارين عيوبه بمنه وكرمه آمين : هذا آخر ما يسره الله تعالى من الشرح المبارك إن شاء الله ، وأرجو من الله أن يجعله فى حيز القبول فانه كريم جواد يعطى كل مأمول ، والمرجو ممن يطلع عليه أن يدعو لى بالخير والمباعدة عن كل شر وضير وأن يقيل العثرات ويعفو عن السيئات لأنى لم أكن مدعيا فيه البراءة من الغلط والنسيان ، والمقر بذنبه يسأل الصفح والغفران ، وأستودع الله تعالى نفسى ودينى وخواتيم عملى وما أنعم به على ربى ، وهذا الكتاب فانه سبحانه إذا استودع شيئا حفظه .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه ، وسلم تسليما كثيرا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وكانت مدة تهذيبه مع شواغل الدهر وإبلائه ثمانية أشهر إلا أياما آخرها فى نهار الثلاثاء التاسع والعشرين من شعبان المكرم الذى هو من شهور سنة إحدي وخمسين بعد الثلثمائة والألف من هجرة من له تمام العز والشرف ، وذلك بمنزلى فى محلة جمفس ببلد كديرى من بلاد جاوه حرسها الله تعالى وسائر بلاد المسلمين ، والحمد لله فى البدء والختام ما كرت الدهور ومرت الأعوام ، وصلى الله على نبيه وآله الكرام وسلم .

تقاريظ

أصحاب الفضيلة العلماء الكرام لكتاب سراج الطالبين

وحين أمعن النظر . وحقق أمر هذا الكتاب وسبر . حضرة العلامة شمس بهجة الفضلاء . ودرة عقد ذوى التحقيق النبلاء . الأستاذ الكبير . والفهامة الشهير . أعجوبة الزمان . ومعدن الفضل والعرفان . من أضاءت فى سماء الفضل شمس علاه . وتجلت بسنا أفهامه العقول والشفاه . الشيخ [محمد هاشم بن أشعرى الجمبنى] لا زالت تتوالى عليه سحائب رحمة ربه الغنى ، قرظه فقال حفظه الله وأدام علاه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أوضح معالم الطريق للسالكين ، ونشر أعلام الحقائق للسائرين ، وألبس قلوب الخلاصة من عبيده ملابس العرفان ، وحفظهم من بين عبيده من الأهواء ووساوس الشيطان ، والصلاة والسلام على ينبوع الحكمة والحكم ؛ سيد العرب والعجم ، خاتم النبيين وأشرف المرسلين ، الهادى إلى منهاج العابدين ، وعلى آله وأصحابه حملة الكتاب المستبين ، الذابين عن الدين بالسيوف القواطع ، القائمين على استخراج الأدلة بالكلم الجوامع .

أما بعد : فان حياض العلوم على صفحات الدهر لا تزال متدفقة ، ورياض الفنون مثمرة مورقة موفقة ؛ وايم الله إنها لأشرف البضائع وأربح البضائع ، أربابها فى ترق وارتفاع ، والمشتغل بها لم يزل فى نفع وانتفاع ، وإن أعظمها قدرا ، وأجملها ذكرا هو علم التصوف ، الذى يصفي القلوب ويزكى الطبع ، فهو أصل وما سواه فرع ، إذ هو المتعلق بالحضرة الإلهية ، وسبيل النجاة والسعادة الأبدية ، هذا وإن من أحسن ما صنف فى هذا الباب ، وأحسن ما يقتنيه ذوو الألباب الكتاب المسمى (سراج الطالبين . على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين) للعالم العلامة ، الحبر البحر الفهامة ، الأديب الألمعى ، واللبيب اللوذعى الشيخ (إحسان بن المرحوم محمد دحلان الجمفسى الكديرى) حفظه الملك القوى عن الشين الدنيوى والأخروى ، وهو كتاب مشحون بالفوائد ، وبما يسر الطلاب من الفوائد ، وما يستلذ به من الفرائد ، شكر الله سعى مؤلفه المبرور ، وأفاض وضاعف له النور والأجور :

وهذا كتاب للتصوف زبدة ... سفر بأسرار الشريعة مفعم

وإنى أهنى كل من ظفرت به ... يداه فهذا مغنم المتفهم

البائس الفقير إلى ربه الغنى
محمد هاشم أشعرى الجمبنى

وحين سرح نظره الكريم فى صفحات هذا الكتاب ، حضرة الأجل الأفخم ، والعلامة الجليل الأكرم ، الأستاذ الكامل ، والفهامة الفاضل الشيخ (عبد الرحمن بن عبد الكريم السكرفى ثم العنجوئى) قدس الله أسراره ، وحباه قربه ، وأجزل أنواره ، مدحه بقوله حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يامن هو المحمود على الحقيقة ، ونسألك أن توفقنا لاتباع الشريعة والطريقة ، ونصلى ونسلم على من أنزل عليه « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن نصره ووالاه .

وبعد : فإنى سرحت نظرى فى كتاب (سراج الطالبين على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين) فإذا هو منهج مستقيم لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ؛ ومرشد بالغ لكل ضال وحائر ؛ جمع فيه مؤلفه من خفايا الفوائد الشاردة ، وأوعي فيه من خبايا الفرائد العائدة ، فصار فلكا مشحونا لمريد الشريعة والطريقة ، وحبكا مكنونا بعبارته السهلة الرائقة الدقيقة ، ألا وهو العالم العلامة المسدد ، والحبر البحر الفهامة الممدد ، حضرة حبى الشيخ (محمد إحسان بن المرحوم حضرة الشيخ محمد دحلان الجمفسى الكديرى) حفظه الله تعالى عما وصمه وشان ، ومتع بأيام بقائه بنى الإنسان ، وحقق لنا وله القبول ، وأنالنا وإياه غاية المأمول آمين :

كتاب به كل اللآلئ تبرقت	وسفر غدا كل المعانى به محوى
كتاب به كل المعانى تجمعت	وسفر بدا كل الغوالى به مروى
فحىّ على ذاك الكتاب فانه	يقينا سراج الطالبين عن المهوى

(قاله بفهمه ورقمه بقلمه محبه عبد الرحمن بن عبد الكريم السكرفى عاملهم المولى بلطفه الجلى والخفى)

وقد قرظه الفاضل والملاذ الكامل الشيخ محمد يونس بن عبد الله الكديرى فقال حفظه الله :
الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على أفضل خلقه ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد : فقد طالعت بعض المواضع من هذا الشرح البديع ، فألفيتها من خير ما يهدى للعلماء والطلاب فى هذا الباب ، جزى الله مؤلفها خير الجزاء وأكثر فى العلماء من أمثاله ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . آمين .

(الفقير إلى رحمة ربه الرحيم : محمد يونس عبد الله الكديرى)

وقد اطلع على هذا الكتاب أعمامنا الأئمة الأعلام ، وأولوا الفضل والكرم فمدحوا عليه بالحسن والإتقان والأحكام ، منهم العلامة الشيخ محمد خازن بن صالح الساكن فى قرية بندافارى متع الله الأنام بوجوده ، وأعاد علينا من نفحاته وجوده ، ومنهم العلامة الشيخ محمد معروف ابن عبد المجيد الكدنلونى الكديرى أمد الله فى وجوده ، وجعله مقرا لبره وجوده ، ومنهم العلامة الشيخ عبد الكريم المشهور بالمناب الساكن فى ليربيا الكديرى ، أدام الله كماله وأعلى فى الدارين قدره .

فهرس

الجزء الثانى من سراج الطالبين

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

[م]

بحمد الله وحسن توفيقه تم طبع

سراج الطالبين

على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين

مصححا بمعرفة لجنة التصحيح برياسة الشيخ أحمد سعد على

بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده

[١٩٥٦/٤٠٠٠/١/٥]

القاهرة فى { ٢٩ جماد أول سنة ١٣٧٥ هـ
١٢ يناير سنة ١٩٥٦ م }

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبى